أصول التأليف الجغرافى عند الأندلسيين

تمهيد : ١ — الجغرافية عند المسلمين وتراث الهنود والفرس واليونان

ظهر علم الجغرافية فى الأندلس مع علم التاريخ فى آن واحد كما هو الحال فى المشرق ، فكما كان هشام بن محمد السائب الكلبى (توفى ٢٠٤ أو ٢٠٦) وأبو حنيفة الدينورى (توفى ٢٨٢ / ٨٩٥) وابن قتيبة (توفى ٢٧٦ / ٨٨٩) وابن واضح اليعقوبى (توفى ٢٨٤ / ٨٩٧) وغيرهم من رواد علم التاريخ فى المشرق رواداً لعلم الجغرافية فى نفس الوقت ، وأثرت عنهم وعن معاصريهم المؤلفات الصغيرة والكبيرة فى هذه الناحية أو تلك من نواحى جغرافية الجزيرة العربية والعالم الإسلامى[1] ، فكذلك كان أول مؤرخ أندلسى كبير وهو أحمد ابن محمد الرازى مؤرخاً وجغرافياً . بل هو الذى وضع أساس هذين العلمين فى الغرب الإسلامى .

ذلك أن التاريخ والجغرافية كانا فى نظر العرب فرعين متلازمين من شجرة المعارف العامة التى كانت تسمى « الأدب » بصورة عامة ، فكما كان من الضرورى للعربى أن يعرف لغته ، نثرها ونظمها وشعراءها وكتابها ، فكذلك

(١) راجع فى هذه النقطة ما كتبه نفيس أحمد فى كتابه القيم « جهود المسلمين فى الجغرافيا » ترجمة فتحى عثمان (مجموعة الألف كتاب ، رقم ٢٧٢) القاهرة ، بدون تاريخ ، وخاصة الفصل الثانى ص ٤٢ وما يليها .

كان لا بد له أن يعرف أنساب العرب وأخبارهم وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأخبار الفتوح الإسلامية وتواريخ الخلفاء والدول ، وكان لزاماً عليه — إكمالا لثقافته — أن يعرف بلاد الإسلام ومدائنها والطرق إليها مع ما يتيسر من أحوال أهلها وصفاتهم وعاداتهم . ومن هنا فإنه من العسير أن تفصل بين المؤرخ والجغرافى والأديب فى تاريخ الفكر الإسلامى . ولو أننا تناولنا كتاباً أدبياً صرفاً كالبيان والتبيين للجاحظ ودرسناه دراسة تدقيق لاستخرجنا منه من المعلومات التاريخية الصرفة والملاحظات الجغرافية الخالصة ما يضع أبا عثمان عمرو بن بحر فى صفوف المؤرخين والجغرافيين . وقد أفاض فى هذه الناحية شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموى فى فاتحة « معجم البلدان »[1] .

وإن من يقرأ هذه المقدمة وما يماثلها من مقدمات كتب البلدان كفاتحة « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » لأبى عبد الله محمد بن أحمد المقدسى ليتبينُ بوضوح أن الاتجاه إلى التأليف فى الجغرافية لم يصدر عند المسلمين عن مجرد الرغبة فى معرفة طرق الحج ، كما يذهب عامة المؤلفين الغربيين المحدثين ومن تابعهم من كتاب العرب ، فإن طرق الحج كانت معروفة مقررة لا يحتاج طالب الحج إلى الاطلاع على كتاب ليعرفها ، ثم إن الحاج كان يخرج فى ركب كبير يقوده أدلاء عارفون بالطرق ومسالكها ، وقلما كان أولئك الأدلاء ممن يقرأون الكتب . ومن المستبعد أن نتصور أدلاء قوافل الحج يسيرون على هدى ما كتبه الاصطخرى وابن رستة مثلا ، بل الأصح أن مؤلفى هذه الكتب كانوا يسترشدون بالأدلاء فيما يكتبون . إنما صدر التأليف فى الجغرافية عند المسلمين عن ذلك النزوع العام نحو المعرفة الذى امتازت به أمم الإسلام فى عصر

---

(١) ياقوت الحموى ، كتاب معجم البلدان ، طبعة الساسى ، القاهرة ١٩٠٦ ، ج ١ ص ٢ وما يليها .

النهوض ، وهو مظهر من مظاهر الشعور بالعزة الذى يصاحب الأمم الصاعدة ، والعلم — كما يقولون — سيادة[1] .

ولو أن العلم الجغرافى عند المسلمين سار فى طريقه وتطور فى اتجاهه البسيط الأول ، وهو جمع المعلومات عن الأرض وأهلها لكان توفيق المسلمين فى ميدان الجغرافية أعظم مما وصلوا إليه ، ولما وقعوا فى أخطاء كبيرة فى تحديد المواقع والتعريف بمواضع القارات والمحيطات ومجارى الأنهار وما إلى ذلك . ولكن اتصالهم بإيران والهند جلب إليهم نظريات جديدة أصبحت بعد ذلك أساساً لاتجاه جديد للتأليف الجغرافى عندهم ، وهو الاتجاه الكونى أو الفلكى الذى سنشير إليه بعد قليل ؛ وعلى الرغم من أن بعضهم استبان أن هذا الاتجاه الهندى الإيرانى يقوم على نظريات وهمية لا تستند إلى أساس من بحث أو تحقيق ، فإنهم مضوا فيه وزادوا عليه ، واجتهد بعضهم فى ضبطه وتحقيقه فلم يصلوا إلى نتيجة ، لأن الأساس نفسه كان خاطئاً .

---

(١) راجع مثلا قول المقدسى فى مقدمة أحسن التقاسيم : « ووجدت العلماء قد سبقوا إلى العلوم ، فصنفوا على الابتداء ، ثم تبعتهم الأخلاف فشرحوا كلامهم واختصروه ، فرأيت أن أقصد علماً قد أغفلوه ، وأنفرد بفن لم يذكروه إلا على الإخلال ، وهو ذكر الأقاليم الإسلامية وما فيها من المفاوز والبحار والبحيرات والأنهار . . . وعلمت أنه باب لا بد منه للمسافرين والتجار ، ولا غنى عنه للصالحين والأخيار ، إذ هو علم ترغب فيه الملوك والكبراء ، وتطلبه القضاة والفقهاء وتحبه العامة والرؤساء . . . » .

تحقيق دى خوية (الطبعة الثانية ١٩٠٦ ، ص ١ و ٢

وقول ابن حوقل فى مقدمة صورة الأرض : « وكان مما حضنى على تأليفه وحثنى على تصنيفه وجذبنى إلى رسمه أنى لم أزل فى حال الصبوة شغفاً بقراءة كتب المسالك ، متطلعاً إلى كيفية البين بين الممالك فى السير والحقائق ، وتباينهم فى المذاهب والطرائق . . . وترعرعت فقرأت الكتب الجليلة المعروفة والتواليف الشريفة الموصوفة ، فلم أقرأ فى المسالك كتاباً مقنعاً ، وما رأيت فيها رسماً متبعاً ، فدعانى ذلك إلى تأليف هذا الكتاب . . . » .

صورة الأرض ، تحقيق ج. ه. كرامرز ، لايدن ١٩٣٨ ، ج ١ ص ٣

وانظر أيضاً فى هذا المعنى مقدمة كتاب البلدان لأحمد بن واضح الكاتب المعروف باليعقوبى ، ليدن ١٨٦٠ ص ٢ — ٣

وأهم هذه النظريات تقسيم الأرض إلى أقاليم سبعة ، والقول بأن للأرض خط طول رئيسياً يمر بما سموه « قبة العَرِين » وهو تحريف لاسم موضع زعموا أن الهنود أقاموا فيه مرصداً اتخذوه أساساً لخطوط الطول الأخرى ، مع أن « العرين » هذا كان اسماً اصطلاحياً لجزيرة وهمية بين الهند والحبشة ذكرها ديودور الصقلى باسم أورانوس . وعلى أساس هذا الوهم رسموا خطوط طول وهمية حافلة بالخطأ ، وجعلوها تتقاطع مع خطوط عرضٍ وهمية هى الأخرى أخذوها من حدود الأقاليم السبعة وأجزائها ، واجتهدوا فى أن يضعوا المعالم الجغرافية على هذه الشبكة التخيلية ، فكان من ذلك أن اضطربت صورة الأرض فى أذهانهم .

وزادهم استمساكاً بهذه النظريات نقل كتابى الجغرافية والمجسطى لبطليموس الاسكندرى إلى العربية ، فقد فتنوا بهما وترجموهما أكثر من مرة خلال القرن التاسع ومنتصف العاشر ، وزادهم إقبالا على بطليموس أنهم وجدوه يؤكد نظرية الأقاليم السبعة ويكمل ما أخذوه من الهنود بمعلومات طريفة عن الجانب الغربى للأرض ، ويربط بين الأجرام السماوية والأماكن الأرضية ، فثبتوا على القول بذلك ونقلوا عن بطليموس نقولا محرفة جعلت معلوماتهم خارج مملكة الإسلام مجموعة أوهام وتصورات وعجائب وخوارق ، هذا إلى الخلط الشديد فى تحديد مواضع الأمكنة والبقاع داخل العالم الإسلامى نفسه ، ومن هنا فإن سلسلة الجغرافيين الفلكيين التى تبدأ بمحمد بن موسى الخوارزمى صاحب كتاب « صورة الأرض » تعتبر من أقل ما ألف المسلمون فى الجغرافية قيمة من الناحية العلمية . ومع أن المدققين المحققين من علماء الإسلام استبانوا فيما بعد خطأ الجغرافية البطليموسية ، فإنهم لم يستطيعوا التحلل من القول بالأقاليم السبعة وخطوط الطول الوهمية وتشويش أذهانهم بها . ومثال ذلك أن أبا الريحان البيرونى استبان خطأ الحساب البطليموسى ، وتبين أن هناك أماكن كثيرة « نجدها

الآن مبينة فى الجغرافية البطليموسية إلى الشرق من أماكن أخرى فى حين أنها تقع إلى غربها والعكس بالعكس » إلا أنه استمر يقول بالأقاليم السبعة بما عرضه لكثير من الخطأ (١) .

بيد أن البيرونى استطاع بعبقريته الفذة أن يعود بعلم الجغرافية عند العرب إلى قواعده الأولى : قواعد المشاهدة والرحلة والتجربة الشخصية ، فقد رحل

---

(١) كان وصول آراء الهنود والإيرانيين فى الفلك والجغرافية إلى العرب سابقاً على معرفتهم لآراء الإغريق ، فقد ترجم المسلمون كتابى السادهانتا (السند هند) وأركاندا اللذين ألفهما براهما جوبتا حوالى سنة ٧٧١/١٥٤ وقام على الترجمة نفر من الهنود ورواد الفلك والجغرافية المسلمين مثل ابراهيم ابن حبيب الفرارى ويعقوب بن طارق وغيرهما . وعن الهنود أخذ العرب القول بالخط الذى يقسم القبة السماوية ويمر بموقع أرين أو العرين . ثم قسموا دائرة القبة بعد ذلك إلى ٣٦٠ قسما سمى كل قسم منها درجة ويمر بكل منها خط من خطوط الطول . أما كلاوديوس بطليموس الاسكندرى فقد عاش فى القرن الثانى المسيحى ، وقد عرف العرب مؤلفه الرياضى الكبير « جامع الرياضيات He Mathematike Syntaxis » الذى اشتهر بعد ذلك باسم Magiste وعربه العرب أيام المأمون إلى المجسطى وعنهم أخذ علماء أوروبا فى العصور الوسطى ذلك الكتاب باسمه العربى Almageste وقد جمع بطليموس فيه كل النتائج التى وصل إليها سابقوه من الفلكيين الإغريق وخاصة هيباركوس . أما كتاب بطليموس الثانى الذى يسميه المسلمون « جغرافيا » فهو كتاب « دليل الجغرافية Geographike Huphegesis » ولم ينشر نصه الاغريقى إلا فى سنة ١٥٣٣ فى مدينة بازل بسويسرا بتحقيق ارازموس ، أما قبل ذلك فقد كان عماد الناس فى الرجوع إليه على ترجمات لاتينية عملت مباشرة أو عن العربية ، وسبب أهميته أنه قال إنه لا يمكن رسم خريطة للأرض إلا على أساس تقسيمها إلى أقاليم Klimata أى مناطق عرضية ، وقد أخذ هذا القول عن هيباركوس . أما خطوط الطول فيحتمل أن يكون قد أخذها عن هيباركوس أيضاً ، وهذا أخذها عن مرينوس الصورى ، وهو الذى نقل هذا المفهوم الهندى إلى الاغريق ناقلا الخط الرئيسى من قبة العرين إلى جزائر الخالدات أو فرطناطش . وقد جعل بطليموس خط الاستواء أعلا بكثير مما هو فى الحقيقة ، ثم تصور حدود الأقاليم السبعة بعد ذلك موازية له شمالا . وجغرافية بطليموس ليست إلا جدولا لتقسيم سطح المعمور من الأرض مع ذكر أسماء البلاد والنواحى فى منطقة البحر الأبيض على الخصوص ، ولكنه لا يعطى أى تفاصيل عن المناخ أو السكان أو النبات والحيوان ، وقد أكمل العرب ذلك بمعلوماتهم الواسعة عن نواحى المعمور .

Cf. M. Ninck, *Die Entdeckung Europas durch die Griechen*. Basel 1945.
O. Cuntz, *Die Geographie des Ptolomaios*. Berlin 1923.
H. Berger, *Geshichte der wissenschaftlichen Erdkunde der Griechen*. 3 Bände, Leipzich, 1903.
Ruska, Georg, *Zur geographischen literatur im islamischen Kulturbereich*. Geographische Zeitschrift, Band 33 (1927) pp. 517-589.

بنفسه إلى البلاد التى كتب عنها وسأل واستقصى ، ودون ثمرة ذلك فى كتب فريدة فى نوعها مثل « تحقيق ما للهند من مقولة ، مقبولة فى العقل أو مرذولة » وصنع بيده أدوات الرصد التى أقام عليها كتابه « القانون المسعودى » وسار على منهج الجاحظ فى التأمل والمشاهدة . ووصل إلى ما لم يصل إليه العلم الحديث إلا بعد قرون ، كالقول بأن الكثير من الأرضين كانت أصلها قيعان بحار ، فقال مثلا « فهذه بادية العرب ، وقد كانت بحراً فانكبس ، حتى أن آثار ذلك ظاهرة عند حفر الآبار والحياض بها ، فإنها تبدى أطباقاً (= طبقات) من تراب ورمل ورضراض ، ثم فيها من الخزف والزجاج والعظام ما يمتنع أن يُحمل على دفنٍ قاصدٍ اياها هناك ، بل تخرج منها أحجار إذا كسرت كانت مشتملة على أصداف وودع وما يسمى آذان السمك ، إما باقية على حالها وإما بالية قد تلاشت ، وبقى مكانها متشكلا بشكلها »[1] .

والبيرونى يجرى هنا على الطريقة العقلية الواقعية التى سار عليها رواد الجغرافية العربية مِمَّن نهضوا بذلك العلم العربى الصرف الذى عرف بالمسالك والممالك ، وما أشبه منهجه فى المثل الذى ضربناه بمذهب ابن رستة فى التدليل على كروية الأرض : « أجمعت العلماء على أن الأرض أيضاً بجميع أجزائها من البر والبحر على مثال الكرة ، والدليل على ذلك أن الشمس والقمر والكواكب لا يوجد طلوعها ولا غروبها على جميع مَن فى نواحى الأرض فى وقت واحد ، بل يُرى طلوعُها على المواضع المشرقية قبل غيبوبتها عن المغربية . ويتبين ذلك من الأحداث التى تعرض فى العلو ، فإنه يُرى وقت الحدث الواحد مختلفاً فى نواحى الأرض ، مثل كسوف القمر ، فإنه إذا رُصد بين بلدين متباعدين بين المشرق والمغرب ، فوجد وقتُ كسوفه فى البلد الشرقى منهما على ثلاث ساعات من الليل مثلا ،

---

(١) انظر الفصل القيم عن البيرونى فى كتاب « جهود المسلمين فى الجغرافيا » تأليف نفيس أحمد وترجمة فتحى عثمان (مجموعة الألف كتاب ، رقم ٢٧٢) . القاهرة ، بدون تاريخ .

أقول : وُجد ذلك الوقت فى البلد الغربى على أقل من ثلاث ساعات بقدر المسافة بين البلدين ، فتدل زيادة الساعات فى البلد الشرقى على أن الشمس غابت عنه قبل غيبوبتها عن البلد الغربى[1] » فأين هذا من قول المسعودى فى « التنبيه والاشراف » ناقلا عن اليونان ومتابعاً لهم فى مذاهبهم الفلكية الرياضية ومجملا بعض آرائهم : « قد تنازع الناس فى الفلك ممن سلف وخلف ، فقال أفلاطون وثامِسْطِيُوس والرواقيون وعِدَّةٌ ممن تقدم عصرَ أفلاطون وتأخر عنه من الفلاسفة : إنه من الطبائع الأربع التى هى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، إلا أن الغالب عليه النارية ، وليست ناريَّتُه محرقة ، إنما هى مثل النار الغريزية فى الأبدان . وقال آخرون : إنه من النار والهواء والماء دون الأرض . وذهب ارسطاليس وأكثر الفلاسفة مِمَّن تقدم عصره وتأخر عنه وغيرهم من حكماء الهند والفرس والكلدانيين إلى أنه طبيعة خاصة خارجة عن الطبائع الأربع ، ليست فيه حرارة ولا برودة ولا رطوبة ولا يبوسة ، وأنه جسم مدور أجوف يدور على محورين وهما القطبان ، أحدهما رأس السرطان ، ومنتهى « بنات نعش » من تلقاء نقطة الجنوب ، والآخر رأس الجدى ، وفيه كواكب مثل « بنات نعش » من تلقاء نقطة الشمال . وخط الاستواء فى وسط الفلك ، وهو خطٌّ ما بين الشمال والجنوب ، وأوسع موضع فيه من نقطة المشرق إلى نقطة المغرب . وهو منقسم بأربعة أرباع ، كل ربع منها تسعون درجة على خطين يتقاطعان على مركزه ، وهو موضع الأرض ، منه أحد الرُّبعين ، وهو أحد القطبين ، نقطة الشمال وبأزائه نقطة الجنوب . والربع الثالث نقطة المشرق ، وبأزائه نقطة المغرب . وهو يدور دوراناً طبيعياً دائماً ، وبدورانه ودوران الكواكب التى فيه تنفعل الكيفيات ، وانبسطت الأركان

---

(١) ابن رستة ، أبو على أحمد بن عمر ، كتاب الأعلاق النفيسة . نقل هذه الفقرة ر. بلاشير و هـ. درمون فى « منتخبات من آثار الجغرافيين فى القرون الوسطى » ، الطبعة الثانية ، باريس ١٩٥٧ ، ص ٤٢ — ٤٣

الأربعة وهى الماء والهواء والنار والأرض . . . »[1] . فهذا كلام نقله المسعودى دون أن يحققه ، إذ هو مستحيل التحقيق .

وهذه الآراء وأمثالها هى التى أضعفت التفكير الجغرافى عند المسلمين وأضاعت جهد الكثيرين من علمائهم ، وجعلت العلم الحديث ينظر إليها على أنها أوهام لا تدرس إلا فى مجال البحث عن تاريخ علم الجغرافية وآراء القدماء فيه ، فى حين أن كلام ابن رستة الذى ذكرناه حقيقة علمية ثابتة اليوم يتعلمها التلاميذ فى المدارس .

ومن هنا فإن الخط الحقيقى للجغرافية الإسلامية هو خط « المسالك والممالك » و « البلدان » أو « البرود » ، فهو خط سليم قائم على الرحلة والمشاهدة وسؤال أهل البلاد وتحقيق ما يدلون به من معلومات ومقارنتها بغيرها ودراسة الكتب السابقة ومراجعتها .

وليس بغريب أن يكون الميلاد الحقيقى لهذا النوع هو نفس ميلاد التاريخ العالمى عند المسلمين ، فإن أول من وضع كتاباً فى « البلدان » هو أحمد بن أبى يعقوب ابن واضح الكاتب المعروف باليعقوبى (توفى بعد ٢٧٨ / ٨٩١) وهو واضع أول تاريخ للعالم عند المسلمين . وهذا فى ذاته مثال واضح للارتباط الوثيق بين الجغرافية والتاريخ عند المسلمين . وإليك منهج اليعقوبى كما بينه فى فاتحة كتاب البلدان ، أثبت فقرات منه لأنه يعيّن — فى نفس الوقت — الاتجاه الذى سارت عليه الجغرافية عند الأندلسيين ابتداء من محمد الرازى وابنه أحمد بن محمد ، قال : « إنى عنيت فى عنفوان شبابى وعند احتيال سنى وحدة ذهنى « بعلم أخبار البلدان » والمسافة ما بين كل بلد وبلد ، لأنى سافرت حديث السن ، واتصلَتْ أسفارى ودام تغربى ، فكنت متى لقيت رجلا من تلك

---

(١) المسعودى ، أبو الحسن على بن الحسين بن على : التنبيه والاشراف ، « منتخبات من آثار الجغرافيين فى القرون الوسطى » ، ص ٢١٣ — ٢١٤

البلدان سألته عن وطنه ومقره ، وإذا ذكر لى محل داره وموضع قراره سألته عن بلده ذلك فى . . . لدته[1] ما هى وزرعه ما هو ، وساكنيه من هم : عرب أم عجم ؟ . . . شرب أهله حتى أسأل عن لباسهم . . . ودياناتهم ومقالاتهم والغالبين عليه والمترأسين فيه . . . [وما] مسافة ذلك البلد ، وما يقرب منه من البلدان . . . ثم أثبت كل ما يخبرنى به من اثق بصدقه ، وأستظهر بمسألة قوم بعد قوم ، حتى سألت خلقاً كثيراً وعالماً من الناس فى الموسم وغير الموسم من أهل المشرق والمغرب . وكتبت أخبارهم ورويت أحاديثهم ، وذكرت من فتح بلداً بلداً ، وجنّد مِصْراً مصراً من الخلفاء والأمراء ، ومبلغ خراجه ، وما يرتفع من أمواله ، فلم أزل أكتب هذه الأخبار ، وأؤلف هذا الكتاب دهراً طويلا ، وأضيف كل خبر إلى بلده ، وكل ما أسمع به من ثقات أهل الأمصار إلى ما تقدمت عندى معرفته[2] . . . » .

ومن هذا الاتجاه السليم تفرع أدب الرحلات الذى نعتبره جانباً هاماً من جوانب الجغرافية الإسلامية ، فإن الرحالة جغرافى متنقل ، ووصفُ رحلته مصدر مأمون إلى حد كبير للمعلومات الجغرافية من كل نوع . وإذا كان العربى بطبعه رحالة دقيق الملاحظة متفتح الذهن فقد كان من الطبيعى أن يوفق المسلمون فى هذه الناحية توفيقهم فى أدب المسالك والممالك والبلدان ، بل كان توفيقهم فى هذا الميدان أعظم وأبعد مدى ، حتى أصبحت بعض كتب رحلاتهم من معالم الأدب العالمى .

والرحالة المسلمون الذين أثرت عنهم أوصاف لرحلاتهم من كل نوع وصنف من الناس : فيهم الرسول الذى ترسله الدولة إلى ناحية من النواحى للكشف عن مسألة عاصية مثل سلاّم الذى أرسله الخليفة الواثق (٢٢٧/٨٤٢—٢٣٢/٨٤٧)

---

(١) كذا فى الأصل الذى نشره دى خويه ص ٢ ، والغالب أن هذه بقية كلمة « بلدته » .

(٢) اليعقوبى ، أحمد بن أبى يعقوب بن واضح الكاتب ، كتاب البلدان بتحقيق ميخائيل يانوس دى خويه ، ليدن ١٨٦٠ ص ٢ — ٣

ليستطلع أمر سد ياجوج وماجوج[١] . وفيهم صاحب البريد ، أى من المتولين أمور هذا المرفق الهام من مرافق الإدارة الإسلامية الذى يتولى نقل مراسلات الدولة ورُسُلها ، كما نجد عند أبى الفرج قدامة ابن جعفر (المتوفى بعد سنة ٣٢٠/ ٩٣٢) ، فقد تصدى لكتابة موسوعة شاملة لكل ما يحتاج إليه كتّاب الدولة من المعارف وأسماه « كتاب صناعة الكتابة » اختص منه البرد والطرق بجزء كبير دون فيه معلومات وملاحظات لا تتأتى إلا عن الرحلة والمشاهدة المباشرة ، وهذا الجزء هو الذى نشر بعضه دى خويه (ليدن ١٨٨٩) باسم « كتاب الخراج » . وفيهم الجاسوس الذى ترسله جماعة سياسية دينية لاستطلاع الأخبار وتعرف الأحوال كما نرى فى حالة أبى القاسم محمد بن حوقل النصيبى المتوفى بعد سنة ٣٦٧ / ٩٧٧ . وفيهم الطُّلَعة الذى يرحل لمجرد الرحلة ويكتب ليشبع رغبة فى نفسه كأبى حامد الغرناطى (٤٧٣ — ٥٦٥ / ١٠٨١ — ١٠٦٩—٧٠) ، وفيهم المغامر الذى يتجشم المشاق ويتعرض للأخطار مدفوعاً بشوق عظيم نحو المعرفة كأبى عبد الله محمد بن أحمد المعروف بالمقدسى (توفى بعد ٣٧٨/ ٩٨٨) الذى يبدأ المغامرة فى فاتحة كتابه نفسها ، فينقد سابقيه جميعاً فى أسلوب لاذع لا يغفره له إلا أن كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » أحسن ما ألف المشارقة فى باب المسالك والممالك والبلدان والرحلات . وفيهم السفير الذى يندبه الخليفة للسفارة إلى بلد غريب مثل أحمد بن فضلان (كتب فى أوائل القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) الذى أرسله الخليفة رسولا إلى ملك البلغار فى حوض الفلجا ، فعاد يحكى غرائب أولع الناس بها وبأمثالها ولعاً شديداً فيما بعد ، مثل خبر السمكة التى تخرج كل يوم للناس من البحر فيقطعون حاجتهم من لحمها ثم تعود إلى الماء لترجع إليهم فى اليوم التالى . وفيهم

(١) أورد طرفاً منها ابن خرداذبة فى المسالك والممالك ، طبعة دى خوية ليدن ١٨٨٩ ص ١٦٢ وما بعدها ، وكذلك الإدريسى فى نزهة المشتاق . وكلامه حافل بأحاديث العجائب التى استهولها الجغرافيون المسلمون وشكوا فى صدقها .

الملاح الذى يتحدث عن عجائب البحر مثل بُزُرْج بن شهريار الذى كتب فى نهاية القرنِ الرابع الهجرى / العاشر الميلادى . وفيهم التاجر الذى يقطع آلاف الأميال فى بِرار وقفار ومخاطر ثم يسجل ذكرياته ومشاهداته ، مثل سليمان التاجر (كتب فى نهاية القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى) وقد وصف فى كتابه « سلسلة التواريخ » الرحلة بالبر إلى الصين والهند عن طريق فارس .

ومهما يكن من رأى النقاد المحدثين فى هذه المؤلفات ، فلا شك أنها تعطى فى مجموعها صورة واضحة عن عالم العصور الوسطى سواء داخل مملكة الإسلام أو خارجها ، وهى من هذه الناحية ذات قيمة علمية باقية ، بخلاف ما كُتب اعتماداً على كتب الهنود والفرس واليونان وغيرهم ، فهو غير ذى قيمة حقيقية كما ذكرنا .

أما ما نجده فى ثنايا هذه الكتب من حديث العجائب ، فقد كانوا يكتبونه للتسلية والتشويق دون أن يأخذوها هم وقراؤهم — بحسب — مأخذ الجد ، وقد تجمعت هذه المادة القصصية واندرجت فى ألطف مجموع قصصى أخرجته العصور الوسطى وهو « ألف ليلة وليلة » [1] .

وفى هذين الضربين : المسالك والممالك أو البلدان والرحلات كتب أهل الأندلس والمغرب ووصلوا بهما إلى القمة كما سنرى عند آل الرازى وأبى عبيد البكرى والإدريسى وابن جبير وابن بطوطة ، وسنرى أيضاً كيف نبغوا فى نوع آخر من الرحلات وهو رحلات العلم أى للقاء الشيوخ والأساتذة والأخذ منهم والحديث عنهم ، كما سنرى عند ابن رُشيد الفهرى والعبدرى .

---

(١) انظر عن اتجاهات الجغرافية عند المسلمين وعلاقتها بعلوم اليونان :

César E. Dubler, *Abū Ḥāmid el Granadino y su Relación de Viaje por Tierras Euro-asiátias* (Madrid 1953).

فقد قدم الأستاذ دوبلر لترجمته لنص رحلة أبى حامد بمقدمة وافية أجمل فيها كل آراء المستشرقين عن الجغرافية الاسلامية بأوفى مما فعله ج. هـ. كرامرز فى مادة جغرافية Djughrāfiya التى نشرها فى ملحق الطبقة الأولى لدائرة المعارف الاسلامية ص ٦٢ وما يليها .

٢ — أسس التأليف الجغرافى عند الأندلسيين

على هذين الأساسين السليمين (البلدان أو المسالك والممالك والرحلات) قام التأليف فى الجغرافية عند الأندلسيين ، فلا نحس فى مؤلفاتهم ذلك التأثر البعيد بالنظريات الشرقية واليونانية الذى نجده غالباً على كثير من المؤلفات الجغرافية فى المشرق . وقد عرف الأندلسيون كيف يفيدون من مؤلفات الإغريق واللاتين ومن أخذ عنهم واعتمد عليهم من الاسبان خلال العصر القوطى : أفادوا منهم فى الوصف العام لشبه الجزيرة الأندلسية وما اتصل بها وقرب منها من بلاد أوروبا ، وأفادوا منهم فى تحديد المواقع وتقدير المسافات ، وانتفعوا بهم فيما ذكروا من تاريخ شبه الجزيرة وتاريخ بعض بلدانها فى القديم . ولكنهم لم يتقيدوا بهم فى التقسيم الجامد إلى أقاليم ذات خصائص فلكية أو علاقات ببروج الفلك .

وإذا كان ابن حزم قد أشار إلى أثر الأقاليم التى يقع فيها الأندلس فى أخلاق أهله وملكاتهم فى رسالته المعروفة فى « فضل الأندلس » فقد كان ذلك فى معرض المفاضلة بين الأندلسيين وأهل المشرق ، فكأنه أراد أن يجاريهم فى مذاهبهم ويحاورهم على أسلوبهم ليبين فضل بلاده على بلادهم عند ما قال : « وأما فى قَسْم الأقاليم ، فإن قرطبة ، مسقط رءوسنا ، مع سُرَّ من رأى فى إقليم واحد ، فلنا من الفهم والذكاء ما اقتضاه اقليمنا ، وإن كانت الأنوار لا تأتينا إلا مُغربة عن مطالعها على المعمور ، وذلك عند المحسنين للأحكام التى تدل عليها الكواكب ناقص من قُوى دلائلها ، فلها من ذلك على كل حال حَظٌّ يفوق حظَّ أكثر البلاد ، بارتفاع أحد النَّيِّرَيْن بها تسعين درجة ، وذلك من أدلة التمكن فى العلوم والنفاذ فيها عند من ذكرنا ، وقد صدَّق

ذلك الخبر وأبانته التجربة . . . »[١] وأغلب الظن أن ابن حزم اعتمد فى ذلك على كتاب مشارقة ، لأننا لا نجد أحداً من جغرافيي الأندلس سلك ذلك المذهب الفلكى فى الجغرافية ، فيما عدا على بن سعيد ، وهو متأخر على ابن حزم[٢] .

وغاية ما نجد من تأثر الجغرافيين الأندلسيين بالتقسيم البطليموسى هو اجماعهم على أن الأندلس تقع فى الأقاليم الرابع والخامس والسادس ، وهم يكتفون بذلك لتحديد موقع شبه الجزيرة من « أطلس الإسلام »[٣] ، أى تحديد هذا الموقع بالنسبة لبقية البلاد الإسلامية . ولا يستطردون إلى ما وراء ذلك .

---

(١) ابن حزم ، رسالة فى فضل الأندلس ، نفح الطيب ، طبعة محي الدين (القاهرة ١٩٤٩) ج ٤ ص ١٥٧ — ١٥٨

(٢) قد يكون ابو عبيد البكرى تكلم عن التقسيم إلى أقاليم وأثر ذلك فى أخلاق الناس وملكاتهم فى الجزء الأول من مسالكه الذى خصصه للمقدمات الجغرافية ، ولم يبق لنا من هذا الجزء إلا قطع قليلة أوردها ابن فضل الله العمرى فى الجزء الأول من مسالك الابصار .

(٣) كان أول من استعمل هذا المصطلح ا. ميلر فى مجموع الخرائط القيم الذى نشره تحت عنوان :

A. Miller, *Mappae Arabicae. Arabische Welt und Länderkarten* des 9.—13. *Jahrhunderts.* Bände I-V und Beihäfte. Stuttgart 1929-1930.

وقد جمع فيه كل الخرائط التى توجد فى كتب الجغرافية الاسلامية ورتبها مع شرح يسير ، وكلا الترتيب والشرح لا يخلوان من أخطاء .

وقد جعل ملر لفظ أطلس مرادفاً للفظ « صورة » الذى يستعمله الجغرافيون المسلمون فى مقابل ما نسميه نحن اليوم خريطة (انظر الاصطخرى ، ص ٣) واستعمل لفظ Mappemundi مقابلا لما يسميه المسلمون صورة الأرض . وقد ذهب ملر إلى أن أول من رسم الخرائط بين المسلمين هو أبو زيد أحمد ابن سهل البلخى المتوفى سنة ٣٢٢/٩٣٤ فقد وضع فى سن متقدمة كتاباً سماه « صور الأقاليم » ورجح ملر اعتماداً على إشارة للمقدسى فى فاتحة « أحسن التقاسيم » أن هذا الكتاب كان أطلساً ، أى مجموعة من الخرائط لا يصاحبها إلا نص قصير . وقد ضاع النص ولكن فقرات منه مع معظم الخرائط نقلها الاصطخرى وابن حوقل ، وإلى هذا يرجع التشابه اللفظى تقريباً بين كثير من فقرات فاتحة هذين الكتابين ، ويتضح من هذه الفقرات أن البلخى وضع أطلساً لبلاد الاسلام بالفعل ، فقد جاء فيما نقله الاصطخرى عنه : « ثم أفردت لكل إقليم من بلاد الاسلام صورة على حدة ، بينت فيهـا شكل ذلك الاقليم وما يقع فيه من المدن وسائر ما يحتاج إلى علمه مما آتى على ذكره فى موضعه إن شاء الله تعالى » (ص ٣) .

وانظر ما ذكره كرامرز عن « أطلس الاسلام » فى مادة جغرافية . ملحق دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الأولى) ص ٧٠ ، والمراجع الوافية المعطاة فى آخر هذه المادة (ص ٦٨) ونشير بصفة خاصة إلى كتاب :

Ahmet Zeki Walidi, *Der Islam und die geographische Wissenschaft. Geographische Zeitschrift*, 1934.

٣ — أوصاف الفينيقيين واليونان والرومان لشبه الجزيرة[١]

وقد كتب اليونان والرومان عن شبه الجزيرة كثيراً ، ولا يعنينا هنا مما كتبوه إلا ما يتصل بالنقط التى أفاد المسلمون منهم فيها ، أى ما يتصل بهيئة شبه الجزيرة ومسافاتها . أما ما ورد عند أولئك المؤلفين من إشارات إلى المدن والأعلام الجغرافية فسنذكر ما تمس إليه الحاجة منه فى تعليقاتنا على نص جغرافية شبه الجزيرة الإيبيرية لأحمد بن محمد الرازى التى نرجو أن يتسع المجال لنشرها بعد الفراغ من هذا البحث .

يصف معظم كتاب اليونان والرومان إيبيريا بأنها شبه جزيرة Χερσόνησος أو شبه جزيرة تتسع كلما سرنا نحو الجنوب ακρα أو ακτή كما نجد عند إراتوستينيس ، واكتفى بلينيوس بالقول بأنها رأس كبير بارز من أوربا يربطه بها خليج ضيق Sinus Europae ، وأن هذا الرأس يبرز بين خليجى بسكاية وجنوا . وقد أخذ بهذا الرأي الأخير باولوس أوروزيوس الذي كتب أيام القوط ولكنه يسمى خليج اوروبا Sinus Aquitanicus.

ويسمى استرابون الجزء الضيق الذى يصل شبه الجزيرة بالقارة الأوروبية — وهو الذى تقطعه جبال البرت من طرف لطرف — بالبرزخ ισθμός ، ويصفه مارسيانوس بأنه عنق αὐχήν . وهذا الوصف يقوم على ما كانوا يتصورونه من أن شبه الجزيرة إنما هو بمثابة الرأس لبدن القارة الأوروبية .

وقد صور بعض هؤلاء القدماء شبه الجزيرة على أنه مربع أى يستوى طوله مع عرضه ، وقدروا أن طوله وعرضه ٨٥٠ كيلومتراً . وتصوره بعضهم الآخر على أنه معيّن مقلوب ، ضلعه الأصغر فى الجنوب ، وجعلوا الضلع الأعلى

---

(١) اعتمدت فى هذا الفصل على :

Adolf Schulten, *Iberische Landeskunde Geographie des Antiken Spanien*, Band I (Strasbourg / Kehl, 1955). SS. 12 sqq.

(الكبير) يمتد من رأس أورتجال[١] إلى رأس بِيَار[٢] ، أما الضلع الأسفل — الأصغر — فيمتد من رأس سان فيثنتى[٣] إلى رأس غاطة[٤] . ومنهم من جعلها فى هيئة المخمس .

وذهب افيينوس Avienus ثم بطليموس إلى أن الساحل الشرقى لاسبانيا ينتهى عند رأس غاطة هذا ، أى إلى الشمال قليلا من المرية ، ومن هذا الموضع يتجه الساحل من الشرق إلى الغرب حتى رأس جبل طارق الذى قالا إن عنده أعمدة هرقل . ولكن نفراً من القدماء قالوا إن الساحل الشرقى يصل إلى أعمدة هرقل ، وهى عندهم موضع التقاء البحر الأبيض بالمحيط . وقالوا أن هذه الأعمدة تقع فى منتصف المسافة للراحل بالبحر من رأس بيار إلى رأس أورتيجال ، وجعلوا هذه المسافة ٦٠٠٠ استاديوم[٥] .

وجاء فى وصف الرحلة التى قام بها رجل يسمى مَسَّاليوس واحتفظ أفيينوس Avienus بقطع منه أن طول ساحل إيبيريا على البحر الأبيض (من رأس بيار إلى أعمدة هرقل) ٧٠٠٠ استاديوم ، تُقطع فى سبعة أيام بلياليها . وهذا التقدير أقل من التقدير السابق بألف استاديوم . وجعل ساحل المحيط (من

---

(١) رأس أورتجال هو الطرف الأخير للساحل الشمالى المطل على خليج بسكاية وهو غير رأس فنستر Cabo Finisterre (نهاية الأرض ، الذى قال العرب أن عنده الصنم المشبه بصنم قادس ، وهو عندهم الركن الثالث من أركان الجزيرة) وسماه أبو عبيد البكرى صنم جليقية (نفح ١/١٢٥) .

(٢) يقابل على وجه التقريب رأس باخور Cabo Bajur والعرب يجعلون بدلا من ذلك موضعاً يسمونه هيكل الزهرة وهو يقابل Port-Vendres الذى كان يعرف فى القديم باسم Portus Veneris .
انظر الروض المعطار ، ص ٢ ، وترجمة ليفى بروفنسال ص ٥ وهامش ص رقم ١
وتقويم البلدان لأبى الفدا ، طبعة م. رينو ودى سلين ، باريس ١٨٤٠ ص ١٨٢

(٣) يعرف عند العرب برأس كنيسة الغراب . وعند الرازى : هو الموضع الذى فيه صنم قادس المشهور بالأندلس . نفح ١/١٢٨

(٤) لم يشر العرب إلى هذا الركن الرابع ، لأنهم أخذوا بالرأى القائل بأن شبه الجزيرة مثلث كما سيجىء .

(٥) الاستاديوم Stadium مقياس رومانى للمسافات . والكيلومتر يساوى ٥,٤٣٢ استاديوم .

رأس أورتجال إلى الأعمدة) ٥٠٠٠ استاديوم . وجعل صاحب هذه الرحلة طول جبال البرت من شاطىء بسكاية إلى البحر الأبيض مسيرة سبعة أيام ، أى ٣٥٠ كيلومتراً [1] .

وحوالى سنة ٥٠٠ قبل الميلاد قام ملاح يسمى بيثياس Pytheas برحلة على طول سواحل اسبانيا وصل فيها إلى الشاطىء الجنوبى لخليج بسكاية ، واستبان أن إيبريا فى الحقيقة شبه جزيرة لا تفصلها عن بقية أوروبا إلا جبال البرت ، وأن هذه الجبال تسير من الشرق إلى الغرب فى امتداد ساحل بسكاية ، وأن الإنسان يستطيع السير على الأرض من رأس أورتجال إلى رأس بيار . وقال إن طول الساحل الشرقى من رأس بيار إلى أعمدة هرقل ٦٠٠٠ استاديوم . ولكنه قال إن الساحل الجنوبى يصل إلى رأس روكا Cabo Roca أى إلى موضع الاشبونة الحالية . وجعل المسافة من أعمدة هرقل إلى رأس روكا ٣٠٠٠ استاديوم ، ومن رأس روكا إلى رأس أورتجال ٣٠٠٠ أخرى . وتابعه فى ذلك كله إيراثوسثنيس، غير أنه قسم المسافة من أعمدة هرقل حتى رأس روكا إلى قسمين : من الأعمدة إلى قادش Gades ٥٠٠ استاديوم ، ومن قادش إلى رأس روكا ٢٥٠٠

وابتداء من بوليبيوس يختفى هذا التصور السليم لشبه الجزيرة ومسافاتها الذى أقامه اليونان على تجارب الرحالة والحساب الهندسى . وبدلا من ذلك نجد صورة غريبة لشبه الجزيرة أهم معالمها ما يلى :

١ — أن الشاطىء الغربى لشبه الجزيرة يسير فى خط مستقيم من الشرق إلى الغرب ، أى أنه يصبح الشاطىء الشمالى ، وتختفى بهذا الحقائق السليمة الخاصة بخليج بسكاية وسواحله حتى الشاطىء الجنوبى لشبه جزيرة بريتانى .

---

(١) قدر ابن سعيد هذه المسافة بأربعين ميلا . نفح ١/١٢٧

٢ — أن جبال البرت تسير من الشمال إلى الجنوب . وعلى هذا فهى تتعامد مع الساحل الشمالى فى رأى بوليبيوس ومن تابعه (الشمالى والغربى فى الحقيقة) .

٣ — وهو يسمى جبال البرت الناحية الشرقية لشبه الجزيرة ويجعل طولها ٣٠٠٠ استاديوم .

٤ — أما الساحل الشرقى (رأس بيار — أعمدة هرقل) فقد اعتبره ساحلا جنوبياً . جعل طوله ٩٥٠٠ استاديوم .

٥ — والساحل الشمالى يلتقى مع الساحل الجنوبى عند أعمدة هرقل . أى أن شبه الجزيرة أصبح فى هيئة المثلث الطويل الممتد برأسه ناحية الغرب .

وعن بوليبيوس أخذ هذا التصور من جاء بعده مثل ابيانوس Appianus وأرتيميدور Artimidor وفارو Varro وإن اختلفوا فى موضع رأس المثلث ، فبعضهم قال إنه رأس سان فيثنتى (ابيانوس وأرتيميدور) ، وبعضهم الآخر قال إنه رأس روكا (فارو) . وهذا الأخير يسمى رأس روكا البروز الأعظم Promentium Magnum ، وقال إن جزء الساحل الممتد من رأس روكا إلى قادش هو جبهة اسبانيا Frons Hispaniae . وجعل طول الساحل الشمالى ١٢٥٠ ميلا ، وطول الساحل الجنوبى ١١٨٢ ميلا . ومعلوماته عن سواحل اسبانيا تقف عند رأس روكا .

وعن بوليبيوس أيضاً أخذ اسطرابون هذه الصورة لشبه الجزيرة مع تعديل واضح يبدو أنه أخذه عن بوزايدينيوس : جعل الساحلين الشرقى والجنوبى لشبه الجزيرة ساحلا واحداً يمتد من الشرق إلى الغرب ، أى من رأس بيار إلى أعمدة هرقل ، ومن هناك يطلع إلى الشمال ما يسميه بالساحل الغربى . أما الساحل الشمالى فيجعله أقصر من الجنوبى . أى أن شبه الجزيرة عنده مستطيل ممتد إلى الغرب فى البحر قاعدته إلى الجنوب ، وضلعه الشرقى (جبال البرت) أقصر من ضلعه الغربى المطل على المحيط .

والصورة التى يرسمها ميلا Mela لشبه الجزيرة أصح من صورة اسطرابون فهو يذكر خليج بسكاية وشبه جزيرة بريتانى ، ويبدو أنه أخذ ذلك عن بوزايدنيوس الذى اعتمد على فارو ، ولكنه يتمسك بأن جبال البرت تسير من الشمال إلى الجنوب . والساحل الغربى يسير موازياً له ، ولكنه لا يبدأ عند أعمدة هرقل أو رأس سان فيثنتى وإنما عند رأس الطرف الأغر . وهو يسمى الزاوية الشمالية الغربية برأس الكلت Promontium Celticum .

وتصور بطليموس شبه الجزيرة فى هيئة مربع يكاد يكون ضلعاه الشمالى والغربى على استقامة واحدة ، رؤوسه الأربعة رأس بيار ورأس غاطة ورأس سان فيثنتى ورأس ناريجه Nariga (بدلا من رأس أورتجال) ، وهيئته العامة نتيجة لذلك أقرب إلى المثلث ، وهو يجعل جبال البرت تسير من الشمال إلى الجنوب ، أى أن بطليموس عاد إلى التصور السليم الذى رأيناه عند بيثياس وايراتستنيس ، وإن كان الذين أتوا بعده فهموا كلامه على أنه تصوير لشبه الجزيرة فى هيئة المثلث .

٤ — كتب هروشيش

ثم نصل إلى أوروزيوس Horosius الذى عرف العرب كتاباته وأخذوا عنه وسموه باسمه هُروشِيُش[١] ، وكان راهباً شاهد دخول قبائل الشويف اسبانيا واستقرارهم فى غربها ، ثم فر خوفا منهم إلى افريقية سنة ٤١٥ ميلادية ، وهناك لقى القديس أوغسطين ، فنصحه هذا بالذهاب إلى بيت المقدس ، حيث اشترك فى النزاع المذهبى الذى كان يفرق أهل الكنيسة المسيحية شيعاً ، وقد أخذ جانب القديس جيروم الكاتب المسيحى الأشهر . وفى بيت المقدس أخذ يكتب بادئا برسالته المسماة كتاب المديح Apologeticus Contra Pelagium فى نقض مذهب

(١) يسمى عادة باولوس أوروزيوس ، ولكن الحقيقة أننا لا نعرف اسمه . أما باولوس فقد وضعه بعض العلماء تفسيراً لحرف .P الذى كان يسبق اسم أوروزيوس ، والمراد به فى الحقيقة Presbiter وهى مرتبة من مراتب القسس ، وقد عربه الأندلسيون إلى برشبتر .

بِلاَجْيُوس ، فحنق عليه القساوسة واضطر إلى الانزواء خوفا منهم . ثم عاد إلى اسبانيا . ويبدو أنه مر بافريقية ولقى أوغسطين مرة أخرى ، وكان هذا قد فرغ من كتابه « مدينة الله » ، وقرأه هروشيش وأعجب بما قاله من أن ما أصاب الامبراطورية الرومانية من التفكك والاضطراب إنما هو عقاب من الله سبق أن أنزل مثله بأمم سابقة انحرفت عن الطريق السوى ، وقرر أن يكتب كتابا يتوسع فيه فى هذا الرأى ويفصله تفصيلا . فكتب كتابه الذى يعرف عادة باسم تواريخ أوروزيوس وعنوانه الكامل :

«Adversus Paganos Historiarum Libri Septem»

أى « كتب التواريخ السبعة فى الرد على الوثنيين » وهو ذيل على « مدينة الله » ، وخاصة الجزء الثالث منه المتعلق بالتاريخ . وهو تاريخ للدنيا منذ آدم إلى سنة ٤١٦ ميلادية ، ألفه فى سنة ونصف معتمداً على « مدونة أوزيب » وكتابات تيتوس ليفيوس ويوليوس قيصر وتاسِيتُوس ويُوسْتِينُوس وغيرهم . واعتمد بعد ذلك على نفسه فيما يتصل بأحداث أيامه وما سبقها بقليل .

وقد لقى كتاب هروشيش إقبالا شديداً ، وأثنى عليه معاصروه ثناء عظيما ، وأصبح معتمد الناس فيما بعد فيما يكتبون عن تاريخ العصور القديمة ، وبلغ من ذيوعه أن عدد مخطوطاته الباقية إلى اليوم يزيد على مائتين ، منها ما كتب فى القرنين السادس والسابع . وفى العصور الحديثة طُبع أصله اللاتينى أو مترجماً إلى اللغات الأوروبية مرات كثيرة . وهو يعتبر أول تاريخ عالمى كتب من وجهة النظر المسيحية ، وهو يشيد فيه بجامعة الثقافة الرومانية والعقيدة المسيحية التى تضم المسيحيين جميعا ، وهو يتابع القديس أوغسطين فى القول بأن عظمة روما إنما قامت على تعاسة بقية بلاد الدنيا ، ويفخر بأن اسبانيا قاومت الرومان مائتى سنة(١) .

---

(١) Juán Hurtado, J. de la Serna y González Palencia. *Historia de la Literatura Española* (6ª edición, Madrid 1949), p. 14.

Justo Pérez de Urbel. *Las Letras en la Epoca Visigoda en Historia de España;* dirigida por Ramón Menendez Pidal, vol. III *España Visigoda*, pp. 382—387.

لا غرابة والحالة هذه أن يجد العرب عند دخولهم ذكر هذا الرجل وكتابه على كل لسان ، وأن يطلع الكثيرون منهم على ما فيه عن طريق بعض نصارى الأندلس الذين استعربوا أو دخلوا فى الإسلام ، وكان الكثيرون منهم يعرفون اللاتينية ، أو يستطيعون على الأقل أن ينقلوا إلى إخوانهم جملا من كلام هذا المؤرخ الكبير . وإذا كان كتّاب المسلمين لم يجدوا شيئا ينقلونه عنه فيما يتصل بتاريخ الشرق القديم ، فقد كانت لديهم أصول شرقية عربية أخرى ينقلون عنها فى هذه الناحية ، فإنه لم يكن لهم مفر عن الأخذ عنه فيما يتعلق بتاريخ الدولة الرومانية وتاريخ اسبانيا . ومن هنا فقد أخذوا عنه معلومات طيبة عن تاريخ الرومان وتلك اللمحات القليلة الاسطورية الطابع التى نجدها عندهم عن الأمم التى حكمت اسبانيا قبل الإسلام ، وعن آراء الأقدمين فى صفة شبة الجزيرة ثم ما أضافه هو نفسه إلى هذه الآراء .

ويعنينا هنا كلامه عن جغرافية الجزيرة ، فقد قال إن هيئتها ذات ثلاثة أركان ، أحدها فى الشرق عند بيار والثانى عند بِرْغَنْسِيه (بريجانتيوم Brigantium) فيما يعرف اليوم بكورونيا ، والثالث فى الجنوب عند قادش . وقال إن جبال البرت تسير من الشمال إلى الجنوب تقريبا ، أى أننا نجد عنده نفس الخلط بين الصحيح وغير الصحيح الذى وجدناه عند اسطرابون وبطليموس[1] .

وقد أخذ الجغرافيون الأندلسيون عن هروشيش هذه الآراء المتصلة بهيئة شبه الجزيرة وثبتوا عليها ، ثم أضافوا ما تجمع لهم من مادة جغرافية سليمة دقيقة مبنية على الخبرة والرحلة والمشاهدة . ونجد هروشيش مذكوراً باسمه فى مؤلفاتهم وخاصة عند العذرى والبكرى وابن خلدون ، وربما يكون الرازى قد أشار إليه

---

(١) اعتمدت فى هذا العرض على ما أورده شولتن فى كتاب :

Adolf Shulten, *Iberische Landeskunde, Geographie des Antiken Spanien* (Band I, Strasbourg—Kehl 1955) SS. 1-21.

وهذا الكتاب يورد بأكمل تفصيل ما أجمله اليانى بولوفر فى بحثه المعروف :

Alemany Bolufer, J., *La Geografia de la Peninsula Ibérica en los textos de los escritores griegos y latinos.* Separata de la Revista de Archivos, Bibliotecas y Museos. Madrid, 1911.

إلا أن جغرافيته التى استطعنا جمع أشتاتها من مختلف الأصول إنما هى مختصر لكتابه المطول . ولم يعن الجغرافيون والمؤرخون المسلمون بتصحيح هذه الآراء ، لأنهم كانوا يجعلونها فى مقدمات كلامهم عن صفة الجزيرة على اعتبار أنها معلومات عامة غير داخلة فى صلب الجغرافية . والسبب فى ذلك أنهم ألّفوا فيها على مذهب البلدانيين والمسالكيين ، تعنيهم البلاد وأوصافها والأقاليم وما فيها والمسافات وأطوالها . وفى هذا المجال كانوا فى غنى عن النقل عن غيرهم ، فقد كانوا أهل البلاد يعيشون فيها ويذرعونها طولا وعرضا .

وجدير بالملاحظة أن الهيئة المثلثة البطليموسية لشبه الجزيرة كانت توافق تصورهم العام لشبه الجزيرة ، وتؤيدها تجارب الملاحين الذين كانوا يتنقلون بسفنهم بين موانى شبه الجزيرة وما يقابلها من موانى المغرب . وسنلاحظ عند كلامنا عن جغرافية البكرى كيف أن أولئك الملاحين كانوا يعتقدون أن موانى المغرب (حتى بجاية) تقابل موانى شرق اسبانيا (حتى طركونة) ، ومن هنا تأكد لديهم صدق النظرية البطليموسية فى توازى الساحلين ، ونتيجة لهذا ثبتوا على القول بأن جبال البرت تسير من الشمال إلى الجنوب .

٥ — التراث الجغرافى للأندلس

لا نستطيع أن نكتب تاريخاً لعلم الجغرافية عند الأندلسيين إلا معتمدين على تجميع مُجْهِدٍ لما نُقِلَ من المؤلفات الأولى فى المراجع التى وصلت إلينا ، لأن الذى وصل إلينا كاملا من مؤلفاتهم فى هذا الباب جزء ضئيل . وقد يدهش القارىء إذا قلنا إننا لا نملك — باستثناء الإدريسى — كتاباً واحداً كاملا ألفه أندلسى فى جغرافية الأندلس فى لغته العربية . فأما جغرافية الرازى فليس لدينا من نصوصها الكاملة إلا ترجمات مقتضبة محرفة إلى البرتغالية والاسبانية ومختصرات عربية لها وصلتنا قطعاً متناثرة فى ثنايا الكتب ، وسنحاول

إثبات هذا النص اعتماداً على هذه المختصرات والنقول على قدر ما يتسع المجال. أما كتبهِ الأخرى فإما اختفت كاملة أو بقيت لنا منها شذرات قليلة، وكتاب « الجغرافية » لمحمد بن أبى بكر الزّهرى لا نملك منه إلا قطعة صغيرة نظن أنها جزء من مختصر من الكتاب الأصلى ، وكتاب « نظام المرجان » لأبى عمر أحمد بن يوسف العذري الدلائي لم نجد منه إلا قطعا أعدها للنشر ضمن مطبوعات هذا المعهد الدكتور عبد العزيز لاهواني، ومؤلفات محمد بن يوسف الوراق اختفت هي الأخرى إلا من نقول وردت متفرقة في أصول شتى، وليس لدينا من صفة الأندلس لأبي عبيد البكري إلا أوراق قليلة، وما لدينا من كتابي اليسع ابن موسى بن عبد الله بن اليسع وأبي بكر عبد الله بن عبد الحكم المعروف بالنظام لا يعدو فقرات قليلة في «نفح» المقرى، أما كتاب الروض المعطار فمعجم جمعه صاحبه محمد بن عبد المنعم الحميري في الزمن المتأخر، وهو لا يعتبر كتاب جغرافية أو بلدان من الطراز الذي ننشده، والكتاب الوحيد الذي لدينا في وصف الأندلس هو القسم الخاص بهذا البلد من جغرافية الادريسى وسنتحدث عنها في موضعها.

وهذا هو كل ما لدينا من الانتاج الجغرافى الغزير لأهل الأندلس ، وهو انتاج لا يقتصر على جغرافية الأندلس بل كان الكثير منه كتباً واسعة فى الجغرافية العامة ، وسنرى بعد قليل أن « نزهة المشتاق » للادريسى إن هو إلا تتويج لجهود كثيرة سابقة وتجميع طيب لمادة غزيرة قامت على تقليد أندلسى عريق فى التأليف الجغرافى . وليس ذلك بغريب فقد كان الأندلسى بطبعه رحالة طلعة ذكياً يحب أن يرى بنفسه ويختبر بمشاهدته ، وسنرى شواهد ذلك كله عندما نتحدث عن جغرافييهم واحدا واحدا .

ولا شك أن الأندلسيين كتبوا الكثير فى وصف بلدهم ، فعلاوة على الكتب التى ذكرناها ، لابد أن نحسب كتب التاريخ أيضا ، ما وجدناه منها وما لم نجده بعد ، لأن التاريخ لم ينفصل عن الجغرافية فى المفهوم الاسلامى إلا نادرا كما قلنا ، وفى الأندلس بالذات لا نجد جغرافيا إلا وجدناه مؤرخا فى

نفس الوقت ، والرازى الذى سنرى أنه أبو الجغرافية الأندلسية هو أبو التاريخ الأندلسى أيضا .

وإذا نحن تركنا جانبا كتب التاريخ الأندلسى العام[1] أو التى كتبت فى تاريخ عصر بعينه أو دولة أو ناحية معينتين ، وجدنا أمامنا حشداً من المؤلفات عن تاريخ شتى نواحى الأندلس وبلادها أو تاريخ الأدب والأدباء والفقهاء فيها ، وهذه الكتب تبدأ دائما بفصول طويلة عن جغرافية هذه النواحى كما نرى فى الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب ، ومن هنا فنحن حريون بأن نعد هذه الكتب فى الحصاد الوافر الذى كتبه أهل الأندلس فى هذا الباب ، وفيما يلى بعض أسامى هذه الكتب ومؤلفيها نذكرها على سبيل المثال لا الحصر :

قاسم بن سعدان (ت ٩٥٨/٣٤٧) تاريخ فقهاء ريه .

عمر بن عبيد الله بن يوسف الزهراوى (٣٧٠—٤٥٤/٩٨١—١٠٦٢) : تاريخ قرطبة .

مطرف بن عيسى الغسانى (ت ٩٨٧/٣٧٧) : المعارف فى أخبار كورة إلبيرة وأهلها وفوائدها وأقاليمها وغير ذلك من منافعها .

أبو الأصبغ عيسي بن محمد (ت ١٠١٢/٤٠٣) : تاريخ فقهاء إلبيرة .

اسحاق بن سَلَمَة الليثى (عاش أيام الحكم المستنصر) : أخبار رَيُّه وحصونها وولاتها وفقهائها وشعرائها . وكتاب أخبار الأندلس .

عبد الله بن ابراهيم بن وزمر الحجارى (النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى ، والنصف الأول من القرن السادس الهجرى/الثانى

---

(١) لدينا على الأقل أسماء ستة ألف كل منهم تاريخا عاما للاندلس وهم : احمد بن موسى العروى وأحمد الحجام وابن الحكيم الرندى وعيسى ابن أحمد الرازى وأبو الوليد الفرضى ومحمد بن مزين .

عشر الميلادى) : مغناطيس الأفكار فيما تحتوى عليه مدينة الفرج من النظم والنثر والأخبار .

احمد بن عبد الرحمن بن المطاهر الأنصارى (ت ٤٨٩/١٠٩٥) : تاريخ فقهاء طليطلة وقضاتها .

محمد بن عبد الواحد بن ابراهيم بن مفرّج الملاحى (٥٤٩—٦١٩/١١٥٤—١٢٢٢) : تاريخ علماء إلبيرة وكتاب انساب الأمم والعرب والعجم المسمى بالشجرة .

ابن المواعينى ، محمد بن ابراهيم بن خَيره (ت ٥٦٤/١١٦٨) : تاريخ غرناطة .

أبو المطرف بن احمد بن عبد الله بن عميرة (٥٨٠ أو ٥٨٢—٦٤٨ أو ٦٥٦ أو ٦٥٨/١١٨٤ أو ١١٨٦—١٢٥١ أو ١٢٥٨ أو ١٢٦٠) : كتاب فى كائنة ميورقة وتغلب الروم عليها .

أبو عبد الله محمد بن على بن خضر المالكى المعروف بابن عسكر (٥٨٤—٦٣٦/١١٨٨—١٢٣٨) : تاريخ مالقة أو الاكمال والاتمام فى صلة الأعلام من أهل مالقة الكرام .

ابن حمامة (من أهل القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى) : تاريخ لوشة .

ابن الحاج البلفيقى ، أبو البركات محمد بن محمد بن ابراهيم (ت ٧٧٤/١٣٧٢) : تاريخ المرية وبجانة .

وغيرها كثير ، ونضيف إليها كتبا مثل « تاريخ بنى الطويل » و « كتاب فى أصحاب المعاقل والأجناد الستة بالأندلس » وكلاهما نجهل مؤلفه ، ثم كتاب « تاريخ المنتزين والقائمين بالأندلس » لابن فرج الجيانى وما شاكلها ، وما ضاع من كتب الجغرافيين والمؤرخين الذين سنلم بذكرهم . وهو كثير أيضا .

والخلاصة أن الحصاد الجغرافى فى الأندلس كان وافراً غنياً ، وإننا إذ نعرض تاريخ هذا العلم فى ذلك القطر معتمدين على ما لدينا فحسب إنما نعرض جانباً صغيراً مما ألفوه . والغالب أن ما ندّ عنا أكثر مما أحصيناه . ولا بد أن نقرر ذلك ، فقد يظهر فى مقبل الأيام من الكتب ما يعين غيرنا على استكمال البحث بصورة أوفى .

ميلاد التأليف فى الجغرافية فى الأندلس

ليس لدينا ما يدل على أن أحداً من أهل الأندلس كتب فى البلدان قبل احمد بن محمد الرازى . وليس لدينا كذلك ما يفيد أن شيئا مما كتبه المشارقة فى هذا الباب دخل الأندلس فى زمن مبكر ، ونحن نجد فى فهرسة ابن خير ذكرا لطائفة من المؤلفات المبكرة فى التاريخ مثل مغازى ابن عقبة ومغازى ابن اسحاق ، ولا نستبعد لهذا أن يكون الأندلسيون قد عرفوا بعض الكتابات الجغرافية الأولى مثل كتاب « البلدان الكبير » وكتاب « البلدان الصغير » وكتاب « الأنهار » وكتاب « الأقاليم » وما إليها مما ألفه أبو عبيدة السّكونى والحسن الهمدانى وأبو الاشعث الكندى وغيرهم من أصحاب البواكير فى التأليف الجغرافى فى المشرق ، فقد كانت هذه كلها مراجع ينتفع الناس بها فى تفسير القرآن وفهم الأحاديث وسيرة النبى صلى الله عليه وسلم[1] . ونقول هذا لأننا نجد أبا بكر بن خير يذكر فى فهرسته رسائل من هذا الطراز كانت تقرأ فى الأندلس مثل كتاب الأنواء وكتاب النبات وكتاب القبلة لأبى حنيفة الدينورى وكتاب المعارف وكتاب الانواء لابن قتيبة[2] ومن الملاحظ بصفة عامة أن أصحاب كتب التراجم يهملون ذكر كتب الجغرافية والعلوم ، لأنها لم تكن فى حسابهم مؤلفات

---

(١) اقرأ عن هؤلاء : بهجة الاثرى : الجغرافيا عند المسلمين ، مجلة المجمع العلمي العراقى ، سنة ١٩٥٢ والمراجع الواردة هناك .

(٢) فهرسة ابن خير ص ٣٧٦ و ٣٧٧

تؤيد مركز العالم، ويكفي أن نذكر أن المواد التي لدينا في معاجم الترجمة الأندلسية لا تذكر شيئا عن جغرافية البكري أو مؤلفات ابن رشد الفلسفية.

وقد كتب عبد الملك بن حبيب فى كتاب « مبتدأ خلق الدنيا » المعروف بتاريخ ابن حبيب شيئاً فى الجغرافية ، ولكن كتابته فى هذا الفن تدخل فى باب « العجائب » الذى سيكثر فيه نفر من الجغرافيين ، وواضح من كتابته أنه أخذ ما كتبه فى هذا الباب عن المشرقيين والمصريين منهم خاصة ، ومن الغريب أنه وهو أندلسى يكتب عن بلده يصوره وكأنه مجمع أعاجيب وغرائب لا تصدق[1] .

وقد أثبت الدكتور مكى فى دراسته عن « مصر وأصول التاريخ فى الأندلس » أن القسم الطويل الذى يدور حول حياة موسى بن نصير من كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة مأخوذ من تأليف لمصرى أندلسى الأصل هو معارك بن مروان حفيد موسى بن نصير ، وفى هذا الجزء إشارات جغرافية لا بأس بها وإن كانت من باب العجائب أيضاً .

١ — محمد بن موسى الرازى

ولكن أول من أثر عنه التأليف فى التاريخ مع جانب من الجغرافية هو محمد بن موسى بن بشير بن جناد بن لقيط الكنانى الرازى الذى يقول عنه ابن الأبار فى التكملة « والد أبى بكر أحمد بن محمد صاحب التاريخ ، غلب

---

(١) راجع عن ذلك مقال الدكتور محمود على مكى :
Egipto y los Orígines de la Historiografía Arábigo-Española.
صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد . المجلد الخامس سنة ١٩٥٧ ص ١٥٧ وما بعدها من القسم الافرنجى . وانظر النموذج الذى نشره الدكتور مكى ذيلا على هذا المقال من كلام عبد الملك ابن حبيب ، وخاصة ابتداء من الفقرة ١٧ ص ٢٢٧ وما بعدها .

عليه اسم بلده ، وكان يفد من المشرق على ملوك بنى مروان تاجرا ، وكان مع ذلك مفتنا فى العلوم ، وهلك منصرفه من الوفادة على الأمير المنذر بن محمد بإلبيرة فى شهر ربيع الآخر سنة ٢٧٣ (اكتوبر ٨٨٦) ذكره ابن حيان »[١] .

وقد أورد محمد بن عبد الوهاب الغسانى سفير مولاى اسماعيل إلى كارلوس الثانى ملك اسبانيا فى كتاب « رحلة الوزير فى افتكاك الأسير » اشارة عظيمة الفائدة عن كتاب اسمه «كتاب الرايات» ألفه محمد بن موسى الرازى ، قال : « قال محمد بن مُزَين : وجدت فى خزانة باشبيلية سنة إحدى وسبعين وأربع مائة ، أيام الراضي بن المعتمد ، سفراً صغيراً من تأليف محمد بن موسى الرازى سماه بكتاب الرايات ، ذكر فيه دخول الأمير موسى بن نصير ، وكم راية دخلت الأندلس معه من قريش والعرب ، فَعَدَّهَا نيفا وعشرين راية ، منها رايتان لموسى بن نصير ، عقد له إحداها الأمير عبد الملك بن مروان على افريقية وما وراءها ، والأخرى عقدها له أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك على افريقية أيضا وما يفتحه وراءها إلى المغرب ، وراية ثالثة لابنه عبد العزيز الداخل معه ، وسائر الرايات لمن دخل معه من قريش ومن قواد العرب ووجوه العمال ، وذكر فيه سائر البيوتات ممن دخل دون راية » ثم قال بعد ذلك : « . . . فقيل إن اجتماعهم لهذا المشهد الكريم كان فى الموضع الذى كان فيه مسجد الرايات فى الجزيرة الخضراء ، وأنه باجتماع الرايات فى ذلك اليوم سمى ، وبها سَمَّى الرازى كتابه . وقال إن موسى بن نصير رحمه الله لم يبرح موضعه ولا فارق مشهده حتى أمر بتخطيط الموضع واتخاذه مسجدا[٢] » .

---

(١) ابن الأبار ، التكملة ، ترجمة رقم ١٠٤٨ ص ٣٦٦

(٢) رحلة الوزير فى افتكاك الأسير لمحمد بن عبد الوهاب الغسانى بتحقيق الفريد البستانى (منشورات مؤسسة الجنرال فرانكو) لطوان ١٩٣٩ وقد نشر هذه الفقرة جايانجوس فى ترجمته الانجليزية لفصول من نفح الطيب المعروفة باسم :
History of the Muhammedan Dynasties in Spain.
(ج ١ ص ٣١٤) وعنه أخذها بونس بويجبس ص ٤٥ — ٤٧

وفى نبذة قصيرة عن محمد بن موسى الرازى يكرر المقرى نفس المعلومات التى أوردها ابن الأبار نقلا عن المقتبس لابن حيان[١] .

وإذن فقد كان أول من دخل الأندلس من بيت الرازى تاجراً سَفَّاراً يتردد بتجارته بين المشرق والأنداس ، وكان إلى جانب ذلك ذا علم وأخبار ومعارف تؤهله لصحبة الملوك والوزراء ، فأصبح من جملة رجال الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، فصار يعهد إليه فى مهام كبيرة ، فبعثه فى الوفد الذى ذهب للتوفيق بين العرب والمولدين عندما وقعت الفتنة الكبيرة بينهم ، وقد توفى وهو عائد من هذه المهمة فى بلدة إلبيرة فى شهر ربيع الآخر سنة ٢٧٣/ ٨٨٦ اكتوبر أيام الأمير المنذر .

وهذه الفقرة التى أوردناها من كتاب محمد بن موسى الرازى تدل على أنه اشتغل بالتأليف ، وأن من آثاره كتاب الرايات هذا الذى نعتبره كتاب تاريخ وجغرافية فى آن واحد ، فإن ذكر القبائل التى دخلت الأندلس مع موسى « من قريش ومن قواد العرب ووجوه العمال وذكر سائر البيوتات ممن دخل دون راية » عظيم القيمة بالنسبة للجغرافية البشرية للأندلس ، ولا شك فى أن ابنه احمد بن محمد انتفع بهذه المعلومات فيما كتب عن جغرافية الأندلس وتاريخه . ولا شك كذلك فى أن المعلومات الطيبة التى يوردها ابن حزم فى جمهرة انساب العرب عن القبائل والبيوت العربية التى دخلت الأندلس ، وكذلك البيان الذى يورده ابن غالب فى فرحة الأنفس وأورده المقرى فى نفح الطيب عن منازل العرب فى الأندلس ، إنما يرجع الفضل فيها إلى ما دونه محمد بن موسى فى هذا الكتيب الذى ذكره محمد بن مزين .

---

(١) نفح الطيب (طبعة محي الدين) : ١٠٨/٤

٢ — قاسم بن أصبغ البيانى وترجمة كتب هروشيش

وقبل أن نتحدث عن أحمد بن محمد الرازى لا بد أن نقف هنا وقفة قصيرة عند استاذه قاسم بن أصبغ البيانى ، فسنرى أنه صاحب فضل كبير فى توجيه الناس إلى التأليف فى التاريخ والجغرافية فى الأندلس إلى جانب دوره العظيم فى تطور علوم الدين واللغة فى الأندلس ؛ وهو من رجال جيل فريد من علماء الأندلس عاش خلال النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى والنصف الأول من القرن الرابع ، وعاصر العصر الذهبى الأندلسى ، عصر عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر ، جيل جليل نقل الأندلس بعمله وجهده وإخلاصه للعلم من دور النقل والتبعية إلى دور الإبداع واستقلال الشخصية ، بل إلى القيادة فى كثير من نواحى المعرفة . ورجال هذا الجيل هم الذين وسعوا نطاق العلم والمعرفة فى الأندلس ، فلم تقتصر عنايتهم على علوم الدين من قرآن وحديث وفقه ، بل شمل اهتمامهم الأدب والتاريخ وتراجم الرجال والجغرافية والفلسفة والطب والنبات وعلوم الأوائل أيضا . ومعظم رجال هذا الجيل من أصحاب الرحلات الطويلة إلى الشرق ، رحلات البحث والطلب والسماع على الشيوخ فى شتى نواحى العالم الاسلامى ، وانتساخ أمهات الكتب والعودة بها إلى الأندلس ونشرها بين أهله . ومن أعلام هذا الجيل محمد بن عاصم المعروف بالأقُشتين (ت ٣٠٧/٩١٩) الذى يوصف بأنه كان « متصرفا فى علم الأدب والخبر » وهو أول من ألف فى طبقات الكتاب فى الأندلس ؛ وعثمان بن ربيعة (ت ٣١٠/٩٢٢) وهو صاحب كتاب فى طبقات الشعراء فى الأندلس ؛ وأبو عبد الله محمد بن عمر بن لُبابه (ت ٣٢٠/٩٣٢) الأديب الشاعر المحدث المؤرخ ، وهو أستاذ ابن القوطية ، وكان شيخ أهل الأدب فى عصره ؛ وأبو عمر احمد بن محمد بن عبد ربه الذى نقل فى « عقده » جانباً كبيراً من الثروة الأدبية المشرقية إلى الأندلس ، وقد طال عمره حتى عاصر خمسة من أمراء

الأندلس آخرهم عبد الرحمن الناصر ، وتوفى سنة ٣٢٨/٩٣٩ ؛ واحمد بن محمد ابن عبد البر (ت ٣٣٨/٩٤٩—٩٥٠) — وهو غير أبى عمر بن عبد البر — وقد ألف فى انساب العرب وفى تاريخ فقهاء الأندلس ، واعتمد عليه أبو الوليد الفرضى فى كتابه « تاريخ علماء الاندلس » المعروف وغيرهم كثيرون .

وقاسم بن أصبغ البيانى من أعلام هذا الجيل فقد ولد فى ٢٠ ذى الحجة سنة ٢٤٤/٢ نوفمبر ٨٥٩ فى بلدة بيانة من أعمال قرطبة وعمّر ستا وتسعين سنة هجرية « وخمسة أشهر غير ستة أيام » كما يقول أبو الوليد الفرضى ، فكانت وفاته فى ١٥ جمادى الأولى سنة ٣٤٠/٢٠ اكتوبر ٩٥١ أيام الحكم المستنصر . رحل قاسم فى شبابه رحلة طويلة إلى المشرق فسمع من أعلام العصر فى مصر والحجاز والشام والعراق ، واهتم اهتماما خاصا بالتاريخ ، فسمع من أحمد بن زهير بن حرب المعروف بابن أبى خيثمه « تاريخه » الذى ألفه فى رجال الحديث والأسانيد على غرار التاريخ الكبير للبخارى ، واتصل بعبد الله بن مسلم بن قتيبة وسمع منه كثيرا من كتبه ، ومعظمها تاريخ وجغرافية وأنساب وأدب ومعلومات شتى ، وسمع من احمد بن يحيى بن يزيد المعروف بثعلب ومن محمد بن يزيد المبرد وغيرهم من أئمة اللغة والنحو ، ولم يفته أن يسمع فى القيروان من محمد بن يزيد المعلم وبكر بن حماد التاهرتى الشاعر « فى عدة سواهم وهم كثير ممن أذكرهم فى الكتاب الكبير الذى أؤمل جمعه على المدن واتقصاهم فيه إن شاء الله » . وانصرف قاسم بن أصبغ إلى الأندلس بعلم كثير ، ومال الناس إليه فى تاريخ احمد بن زهير بن حرب (ابن أبى خيثمه) وكتب ابن قتيبة ، وكانت الموردة عليه فى هذه الكتب دون صاحبيه محمد بن أيمن وابن أبى عبد الأعلى ، وسمع منه كثيرا من هذه الكتب أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد (الناصر) قبل ولايته الخلافة ، ثم سمع منه ولى عهده الحكم رحمه الله وأخوته ، وطال عمره فسمع منه الشيوخ والكهول والأحداث ، ولحق الصغارُ الكبارَ فى الأخذ عنه . وكانت الرحلة فى الأندلس إليه ، وفى المشرق إلى أبى سعيد بن

الأعرابى ، وكانا متكافئين فى السن . وكان قاسم ابن اصبغ بصيرا بالحديث والرجال ، نبيلا فى النحو والغريب والشعر ، وكان يشاور فى الأحكام[1] » .

وليس فى هذا كله إشارة إلى اشتراك قاسم بن أصبغ فى ترجمة تاريخ هروشيُش ، وهو فى اعتبارنا من أهم ما أداه هذا العلامة الجليل من خدمات إلى الحركة العلمية فى الأندلس ، فإن هذه الترجمة وذيوعها بين أيدى الناس كانت نقطة البدء بالنسبة لعصر جديد من عصور التأريخ فى الأندلس من ناحية ، ونقطة البدء بالنسبة للتأليف الجغرافى من ناحية أخرى ، فإن كتاب هروشيش فى صورته العربية يبدأ بمقدمة جغرافية وافية يوجز فيها وصف المعمور على أيامه ، وقد اعتمد فيها على كثير من المؤلفات الإغريقية واللاتينية التى كانت فى متناول يده ، وهى مقدمة قصيرة بعض الشىء ولكنها دقيقة وافية بالغرض ، وفيها كلام عام عن جغرافية شبه الجزيرة الأندلسية ، وسنرى أنه مع إيجازه أصبح فيما بعد أساسا من أسس الوصف الجغرافى لشبه الجزيرة وهيأتها عند مسلمى الأندلس ، وسيرددونه جميعا من أحمد بن محمد الرازى إلى أحمد ابن محمد المقرى .

أما قصة ترجمة هروشيش إلى العربية فقصة طريقة تناولها بالبحث نفر من العلماء قدامى ومحدثين ، وقد اختصها المستشرق الإيطالى ج. ليفى دِلاَّ فيدا ببحث مطول نشره فى مجلة الأندلس (مجلد ١٩ سنة ١٩٥٤ عدد ٢ ص

---

(١) ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس طبعة (كوديرا ، مدريد ١٨٩٠) رقم ١٠٦٨ ص ٢٩٧ . وانظر أيضا عن قاسم بن أصبغ : جذوة المقتبس للحميدى (طبعة محمد بن تاويت الطنجى ، القاهرة ١٩٥٣) رقم ٧٦٩ ص ٣١١ ، وبغية الملتمس للضبي رقم ١٢٩٨ ونفح الطيب للمقرى (طبعة محي الدين) ج ٢ ص ٢٥٢ — ٢٥٣ ، والديباج المذهب لابن فرحون ص ٢٢٢ وبغية الوعاة للسيوطى (القاهرة ١٣٢٦) ص ٢٧٥ وشذرات الذهب فى أخبار من ذهب للعماد الحنبلى (القاهرة ١٣٥٠) ج ٢ ص ٣٧٥ وكشف الظنون لحاجى خليفة (طبعة فلوجل ، لايدن) ج ١ ص ١٤٥٨ وبولس بويجيس رقم ١٩ ص ٥٩ وما يليها .

٢٥٧ — ٢٩٣) ، ونظراً لأهمية هذا المقال فقد رأيت أن أعرض ما يهمنا منه بخصوص هذه الترجمة مع ترجمة الفقرات الهامة وتعليقاتها[١] .

قال الاستاذ دلا فيدا انه لم يكن أول من تنبه إلى وجود مخطوطة للترجمة العربية لتاريخ هروشيش ، فقد سبقه إلى ذلك إجناس كراتشكوفسكى مع أن الشائع فى أوروبا انه هو الذى نبه إلى وجوده ، وقال انه رغب من زمن بعيد فى[٢] نشره ثم حالت الظروف دون ذلك ، قال : « إن باولوس أوروزيوس[٣] (هروشيش) « حجة العصور المسيحية » الذى قبس القديس أغسطين من لغته اللاتينية (دانتى ، الفردوس . النشيد العاشر . سطور ١١٩ — ١٢٠) غير معروف كثيرا فى أيامنا هذه إلا فى أوساط الدارسين للتاريخ والأدب القديمين » بل إن هناك باحثين معروفين فى ذلك الميدان يجهلون اسم

---

(١) النسخة الوحيدة المعروفة لنا إلى الآن من الترجمة العربية لتاريخ هروشيش محفوظة فى مكتبة جامعة كولومبيا فى نيويورك تحت رقم .X, 993.712 H وهى مخطوطة جيدة تقع فى ١٢٩ ورقة . تنقصها بضع أوراق فى الأول إذ هى تبدأ عند جزء من الفهرس وينقصها جزء كبير فى آخرها ، لأنها تصل بالحوادث إلى سنة ٣١٣ ميلادية فى حكم قسطنطين الكبير امبراطور الدولة البيزنطية فى حين أن الأصل اللاتينى يصل إلى سنة ٤١٦ ميلادية . والمخطوطة مكتوبة بخط أندلسى واضح جميل ولكنها مصابة بقطوع كثيرة من فعل الأرضة وأوائل الكثير من الصفحات متآكل تعسر قراءته .

(٢) نشر فيليب حتى بحثا قصيرا عن مخطوطة تاريخ هروشيش فى :
Journal of the American Oriental Society, 59 (1939) p. 125.
وكتب كراتشكوفسكى بحثا عن نفس المخطوطة فى نفس المجلة بجلد ٥١ سنة ١٩٥١ ص ١٧١ — ١٧٢ وبجلد ٦٣ (سنة ١٩٤٣) ص ١٨٧ . وانظر أيضا :
Michelangelo Guidi: «*Roma e gli arabi*», in Roma, Revista di Studi e di Vita Romana, 20 (1942) 17—18.
O. A. Machado, *La Historia de los Godos según Ibn Jaldūn*, en *Cuadernos de Historia de España*, I—II (1944), 143—144.
C. Sánchez Albornóz: *San Isidiro, Rasis y «La Pseudo-Isidoriana»*, en *Cuadernos de Historia de España*, IV (1946), 73—113.

(٣) وانظر أيضا إشارة رامون منندذ بيدال إلى مكانة أوروزيوس فى تاريخ الثقافة فى العصر القوطى فى مقدمة المجلد الثانى من تاريخ اسبانيا العام الذى يشرف على إصداره ، المجلد الثانى (اسبانيا الرومانية) (مدريد ١٩٣٥) ص ص ٣٤ — ٣٨ من المقدمة ، والمجلد الثالث « اسبانيا القوطية » (مدريد ١٩٤٠) ص ٣٨٢ — ٣٨٦ (هذا القسم كتبه الأب Justo Pérez de Urbel) .

هروشيش ، وأن الترجمة الانجليزية التى صدرت منذ بضع سنوات لم تنفع فى تعريف الناس به أكثر مما نفعت الترجمة الانجليزية القديمة التى أمر بعملها الفريد الكبير ملك انجلترا فى القرن التاسع الميلادى[١] ، أما فى العصور الوسطى فقد كان لتاريخ أوروزيوس المعروف باسم Historiarum Libri Septem adversos Paganos (كتب التاريخ السبعة فى الرد على الوثنيين) من الشهرة ما يزيد على أى كتاب آخر فى التاريخ العام . ومع أن هدفه لم يكن رواية الأخبار الماضية وإنما التدليل على أن الله هو المحرك الدائم لحوادث التاريخ ، إلا أن كتابه كان يُقرأ ويشرح على أنه مرجع تاريخى . ثم ان قيمته العامة من هذه الناحية قليلة إلا فيما يتصل بقسمه الأخير ، لأن عصرنا لم يعد يتذوق أسلوب الطعن الذى يجرى عليه ولا تلك السذاجة اللاهوتية التى يتسم بها تلميذ القديس أوغسطين . . » .

كان من المعروف منذ زمن طويل أنه توجد ترجمة عربية لهروشيش ، وهو الوحيد من بين مؤلفى اللاتين فى العصور القديمة الذى ترجمه العرب إلى لسانهم ، وهم من نعرف اهتماماً بترجمة كتب اليونان ؛ فقد أشارت إلى هذه الترجمة تواريخ الأدب اللاتينى[٢] . وإذا لم أكن مخطئاً فإن أول من أشار إلى

---

(١) قام بترجمة تاريخ أوروزيوس من اللاتينية إلى الانجليزية I. W. Raymond ونشرت الترجمة فى نيويورك سنة ١٩٣٦ (مطبعة جامعة كولومبيا) .

(٢) يقول سيمونيت فى كتابه « تاريخ مستعربى إسبانيا » (مدريد ١٨٩٧ — ١٩٠٣) ص ٤٧ من المقدمة — دون أن يذكر المراجع التى استند إليها — إن بعض ما كتبه Colomella فى الزراعة ترجم إلى العربية ، ولم أعثر على خبر يؤكد ذلك . وبمناسبة الترجمة العربية لهروشيش أبلغنى صديق الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب أن لديه مخطوطة تشبهها ، وتفضل فأرسل إلى صورتها الفوتوغرافية . وأصل هذه المخطوطة محفوظ فى مكتبة جامع سيدى عقبة فى القيروان ، وبعض أوراقها اضرت به الأرضة والرطوبة ، وبعض صفحاتها ملتصق ببعضها الآخر بحيث لا يمكن فصلها إلا باستخدام الوسائل الفنية اللازمة لذلك . وفى الأوراق التى أمكن تصويرها ، وعددها ٣٢ ورقة ، نقرأ عرضاً عظيم القيمة لتاريخ الدنيا ، ومنه يتبين دون شك أن هذا التاريخ مسيحى يتناول الحوادث من أوائل أيام المسيحية حتى نهاية الفتح العربى لاسبانيا مع أخبار وحكايات كثيرة مستقاة من الانجيل أو الكتب القديمة أو الكنسية ، وهذا الكتاب يقسم التاريخ إلى سبعة عصور ، وهو تقسيم تقليدى عند المؤرخين القدامى ، وقد أتبعه ايزيدور الاشبيلى . وقد ورد ذكر هروشيش وجيرولامو فى هذه المخطوطة . =

وجود هذه الترجمة هو اسحاق سلفستر دى ساسى ، فقد نشر نصا غريبا أخذه من « عيون الانباء فى طبقات الأطباء » لموفق الدين أحمد بن أبى القاسم المعروف بابن أبى أصيبعة من أهل القرن السابع الهجرى/الثالث عشر الميلادى ، وهذا النص وارد فى ترجمة أبى داوود سليمان المعروف بابن جلجل (عاش فى القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى) ، وقد نقله ابن أبى أصيبعة عن مقدمة كتاب « تفسير أسماء الأدوية المفردة لديسقوريديس » وهو نص طويل نوجزه فيما يلى : أن كتاب ديسقوريديس ترجم فى بغداد أيام الخليفة المتوكل على يد اصطفن بن بسيل الترجمان ، ثم راجع الترجمة وصححها حنين بن اسحاق . وقد ترجم اصطفن ما استطاع ترجمته من أسماء الأدوية وترك ما لم يعرفه على صورته اليونانية لعل أحداً ممن يأتون بعده يستطيع العثور على ما يقابله بالعربية . وقد ظلت هذه الترجمة مستعملة بالمشرق والأندلس إلى أيام عبد الرحمن النـاصر ، « فكاتبه أرمـانيوس الملك ملك قسطنطينية ، أحسب فى سنة سبع وثلاثين وثلثمائة ، وهاداه بهدايا لها قدر عظيم » فى جملتها كتاب ديسقوريدس « وكتاب هُروسيُس صاحب القصص ، وهو تاريخ للروم عجيب فيه أخبار الدهور وقصص الملوك الأول وفوائد عظيمة ، وكتب أرمانيوس فى كتابه إلى الناصر إن كتابَ ديسقوريدس لا تجتنى فائدته إلا برجل يحسن العبارة باللسان اليونانى ، ويعرف أشخاص تلك الأدوية ، فإن كان فى بلدك من يحسن ذلك فزتَ أيها الملك

= ولا شك فى أنهـــا من كتابات المستعربين . ولكننى لم استطع أن أتبين ما إذا كانت ترجمة لأصل لاتينى يمكن التعرف عليه أو جمعاً وتصنيفاً من أصول شتى ، وربما كان الفصل فى ذلك يتعدى حدود قدرتى . وقد تبينت فى بعض أوراق مخطوطـة القرويين التى تتناول التاريخ العام فقرات من محاورات لصرانية اسلامية ، وبعض هذه الفقرات تضم المحـاورة المعروفة بين الجاثليق النسطورى طيماوس (Timoteo) والخليفة العباسى المهدى (انظر عنها كتاب G. Graf المسمى *Gesch, der christl. arab. Literatur* II, 115—118) وفقرات أخرى من محاورة بين كاثوليكى و « أعرابى » ولم استطع التعرف على حقيقتها . وهذان النصان يدلان على أنه كانت هناك علاقات أدبية بين المستعربين والكنائس المسيحية الشرقية ، ووجود هذه العلاقات ثابت من الترجمة اللاتينية لمقال الكندى فى فضل الاسلام .

بفائدة الكتاب ، أما كتاب هروسيُس ، فعندك فى بلدك من اللطينيين من يقرأه باللسان اللطينى ، وإن كشفتهم عنه نقلوه لك من اللطينى إلى اللسان العربى[١]».

«ولم يكن امبراطور الدولة البيزنطية فى سنة ٩٤٨ أو ٩٤٩ هو رومانوس الأول ليكابينوس (٩١٩ — ٩٤٤) أو رومانوس الثانى (٩٥٩ — ٩٦٩) وانما قسطنطين السابع المعروف ببورفيروجينيتوس (٩٤٤ أو ٩٤٥—٩٥٩) الذى يذكر المؤرخون الأندلسيون بالفعل أنه أرسل سفارة إلى قرطبة فى صيف ٩٤٩/٣٣٨ وأخرى سابقة عليها سنة ٩٤٧/٣٣٦—٩٤٨ ، فقد ذكر ابن خلدون ذلك وأضاف أن خليفة قرطبة أرسل سفارة ردا على هاتين السفارتين ، ولا أهمية هنا للاختلاف الواضح فى التواريخ ، فإن للخطأ فيها أسبابا شتى[٢]» .

«ومع أنه لا يبدو أنه ليس هناك ما يدعو إلى الشك فى اهداء الامبراطور البيزنطى لكتاب ديوسقوريدس ، رغم الخلط بين رومانوس وقسطنطين السابع ، فإن الشك فى إرساله كتاب هروشيش له ما يبرره ، فإنه ليبدو لنا مستحيلا — أو بعيد الاحتمال على الأقل — أن توجد فى القسطنطينية مخطوطات لاتينية فى القرن العاشر[٣] ، وربما يكون اسم كتاب هروشيش قد أضيف إلى اسم

---

(١) انظر ابن أبى أصيبعة : كتاب عيون الأنباء فى طبقات الأطباء — الباب الثالث عشر فى أطباء افريقية والأندلس . بتحقيق نور الدين عبد القادر والحكيم هنرى جاهيه (الجزائر ١٩٥٨) ص ٣٩ — ٤٠ وانظر أيضا : مقدمة كتاب «طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل بتحقيق فؤاد السيد (القاهرة ١٩٥٥) ، وقد أفرد الأستاذ المحقق فى تلك المقدمة فصلا ضافياً عن كتاب هروشيش وترجمته إلى العربية وأورد فى أثناء هذا الفصل ملخصاً لمقال ليفى دلا فيدا الذى نحن بصدده ، انظر ص كط—لج من المقدمة .

(٢) انظر :
E. Lévi-Provençal, *Hist. de l'Espagne Musulmane*, II, (Paris 1950) 143—153
ولاحظ نفس المراجع الخاصة بمخطوطات ديوسقوريدس فى ص ١٥٠ من المقال المذكور .
وانظر : César Dubler, *La Materia Médica de Dioscorides*, I (Barcelona 1953), 50—51

(٣) ربما لا يكون ذلك بعيد الاحتمال إلى هذا الحد ، انظر :
F. Dölger: *Rom in der Gedankenwelt der Byzantiner*, in Zeitschrift für Kirchengeschichte. LVI (1937), 1—42
وخاصة ص ٦ — ٧ من هذا المقال وآخره .

كتاب ديوسقوريدس بسبب الخلط والاضطراب الذى أحاط بالخبر كله ، وربما يكون السبب كذلك أن ترجمة عربية لكتاب هروشيش ظهرت فى الأندلس حوالى ذلك الوقت » .

« ويعطينا ابن خلدون ، وهو المؤلف العربى الوحيد الذى انتفع انتفاعا كبيراً بكتب هروشيش فى تصنيف تاريخه المعروف[١] ، معلومات دقيقة عن ظروف هذه الترجمة ومن قاموا بها ، فقد قال فى كلامه عن حكام بنى اسرائيل بعد يوشع يذكر بعض مراجعه : « وما نقله أيضا هروشيوش مؤرخ الروم فى كتابه الذى ترجمه للحكم المستنصر من بنى أمية قاضى النصارى وترجمانهم بقرطبة وقاسم ابن أصبغ . . .[٢] » ويقول فى فصل آخر « وخبر هروشيوش مقدم ، لأن واضعيه مسلمان كانا يترجمان لخلفاء الإسلام بقرطبة ، وهما معروفان ووضعا الكتاب ، فالله أعلم بحقيقة الأمر فى ذلك[٣] » .

« والحكم المستنصر هو ثانى خلفاء بنى أمية فى الأندلس ، فقد خلف أباه عبد الرحمن الناصر فى سنة ٣٥٠/٩٦١ ، ولكن ترجمة كتاب هروشيش لابد أن تكون قد تمت قبل ذلك بسنوات ، أى بينما كان الحكم لا يزال وليا للعهد . وقد عمّر قاسم بن أصبغ البيانى طويلا فقد ولد فى سنة ٢٤٤/٨٥٩ ومات سنة ٣٤١/٩٥٢ وفقد ذاكرته قبل موته بسنوات (فى سنة ٣٣٧/٩٤٨ —٩٤٩) بسبب كبر السن ، ومن هنا فإننا نستبعد أن يكون قد قام بترجمة كتاب ضخم مثل تاريخ هروشيش وصل إلى الأندلس فى تلك السنة الأخيرة أو فى التى قبلها على أقل تقدير . وإذن فلا بد أن يكون قاسم قد قام بهذا العمل قبل ذلك ، ربما بسنوات كثيرة . لقد كان قاسم مؤدِّبا للحكم فى شبابه

---

(١) أشار إلى انتفاع ابن خلدون بتاريخ هروشيش : O. A. Machado فى مقاله الآنف الذكر مجلد ١ و ٢ ص ١٤١—١٤٢

(٢) ابن خلدون ، كتاب العبر . طبعة بولاق ، ج ٢ ص ٨٨

(٣) نفس المصدر والجزء ص ١٩٧

(عندما تولى الحكم الخلافة بعد حياة أبيه الطويلة كانت السن قد تقدمت به) ومن الممكن أن يكون قيامه بالترجمة أيام كان مؤدبا للحكم . والآن نسأل : من كان « قاضى أو مترجم النصارى » الذى اشترك فى العمل مع قاسم ؟ لا نستطيع أن نقطع برأى فى ذلك ، وعلى أى حال فإننا نستبعد أن يكون مسلماً كما قال ابن خلدون ، فإن وظيفة قاضى النصارى التى يرد ذكرها مراراً فى المراجع الأندلسية كان يتولاها نصرانى ، بل يبدو لى أنه كان من رجال الدين[١] . وقد كان سيمونيت هو آخر من توفر على دراسة هذا الموضوع . وقد ذكر اثنين من قضاة النصارى يحتمل أن يكون أحدهما قد قام بذلك العمل وهما حفص بن ألبر (أو ألفارو) والوليد بن خيزران الذى كان يسمى أيضا ابن مغيث ، والثانى منهما كان معاصراً للحكم المستنصر ، ومن الممكن أن يكون هو الذى اشترك مع قاسم فى ذلك العمل » .

« والغالب أن التعاون بين الاثنين جرى على أن يقوم النصرانى بنقل مضمون النص إلى صاحبه ، وذلك بحسب معرفته باللاتينية والروايات التاريخية القديمة ، مهما كانت هذه المعرفة ، ويتولى قاسم صياغة ذلك فى قالب عربى مضفيا عليه بلاغة تسيغه لقراء العربية . ونلاحظ آثاراً واضحة لعمل كل منهما فى مخطوطة جامعة كولومبيا . ولا شك أن المخطوط اللاتينى الذى ترجمه الاثنان كان من أصل اسبانى ، وذلك يبدو واضحا من الطابع الخاص الذى تبدو به هذه الترجمة العربية إذا راجعناها على أصول لاتينية أخرى » .

« ولم يشك فى أصالة الترجمة العربية لتاريخ هروشيوش أحد من العلماء القلائل الذين تتبعوا آثارها فى الكتب العربية المختلفة ، ولو أن بعض الفقرات

---

(١) Simonet, *Historia de los Mozárabes de España*, pp. 111—112, 171, 622
وانظر أيضا : E. Lévi Provençal, *Hist. de l'Espagne Musulmane*, III (Paris 1953), 219 .

التى وردت فى تلك الكتب لا توجد فى الأصل الذى لدينا[١]، مما جعل دى سلان يقول إن ترجمة هروشيش مختلقة أو مزعومة[٢]، وذهب اشتاينشنايدر إلى أن ترجمة عربية لهروشيش لا وجود لها إلا فى رأى بعض العلماء[٣]، وبعد ذلك بقليل قرر وليام مارسيه بما عُرف عنه من ملكة النقد الدقيق أن المعلومات التى يوردها ابن خلدون عن تاريخ الرومان قبل الامبراطورية لا بد أن يكون مرجعها الأخير تاريخ هروشيش ، ولو أنه وقع فى أخطاء كثيرة عند النقل[٤]» .

إلى هنا ينتهى ما نقلناه من كلام ليفى دلا فيدا بهذا الصدد[٥] .

وإذن فقد تداول أهل العلم فى الأندلس خلال النصف الأول من القرن الرابع الهجرى كتاباً عاماً فى الجغرافية والتاريخ يقدم إليهم جانباً طيباً من المعلومات الصحيحة إلى حد ما عن وصف المعمور وتاريخ العصور القديمة ، وهو كتاب مصوغ فى لغة أدبية جيدة تغرى القارىء بالمطالعة وتفتح أذهان المتطلعين إلى الجغرافية والتاريخ على آفاق جديدة من العلم والمعرفة وتبعث من يريد منهم على الاتجاه بملكاته إلى هذه الناحية . ومن الواضح أن أثر هذه الترجمة فى هذا الميدان كان مباشراً ، فمن بين تلاميذ قاسم بن أصبغ ظهر أول مؤرخ جغرافى أندلسى وهو أحمد بن محمد الرازى ، وقد كتب كتابه على غرار

---

(١) لم يعن بعد سلفستر دى ساسى بتتبع آثار ترجمة هروشيش فى الكتابات العربية إلا جوستات فلوجل فى المقال الذى نشره فى *Allgemeine Encyclopidie der Wissenscbaften und Künste* التى تام بتحريرها Ersch und Gruber ، القسم الثالث ، الجزء الخامس (١٨٣٤) ص ٥١٤ ، فقد أضاف إلى المادة التى جمعها سلفستر دى ساسى عبارة وردت فى كشف الظنون لحاجى خليفة (طبعة أوروبا ج ٥ ص ١٧١ — ١٧٢ تعليق رقم ١٠٦٢) ، وإشارة أخرى وردت فى فهرست ابن النديم ، ص ٢٥٥ يعتقد فلوجل أن المراد بها هروشيش .

(٢) انظر ترجمته الفرنسية لمقدمة ابن خلدون ، ج ١ ص ٤٧٤ وج ٣ ص ٢٤١ وكذلك مجموع مختاراته المسمى *Notices et Extraits des Manuscrits Arabes* المختارتان رقم ١٩ و ٢١

(٣) Steinschneider, *Die arabische Uebersetzungen aus dem Griecbiscben,* in *Beibefte zum Centralblatt für Bibliotekswesen,* V (1890), 18—19

(٤) أنظر Revue critique d'historie et de littérature, N. S. 96 (1929), 262

(٥) G. Lévi Della vida, *Ta Iraduzione Arabe della Storie di Orosio.* Al Andalus, vol. XIX, fasc. 2, pp. 257—265

كتاب هروشيش : مقدمة جغرافية وافية يليها التاريخ ، وأخذ عن هروشيش الوصف العام لشبه الجزيرة والتصور البطليموسى لهيئتهـا ووصفها . وعلى هذا الأسلوب مضى من أتى بعد الرازى من مؤرخى الأندلس وجغرافييه ، فقد حرص كل مؤرخيه على أن يقدموا لمؤلفاتهم بمقدمات جغرافية ، وأما الجغرافيون منهم فقد ضمنوا أوصافهم للبلاد ما حضرهم من وقائع التاريخ كما نرى عند العذرى والبكرى . ومن الجدير بالملاحظة أننا لا نجد كتاباً فى التاريخ فى الأندلس لا نستطيع أن نعده أيضاً كتاب جغرافية .

ويرجع هذا فى المكان الأول إلى الصورة التى ظهر بها تاريخ هروشيش فى ترجمته العربية ، ويرجع فى المحل الثانى إلى أسلوب قاسم بن أصبغ ، فهو أسلوب سليم قوى بليغ فى معظم أجزائه وإلى مكانة قاسم نفسه ، فقد كان اشتراكه فى ترجمة هذا الكتاب إعزازاً للجغرافية والتاريخ وإشعاراً للناس بأنهما من العلوم الجديرة بعناية أهل العلم وطالبيه .

ولا شك فى أن قاسم بن أصبغ بذل جهداً عظيما فى صياغة هذه الترجمة ، فإن النص حافل بالأعلام الجغرافية والتاريخية التى كانت تعتبر جديدة على العرب إذ ذاك . ومع أن نص هروشيش جامد جاف يسرد أسماء المواضع وحدودها على طريقة بطليموس ، ويورد وقائع الحروب متوالية لا يربط بينها إلا منهجه الخاص فى تفسير التاريخ ، إلا أن قاسماً عرف كيف يعرّب الأعلام الجغرافية والتاريخية أو يرسمها على نحو بالغ الدقة يذكرنا بأسلوب رفاعة رافع الطهطاوى ومدرسة المترجمين التى عملت معه فى القاهرة منذ قرن ونيف ، وما أشبه الأمس بأول أمس ! وواضح أن الوليد بن خيزران وقاسم بن أصبغ اجتهدا فى أن تكون الترجمة مطابقة للأصل على قدر الإمكان ، حتى فاتحة الكتاب التى يخاطب هروشيش فيها أَغَشْتِينَ (القديس أوغسطين) والتى يشبه نفسه فيها بالكلب الأمين الذى يتبع « أربابه » عن حب غريزى لهم مُرَكّب فى طبعه ، حتى هذه يوردها فى صورة هى أقرب ما تكون إلى صورتها اللاتينية ، مع مجافاة هذا التشبيه للذوق العربى .

ويعنينا هنا القسم الجغرافى ، وهو صغير ولكنه دقيق . هذا القسم هو الباب الثانى من الجزء الأول من الكتاب ويبدأ بقوله : « قسم العلماء الماضون دَوْرَ الأرض المحدق عليه البحر المحيط على ثلاثة أقسام : قسم يسمى أشه أشيَه ، وهو سهم سام بن نوح ، وقسم يسمى أورُبّا ، وهو سهم يافث بن نوح ، وقسم سُمِّى إفريقية ، وهو سهم حام بن نوح » . وقاسم بن أصبغ لا يستعمل اسم « قارة » بل يسميها « قسما » أو « سهما » ولعل هذا هو الذى حال بين الكثيرين من جغرافيي الأندلس وبين أن يتبينوا انقسام الدنيا القديمة إلى قارات ثلاث .

والترجمة العربية لهروشيش فى هذا القسم الجغرافى مطابقة للأصل اللاتينى كلمة كلمة تقريباً ، فلم يسقط المترجمان إلا عبارات قليلة لا تؤثر فى السياق . وقد تبينت عند مقابلة الترجمة على الأصل عِظَم الجهد الذى بذله قاسم للعثور على مرادفات عربية صحيحة لمصطلحات جغرافية لاتينية كثيرة استعملها هروشيش . أما الرسم العربى للأعلام فدقيق غاية الدقة ، وقد تكلف قاسم عناء شديداً فى إيراد هذه الأعلام فى صورة هى أقرب ما تكون لرسمها اللاتينى ، كما سنتبين فى النماذج التى سنعرضها فيما يلى .

بعد كلام عام مختصر عن تقسيم العالم القديم إلى ثلاثة أقسام يبدأ الكتاب بنظرة عامة على كل قسم منها ، فيقول عن قسم أوروبا « إن ابتداءه من ناحية الجوف من النهر الذى يدعى طناي (Tanai) من مهرق ماء الجبال المنحرفة على المحيط الذى يدعى شَرْمَطِغُم (Sarmaticum) ، ثم يجاوز ذلك النهرُ متالعَ الاسكندر الأعظم ومواضع محاربة قيصر إلى تخوم الروبشكين[1] . فهناك يغمر المروج التى تدعى مَوُطِدِش (Maeotides) . وتفيض تلك المياه فيضاً

(١) المراد هنا « حتى نهر الروبيكون Rubicon » وهو النهر الذى كان يحدد منطقة نفوذ قيصر قبل محاربة بومبى . والنص اللاتينى الذى نراجع عليه يقول هنا : Roxonalorum Sinibus Situs أى تخوم خليج الروكسلانيين . والأصل العربى أصح هنا وهو مترجم عن مخطوطة يرد فيها اللفظ فى صورة Rhobascorum و Robascarum كما نرى فى مخالفات النص اللاتينى المنشور (راجع تعليق ١٠ ص ١١) وقول المترجين « مواضع محاربة قيصر » يدل على أنهما كانا يعرفان المراد بهذا اللفظ .

عظيما عند مدينة طودوشية (Theodosia) . ثم يتسع موقعها فى البحر الذى يدعى أخشين (Pontus Euxinus) . وهذه المروج تمتد متضايقة نحو القسطنطينية إلى أن تتصل ببحرنا (mare Nostrum) هذا الذى نسميه المتوسط . وآخر قسم أوروبا فى الغرب بلد الأندلس (Hispania) والبحر المحيط . وأقصى ذلك عند جزيرة قادس حيث ضم هَرْكُلَش ، وحيث يكون مدخل البحر المتوسط فى البحر المحيط » وهذا مثل من أسلوب الترجمة تظهر فيه الدقة فى الأداء ورسم الأعلام وسلامة الأسلوب ، بل بلاغته .

وبعد أن يلقى هروشيش نظرة موجزة عن كل من قسمى افريقية وآسية ، يعود إلى تفصيل ما أجمل قائلا : « وسنصف سهم أوروبا بأقصى ما ندرك من وصف » . ولكنه لا يفصل الكلام ، وإنما يعرض بلاد أوروبا بلداً بلداً فى إيجاز شديد .

وقد رأيت أنه من المفيد فى هذا المجال أن آتى بنص كلامه عن أوروبا حتى نتبين قيمة المادة الجغرافية التى أتاحها عمل قاسم بن أصبغ لأهل العلم فى الأندلس[١] . وإنما اخترت أوروبا لأنها كانت إلى ذلك الحين بالنسبة لأهل الجغرافية فى شرق العالم الإسلامى وغربه أشبه بالعالم المجهول ، وستنير التفاصيل الواردة فى هذه الترجمة الطريق أمام جغرافيي الأندلس بعد ذلك . وسنرى فيما يلى من أجزاء هذا البحث كيف طوّر الجغرافيون الأندلسيون هذه المعلومات القليلة الجافة التى لا تزيد على ذكر أسماء البلاد وحدودها إلى جغرافية بشرية حقيقية ، فيها كلام عن السكان وصفاتهم وأعمالهم وصناعاتهم وزراعاتهم وعوائدهم ، وستتبين هذا بوجه خاص فيما يتصل بالأندلس . وفرق عظيم بين كلام هروشيش وكلام الرازى عن ذلك البلد ، وكلاهما من أبنائه . فعلى حين يكتفى هروشيش بحدود البلد وبعض أقسامه ومدنه ، نجد الرازى يبدأ بمقدمة طويلة عن الجغرافية العامة لشبه الجزيرة ، ثم يتكلم عن كل ناحية من نواحيه بتفصيل واف ، ثم

(١) القطعة التى سأوردها خاصة بأوروبا توجد فى مخطوطة هروشيش من أسفل ص ١٧ إلى منتصف ص ٨ ب . ويقابلها فى الأصل اللاتينى المطبوع الذى نراجع عليه من ص ٢٢ إلى ص ٢٨

يجىء العذرى فيزيد ويفصل ويعرض نواحى الزراعة والحاصلات والرى والخراج والضرائب ، ثم يليه مَن بعده فينوعون الكلام ويوسعون أطرافه حتى نصل إلى قمم علم الجغرافية فى أوروبا فى العصور الوسطى على الاطلاق : الادريسى وابن خلدون وابن سعيد وابن الخطيب .

ومن أسف أن المخطوطة التى نعتمد عليها أفسدت بعض أجزائها الأرضة وأكل الزمن والإهمال أطراف صفحاتها ، وسنحاول أن نعوض بعض الناقص بالمقابلة على الأصل اللاتينى ، وتبقى بعض ذلك فراغات يسيرة وقلق فى بعض العبارات ، ونرجو أن تتاح لنا مخطوطة أخرى تعيننا على تدارك ما لم يسعفنا به ما بين أيدينا . وقد وضعتُ المقابل اللاتينى لكل الأعلام الجغرافية كما وردت فى النص المطبوع لكتاب هروشيش ، ولم أورد مفارقات هذا الأصل اللاتينى ، لأنها كثيرة جدا ، وانما اكتفيت منها بالصورة القريبة من الرسم العربى فى الترجمة التى بين أيدينا .

«[من جبال رفايه المجاورة لنهر طَنَاى وسهول مؤطدش][1] والتى هى فى الشرق ، وعلى [سيف][2] البحر المحيط الجوفى حتى إلى بلد [غَالِّيشْ بليقه ونهر رُودَنُه][3] الذى هو من ناحية الغرب ، ومنها إلى نهر دنوبية Danubium الذى هو فى القبلة ، وجريته إلى الشرق حتى يدخل فى البحر المتوسط[4] .

---

(١) العبارة ناقصة من الأصل ، وقد أكملتها من اللاتينية ، ونصها هناك :
A montibus Riphaeis ac flumine Tanai, Maeotidisque paludibus ..

(٢) هذه الكلمة فى الأصل متآكلة ، وهى تقرأ هناك : ريف . وقد جعلتها سيف ، لأن النص فى اللاتينية : per littus septentrinalis oceani وسيف البحر هو شاطئه .

(٣) اسم البلد وما بعده متآكل فى الأصل ، وفى اللاتينية :
ad Galliam Belgicam et flumen Rhenum
ويقابل ما وضعته في المتن بين قوسين.
وسيرد الكلام على غاليه بليقه هذه ، وهى جزء من غالة كانت تسكنها قبائل البلجيين Belgae . أما نهر رودنه فهو الرين .

(٤) النص اللاتينى لا يحدد هنا البحر الأبيض ، بل يقول : ponto excipitur وواضح أن المراد هنا تحديد عام لجزء كبير من شرق أوروبا يعتبره المؤلف اقليما واحدا ، ويقول إنه يبدأ من جبال فى الشرق يسميها جبال رفايه عند نهر طناى الذى يبدو أنه الدنيبر ثم يقول إن المحيط الشمالى (الجوفى) يحيط بها (من الشمال) حتى ما يعرف الآن ببلجيكا ، ويحدها من الغرب نهرا الرين والطونه .

«فإن شرق هذا البلد يدعى ألانية (Alania) وفى وسطها بلد داجية (Dacia) وبعدها غوشية (Gothia) وبعدها يرمانية (Germania) ، الذى أعظم أجزائه بأيدى الشّوابين (Suevi) [١] . فى رجوا [٢] وفى جميع هذه البلاد من الأجناس أربعة وخمسون جنساً .

« وسنصف ما يغلق عليه نهر دَنُوبية (Danubium) إلى بحرنا المتوسط دون الأجناس التى وصفتها .

« البلد الذى يدعى مُوَاشية (Moesia) : شرقه مدخل نهر دنوبية ، ومن تحت الشرق إلى الجنوب بلد طراجية (Thracia) ، ومن ناحية القبلة بلد مجدونية (Macedonia) ، وفيما بين القبلة والغرب بلد دلمازية (Dalmatia) . ومن ناحية الغرب [بلد إشتريه Istria] ، وما بين الغرب والجوف بلد بنونية (Pannonia) ومن ناحية الجوف نهر دنوبية [٣] .

البلد الذى يسمى طراجية : شرقه خليج خارج من البحر المتوسط [٤] ومدينة قسطنطينية [٥] . ومن ناحية الجوف بعض بلد دلمازية ، وخليج خارج من البحر الذى يقال له أخشينوس Pontus Euxinus المتوسط فى الغرب . وما بين الغرب والقبلة بلد مجذونية . وفى القبلة الموضع الذى يقال فيه للبحر المتوسط أياؤه [٦] .

---

(١) المؤلف هنا يذكر القبائل الجرمانية التى استقرت فى ذلك الجزء الكبير الذى يصفه ، وهو ينسب كل جزء من أجزائه إلى القبيلة التى سكنته معتبرا إياه بلدها .

(٢) وردت هذه الكلمة هكذا فى الأصل . ولا وجود لما يقابلها فى النص اللاتينى :
...Suevi tenet: quorum omnium sunt gentes quinquaginta quatuor

(٣) هذه العبارة محرفة فى النسخة التى لدينا ، لأن مقابلها اللاتينى :
Ab occasu Istriam, a circio Pannoniam وإلى الغرب إستريه ، ومن ناحية الجوف بنونية .

(٤) الأصل اللاتينى يقول هنا : Propntidis sinum .

(٥) هنا أسقط المترجان عبارة quae Byzantium prius dicta est .

(٦) كذا . وفى الأصل اللاتينى Aegaeum وهو ما يعرف اليوم ببحر إيجه ، وعلى هذا فيمكن تصويب الصورة الواردة فى الترجمة إلى إيجاوه أو إجاوة .

بألانيا • هى بلاد الآلان وعوشيه (كذا) هى بلاد القوط ويوماته هى بلاد الجرمان.

« البلد الذى يدعى مجذونية (Macedonia) : شرقه الموضع الذى يسمى فيه البحر المتوسط أياؤه [وجنوبه بلد طراجية ، ومن تحت الشرق إلى الجنوب بلد أوبويه وخليج مجدونية][1]. وفيما بين الشرق والقبلة بلد أقاييه (Achaia) ، وخليج خارج من المتوسط ، وهو خليج بلد مجذونية . ومن ناحية القبلة والغرب بلد دَلْمَازيه ،[2] وما بين الغرب والجوف بلد دَرْدَانية (Dardania) ، وفى الجوف بلد مُواشِيَة (Moesia) .

« البلد الذى يدعى أقايية (Achaia) : يكاد البحر يحدق به من كل جهاته . شرقه بحر مِرْتِيَه (Myrtoum mare) ، وما بين الشرق والقبلة بحر جزيرة قريطش (mare Creticum) ، وفى القبلة البحر اليونانى (Ionium mare) ، وما بين الغرب والقبلة ، وفى الغرب الجزيرتان اللتان يقال لهما جَبَلاَنِيَة (Cephalonia) وقسبورية (Cassiopa) ، وفى الجوف خليج مدينة قُرِنْثُه (Corynthium) ، ليس بالبعيد من مدينة الأطيناشيين (Atenaii) من الروم الغريقيين (Graeci) .

« البلد الذى يدعى دَلْمَازية (Dalmatia) : شرقه بلد مجذونية ، وفيما بين الشرق والجوف بلد دردانية (Dardania) ، وفى الجوف بلد مواشية ، وفى الغرب بلد إشترية (Istria) والخليج الذى يسمى لِبُورِيه (Sinum Liburicum) والجزائر التى يقول لها لِبُرْنقِشْ (Liburnicas)[3] ، وفى القبلة الخليج الذى يدعى أدرياطِقُو (Adriaticum) .

---

(١) أسقط الترجمان هذه العبارة وهى فى الأصل اللاتينى :
à borea Thraciam, ab euro Euboeam et Macedonicum sinum.

(٢) سقطت من الترجمة العربية هنا عبارة كبيرة :
a favonio montes Acroceraunios in angustius Adriateci Sinus, qui montes sunt contra Apuliam atque Brundusium.

(٣) فى الأصل لبترقش وهو تصحيف ، لأن الأصل اللاتينى Liburnicum وقد قومت الكلمة فى المتن على هذا الأساس . وقد سقطت هنا من الأصل العربى الذى بين أيدينا عبارات كثيرة . راجع الأصل اللاتينى ص ٢٤

« البلد الذى يدعى بنونية ونورقش[١] [وراتيه] : شرقها بلد مواشية وبعض بلد اسْتَرية (Istria) ، وفيما بين القبلة والغرب جبل أَلْبَشْ (Alpes Penninas) المتصل بالأندلس الأعلى . وفى الغرب بلد غالية بِلِيقَه ، [وفيما بين الجوف والقبلة من نهر دنوبية توجد الحدود الفاصلة بين بلد يرمانية وبلد غالية الواقع فيما يلى نهر دنوبية . وفى الجوف نهر دنوبية][٢] وبلد يرمانية .

« البلد الذى يدعى إيطالية : وهو بلد مستطيل ما بين الشرق والقبلة إلى ما بين الغرب والجوف ، وحَدُّهُ فيما بين القبلة والغرب البحرُ المتوسط ، وما بين القبلة والشرق الخليج المسمى أدرياطقو ، ويحصر هذا البلد من هذه الناحية مستطيلا جبال ألبة (Alpes) ، وذلك فى ناحية الموضع الذى يقال فيه للبحر [الخليج] الغالقىّ (sinum Gallicum) إلى الخليج المسمى لِغُشْتِقو (Ligusticum sinum) متاخما لكورة نربونه . ثم إلى بلد غالّيُش وبلد راسية (Raetia أو Rhetia) [حيث ينفصل بلد غالّيُش عن بلد راسية][٣] حتى ينتهى إلى الخليج المسمى لِبُرْنِقو (Sinum Liburnicum) .

« البلد الذى يدعى غاللية بِلِقَه (Gallia Belgica) : شرقه ريف نهر رانه (Rhenus = الرين) وبلد يِرْمَانيَه . وما بين الشرق والقبلة جبل ألبة (Alpes) الذى يقال له أبنينه (Alpes Penninas) ، وفى القبلة بلد نربونه ، وفى الغرب بلد لغدون (Gallia Lugdunensis) . وما بين الغرب والجوف البحر المحيط الذى هو بلد برطانية[٤] . وفى الجوف برطانية .

---

(١) فى الأصل اللاتينى Pannonia et Naricus et Raetia ولهذا فينبغى تقويم نورقش إلى نوريقو .

(٢) هذا السطر يقع فى أول الورقة وهو متآكل غير مقروء ، وقد عوضت النقص من النص اللاتينى الذى يقول هنا :
...a circio Danubii fontem, et limitem, qui Germaniam et Gallia inter Danubium Galliamque secernit, a septentrione Danubium et Germaniam.

(٣) العبارة الواردة بين الحاصرتين ساقطة من المخطوط ، وهى فى الأصل اللاتينى :
deinde Galliam Rhetiamque secludit

(٤) النص اللاتينى يختلف هنا بعض الشىء عن ذلك ، فهو يقول: a circio oceanum Britannicum = وفى الجوف بحر بريطانيا .

« البلد الذى يدعى غاللّية لُغدُون (Gallia Lugdunensis) : هو بلد مستطيل ضيق مستدير يحيط بنصف أرض أقطانية (Aquitania) ، شرقه بلد غالية بليقة ، وقبلته بعض بلد نربونه (Provincia Narbonensis) حيث مدينة أرِلَطَه[١] ، ومدخل نهر ردانه (Rhodanus) فى البحر المتوسط الذى يدعى البحر الغالى[٢] .

« البلد الذى يدعى نربونه (Provincia Narbonensis) : شرقه بعض بلد غاللّية ، وجبل ألبة ، حيث يسمى الجبل قوتَشْ (Cottias)[٣] فى غرب الأندلس[٤] . وما بين الغرب والجوف بلد أقطانية ، وفى الغرب بلد لُغْدُون . وما بين الجوف والشرق كورة غالية بليقة . وفى القبلة البحر الغالى الذى بين سردانية وجزائر ميورقة ومنورقة . وله جزائر فى الموضع الذى يدخل فيه نهر رُودَنُه (Rhodanus) فى البحر المتوسط تسمى اشتقاذس Insulas Stechadas » .

ثم يلى ذلك الكلام على اسبانيا ، وهو أهم ما يعنينا ههنا ، ولهذا ، فقد رأيت أن أضع الأصل اللاتينى فى مقابل الترجمة العربية تيسيراً للمقابلة وإظهاراً لما بذله المترجمان العربيان من جهد فى العمل الذى قاما به :

« البلد الذى يدعى الأندلس[٥] : جميعه محدَقٌ عليه إلا قليلا بالبحر

«Hispania universa terrarun situ trigona est, et circumfusione

(١) المراد هنا مدينة آرل Arles . وفى الأصل اللاتينى Arelas والصورة العربية صحيحة لأنها تقابل Arelate .

(٢) الترجمة العربية هنا موفقة جدا ، لأن الأصل اللاتينى :
... et mare Gallico Rhodani flumen excipitur...

(٣) فى المخطوط قرتش وقد قومته بما يقابل الاسم فى الأصل اللاتينى . والاسم القديم الكامل لجبال الألب هنا Alpes Cottiae

(٤) كذا ، والصحيح فى شرق الأندلس . والمراد بالأندلس هنا شبه جزيرة إيبيرية .

(٥) يلاحظ أن المترجمين غيرا فى نظام بعض الجمل ، كهاتين الجملتين الأوليين مثلا ، ولذلك لم أستطع أن أضع كل واحدة منها أمام ما يقابلها من الترجمة العربية ، ولكنى اجتهدت فى ذلك ابتداء من جملة « فركنه الواحد . . . » . وقد استغنى المترجمان عن بعض العبارات فيما يلى من النص ، وذلك واضح من مقارنة النصين .

المحيط والبحر المتوسط ، وهو بلد مُرَكَّنٌ ذو ثلاثة أركان ، فَرُكْنه الواحد يقابل الشرق ، فيما بين بلد أقطـانية وبين البحر المتوسط مقابل جزيرة ميورقة ومنورقة . وهنالك يجاور بحر نَرْبُونه .

وركنه الثانى فيما بين الغرب والجوف بناحية مدينة برغنسية فى جليقية(١) حيث الجبل العالى الذى فيه المنارة مقابل بلد برطانية .

وركنه الثالث بناحية جزيرة قادس بين الغرب والقبـلة ، مقابل جبل إفريقية المسمى اتلانتش

والأندلس أندلسان(٢)

فالأندلس الأدنى مبتدأه من ناحية الشرق ، ماضياً مع جبل البرنيو مع الجوف حتى إلى مدينة قنتابريه(٣) وكورة اشتورية ثم إلى البَشْقُنس والأوريطيين ، وهم غربه ، حتى يبلغ بحرنا الأوسط عند [ساحل قرطاجنة .

Oceani Terrhenique pelagi pene insula efficitur. Hujus angulus prior, spectans ad orientem, a dextris Aquitanica provincia, et sinistris Balearico mari coartatus, Narbonensium finibus inseritur. Secundus angulus circium intendit: ubi Brigantia Calleciae civitas sita, altissimam pharum, et inter pauca memorandi operis, ad speculam Britanniae erigit. Tertius ejus angulas est, qua Gades insulae intentae in africun, Atlantem montem interjecto sinu Oceani prospiciunt.

Hispaniam citeriorem ab oriente incipientem, Pyrenaei saltus a parte septentrionis usque ad Cantabros Asturesque deducunt, atque inde Vaccaeos et Oretanos, quos ab occasu habet, posita in

---

(١) فى الأصل بغرلسية فى جليقية ، وذلك سهو من الناسخ ، إذ قدم الغين على الراء .

(٢) أضاف المترجمات هذه العبارة زيادة فى الإيضاح . وقد أصبحت بعد ذلك عبارة تقليدية نجدها عند كثير من جغرافي الأندلس .

(٣) هنا أيضاً وهم الناسخ أو المملى فكتب تنتاربية بدل قنتابرية .

والأندلس الأقصى حده من ناحية الشرق بلد البشقنس والشلطبريين والأوريطيين وفى] الجوفِ والغربِ منه البحر المحيط الغربى وفى القبلة [البحر الذى يحيـ]ط بقـادس [1] [والخليج الخارج المتصل ببحرنا الذى يسمى بحر تيران] [2] » .

Nostri maris littore Cartago determinat. Hispania ulterior habet ab oriente Vaccaeos, Celtiberos, et Oretanos: a septentrione Oceanum, ab occasu oceanum, a meridie Gaditanum Oceani fretum: unde mare Nostrum, quod Tyrrhenum vocatur, immittitur.

ثم يستطرد النص ليستكمل ذكر بلاد أوروبا ، وسأكتفى هنا بالترجمة العربية مع إيراد مقابل الأعلام الجغرافية فى الأصل اللاتينى :

« وفى البحر المحيط جزيرتان يقال لهما برطانية وإ[بارنية واقعتان مقابل شاطىء الأند]لس [3] بناحية بلد غالية ، رأيت أن أضيفها فى هذا الموضع وهما : [جزيرة برطانيـ] [4]ة التى فى البحر المحيط ، فإنها مستطيلة من القبلة إلى الجوف

---

(١) وضعت هذه العبارة فى مقابل Gaditanum Oceani Fretum لأن ذلك المصطلح اللاتينى كان يستعمل للدلالة على المضيق الذى يفصل إفريقية عن اسبانية . ويسمى عند بلينيوس Fretum Herculeum وعند تيتوس ليفيوس Fretum Hispanum . ولفظ Fretum معناه الذراع الممتد من البحر بين أرضين .

انظر : Valbuena, *Diccionario Latino-Español* (Paris) ص ٣٧٩ عمود ٢

(٢) ما بين الحواصر كله ساقط من الأصل . وقد ترجمته عن الأصل اللاتينى . وعبارة بحر تيران أو البحر التيرانى موجودة فى الجغرافية العربية ويفسرونه بأنه البحر الذى يقسم الأرض ، وذلك قريب جداً من معنى Mare Tyrrhenum .

(٣) فى موضع هذه العبارة قطع كبير فى الورقة ، والنص اللاتينى هنا :

Et quoniam oceanus habet insulas, quas Britanniam et Hiberniam vocant, quae in aversa Galliarum parte ad prospectum Hispaniae sitae sunt, breviter explicabuntur.

(٤) القطع فى الورقة يمتد حتى يضيع هاتين الكلمتين .

وقبلة [غالا]يش[١] . ومرسى هذه الجزيرة عند مدينة روط (Rhutubi Portus)[٢] التى فى ساحلها ، وطولها ثمانى مائة ميلا ، وعرضها ألف ومائتا ميل ، ويظهر منها فى لجة البحر جزائر الأركاذيين (Orchney = Arcadas) ، منها عشرون جزيرة مقفرة وثلاث عشرة جزيرة مسكونة ، وخلفها جزيرة تسمى تُلْيَة (Thulia) متفردة من غيرها فى لجة البحر ، قل من يعرفها لبعدها .

« وأما جزيرة إبارنية (Hibernia وهى إيرلندا) فإنها بين جزيرة برطانية والأندلس ، ممتدة مما بين الشرق والقبلة ، إلى بين الغرب والجوف ، مقابل الجبل المطل فى البحر مدخل نهر شِنَا (Scenae flumen وهو نهر الشانون) فى البحر المحيط . وهى أضيق قاعة من جزيرة برطانية ، إلا أنها أطيب جواً وأكثر ثماراً ، يسكنها معا الاسكوثيون (Scotti) ، وهم من الفرنج . وتجاورها أيضاً جزيرة يقال لها مفانية (Mevania)[٣] . طيبة القاعة معتدلة الجو يسكنها الاسكوثيون أيضا

وهذا انقضاء وصفنا بلاد أوروبا » .

وإنما أوردت الفصل الخاص بأوروبا من هذه الترجمة على تواليه لأنه يعطينا فكرة واضحة عن المادة الجديدة التى أضافتها هذه الترجمة إلى الثروة الجغرافية لدى مسلمى الأندلس فى ذلك العصر ، وهى مادة طيبة تقدم صورة موجزة سهلة التصور للمعمور من الأرض فى ذلك الحين ، فقد عرف الناس أن اليابس ينقسم إلى ثلاثة أقسام كبرى ، فى كل قسم منها بلاد وشعوب ومدن وبحار وأنهار وجبال ، وأخذ الناس فكرة واضحة عن ذلك كله ، وانضاف

---

(١) تكملة من الأصل اللاتينى : Gallias .

(٢) كذا فى الأصل اللاتينى ، والصحيح Portus Rutupiae وهو الإسم اللاتينى لبلدة Richsborough على مقربة من لندن .

(٣) كذا فى الأصل والترجمة . والاسم الصحيح Mannia وهو الأصل اللاتينى لاسم جزيرة مان Isle of Man

إلى معلوماتهم حشد من أسماء الأعلام الجغرافية ما بين أسماء دول وشعوب وقبائل وأنهار وجبال وخلجان وشواطىء وما إلى ذلك . وإذا كان الجغرافيون من أهل المشرق قد عرفوا قبل ذلك معلومات أوفى مما يقدمه كتاب هروشيش عن آسيا وافريقية ، فإن المعلومات الخاصة بأوروبا كانت جديدة دون شك ، وهذه كتب الجغرافية والرحلات التى كتبها المشارقة حتى أوان هذه الترجمة بل إلى أواخر القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى لا تكاد تجد فيها شيئا تستطيع الاعتماد عليه عن أوروبا ، فأما رسالة ابن فضلان فلا تصف إلا البلقان وبلاد الروم والبلغار ، وأما كتاب البلدان لليعقوبى فيقف بالكلام عند الأندلس ، وأبو زيد البلخى لا نجد عنده أى إشارة إلى أوروبا ، وكذلك المقدسى . أما الذى يتحدث عنها بعض الشيء فهو ابن حوقل فى الفصل الذى أداره على « بحر الروم » والصورة التى رسمها له مع شرحها ، ومادته لا تتعدى سواحل البحر الأبيض وجزائره وبعض بلاد الدولة البيزنطية مع خلط وخطأ كثير[1] .

وإذن فهذه هى أول مادة مقبولة عن ذلك القسم من المعمور كتبت بالعربية ، صحيح أنها تصور أوروبا وشعوبها فى النصف الأول من القرن الخامس الميلادى ، ولكنها أعطت على أى حال صورة واضحة معقولة لجزء من العالم كان إلى ذلك الحين مجهولا أو كالمجهول تماماً .

وشيء آخر جدير بالتنويه ، وهو المصطلح الجغرافى الذى استحدثته هذه الترجمة ، وهو مصطلح جديد يختلف إلى حد كبير عن المصطلح المشرقى الذى كان جارياً إلى ذلك الحين ، وقد صاغ قاسم بن أصبغ هذه المصطلحات بمهارة ودقة بالغتين ليعبر عن مفهومات جديدة سواء فيما يتصل بالمعالم الجغرافية كمنابع الأنهار ومصابها أو السهول الخضراء المغطاة بالغابات أو الخلجان الصغيرة أو تحديد

---

(١) انظر كتاب صورة الأرض لابن حوقل طبعة كرامرز (ليدن ١٩٣٨) ج ١ ص ١٩٠ — ٢٠٥ — وانظر الصمصه رقم ٢ من الضمائم التى اضفناها في آخر الكتاب.

الاتجاهات عما يقابل قولنا اليوم مثلا الشمال الشرقى أو الجنوب الغربى ، هنا كان توفيق قاسم بن أصبغ عظيما حقا ، وسأورد هنا — على سبيل المثال — بعض المصطلحات التى نجدها فى ذلك القسم الخاص بأوروبا وما يقابلها فى الأصل اللاتينى ومعناها فى مصطلحنا اليوم ، وسنلاحظ أن هذه المصطلحات ستجرى فى الاستعمال الجغرافى الأندلسى فى نفس الحدود الدقيقة التى استعملها قاسم ابن أصبغ فيها :

قسم	Pars	قارة
فى الجوف — من ناحية الجوف	a septentrione	فى الشمال
فى الشرق	ab oriente	
فى الغرب	ab africo(١)	
فى القبلة / فى الجنوب	a meridie	فى الجنوب
بين القبلة والغرب	ab africo	فى الجنوب الغربى
بين الغرب والجوف	a circio	فى الشمال الغربى
تحت الشرق / من تحت الشرق إلى الجنوب / ما بين الشرق والجنوب	ab euro	فى الجنوب الشرقى
بين الغرب والقبلة	ab occasu	فى الجنوب الغربى
بين الشرق والقبلة	a borea / ab euro	فى الجنوب الشرقى
فيما بين الشرق والجوف	ab aquilone	فى الشمال الشرقى

---

(١) المعنى الدقيق لهذا المصطلح : من ناحية الجنوب الغربى راجع : Valbuena, *Diccionario Latino-Español,* مادة Africus ص ٣٥

متلع (متالع)	terminus	سهل ، سهول
حد	lime	
يغلق على	secludit	يحيط بـ
خليج	sinus	
مستدير	inflexus	منحن أو مقوس
كورة	provincia	ولاية
ركن	angulum	زاوية
مُرَكَّن	trigonus	مثلث
ضيِّق ، متضايق	angustius	
محيط	oceanus	
مستطيل	obiscius-longus	

وهذا النموذج الذى قدمناه من جغرافية هروشيش يكفى للدلالة على قيمة الثروة الجغرافية التى قدمها قاسم بن أصبغ إلى أهل العلم فى عصره وعلى الروح التى بثها فيمن حفزته ميوله إلى التأليف فى التاريخ والجغرافية . فقد أصبح فى متناول الأندلسيين مرجع قيم فى تاريخ العصور القديمة ، وخاصة اليونان والرومان والبيزنطيين ، وأطلعوا على تاريخ متصل الحلقات للمسيحية كما يرويه أهلها ، فاتسع أفقهم التاريخى وصارت أحكامهم على ذلك كله أدق وأسلم من أحكام من لم يعتمدوا على أساس طيب كهذا ، وسنرى أثر ذلك بوضوح عند ابن خلدون ، وهو المؤرخ المغربى الأندلسى الوحيد الذى تصدى لكتابة تاريخ عالمى ، وهو يشير فيه المرة بعد المرة لكتاب هروشيش كما رأينا ولا غرابة والحالة هذه أن يكون هذا التاريخ قمة من قمم التأليف التاريخى عند المسلمين ، لأن قدر المؤلف يتوقف على ملكاته ومراجعه معاً ، وفى هذا المجال كان حظ ابن خلدون أوفر من حظوظ أمثاله من أعلام المؤرخين ، وعن ابن خلدون أخذ تلاميذه وخاصة

تقى الدين احمد بن على المقريزى ، وهو من الذين اعتمدوا على هروشيش وأشاروا إليه .

أما من الناحية الجغرافية فهذه المقدمة الجغرافية الموجزة التى قدم بها هروشيش لتاريخه وضعت قاعدة سار عليها كل مؤرخى الأندلس بعد ذلك وهى التقديم للتاريخ بالجغرافية ، أى وصف الميدان قبل ذكر الحوادث ، أى أنهم أصبحوا جغرافيين ومؤرخين فى آن واحد ، وعنوا بالجغرافية عنايتهم بالتاريخ ، ومن هنا غنيت المكتبة الجغرافية الأندلسية على نحو فريد فى بابه حقا ، وانفسح المجال أمام هذا العلم الإنسانى الكبير لينطور ويرقى فى كل اتجاه : اتجاه الوصف الطبيعى والاتجاه البشرى (السكان وعلاقتهم بالبيئة واستخدامهم للموارد الطبيعية وأثر ذلك فى أحوالهم وأخلاقهم) واتجاه وصف الرحلات .

وعند أحمد بن محمد الرازى أول تلاميذ قاسم بن أصبغ سنرى نموذجا بديعاً للاتجاهين الأولين ، سنراه يأخذ المـادة البسيطة التى يقدمها هروشيش بالإضافة إلى المادة المشرقية الطيبة التى وصلت إليه ، ويبنى على ذلك كله جغرافية متكاملة للأندلس تتناول الوصف الطبيعى : الهيأة العامة لشبه الجزيرة ووصف الموقع والسطح (خاصة الجبال والأنهـار) ثم تتناول الأقسام الإدارية واحداً واحداً بالوصف والتفصيل مع ذكر ما فيها من منابع الثروة ووجوه الانتفاع بها . وقد كانت بداية الرازى أساساً اعتمد عليه من أتى بعده من المؤرخين والجغرافيين ، فأما المؤرخون منهم فقد اقتصروا على نقل كلامه وربما اختصروه ، وأما الجغرافيون فقد اعتبروه نقطة بداية وأساساً وزادوا وتوسعوا ، كلٌّ بحسب ميوله ومفهوم الجغرافية عنده . وفى كلا الحالتين نرى الخيط متصلا وخطوات التطور مرتبط بعضها ببعض حتى نصل إلى أعلام من طراز البكرى والإدريسى وابن خلدون ، وكل واحد منهم مدرسة قائمـة بذاتها فى تاريخ علم الجغرافية عند العرب .

وإنها لصفحة مشرقة فى تاريخ العلوم عند العرب نراها فى انتقال كتابات هروشيش إلى عرب الأندلس عن طريق عالم فقيه طموح إلى المعرفة وقسّ

نصرانى مستعرب لسانا وروحا وثقافة ، وقد قاما بهذا العمل بايحاء خليفة مستنير هو الحكم المستنصر كان أقرب إلى العلماء المنصرفين إلى البحث والدرس منه إلى ذوى الجاه والسلطان ، ثم تناولها جغرافى مؤرخ موهوب هو احمد بن محمد الرازى فبنى على كلام هروشيش ووسعه ، وأضاف إليه المادة المشرقية الوافرة وأنشأ جغرافية طبيعية بشرية متكاملة ، ثم جاء من بعده فأكملوا بناءه ووصلوا به إلى أبعد ما وصلت إليه الجغرافية عند العرب من شمول وضبط وتحقيق . ثم تنقضى أيام المسلمين ويجيء ملك علامة نصرانى هو ألفونسو العاشر فيأمر بترجمة جغرافية الرازى إلى الاسبانية ويضمنها تاريخا عاما لاسبانيا ، وعلى أساس هذا التاريخ العام يقوم التأليف فى الجغرافية والتاريخ فى اسبانيا إلى نهاية القرن السادس عشر الميلادى .

فأى برهان هو أنصع من هذا على اتصال شجرة المعرفة الانسانية واستمرارها من عصر لعصر وتعاون الأجيال على رعايتها والعناية بها رغم اختلاف الأديان واللغات والعصور ؟ وأى برهان هو آكد من هذا على ما قام به العرب من دور جليل فى تطوير المعرفة الانسانية والسير بمشعل الحضارة الانسانية خلال العصور التى تسمى مظلمة — وما هي مظلمة بحال!؟ هنا نرى دور العرب من الوضوح بحيث يكاد يلمس باليد . وهذا فى فرع واحد من العلوم ، وفى الميادين الأخرى براهين أخرى لمن درس وبحث وطلب الحقيقة فى بطون المؤلفات .

احمد بن محمد الرازى ومعاصروه

يعتبر احمد بن محمد الرازى أبا الجغرافية والتاريخ فى الأندلس فى آن واحد ، فقد أخذ عن أبيه محمد بن موسى الميل إلى التاريخ والاهتمام بالتأليف فيه ، وزاده اهتماما بهذا الفن شيخه قاسم بن أصبغ البيانى ، وقد رأينا عنايته بالتاريخ واشتهار أمره به فى الأندلس ، ورأينا كيف انصرف مع الوليد بن خيزران إلى ترجمة كتاب هروشيش وكيف قاما بها على ذلك النحو الفريد . فإذا ذكرنا أن هذه الترجمة لم تكن إلا جزءاً يسيراً من ذلك النشاط الثقافى الذى زخرت به قرطبة أيام الحكم المستنصر ، تصورنا البيئة العلمية الأندلسية فى ذلك العصر : بيئة تأليف وترجمة وتجديد وطلب دءوب للعلم والمعرفة مما جعل قرطبة خلال القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى مركزاً من مراكز القيادة والاشعاع للحضارة فى العالم أجمع .

فى هذه البيئة المواتية نشأ احمد بن محمد الرازى ، وكان بطبعه طلعة مُتَهَمِّما بأحوال الدنيا وأخبار البشر ، فانصرف إلى الجغرافية والتاريخ انصرافا تاما أرسى به أسس هذين العلمين فى بلاده ، فلا تقتصر أهمية عمله فى هذا الباب على ما كتبه بنفسه ، وهو كثير ، بل تشمل الحركة التى قادها والأسس التى وضعها وسار عليها من أتى بعده . وستكون كتبه المعين الذى سيستقى منه كل مؤرخى الأندلس وجغرافييه فيما بعد ، والمدرسة التى سيمضى التأليف والجغرافية فى الأندلس على أصولها إلى آخر أيام الأندلس الإسلامي .

ويعنينا هنا احمد بن محمد الرازى الجغرافى لا المؤرخ ، وإن كان الفصل بينهما عسيراً نظراً للترابط الوثيق بين مفهومى هذين العلمين عنده . والمعلومات التى لدينا عن حياته قليلة على أى حال ، معظمها يعتمد على الفقرة القصيرة التى كتبها عنه أبو الوليد الفرضى فى « تاريخ علماء الأندلس » ونقلها عنه ووسعها بعض الشيء أبو محمد على بن حزم فى رسالته المعروفة عن فضل الأندلس التى أورد نصها المقرى . قال ابن الفرضى : « احمد بن محمد بن موسى بن بشير بن حماد بن لقيط الرازى الكنانى ، من أنفسهم . من أهل قرطبة ، يكنى أبا بكر . وفد أبوه على الإمام محمد ، وكان من أهل اللسانة والخطابة . وُلد احمد بالأندلس ، وسمع من احمد بن خالد وقاسم بن أصبغ وغيرهما . و (كان) كثير الرواية حافظاً للاخبار ، وله مؤلفات كثيرة فى أخبار الأندلس وتواريخ دول الملوك فيها ، أديباً بليغاً شاعراً ، توفى رحمه الله يوم الخميس لاثنتى عشرة ليلة خلت من رجب سنة ٣٤٤ وكان مولده يوم الاثنين فى عشر ذى الحجة سنة ٢٧٤ . ذكر ذلك محمد بن حسن[١] » أما كلام ابن حزم فهذا نصه : « ومن الأخبار تواريخ احمد بن محمد بن موسى الرازى فى أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم[٢] كتاب كبير ، وذلك كثير جداً ، وكتاب له فى صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها ، على نحو ما بدأ به ابن أبى طاهر فى أخبار بغداد ، وذكر منازل صحابة أبى جعفر المنصور بها[٣] » ثم قال بعد ذلك : « وكتاب لأحمد بن محمد بن موسى فى أنساب مشاهير أهل الأندلس فى خمسة أسفار ضخمة ، من أحسن كتاب فى الأنساب وأوسعها[٤] » .

---

(١) ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، رقم ١٣٥ ص ٤٠

(٢) كذا فى النص كما أورده المقرى وكما نقله عن الضبى . وقد جعلها ناشر جذوة المقتبس للحميدى « وركبائهم » واعتقد أن صحتها « وكتابهم » .

(٣) رواه المقرى فى نفح الطيب ، ج ٤ ص ١٦٦

(٤) نفس المصدر والجزء ، ص ١٦٧

وقد اعتمد محمد بن فتوح الحميدى على كلام ابن حزم فى المادة التى اختص بها احمد بن محمد الرازى ، ولكن الأمر اختلط عليه ، فأورد مادتين فى الجذوة أولاها عن « احمد بن محمد التاريخى (رقم ١٧٤) والأخرى عن احمد ابن محمد بن موسى الرازى (رقم ١٧٥) ، فأما الأولى فنصها : « احمد بن محمد التاريخى ، عالم بالأخبار ، ألف فى مآثر المغرب كتبا جمة ، منها كتاب ضخم ذكر فيه مسالك الأندلس ومراسيها وأمهات مدنها وأجنادها الستة ، وخواص كل بلد منها ، وما فيه مما ليس فى غيره ، ذكره أبو محمد على بن احمد (ابن حزم) وأثنى عليه[1] » وأما الثانية فقد أورد فيها كلام ابن حزم الذى ذكرناه وختمه بقوله : « كذا قال أبو محمد (ابن حزم) ولم يبين إن كان هو الأول أو غيره ، لأنه ذكر ذلك فى موضعين ، وأنا أظنه الذى قبله والله أعلم[2] » ولم يكن الحميدى بحاجة إلى هذا التساؤل فإن احمد بن محمد التاريخى هو احمد بن محمد الرازى ، والمادتان تدوران على رجل واحد فى الحقيقة ، ولكن الحميدى كان يكتب فى بغداد بعيداً عن مراجعه وأصوله ، فلم يستطع التثبت مما نقل عن أستاذه ابن حزم .

ولكن مادتى الحميدى تنطويان رغم ذلك على فائدة تنفعنا هنا ، فقد ذكر فى أولاها كتاب الرازى عن « مسالك الأندلس » وفى الثانية ذكر تآليفه فى التاريخ ، فكأن الأولى عن الرازى الجغرافى والثانية عن الرازى المؤرخ ، وهذا توفيق لم يقصده الحميدى ، ولكنه كان من حظه ، لأن أحداً غيره من أصحاب معاجم التراجم لم تتيسر له هذه الاشارة اللطيفة إلى ما كتب الرازى فى الجغرافية ، نعم إن ما يسمى هنا « بمسالك الأندلس ومراسيها . . . » إنما هو

---

(١) الحميدى ، جذوة المقتبس (بتحقيق محمد بن تاويت الطنجى ، القاهرة ١٩٥٢) رقم ١٧٤ ص ٩٧

(٢) نفس المصدر رقم ١٧٥ ص ٩٧

المقدمة الجغرافية لتاريخ الرازى الكبير ، ولكن هذا لا يقلل من فضل الحميدى فى هذا المقام . وكما هى العادة نقل احمد بن يحيى بن عميرة الضبى المادتين بنصهما فى بغية الملتمس دون أن يكلف نفسه عناء التثبت من أمر يسير كهذا[١] .

وصف الأندلس للرازى

تناول احمد بن محمد الرازى الجغرافية على أنها علم متمم للتاريخ ، وجغرافيته الباقية بين أيدينا هى فى الغالب مقدمة لكتابه «أخبار ملوك الأندلس» ، لأن القطعة الباقية منها فى ترجمتها إلى البرتغالية والاسبانية القديمتين تستطرد بعد وصف الأندلس إلى الكلام عمن ملكه ومن دخله من الشعوب قبل الفتح العربى . ولا شك فى أن النقول الجغرافية الكثيرة التى نجدها فى نفح الطيب متصلة بقرطبة إنما هى من كتاب احمد الرازى فى صفة قرطبة . أما كتاب « أعيان الموالى بالأندلس » فيغلب أنه كان كتاب تراجم لا يضم مادة جغرافية كثيرة ، وإن كنا لا نستبعد أن تكون فيه هذه الاستطرادات الجغرافية المعروفة فى كتب التراجم المطولة .

سلك احمد الرازى فى جغرافية الأندلس طريقا لا نجد له شبيها فيا نعرف من كتب الجغرافية السابقة عليه فى المشرق : بدأ بتحديد موقع شبه الجزيرة من الأقاليم دون إسراف فى ذلك ، فاكتفى بالقول بأنه فى الإقليم الرابع ، فى حين أننا سنجد على بن سعيد فيا بعد يجعل بعض الأندلس فى الإقليم الرابع وبعضه فى الخامس ، ويجعل له حظاً فى السادس أيضاً . ثم تحدث الرازى بعد ذلك عن هيأة شبه الجزيرة ، فقال إنها هيئة « مركنة ذات ثلاثة أركان » أى

(١) الضبى ، بغية الملتمس ، رقما ٣٢٩ و ٣٣٠ ص ١٤٠

مثلثة ، ناقلا بذلك عبارة هروشيش Hispania trigona est ، ثم يلى ذلك تحديد مواضع تلك الأركان . ويغلب على الظن أنه اتبع ذلك بالفقرة الخاصة بالأسماء التى كانت تطلق على شبه الجزيرة قبل الإسلام ، لأن القطعة التى تدور حولها والمنسوبة لأبى عبيد البكرى ترد فى سياق كلام كله لأحمد بن محمد الرازى .

ثم عقد الرازى بعد ذلك فصلا لمناخ شبه الجزيرة بادئا إياه بعبارة سينقلها عنه الكثيرون من الجغرافيين بعده ، وهى عبارة « والأندلس أندلسان » وقد أضافها الرازى من عنده إلى ما أخذه عن ترجمة هروشيش من تقسيم اسبانيا إلى قسمين كبيرين ، وبينما نجد تقسيم هروشيش لاسبانيا لا يزيد على أن يكون تقسيما سياسياً منقولا عن التقسيم الرومانى الأول إلى Hispania Citerior و Hispania Ulterior مع بيان لحدود كل منهما ، نجد الرازى يستطرد إلى ما هو أبعد من ذلك ، فيجعل قسمى اسبانيا اقليمين مناخيين متباينين « فى اختلاف هبوب أرياحها ومواقع أمطارها وجريان أنهارها : أندلس غربى وأندلس شرقى ، فالغربى منهما ما جرت أوديته إلى البحر المحيط الغربى ، وتمطر بالرياح الغربية . . والحوز الشرقى المعروف بالأندلس الأقصى ، وتجرى أوديته إلى الشرق ، وأمطاره بالريح الشرقية »[(١)]. هنا نجد ذلك الجغرافى المؤرخ الحصيف يمس نظرية كبرى سيعرضها ويفصلها مؤرخو اسبانيا فى العصر الحديث : حقيقة انقسام اسبانيا إلى اسبانيتين : متوسطية La España Mediterranea واسبانيا أطلسية La España Atlántica وهى نظرية سيتوسع فيها رامون مننذذ بيدال فى مقدمة الجزء الأول من تاريخ اسبانيا العام الذى ينشر تحت اشرافه وفى الفصول الأولى من تاريخه لاسبانيا فى القرن الخامس الهجري والحادي عشر الميلادى المعروف باسم « اسبانيا فى عصر السيد » . وهذه الالتفاتة من جانب احمد بن محمد الرازى تدل على

---

(١) رواه المقرى فى نفح الطيب ، ج ١ ص ١٢٨ — ١٢٩

صدق تصوره الجغرافى والتاريخى وعلى فهمه العميق لطبيعة البلد الذى انتمى إليه وعاش فيه وتصدى للكتابة فى جغرافيته وتاريخه .

ولدينا بعد ذلك من جغرافية الرازى فى نصّيها البرتغالى والاسبانى فقرتان على أعظم جانب من الأهمية الجغرافية ، الأولى تتحدث عن أنهار الأندلس والثانية تتحدث عن جباله . وقد وردت هاتان الفقرتان فى نهاية هذين النصين ، أى بعد ذكر الكور والمدن[1] . ويغلب على ظننا أن مكان هاتين الفقرتين يجئ بعد الفقرة التى أوردنا طرفا منها عن تقسيم الأندلس إلى أندلسين ، لأن الطبيعى ، بعد ذكر التقسيم بحسب الرياح والأمطار ومجارى الأنهار أن يجئ تفصيل هذه الأخيرة ، خاصة وأن الذين أتوا بعد الرازى ، كابن النظام سيتوسعون فى هذه النظرية ، وسيذكرون كيف أن جبال اسبانيا أيضاً تسير من الغرب إلى الشرق أو من الشرق إلى الغرب « هابطة جبلا بعد جبل » .

---

(١) انظر الترجمة البرتغالية لجغرافية الرازى الواردة فى :
Crónica Geral de Espanha de 1344, (edição critica do texto português per Luís Filipe Lindley Cintra), vol. II, (Lisboa, 1954), pp. 39 sgg.
ويؤيد ما قلناه فى المتن أن الفقرة الخاصة بتقسيم اسبانيا إلى قسمين تأتى هنا قبل ذكر الأنهار والجبال مباشرة .
أما الترجمة الاسبانية الواردة فى *Crónica General de España de 1344* فقد أورد نصها Pascual de Gayangos فى خطاب الاستقبال الذى ألقاه فى حفل قبوله عضوا فى مجمع التاريخ الاسبانى ونشر بعنوان : *Memoria sobre la autentecidad de la Crónica denominada del Moro Rasis.* ص ٦١ و ٦٢
وقد عثر ليفي بروفنسال على أوراق من جغرافية البكرى تضم هاتين الفقرتين ، ونشر الأولى فى الذيل رقم ٤ الذى علقه على الترجمة الفرنسية للروض المعطار فى خبر الاقطار لابن عبد المنعم الحميرى ، ص ٢٥٠ من القسم الفرنسي . ونشر الثانية الخاصة بالأنهار ذيلا على الترجمة التى عملها من البرتغالية لجغرافية الرازى ، التى نشرها بعنوان :
La Description de l'Espagne de Razi, Al-Andalus, vol. XVIII, fasc. I. p. 101—104
وعثرنا نحن على مخطوط أوفى سنتحدث عنه فى الفصل الخاص بأبى عبيد البكرى .

هاتان الفقرتان تعتبران من أجمل نماذج التدقيق فى الوصف والتحديد الذى تمتاز به جغرافية الرازى ، ولا نستطيع القول بأنه نقلهما عن مؤلفين قدامى ، فإننا لا نجد فى كتاباتهم شيئا مجتمعا واضحا عن أنهار شبه الجزيرة وجبالها كما نجد فى كلام الرازى ، نعم إن المعلومات التى أوردها توجد عند كتاب اليونان واللاتين ، ولكنها متفرقة فى كتب كثيرة ، والكثير منها يرد فى أثناء التفاصيل التاريخية ، وليس من المعقول أن يكون الرازى قد أطلع على ذلك كله ثم قام بإيجازه ، ثم إن أحدا من أولئك اليونان واللاتين لم يشر إلى العلاقة بين رياح شبه الجزيرة وأمطارها وأنهارها ، ولم يكن اهتمامهم منصرفا إلى أهمية هذه الأنهار فى الرى كما نجد عند الرازى ، بل إلى ناحيتها الملاحية ، لأن اليونان والرومان اعتمدوا عليها فى التوغل داخل شبه الجزيرة . ومن الجدير بالملاحظة أن أنهـار شبه الجزيره كانت فى العصور القديمة أغزر ماء وأوسع وديانا وأحواضا ، ومن هنا فقد كانت أهميتها الملاحية أكبر وأهم ، وكانت هى التى استلفتت اهتمام اليونان والرومان . والفرق الرئيسى بين وجهتى النظر اليونانية الرومانية من ناحية والعربية من ناحية أخرى هو أن الأول كانوا يكتبون عن بلاد أجنبية عنهم يريدون احتلالها والسيطرة عليها ، فلا يهتمون إلا بما ييسر ذلك لهم ، أما الرازى فقد كان أندلسيا عربيا يكتب عن بلاده واصفاً نواحيها وجبالها وأنهارها مهتما بناحية الرى والزراعة فيها . فحتى إذا كانت بعض معلومات كتاب اليونان والرومان قد وصلت إليه فإن فضله يتبين فى توجيه تلك المعلومات هذه الناحية الأندلسية الصرفة ، والنظر إلى شبه الجزيرة على أنه معاش ووطن لا على أنه ميدان للغزوات والاستغلال .

ولنضف إلى ذلك أن معلومات الكثير من أولئك الكتاب اليونان واللاتين قامت على السماع ، ومن ثم فقد حفلت بالأخطاء ، أما معلومات الرازى فمبنية على المشاهدة والمعلومات المأخوذة من وثائق الدولة . ومِنْ ثَمَّ فهى أقرب إلى الصواب وأحرى بالثقة . ومثال ذلك أن افيينوس يقول اعتمادا على كلام صاحب

« الطواف حول شبه الجزيرة » أن نهر الابرو يسمى نهر الزيت Oleum flumen ، وحوض الإبرو لم يكن مشهورا فى تلك الأعصر بأشجار الزيتون ، وانما بحقول القمح والكروم أى بالنبيذ ، وانما أتى الخطأ من تحريف لما قاله صاحب الطواف من أن نهر الإبرو يسمى Ἔλαιος وربما كان ذلك تحريفا للفظ Elaisos وهو أحد أسماء شبه الجزيرة فى القديم . ومن[1] الواضح أن الرازى لم يأخذ معلوماته عن الأنهار عن بطليموس ، فإن هذا الأخير يقول مثلا إن طول هذا النهر (الابرو) ٢٥٠٠ ستاديوم أى ٤٦٠ كيلومترا فى حين أن الرازى يجعل طول النهر ٢٠٤ ميلا أى نحو ٣٠٠ كيلومترا .

ومن أسف أن البكرى عندما نقل الفقرة الخاصة بالجبال أوجزها إيجازاً أضاع الكثير من قيمتها (ولعل كاتب النسخة التى وصلتنا هو الذى فعل ذلك) ، ونصها عنده « ومن الجبال المشهورة بالعظم فى بلد الأندلس منها جبل إلبيرة (La Sierra de Elvira) وجبل الثلج (Sierra Nevada) وهو متصل بالبحر المتوسط ، منتظم بجبل رَيُّه ولاصق بالجزيرة مع البحر . . . ومنها جبل البرت ، وهو الحاجز بين بلاد الإسلام وبلد غاليش ، ومبتدأه من البحر القبلى المتوسط المجاور طرطوشة ، ومنتهاه إلى البحر الغربى بين الأشبونة وجليقية ، ومنها الجبل الحاجز بين بلاد افرنجة و بلاد الصقالبة »[2] (يريد جبال الألب) .

وهذه الصورة الموجزة لا تعطى إلا فكرة مشوهة عن حقيقة ما كتبه الرازى عن جبال اسبانيا ، وها هو مستخرجا من الترجمة البرتغالية ومقربا إلى أسلوب الرازى قدر الإمكان : « وليس فى الأندلس على ما عرفناه فى الحقيقة

---

(١) Cf: Adolf Schulten, *op. cit.* I, p. 308

(٢) انظر الذيل رقم ٤ على الترجمة الفرنسية للروض المعطار التى قام بها ليفى بروفنسال ونشرها باسم :
La Péninsule Ibérique au Moyen Age d'après le Kitāb ar-Rawḍ al-Mi'ṭār (Leiden 1938), p. 250

إلا ثلاثة جبال تقطعه مستعرضة من البحر إلى البحر ، ولا يقطع هذه الجبال نهر فى أى موضع من مواضعها . وفى هذه الجبال حصون منيعة لكل حصن منها الأراضى الواسعة الكثيرة الخيرات ، وأول هذه الجبال جبل قرطبة (Sierra Morena) ومبتدأه فى شرق الأندلس عند ساحل البحر الذى يتوسط الأرض ماراً ببلنسية وباجة واشطمبار[١] واقليم الجوف ومنتهاه عند البحر الغربى الكبير .

« أما الجبل الثانى فمبتدأه عند ساحل البحر الشرقى مقبلا من ناحية أربونه ، وهو الحاجز بين الأندلس وبلاد إفرنجة ، والفرنجة تسميه جبل رنشفالة (Roncesvalles) ، ويسير موازيا لبلد بشقاية (Vizcaya) وبلد اشتريس ومنتهاه عند البحر فى جليقية فى اقصى الشمال[٢] .

« والجبل الثالث فمبتدأه عند البحر المتوسط مجاوراً لطرطوشة ، ويمر غير بعيد من قرطبة ومنتهاه عند البحر الغربى على خمسة عشر مجرى[٣] من الاشبونة .

« ومن جبال الأندلس الأخرى غير هذه جبل الثلج ، ومبتدأه عند إلبيرة وينتهى عند البحر المتوسط عند الجزيرة الخضراء ، والجبل الذى يسمونه جبل ريه (Sierra de Málaga) . ويلتقى هذان الجبلان عند إلبيرة[٤] » .

---

(١) علق بسكوال جيانجوس على ذكر باجة هنا بقوله إنها لا يمكن أن تكون فى اقليم الجوف el Algarve خاصة وهو يتحدث هنا عن جبل قرطبة (سيرا مورينا) (ص ٦١ تعليق ٣) . أما اشطمبار فقد وردت فى الأصل اسطمبه Estumba ، ولا وجود لموضع بهذا الاسم ، ولهذا عدله إلى هذه الصورة . (تعليق ٤) .

(٢) فى النص الاسبانى : en derecho del septentrione

(٣) فى الاسبانية 15 migeros وهو جمع لفظ مجرى العربى وهو مقياس لطرق البحر عند المسلمين ومعناه مرحلة من مراحل الرحلة بالبحر .

(٤) فى الاسبانية :

Et otra sierra que llaman Raya entra la dicha sierra de la Elada et metese una por otra, et vase a Elibera.

راجع مقال جايانجوس الآنف الذكر ص ٦١ وكذلك مقال ليفى برفنسال عن جغرافية الرازى الذى أشرنا إليه ص ١٠٠ — ١٠١

وهذه الفقرة تعطينا فكرة عن الجغرافية الطبيعية لشبه الجزيرة الإيبيرية كما كتبها الرازى . وربما كان كلامه عن الأنهار أدق وأوفى من كلامه عن الجبال . لأن اهتمام العرب بالمياه ومجاريها وقيمتها بالنسبة للرى كان عظيما . وسنورد منه فقرة واحدة فيهـا غناء . قال الرازى عن نهر الوادى الكبير : « ومن الأنهار المشهورة ببلاد الأندلس نهر قرطبة ، ويعرف بنهر بيطى (Baetis) . مخرجه من ناحية رَيْمِيَّه[1] . وبين منبعثه إلى موقعه فى البحر بعد اشبيلية ثلاثمائة ميل وعشرة أميال ، ويقع فيه سنجيل (شِنِّيل) ، وهو ينبعث من الثلج من جبال إلبيرة . وعليه مدينة استجه »[2] . فهذا كلام جغرافى يعرف حدود العلم الذى يتولاه ومطالبه ، فهو يصف منبع النهر ومصبه وما يمر به من النواحى وما يقع فيه من الروافد ، ويذكر طوله . وعندما يتحدث عن الأندلس من الناحية السياسية والبشرية ، سيأتينا بمعلومات أوفى وأدق عن الأقاليم التى يمر بها ومدنها ومعادنها وحاصلاتها ، أى أننا نخرج بفكرة واضحة دقيقة عن حوض الوادى الكبير من كل ناحية تقريباً .

فإذا فرغ الرازى من هذه المعلومات العامة عن الجغرافية الطبيعية للأندلس دخل فى القسم الأهم ، وهو الجغرافية السياسية والبشرية ، فقسّم الأندلس إلى كور ومدن ، والمدينة فى الأندلس قسم إدارى كالكورة له زمام واسع تقع فيه مدن وقرى وحقول واسعة ، وكان الأندلسيون يسمون القسم الادارى الواقع على الحدود أو المحيط بالعاصمة مدينة ، وقد أخذوا ذلك عن النظام الرومانى الذى كان سائداً فى شبه الجزيرة قبلهم ، وكان يجعل لكل مدينة زماماً واسعاً يتبعها

---

(١) علق ليفى بروفنسال على هذا اللفظ بقوله إن كل المخطوطات تورده فى صورة Reymon أو Remon وصحته ريمه ، وهو موضع ذكره ياقوت باسم ريميه (٤ / ٩٤٥) . وقد ورد ذكره فى الروض المعطار بصورته الصحيحة (انظر رقم ٨٠ ص ٧٩ من النص العربى) وقال إنها تعرف بمدينة بنى راشد .

(٢) انظر الذيل رقم ٦ على مقال ليفى بروفنسال الآنف الذكر ، ص ١٠٠ — ١٠١

ويخضع لسلطان المجلس البلدى فيها ، وكانت تسمى عندهم مونيثبيا Municipia ، وقد تناولنا هذا الموضوع بما فيه الكفاية من الشرح والتفصيل فى كتابنا « فجر الأندلس » فليرجع إليه من يريد التوسع فيه[١] .

وسأورد هنا نموذجين من كلام الرازى عن كور الأندلس ومدنها ، الأول خاص بكورة والثانى خاص بمدينة من الطراز الذى تحدثت عنه آنفا حتى يتبين الفرق بين مفهوم الكورة ومفهوم المدينة عند الأندلسيين ، إلى جانب ما يتجلى من خصائص هذه الجغرافية البشرية التى كتبها الرازى :

« كورة بلنسية[٢] : ويتصل بحوز كورة تدمير حوز كورة بلنسية ، وهى شرق من تُدْمِير وشرق من قرطبة[٣] ، وخِطَّةِ بلدها مسافة بعيدة ، ومنافعها لأهلها عظيمة . جمعت البر والبحر والزرع والضرع ، ولها السهل والجبل .

« وبها مدن عظيمة وحصون قديمة ، فمن مدائنها مدينة بلنسية ، وهى المعروفة بمدينة التراب ، ولها حصن ارغيرة ؛ ودانية ، وهى على ضفة البحر ، ولها أقاليم كثيرة متسعة ، ومرساها من أعجب المراسى ، وجميع أقاليمها وجبالها مغترسة بالكروم وأشجار التين والزيتون ؛ ومدينة الجزيرة ، ومبتناها على نهر شقر .

---

(١) فجر الأندلس ، ص ٥٦٥ وما بعدها .

(٢) أخذت هذه القطعة من نص « تعليق منتق من فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس للحافظ محمد بن أيوب بن غالب الغرناطى الذى نشره الدكتور لطفى عبد البديع فى مجلة معهد المخطوطات العربية ، مجلد ١ جـ ٢ ص ٢٨٥ ، فقد تبين لى ، بعد البحث والمقارنة أن معظم القطع التى أوردها الذى قام بعمل ذلك التعليق المنتق إنما هى من كلام الرازى نفسه . وسيرى القارىء فيما يلى كيف أن مواضع الخلاف بين هذا النص والترجمتين الاسبانية والبرتغالية لجغرافية الرازى قليلة .

(٣) فى الترجمة البرتغالية : E. Vallença jaz no levante de Tussuyr et ao levāte de Cordova

وفى الترجمة الاسبانية : et Valencia yace al levante de Tudemir et al levante de Córdova

وقد ترجمها ليفى بروفنسال «شرق من تدمير وغرب من قرطبة» وهو غير صحيح لأن الأقرب إلى المفهوم الجغرافى فى تلك العصور : شرقى من تدمير وشرق من قرطبة ، لأنهم كانوا يعتقدون أن الساحل الشرقى الحالى كان يسير من الشرق إلى الغرب موازيا لساحل افريقية ، وعلى هذا فتكون بلنسية إلى شرق تدمير وهى مرسية وهذه إلى شرق قرطبة . و Tussuyr الواردة فى النص البرتغالى تصحيف للفظ تدمير وقد ورد فى صورته الصحيحة فى هامش الصفحة السابقة ٤٨

« ولها من المدن والمعاقل حصن شاطبة ، وهو قديم أَوَّلِيّ مطل على بطاح وأنهار ؛ ومدينة مُرْبِيطَر ، ولها قصر يطل على بطحائها وعلى البحر ، يحار فيه الناظرُ وتعجز عنه الحكاية .

« ويتصل بها إقليم بُرِّيانة ، ولها أرض طيبة . ولها مدينة أُنْدَه ، وهى كثيرة المياه غزيرة الفواكه ، فيها معدن حديد . ولها مدينة شُبُرُب[1] ، يجود فيها القمح والكتان . ولها حصن شارقة وغيره من الحصون . ومدينة جزيرة شقر فيما بين بلنسية وشاطبة » .

وهذه عبارة موجزة ولكنها وافية بالغرض من مقدمة جغرافية ، وكل لفظ فيها له قيمته الجغرافية ومعناه الاصطلاحى الخاص . فالحوز هو زمام الكورة كله ، أى ما يتبعها من الأرضين والبلاد . وخطة البلد هى المساحة التى تغطيها المدينة نفسها وما يتبع حكومتها من الارباض والقرى . ومعنى أنها جمعت البر والبحر هو أنها ميناء له ميزات الموانى ومدينة لها خطة واسعة ، أى يتبعها ما يسمى بالهِنْتَرْلاَنْد أى الأرض الزراعية التى تغذيها بالاطعمة والمحاصيل الوافرة ، ولهذا يقول بعد ذلك أنها جمعت الزرع والضرع ، ثم يضيف أنها جمعت ميزات السهول وميزات الجبال ، وهى عبارة لها معناها الاقتصادى والعمرانى .

أما قوله إن لها مدنا عظيمة وحصونا قديمة فيراد به إحصاء ما يتبع كورة بلنسية من المدن الكبيرة وما يدخل فى زمامها من الحصون المنيعة ، لأن « القديمة » هنا تشمل معنى القدم ومعنى المنعة فى آن واحد ، ولم تكن هناك حصون مهجورة أو متروكة ، لأن الحصون كانت تقام فى مواقع معينة لها ميزاتها

---

(١) هكذا ضبطها ياقوت (معجم البلدان ٥/٢٣١) والغالب أنه نقل رسمها من العذرى . وليس بين بلدان بلنسية موضع بهذا الإسم ، وإنما الموجود Segorbe وهى اسقفية تابعة لبلنسية من الناحية الدينية ولمديرية قسطليون Castellón de la Plana من الناحيتين الإدارية والقضائية .
Cf. Madoz, *op. cit.* XIV, 67-74.

العسكرية والدفاعية ، فكانت لهذا تجدد وتعمر بالجند وتشك بالسلاح عصراً بعد عصر . وذكر الحصون هنا إشارة إلى منعة الكورة وأمان ساكنيها .

ثم يبدأ الرازى بذكر المدن ، وكلامه عنها مختصر ، لأنه سيفصل تاريخ إنشائها وبناء عمائرها فيما يلى من التاريخ ، وسنرى العذرى يأخذ من المادة التاريخية للرازى ما يتصل بإنشاء المدن وما أضافه الأمراء والخلفاء إلى عمارتها ويجعله مع جغرافيته . وهو يذكر من مدن كورة بلنسية القاعدة نفسها ويقول إنها المعروفة بمدينة التراب ، ويضيف إليها حصنا لم أستطع تحقيقه وهو أرغيره ، ويبدو أنه تحريف لاسم حصن صغير لم يبق له وجود . والنص البرتغالى يحرفه إلى Aljazira أى الجزيرة ، والمراد جزيرة شقر ، وهو غير صحيح ، لان الرازي سيذكر جزيرة شقر بعد ذلك ، وقد راجعت مادة بلنسية المطولة عند العذرى فلم أجد فيها حصناً بهذا الاسم . وهو لا يفصل بعض الشىء إلا عند الكلام على دانية . وقد لاحظت عند المراجعة أن نص فرحة الأنفس سقط منه اسم مدينة مربيطر ، وهو موجود فى الترجمتين الاسبانية والبرتغالية .

وإذا نظرنا إلى هذه المادة فى مجموعها تبينا أنها تقدم لأهل العصر أهم ما يحتاجون إليه من المعلومات عن كورة بلنسية[1] ، فهو يحدد الموقع والحدود والمدن والحصون ويذكر الميزات الخاصة من الوقوع على البحر والاتصال بالسهول والأنهار ، ثم يذكر الحاصلات سواء أكانت زراعية أم معدنية ، مع إشارة واضحة إلى الحصون التى تعطى الناس فكرة عن منعة الناحية وأمان من فيها .

وننتقل الآن إلى نموذج من كلامه عن مدينة ، أى عن قسم إدارى يشبه الكورة ، ولكنها كورة عسكرية تقوم فى منطقة الثغر أو فى ناحية هامة من الوجهة

---

(١) سنورد عند كلامنا عن العذرى كلامه عن نفس الكورة — أى بلنسية — وذلك حتى نتبين كيف أن هذا الأخير أخذ كلام الرازى واعتبره أساساً ثم أضاف إليه الكثير من عنده ، مما يدل على تطور مضطرد فى التأليف الجغرافى عند الأندلسيين .

الحربية ، كالمنطقة التى تقوم فيها عاصمة الخلافة وهى قرطبة ، فهذه لم تكن معتبرة كورة بل مدينة كورة ؛ والمنطقة الواقعة إلى شمالها ، وهى فِرِّيشْ ، كانت أيضا معتبرة مدينة لها حكومة يغلب عليها الطابع العسكرى الدفاعى ، مدينة كورة إذا شئنا مزيدا من التوضيح . وسنختار مدينة تُطِيلَة :

«[وتتصل أحواز مدينة أشقة بأحواز مدينة تطيلة][١] ، [وهى فى جوفى أشقة وشرقى قرطبة][٢] ، حازت الغاية من شرف البقعة ، وحوت طِيبَ الزرع ودَرَّ الضرع وكثرة الثمار والأنهار[٣] . [وأنهارها كلها تنصب فى نهر إبره][٤] ، ويطيف بِجَنَّات تطيلة نهر كالش[٥] ، وهى أقصى ثغور المسلمين وباب من الأبواب التى يدخل منها إلى أرض المشركين[٦] ، [وعند باب تطيلة القنطرة المقامة على نهر إبره ، وتحت أقواس القنطرة الارحاء التى تدفعها مياه النهر أبدا[٧]] ، واختطت تطيلة فى أيام الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية[٨] . [وكان الذى اختطها عمروس بن يوسف ، وكان يوسف هذا عاملا على سرقسطة وتوابعها][٩] .

[ومن كبار مدائنها طرسونة[١٠]] وكانت مستقر العمال والقواد بالثغور ، وكان أبو عثمان عبيد الله بن عثمان المعروف بصاحب الارض اختارها محلا وآثرها

---

(١) ترجمت هذه العبارة عن الترجمتين البرتغالية والاسبانية مستخدما مصطلح الرازى . وعند ياقوت « مدينة بالأندلس فى شرق قرطبة تتصل بأعمال أشقه » (٣٩٢/٢) ، وفى الروض المعطار : « مدينة بالأندلس فى جوف وشقة ، وبين الجوف والشرق من مدينة سرقسطة » (ص ٦٤) .

(٢) ترجمت هذه العبارة أيضا مستعينا بعبارة الروض المعطار الواردة فى التعليق السابق .

(٣) هذه العبارة واردة بنصها فى « التعليق المنتق » (ص ٢٨٧) .

(٤) وردت هذه العبارة فى الترجمتين البرتغالية والاسبانية ، ولم ترد فى الأصول العربية التى لدينا .

(٥) وردت هذه العبارة فى الترجمتين وفى الروض المعطار (ص ٦٤) ونهر كالش هو Queiles من نهيرات إبره .

(٦) انفرد بايراد هذه العبارة « التعليق المنتق » (ص ٢٨٧) ومن الطبيعى أن تسقط فى الترجمتين .

(٧) هذه العبارة وردت فى الترجمتين ولم ترد فى أى من الأصول العربية ، فأضفتها بين حواصر .

(٨) كذلك هذه العبارة ، ولكنها وردت مفصلة عند العذرى .

(٩) هذه العبارة وردت فى الترجمة البرتغالية محرفة جدا وقد أصلحها على هذه الصورة ليفى بروفنسال فى ترجمته الفرانسية (ص ٧٦) .

(١٠) لم ترد هذه العبارة فى الترجمتين ؛ والسياق لا يستقيم بدونها .

على مدن الثغور منزلا . وكانت تَرِدُ عليه عشر مدينة أربونه وبرشلونة . ثم عادت طرسونة من بنات تطيلة عند تكاثر الناس بتطيلة ، وإيثارهم لها لفضل بقعتها واتساع خطتها[١] .

« ولإقليم تطيلة مدن وحصون كثيرة ، أخصها أرنيط Arnedo ، وهى مدينة أولية[٢] . [وهناك أيضاً مدينة قلهرة ومدينة ناجرة وبقيرة Viguera ولها حصن فى غاية المنعة على ضفة نهر يفصل بينها وبين الجبل المطل عليها][٣] .

[ومن تطيلة إلى سرقسطة ٣٠ ميلا ، ومن قلعة أيوب إلى تطيلة ٢٥ ميلا ، ومن قلهرة إلى تطيلة ١٢ ميلا ، ومن ناجرة إلى تطيلة ٥٠ ميلا ، ومن بقيرة إلى تطيلة ٣٣ ميلا ، ومن أرنيط إلى سرقسطة ٨٠ ميلا ، ومن طركونة إلى تطيلة ١٢ ميلا] »[٤] .

وواضح جداً من وصف الرازى « لمدينة » تطيلة أنه يتحدث عن منطقة عسكرية ثغرية ، فهو يتكلم عن الحصون والقلاع والميزات الحربية للمنطقة كلها ، بخلاف ما رأينا من كلامه على كورة عادية مثل بلنسية ، فهو يتكلم هناك عن الزروع والثمار والخيرات والمراسى والمعادن وما إلى ذلك . ومما يستوقف النظر استعماله

---

(١) هذه العبارة كلهـا وردت فى الروض المعطـار ص ١٢٣ وقد أخذها ابن عبد المنعم الحميرى بنصها عن الرازى بدليل وجودها فى الترجمتين الاسبانية (طبعة جايانجوس ص ٤٥) والبرتغالية (طبعة لندلى سنترا ص ٥٤ — ٥٥) . وانظر أيضاً مقال ليفى بروفنسال عن جغرافية الرازى مقابل ص ٥٦) .

(٢) وردت هذه العبارة فى الروض المعطار رقم ١١ ص ١٤ . وقد أدخل المترجم الاسبانى بخصوص هذا البلد ما يلى :

Et quando Espania de Moros era, era Arrayt (sic. L. Arnyt) su escudo contra los cristianos
= وعندما كانت اسبانيا بيد العرب كانت ارنيط درعا لهم من النصارى .

(٣) ترجمت هذه العبارة من الترجمتين الاسبانية (ص ٤٥) والبرتغالية (ص ٥٥) . وقد وردت فى التعليق المنتقى مختصرة هكذا : « ومدينة نارة ومدينة ناجرة » وأظن أن نارة هذه تصحيف لاسم قلهرة إذ لا توجد هنا مدينة باسم نارة .

(٤) ترجمت هذه الفقرة عن الترجمتين الاسبانية والبرتغالية .

لفظ قصر بمعنى الحصن ، فقد استعمل الأندلسيون هذا اللفظ بمعناه الأصلى ، إذ من المعروف أن العرب أخذوه من Castra اللاتينى . وهذا يعلل لنا استعمال لفظ alcázar فى الاسبانية بمعنى القلعة .

وهذان النموذجان كافيان لاظهار ميزات هذه الجغرافية وما استطاع أحمد بن محمد الرازى أن يحشده فيها من المعلومات على اختصارها . فلو اننا أردنا أن نقدم اليوم وصفاً جغرافياً جامعاً مختصراً للأندلس الإسلامى لما احتجنا أن نضيف إلى كلام الرازى شيئاً ، وهذا خير تقدير لذلك الجغرافى العربى الذى كتب فى القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى .

ومن الدلائل الناصعة على أهمية جغرافية الرازى اعتماد الاسبان عليها حتى القرن الثالث عشر فى حل الكثير من مشاكل التنظيم الإدارى التى اعترضتهم فيما استولوا عليه من بلاد المسلمين . ومما يؤيد ذلك أن الرازى أورد فى جغرافيته هذه بعد ذكر الأنهار والجبال تقسيمها الكنسى ، وهو المعروف بقسمة قسطنطين ، والمراد به تقسيم اسبانيا إلى مناطق كنسية تتبع كل منها لأسقفية على رأسها أسقف ، وهو تقسيم عام للعالم المسيحى كله وضعه رجال الدين من النصارى بعد صدور منشور ميلان سنة ٣١٣ ميلادية . وقد أخذ الرازى ما يخص اسبانيا منه عن إحدى القوائم التى تبين ذلك التقسيم Nomina Sedium Episcopalium والتى كانت متداولة فى اسبانيا على أيام العرب . ومن الغريب أن هذه القوائم اللاتينية كلها كانت قد ضاعت قبل منتصف القرن الثالث عشر الميلادى . فقد ذكر بسكوال دى جيانجوس انه عندما استولى الملك خايمه الملقب بالغازى Jaime el Conquistador على بلنسية سنة ١٢٣٩ ثار نزاع بين اسقفيتى طليطلة وطركونة حول تبعية اقليم بلنسية لأيهما ، ولم ينحسم النزاع إلا بعد أن « قدّمت إلى المجلس المختص أربعة كتب عربية وقرئت بمعرفة رجل عربى وآخر يهودى ، وأحد هذه الكتب للرازى الذى قيل إنه عربى ألف كتباً كثيرة فى الفيزياء ، والثانى تأليف Abiba Cacahabi الذى كان ضليعاً فى

شريعة العرب ، وتبين من هذين الكتابين ومن الاثنين الآخرين — أنه فى تقسيم قسطنطين لاسبانيا إلى ست مناطق (كنسية) يتبع اقليم بلنسية اسقفية طليطلة[١] ».

ويبدو أن Abiba Cacahabi المشار إليه فى النص هو أبو عبيد البكرى ، إذ أن صورة اسمه كما كانت تكتب كانت شيئاً قريباً من Abuuba(id)Albakri والتحريف من هذه الصورة إلى الصورة التى وردت فى النص اللاتينى ممكن جداً ، خاصة فى الكتابات الاسبانية من القرن الثانى عشر فصاعدا ، فقد كان معظم أصحابها لا يعرفون من الأسماء العربية شيئا ، ويحرفون ما يصادفونه منها على نحو قل أن نجد له مثالا فيما نعرف من صور التحريف والتصحيف .

والمهم لدينا أن هذا النص يثبت أن قسمة قسطنطين التى أورد نصها البكرى منقولة عن جغرافية الرازى ، ولهذا فسنوردها ضمن نص هذه الجغرافية عند ما يتيسر لنا نشرها[٢]

---

(١) أورد بسكوال دى جيانجوس نص هذا الخبر باللاتينية مع ترجمته إلى الاسبانية . ونظرا لأنى اعتمدت على هذا النص فى القول بأن قسمة قسطنطين التى أورد نصها البكرى منقولة من الرازى ، أورده هنا :

« Postquam cuatuor libros arabicos in judicio nobis exhibitos inspetimus, et fecimus legi in libris illis per unum judaeum et alium sarracenum, et ipsi legentes in dictis libris, scilicet in libro Rasis, qui multos libros feceret de physica, ut sarracenus decibat, et in libro Abiba Cacahabi, qui peritus fuerat in legibus eorum, et in duodus aliis libris, quorum auctores non erant; dixerunt nobis quod intra sex divisiones dictas factas a Constantino Imperatore in Hispania, erat civitas Valentia sub civitate Toleto », Loaysa, *Collectio Conciliorum Hispaniae*, p. 131. Cf.: Pascual de Gayangos. *Memoria sobre la autenticidad de la crónica denominada del Moro Rasis,* leída en la Real Academia de la Historia, p. 9.

(٢) راجع عن ذلك الفصل الحادى عشر عن « الادارة والمال » فى فجر الأندلس ، القاهرة ١٩٥٩ فقد تناولنا فيه الأصول العربية التى نعتمد عليها فى جمع جغرافية الرازى وخصوصا ابتداء من ص ٥٣٤ . وقد ناقش موضوع أصول الرازى الأستاذ كلاوديو سانشيث البرنوث الظر :

Claudio Sánchez Albornoz: *Fuentes latinas de la historia romana de Rasis* (Publicaciones del Instituto Argentino Hispano-Arabe). Vol. I. Buenos Aires, 1942.

ولنفس المؤلف :

Fuentes para el estudio de las divisiones eclesiásticas visigodas. (Boletín de la Universidad de Santiago, 1934) p. 44 sqq.

Fr. Javier Simonet, *Historia de los Mozárabes de España*, pp. 739-808.

الوراق ، أبو عبد الله محمد بن يوسف

ومن معاصرى احمد بن محمد الرازى رجل يعد فى طليعة جغرافيى المغرب والأندلس وإن لم يبق لنا مما كتب إلا قطع قليلة معظمها عند أبى عبيد البكرى وابن عذارى . وهو أبو عبد الله محمد بن يوسف المعروف بالوراق (٢٩٢/٩٠٤—٣٦٣/٩٧٣) ويلقب بالتاريخى لكثرة اشتغاله بالتأليف فى هذا الفن . وهو أندلسى أصله من وادى الحجارة ، ثم هاجر به أهله إلى إفريقية واستقروا بالقيروان ، وبها نشأ وتعلم وانتشر له صيت فى العلم بأحوال إفريقية والمغرب وتاريخهما ، واجتذبه بلاط الحكم المستنصر الأموى والجو العلمى الذى يحيط به ، فشد رحاله إلى قرطبة ، واتصل بالحكم ، وكان هذا معنيا بشئون المغرب مهموما بمحاولات الفاطميين لبسط نفوذهم عليه ، فوجد فى هذا القيروانى عالما بشئون أقطار المغرب وتاريخها ، فقربه إليه وحفزه على التأليف ، فكتب له « كتابا ضخما فى مسالك افريقية وممالكها » وألف « فى أخبار ملوكها والغالبين عليهم (أى على أهل افريقية) كتبا جمة » ، وكذلك ألف أيضاً « فى أخبار تيهرت ووهران وتنِس وسجلماسة ونكور والبصرة هنالك ، وغيرها تواليف حسانا[1] ». فأما كتابه عن مسالك افريقية وممالكها فقد استصفاه أبو عبيد البكرى فى كتابه « المسالك والممالك » وأما رسائله الأخرى فأعتقد أن ابن عذارى لخص الكثير منها فى « البيان المغرب » ؛ فنحن نجد فى الجزء الأول الخاص بتاريخ المغرب من هذا الكتاب فصولا معترضة عن تاريخ بعض نواحى المغرب التى نسب الحميدى إلى الوراق كتبا فى تاريخها ، ففى أثناء حديثه عن أبى عبد الله الداعى ومسيره إلى سجلماسة لاستنقاذ عبيد الله الشيعى من سجن صاحبها اليسع بن مدرار

---

(١) جذوة المقتبس للحميدى رقم ٩٠ — بغية الملتمس للضبى ، رقم ٣٠٤ ص ١٣١ — التكملة لابن الأبار ، رقم ٣٤٤ ص ٣٤٤

يضيف فصلا قائما بذاته فى « التعريف بأمر سجلماسة من ابتدائها إلى هذه السنة المؤرخة »[١] ، وبعد أن يورد خبر خروج أبى القاسم الشيعى لغزو مصر للمرة الثانية يورد فصلا عن « تلخيص أخبار أمراء مدينة نكور من حين بنائها على الجملة إلى هذه السنة[٢] المؤرخة » وفى أثناء كلامه عن حوادث سنة ٣١٨/٩٣٠ أثناء حكم عبيد الله الشيعى نجد كلاما عن « مدينة جراوة »[٣] ثم ذكر « مدينة تيهرت »[٤] ثم نجد فصلا قائما عن تاريخ تيهرت بعنوان « ذكر من ملك مدينة تيهرت من حين ابتدائها من بنى رستم وغيرهم[٥] » ، وفى حوادث ٣٥٢/٩٦٣ وبمناسبة وفود أبى صالح زمور البرغواطى رسولا من أمير برغواطة على الحكم المستنصر فى هذه السنة يقول إن الحكم سأل الرسول عن نسب برغواطة ومذهبهم ، فأخبره ، ثم يلى ذلك « خبر برغواطة » وهو فصل كامل عن تاريخ هذه[٦] القبيلة ، وبعد ذلك بقليل نجد فصلا عنوانه « ذكر مدينة[٧] أصيلا » وهو تاريخ مجمل لها ، ويليه فصل عن تاريخ مدينة البصرة (المغربية) بعنوان « ذكر من ولى مدينة البصرة »[٨] .

وهذه الفصول كلها معترضة ، وابن عذارى بعد أن يفرغ من كل منها يقول : « فلنرجع إلى نسق هذا التاريخ » مما يدل على أنه أخذ هذه القطع من أصول غير التى كان يعتمد عليها فى « نسق التاريخ » . فإذا لاحظنا أن معظم هذه الفصول يدور حول تواريخ تلك النواحى من إفريقية التى نسبت للوراق

---

(١) البيان المغرب لابن عذارى ، (طبعة كولان وبروفنسال) جـ ١ ص ١٥٦

(٢) نفس المصدر ، ص ١٧٦

(٣) نفس المصدر ، ص ١٩٦

(٤) نفس المصدر والصفحة .

(٥) نفس المصدر ، ص ١٩٧

(٦) نفس المصدر ، ص ٢٢٣

(٧) نفس المصدر ، ص ٢٣٢

(٨) نفس المصدر ، ص ٢٣٥

كتب عنها مال بنا الظن إلى أنها مستقاة من رسالات الوراق . ويقوى هذا الظن ذلك الخبر المروى عن تاريخ برغواطة ، وهو خلاصة حديث أدلى به إلى الحكم المستنصر ، وكان الوراق هو العالم الموكل بهذه الناحية فى بلاطه ، ومن المستبعد أن يكون قد فاته تدوين هذا الخبر الطويل ، وهو الإفريقى المعنى بأخبار المغرب وجغرافيته ، خاصة وقد كانت له عناية بأنساب البربر واشتغال بالتأليف فيها ، فقد ذكر له البيدق خادم محمد بن تومرت كتابا سماه « أنساب البربر » وأخذ عنه فى موضعين . ومن الغريب أن هذا الكتاب فات صاحب « مفاخر البربر » فلم يذكره أو يشر إليه أو إلى صاحبه ، ربما لأن الوراق لم يكن بربرى الأصل والنسب ، لأن مؤلف مفاخر البربر لا يعنى إلا بذوى الأصول البربرية .

والمهم لدينا أن محمد بن يوسف الوراق أول من كتب فى الغرب الإسلامى كتابا بعنوان « المسالك والممالك » ؛ وهكذا نرى أن أول جغرافى أندلسى — احمد الرازى — كان بلدانيا ، فى حين أن ثاني جغرافى كتب فى الأندلس كان مسالكيا . ومن المقتبسات التى نقلها عنه البكرى يتبين أنه هو الذى ابتكر مزج الجغرافية بالتاريخ ، أى الوقوف عند كل موضع وقعت فيه واقعة تاريخية وذكرها فى شىء من التفصيل ، وهى طريقة سيسير عليها البكرى فى أجزاء كثيرة من « مسالكه » ، وسيتبعها نفر من الرحالة كالتجانى بعد ذلك .

وقد اعتمد البكرى على مسالك الوراق اعتمادا تاما فى الجزء الذى كتبه عن افريقية ، ومن حسن الحظ أن هذا الجزء قد وصل إلينا كاملا . والبكرى يسند إليه ما يقتبسه منه أحياناً ، ولكنه لا يسند أحيانا أخرى ، ولهذا فنحن لا نستطيع أن نتبين على وجه التحديد نصيب الوراق من كتاب البكرى ، خاصة وأن هذا الأخير لم يكن مجرد ناقل ، بل كان جغرافيا متصرفا يعدّل فيما ينقله ويزيد عليه وينقص منه ، ويعسر لهذا إصدار رأى قاطع فى هذه الناحية ، وسنشير إلى ذلك فى كلامنا عن البكرى . ويكفى أن نقرر هنا أن محمد بن

يوسف الوراق كان أحد أعلام المدرسة الجغرافية التى ازدهرت أيام الحكم المستنصر برعايته وتشجيعه . وانه لمن الفريد فى تاريخ الفكر الإسلامى ذلك النشاط المتعدد الجوانب الذى بعثه ذلك الخليفة العلامة فى بلاده ، فهو يستجلب كتب اليونان واللاتين ويأمر بترجمتها ، ويستدعى علامة مغربياً ويطلب إليه التأليف فى تاريخ بلاده وجغرافيتها ، بل لا يكاد يفد عليه رسول من بلد بعيد حتى يطلب إليه أن يكتب رسالة أو رسائل عن بلاده أو عن أمر من أمورها ثم يحتفظ بهذه الرسالات فى مكتبة القصر العامرة ، لا لتكون جزءً من محفوظات الدولة ، بل لكى تكون مرجعاً للعلماء والبحاثين فيما يطلبونه من المعلومات عن هذا البلد أو ذاك ، فقد رأينا الوراق يورد نص رسالة كاملة أدلى بهـا رسول من أهل إفريقية للحكم . وفى الفقرة التالية سنرى فضلا آخر من أفضال الحكم المستنصر على العلم الذى يعنينا فى هذا البحث .

ابراهيم بن يعقوب الطرطوشى

ومن معاصرى احمد بن محمد الرازى أيضاً يهودى من أهل طرطوشة يسمى ابراهيم بن يعقوب الطرطوشى ، ويسمى أيضاً ابراهيم بن يوسف ، وكتبه بعضهم ابراهيم بن احمد . وهو تاجر ممن كانوا يعملون فى جلب الرقيق الأوروبى إلى الأندلس ، ولهذا كان يقوم برحلات إلى المانيا وبلاد الصقالبة وشمالى أوروبا . وقد كتب هذا الرجل رسالة للحكم المستنصر عن رحلة قام بها إلى المـانيا أيام الامبراطور أوتو الكبير على الأغلب ، واحتفظ لنا البكرى بجانب كبير من هذه الرسالة فيما بقى لنا من أجزاء جغرافيته . وقد عنى بهذا الجزء نفر من المستشرقين مثل كونِكْ وروزن وفيجَرْسْ وجيورج ياكوب فنشروه على حدة وترجموه إلى الروسية والألمانية والهولندية .

ومن الباحثين من كان يستبعد أن يكون ابراهيم بن يعقوب أندلسياً ، وغلب على رأيهم أنه من المغرب ، ولكن العذرى يسميه الطرطوشى ، والبكرى يضيف إلى اسمه : الإسرائيلى ، وعنه فى الغالب أخذ ابن عبد المنعم الحميرى صاحب الروض المعطار . وقد أورد له العذرى فقرة تدل على أنه كان بالفعل أندلسياً عارفا بشئون الأندلس ، وأورد له البكرى قطعة أخرى من هذا الطراز[1]. ثم إن رسالته إلى الخليفة المستنصر تؤيد هذا الرأى .

والقطعة التى أوردها البكرى من رسالة ابراهيم بن يعقوب الطرطوشى تصف رحلته إلى شرق أوروبا ، وكيف عبر البحر الأدرياتى ووصل إلى بلاد « صقالبة الغرب » ، وزار براج وشرقى المانيا ووصل إلى مجدبرج حيث كان الامبراطور أوتو يقيم ، وهناك التقى مع أعضاء سفارة من عند ملك البلغار ، ثم سار بحذاء نهر الألب ، ومضى فى بلاد الصقالبة حتى وصل إلى إشفارن (Schwerin) على مقربة من البحيرة المسماة بذلك الاسم . ومن العسير تحديد خط سيره على وجه الدقة ، لأن أسمـاء المواضع فى النص الذى لدينا محرفة تحريفاً شديداً ، ولكن التفاصيل التى يعطيها عن بلاد الصقالبة ذات أهمية كبرى بالنسبة لتاريخهم ، وخاصة الغربيين منهم . ويقدم لنا الطرطوشى معلومات طريفة عن تجار العرب الذين لقيهم فى المـانيا مقبلين من بلاد المجر ، فيقول إنهم كانوا يحملون من هناك الدقيق والقصدير والفراء . ومن الطريف أنه زار بلاد الخزر جنوبى ما يعرف اليوم ببحر قزوين ولم يقل إن أهلها يهود ، وكتّاب اليهود يطيلون الحديث عن دخول الخزر فى اليهودية وانتشار هذه الديانة بينهم فى ذلك الحين .

---

(١) لم نعثر إلا على فقرتين من كلام ابراهيم بن يعقوب عن اسبانيا ، وسننشرهما فى آخر هذا الكلام نقلا عن مخطوطة المسالك والممالك للبكرى التى احتفظت لنا بقطعة لا بأس بها من صفة الأندلس .

وهذه القطعة ذات أهمية كبرى بالنسبة للروس القدامى وأحوالهم ، وقد فصل ذلك كونك وروزن تفصيلا وافيــاً فى دراستهما حول هذه القطعة[١] .

ويذكر القزوينى فى « عجائب المخلوقات » أن أحمد بن عمر بن أنس العذرى اعتمد على ابراهيم بن يعقوب الطرطوشى فى مواضع كثيرة من جغرافية الأندلس التى كتبها (وسنتحدث عنها) ، وبالفعل نجد فى نص العذرى إشارة إلى ابراهيم بن يعقوب الإسرائيلى الطرطوشى ونقلاً عنه فى مادة تُدْمير (مرسية) بمناسبة شجرة زيتون عجيبة « فى حومة بجبل على مقربة من مدينة لورقة[٢] » وقد نقل ذلك الخبر ابن عبد المنعم الحميرى (عن البكرى عن العذرى فى الغالب)[٣] . والخبر مؤرخ بسنة ٣٥٠ / ٩٦١ (يجعله ابن عبد المنعم الحميرى

---

(١) بين أهمية هذه الرسالة دى خويه فيما درسه من « المسالك والممالك » للبكرى ، وكان شيفر Schefer قد عثر على ذلك الجزء فى مكتبة جامع نورى عثمانى فى الاستانة سنة ١٨٧٥ . وفى سنة ١٨٧٨ نشر النص العربى للرسالة ا. كونك و ف. روزن مع مقدمة وترجمة إلى الروسية :

A. Kunik i V. Rosen: *Izvestija al-Bakri ı drugich avotrov o Rusi i Slavjanach*, I, St. Petersburg 1878.

(أخبـــار البكرى وغيره من الكتاب عن الروس والصقالبة) . وقد أضاف كونك إلى النص تعليقات ضافية . وفى سنة ١٨٨٠ نشر دى خويه ترجمة هولندية للأصل العربى وجانباً كبيراً من تعليقات كونك فى :

Verslagen in Medeelingen der Konigelijeke Akademie van Wetenschappen. Afdeeling Letterkunde. 2 de Reeks. Deel IX. Amsterdan 1880, S. 187-216.

وانظر أيضاً :

Mémoires de l'Académie Impériale des Sciences de Saint-Petersburg. (Appédice vol. XXXVI).

أما بحث فيجرز Th. Wiggers فقد نشر فى

Jahrbericht des Vereins für macklenburgische Geschichte und Altertumskunde. 43. Jahrgang, Schverin 1880, S. 3-20.

G. Jacob: *Ein arabischer Berichterstatter aus dem 10. Jahrh. über Fulda, Schlesuvig, Socst, Paderborn und andere Städte des Abenlandes*. Berlin, 3, Auflage 1896.

Arabische Berischte ·· Gesandten an germanische Fürstenhöfe des 9. u. 10. Jahrhts. übersetzt und erläutert (Quellem zur deutschen Volkskunde, 1) Berlin, 1927.

وانظر : بروكلمان . ملحق ١/ ٤١٠

(٢) العذرى ، نظم المرجان ، مخطوط ، مادة تدمير .

(٣) الروض المعطار : ١٧١ ويسميه ابراهيم بن يوسف .

سنة ٣٠٥ خطأً) مما يدل على أنه كان عند « ملك الروم » فى هذه السنة ، والمراد به أتو الكبير امبراطور الدولة التيوتونية التى تسمى بالرومانية المقدسة أيضاً ، وهذا التاريخ صحيح فإن ف. روزن و ا. كونك يجعلان زيارته لأتو حوالى سنة ٩٧٣ (٣٦٢ و ٣٦٣ هـ) .

وقد اعتمد البكرى على ما كتبه ابراهيم بن يعقوب الطرطوشى اعتماداً يكاد يكون تاماً فيما كتب عن وسط أوروبا وشرقها ، والقطع التى أدرجها فى مسالكه هى أطول ما بقى من كتابه وأدله على طبيعة مادته الجغرافية ، ومن حسن الحظ أننا عثرنا عليها ، وقد نشرها كونك وفون روزن كما قلنا ، واعتمادنا هنا على نشرتهما التى سبق أن أشرنا إليها وكذلك على الترجمة الألمانية التى قام بها جيورج ياكوب .

وعلى الرغم من التحريف الشديد للاعلام الجغرافية فى مخطوطة البكرى فقد استطاع الناشران والمترجم تحقيق معظمها . ويكفى أن نذكر أن اسم مجدبورج ورد « مادى فرغ » وبوهيميا (Bőhmen) وردت بويمية والنورمان ورد المرمان وما إلى ذلك . وبعد تحقيق هذه الأسماء وأعلام الأشخاص تبينت القيمة الحقيقية لما كتب سواء من الناحية الجغرافية أو التاريخية . وأهم ما فى الكتاب من هذه الناحية الأخيرة كلام ابراهيم بن يعقوب الطرطوشى عن تجارة الرقيق فى أوروبا فى ذلك العصر ، وقد كان هو نفسه من المشتغلين بها على ما ذكرناه .

وابراهيم بن يعقوب الطرطوشى رحالة ، ولكن وصف رحلته أقرب إلى كتب البلدانيين والمسالكيين ، فهو يذكر البلدان ويصفها ويعدد حاصلاتها وما يتاجر فيه أهلها ، ثم يذكر الطرق ومسافاتها بالأميال ، وكل ذلك بتفصيل واسع تتخلله معلومات هامة عن الأحوال الاجتماعية والسياسية .

وفيما عدا الفقرات القليلة التى أوردها العذرى وابن عبد المنعم الحميرى مما كتب ابراهيم بن يعقوب عن الأندلس لا نجد إلا فقرات قصيرة بقيت فيما وصل

إلينا من وصف الأندلس للبكرى ، وهى أوراق قليلة محرفة تحريفاً مؤسفاً بل إن سياقها مضطرب اضطراباً لم أستطع التعرف على سببه ، فإننا نجد فيه فقرة عن الأنهار تذكر نهراً من أنهار الأندلس ثم تقطعها وسط السطر بكلام عن الجليقيين وبعد بضع صفحات يعود الكلام عن الأنهار وهكذا .

وقد رأيت أن أورد هنا فقرتين استطعت أن أجمع شتاتهما ، وهى فى ص ٢٢٦ و ٢٢٧ من مخطوطة الخزانة العامة بالرباط :

« جملة القول فى بلاد الجليقيين وغيرهم من قبائل النصارى إلى بلد الصقالبة على ما أورده ابراهيم بن يعقوب الإسرائيلى الطرطوشى :

قال ابراهيم : بلد الجليقيين جميعه سهل ، والغالب على أرضه الرمل ، وأكثر أقواتهم الدخن والذرة ، ومعولهم فى الأشربة على شراب التفاح والبشكة[1] ، وهو شراب يتخذ من الدقيق . وأهله أهل نجدة ودناءة أخلاق . ولا يتنظفون ولا يغتسلون فى العام إلا مرة أو مرتين بالماء البارد ، ولا يغسلون ثيابهم منذ يلبسونها إلى أن تتقطع عليهم ، ويقولون إن الوسخ الذى يعلوها من عرقهم ينعم أجسامهم . وثيابهم أضيق الثياب ، وهى مُفَرَّجَة يبدو من تفريجها أكثر أبدانهم . ولهم بأس وشدة ، لا يرون الفرار عند اللقاء فى الحرب ويرون الموت دونه .

ذكر البرتونيين[2] : لهم لغة تمجها الأسماع ومناظر قبيحة وأخلاق سيئة . ولهم لصوص يقطعون على الافرنج ويسرقونهم . والافرنج يصلبونهم إذا ما ظفروا بهم . ومن البرتونيين والجليقيين والبشاكسة حشد طيطوش إلى الشام حين خرج يريد بيت المقدس .

---

(١) لعلها تقابل Vasco .

(٢) Bretones .

أحمد بن عمر بن أنس العذرى الدلائى

أما العذرى الذى أشرنا إليه أكثر من مرة فيما سبق فهو أحمد بن عمر ابن أنس العذرى الدَّلائى ، نسبة إلى دلاية Dalías إحدى قرى المرية ، ولهذا فهو يسمى كذلك بالمرِّى نسبة إلى هذه الأخيرة ، وهو من أهل الطبقة الثانية من الجغرافيين الأندلسيين بعد أحمد بن محمد الرازى ومعاصريه ، فقد ولد فى المرية سنة ٣٩٣/١٠٠٢ وتوفى سنة ٤٧٦/١٠٨٣ أو ٤٧٨/١٠٨٥ ببلنسية .

وقد ترجم للعذرى الحميدى والضبى وابن بشكوال وياقوت ، ولكن ترجماتهم قليلة الغناء بالنسبة لنا ، فالحميدى يذكر أنه من المرية وأنه رحل مع والده « بُعَيْد الاربعمائة » إلى مكة ، « فسمع الكثير من شيوخها ومن القادمين عليها » ثم يلى ذلك بيان بمن سمع منهم ، وكلهم رجال فقه وحديث ، ثم يقول : « وكتب هناك قطعة كبيرة من المصنفات والتواريخ ، وسمعنا منه بالأندلس ، وكان حياً بها وقت خروجى منها فى سنة ثمان وأربعين وأربعمائة »[1] أما ابن بشكوال فيقول إن رحلته إلى المشرق كانت سنة ٤٠٧/١٠١٦ وأنه جاور بمكة أعواماً من ٤٠٧/١٠١٧—١٠١٨ إلى ٤١٦/١٠٢٥ بعد أن سمع من شيوخ أجلاء من طبقة أبى ذر الهروى .

ونقل الضبى مادة الحميدى حرفياً تقريباً على عادته مع جذوة الحميدى[2] . وتتضمن مادة ابن بشكوال اسمه الكامل ونسبه : « أحمد بن عمر بن دَلْهَات ابن عمران بن مُنِيب بن زُغَيْبَه بن قُطْبة العُذرى ويعرف بابن الدَّلاَئى ، من أهل المرية ، يكنى أبا العباس » . وربما دل هذا النسب على أن أعراقاً عربية

---

(١) الحميدى ، جذوة المقتبس بتحقيق محمد بن تاويت الطنجى . القاهرة ١٣٧٢ ، رقم ٢٣٦ ص ١٢٧ — ١٢٩

(٢) الضبى ، البغية ، رقم ٤٤٦ ص ١٨٢ — ١٨٤

ومغربية اختلطت فيه وإن كان الدكتور عبد العزيز الأهوانى يرى أن الرجل عربى خالص من قبيلة عُذرَة ، ومن المحقق أن دَلاَية كانت دار عُذرَة بالأندلس ، كما يقول ابن حزم فى الجمهرة[1] . ويذكر ابن بشكوال أن أحمد العذرى بعد أن خرج من المشرق ، مر بمصر « ولم يكن له بها سماع » واستمر فى الطلب بعد عودته إلى الأندلس ، فسمع من شيوخ نذكر منهم أبا عمر بن عفيف وأبا محمد بن حزم ، ثم تصدر للاقراء فسمع منه رجال نذكر منهم أبا عمر بن عبد البر وأبا محمد بن حزم وأبا الوليد الوقشى وأبا على الصدفى ، وقد قال هذا الأخير : « أخبرنى أبو العباس أن مولده فى ذى القعدة ليلة السبت لأربع خلون منه سنة ٣٩٣ وتوفى رحمه الله فى آخر شعبان سنة ٤٧٨ ، ودفن بمقبرة الحوض بالمرية ، وصلى عليه ابنه أنس بتقديم المعتصم بالله محمد بن معن[2] (بن صمادح) » .

ويستوقف نظرنا فى هذه التراجم أنها تخلو من أى إشارة إلى اهتمامه بالجغرافية والتأليف فيها ، وهذا طبيعى لأن الاشتغال بالجغرافية لم يكن — فى رأى أهل هذه العصور — مما يستحق الذكر فى تراجم العلماء ، خاصة إذا كان العالم محدِّثاً من طبقة عالية كالعذرى ، فقد كان الرجل شيخاً من شيوخ عصره فى الحديث . وتلاميذُه لا يحصون كثره .

ولهذا فإن الانسان ليدهش من انصراف هذا المحدِّث الجليل إلى التأليف فى الجغرافية فى عصر فتنة وأخطار لم يكن الناس يعنون فيه إلا بعلوم الدين والأدب : الأولى لحاجة الناس إليها والثانى لأن أمراء ذلك العصر طلبوا الشعراء واستكثروا الأمداح وكانت هذه الأخيرة شارة الملك الوحيدة التى قدروا عليها .

---

(١) انظر عن منازل بنى عذرة بالأندلس :

Elías Terés, *Linajes Árabes en Al-Andalus*, Segunda parte Al-Andalus XXIII, fasc. 1, 1958, p. 365.

واصوص عن الأندلس للعذرى بتحقيق الدكتور عبد العزيز الأهوانى ، المقدمة ، ص ا – ب

(٢) ابن بشكوال ، الصلة ، رقم ١٣٦ ص ٦٩ — ٧٠

أما الذين أشاروا إلى تأليفه فى الجغرافية فهم الجغرافيون ، فقد ذكره البكرى وكتابه « نظام المرجان فى المسالك والممالك » وكذلك ذكره الإدريسى فى مقدمة « نزهة المشتاق » وذكره ابن عبد المنعم الحميرى ونقل عنه دون أن يذكر اسم الكتاب . وفى فهرسة ابن خير ذكر لكتاب آخر من تأليفه هو « افتضاض أبكار أوائل الأخبار » وظاهر من عنوانه أنه فى التاريخ ، وإن كان هذا العنوان ذاته لا يخلو من تكلف . وذكره ياقوت الحموى فى كلامه على المرية قال : « وينسب إليها أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس العذرى ، ويعرف بالدَّلاَئى المَرىِّ . رحل إلى مكة ، وسمع من أبى العباس أحمد بن الحسين الرازى وطبقته ، وبمصر جماعة أخرى . وهو مكثر . سمع منه الحميدى وابن عبد البر وأبو محمد بن حزم ، وكانا شيخيه ، سمع منهما وكان قديماً كلما رجع من المشرق سمعا منه . وله تآليف حسان منها كتاب أعلام النبوة ، وكتابه المسمى بنظام المرجان فى المسالك والممالك ، ومولده فى ذى القعدة سنة ٣٩٣ وتوفى سنة ٤٧٦ وقيل ٧٨ ببلنسية[(١)] » .

ومن حسن الحظ أن لدينا الآن قطعة من كتاب « نظام المرجان فى المسالك والممالك » وقد حقق ما وجده منه الدكتور عبد العزيز الأهوانى لينشر بين مطبوعات معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، ونحن نعتمد هنا على ذلك التحقيق الوافى ، وقد وجد المخطوط فى صورة أوراق غير مرتبة أو مرقمة ، بل لا توجد فى أواخرها ألفاظ الإحالة التى تعين على تعرف الورقة التالية ، وقد بذل الدكتور الأهوانى جهداً عظيما فى ترتيب الأوراق[(٢)] . والذى لدينا بعد ذلك يتضمن كور تدمير (مرسية) وبلنسية وسرقسطة ووشقة وقرطبة وإلبيرة واشبيلية ولبلة وشذونة والجزيرة الخضراء .

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان (طبعة الخانجى ، القاهرة ١٩٠٦) : ٤٣/٨

(٢) ولهذا فإننا لن نشير إلى صفحات المخطوط فى الفقرات التى سنوردها من جغرافية العذرى ، ونحن نعتمد على النسخة التى كتبها الدكتور الأهوانى بيده .

ومن هذه الأجزاء التى لدينا يتبين أن الكتاب كتاب جغرافية وتاريخ ، فإلى جانب المعلومات الجغرافية يورد العذرى تفاصيل تاريخية خاصة بالمواضع التى يصفها ، وهى تفاصيل طويلة معتمده فيها على أحمد بن محمد الرازى وابنه عيسى ، وفى أحيان كثيرة يكمل العذرى الأخبار إلى أيامه ، بل لدينا خبر يصل إلى سنة ٤٧٦ أى قبل وفاة المؤلف بسنتين .

وإذا كان العذرى قد لجأ إلى الاختصار فيما يتصل بالتاريخ ، فإنه على العكس من ذلك أسهب فى الجغرافية الاسهاب الذى نرجوه . وهو ينهج فى هذه الناحية منهجاً سليما لا نعرفه عند أحد ممن سبقه من الجغرافيين ، ويتلخص هذا المنهج فيما يلى :

١ — يقسم العذرى كتابه إلى ما يشبه الفصول ، كل فصل يدور حول كورة من كور الأندلس .

٢ — يبدأ الكلام بمكان الكورة من قسمة قسطنطين لا من تقسيم بطليموس ، وهو أمر يستوقف النظر ، فإن قسمة قسطنطين تقسيم كنسى اتفقت عليه المجامع الدينية النصرانية التى بدأت تنعقد بعد اعتراف قسطنطين بالمسيحية ، والغرض منه تقسيم البلاد التى فيها مسيحيون إلى مناطق اسقفية ، وقد تم ذلك التقسيم على أساس التقسيم الإدارى للدولة الرومانية ، فاعتبرت كل مديرية من مديريات الدولة منطقة اسقفية يقيم الأسقف فى قاعدتها وتتبعه من الناحية الدينية كل البلاد الداخلة فى زمام تلك المديرية ، وهذا التقسيم الكنسى هو الذى أصبح فيما بعد أساساً للتقسيم الإدارى للدول التى قامت فى أوروبا بعد انتهاء الغارات الجرمانية واستقرار كل جماعة من الجرمان فى ناحية وإنشائهم دولة فيها . وقد حافظ العرب فى الأندلس على هذا التقسيم ولم يدخلوا عليه تعديلا إلا بالقدر الذى اقتضته الظروف الخاصة بنظام دولتهم ، وقد سبق أن شرحنا ذلك بالتفصيل فى بحث آخر .

٣ — ثم يعقب ذلك بذكر الطريق من قاعدة الكورة السابقة إلى قاعدة الكورة التى يتحدث عنها ، وهو يصف الطريق على أساس المحلات أو على أساس الأميال أو الفراسخ . والمحلة فى مصطلحه هى الموضع الذى يستطيع الركب أو المسافر أن يريح فيه ويتزود لما يليه . والأغلب أن تكون هذه المحلات هى المحطات المتعارف عليها فى تنقلات الجيوش ورجال الدولة ، فإذا صح هذا الفرض جاز القول بأن خطوط هذه المحلات تعين لنا الطرق الرئيسية التى كانت الدولة تعنى بصيانتها فى الأندلس .

٤ — ثم يلى ذلك الكلامُ على المدن التابعة للكورة واحدة واحدة . وهو يتكلم عن كل منها كلاماً مفصلا يعتمد على ما أخذه من أحمد الرازى أولا ، ثم يضيف من عنده تفصيلات غاية فى الأهمية تدل على اطلاع ومعرفة ومشاهدة أيضاً ، خذ مثلا المادة التى كتبها عن مدينة بلنسية : يبدأ بعبارة من كلام أحمد الرازى : « وهى قاعدة من قواعد العمال القديمة ، وإليها تنسب الكورة ، وهى مدينة التراب » ثم يقول : « قال أحمد بن عمر : وهى مدينة مسورة ، قد أتقن سورها المنصور عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبى عامر ، ولا يُعلم ببلاد الأندلس أتقن بناء من سورها ولا أجمل منه ، ولها خمسة أبواب :

الباب الشرقى يسمى بباب القنطرة ، ويُخْرَج منه على قنطرة قد صنعها المنصور عبد العزيز بن أبى عامر ، ليس فى الأندلس أتقن منها ، وعلى هذه القنطرة تخرج الرفاق إلى طليطلة وسرقسطة وطرطوشة وما هنالك .

وبعده إلى ناحية الشرق باب يعرف بباب الوراق ، ويُخْرَجُ منه ويُسْلَكُ إلى الربض على قنطرة خشب يُعْبَرُ عليها الوادى إلى ربض هناك .

وفى القبلة باب ابن صخر

وفى الجوف باب الحنش

وفى الغرب باب يعرف بباب بُيْطَالة

ويليه فى الغرب باب يعرف بباب القيسارية . ومن هذين البابين تخرج الرفاق إلى غرب الأندلس ، وإلى دانية وشاطبة والجزيرة » .

ثم يعقب ذلك بكلام عن أهل بلنسية وخلقهم فيقول : « وقد أطبعت مدينة بلنسية بقلة الهم ، لا تكاد ترى فيها أحداً من جميع الطبقات إلا وهو قليل الهم ، مليئاً كان أو فقيراً ، قد استعمل أكثر تجارها لأنفسهم أسباب الراحات والفُرَج ، ولا تكاد تجد فيها من يستطيع على شىء من دنياه إلا وقد اتخذ عند نفسه مغنية وأكثر من ذلك ، وإنما يتفاخر أهلها بكثرة الأغانى . يقولون عند فلان عودين (كذا) وثلاثة وأربعة وأكثر من ذلك . وقد أُخْبِرْتُ أن مغنية بلغت فى بلنسية أكثر من ألف مثقال طيبة . وأما دون الألف فكثيرات » .

ثم يعود بعد ذلك فيضيف شيئاً خاصاً بوصف البلد يغلب أنه أخذه عن احمد الرازى : « وهى أطيب البلاد وأحسنها هواء وأجملها بساتين . ولها خطة فسيحة . وهى بلدة منيعة ، جمعت البر والبحر والزرع والضرع والفواكه . ولها سهل وجبل ومدن كثيرة وحصون » .

٤ — ثم يتحدث عن ثلاث مدن من كورة بلنسية هى شاطبة ودانية وجزيرة شقر . وحديثه عنها حديث العارف بما يصف المشاهِد له . وتتخلل كلامه ملاحظات عظيمة الأهمية ، ففى حديثه عن شاطبة يقول « وفيها يتجهز التجار بالأمتعة إلى غانة وبلاد السودان وإلى جميع بلاد المغرب » وهى ملاحظة فريدة فى بابها بالنسبة لمن يدرس الأحوال الاقتصادية للأندلس وعلاقاته التجارية مع غيره من البلاد . وفى كلامه عن جزيرة شقر يقول « وهى جزيرة قد أحاط بها الوادى من جميع جهاتها ، ولم يبق لها إلا موضع لطيف يُدخل منه إلى هذه الجزيرة ، قد صُنع فيه حفير ، وعليها ١٠ بإزاء ذلك الموضع سور

وباب يُصعد إليه على درج » وهذا كلام دقيق لا يصدر إلا عن مشاهدة شخصية ، وتتبين لنا دقته إذا قارناه بما يقوله ابن عبد المنعم الحميرى فى هذا الموضع : « شقر ، جزيرة بالأندلس قريبة من شاطبة ، وبينها وبين بلنسية ثمانية عشر ميلا . وهى حسنة البقعة ، كثيرة الأشجار والثمار والأنهار ، وبها أناس وجلة . وبها جامع ومسجد وفنادق وأسواق . وقد أحاط بها الوادى . والمدخل إليها فى الشتاء على المراكب ، وفى الصيف على مخاضة[1] » فهذا كلام عام لا يحدد شيئاً كثيراً ، وقد اختصر الحميرى ما قرأه عند العذرى اختصاراً مخلاً .

٥ — وللعذرى اهتمام خاص بالطرق ومسافاتها والمحلات التى تمر بها ، وإلى أى النواحى يؤدى كل منها ، وأى باب من أبواب المدن يفضى إليها . وهو دقيق جداً فيما يعطى من تفاصيل خاصة بذلك . ففيما يتصل بكورة بلنسية مثلا يذكر :

ا — أبواب مدينة بلنسية وإلى أى ناحية يؤدى كل باب .

ب — الطرق من مدينة بلنسية إلى المواضع التى من عملها ، فيذكر الطريق إلى مربيطر وإلى جزيرة شقر (٢٥ ميلا لا ١٨ كما قال الحميرى) وإلى حصن المنارة .

ج — المسافات بين هذه البلاد بعضها وبعض ، وبينها وبين البلاد الهامة الأخرى من بلاد الكورة .

د — الطريق من قاعدة الكورة السابقة إلى قاعدة الكورة التى يتحدث عنها .

ه — وهو يذكر مسافات هذه الطرق بالأميال فى الغالب ، ولكنه يكتفى بذكر المحلات فى أحيان قليلة ، والمحلات هى المحطات فى عرفنا ، وذكر الطرق على أساسها لا يقل قيمة ولا تحديداً عن ذكرها بالأميال بالنسبة للمسافرين فى العصور الوسطى .

---

(١) الروض المعطار : ١٠٢ — ١٠٣

وهو يذكر هذه الطرق ذكر من سار فيها وعرف ما يشاهده الإنسان فيما يمر به من مدنها وقراها ، فيقول مثلا : « من بلنسية إلى مُربيطَر ، وهو حصن شرق مدينة التراب ، خمسة عشر ميلا ، وفى مدينة مربيطر أثر للأول ، ولها من آثار الأول قصر يحار فيه الناظر وتعجز عنه الحكاية[١] » ويقول فى موضع آخر : « ومن أُنده على ثلاثة أميال قرية أرطانة ، وفى أعلى هذه القرية منبع عين يخرج من غار إلى حوض[٢] ، فيغزر الماء فى الحوض مرة ويقل أخرى ، كالمد والجزر ، يُرى ذلك فى كل يوم مراراً فى ذلك العين ، ولا يخفى على من تأمله . ولقد وقفت إلى ذلك العين وحُمِلت إليه لأراه ، فرأيتُه كما ذُكر : يمد ويجزر[٣] » .

٦ — وأهم ما فى جغرافية العذرى ذكره لأقاليم كل كورة وأجزائها ، والاقليم فى الأندلس كما قال ياقوت قسم من الكورة ، وهو يعدل الرستاق فى المشرق ، أى أنه قسم إدارى أصغر من الكورة ، وقد بينا فى « فجر الأندلس » أن الإقليم كان وحدة زراعية مالية تضم قرى كثيرة ، ولكن الضرائب كانت تقدر عليه جملة ، وبينا كذلك أن الأجزاء كانت مساحات واسعة من الأرض تركتها الدولة مشاعا للمرعى ، ولم تقدر عليها جباية ما ، وذكرنا أن العرب ساروا فى ذلك على أساس قديم وجد من أيام الرومان ، وهو يجعل لكل مدينة أو قرية منطقة مراعٍ مشاعاً معفاة من الضرائب[٤] .

---

(١) يقول مادوث فى معجمه الجغرافى أنه لم يبق فى مربيطر على أيامه شىء من الآثار القديمة التى خلفها السغونتيون Los Saguntinos وهم منسوبون الى بلدة سغنتم Saguntum وكانوا يدافعون عن هذه الناحية ضد الرومان أثناء الحروب بين قرطاجنة وروما فى اسبانيا .
Pascual Madoz, *Diccionario Geográfico, Estadistico, Histórico de España...* (Madrid 1818), vol. XI, p. 776.

(٢) ذكر هذه العين مادوث فى معجمة الآنف الذكر . وقال إنها تنبع من أصل جبل مونتى Monti . مجلد ١٢ ص ٢٧٥ مادة Onda .

(٣) فى الأصل : يعلأ ويحصر ، وهو تحريف من الناسخ .

(٤) انظر المناقشة فى كتابنا « فجر الأندلس » ص ٥٨٠ — ٥٨٧ . وانظر كذلك مقالنا :
La División Político-Administrativa de la España Musulmana, en Revista del Instituto de Estudios Islámicos, vol. V, (1957), pp. 102 sqq.

والعذرى يذكر أقاليم كل كورة ثم يتبع ذلك بالأجزاء التى فيها ، وربما أهمل هذه القاعدة فى بعض الكور ، ولكن هذا هو الغالب على كتابه . وهو يذكر فى الغالب أيضاً عدد القرى فى كل اقليم ومقدار الضرائب المقدرة عليه ، وهو يفصل هذه الضرائب تفصيلا دقيقاً ، فيقول مثلا :

« عدد أقاليم قرطبة ، وهى خمسة عشر اقليما :

اقليم المدور : عدد قراه فى المغارم تسعون قرية ، منها فى العشور ثلث[. . .]

القمح : ٨٥ مديا و ٤ أقفزة

النَّاضُّ : ٣٩٨٠

الطبل للعام : ٤٢٤٠ ديناراً

الصدقة والبيزرة : البيزرة ٤١٢ ديناراً و ٤ دراهم

اقليم القصب : القرى فى الوظائف ٨٧ منها فى العشور ٥٦

القمح : ١٠٠ مُدى و أر[. . .]

الشعير : ١١١ مدياً

الطبل للعام : ٢٧٠٠ [. . .] و ٤ دراهم

ومن الناض للحشد : ٤٧٠٢ ٢/٧

الصدقة والبيزرة : ٢٠٣ دنانير و ٤ دراهم

وهكذا فى بقية أقاليم قرطبة . ومع أنه يقول إنها خمسة عشر إلا أنه لا يذكر إلا اثنى عشر .

ومثل هذه البيانات لا يأتى بها إلا رجل مطلع على سجلات الدولة ينقل عنها ، فإن الذى يقول مثلا إن ضريبة الناض للحشد ، أى الضريبة المالية المقررة على اقليم القصب لمعونة الجيوش تبلغ ٤٧٠٢ ٢/٧ (ديناراً فى الغالب) لا يمكن أن يقول ذلك إلا نقلا عن سجلات إمامه . وسجلات الدولة لم تكن فى

هذه الأيام فى متناول كل إنسان ، وإنما كان يطلع عليها من يعملون فى دواوين الدولة وفى إدارتها المالية بوجه خاص . وهذا فى ذاته يكشف عن حقيقة لم نكن نعلمها عن العذرى ، وهى أنه لابد أن يكون قد عمل فى الإدارة وتناولت يده الأوراق ونظر فيها ، أو على أقل تقدير لابد أن يكون قد اتصل برجل له هذه الصفة ونقل من دفاتره هذه البيانات . وما الذى يجعل رجلا كأحمد عمر ابن أنس العذرى ، فقيه محدث كل همه منصرف إلى السماع والاسماع ورواية الأحاديث على نحو من الضبط يجعله من شيوخ العصر الذين يسمع منهم رجل مثل أبى محمد بن حزم ، ما الذى يجعل رجلا كهذا يميل إلى الكتابة فى صفة الأندلس ونواحيها وأقاليمها وأجزائها وحدود كل ناحية واقليم وضرائبه وما إلى ذلك ؟ إلا أن تكون المعلومات قد يُسِّرت له ووجد فى نفسه ميلا إلى أن يسجلها فى كتاب ، ودفعه هذا إلى استيفاء الموضوع فقرأ ما كتب غيره ورحل ليرى بنفسه حتى يكون كتابه فى مستوى ما كتبه الرازى مثلا ؟

هذا ما نعتقده ، ويؤيدنا فيه أن الكثير من المعلومات التى يسجلها تبدو لنا ناقصة ، كأنه سجل ما لديه وانتظر بالباقى حتى يستكمله ، ثم لم يجد وسيلة إليه أو صرفته شواغل الأيام فترك الكتاب كما هو : فهو مثلا يقول إن أقاليم قرطبة خمسة عشر ثم لا يذكر إلى اثنى عشر ، وهو يذكر كل أنواع الضرائب فى إقليم ويغفل بعضها فى أقاليم أخرى ، وقد يذكر أن مدن الكورة الفلانية هى كذا وكذا وكذا فإذا بدأ يتحدث عن كل منها بالتفصيل لم يذكر إلا اثنتين أو ثلاثا وترك الباقى ، وهذه طريقة مُصَنِّفٍ جَمَع ونقل وأثبت ما استطاع الوصول إليه وانتظر بالباقى ليستكمله ، ثم لم يستطع ، ولو أنه عمد إلى تأليف كتاب فى الجغرافية من أول الأمر كما فعل المقدسى مثلا لرأينا فى الكتاب تناسقا أكثر مما فى نسخته التى لدينا .

ولكن ذلك لا يقلل من الفائدة التى نخرج بها من ذلك الكتاب ، فهو بشكله الحالى أحسن وأوسع ما لدينا فى صفة الأندلس الإسلامى ، سواء من

حيث الطريقة التى سلكها العذرى فى تأليفه أو من حيث المادة التى ضمنها إياه ، هذا إلى دقته فى التحديد وضبطه فى رسم الأعلام . ويبدو أنه عندما شرع فى جمع المادة حرص على أن يقرأ ما كتب غيره قراءة فهم وتدبر ، ومن هنا فإننا نجد عنده عبارات ذات أهمية كبرى بالنسبة لتصور العرب ومن قبلهم لشبه الجزيرة . مثال ذلك قوله بعد الفراغ من الكلام على كورة تدمير ، وسنقسم كلامه هنا إلى فقرات نعطيها أرقاماً حتى تسهل مناقشتها :

١ — « تم ذِكر الأندلس الأول على قسمة قسطنطين ، وهو الذى جزّأها ستة أجزاء :

٢ — أضاف الثلاثة فسماها بالأندلس الأدنى ، وذلك من قرطاجنة الحَلْفَاء وهى لورقة ، وجعل معها مدينة بلنسية ومدينة شاطبة إلى أقصى الغرب .

٣ — وأضاف الثلاثة أيضاً فسماها بالأندلس الأقصى ، وذلك من أوريولة إلى سرقسطة وما وازاها .

٤ — وسماها غير قسطنطين بالأندلس الغربى وبالأندلس الشرقى ، وذلك بجرى الأنهار ، فما جرى منها إلى الغرب سماه الغربى ، وما جرى من أنهاره إلى الشرق سماه بالشرقى .

٥ — والقسمة من تدمير ، ونهرها جار إلى الشرق .

وهذا الكلام أقرب إلى أن يكون محاولة للتوفيق بين تقسيمات إدارية وكنسية مختلفة لاسبانيا ، أو محاولة لشرح مصطلحات إدارية وجغرافية رومانية أو قوطية وصلت إلى علم العذرى ، فاجتهد فى توضيحها قدر ما استطاع ، شأن العالم المتخصص الحريص على استيضاح كل ما يصل إليه من المعلومات .

وسنناقش عبارة العذرى فقرة فقرة :

١ — فأما قوله « ثم ذكر الأندلسى الأول على قسمة قسطنطين » فمعناه فيما نظن : ثم ذكر الأقسام الداخلة فى الأندلس الأدنى Espania Citerior كما قسمه قسطنطين (إلى خمسة أجزاء هى : نربونه Narbona وجليقية Galicia وقرطاجنة Cartagena ولشدانية Lusitania وباطقة Betica) .

ويلاحظ أن العذرى وضع بلنسية فى الجزء الرابع من قسمة قسطنطين ، أى من التقسيم الكنسى الذى أشرنا إليه . ولورقة عنده تقابل قرطاجنة فى التسمية الكنسية .

٢ — وأما قوله « أضاف الثلاثة فسماها بالأندلس الأدنى ، وذلك من قرطاجنة الحلفاء وهى لورقة ، وجعل معها مدينة بلنسية ومدينة شاطبة إلى أقصى الغرب » ففيه خلط ظاهر ، فإن قسمة قسطنطين لم تضف الثلاثة ولم تُسَمِّهَا الأندلس الأدنى ، بل الذى حدث هو أن التقسيم الإدارى الرومانى الأول الذى تم حوالى سنة ١٩٧ ميلادية تقريباً كان يجعل اسبانيا قسمين إداريين كبيرين هما ولاية اسبانيا الدنيا Provincia Hispania Citerior وولاية اسبانيا القصوى Provincia Hispania Ulterior ، والأولى توازى الساحل الشرقى ، والثانية توازى الساحل الجنوبى حتى مصب نهر الوادى الكبير ، وكان يحكم كلا منهما قنصل سابق Proconsul ثم استبدل فى تلك السنة بمُقَدَّمٍ Praetor . والحد الفاصل بين هذين القسمين كان يبدأ بالفعل من قرطاجنة اسبانيا أو قرطاجنة الجديدة Cartago Nova ويسير فى اتجاهٍ شمالى غربى إلى أقصى ما عرف فى المصطلح الجغرافى العربى ببلاد الغرب . فكان خط التقسيم يصل إلى Emerita Augusta وهى ماردة . وكانت تدخل فى هذه الولاية شاطبة Saetabis . ودخلت فيها فيما بعد بلنسية Valentia عندما أنشئت لتحل محل سغونتوم Saguntum التى خربتها الحروب البونية .

فإشارة العذرى إذن إنما هى إلى ذلك التقسيم القديم الأول ويبدو أنه ظل

واضح المعالم فى أذهان أهل الجزيرة رغم ما ناله من تغير وتطور على أيدى الاباطرة بعد ذلك .

وقد سبق أن ذكرنا أن قسمة قسطنطين هذه كانت معروفة فى الأندلس الإسلامى ، يتداول نصاراه نسخاً مختلفة منها ، بعضها عربى . وقد أثبت أحمد الرازى نص إحداها فى جغرافيته ونقلها عنه البكرى ، ويغلب على الظن أيضاً أن العذرى ذكرها فيما ضاع من أقسام كتابه ، بدليل إشارته إليها فى الفقرة التى نناقشها .

٢ — وأما قوله « وأضاف الثلاثة أيضاً ، فسماها الأندلس الأقصى ، وذلك من أوريوله إلى سرقسطة » فحقيقة ما وقع أن قسمة قسطنطين قسمت الأندلس الأقصى Provincia Hispania Citerior إلى ثلاث ولايات أسقفية هى :

باطقة Baetica (وهى الجزء السادس فى الترجمة العربية لقسمة قسطنطين التى أوردها أحمد الرازى والبكرى) وقاعدتها اشبيلية .

لشدانية Lusitania : وهى الجزء الخامس من هذه الترجمة ، وقاعدتها ماردة .

جليقية : Galicia : وهى الجزء الثانى من هذه الترجمة ولم تحدد لها قاعدة .

٣ — أما قوله فى نهاية هذه الفقرة الثانية « وأضاف الثلاثة أيضاً فسماها بالأندلس الأقصى ، وذلك من أوريوله إلى سرقسطة وما وازاها » فيريد به أن الحد الفاصل بين الأندلس الأقصى والأندلس الأدنى خط يسير من أوريوله إلى سرقسطة .

وهكذا نرى كيف سار أحمد بن عمر بن أنس العذرى بعلم الجغرافية فى الأندلس خطوة واسعة إلى الأمام . فإذا كان الرازى قد وضع الأساس السليم الذى حدد مفهوم الجغرافية الطبيعية والبشرية فى أذهان الناس ، فقد بدأ العذرى من حيث انتهى الرازى ، فحاول أن يضيف تفاصيل جديدة إلى وصف

هيئة شبه الجزيرة وتقسيمها الجغرافى العام ، وتوسع فى الجغرافية البشرية ، فأطال الكلام عن كل كورة أو قسم إدارى ، فلم يكتف بوصفه العام ومدنه الرئيسية ومنابع الثروة فيه ، بل فصل الوصف تفصيلا علمياً حافلا بالمعلومات ، ووصف المدن نفسها واحدة واحدة ذاكراً زمامها وحدودها وأبوابها إذا استطاع ، ثم ذكر الطرق بين بلاد الكورة نفسها وبين قواعد الكور المجاورة وبلادها ، حريصاً دائماً على ذكر المسافة من قاعدة الكورة إلى قرطبة عاصمة الدولة . وهو لا يكتفى بذلك بل يورد أقاليمها وما يتبع كل واحد منها من قرى ، ثم يذكر الأجزاء ، ويضيف إلى ذلك فائدة كبرى : ينقل من سجلات الدولة مقادير الضرائب المقررة بأنواعها على كل إقليم يذكره ، ويوردها بغاية الدقة مما يلقى ضوءاً باهراً على نظام الضرائب فى الأندلس وأحواله الاقتصادية بصفة عامة .

وإذا كان الوصف الدقيق لجغرافية الرازى هو أنها من طراز البلدان فقط فإن جغرافية العذرى ضمت البلدان والمسالك والممالك ، فهى تصف الطرق وتقدر المسافات وتعين المراحل والمحلات فى دقة تشهد بدقة علمية جديرة بالتنويه . وقد رأينا الرازى يتحرر من أسر القيود التى وضعها بطليموس على علم الجغرافية ، فينقله من جداول فلكية وهمية تحشد فيها البلاد على صورة جافة ، إلى دراسة إنسانية تتناول الأرض ومن عليها من الناس وعلاقة هؤلاء بهذه ، ثم يجىء العذرى فيضيف حشدا من المعلومات عن الجغرافية السياسية والاقتصادية للبلاد ، ولا يشير إلى أقاليم بطليموس وإنما إلى قسمة قسطنطين ، أى إلى التقسيم الإدارى المالى ، ويقترب بالجغرافية من مفهومها فى العصر الحديث ، فهو لا يكتفى بذكر المحاصيل الرئيسية للناحية ، بل يضيف مقادير الجبايات من كل نوع ، معتمداً فى ذلك على سجلات الدولة الرسمية ، وهذه البيانات الدقيقة عن الضرائب تمكننا من تعرف مساحات الأراضى الزراعية وأعداد السكان . ثم إن كلامه الدقيق عن مجارى المياه وعيونها وذكره الأنهار وفروعها والترع

وما تسقيه ، يكشف لنا عن ناحية كبرى من نواحى الحضارة العربية فى الأندلس : ناحية الري والسقيا والقنوات . والمعلومات التى يقدمها العذرى فى هذه الناحية تزيد فى الدقة على ما يقدمه المقريزى فى خططه عن هذه الناحية فى مصر ، وذلك فضل ينبغى أن نذكره لذلك الجغرافى الأندلسى الفريد .

والعذرى دقيق فيما يستعمل من مصطلحات دون أن يلجأ إلى التعبير عنها تعبيراً عاماً يفقدها قيمتها الاصطلاحية ، فهو يسمى عاصمة الكورة بالقاعدة ، ويسمى عاصمة المدينة أى الكورة الثغرية « قرار العمال والقواد » ويسمى منبع النهر « عُنصره » والقناة التى تشق للرى بالساقية ، وهو لا يقول « شق قناة » وإنما « أخرج ساقية » ، وهو يفرق تفريقاً واضحاً بين الساقية والناعورة . وهو يذكر « المعادن » أى المناجم ، ويعين قدر ما يستخرج منها فى العام . وعند كلامه على الفُنْدُون يقول « صفته صفة النيل ، إنما يسقى مرة واحدة ، ولا يحتاج إلى غير ذلك » ، أى أنه يسقى بفيض النهر عندما يعلو ماؤه ويروى ما حوله ، فإذا انحسر الماء زرع الناس دون حاجة إلى سقى آخر ، ثم يضيف بعد ذلك بيانات عن وفرة ثمر ما يزرع فيه . وهو يسمى الفتحات التى توجد فى الجبال أو تصنع فيها لكى يصل الناس إلى الماء الجاري داخلها بالمناهر ، مفرده منهر ، وهو مصطلح نقرؤه عنده أول مرة فى كتب الجغرافيين .

وهو يقف عند كل موضع هام ويذكر ما تيسر من تاريخه ، ومعلوماته هنا دقيقة يبدو أن معتمده فيها على تاريخ أحمد بن محمد الرازى ، وهذه المعلومات المفصلة أدخل فى باب التاريخ ، ولكنها لا تخلو من فائدة لدارس الجغرافية البشرية والاقتصادية والسياسية ، فنحن نتبين من خلالها الأقوام التى سكنت الناحية وتاريخهم فيها واختلاطهم بأهلها ، وصورة ذلك الاختلاط وفوائد أخرى ذات أهمية كبرى ؛ ففى أخبار ابن وضاح فى لورقة يقول : « وكان بقربها رجل يسقى على نوبة له » فنفهم أن الناس كانوا يتناوبون فى الانتفاع بالسواقى ، كل منهم يسقى وقتاً معيناً يسمى « النوبة » ؛ وعند كلامه على أوريولة يقول إن تفسيرها

باللاتينى الذهبية ، وهو تفسير صحيح لأن أصل الاسم Aureola . وعند كلامه على ديسم بن اسحاق يقول إنه أدى « قطيعاً » من الجباية أى جانباً منها ، ويقول إنه « كان يحبِّس الخيل والسلاح على أهلها » أى يرصد خيلا وسلاحاً خاصة للدفاع عن أهل لورقة . ومن خلال كلامه نعرف المعنى الدقيق لعبارة « سَجَّل له بها » أى اعترف الأمير بولايته على الناحية وكتب له سجلا بذلك ، وعبارة « استعمل الراحات والفرج » أى أخذ بأسباب الملاهى وهو يذكر « بَلَد نُوبَه » وهو المصطلح الأندلسى لذلك الطراز من المدن الذى ظهر فى أوروبا ابتداء من القرن العاشر الميلادى Villa Nova (Villeneuve أو Villa Nueva) ولفظ « نازل » ويراد به الذين استقروا من العرب الفاتحين فى ناحية ما ، فيقال مثلا ان حسين بن يحيى الأنصارى « مِنْ نَازِل سرقسطة » ؛ ولفظ « ضغط » بمعنى طارد ؛ ولفظ الثمر أو الثمرة أو الثمار بمعنى شجر الفاكهة ؛ وغير ذلك كثير .

ويهتم العذرى بأحاديث العجائب والغرائب ، ولكنه يذكرها تحت هذا العنوان ولا يخلط بينها وبين الوصف الجغرافى ، ثم اننا إذا قرأنا الكثير مما يورده على أنه « غرائب » وجدناه فى كثير من الأحيان يتحدث عن ظاهرة طبيعية يمكن تعليلها وقد تكون باقية إلى اليوم ، وهو لا يسرف ولا يغرب فى عجائبه تلك على أى حال .

بين العذرى والبكرى

فيما بين العذرى والبكرى ، أو كان معاصرا لأحدهما ، عدد من أئمة التاريخ فى الأندلس تضمنت كتبهم مقدمات جغرافية أو استطرادات فى ذلك الفن على النحو الذى جرى عليه أصحاب التاريخ فى الأندلس عامة ، فقد رأينا كيف أن الفاصل بين التاريخ والجغرافية عندهم كان غير واضح ، وأنه ما من مؤرخ عندهم إلا يمكن اعتباره جغرافياً ، وما من جغرافىّ إلا وهو مؤرخ فى نفس الوقت . وتلك من خصائص التاريخ والجغرافية عند الأندلسيين ، نعم إن نفراً من الجغرافيين أو المؤرخين فى المشرق جرى على هذا النهج ، ولكن ذلك كان قليلا ، والأغلب أن يكون المؤرخ فى المشرق محدثا أو مفسراً ، أما فى الأندلس فإن الجغرافية والتاريخ كانا متلازمين ، وهذا يفسر لنا السبب فى أن معظم ما كتبوه فى الجغرافية إنما هو من قبيل الجغرافية البشرية .

ومن أسف أننا لم نعثر بَعدُ على الجانب الأكبر من مؤلفات أولئك المؤرخين ، ولكن ما وصل إلينا من بقاياه يكشف عن طبيعته ومزاياه كما ينم الحطام على السفين الغارق ، ومن حسن الحظ أن المتأخرين من مؤرخى الأندلس مضوا على سنن المتقدمين من افتتاح كتبهم بالمقدمات الجغرافية وتضمينها ما تدعو إليه الحاجة من التفاصيل الجغرافية عند الإلمام بالمواضع والبلاد ، وقد أخذوا ذلك من مؤلفات السابقين عليهم ، فحفظوا لنا بذلك فقرات وإشارات طويلة أو قصيرة تعيننا على تكوين فكرة سليمة عن الأصول التى أخذوا

عنها . وأحفل هذه الكتب بالنقول نفح الطيب للمقرى والمعجب لعبد الواحد المراكشى والإحاطة لابن الخطيب ومقدمة ابن خلدون وتاريخه ومعجم البلدان لياقوت ونزهة المشتاق للادريسى والروض المعطـار لابن عبد المنعم الحميرى وأصول أخرى تضم قطعاً أقل أهمية ، وعلى هذه كلها معتمدنا فيما سنذكر عن هؤلاء الكتاب كجغرافيين ، وسنكتفى منهم بمن لدينا من النقول عنهم ما يسمح بتكوين فكرة عنهم كجغرافيين ، أما من أثر عنه السطر والسطران أو لم يرد إلا اسم كتابه مثل اسحاق بن سلمة الليثي (عاش أيام الحكم المستنصر) الذى ألف كتابا فى « أخبار رَيَّة وحصونها وولاتها وحروبها وفقهائها وشعرائها[١] » وكتابا آخر فى « أخبار الأندلس[١] » وأبى مروان عبد الملك بن سراج بن عبد الله بن محمد المعروف بابن الطاهر (توفى ٤٨٩/١٠٩٥) الذى ذكروا له كتابا فى « تاريخ فقهاء طليطلة » وأبى عمر أحمد بن محمد بن عفيف (٣٤٨— ٤٢٠/٩٥٩—١٠٢٩) الذى يصفه الضبى بأنه « تاريخى مشهور »[٢] فقد استطردنا عن ذكرهم لأن ما لدينا عنهم لا يغنى .

وسنقف عند أربعة من أهل النصف الثانى من القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس لدينا من كتاباتهم وأقوال المؤرخين عنهم ما يجعل لهم مكانا فى تاريخ التأليف الجغرافى فى الأندلس ، بل إن إشارات بعضهم تبلغ من الدقة والتفصيل ما لا يستغنى عنه من يجمع أقوال الأندلسيين فى جغرافية بلادهم . وهؤلاء الأربعة هم : ابن الفرضى وابن حيان وابن النظام وابن أبى الفياض ، ولن نطيل الوقوف عند كل منهم ، فهذا مكانه فى الكلام عنهم كمؤرخين ، وإنما سنكتفى بقدر يسير يتناسب مع ما لدينا من الفوائد الجغرافية لكل منهم .

---

(١) الضبى ، تاريخ علماء الأندلس رقم ٥٥٦

(٢) نفس المرجع رقم ٣٤٤

ابن الفرضى

فأما ابن الفرضى (أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدى) (٣٥١—٤٠٣/٩٦٢—١٠١٢) فهو شيخ أصحاب معاجم التراجم الأندلسية ومقرر أصول هذا الفن الذى اتصل فى الأندلس والمغرب بعد ذلك قرونا طويلة ، وكتابه الوحيد الباقى بين أيدينا « تاريخ علماء الأندلس » إن هو إلا ثبت طويل بأسماء علماء الأندلس إلى عصره يتضمن ما كان الناس يحتاجون إليه فى ذلك العصر من المعلومات عن أولئك العلماء . ولسنا فى حاجة إلى التنبيه على أن « تاريخ العلماء » الذى لدينا إنما هو اختصار للكتاب ، فإن ابن الفرضى ينص فى المقدمة على أنه كان يريد أن يؤلف كتابا « موعبا على المدن يشتمل على الأخبار والحكايات ، ثم عاقت عوائق عن بلوغ اعداد فيه ، فجمعنا هذا الكتاب مختصراً . . »[1] ويؤكد فى نهاية تلك المقدمة أن نيته لا زالت معقودة على « جمع الكتاب الذى تقدم ذكره على البلدان وتقصى ما اختصرناه فى كتابنا هذا من الحكايات والأخبار إن تأخرت بنا مدة وصحبتنا من الله معونة »[2] . وقد كشف ليفى بروفنسال فى مقال ممتع عن طوق الحمامة لابن حزم عن فقرات لابن الفرضى موسعة مفصلة بأكثر مما فى « التاريخ » الذى لدينا بكثير[3] ، مما يحمل على الظن بأن ابن الفرضى شرع على الأقل فى الكتاب المطول ، ومن الجائز أيضاً أن يكون قد أتمه ، وعاش الكتابان جنباً إلى جنب حتى أخملت المختصرة المطولة كما حدث « لمطمح » ابن خاقان . ومن هذه النسخة المطولة أخذ ابن الخطيب ما أورده فى أعمال الأعلام

---

(١) ابن الفرضى ، المقدمة ، ص ٦ — ٧

(٢) نفس المصدر ، ص ٧

(٣) E. Lévi-Provençal, *En relisant le «Collier de la Colombe»* Al-Andalus, vol. XV, (1950) fasc. 2, pp. 335—877.

وابن حزم ما أورده فى الطوق . وما يعنينا هنا هو أن رجلا يزمع أن يؤلف معجم تراجم على البلدان ، أى مرتباً بحسب بلدان الرجال الذين يترجم لهم ، لابد أن يتكلم عن هذه البلدان فى ذاتها . ومن هنا على الأغلب أخذ المقرى الفقرات التى أوردها فى الفصل الخاص بقرطبة من النفح ، وهى فقرات طويلة تدور الأولى منها على زيادة المنصور ابن أبى عامر فى جامع قرطبة ، وهى فقرة طويلة من ذلك النوع الذى نجده عن ذلك الجامع عند الجغرافيين من أمثال الرازى وابن عبد المنعم الحميرى[(١)] . والثانية تدور حول مدينة الزهراء ، قال : « كان يعمل فى جامعها حين شُرع فيه من حذاق الفعلة كل يوم ألف نسمة منهم ثلثمائة بناء ومائتا نجار وخمسمائة من الأُجَراء وسائر الصنائع ، فاستتم بنيانه وإتقانه فى ثمانية وأربعين يوماً ، وجاء فى غاية الاتقان من خمسة أبهاء عجيبة الصنعة ، وطوله من القبلة إلى الجوف — حاشا المقصورة — ثلاثون ذراعا ، وعرض البهو الأوسط من أبهائه من الشرق إلى الغرب ثلاث عشرة ذراعاً[(٢)] . . . » وهذه الفقرة وبقيتها لا يكتبها إلا رجل مقتدر على الكتابة فى البلدان وأوصافها والمبانى وهيآتها ومقاييسها ، ولا يحتمل أن يكون ابن الفرضى قد أخذ ذلك الكلام عن غيره ، فإنه هو نفسه معاصر لبناء الزهراء وجامعها ، ومعلوماته تدل على أنه سأل واستقصى وقاس وحقق بنفسه . وأدل على هذه الناحية عند ابن الفرضى قوله فى الفقرة التالية التى نقلها المقري : « وفى صدر هذه السنة كمل للناصر بنيان القناة الغريبة الصنعة التى جرى فيها الماء العذب من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة غربى قرطبة فى المناهر المهندسة ، وعلى الحنايا المعقودة ، يجرى ماؤها بتدبير عجيب وصنعة محكمة إلى بركة عظيمة عليها أسد عظيم الصورة بديع الصنعة شديد الروعة لم يشاهد أبهى منه فيما صور

---

(١) المقرى ، نفح الطيب ٢/٨٦ — ٨٧
(٢) نفس المصدر ، ٢/١٠٠

الملوك فى غابر الدهر[١] ... » ولا حاجة إلى إيراد بقية الفقرة على تواليها ، فهى فى كتاب مطبوع بأيدى الناس ، ويكفى ما أوردناه لتتجلى موهبة ابن الفرضى الوصاف المدقق المعنى بمجارى المياه ومنابعها ومواردها وأطوالها وما ترويه من أرض .

أبو مروان بن حيان ، جغرافياً

أما أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان (٣٧٧ — ٤٦٩ / ٩٨٧ — ١٠٧٠) عميد مؤرخى الأندلس فمن المعروف أن معتمده الأول فى كتابه « المقتبس » كان على أحمد بن محمد الرازى ثم على ابنه عيسى بن أحمد ، وهو يتابعهما فى دقة ، مما يحمل على الظن أنه نقل الجزء الجغرافى الذى صدّر به أحمد بن محمد الرازى تاريخه ، ومن دلائل ذلك أن المقرى أورد فى النفح نقلا عن مقتبس بن حيان الفقرة الطويلة الخاصة بأشبان والأمم التى حكمت الأندلس قبل العرب ، وهى قطعة من المقدمة الجغرافية[٢] للرازى . وقد مضي ابن حيان على هذا المنهج فى بقية تاريخه ، فأورد فى ثناياه فقرات جغرافية طويلة على سبيل الشرح والتوضيح ، فقد نقل عنه المقرى كلامه عن جسر قرطبة[٣] ووصفه لمدينة الزهراء[٤] وكلاماً طويلا عن مساجد قرطبة ودورها وحماماتها[٥] وعن مبانى الزهراء . وهو فى هذه الفقرات يجرى على طريقته فى الاعتماد على الأصول المباشرة ، فهو فى كلامه عن الزهراء يقول : « ألفيت بخط ابن

(١) المقرى : نفح الطيب ، ٢/١٠٠ — ١٠١
(٢) نفس المصدر ، ١/١٣٤ وما يليها .
(٣) نفح الطيب ، ١/١٤٧
(٤) نفس المصدر ، ٢/٦٧
(٥) نفس المصدر ، ٢/٧٩

دحون الفقيه ، قال مسلمة بن عبد الله العريف المهندس : بدأ الناصر بعمارة الزهراء أول سنة ٣٢٥ . . »[1] . أما ما يرد فى ثنايا المقتبس من التفاصيل الجغرافية عن المواضع فيمكن أن يكون كتيباً لا بأس به إذ جمع فيه ما فى الأجزاء التي وجدت من هذا الكتاب . ولا يستغنى من يريد أن يتعرف جغرافية الأندلس الإسلامى عن أن يستصفى الفوائد الجغرافية الواردة فى كتابات ابن حيان ، فإنه يعنى بذكر المدن والحصون والقرى والكور وحدودها وما فيها ، ويؤرخ لاختطاط المدن وإنشاء الحصون والموانى والجسور والقناطر والأسوار . وهو فى وصف الغزوات ومسير الجيوش يذكر الطرق التى تمر بها ويصفها ويذكر ما فيها من جبال وهضاب ، وما يلقاه الجيش من حصون ومدن وقرى ، كل ذلك فى دقة كاملة لا نظفر بها فى مرجع آخر . ويكفى أن نذكر أن الجزء الصغير الذى نشره الأب ملشور انطونية من تاريخ ابن حيان خاصاً بإمارة الأمير عبد الله يضم أسماء نحو ٦٠٠ موضع كلها مضبوط برسمه ومكانه ووصفه فى كثير من الأحيان .

أبو بكر عبد الله بن عبد الحكم بن النظام

ويعتمد ابن حيان فى بعض ما يورد على ابن النظام ، وهو أبو بكر عبد الله بن عبد الحكم بن النَّظَّام الذى أورد له المقرى فى النفح قطعة طويلة تدل على ملكة جغرافية سليمة ، ولسنا نعلم عن حياته شيئاً ، ولولا أن ابن حيان أخذ عنه وذكره لما عرفنا أنه من المتقدمين عليه . وقد ذكر بونس بويجس أن الضبي اختصه بمادة يقول فيها أن أبا عامر بن مسلمة ذكره (فى كتاب

(١) نفس المصدر ، ١٠٣/٢

حديقة الارتياح فى وصف الراح على الأغلب) وأورد له ستة أبيات من شعر فى الخمر ، وقد نقل الضبى هذه المادة عن الحميدى ، ولكن ذلك غير صحيح ، فإن المذكور هناك اسمه عبد الملك أما عبد الله بن النظام الذى يعنينا هنا فقد اختصه ابن بشكوال فى التكملة بمادة من سطرين ، يقول فيها : « عبد الله بن عبد الحكم من أهل قرطبة يعرف بابن النظام ، ويكنى أبا بكر كان أديبا اخباريا تاريخيا ، يحكى عنه ابن حيان فى كتابه »[1] .

والعبارة التى أوردها المقرى لابن النظام[2] تكاد تكون أحسن ما لدينا عن مناخ شبه الجزيرة وأمطارها وأثر ذلك فى مجارى الماء فيها ، وهى عبارة مشهورة تعتبر توسيعاً وشرحاً لعبارة مماثلة للرازى أوردها المقرى قبلها . والعبارات التاريخية التى يقتبسها ابن حيان منه تحمل أيضاً طابع الرازى ، فكأن ابن النظام ألف كتابه ناسجاً على منوال شيخ مؤرخى الأندلس وآخذاً عنه ومضيفاً إلى مادته ما حضره من شىء جديد ، وليس فى هذا ضير ، فقد كانت هذه طريقة الأجيال المتعاقبة من مؤلفينا ، والمهم لدينا أنه يضيف من عنده إضافات جعلت ابن حيان ينص عليه وينسب إليه فضلها ، ولو أنه كان يكتفى بالنقل عن الرازى لما وجد ابن حيان ما يدعو إلى النص عليه فى بعض المواضع . والعبارة التى أتى بها المقرى مقتبسة دون شك من المقدمة الجغرافية .

وقد أورد المقرى فى نفح الطيب عبارتى أحمد بن محمد الرازى وابن النظام عن مناخ شبه الجزيرة جنباً إلى جنب (ج ١ ص ١٢٨ — ١٣٠) مما يغنينا عن إيرادهما هنا . وفيما يلى مقارنة بينهما تبين كيف أن ابن النظام اعتمد على كلام الرازى ، ثم أضاف من عنده ملاحظات تكشف عن ملكة جغرافية أصيلة .

---

(١) الحميدى ، جذوة رقم ٦٣٣ ص ٢٦٧ — الضبى بغية رقم ١٠٧٠ ص ٣٦٨ — ابن الأبار ، التكملة ، رقم ١٢٧٠ ص ٤٤٢ . وانظر أيضاً بولس بويجس رقم ٩٩ ص ١٢٤

(٢) نفح الطيب : ١/١٢٩ — ١٣٠

والعبارتان تختلفان فى اللفظ والتفاصيل ، ولكن الفكرة الرئيسية التى تقومان عليها واحدة ، وهى انقسام شبه الجزيرة من ناحية الأمطار والرياح واتجاه مجارى الأنهار إلى قسمين : غربى وشرقى ، وأن الحد الفاصل بين هذين القسمين منطقة وسطى يختلفون فى تحديدها ، فالرازى يقول إنها تبدأ « مع المفازة الخارجة مع الجوف إلى بلد شنتمرية طالعاً إلى حوز إغريطة المجاورة لطليطلة مائلا إلى الغرب ، ومجاوراً للبحر المتوسط الموازى لقرطاجنة الحَلْفَاء » وهى عبارة غير دقيقة ومليئة بالمشاكل ، إذ أننا لا نعرف ما هى « المفازة الخارجة مع الجوف إلى بلد شنتمرية » والغالب أن المراد هنا شنتمرية الغرب وهى التى تكتب أحياناً شنتبرية وبالاسبانية Santaver ، فتكون المفازة المرادة هنا هى المنطقة التى تعرف اليوم باسترامادوره ، وهى بالفعل فى امتداد ما كان يعرف بالجوف فى المصطلح الجغرافى الأندلسى ، وهو مساحة واسعة تغطّى فى التقسيم الحالى لاسبانيا الجزء الشمالى من مديرية ولبة Huelva وكل مديريتى بطليوس وقصرش Cáceres وجزءا مما يحاذى هذه المديريات طولا من البرتغال . والتعبير فى استرامادوره بالمفازة تعبير لا بأس به . وعلى هذا التفسير يكون الفاصل بين منطقتى الأمطار الغربية والشرقية هى المنطقة القليلة المطر التى ذكرناها . وبقية عبارة الرازى تتعلق بامتداد هذه المنطقة الفاصلة إلى الشمال : « طالعاً إلى حوز اغريطه المجاورة لطليطلة مائلا إلى الغرب » إذ يبدو أن المراد بحوز اغريطه هذه منطقة سلسلة جبال جريدوس Serranía de Gredos . والمراد أن المنطقة التى تمطر بالرياح الغربية وتجرى أنهارها غرباً تقع غرب خط يخترق الجوف والمفازة ماراً بشنتمرية الغرب ومنتهياً عند جبال جريدوس .

أما المنطقة الشرقية التى تمطر بالرياح الشرقية وتجرى أنهارها شرقاً فتقع بناء على كلام الرازى شرق خط يبدأ عند قرطاجنة الحلفاء على الساحل الشرقى ويصعد فى اتجاه شمالى غربى حتى بلدة شنتمرية الشرق المعروفة عند العرب أيضاً بالسهلة أو سهلة بنى رزين (اليوم Albarracín فى مديرية ترويل) حتى

يصل إلى حوض نهر إبره ويسير محاذياً الحافة الشرقية لسلسلة الجبال الايبيرية El Sistema Ibérico ثم يصل إلى جبال البشكنس ، والأغلب أن المراد بها سلسلة جبال كنتبرية Pirineos Cantábrios .

وهذا التحديد — إن صح — يبدو لنا غريباً من الرازى وهو الذى يعرف أن ثلاثة من أكبر أنهار الجزيرة وهى الوادى الكبير والوادى آنة والدويرة لا تنبع من أىٍّ من الحدين الذين عينهما . ولكن الحقيقة أن الجغرافيين كانوا ينقلون أمثال هذه التصورات العامة عن مراجع سابقة أو يأخذونها عن « علماء أهله » أى علماء الأندلس دون التعرض لها بنقد أو تحقيق .

وعلى هذا الأساس أيضاً نستطيع أن ننظر إلى عبارة ابن النظام وما تضمنته من تحديدات ينقصها التحقيق ، فهو يقرر صراحة أنه أخذها عن علماء الأندلس ، أى أنه لم ينقلها عن الرازى أو غيره من المؤلفين العرب ، وهى أوضح من عبارة الرازى فيما يتصل بتقسيم اسبانيا إلى منطقتين مختلفتين من حيث هبوب الرياح وسقوط الأمطار وجريان الأنهار ، وهى دقيقة فى تصوير اتجاهات الأودية وأنهارها وسلاسل الجبال التى تفصل بينها « هابطة جبلا بعد جبل » أى سلسلة بعد سلسلة ، ولا يمكن فهم عبارته كما تصورها هو إلا إذا تصورنا أيضاً الهيأة المثلثة لشبه الجزيرة على ما وصفناها ، وهو نفسه ينص عليها نصاً صريحاً مفصلا فى الفقرة التالية ، وهى فيما يبدو منقولة عن الرازى . وهو يسترسل فى النقل فيتحدث عن الأمم التى سبقت العرب إلى سكنى شبه الجزيرة على الصورة التقليدية التى قبسها الرازى من كتاب الاسبان النصارى ونقلها عنه من جاء بعده من الجغرافيين والمؤرخين العرب على ما هو معروف .

والأغلب أن المقدمة الجغرافية لتاريخ ابن النظام كانت تستطرد على النحو الذى نجده عند غيره ، موسعاً كما عند الرازى ومختصراً كما نرى عند ابن عذارى ، ولكنه يضيف من علمه كثيراً كما رأينا فى الفقرة التى أوردناها . وفيما عدا التصورات العامة (وقد ظلت مواضع خلاف عند كافة الجغرافيين حتى

نشوء علمى الجغرافية والخرائط نتيجة لحركة الاستكشافات فى مطالع العصر الحديث) فإن الحس الجغرافى لابن النظام سليم وعبارته تدل على ملكة جغرافية أصيلة عرفت كيف تستفيد مما كتب السابقون وتضيف إليها وتخطو بالعلم الجغرافى فى الأندلس خطوة إلى الأمام .

أبو بكر أحمد بن سعيد بن أبى الفياض

وليس لدينا من كتاب العبر لابن أبى الفيّاض (أبى بكر أحمد بن سعيد ابن محمد بن عبد الله) إلا بضع ورقات اندرجت خطأً فى نهـاية مخطوطة « الحلة السيراء » التى لدينا . وهذه الأوراق على قلتها ربمـا كشفت لنا عن حقيقة هامة تتصل بكتاب العبر هذا ، فهى تبدأ بالتفاصيل الأخيرة لحملة طارق على الأندلس ، وفى نهاية الصفحة الأولى من هذه الأوراق نجد عبارة « تم الجزء الأول » مكتوبة بخط يخالف خط المخطوط ، ثم يلى ذلك عنوان كبير « ذكر استفتاح طارق لجزيرة الأندلس » والسياق يدل على أن هناك خطأً فى ذلك العنوان وأن المراد « ذكر استفتاح موسى لجزيرة الأندلس » . ولا تدل عبارة « تم الجزء الأول » إلا على أن هذا موضع نهاية الجزء الأول من كتاب ابن أبى الفياض وأن الجزء الثانى يبدأ بحملة موسى بن نصير .

فإذا صح هذا فعلام يدور الجزء الأول ؟ قياساً على التقليد الأندلسى الذى أشرنا إليه من التمهيد للتاريخ بالجغرافية نستطيع القول بأن هذا الجزء الأول كان يدور على جغرافية الأندلس ، ولدينا على ذلك دليل وهو أن عبد الواحد المراكشى يقول فى الذيل الجغرافى الذى ألحقه بكتاب المعجب : « . . . هذا مع أن هذا الباب خارج عن مقصود هذا التأليف ، وداخل فى باب المسالك والممالك ، وقد وضع الناس فيه كتباً كثيرة ، ككتاب أبى عبيد البكرى

الأندلسى ، وكتاب ابن فياض الأندلسى أيضاً ، وكتاب ابن خرداذبه الفارسى ، وكتاب الفرغانى ، وغيرها من الكتب المفردة لهذا الشأن المستوعبة[1] له » ولم تذكر مراجعنا أن ابن أبى الفياض كتب كتاباً مفرداً فى المسالك والممالك ، أى الجغرافية ، فلم يبق إلا القول بأن المقدمة الجغرافية لتاريخه كانت طويلة مستوعبة جعلت عبد الواحد المراكشى يدرج ابن أبى الفياض ضمن أصحاب كتب المسالك والممالك « المفردة لهذا الشأن المستوعبة له » .

ويؤيد هذا أن مؤلف روض القرطاس يذكر كتابين لابن أبى الفياض نقل عنهما ، الأول مذكور دون تعيين لعنوان (ص ٩ من طبعة أوبسالا) والثانى هو كتاب العبر ، ولم يذكر المؤرخون لابن أبى الفياض إلا كتاباً واحداً فى التاريخ ، فالغالب أن الكتاب الثانى هو المسالك والممالك الذى ذكره عبد الواحد المراكشى ، ويغلب أن ابن أبى الفياض جعل كتابه من قسمين أحدها خاص بالجغرافية والآخر خاص بالتاريخ ، فاعتبرها بعض المؤرخين كتابين .

نقول هذا وليس لدينا شىء من كلام ابن أبى الفياض فى الجغرافية ، ولكننا ننبه إلى هذه الحقيقة حتى يتطلب المتخصصون هذا الجزء الأول من تاريخ ابن أبى الفياض ويعرفوا أن معظمه يدور حول جغرافية الأندلس ، فلعلنا نعثر عليه ، فتفيد هذه الإشارة فى التعرف عليه .

---

(١) ابن عبد الواحد المراكشى ، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب (بتحقيق الأستاذين سعيد العريان ومحمد العلمى العربى ، القاهرة ١٩٤٤) ص ٣٤٦

وقد ولد ابن أبى الفياض فى استجه حوالى سنة ٣٧٩ / ٩٨٩ — ٩٩٠ ولكنه عاش وعمل فى المرية ، أى فى نفس البلد الذى ولد وعاش فيه العذرى ، ولعل لذلك أثراً فى اتجاهه نحو التاريخ والجغرافية ، وقد اختصه ابن الأبار فى الصلة بعادة قال فيها « أصله من استجه وسكن المرية . يكنى أبا بكر . سمع باستجة من يوسف بن عمروس وبالمرية من أبى عمر الطلمنكى وأبى عمر بن عفيف والمهلب ابن أبى صفرة وغيرهم . وله تأليف فى الخبر والتاريخ . وتوفى سنة ٤٥٩ وقد خانق (كذا والأغلب أن صحتها جاوز) الثمانين سنة . ذكره ابن مدير » رقم ١٢٤ ص ٦٣ ، وانظر عنه دوزى مقدمة البيان ، ص ٧٥ وجاينجوس الترجمة الإنجليزية للجزء الأول من النفح ج ١ ص ١٩٤ و ٤٧٤ و كتابات العرب عن بنى عباد ، ج ٢ ص ٣٤ وبونس بويجس رقم ١٠٤ ص ١٣٨

أبو عبيد البكرى

كان أبو عبيد البكرى من تلاميذ أحمد بن عمر بن أنس العذرى ، وهو دون شك من أعلام الجغرافية عند العرب ، وهو واحد من هذه الجماعة الباهرة من الفحول الذين أطلعهم الأندلس خلال القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى ، فهو معاصر للعذرى وابن حزم وابن حيان وابن بسام ومن إليهم . وهو يشترك معهم فى الاتجاه الموسوعى ، سواء فى تحصيل المعارف أو فى الرغبة فى إذاعة هذه المعارف بين الناس . وإذا كانت هذه الموسوعية تتبدى فى كتابات ابن حيان وابن بسام وفى شعر الفحول من شعراء ذلك العصر مثل أبى عمر بن دراج القسطلى وأبى بكر بن عمار والمعتمد بن عباد وعبد المجيد ابن عبدون فى صورة إشارات وكنايات فى ثنايا النثر والنظم تدل على إحاطة تدعو إلى الإعجاب بتاريخ العرب وأدبهم ، حتى ما خفى منهما فى أطواء الشروح والتعليقات ، فإنها تتجلى عند ابن حزم ومعاصره أبى عبيد البكرى فى التأليف والتجويد فى أكثر من صنف من العلوم ، وكما كان ابن حزم فقيهاً مؤرخاً فيلسوفاً متبحراً فى العلم بالأديان والعقائد وعالماً بأسرار النفس الإنسانية وشاعراً فلسفى النزعة والأسلوب ، فإن أبا عبيد البكرى كان عالماً لغوياً ومؤرخاً وجغرافياً ونباتياً وشاعراً أيضاً ، وإن كان شعره أقل أدواته وأضعف ملكاته . وهو يمتاز إلى جانب ذلك بميزة كبرى يشارك فيها ابن حزم وبقية أعلام هذا الجيل

بالاضافة الى كلامنا هذا انظر عما جد من الأبحاث عن البكري بعد صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب الذيل رقم

الموسوعى الفريد ، وهى الدقة ، فقد كان محققاً مدققاً لا يكتب شيئاً إلا بعد أن يستوثق منه تمـاماً ، ولا يزال يبحث وينقب حتى يصل إلى آخر شيء في الموضوع ، ونظرة يسيرة فى كتابه معجم ما استعجم تكشف عن هذه الملكة فيه بأجلى بيان ، وهى ليست بالقليلة فى رجل يشتغل بالعلم ويتصدى للتأليف فيه .

وحياة أبى عبيد البكرى صورة من مأساة العصر الذى عاش فيه ، مثلها فى ذلك مثل حَيَوَات معاصريه من أعلام الفكر الأندلسى فى ذلك القرن الخامس الحافل بالمآسى والقلق والحيرة فى الأندلس ، فقد كان أولئك جميعاً من ثمرات عصر الخلافة نشأوا ودرسوا على أيامها ، وأعدوا أنفسهم لحياة حافلة بالنشاط والعمل فى ظلال الأمن والاستقرار ، ثم فاجأتهم الفتنة الكبرى فى مطالع شبابهم ، فإذا الدنيا تنقلب من حولهم وتُصوِّح آمالهم ، وتفرض الظروف القاسية عليهم طريقاً غير التى أرادوا ، وتجرفهم الحوادث فتصبح حياتهم حيرة متصلة وقلقاً دائماً يصورها ابن بسام بأبلغ بيان فى فاتحة « الذخيرة » ، ويصورها ابن حزم فى صفحاته الباكية من « طوق الحمامة » ، ويصورها ابن حيان فى تلك المرارة التى تفيض بها صفحات كتابه « المتين » ويصورها ابن دراج القسطلى فى شعره الذى يتمشى اليأس والألم والموت فى أبياته ، ويصورها عند أبى عبيد البكرى بالاقبال على شرب الخمر اقبالا لا يعلل إلا بالرغبة في النسيان، فقد قضى معظم عمره مثلهم مشرداً متنقلا من ناحية إلى ناحية، لا يكاد يطمئن في بلد حتى يشد رحالة إلى أخرى، يطارده طواغيت الطوائف من بلد لبلد ويطل عليه شبح المصير المحزن الذي كان الأندلس يقترب منه في سرعة مخيفة لم يطامن منها إلا تدارك المرابطين إياه.

وأبو عبيد البكرى ، واسمه الكامل عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو ، من بيت يوصف بأنه بيت إمارة ، على عادة الأندلسيين فى

الحديث عمن استبدوا بأمور نواحيهم عند قيام الفتنة الكبرى . وأول من نعرف أخباره من أجداده هو أيوب بن عمرو البكرى (نسبة إلى بكر وائل) قال فى حقه ابن بشكوال : « صاحب خطة الرد بقرطبة ، والقاضى ببلدة لبلة ، كان ذا علم وفضل وسرو وعفة ومروءة ورحل إلى المشرق فأدى الفريضة ، ولقى جماعة من العلماء ، وكان شديداً فى أحكامه ، وتوفى فى شهر رمضان سنة ٣٩٨ (مايو ١٠٠٨) ، ودفن بمقبرة الربض ، وحضره جمع الناس ، فأتبعوه ثناء حسناً جميلا . ذكره ابن حيان [١] » وهى عبارة يفهم منها أن أصل هؤلاء البكريين من لبلة Niebla وأن أيوب بن عمرو سار فى طريق غيره من الراغبين فى العلم فرحل إلى المشرق وحج ودرس ثم عاد ، فتولى القضاء ببلده لبلة ، ثم انتقل إلى قرطبة ، فتولى خطة الرد ، أى إدارة الشكاوى ، واختصاصها النظر فيما يرد إلى مركز الدولة من شكاوى الناس والعمل على إنصافهم ورد المظالم عنهم ، ولهذا تسمى خطة الرد أو رد المظالم ، وهى ليست وظيفة « قاضى القضاة » أو Grand juge كما قال دوزى [٢] . وكان الرجل من أهل النباهة والذكر فى قرطبة ، فقد ذكر ابن الأبار أن ابن حيان سماه فى الذين سمعوا من هشام المؤيد ما أمر بعقده للمنصور محمد بن أبى عامر مجدداً للألفة ، وسمى معه محمد بن عمرو أخاه ، وتاريخ ذلك العقد شهر صفر سنة ٣٨٧ (فبراير مارس ٩٩٧ [٣]) . أى أن أيوب وأخاه كانا من شهود العقد الذى كتبه

---

(١) ابن بشكوال ، الصلة (بتحقيق كوديرا ، مدريد ١٨٨٢) رقم ٢٦٣ ص ١١٧

(٢) كتب دوزى فى الطبعة الأولى من أبحاثه المعروفة فصلا طيباً عن البكريين هؤلاء . وقد أسقط هذا الفصل من الطبعتين الثانية والثالثة . ومرجعنا هنا إلى الطبعة الأولى (لايدن سنة ١٨٤٩) :

R. P. A. Dozy, *Recherches sur l'histoire politique et littéraire de l'Espagne pendant le Moyen-Age* (Leyde 1849), I.

وعنوان الفصل :

Notice sur les Becrites, seigneurs d'Huelva et de Djezîrah Schaltisch, et sur la vie et les ouvrages du célèbre Géographe Abou Obaid al-Becrî, pp. 282—307.

(٣) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، أورده دوزى فى الفصل المذكور فى الهامش السابق ص ٢٨٥

هشام المؤيد على نفسه مفوضاً أمور السلطان فى خلافته للمنصور محمد بن أبى عامر ، بعد جفوة وقعت بينهما عند ما شاء هشام ورجاله استرجاع السلطان من يد محمد بن أبى عامر .

ويبدو أن هذه الواقعة تضع يدنا على حقيقة هامة تتصل بالبكريين ، وهى أنهم كانوا من رجال المنصور بن أبى عامر ومؤيديه فيما سما إليه من الاستئثار بالسلطان ، وإلا فما معنى أن يكون أيوب وأخوه محمد شاهدين على عقد أخرج السلطان من يد الخليفة ورجاله ؟ . ولابن بسام رواية أخرى — عن ابن حيان أيضاً — يمكن تفسيرها بأن أيوب تولى ولبة وشلطيش فى أخريات أيامه ، فقد قال ابن حيان فى حديثه عن ابنه أبى زيد محمد « وكان هذا الفتى أبو زيد البكرى وارث ذلك العمل لأبيه ، وكان أبوه من بيت الشرف والحسب والجاه والنعمة والاتصال بسلطان الجماعة »[1] ، وإذا كان الناس لا يتولون الأعمال فى تلك الأيام إلا إذا كانوا من رجال المنصور وأهل ثقته ، استطعنا أن نقول إن أيوب وابنه كانا أولاً من رجال الخلافة والجماعة ثم دخلا فى زمرة الحزب العامرى الكبير الذى قبض على أزمة الأمور فى الأندلس واستبد بها دون الخليفة وآله . ويؤيد ذلك قول ابن بسام بعد الفقرة التى رويناها : « وكان له — أى لأبى زيد محمد البكرى — وسلفه قِبَل اسماعيل بن عباد جد المعتضد رسائل وأذمة خلفاها فى الأعقاب ، اغتر بها عبد العزيز (بن أبى زيد محمد) البكرى » ومعنى هذا أن أيوب وابنه كانت لهما صلات وثيقة وذمم قديمة مع اسماعيل ابن عباد جد بنى عباد أظهر رجال الحزب العامرى أواخر أيام المنصور ، ومن أول الخارجين على الجماعة والبادئين بالاستبداد ، وضارب المثل السىء لغيره من حكام النواحى فى الانتزاء بنواحيهم والسير فى طريق الفرقة المحزن المخوف .

وخلف أبا زيد محمد البكرى ابنه أبو المصعب عبد العزيز مستبدا بأمر هذا

---

(١) رواه ابن بسام . انظر دوزى : جامع أقوال العرب فى بنى عباد ج ١ ص ٢٥٢

الجزء الصغير من الأندلس الإسلامى ، وهو رقعة صغيرة من الأرض عند ملتقى نهرى التنتو Rio Tinto والأوديل Odiel وتكوينهما مصباً واسعاً بعض الشىء ينتهى فى المحيط الأطلسى . وفى هذا المصب توجد جزائر صغيرة أكبرها جزيرة شلطيش Saltes وهى جزيرة صغيرة كان يسكنها نفر من الصيادين يعيشون من سمك يستخرجونه من البحر ويملحونه ويصدرونه إلى اشبيلية وغيرها من بلاد الأندلس كما يقول الإدريسى ، وليس لهم مورد ماء عذب ، لأن مدخل النهر هناك يطغى عليه ماء المحيط ، وهم يجلبون ما يلزمهم من ماء الشرب من الضفة الأخرى لنهر تنتو ، ولا يفصل جزيرتهم عنها إلا مجرى النهر الضيق الذى يقول الإدريسى أن اتساعه لا يزيد على نصف رمية حجر . وهذه هى « الإمارة » التى « اقتعد صهوتها وتسنم ذروتها » أولئك البكريون على حد تعبير ابن بسام .

ومن الطريف أن لبلة المجاورة لولبة ، وهى كانت مهد البكريين ، استبد بأمرها رجل آخر يسمى احمد بن يحيى اليحصبى سنة ٤١٦ / ١٠٢٥ — ١٠٢٦ بقليل ثم توفى سنة ٤٣٣ / ١٠٤١ — ١٠٤٢ تاركا إياها لابنه يحيى بن احمد ابن يحيى اليحصبى .

ولم يهنأ الأمر للمستبدَّين الصغيرين فيما اقتطعاه من تراث الخلافة الأموية ، لأن جارهما المعتضد بن عباد صاحب اشبيلية طمع فيهما وفى كل جيرانه من أصحاب الإمارات الصغيرة التى قامت غربى الوادى الكبير . ولكنه شغل بحرب طويلة بينه وبين جاره المظفر بن الأفطس عن التفرغ للاستيلاء على هذه الإمارات الصغيرة ، وحرص ابن الأفطس كذلك على أن يعين أصحابها على المعتضد ، وجرت بين الجانبين حروب طويلة حول لبلة خاصة . ولكن أبا الوليد بن جهور صاحب الأمر فى قرطبة خاف مغبة الصراع الطويل بين جاريه المتحاربين والعدو على الأبواب ، فتوسط فى عقد صلح بينهما ، وتم ذلك فى ربيع الأول سنة ٤٤٣/١٠٥١ وكان صلحاً مؤقتاً على دخن ، ككل الاتفاقات التى تمت بين أولئك المستبدين ، وكان المعتضد طامعاً منذ تولى أمر اشبيلية فى لبلة

بسبب ضعفها، وما زال يضيق الخناق على صاحبها محمد بن يحيى اليحصبى الذى خلف أخاه احمد سنة ٤٣٤/١٠٤٢، حتى اضطره إلى التنازل عن الأمر لابن أخيه أبى نصر فتح بن خلف اليحصبى (سنة ٤٤٣/١٠٥١—١٠٥٢) الذى أبى رغم سوء الحـال إلا أن يتلقب بناصر الدولة، ودام الأمر لهذا الأخير دون السنتين، واضطره المعتضد إلى تسليم لبلة له، فتركها بأهله وأمواله ومضى إلى قرطبة ليقضى بقية أيامه فيها (٤٤٥/١٠٥٣). ومما لا يخلو من معنى أن هذا المسكين الذى تلقب بناصر الدولة لم يجد نفراً من الجند يرافقه إلى ملجئه، فأرسل إليه المعتضد «قطعة من خيله أوصلته إلى قرطبة».

وعند ما سقطت لبلة فى يد المعتضد أحس عبد العزيز البكرى أن أيامه فى ولبة وشلطيش قد دنت، وملكه الخوف، فأرسل إلى المعتضد يهنئه باستيلائه على لبلة «وذكره بالذمام الموصول بينهما، واعترف بطاعته، وعرض عليه التخلى عن ولبة، واقراره بشلطيش إن شاء، فوقع له ذلك من المعتضد موقع إرادة، ورَدَّ الأمر إليه فيما يعزم عليه، وأظهر الرغبة فى لقائه، وخرج نحوه يبغى ذلك، فلم يطمئن عبد العزيز إلى لقائه، وتحمل يسبقه بجميع ماله إلى جزيرة شلطيش، وتخلى للمعتضد عن ولبة، فحازها حوزه للبلة، وبسط الأمان لأهلها، واستعمل عليها ثقة من رجاله، ورسم له القَطْعَ بالبكرى، ومَنْعَ الناس طرا من الدخول إليه، فتركه محصوراً فى وسط الماء إلى أن ألقى بيده عن قُرْبٍ، ولم يعزب عنه الحزم، فسأل المعتضد أن ينطلق انطلاق صاحبه، فأمنه ولحق بقرطبة»[١].

ويستطرد ابن حيان — برواية ابن بسام فيقول «وبوشر منه رجلا سرياً عاقلا عفيفاً أديباً يفوق صاحبه ابن يحيى جلالاً وخلالا، إلى زيادة عليه ببيت

---

(١) أورد دوزى هذه القطعة من كلام ابن حيان برواية ابن بسام فى مجموع النصوص الخاصة ببنى عباد. *Scriptorum Arabum Loci de Abbadides*, I, 252—253.

السرو والشرف ، وبابن له بذ الاقران جمالا وبهاء وسروا وأدباً ومعرفة يكنى أبا عبيد . وتحدث الناس من حزم عبد العزيز يومئذ أنه لما احتل بشلطيش عَلِم أنه لا يقاوم عَبَّاداً ، فأخذ بالحزم أوَّلاً ، وتخلى له عنها بشروط ، وَفَى له بها ، فباع منه سفنه وأثقاله بعشرة آلاف مثقال ، واحتل قرطبة فى كنف ابن جهور ، المأمون على الأموال والأنفس ، وصفت لعباد تلك البلاد ، وإن شاء الله يدوم صفاؤها ، والملك لله وحده »[١] .

تلك هى قصة إمارة البكريين فى ولبة وشلطيش : إمارة صغيرة لم تقم إلا بسبب تلاشى الحكومة المركزية ، فلم يكن لأصحابها من القوة ما يعينهم على الثبات لأول خطر تعرضوا له ، بل لم يكن لديهم أى نوع من القوة العسكرية ، فقد رأينا أبا المصعب عبد العزيز البكرى يفر إلى جزيرة فى مصب النهر لينجو من المعتضد ابن عباد ، وعندما تم الاتفاق على أن يبيعه سفنه وأثقاله بعشرة آلاف مثقال من الذهب لم يجد قوة من الجند ترافقه حتى قرطبة . قال ابن الأبار فى الحلة السيراء : « وحكى غيره — أى غير ابن حيان — أن البكرى فى قصده قرطبة اجتاز بإقليم البصل وطلياطة (Tejada) . وقد أعد له المعتضد النزل والضيافة هنالك ، ومذهبه القبض عليه وعلى نعمته ، فقدم[٢] إلى صاحب قرمونه محمد بن عبد الله البرزالى يعلمه باجتيازه عليه ، وبأنه لا يأمن غائلة عبّاد ، ويسأله مشاركته[٣] وغفارته ، فعجل له قطعة من خيل مجردة لقيته بموضع اتفقا عليه ، ولم يَلْوِ البكرى على موضع النزل ، وحث حمولته حتى لقيته خيل ابن عبد الله (البرزالى) ، فوصل معها إلى قرمونه . ثم توجه منها

---

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) أى أرسل رسالة قبل وصوله .

(٣) يريد مرافقته .

إلى قرطبه ، ونجا من حبائل المعتضد . قال : « وكانت مدة البكريين بشلطيش وما إليها إحدى[1] وأربعين سنة (هجرية) » .

وكان أبو عبيد البكرى فى صحبة أبيه وآله عندما وردوا إلى قرطبة لاجئين على هذه الصورة . وقد ذكر جايانجوس فى احدى تعليقاته على ما ترجمه من نفح الطيب أن أبا عبيد ولد سنة ٤٣٢/١٠٤٠—١٠٤١ أى أن سنه عندما دخل به أبوه قرطبة (سنة ٤٤٣/١٠٥١—١٠٥٢) كانت إحدى عشرة سنة . ولم يورد جايانجوس مصدره الذى اعتمد عليه ، مما جعل دوزى يرفض هذا التاريخ ، ويؤيد دوزى فى ذلك قول ابن حيان أن أبا عبيد فى ذلك الحين « بذ الاقران جمالا وبهاءً وسَرْوًا وأدبًا ومعرفة » وهو كلام لا يقال عن صبى فى الحادية عشرة أو نحوها . ثم إن الآراء متفقة على أن أبا عبيد البكرى توفى سنة ٤٨٧/١٠٩٤ عن سن عالية ، فإذا كان قد ولد سنة ٤٣٢ فقد كانت سنه يوم توفى ٥٥ سنة على هذا الحساب ، وهى ليست بالسن العالية . ولنضف إلى ذلك أن ابن خاقان يقول فى ترجمته « رأيته وأنا غـلام ما أقر هلالى ، ولا نبغ فى الذكاء كوثرى ولا زلالى ، فى مجلس ابن منظور ، فى هيئة كأنما كسيت بالبهاء والنور ، وله سَبلة كأنما يروق العينَ إيماضُها . ويفوق السوادَ بياضُها ، وقد بلغ سِنَّ ابن مُحَلِّم » أى أن أبا عبيد كان فى الثمانين من عمره عندما كان ابن خاقان غلاما ، لأن ابن محلم هذا هو عوف بن محلم الشيبانى صاحب البيت المشهور :

إن الثمانين — وبلغتها — قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

وما دام ابن حيان يذكر أن أبا عبيد لم يطل مقامه فى قرطبة حتى عرف بسعة العلم ، فإننا نستطيع القول إنه دخلها شابا ، بين العشرين والخامسة والعشرين فى الأغلب ، ومن الغريب أن ابن بشكوال يعد فى « الصلة » أبا

---

(١) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، روى هذه القطعة دوزى فى مجموعة نصوص بن عباد ، ١/٢٨٧

حيان بين شيوخ البكرى ، ومع هذا فإن ابن حيان لم يختصه إلا بمادة قصيرة لا تغنى كثيراً فى التعريف به ، وقد أوردناها برواية ابن بسام ، وربما يكون قد اختصرها . وهى رغم اقتضابها وانصرافها إلى سجعات قليلة الغناء تنبىء عن المكانة التى وصل إليها أبو عبيد بين علماء عصره ، وتشبهها فى ذلك المادة التى أدارها أبو نصر الفتح بن عبيد الله بن خاقان على أبى عبيد البكرى فى القلائد ، فهى على طولها لا تنقع الغلة ، ولا يكاد الإنسان يستخرج منها شيئاً نافعاً من خلال حجب السجع والتكلف البالغ .

ولا ندرى كم أقام أبو عبيد فى قرطبة ، ولكن الثابت أنه لم يغادرها إلا بعد أن ذاع صيته بالعلم ورغب بعض أمراء النواحى فى أن ينتقل إلى بلادهم ، ولا تكون هذه الشهرة خارج مقامه فى قرطبة إلا نتيجة لكتب ألفها وتناقلها الناس ، ولهذا فيغلب على ظننا أنه ألف إذ ذاك بعض كتبه الأدبية الصغيرة السابقة على « اللآلى » . فأمثال هذه الكتب التى تعرض علم صاحبها باللغة والأدب « ومعانى الأشعار والغريب والأنساب والأخبار » هى التى كانت تقرر للناس مكانهم من العلم والعلماء إلى جانب كتب الفقه والحديث ، أما كتب الجغرافية والفلسفة والطب والأعشاب وما إليها ، فلم يكن يقدرها أو ينظر إليها إلا المعنيون بها ، ونادرا ما كان أهل الفكر وأصحاب التراجم يحتفلون بأصحابها أو يعتبرونها مؤلفات جديرة بالذكر ، إنما كان أصحاب هذه العلوم والفنون يمارسونها لمزاجهم الخاص ، وحتى فى الحالات التى بلغ اهتمام بعض العلماء بها مبلغ التخصص وتكريس الحياة لها ، كان عليهم أن يصرفوا جانباً من نشاطهم إلى علوم الدين والأدب إذا شاءوا أن يكون لهم مكان بين العلماء أو ذكر فى معاجم الرجال .

وأبو عبيد البكرى مثال ظاهر لتلك الحقيقة (التى لاحظناها فى كلامنا عن العذرى وسنلاحظها فى كلامنا عن ابن عبد المنعم الحميرى) ، فإن من ترجموا له أو تحدثوا عنه من معاصريه لا يذكرون إلا كتبه الفقهية واللغوية ، فابن

حيان وابن بسام وابن خاقان لا يشيرون إلا إلى علمه الواسع باللغة والأدب وبلاغته وبيانه ، وابن بشكوال فى الصلة لا يذكر له إلا كتابه فى « أعلام النبوة » والإشارات فى كتب الأدب كثيرة إلى بعض كتبه الأدبية الأخرى مثل « اشتقاق الأسماء » الذى ذكره السيوطى وكتاب « شفاء عليل العربية » الذى ذكره حاجي خليفه ، ثم مؤلفه الأدبى الأكبر « اللآلى » الذى اعتبر منذ تأليفه من الأصول الأساسية فى الأدب واللغة .

ويبدو كذلك أنه كتب فى هذه الفترة كتابه « التنبيه على أغلاط أبى على فى أماليه » فإن الكتاب يحمل طابع الشباب والرغبة فى الظهور عن طريق تعقب شيخ من شيوخ الأدب كأبى على القالى واستدراك أخطاء عليه . وقد أخطأ أبو عبيد فى الكثير من استدراكاته على القالى ، ووقع فى أغلاط أخرى ، مما يدل على أنه لم يكن قد اكتمل علمه بعد ، وأن الرغبة فى ذيوع الاسم هى التى حملته على الإقدام على هذا التأليف ، وكان التعرض بالنقد لكبار أساتذة المشرق أو من قدموا منه ومحاولة اثبات أن الأندلسيين لا يقلون عنهم باعا سمة من سمات التأليف فى ذلك العصر ، وهذا هو الذى دفع ابن فرج الجيانى إلى تأليف كتاب الحدائق وابن بسام إلى تأليف الذخيرة . ويبدو ذلك الاتجاه واضحاً فى قول ابن بسام فى أثناء كلامه عن أبى عبيد البكرى : « ولولا تأخر ولادته لأنسى ذكر كنيِّه المتقدم الأوان » . وكنيه المراد هنا هو أبو عبيد القاسم بن سلام صاحب كتابى الأموال والغريب المصنف ، ويلاحظ أن لأبى عبيد البكرى كتاباً يسمى « صلة المفصول فى شرح أبيات الغريب المصنف » ورد ذكره فى « اللآلى » وفى فهرسة ابن خير ، مما يحملنا على الظن أنه أيضاً من نتاج هذه الفترة القرطبية الأولى .

وفى أثناء هذه الفترة الأولى اتصلت الاسباب بينه وبين بعض شعراء قرطبة ، منهم ابراهيم بن محمد بن يحيي المعروف بابن السقاط وزير أبى الوليد بن

جهور ، وله فى وداعه بضعة أبيات انشدها ابن حيان فى تاريخه الكبير وأوردها ابن الأبار فى الحلة السيراء مطلعها :

كذا فى بروج السعد ينتقل البدر ويُحْسِنُ حيث احتل آثاره القَطْرُ

وهى من ضعيف الشعر الذى يدل على أن صاحبه كان فى البداية . ولم يكن أبو عبيد بالشاعر ، ولكن قول الشعر كان من لوازم الوجاهة ودلائل العلم فى العالم العربى كله ، وقل أن نجد فقيهاً أو كاتباً أو وزيراً إلا وله أبيات ليس فيها من الشعر فى الغالب إلا الوزن والقافية . وقد ظل أبو عبيد يقول هذا الطراز من الشعر طول حياته دون أن يكون ذلك سبيلا إلى نظمه فى سلك الشعراء .

وأبو عبيد يخاطب ابن السقاط فى هذه الأبيات مخاطبة التابع ، وكان ابن السقاط وزيراً لابن جهور ، ونستنتج من هذا أن أبا عبيد لم يصل إلى درجة الوزارة فى قرطبة على هوان أمرها فى ذلك الحين ، ويرجع هذا دون شك إلى أنه لم يكن ذا هوى بالمناصب وخدمة الأمراء ، ولو شاء لبلغ فى هذه الناحية ما بلغه غيره ممن كانوا أقل منه ، ولكنه كان رجل علم وبحث وأدب واطلاع وانصراف إلى شىء من اللهو والشراب .

وتدل إشارة قلقة لابن الأبار فى « الحلة » على أن أبا عبيد انتقل من قرطبة إلى المرية وعاش ردحا من الزمن فى كنف محمد بن معن صاحبها ، وهذه الاشارة هى قوله : « وحكى الفتح بن عبيد الله (أى ابن خاقان) فيما وَجَدَ بخط ابن حيان على زعمه أن عبيد الله صار إلى محمد بن معن صاحب المرية ، فاصطفاه لصحبته ، وآثر مجالسته والأنس به ورفع مرتبته ووفر طعمته » وهذه العبارة قلقة من ثلاث نواح : أولاها أننا لا نجدها فى واحدٍ من كتابى الفتح بن خاقان المعروفين ، وثانيتها أن الفتح بن خاقان لا يروى عن ابن حيان أبداً والثالثة هى هذا التحفظ الذى يلتزمه ابن الأبار بقوله « على زعمه » ،

ولكننا نعتقد أن لها نصيباً من الحقيقة ، فقد عد ابن بشكوال فى الصلة أبا العباس احمد بن عمر العذرى بين شيوخ أبى عبيد البكرى ، والعذرى من أهل المرية وعلمائها . وربما يكون هذا اللقاء مع العذرى الجغرافى هو الذى حبب الجغرافية إلى البكرى ورغّبه فى التأليف فيها ، فإن اتجاه أديب لغوى كأبى عبيد البكرى إلى التأليف فى الجغرافية لا يأتى عفواً ، وانما التأليف فى هذه الفروع من العلم كان هواية يأخذها رجل عن رجل إذا صادفت من نفسه ميلا ، ومن حسن الحظ أن أبا عبيد كان عظيم الاستعداد للبحث فى هذا العلم ، فأقبل عليه وأجاد فيه حتى صار من أعلامه ، واتصل عن طريقه تقليد التأليف الجغرافى فى الأندلس من الرازى إلى العذرى إليه .

ونمر مسرعين بما لدينا من معلومات عن بقية حياة البكرى لكى نفرغ بعد ذلك لدراسة انتاجه العلمى الوافر .

لم يستقر المقام بأبى عبيد فى المرية ، فقد كان كغيره من أهل العلم والفن فى ذلك العصر قلقاً لا يستقر به المقام طويلا فى بلد واحد ، ثم إن إمارة بنى صمادح فى المرية كانت من أصغر إمارات الطوائف وأضعفها وأفقرها بالتالى ، وكان العلماء وأهل الأدب يتجمعون رويداً رويداً فى اشبيلية فى كنف المعتمد ابن عباد ، وأخذ نجمها يعلو كعاصمة فكرية للأندلس الإسلامي . فشد أبو عبيد رحاله إليها .

لم يتقلد أبو عبيد فى اشبيلية منصباً أو وظيفة ، ويبدو أنه كان فى سعة من المال لا يحوجه الأمر إلى راتب أو مورد عيش ، بل اكتفى بأن يكون من أصحاب المعتمد الذين يحضرون مجالسه ، وقد يقول شيئاً من الشعر فى مديحه ، وانصرف بكليته إلى البحث والتأليف . ويغلب على الظن أن انتقاله إلى اشبيلية كان بعد وفاة المعتضد وولاية المعتمد فى سنة ١٠٦٨/٤٦١ ، إذ أننا نستبعد أن يكون قد ذهب إلى المعتضد بعد الذى فعله بأبيه وآله . وفى اشبيلية

أقام أبو عبيد حتى توفى وقد نيف على الثمانين كما ذكرناه سنة ٤٨٧/١٠٩٤ أى أنه قضى فيها قرابة خمس وعشرين سنة هى دون شك أحفل سنوات عمره بالدراسة والانتاج .

وقد نعم أبو عبيد طوال هذه الفترة بهدوء وصفو لم يعكرها شىء من الاحداث ، ولكن ما أصابه فى الماضى من ضياع ملك أبيه والاضطرار إلى مغادرة وطنه واللجوء إلى قرطبة هارباً مع أبيه وهو بعد فى شبابه الباكر ، ثم ما حاق بالأندلس كله من النكبات وسوء المصير ، وما تهدده من الأخطار ، كل هذا كان حقيقاً بأن يؤثر فى نفسه وفى مزاجه ، وكان بطبعه رجلا مرهف الحس رقيق الحاشية ، لا يستطيع أن يفصل نفسه عن مأساة وطنه وعصره ، فمال إلى شيء من الخمر يتسلى به ويغرق فيه همومه إذا سئمت نفسه القراءة والكتابة . وقد أسرف بعض من ترجموا له فى نعى هذا العيب عليه ، وأشدهم فى ذلك ابن خاقان فقد قال : « . . . على هنات كانت فيه مستبشعة الذكر ، مستشنعة النكر ، تمجها الأوهام والخواطر ، ويثبتها السماع المتواتر . فإنه كان رحمه الله مباكراً للراح لا يصحو من خمارها ، ولا يمحو رسم إدمانه من مضمارها ، ولا يريح إلا على تعاطيها ، ولا يستريح إلا إلى معاطيها . . . » ولا شك أن الصفدى نقل عن ابن خاقان عند ما قال إن أبا عبيد « كان معاقراً للراح لا يصحو من خُمارها يدمنها أبداً . . . »[١] .

والحقيقة أننا إذا نظرنا فى مؤلفات البكرى تجلى لنا رجل هو أبعد ما يكون عن هذا الادمان الذى رمى به ، فكيف يجمع هذا الجمع الغزير ويصنف هذا التصنيف العلمى الدقيق الرائق رجل لا يفيق من الخمر ؟ أقرب الآراء إلى الصحة — كما قال دوزى — أن أبا عبيد كان ذا طبيعة شاعرة وحب للطبيعة والزهور وميل إلى شىء من اللهو والمسرة ، وأنه لم يكن يتحرج من كأس

---

(١) رواه عبد العزيز الميمنى فى مقدمة سمط اللآلى ، صفحة و .

من الخمر طلباً لمزيد من مسرة أو التماساً للسلوان عن هموم الأيام ، وقد يكون الذى أصابه بهذه السمعة المبالغ فيها شىء من شعر غير متحفظ قاله فى مجلس أنس ،كقوله :

خليلَىَّ إنى قد طربتُ إلى الكاس   وتُقت إلى شم البنفسج والآس
فقوما بنـــا نلهو ونستمع الغنا   ونسرق هذا اليوم سراً من الناس
(فإنْ نطقوا كنا نصارى ترهبوا   وإن غفلوا عدنا إليهم من الراس)
فليس علينا فى التعلل ساعـــة   وإن وقعت فى عُقب شعبان من باس

فهذه ليست أبيات مخمور أو مدمن للشراب ، وإنما أبيات رجل يحب الطبيعة والزهر ولا يجد بأساً من شىء من الشراب ، وليس من الضرورى أن يكون تفسير المصراع الثانى من البيت الأخير أن أبا عبيد كان يستحل الشراب فى رمضان ، وإنما هى مطاوعة للقافية ، وقد كان أمثال البكرى إذا قالوا مثل هذا الشعر افترضوا أن الناس لا يأخذونه بحرفيته ، ثم إن ابن خاقان لم يره يشرب أو مخموراً ، وإنما قال عن خلة الادمان التى رماه بها : « تمجها الأوهام والخواطر ، ويثبتها السماع المتواتر » . أما الذى رؤى يشرب بالفعل ، وحضر مجلس القاضى عياض مخموراً حتى استنكهه ليتثبت قبل أن يوقع عليه الحد ، فهو ابن خاقان نفسه ، والخبر مشهور .

مؤلفات البكرى

أحصى الأستاذ عبد العزيز الميمنى فى مقدمته القيمة لكتاب اللآلى اثنى عشر كتاباً لأبى عبيد البكرى ، وهذه المؤلفات تقع فى ثلاثة أنواع : وها هو بيانها مع ملاحظات الأستاذ الميمنى عليها :

مؤلفات لغوية وأدبية

١ — كتاب « الإحصاء لطبقات الشعراء » وهو كبير ذكره فى اللآلى (٢٠ ، ٥٧) ويظهر أنه حَوْلُ كتاب الآمدى (المؤتلف والمختلف من أسماء الشعراء) وقد كان البكرى وقف عليه أيضاً .

٢ — كتاب « اشتقاق الأسماء » ذكره السيوطى .

٣ — « التنبيه على أغلاط أبى على فى أماليه » وطبع قبل بضعة أعوام عن نسخة متقنة الكتابة والضبط جليلة كتبت سنة ٦٦٢ هـ . ولما كان البكرى وقف على الأصول التى أملى منها أبو على « النوادر » فقد أمكنه أن ينبّه على مظان الوهم والخطأ والاختلاف فى « الأمالى » بعد معارضتها بتلك الأصول . . .

٤ — « شفاء عليل العربية » ذكره الحاج خليفة .

٥ — كتاب « صلة المفصول ، فى شرح أبيات الغريب المصنف » (لأبى عبيد القاسم بن سلام) . ويرويه ابن خير عن أبى بكر اللخمى المذكور ، وعن الفقيه الشريف أبى عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن القرشى ، المعروف بابن الأحمر ، قالا : حدثنا به البكرى .

٦ — « فصل المقال فى شرح كتاب الأمثال » يرويه ابن خير بسَنَدَىْ المفصول (فهرسة ص ٣٤٤) ووقف عليه ابن الشيخ البلوى (ألف باء ١/٣٨ و ٤٢٩—٢/٨٥ و ٤٤٤) . وذكره الحاج خليفة أيضاً . توجد منه نسخة فى مكتبة الاسكوريال . رقم ٥٢٦

٧ — « اللآلى فى شرح أمالى القالى » وهو أكبر مؤلفاته فى ميدان اللغة والأدب . نشره الأستاذ عبد العزيز الميمنى فى مجلدين (القاهرة ١٩٣٦) مع إضافات وتعليقات واستدراكات تحت عنوان سمط اللآلى .

مؤلفات جغرافية

٨ — المسالك والممالك .
٩ — معجم ما استعجم من أسماء الأمكنة والبقاع .

مؤلفات فى موضوعات أخرى

١٠ — « أعلام نبوة نبينا محمد » . ذكره ابن بشكوال كما تقدم .
١١ — « التدريب والتهذيب فى ضروب أحوال الحروب » . ذكره فى معجمه (٣٩٨) .
١٢ — كتاب « النبات » كذا سماه ابن خير ، ورواه بسند صلة المفصول ، وسماه ابن أبى أصيبعة كتاب « اعيان النبات والشجريات الأندلسية » .

ويهمنا من هذه كلها كتاباه فى الجغرافية ، ومن حسن الحظ أن واحداً منهما وصل إلينا كاملا ، ونشر مرتين (المعجم) والثانى وصلت إلينا قطع كثيرة منه (المسالك والممالك) .

معجم ما استعجم

يبدو لنا أن هذا الكتاب هو أول ما ألف البكرى فى الجغرافية . وإذا كان اتجاهه إلى التأليف فى هذا الفن قد بدأ فى المرية بتأثير شيخه أبى العباس احمد بن عمر بن أنس العذرى ، فإن الأغلب أنه بدأ تأليفه إياه فيها ، ومما يؤيد ذلك أنه وسط بين اللغة والجغرافية أو خطوة انتقال بينهما . ويتضح هذا من قوله فى فاتحة الكتاب معرفا بغرضه من تأليفه : « هذا كتاب « معجم

ما استعجم » ذكرت فيه — إن شاء الله — جملة ما ورد فى الحديث والأخبار والتواريخ والأشعار من المنازل والديار والقرى والأمصار والجبال والآثار ، والمياه والآبار ، والدارات والحرار ، منسوبة محددة ، ومبوبة على حروف المعجم مقيدة . فإنى لما رأيت ذلك قد استعجم على الناس ، أردت أن أفصح عنه ، بأن أذكر كل موضع مبين البناء ، معجم الحروف ، حتى لا يدرك فيه لبس أو تحريف . . » أى أنه إنما وضعه ليستعين به الذين يدرسون الحديث والأدب والأخبار فى التعرف على المواضع التى تستعجم عليهم ، وتحرى أن يقيد كل علم بالضبط الكامل حتى لا يقع فى رسمه ونطقه لبس .

وهذا فيما أعرف أول معجم جغرافى فى تاريخ التأليف الجغرافى عند العرب ، فان التأليف فى ذلك الفن اقتصر حتى الآن على البلدان والمسالك والممالك . أما أن يفكر عالم فى وضع معجم أبجدى لأسماء المواضع فهو حدث يعين ميلاد نوع جديد من التأليف الجغرافى عند العرب ، نوع سيتطور ويزهر حتى يصل إلى ذروته فى معجم ياقوت المعروف . نعم إن البكرى قصره على ما ورد فى الحديث والأخبار وكتب الأدب المشرقية من المواضع ، ولكن ذلك لا يقلل من أهمية الخطوة التى خطاها أبو عبيد البكرى بالتأليف الجغرافى عند العرب عندما شرع فى تأليف معجمه هذا . ومن الواضح أن التفكير فيه يدل على عقلية منظمة منهجية عند صاحبها ، فإن إحصاء هذه المواضع وضبطها يتطلب قراءة أصول الحديث والسيرة والشعر والنثر لتقييد ما فيها من الأعلام الجغرافية مع ضبطها وما يرد عنها من التعريف فى كل أصل من هذه ، وهذا مطلب عسير لا يعتمد على سعة الاطلاع وحدها ، بل على منهج مقرر فى القراءة والتقييد والمقارنة على مثال ما يفعله العلماء اليوم فى أمثال هذه التآليف .

والأخبار متواردة عن عناية البكرى بالكتب واجتهاده فى نسخ أصوله منها بيده ومراجعة ما ينسخ مراجعة دقيقة ، ثم العناية الكاملة بالمحافظة عليها ، حتى كان يحفظها فى سبانى الشرب ، والسَّبَنِيَّة شىء أشبه بالمنديل من القماش

الرقيق الغالى ، وسبنيات الشرب أغلاها وأرقها ، فقد كان الناس يدخرونها للولائم وساعات الشراب ، ورجل يبلغ به الحب للكتب مبلغ أن يصون كل كتاب فى سبنية لا بد أن يكون ذا حب عظيم للكتب وعناية خاصة بحفظها وصيانتها .

وقد رتب البكرى معجمه على حروف الهجاء حسب ترتيبها عند الأندلسيين فى عصره وهو : ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز ط ظ ك ل م ن ص ض ع غ ف ق س ش هـ و ى « وجعل ترتيب الكلمات فى كل باب على ترتيب الحرفين الأول والثانى الأصليين من الكلمة ، دون نظر إلى ترتيب ما بعدهما من الحروف ، وإذا كان الحرف الثانى ألفا زائده ، كألف صاحب وفاضل ، أهمله ، ولم ينظر إليه ، واعتبر الحرف الثانى ما بعد الألف ، وفى هذا ما فيه من العسر والتكلف . ولذلك يضطر الباحث عن كلمة فى حرف من الحروف أن يقلب صفحات المعجم فى هذا الحرف حتى يعثر على ضالته بالمصادفة ، لا بأن يطلبها فى موضعها الذى ينبغى أن تستقر فيه ، بحسب نظام الفهرسة الدقيقة لألفاظ المعاجم » كما يقول الأستاذ مصطفى السقا فى مقدمته الجامعة لمعجم ما استعجم واتباع البكرى لهذه الطريقة لم يكن تكلفا ، ولكنَّ علم المعاجم كان فى طريق التكوين ولم تكن قد تقررت له أصول ثابتة عند العرب ، فكان كل صاحب معجم يتبع الترتيب الذى يحسبه أيسر من غيره وأعون للباحثين . وقد تغلب فرديناند فستنفلد الذى نشر هذا المعجم أول مرة على هذه الصعوبة بأن أورد فى نهايته ثبتاً أبجديا عاديا للاعلام مع أرقام الصفحات . أما الأستاذ مصطفى السقا الذى نشره مرة أخرى فى القاهرة فقد أعاد ترتيب الأعلام الجغرافية جميعاً ترتيباً أبجدياً حديثاً صرفاً .

وقبل أن يبدأ البكرى فى إيراد ألفاظ معجمه وضع دراسة شاملة لجغرافية شبه الجزيرة العربية ، وهى أوفى ما لدينا فى هذا الباب ، بل إن هذه الدراسة أوفى من صفة جزيرة العرب لأبى محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف

ابن داوود الهمدانى اليمنى المعروف بابن الحائك (توفى ٣٣٤) فمع أن الهمدانى من أبناء شبه الجزيرة العربية وقد جابها من طرف لطرف باحثاً منقباً ، إلا أنه لم يصل إلى دقة البكرى وشموله ، إلا فيما يتصل باليمن وجنوبى الجزيرة . مما يشهد للبكرى بقدرة فائقة على الجمع والاستيعاب والتنسيق والترتيب وسلامة التصور الجغرافى ، فإنه لم يكن من الجغرافيين الرحالة الذين يكتبون عن مشاهدة ومعاناة مباشرتين ، بل كان يكتب فى الجغرافية معتمداً على القراءة والتصنيف والتصور ، وقد فاق فيما وصل إليه من النتائج أهل الرحلة والمشاهدة ، ونستطيع كذلك أن نقرر أن القسم الخاص بمصر مثلا من مسالك البكرى هو أحسن وأوفى ما ألف فى جغرافية مصر قبل المقريزى وهكذا .

وذلك كله يرجع إلى أن البكرى كان يتصف بدقة لا يدانيه فيها إلا القليلون جداً من مؤلفينا القدامى ، فهو لا يكتفى بما يقع تحت يده من الكتب ، بل يبحث عن الأصول ، ثم يرجع إلى المراجع التى استند إليها أصحاب هذه الأصول يدرسها بنفسه درساً دقيقاً عميقاً صبوراً ، وهى خاصيته الأولى التى رافقته فى كل ما ألف . قال الأستاذ عبد العزيز الميمنى فى مقدمته « للآلى » : « لا غرو أن البكرى كان حريصاً على انتقاء الكتب ذوات الخطوط المنسوبة ، مغرماً باقتنائها ، ثبتاً فى ضبط الألفاظ وتقييد الروايات على حسب ما كان يجده مثبتاً فيها . وقد ذكر ابن خير فى فهرسته (ص ٣٩٥) أسماء كتب دخل بها أبو على (القالى) الأندلسى ، ونرى صاحبنا (أى البكرى) وقف على الكتب التى أملى بها أبو على « النوادر » وعلى أصوله « كالابدال » لابن السكيت و « أمالى » ابن الأنبارى و « نوادر » ابن الأعرابى بخط أبى موسى الحامض ، وعلى كثير من المجاميع كالمنتسخة من كتاب أبى سعيد السكرى ، وكتاب أبى على بخطه الذى قرأ فيه على ابن دريد ، والكتاب الذى قرأ فيه على نفطويه ، وهو بخط ابراهيم بن سعدان وشعر ابن أحمر ، وذكر أشعار هذيل رواية القالى ، واصلاح المنطق روايته ، إلى غيرها من أصول القالى ورواياته . وقد وقف على كثير

من غير خطه أيضاً ككتاب بخط ابن الأعرابى ، وآخر بخط ابن السكيت ، وأنساب عبد شمس للأصبهانى بخطه ، وشعر امرىء القيس بخط ابن برد ، وكتاب قرأه الزجاج على اليزيدى وأثبت عليه خطه ، وكتاب بخط ثابت الجرجانى ، وآخر بخط عبد الله بن حسين بن عاصم اللغوى إلى غيرها[١] » وهذه المعلومات أخذها الميمنى من كلام البكرى فى اللآلى والمعجم ، لأنه — أى البكرى — كان يحرص على الاعتماد على أصول الكتب بخطوط مؤلفيها أو بخطوط رجال موثوق فيما ينقلون وينسخون . وهى مرتبة فى التدقيق والتحقيق نادرة فيمن نعرف من المؤلفين كما قلنا .

ولا يتسع المقام لإيراد فقرات من وصفه لبلاد العرب للتدليل على ضبطه ودقته ووضوحه ، فالكتاب مطبوع طبعتين جيدتين لا يعسر الرجوع إليهما على أحد ، ويكفى أن نشير مثلا إلى تحديده لجبال السراة والحجاز وتهامة ونجد ، فإننا نلاحظ الضبط الكامل فى الكلام والتحديد ، ونلاحظ إلى جانب ذلك شيئاً آخر على أكبر جانب من الأهمية ، وهو دقة تصور البكرى لما يصف ، كأنه كان يرسم لنفسه خرائط ورسوماً يضع عليها أسماء المعالم الجغرافية حتى يعرف بالضبط موضع العَلَم الذى يتحدث عنه . خذ مثلا قوله عن تهامة : « وأما تهامة ، فإنك إذا هبطت من الأُمَاية إلى الفُرُع وغَيْقَة إلى طريق مكة إلى أن تدخل مكة : تهامة ، إلى ما وراء ذلك من بلاد عك ، كلها تهامة ، والجازَةُ وعُلَيِّب وتَنَوْنَى ويَزَن كلها تهامة . وأنت إذا انحدرت فى ثنايا ذات عرق مُتْهِم ، وأنت إذا تَصَوَّبْتَ فى ثنايا العرج إلى أقصى بلاد فزارة أنت مُتْهِم ، فإن جاوزتَ بلاد فزارة إلى أرض كلب فأنت[٢] بالجناب . . . » وهذا كلام لا

---

(١) مقدمة سمط اللآلىء ، صفحة ك .

(٢) معجم ما استعجم ، طبعة مصطفى السقا ، ١٣/١

يكتبه رجل إلا وأمامه مخطط ينظر فيه ويتكلم بنـاء عليه ، مخطط عليه الأماكن والطرق واتجاهاتها والجبال ومجاريها والقبائل ومنازلها والبلاد وزمامها .

ولم يكن ذلك ميسوراً للبكرى إلا بعد دراسة طويلة لكل ما ورد من الإشارات الجغرافية فيما قرأ من الكتب ، وهو ينص على مصادره وأصوله بغاية الدقة ، وقائمة مراجعة طويلة ، ويكفى أن نذكر أنه فى الصفحتين الأوليين فحسب من « ذكر جزيرة العرب » يرجع إلى هشام بن محمد بن السائب الكلبى وعبد الله ابن وهب واحمد بن المعذّل والمغيرة بن عبد الرحمن والأصمعى وأبى عبيد عبد الله بن بشر السّكونى والشعبى والخليل وأبى اسحق الحربى . وهو لا يكتفى بذكر المرجع بل يأتى بسنده . هذا إلى إيراد أمثلة من الشعر ورد فيها ذكر المواضع وإشارات طويلة إلى القبائل ومنازلهـا وحدود هذه المنازل ، وتتخلل ذلك كله إشارات تاريخية طويلة وحكايات قصيرة تتصل بالموضوع .

ويبدو لنا أن البكرى كتب هذه المقدمة الطويلة فى جغرافية الجزيرة بعد أن فرغ من المعجم ، فإنه لا يشير إليها فى خطبة الكتاب التى يصف فيها منهجه فى تأليفه وأسلوبه فى الترتيب الأبجدى ، وهو يقول فيها : فجميع أبواب هذا الكتاب ٧٨٤ بابا وهو ما يجتمع من ضرب ٢٨ فى مثلها » و ٢٨ هو عدد حروف الهجاء فى حسابه ، والرقم الذى أعطاه هو عدد المواد ، ولو كان منهج المعجم كما وضعه البكرى قبل التأليف يتضمن تلك المقدمة الفريدة لأشار إليها أو لأضاف لها بابا فى الحساب على الأقل .

هذا ومن الملاحظ إلى جانب ذلك أن النسخ المخطوطة للمعجم تختلف فيما بينهم اختلافا يسيراً ، ففى بعضها مواضع وتحديدات لا تبدو فى بعضها الآخر ، « وقد علل فستنفلد ذلك فى مقدمته القيمة لطبعته بأن البكرى كتب المعجم أولا ، ثم أذاعه وتهاداه الناس والرؤساء ، ثم ردد النظر فى المعجم متصفحاً منقحاً ، فبدت له فيه أشياء لم يفطن لها أول الأمر ، فأصلحها على هامش بعض النسخ ، أو كما يقول العلامة فستنفلد فى أوراق وجزازات ، وألحقها بموضعها

من الكتاب ، ثم جاء الناسخون ينقلون الكتاب ، فبعضهم عثر على نسخة منه قبل التنقيح ، فنقلها ناقصة ، وآخر عثر على نسخة منه منقحة ، فنقلها كاملة ، وبعضهم نقل الجزازات كلها ، وبعضهم وجدها ناقصة ، فاختلفت نسخ الكتاب فى أيدى الناس ، وهذا أمر عهدنا مثله فى مقدمة ابن خلدون ، وفى دواوين كثير من الشعراء[١] » .

فإذا انتقلنا إلى المعجم نفسه وجدنا تحديداً وضبطاً ودقة تشفى غلة أكثر الباحثين طموحاً وتدقيقاً ، ولقد أصاب راينهارت دوزى عند ما قال عنه : « لقد أصدر عالم مشهور هو البارون دى سلان[٢] حكماً غير منصف لهذا الكتاب عند ما قال : « فبدلا من كتاب طيب فى الجغرافية ، وهو ما كنا ننتظره من مؤلف ممتاز مثل أبى عبيد البكرى ، تبينت أن كتابه هذا إن هو إلا معجم للأعلام الجغرافية الواردة فى أشعار العرب القديمة » ولكننى لا أستطيع أن أعتبر هذا الكلام نتيجة لدراسة نهائية . إن الفكرة العالية عندى عن علم البارون دى سلان وذوقه وذكائه لا تسمح لى بذلك . وليس ذنب البكرى قطعاً أنه لم يؤلف كتابه على النحو الذى يريده السيد دى سلان ، خاصة وأن البكرى كتب كتابه الكامل فى الجغرافية الذى تحدثت عنه (الإشارة هنا إلى المسالك) . وعلى هذا فلا بد أن ننظر إلى الكتاب من زاوية أخرى ، لكى نستطيع أن نصدر عليه حكماً أقرب إلى الإنصاف . وإننى لأشعر نحو البكرى بشعور عميق من العرفان ، وهو شعور صادر عن انتفاع طويل بالمعجم يحتم على الاعتراف له بالفضل ، وما دمنا لن نتطلب فى هذا الكتاب أشياء لا ينتظر أن توجد فيه ، نتيجة للخطة التى رسمها المؤلف لنفسه

---

(١) رواه الأستاذ السقا فى مقدمة معجم ما استعجم .

(٢) يشير دوزى فى الهامش إلى الموضع الذى أصدر فيه دى سلان هذا الرأى وهو :
Rapport adressé à M. le ministre de l'instruction publique sur les manuscrits de la Bibl. de Cid Hammouda à Constantine. Voyer aussi M. Reinaud, Introduction à la traduction française d'Abou-l-feda, p CIV.

فى تأليفه ، فإننا نستطيع القول بأنه أحسن فى نوعه من « المسالك » . ومن البديهى أن المعجم لا يهم بنفس الدرجة عامة القراء الأوربيين ، ولكن لدينا كتباً عربية كثيرة من ذلك النوع (المسالك والممالك) ، ولا بد من تجاوز كثير حتى يمكن القول بأنها كلها أقل قيمة من كتاب البكرى (فى المسالك) . وعلى العكس من ذلك نجد « المعجم » فريداً فى نوعه ، ومن المؤكد الثابت أننا لا نملك أى مؤلف آخر نستطيع أن نقارنه به سواء من ناحية الشمول أو ناحية الدقة والتحقيق فى التفاصيل ، فهو يضم أسماء حشد من أسماء أعلام الأماكن والجبال والأنهار وما إلى ذلك مما يرد فى كتب التاريخ العربية القديمة والأحاديث النبوية والأشعار خاصة ، مرتبة بحسب ترتيب الابجدية المغربية . وهو يدرسها برسمها الدقيق ويعين مواضعها ويورد عدداً لا حصر له من الأبيات الشعرية التى يرد فيها ذكر هذه المواضع . وليس هناك ما يحير من يقرأون الشعر العربى القديم أكثر من أسماء المواضع التى لا نعرف فى الغالب نطقها وأماكنها . وهذا الكتاب إذن ذو فائدة لا تقدر فى حل هذه الصعوبات . ولا غنى عنه لكل من يدرسون تاريخ العرب القديم وجغرافية بلادهم وأشعارهم والأحاديثَ النبويةَ ذات المعنى التاريخى ، وقصارى القول أننى أقرر أنه فريد فى نوعه ، وقد سبق أن قلت ذلك ، ولكنى أعيد قوله . وكل ما لدينا سواه فى هذا الموضوع ضئيل هزيل وغير دقيق بصفة خاصة إذا قورن بهذا المؤلف الجليل الحافل بالتفاصيل الغريبة والذى اعتمد مؤلفه فى تأليفه على ألوف من الأصول تعتبر اليوم فى حكم المفقودة ، ثم إنه — أى المؤلف — أديب وجغرافى كفء كل الكفاية للقيام بالعمل العسير الذى اضطلع به . هذا ولا يخرج الإنسان من كتب الجغرافيين الآخرين إلا بمزيد من الحيرة ، فهم يكدسون الأخطاء فوق الأخطاء والمتناقضات فوق المتناقضات . وخذ مثلا اسم موضع يرد فى قصيدة قديمة وابحث عنه — لا أقول فى « مراصد الاطلاع » فهذا الكتاب فوق النقد فى هذا المجال — وإنما فى أى مؤلف جغرافى آخر ،

وعلى فرض أنك تجد فيه اسم ذلك الموضع (وهو ما يندر وقوعه) فقارن ما عنده بما عند البكرى ، وهنا ستجد — وأنا لا أتردد فى ذلك القول — أن المعلومات التى يقدمها الكتاب الأول خاطئة ، أو على الأقل مضطربة ، فى حين أن معلومات البكرى واضحة ناصعة دقيقة وصحيحة بعد ذلك كله . وتزيد قيمة هذا الكتاب بسبب مقدمته التى يعين البكرى فيها حدود جزيرة العرب وأقسامها : الحجاز وتهامة واليمن ويتحدث عن القبائل العربية التى نزلت هذه النواحى ، وما أصاب هذه المنازل من تغيير[1] » .

وهذا أحسن تقدير لمعجم البكرى ، وقد نقله بنصه الفرنسى فرديناند فستنفلد فى مقدمته لتحقيقه ونشره له ، وأورد ترجمة موجزة له الأستاذ مصطفى السقا فى مقدمته لطبعته للمعجم ، وهذا الحكم يضع البكرى فى مكانه الصحيح بين جغرافيينا ، ويبين أهمية معجمه كنوع فريد لا نظير له فى المكتبة العربية ، وهذا يكفى لإفساح مكان ممتاز للبكرى بين الجغرافيين ، ولكننا سنرى أن فضله فى « المسالك والممالك » لا يقل عن فضله فى المعجم بل يزيد .

وقد نشر المعجم مرتين ، أولاها على يد فرديناند فستنفلد ، اعتمد فيها على أربع مخطوطات ، وانتسخها بيده وطبعها طبعة حجر فى مجلدين ، صدر أولهما سنة ١٨٧٦ والثانى سنة ١٨٧٧ فى جوتنجن فى المانيا[2] . والثانية قام بها الأستاذ مصطفى السقا اعتمد فيها على مخطوطات أخرى وقابلها بطبعة فستنفلد فجاءت غاية فى الدقة والكمال وصدرت فى أربعة أجزاء فى القاهرة سنة ١٩٤٥ .

---

(١) Dozy, *Recherches sur l'histoire politique et littéraire de l'Espagne pendant le Moyen Age* (première édition, Leyde 1840) tome I, 303—305.

(٢) Ferdinand Wüstenfeld, *Geographische Wörterbuch des Abū Obeid Allah ibn Abd el-Aziz al-Bekri, nach den Handschriften zu Leiden, Cambridge, London und Mailand* (Göttingen — Paris, 1876—1877).

المسالك والممالك

وننتقل الآن لدراسة كتاب البكرى الثانى فى الجغرافية ، وهو المسالك والممالك .

لم يدرس هذا الكتاب إلى الآن ككل واحد ، لأن القطع التى وجدت منه متفرقة فى مكاتب ومجموعات شتى ، مما حال دون تكوين فكرة كاملة عنه ، ولهذا فيحسن أن نحصى الموجود منه إلى الآن ، سواء فى صورة مخطوطات أو قطع منشورة أو فى صورة نقول فى كتب أخرى .

١ — أكبر القطع التى لدينا من هذا الكتاب محفوظة فى مكتبة نور عثمانية (رقم ٣٠٣٤) ، وتقع فى ٢٤٦ ورقة ، ومنها نسخة مصورة فى دار الكتب بالقاهرة ، وقد تفضل المسئولون فى الدار فوافونا بصورة منها وعليها معتمدنا فى هذا الكلام .

وهذه القطعة أطول ما لدينا من قطع هذا الكتاب ، ومن أسف أن البكرى أنفق معظمها فى مقدمات طويلة تتناول موضوعات لا تدخل فى صلب الجغرافية ، فهى تتناول « القول فى مدة عمارة الأرض » و « كيفية خلق الجنين » و « القول فى ذرية نوح عليه السلام » و « ذكر زرادشت الذى يدعى موبذ المجوس » و « عيسى وزكريا عليهما السلام » و « من كان فى الفترة من أصحاب الأخدود » وما إلى ذلك ؛ وهذه كلها فصول معلومات عامة وحكايات ونقول تشبه ما نجده عند المسعودى فى « مروج الذهب » و « التنبيه والإشراف » ، ولكنها أقل تفصيلا وأقل ترابطا، ويبدو أن ذلك يرجع إلى الناسخ ، فإننا نلاحظ انتقالات سريعة من مبحث لمبحث دون تمهيد . وليست لدينا فاتحة الكتاب حتى نعرف منهج البكرى فى تأليفه .

غير أن بعض المباحث التى ترد فى هذه المقدمــة الطويلة ذات قيمة جغرافية ، فهناك فصل عنوانه « جملة القول فى جزيرة العرب وشىء من أخبارها » يورد البكرى فيه ملخصاً لوصف شبه الجزيرة الذى أورده فى « معجم ما استعجم » ، ثم ينتقل إلى « ذكر أخبار العرب العاربة والأمم الداثرة ومذاهبهم ودياناتهم وسيرهم » ثم « ذكر معبودات العرب وعلة عبادتهم الأصنام » ثم « ذكر بيوت النيران » .

وفى هذا الفصل نجد إسم تيتوس (ليفيوس) مذكوراً لأول مرة فى العربية إلى جانب نفر من الجغرافيين والرياضيين اليونانيين ، وهو يأخذ فيه عن العذرى مباشرة ويقول « أخبرنى العذرى » . وهو يجمع فى هذا الباب أخباراً وغرائب نقلها من الكثير مما نعرف من كتب الجغرافيين والأخباريين .

وبعد ذلك ، وفيما نعتقد ، يبدأ القسم الجغرافى من هذه المقدمة ، وهو قسم يدل على تصور جغرافى سليم واطلاع واسع على المهم مما كتب قبله فى المباحث التي تعرض لها . وإذا كان « معجم ما استعجم » يضع البكرى فى الصف الأول من الباحثين فى الجغرافية فى العصر الوسيط ، أولئك الذين يجمعون المعلومات الجغرافية ثم يرتبونها على النحو الذى يختارونه ، فإن هذا القسم من المقدمة يقرر بوضوح كيف كانت صورة الأرض واضحة فى ذهن أبى عبيد ، وكيف كانت هيأتها وتقاسيمها — بحسب ما انتهى إليه علم العصور التى سبقته — قد تجمعت فى ذهنه وعرف كيف يعرضها عرضاً سهلا مبسطاً يذكرنا بأحسن ما كتب المنقطعون لهذا الشأن من أمثال أحمد النهاوندى والخوارزمى وأبى معشر والبتانى وأبى محمد بن زكريا الرازى وعلى بن يونس وغيرهم . بل عرف كيف يختار من أقوال أولئك الفلكيين والرياضيين وأصحاب الزيوج أقرب ما لديهم إلى فهم القارىء العادى ، ويعرضه عرضاً حسناً يستكمل به صورة الكون والأرض وأقاليمها ، وعلاقة هذه الأخيرة بالبروج دون تكلف أو تعقيد .

وللبكرى فى ثنايا ذلك لمحات يكشف بها عن حقائق سبق بها زمانه بكثير ، خذ مثلا قوله : « وأقيانُس البحر المحيط ، لا يدرى ما وراءه غربا إلى أقصى عمران الصين شرقا ، والشمس إذا غابت فى أقصى الصين طلعت فى الجزائر (الخالدات) وبالضد » وهذه — ولا زيادة — هى الفكرة التى جعلت من كولومبوس ما هو فى تاريخ البشر ، وكأنما أخذ أبو عبيد البكرى بيده وقاده إلى ما وقع إليه من كشف عظيم . وليس من قبيل المصادفة البحتة أن يكون أبو عبيد من أبناء ولبة على أميال قليلة من الرابطة La Rábida وفيها الدير الذى لجأ كولومبوس إلى أحباره لكى ييسروا له مقابلة فرناندو وإيزابلا ، ولا هو من قبيل المصادفة أن يكون أبو عبيد قد كتب هذه السطور فى إشبيلية ، البلد الذى عاش فيه كولومبوس زمنا ، وتعلم من أهله وعلمائه وبحارته الشىء الكثير ، بل إنه لا تبدو لنا مصادفة أن يكون خروج مراكب كولومبوس إلى العالم الجديد من ميناء سان لوكار San Lúcar أقرب بلد إلى ولبة ، والمسافة بينهما بضعة كيلومترات .

والبكرى يعتمد فى كلامه فى هذا الفصل على كتابى بطليموس : الجغرافية والمجسطى ، ويحقق كلام ايراتوسثنيز (يكتبه ارذوستانس) عن محيط الأرض وقطرها ، ويُجمِل بعد ذلك أقوال الجغرافيين والرياضيين عن أطوال محيط الأرض قائلا : « فهى كَوْرُ كَوْرَةِ الأرض المحيطة بالبر والبحر ، فقطرها على هذا ٦٤٢٤ $\frac{1}{5}$ ميلا بتقريب» وهو تقدير صحيح لِقَطَر كرة الأرض، ولو جمعنا هذه العبارة إلى عبارته السابقة عن إقيانس تبينا أن فكرة خروج السفن من غربى أوروبا لتصل إلى شرق الصين كانت عند البكرى بديهية من البديهيات . ومع ذلك فهو يقول فى تواضع عظيم : « وإنما ننقل فى كل موضع من هذا الكتاب ما يُسْتَنْسَخُ لنا ، وعندنا كتب الناس فننقل ذلك عنهم على حسب ما نجده ، لا ما نقع على صحته » .

ونؤكد ما قلناه آنفاً من معرفة البكرى بأن الخارج من غرب أوروبا يصل شواطىء الصين بهذا الخبر الذى يرويه عن بحر الظلمات أو البحر الأخضر أو المحيط : « وقد خاطر بنفسه فتى من أهل الأندلس يسمى خشخاش . وكان من فتيان قرطبة فى جماعة من أحداثها ، فركبوا مراكب استعدوها ودخلوا هذا البحر وغابوا مدة ثم أتوا بغنائم واسعة وأخبار مشهورة » ولا ندرى إن كان هذا هو خبر الفتية المغررين (أو المغربين) أو خبر آخر ، وعلى أى حال فهو دليل على أن الخروج فى المحيط الأطلسى والإيغال إلى الغرب والوصول إلى سواحل بعيدة كان أمراً يستهوى نفوس الأندلسيين وربما تكرر مراراً .

وهو يتحدث فى ذلك الفصل عن علة المد والجزر فيقول إنها « القمر على ما بيّن أبو معشر » ويستطرد إلى أحاديث عجائب كثيرة معظمها نجده عند غيره . ولكننا نجد فيه فصلا قائماً عن أنهار الأرض ، هو أحسن ما لدينا إلى الآن فى ذلك الباب ، وهو يتحدث فيه عن دجلة والفرات حديثاً طويلا ، ثم عن النيل ويقول « فأما النيل فإن منبعثه من تحت جبل القمر وراء خط الاستواء بسبع درجات ونصف من اثنتى عشرة عين فيجتمع من بحيرتين كالبطائح » ، وكلامه عن هذه الأنهار هو الأصل الذى نقل عنه الإدريسى ، فإن كلامهما يتطابق فى بعض الفقرات حرفياً ، وفى ذلك الباب نجد فصلا طويلا عن أنهار الأندلس ، وهو أوسع فى بعض المواضع مما لدينا فى القطعة الباقية بين أيدينا من وصفه للأندلس[١] .

وبعد هذه المقدمة الطويلة يبدأ كلامه عن الممالك والمسالك ، فهو يبدأ فصلا عنوانه : « ابتداء الممالك » ثم يتكلم من مملكة الهند . وقد أخذ البكرى مصطلح الممالك والمسالك بحرفيته ، فهو يبدأ بالكلام عن المملكة ثم يذكر مسالكها . والمملكة هنا هى القطر ، وأبو عبيد يتحدث عن كل مملكة يذكرها

---

(١) سبق أن أشرنا إلى هذه القطعة وتحقيق ليفى بروفنسال إياها .

بتفصيل ، فيصفها ويذكر حدودها ويأتى بشىء من تاريخها ، ويذكر عادات أهلها وخصائصهم ، وبعد ذلك يتحدث عن الطرق ويذكر المسافات ، فيبدأ بالهند كما قلنا ، ثم الصين ثم فارس ، وكلامه عن هذه الثلاثة شديد الشبه بكلام المسعودى ، وهو ينص عليه فى أكثر من موضع . ثم يتحدث عن الروم ، وهنا نراه يأخذ عن هروشيش دون أن يشير إليه ، ثم ينتقل إلى بلاد الصقالبة والروس ؛ ومعتمده هنا على ابراهيم بن يعقوب الإسرائيلى ، وهنا موضع القطعة الطويلة التى نشرها فون روزن وكونك وأشرنا إليها آنفاً .

ويختم كلامه عن أوروبا بالكلام على مملكة الجلالقة ، ويبدو أن معتمده هنا على ابراهيم بن يعقوب وأصول عربية أخرى ، لأنه يذكر فى نهاية كلامه عن مملكة الجلالقة وقائع عبد الرحمن الناصر معهم ويختمها بقوله : « وهى للمسلمين عليهم إلى وقت التاريخ » ، ولا يمكن أن يكون البكرى صاحب هذه العبارة .

٢ — وتلى ذلك قطعة محفوظة فى مكتبة القرويين بفاس تحت رقم ٤٨٨ وفيها جغرافية إيران (ايرانشهر) ومصر والمغرب وقطعة من وصف الأندلس .

٣ — ثم قطعة أصغر محفوظة فى مكتبة لا له لى (رقم ٢١٤٤) ، عدد أوراقها ٧٧ ورقة وتشمل جزءا من جغرافية الشام والجزيرة العربية .

٤ — قطعة تبدأ بنهاية وصف مصر ثم تورد وصف المغرب ثم صفحات من صفة الأندلس ، محفوظة فى المكتبة الأهلية فى باريس تحت رقم ٥٨٠ (anciens fonds) ، وهى أسوأ ما لدينا من مخطوطات البكرى .

٥ — قطعة تشبه الأولى عثر عليها المسيو Berbrugger وضمها لمكتبة الجزائر .

٦ — نسخة ثالثة من نفس القطعة محفوظة بمكتبة المتحف البريطانى تحت رقم ٣٧٤ وهذه القطع الثلاث هى التى اعتمد عليها البارون ماك جوكين دى

سلان فى نشر صفة المغرب للبكرى المعروفة فى النسخة المطبوعة باسم كتاب صفة المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب وبالفرنسية باسم :

Description de l'Afrique Septentrionale par Abou Obeid el Bekri (Paris 1875)

ثم أعيد طبعها سنة ١٩١١ وكان قد ترجمها إلى الفرنسية قبل ذلك ونشر الترجمة بنفس العنوان سنة ١٨٥٨ فى باريس .

٧ — قطعة تتناول جغرافية بلاد الروس والصقالبة نشرت مع ترجمة روسية بتحقيق كونيك والبارون فون روزن فى بطرسبرج سنة ١٨٧٧ وقد تحدثنا عنها وأتينا بعنوانها فى كلامنا عن ابراهيم بن يعقوب الطرطوشى .

٨ — نقول من الأجزاء الأولى من الكتاب تتناول هيئة الأرض والكون وردت فى الجزء الأول من مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى . وقطع أخرى منه تتصل بصفة بعض نواحى الأندلس أوردها ياقوت فى معجمه والمقرى فى نفح الطيب .

ومن هذه القطع والنقول نستطيع أن نقول إن المسالك والممالك للبكرى يتناول فى نسخته الكاملة جغرافية الدنيا كلها على طريقة المسالك والممالك . ولكن منهجه فيها يختلف بعض الشىء عن مناهج الآخرين كما قلناه ؛ والأجزاء الخاصة ببلاد العرب ومصر والمغرب تنفرد بميزة كبرى ، وهى أنه يقف عند كل موضع وقعت فيه حادثة تاريخية ويتحدث عنها بتفصيل . ومن أسف أن معظم الجزء الخاص ببلده هو — أى الأندلس — لم يعثر عليه إلى الآن . ومن الطبيعى أن يكون هذا الجزء أحفل أجزاء كتابه بالقيمة والفائدة ، وهو دون شك معتمد كل من كتب فى جغرافية المغرب بعده وخاصة الإدريسى وابن سعيد . فإذا ذكرنا أن الجزء المطبوع الخاص بالمغرب وحده يعدل نصف حجم « صورة الأرض » لابن حوقل ، وهو أوسع كتب المسالك والممالك التى بين يدينا وأكثرها تفصيلا ، تبينا أن كتاب البكرى هو أوسع ما ألف العرب فى هذا الباب وأشمله على الإطلاق .

وللبكرى ميزة أخرى تؤيد ما قلناه ، وهى دقته فى رسم الأعلام وحرصه على التثبت منها والرجوع فيها إلى مظانها وسؤال الناس عنها . ومثالا لهذا نناقش الفقرة الخاصة بأسماء شبه جزيرة إيبيريا ، وهى فى فاتحة الجزء الخاص بالأندلس :

« ذِكر جزيرة الأندلس وجمل من أخبارها : يُذكَر أن اسمها فى القديم إباريه (Iberia) من وادى إبره (Ebro) ثم سميت بعد ذلك باطقه (Baetica) من وادى بيطى (Baetis) ، وهو نهر قرطبة ، ثم سميت إشبانية (Hispania) من إسم رجل ملكها فى القديم ، كان اسمه إشبان ، وقيل سميت بالإشبان ، سكنوها فى أول الزمان على حرمة النهر (يقصد الوادى الكبير) وما والاه . وقيل إن اسمها فى الحقيقة إشبارية (Hesperia) ، مسماة من أشْبَرُشْ (Haspéros) ، وهو الكوكب المعروف بالأحمر ، وسميت بعد ذلك بالأندلس من أسماء الأندليش (Vandali) الذين سكنوها على ما يأتى ذكره » .

وقد وضعت بين قوسين إلى جانب كل علم غير عربى أصله اللاتينى حتى تتبين دقة البكرى فى رسم هذه الأعلام ، بيد أن هذه الدقة تتجلى بصورة أوضح إذا نحن بحثنا عن أصول هذه الأسماء التى كانت تطلق على شبه جزيرة إيبيريا فى كتابات الجغرافيين الإغريقيين والرومان .

فأما قوله إن « اسمها فى القديم إبارية من وادى إبره » فقد كان القدماء من الإغريق والرومان يقولون هذا ويجعلون إيبيريا مشتق من إبرو ، وعنهم أخذه البكرى (ربما بطريق الرازى) . أما الحقيقة فهى أن إيبيريا نسبة إلى إيبيروس Ιβηρος وهو الاسم الذى أطلقه الإغريق القدامى على سكان شبه الجزيرة . وقد ظهر لفظ إيبيريا Ιβηρια للمرة الأولى خلال القرن السادس قبل الميلاد . وكان هذا الإسم يطلق على جزء من شاطىء شبه الجزيرة محصور بين مصب الوادى الكبير ومصب النهر الأحمر Guadalahmar وهو الجزء الذى نزل فيه الإيبيريون

عند هجرتهم الأولى من شمال إفريقية إلى شبه الجزيرة ، ثم شمل الإسم شبه الجزيرة كله بعد ذلك تبعاً لانتشار الإيبيريين فى البلاد .

وقوله أنها كانت تسمى فى القديم « باسم باطقة نسبة إلى وادى بيطى » مأخوذ عن كتاب اليونان والرومان أيضاً ، فإن اليونان نزلوا الجزيرة أول الأمر فى الجنوب وسكنوا على ضفة نهر بيطى Baetis الذى عرف فيما بعد بالوادى الكبير ، وأطلقوا على هذا الجزء من شبه الجزيرة اسم Baetica ، ثم غلب هذا الاسم على شبه الجزيرة عند بعض كتابهم ، أما الرومان فقد قصروه على جنوب شبه الجزيرة فحسب .

أما قوله « ثم سميت إشبانية من اسم رجل ملكها فى القديم كان اسمه اشبان ، وقيل سميت بالاشبان الذين سكنوها من أول الزمان » فقد أخذه البكرى عن كتاب الاسبان فى العصر القوطى ، وخاصة عن ايزيدور الباجى ، فقد ورد ذلك فى كتابه المسمى Etimologiae أى أصول الكلمات . والشك كثير فى حقيقة إيزيدور نفسه ، فهناك من يقولون إنه اسم منتحل ابتكره نفر من الوضاع فى العصر القوطى ونسبوا إليه ما وصل إلينا من الكتب باسمه . وقد اطلع العرب الأندلسيون على كتاباته ، وهم مشكورون على هذا الاطلاع ، ولا ذنب لهم إذا قبلوا ما فيها على أنه معلومات صحيحة قالها عالم من أكبر علماء اسبانيا المسيحية كما قيل لهم .

أما الحقيقة فهى أن لفظ اسبانيا هو أقدم أسماء الجزيرة التى عثرنا عليها ، فهو مذكور فى كتابات الفينيقيين قبل سنة ١١٠٠ قبل الميلاد ، أى قبل إنشائهم لمدينة قادش Cádiz . وهو مذكور فى هذه الكتابات فى صورة 'i-sch-phannim ومعناه « ساحل الأرانب البرية » وكان شبه الجزيرة مشهوراً بهذه الأرانب حتى أصبحت صورة الأرنب البرى رمزاً عليه فى بعض العصور ، كما نجد فى بعض قطع العملة التى ضربها الامبراطور هادريان . واللفظ سامى قديم ، فهو فى العبرية القديمة « شْفَهان » وفى اليمنية القديمـة طَفَنْ ، وجمعه فى العبرية

القديمة شفانيم Shphannīm . وعن الفينيقيين أخذ اللفظ القرطاجنيون ، ثم الرومان بعد استيلائهم على ما كان بيد هؤلاء الأخيرين من شبه الجزيرة وحرفوه إلى اسبانيا I-spania أو هسبانيا Hispania وقالوا إن الإسم منسوب إلى مثبَانْ أو سْفَهان Sphan . وأطلقوا الاسم على شبه الجزيرة . ومنهم من جعل « اسبانيا » مشتقاً من اسم الاله « بان » أو نسبة إلى رجل يسمى هيسبالوس Hispalus وهذه النسبات الثلاث الأخيرة واردة فى كتاب « الاتيمولوجيا » لإيزيدور الباجي . وعنه أخذها العرب . وقد وقف البكرى عليها عند ما نقل ، أما غيره فقد أطلق لخياله العنان ، فجعل سْفَهان أصبهان وقالوا إن أصله من أصبهان ، وأضافوا قصصاً طويلا لا يخلو من طرافة .

والإسبان ، أهل اسبانيا ، هى الصيغة العربية لثلاث من الصور كانت تستعمل فى مقابله فى اللاتينية : Hispani (مفرده -us) و Hispanici (مفرده -cus) و Hispalenses (مفرده -is) ، وورد أيضاً فى صيغ أخرى مثل : Hispalis للمذكر Hispalia للمؤنث ، ومن هذه الصورة الأخيرة أخذ العرب اسم اشبيلية .

وكذلك قوله : « وقال قوم إن اسمها إنما هو فى الحقيقة اشبارية ، مسماة من إشبِرُش وهو الكوكب المعروف بالأحمر » يرجع إلى إيزيدور الباجي ، فقد استنتجه البكرى من قول إيزيدور ab Hespero, Hispaniae rege وهو خطأ ، لأن اشبارية من Hesperia أى أرض الغروب ، وهو لفظ شاعرى استعمله الإغريق للدلالة على إيطاليا أولا ثم على اسبانيا أيضاً . أما اشتقاقه من Hesperus الذى يعرف فى العربية بالنجم الأحمر فقد دل التحقيق الاشتقاق على أنه غير صحيح[١] .

---

(١) مرجعنا فى ذلك التحقيق اللغوى إلى آدولف شولتن فى كتابه الذى أشرنا إليه قبل ذلك مراراً .

والعبارة الأخيرة من كلامه « وسميت بعد ذلك بالأندلس من أسماء الأندليش الذين سكنوها » تدل على أن البكرى ومن أخذ عنه كانوا عارفين بأصل الإسم الذى استعمله العرب للدلالة على البلاد كلها .

وواضح من هذا كله أن البكرى بحث ونقب عن أصل الاسم وأتى بروايات شتى كلها له أصول فى كتابات قديمة لها مكانها من الاحترام ، وهو لم يقل فى أثناء ذلك أن أندلس من الدلس أو التدليس كما فعل غيره ، لأنه يعرف بطبيعة العالم المفكر أن هذه الأسماء لا تفسر هذه التفسيرات اللغوية اليسيرة التى لا يأخذ بها إلا السطحى من الكتاب .

وكذلك يقال فيما بقى لنا من أوراق صفة الأندلس للبكرى التى ثبت أنه نقلها عن الرازى ، فسواء نظرنا فى قسمة قسطنطين أو فى كلامه عن أنهار اسبانيا وجبالها ، فكلامه دقيق واضح مضبوط . أما القطع الخاصة بالكور والمدن وأقاليمها فواضح أنه أخذها عن العذرى واختصرها اختصاراً جيداً لا يقلل من قيمتها .

وتتجلى لنا دقة البكرى الجغرافى ووضوح الصور الجغرافية فى ذهنه وادراكه لما يتطلب الناس فى كتاب فى صفة البلدان إذا نحن نظرنا فى جزء مما بين أيدينا من مسالكه وممالكه ، وإلى أن تُنْشَر الأجزاء المخطوطة منه نكتفى هنا بالنظر فى القسم الخاص بالمغرب ، فهو مطبوع متداول بين أيدى الناس .

من الواضح أن البكرى اعتمد فى هذا الجزء اعتماداً كبيراً على ما كتبه محمد ابن يوسف الوراق ، وهو يقرر ذلك فى مواضع كثيرة من كتابه ، ولكننا نلمح فى كل فقرة أثر البكرى وطريقته ودقته . فيقول مثلا : « برقة : واسمها بالرومية الإغريقية بنطابلس ، تفسيره خمس مدن (Penta-Polis) » ثم يقول بعد قليل فى وصف الجبل المعروف اليوم بالجبل الأخضر : « وعلى ستة أميال منها — أى من برقة — الجبل ، وهى (أى منطقة برقة) دائمة الرخاء ، كثيرة الخير ، تصلح بها السائمة ، وتنمى على مراعيها ، وأكثر ذبايح أهل

مصر منها ، ويحمل إلى مصر منها الصوف والعسل والقطران ، وهو يعمل بها بقرية من قراها يقال لها « مقة » فوق جبل وعر ، لا يرقى إليها فارس على حال ، وهى كثيرة الثمار من الجوز والأترج والسفرجل وأصناف الفواكه ، وبمدينة برقة قبر رويفع (بن ثابت الأنصارى) صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحول برقة قبائل من لواته ومن الأفارق»[1] فإذا قارنا ذلك بما عند ابن حوقل — وقد زار برقة وأقام فيها — تبينا امتياز البكرى ، فهو يبحث عن أصل اسم البلد ويفسره ، ويفرق بصورة واضحة بين برقة البلد والجبل الأخضر الذى يبعد عنها ستة أميال ، فى حين أن ابن حوقل لا يفرق ، ويتحدث كما لو كان الجبل ملاصقاً لبرقة تماما . ومع أن ياقوت قد اعتمد على البكرى فى هذا الموضع إلا أنه أيضاً لم يفرق بين البلد والجبل ولا يعطى هذه الصورة الواضحة[2] .

ويتجلى ذلك أيضاً إذا قارنا ما كتبه البكرى بما كتبه ابن حوقل عن طرابلس ، فهو يقول « ويذكر أن تفسير اطرابلس بالاعجمية الإغريقية ثلاث مدن (Tri-polis) وسماها اليونانيون طِرْبُلِيطَه (Tripolitania) لأن طِرْ (tre) معناه ثلاث وبليطة politis يعنى مدينة . ويُذكر أن أشفاروش قيصر (Septemius Severus) هو الذى بناها ، وتسمى أيضاً مدينة اطرابلس مدينة أناس . . »[3] وأظن أن أناس هذه مصحفة وأن صحتها أياس ، لأن إسم طرابلس فى القديم كان أويا Oea وهى ثالثة المدائن التى نشأ عن جمعها معا إسم طرابلس (الاثنتان الأخريان لبده Leptis Magna و صبره Sabratha) . ثم يصف المدينة وصفاً عاماً يعقبه شيء من الاستطراد التاريخى ، ويعود إلى البلد فيذكر موارد مائه فى تفصيل دقيق ويسمى الآبار واحداً واحداً ، ثم

---

(١) صفة افريقية للبكرى ، طبعة دى سلان ، الجزائر ١٩١٠ ، ص ٤ — ٥

(٢) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ١/٦٦ — ياقوت : ٢/١٣٤

(٣) صفة افريقية للبكرى ، ص ٦ — ٧

يتكلم عن فحص البلد المسمى سويجين ويذكر حاصلاته ، ويلم بذكر جبل نفوسه فيصفه ويذكر قراه واحدة واحدة ، ويستطرد حتى زويلة وما فيها من القرى مثل ودان وكاوار والقبائل التى تسكنها ، وينفرد بمعلومات غاية فى الأهمية عن هذه النواحى الصحراوية ، ويتحدث فى أثناء ذلك حديث الباحث المدقق فيقول عن ودان أنها مدينتان ، ويسمى كلا منهما ويذكر سكانها وجنسهم ويقول « وأكثر معيشتهم من التمر ، ولهم زرع يسير يسقونه بالنضح » وهو التعبير العربى الفنى المقابل لقولهم culture à sec أو al secano . ولم أجد هذا التعبير إلا عند البكرى ، وكذلك المعلومات عن واحات الصحراء هذه لا نجدها إلا عند هذا الجغرافى المدقق .

وبينما نجد ابن حوقل لا يذكر القيروان إلا ضمنا أثناء حديثه عن المهدية[1] نجد البكرى يقف عندها طويلا مخصصاً لها ست صفحات لا يدع فيها شيئاً إلا ذكره ، ويصف مسجدها وصفاً مفصلا مع تواريخ بنائه وما مر عليها من تطورات ، وهذه الفقرة الخاصة بالمسجد هى أحسن وأدق ما لدينا عن ذلك الجامع إلى أيام البكرى .

وهكذا ينتقل بنا البكرى فى بلاد المغرب من مرحلة لمرحلة لا يكاد يغادر مدينة أو قرية أو محرساً أو حصناً أو رباطاً أو جبلا أو بحيرة أو نهراً إلا ذكره بتفصيل يدل على جهد كبير فى البحث والاستقصاء ، مع ما لابد منه من الإشارات إلى الموارد والمحصولات والمعادن والصناعات وأصناف الناس وما تيسر له من المعلومات عن طباعهم . فهو فى الواقع ليس مجرد كتاب مسالك وممالك ، وإنما هو جغرافية وصفية بشرية اقتصادية من الطراز الأول . ولم يعتمد البكرى فيه على كتاب محمد بن يوسف الوراق وحده كما يظن ، بل إنه — جرياً على طريقته — جمع كل ما وصل إليه من المراجع وانتفع به انتفاعاً

---

(١) ابن حوقل ، ١/٧١

طبيًا ، ودقق فى كل ما قرأ فلم يأخذ منه إلا ما تراءى له أنه الصحيح ، وضبط الأعلام ضبطًا محكمًا ، ورجع إلى أصولها ما أمكن . وقد اتبع البكرى هذه الخطة أيضًا فيما كتبه عن مصر والشام وغيرها مما عثرنا عليه من كتابه . والنسب بين الأجزاء التى خصصها لكل قطر معقولة ، وهو فى هذا يمتاز على غيره من أصحاب كتب المسالك التى يغلب عليها التفصيل الشامل فى ناحية والإيجاز المخل فى ناحية ، لأن البكرى لم يكتب بحسب ما اتفق له من الأصول ، فما حضرته عنه وفرة أطال فيه وما لم يحضره عبر به مسرعا ، وإنما جمع جمعًا شاملا وقرأ قراءة واسعة ودوّن جزازاته ورتبها قبل أن يكتب ، وبهذا وحده استطاع أن يقدم لنا أوسع جغرافية للدنيا قبل الإدريسى .

وللبكرى فى سياق كلامه عناية بالتاريخ ، فهو يرى أن الكلام على ناحية أو موضع لا يتم إلا بذكر طرف من تاريخه ، وهو يتعمد أن تكون هذه الأطراف التاريخية إما متصلة بفتح العرب للبلد أو ذات علاقة بمعالم عمارته كسوره ومساجده وأبوابه وأسواقه وما إلى ذلك ، فأما ما يتصل بالفتح فمصدره فيه فتوح ابن عبد الحكم أو بعض أصوله (الليث بن سعد ومسلمة بن عبد الملك وابن لهيعة خاصة) والبلاذرى ، وقلما يأخذ عن غيرهم ، وأما ما يتصل بسواه فمراجعه شتى يصعب تحديدها ، والغالب أنه استمدها من الوراق ، وهى لهذا على جانب كبير من الأهمية ، إذ أن كتب الوراق لم يعثر عليها إلى الآن .

ومن أغرب ما نجد فى هذه القطعة من مسالك البكرى الباب الذى خصصه لذكر مراسى ساحل المغرب من أشلِن (إلى غربى تلمسان بقليل) حتى ساحل الشام ، واستطراده فى وصف ذلك الساحل حتى مدخل بحر ايجه ، فهذا هو أقدم وصف للشواطئ والموانئ الإسلامية على البحر الأبيض ، خاصة وهو يعنى بذكر ما يقابل المراسى الإفريقية من مراسى الأندلس ، حتى إذا وصل إلى مرسى بجاية قال : « قد خرج عن محاذاة جزيرة الأندلس » وهو يذكر كل مرسى ويصفه ويتكلم عن صلاحيته للسفن شتاء وصيفًا ، ويشير إلى درجة

عمران الميناء وموارد مائه وعدد المجارى التى بينه وبين المرسى الذى يليه ، وبينه وما يقابله من مراسى الأندلس ، فكأنه بذلك يصف المسالك البحرية بالإضافة إلى البرية ، وهو منحى فريد فى بابه لم يسبقه إليه جغرافى آخر . وهذا الفصل من كتابه (ص ٨١ — ٨٨) جدير بدراسة وحده ، نظراً لما يضمه من التفاصيل الكثيرة التى تحتاج إلى أن تحقق وتناقش . ومما هو جدير بالملاحظة أنه بعد أن يصل فى الطريق البحرى إلى ساحل الشام ثم يصعد معه إلى أنطاكية يقول : « ثم إلى انطالية (Anatolia) ومن أنطالية تدخل إلى « الجزائر المؤلفة » وهى تسمية لطيفة لأرخبيل بحر إيجه . وبعد أن ينتهى من الحوض الشرقى للبحر الأبيض يعود إلى ساحل تلمسان الذى بدأ منه ، فيذكر مرسى بجزيرة آواى ويصفه ، ثم يعبر عن طريق البر إلى ساحل الأطلسى عند نول ، ثم يأخذ فى ذكر مراسى المغرب الأطلسية واحداً واحداً بدلا من أن يسير مع الساحل من تلمسان إلى سبتة فطنجة ، ثم ينحدر مساحلا إلى الجنوب . ولا يعلل هذا إلا بأنه اتبع طريق التجارة ، وقد كان التجار البحريون الذين يصلون إلى مراسى شاطىء تلمسان يتلاقون فى مرسى جزيرة آواى ، ومن هناك تخرج الرفاق (القوافل) « مواجهةً للمشرق شهرين مَشْىَ الإبل إلى مدينة نول ، ومدينة نول آخر بلد الإسلام وأول العمران من الصحراء ، وتسير السفن من ساحل نول إلى وادى السوس ثلاثة أيام[1] . . . » ثم يعود مرة أخرى إلى الشرق حتى وجدة ، ثم يذكر الطريق من وجدة إلى سجلماسة ، ويعود بعد ذلك ليصف الطريق من وجدة إلى فاس ، وهنا يذكر الطريق البحرى إلى مليلة ونكور وسبتة حتى طنجة ويعود إلى ذكر مراسى الأندلس التى تقابل كل واحد من مراسى افريقية التى يذكرها فى تدقيق بالغ . وهو يعتمد هنا على محمد بن يوسف الوراق ، فإن له تواليف عن

---

(١) صفة افريقية للبكرى ، ص ٨٦

هذه النواحى كما ذكرنا ، ولكنه لا يقف عنده ، بل يستمر فى رواية الحوادث إلى ما بعد وفاة الوراق بزمن طويل ، فهو يذكر مثلا حوادث وقعت سنة ٤٤٠/١٠٤٨—١٠٤٩ بل يصل فى رواية بعض الحوادث إلى سنة ٤٦٠/١٠٦٧

وهو يقف بمدينة فاس وقوفاً طويلا ، ويتسع استطراده التاريخى فيتناول قيام دولة الأدارسة وجانباً كبيراً من تاريخهم بتفصيل ، ثم يتبع ذلك بفصل عن « ممالك برغواطة وملوكهم » وهو تاريخ صرف رواه عن « أبى صالح زمور ابن موسى بن هشام بن واردیزن البرغواطى ، وكان صاحب صلاتهم حين قدم على الحكم المستنصر رسولا من قبل صاحب برغواطة أبى منصور عيسى بن أبى الأنصار . . . بن طريف ، وكان وصوله إلى قرطبة فى شوال سنة اثنتين وخمسين ومائتين وكان المترجم عنه بجميع ما أخبر به الرسول الذى قدم معه ، وهو أبو موسى عيسى بن داوود بن عشرين السطاسى ، من أهل شَلَّه ، مسلم من بيت خيرون بن خير ، فأخبر زمور أن . . . » وهذه المقدمة وما يليها من الخبر أشبه بأن تكون نص وثيقة بتاريخ برغواطة كتبت للحكم المستنصر لتحفظ فى سجلاته . والغالب أن يكون البكرى قد أخذ نصها عن محمد بن يوسف الوراق ، لأن ابن عذارى يأتى بها فى صورة مشوهة مبتورة ، ومع أن ابن عذارى مؤرخ وهذا الخبر أدخل فى موضوع تاريخه إلا أن البكرى أدرك أهميته بحسه العلمى المرهف ، فأتى به كاملا ، فأدى لتاريخ المغرب بذلك خدمة لها قدرها[1] . وقد سبق أن أشرنا إلى طريقة ابن عذارى فى النقل عن الوراق .

وابتداء من الفصل الذى عنوانه « الطريق من فاس إلى مدينة سجلماسة[2] » تزداد أهمية هذا الجزء من مسالك البكرى من الناحيتين الجغرافية والتاريخية ، فهو يصف هنا الحدود الجنوبية للاسلام المغربى من سجلماسة إلى الجنوب وكيف

(١) انظر البيان المغرب لابن عذارى (طبعة بروفنسال وكولان) ، ١/٢٢٢—٢٢٧

(٢) نفس المصدر ، ص ١٤٦

امتدت حتى وصلت إلى بلاد غانة . وفى فصل من الفصول التالية توجد القطعة الفريدة التى كانت إلى حين قريب أوثق مراجعنا عن أصل المرابطين وكيف نشأوا ، وهو يعتمد فى بعض تفاصيل هذه الفصول على محمد بن يوسف الوراق ولكنه يرجع أيضاً إلى أصول مغربية أوثق معرفة بجغرافيـة هذه النواحى وتاريخها ، فهو يقول مثلا فى ص ١٦٠ « الطريق من مدينة أغمات إلى السوس على ما ذكره مؤمن بن يومر الهوارى » .

ويقف البكرى بهذه القطعة من تاريخ المرابطين عند سنة ١٠٦٧/٤٦٠ أى عند ولاية أبى بكر بن عمر اللمتونى ، وهذا أمر يستدعى النظر ، لأن البكرى توفى سنة ٤٨٧ ، أى أنه عاش حتى اكتمل تكوين دولة المرابطين أيام يوسف ابن تاشفين ، بل كان أحد الذين كانوا فى وداع المعتمد بن عباد حين عبر إلى المغرب لإقناع يوسف بن تاشفين بضرورة العبور إلى الأندلس بجيوشه مرة ثانية[1] أوائل سنة ١٠٨٨/٤٧٨ أى قبل وفاة البكرى بتسع سنوات ، فكيف وقف فى رواية تاريخ المرابطين عند سنة ١٠٦٧/٤٦٠ أى سبعة وعشرين سنة قبل وفاته ؟ لا يعلل ذلك إلا بإذن البكرى كتب هذا الجزء من جغرافيته فى تلك السنة ، وأثبت فيه آخر ما وصله من أنباء المرابطين ، ثم انتقل إلى أجزاء أخرى وأعمال أخرى ، ومضت السنون دون أن تتاح له الفرصة ليعود إلى إكمال ما كتب ، ولعله أكمله فى نسخ أخرى لم تصلنا ، فقد رأينا مثل ذلك فيما لدينا من نسخ معجم ما استعجم . وقد كان البكرى يؤلف بعض كتبه على مراحل ، أى يكتب ما حضره فإذا أعياه شىء ترك له بياضاً حتى يعثر عليه أو يذكره فيقيده ، قال الأستاذ عبد العزيز الميمنى فى مقدمته لشرح اللآلى إن

---

(١) ذكر ذلك ابن الأبار فى ترجمته لأبى عبيد البكرى (انظر النص فى أبحاث دوزى الطبعة الأولى ، ٢٨٦) وقد ذكرت أن هذا العبور كان بعد موقعة الزلاقة معتمداً على ما ورد فى مذكرات الأمير عبد الله الزيرى أمير غرناطة (نشرها ليفى بروفنسال فى القاهرة سنة ١٩٥٥) ص ١٠٨ ، وهذا يسمح لنا بتأريخ هذا الحادث بأوائل ١٠٨٨/٤٧٨

البكرى « بقى يقيد كل ما يمر به من الفوائد برهة ، وما لم يقف له من الأبيات على أثر أخلى له بياضاً ، وقد بقى من هذا النوع كثير لم يستطع سد خلله ، أو لم يتسن له ذلك[1] » . فلعل مثل هذا حدث فى هذا الجزء من جغرافيته . وقف به عند سنة ٤٦٠ التى كتبه بها ، ولم يتسن له العود إليه ، فظل كما هو .

ومهما يكن من الأمر فإن مسالك البكرى تعتبر قمة من قمم التأليف الجغرافى فى هذا النوع عند المسلمين ، فقد وصل بهذا الفن إلى درجة من الشمول والاتساع والدقة لم يصل إليها أحد قبله فى الشرق أو الغرب . واتصل على يده التأليف الجغرافى فى الأندلس خطاً متكاملا يخطو كل جيل من الجغرافيين به خطوة . وسيستمر ذلك بعد البكرى على أيدى من جاء بعده .

---

(١) مقدمة سمط اللآلى ، صفحة س .

عبد الله بن ابراهيم بن وزمر الحجارى

يصعب الكلام عن الحجارى مؤرخاً وجغرافياً ، لأن بنى سعيد الذين اتخذوا كتابه « المسهب فى فضائل (أو غرائب) المغرب » أساساً لكتابهم الكبير « المغرب فى حلى المغرب » أحسنوا إليه من ناحية وأساءوا إليه من أخرى : أحسنوا إذ عرفوا فضله وحفظوا اسمه ، وأساءوا إذ خلطوا كلامه بكلامهم وغيروا وبدلوا فيه ، فلم نعد نعرف على وجه التحديد ماذا قال . وربما كان كتاب « المغرب » حالة فريدة فى تاريخ الفكر العربى ، فهو تأليف بالمشاركة ، أو كتاب جماعى ، قام على أصل كتبه الحجارى ثم تبنته أسرة من الأدباء وهواة التأليف ، فأضاف كل منهم إليه ما تيسر له ، فأصبح الكتاب وكأنه قصة شعبية ، لا تعرف كيف كانت أول ما قيلت ولا ما أضيف إليها بتعاقب الرواية والانشاد . نقول هذا مع أن بنى سعيد نسبوا إليه فى كتابهم ما يزيد على ٢٥٠ نقلا ، ولكننا لا نعرف إن كان النقل بحرفه أو مع تعديل وحذف وإضافة . وقد أورد له المقرى فى الفصل الأول الخاص بجغرافية الأندلس من النفح ما يزيد على ٢٠ قطعة كبيرة هى من أحسن ما نقرؤه فى هذا الفصل ، ويندر أن نجد مؤلفاً أندلسياً كتب بعد الحجارى دون أن يشير إليه مما يدل على أن كتابه كان مرجعاً وحجة ، وأنه أضاف إلى المكتبة الأندلسية شيئاً فريداً تميز به عمن سواه ، مما جعل الرجوع إليه والأخذ عنه ضرورة لا معدى عنها لكل من تعرض للتأليف فى أدب الأندلس وجغرافيته وتاريخه .

ويتجلى مما لدينا من المعلومات أن هذا الامتياز لم يقتصر على كتابه بل كان ثمرة من ثمرات شخصيته الفذة وحياته القلقة ، فقد كان الحجارى كبقية

الأفذاذ من أبناء ما بعد الخلافة قلقاً مروعاً جوالا يجوب آفاق الأندلس المتلاشى والعلم يملأ صدره والحسرة تثقل على نفسه ولا يدرى أين يذهب أو أين يستقر له قرار ، وهو من أبناء القرن السادس ، أى من أبناء عصر زاد الحال فيه سوءً عما كان عليه فى القرن السابق ، وقد صور لنا الحجارى حال هذا العصر وبينه فى « المسهب » فى عبارة أوردها المقرى فى النفح ، قال : « وذكر الحافظ الحجارى فى المسهب أنه سأل أبا محمد عبد الله بن ابراهيم عن أفضل من لقى من أجواد تلك الحلبة ، فقال : يا بن أخى ، لم يُقَدَّرْ أن يُقْضى لى الانتصار لهم فى شباب أمرهم وعنفوان رغبتهم فى المكارم ، ولكن اجتمعت بهم وأمرهم قد هرم ، وساءت بتغير الأحوال ظنونهم ، وملوا الشكر وضجروا من المروءة ، وشغلتهم المحن والفتن ، فلم يبق فيهم فضل للافضال ، وكانوا كما قال أبو الطيب :

أتى الزمانَ بنوه فى شبيبته فَسَرَّهُمْ وأتيناه على الهرم

وإن يكن أتاه على الهرم فانا أتيناه وهو[1] فى سياق الموت . . . » . وفى ظلال الموت والخوف والحاجة عاش أبو عبد الله الحجارى وقال ما قال من الشعر وألف ما ألف من الكتب .

ومع أن ما يربو على ثلث كتاب « المغرب » لبنى سعيد مأخوذ عن الحجارى إلا أن المادة التى نجدها عنه فى مخطوطة المغرب التى حققها الدكتور شوقى ضيف صغيرة لا تقدم كثيراً فى تعريفنا به ، ومعظمها مع ذلك يبين فضل بنى سعيد عليه ، فعلى بن سعيد مثلا يسميه « جاحظ المغرب » ويقول : « هو أول من أسمى هذا التصنيف ، وفتح بابه لمن بعده من بنى سعيد ، وقد أطنب والدى فى الثناء عليه من طريق البلاغة نظما ونثراً ومعرفة التصنيف ،

(١) رواه أيضاً دوزى فى Abbadidis, II, 147 برواية ابن الأبار .

وقال فيه : « وَبِمَ أصفه ؟ وقدرة اللسان لا تنصفه . . . » ثم تلى ذلك قصة وروده على جده عبد الملك[١] بن سعيد .

ومن الواضح أن هذه المادة الصغيرة التى احتفظ لنا المقرى بنصها إنما كانت بداية زاد عليها على بن سعيد وتوسع فيما كتب من نسخ المغرب بعد ذلك ، ودليل ذلك أن لسان الدين بن الخطيب أفرد للحجارى مادة أطول وأكثر تفصيلا نسب معظمها إلى على بن سعيد ونص على ذلك[٢] ، وقد نقل هذه المادة بالنص مع (تغيير لبعض الألفاظ) بدر الدين البشتكى فى مختصره للاحاطة المسمى « مركز الإحاطة » وهذا النص الأخير هو الذى نشره دوزى فى « جامع أخبار بنى عباد » نقلا عن مخطوطة[٣] باريس .

وخلاصة كلام ابن الخطيب أن والد عبد الله الحجارى وهو ابراهيم بن وزمر الحجارى كان « أديب مدينة الفرج بوادى الحجارة ، المصنِّف للمأمون ابن ذى النون كتاب « مغنطيس الأفكار فيما تحتوى عليه مدينة الفرج من النظم والنثر والأخبار » .

وقد هاجر عبد الله الحجارى من بلده مدينة الفرج بعد استيلاء النصارى عليها . وقد كان الذى استولى على وادى الحجارة وتوابعها هو ألفونسو السادس ملك قشتاله وليون سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥ فقد صارت إليه هذه الناحية مع غيرها من توابع إمارة طليطلة عند ما تخلى له عنها القادر بن ذى النون فى تلك السنة ، وهذا يعين لنا تاريخ هجرة عبد الله الحجارى من بلده ، ويبدو أنه كان شابا مكتمل التكوين عندما وقع له ذلك ، لأنه وجد طريقه إلى الحياة فى شلب التى هاجر إليها عن طريق الأدب والكتابة .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ، ٢/٣٥

(٢) لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة ، مخطوط أكاديمية التاريخ بمدريد ، ص ٢٣٠ — ٢٣١

(٣) Dozy, *Abbadidis*, II, 141 sqq.

وقد كانت هذه الهجرة بعيدة الأثر فى نفسه ، فقد مضى بعد ذلك يضرب فى نواحى الأندلس لا يستقر فى بلد حتى يشد رحاله إلى آخر حتى اشتهر بالتجول والرحلة ، قال ابن الخطيب : « وله فى التجول أشعار وأخبار » نعم إن هذه الحالة من القلق والرحلة الدائمة كان يشاركه فيها غيره من أهل الأدب والفكر فى ذلك العصر على ما ذكرناه ، ولكنها ظهرت عند عبد الله الحجارى فى صورة قلق عظيم لا يجعله يطيق المقام طويلا فى ناحية واحدة ، حتى لو وجد فيها سلام العيش ورخاءه كما سنرى ، وقد ألقاه هذا الهيام الدائم فى أهوال وأخطار .

لم يطل به المقام فى شاب ، إذ خلفها إلى غرناطة ، ومنها إلى قلعة بنى سعيد المعروفة بقلعة يحصب ، وتعرف اليوم باسم Alcalá La Real وكانت إذ ذاك من « بنات » غرناطة كما يقول ابن الخطيب ، أى من توابعها ، وكان بنو سعيد قد استبدوا بها بعد انتثار أمر الخلافة كما فعل غيرهم من رؤساء النواحى ، وأول من فعل ذلك منهم خلف بن سعيد الذى يرجع نسبه إلى الصحابى عمار بن ياسر ، ثم جاء بعده ابنه سعيد بن خلف ثم ابن هذا أبو مروان عبد الملك بن سعيد بن خلف بن سعيد « وصادف الفتنة على الملثمين ، فامتنع فيها إلى أن تولى لعبد المؤمن ، وخطب له فيها ، وسجنه عبد المؤمن فى مراكش ثم سرّحه ، وجل[1] قدره عنده » .

وعلى أبى مروان عبد الملك بن خلف بن سعيد هذا وفد الحجارى ، ويذكر ابن الخطيب أنه استأذن عليه فى زى موحش[2] [من زى البوادى]

---

(١) المغرب فى حلى المغرب ، بتحقيق الدكتور شوقى ضيف ، ٢/١٦١

(٢) انتقل هذه الفقرة عن كلام ابن الأبار فى الحلة السيراء ، وقد نقلها ابن الخطيب فى الإحاطة . والعبارة الواردة بين حواصر لا توجد فى مخطوط الإحاطة ، ولكنها واردة فى مختصر الإحاطة المعروف باسم مركز الإحاطة لبدر الدين البشتكى ، وقد أورد نصها دوزى : Abbadidis, II, 141

فاستخف به القاعدون ببابه إلى أن لاطف بعضهم وسأله أن يعرف به القائد ، فلما بُلِّغَ عنه أمر بإدخاله فأنشده قصيدة مطلعها :

عليك أحالنى الذكر الجميل فجئت ومن ثنائك لى دليل
أتيتُ ولم أقدِّمْ من رسول لأن القلبَ كان هو الرسولُ

فأكرمه وأحسن إليه ، وأقام عنده سنةً حتى ألف بالقلعة كتابه « المُسهِب فى غرائب المغرب » ثم « انصرف إلى قصد ابن هود بروطة بعد أن أعزله على التحول عنه ، فقال « النفسُ تَوّاقة وما لى بغير التغرب طاقة » ثم قال بيتين شبه نفسه فيهما بالحمام الذى لا يكاد يحط على فنن حتى ينتقل إلى آخر . وهو تشبيه ضعيف ، لأن الحمام من أكثر المخلوقات إلفاً لعشه وحنيناً إلى وطنه .

والمهم أن عبد الله بن ابراهيم الحجارى أقام سنة عند عبد الملك بن سعيد ألف له خلالها كتاب المسهب ، وسنتحدث عنه بعد قليل .

ويذكر على بن سعيد أن الحجارى بعد أن غادر قلعة بنى سعيد صار إلى روطة ، وكانت روطة آخر ما بقى لبنى هود من بلاد الثغر الأعلى بعد سقوط سرقسطة فى يد الفونسو الأول المعروف بالمحارب ملك أرجون فى سنة ٥١٢/ ١١١٨ . فانتقل إليها عماد الدولة عبد الملك بن أحمد بن هود الملقب بالمستعين ، وأقام يحكمها تابعاً لألفونسو المحارب ، ثم توفى فى سنة ٥٢٤/١١٣٠ وخلفه ابنه سيف الدولة أبو جعفر احمد بن عبد الملك بن هود الملقب بالمستنصر ، وظل على ولائه لألفونسو المحارب زمناً ، ثم اختلف معه ووقعت بينهما الحرب ، واستعان احمد المستنصر بن هود على ألفونسو المحارب بمنافسه ألفونسو رايمونديث ملك قشتاله الذى تسميه المراجع العربية بالسليطين ، فارتد طمع ألفونسو المحارب عن روطة ، ولكن احمد المستنصر بن هود أحس أنه عاجز عن الاستمرار فى المحافظة عليها فنزل عنها لملك قشتاله ، ومنحه هذا عوضاً عنها « نصف تطيلة » أو

حصة من مدينة تطيلة[١]. كما تقول مراجعنا العربية ، والواقع أنه لم يعطه إلا بعض الأراضى المجاورة لطليطلة بصفة اقطاع ، فانتقل إليها .

وفى أثناء هذه الخلافات والحرب بين ألفونسو المحارب واحمد المستنصر بن هود ، وصل الحجارى إلى روطة ، ولم يكن هذا الجوّال الدائم الرحلة ليجد بلداً هو أقل من روطة أماناً ، فقد رأينا حال صاحبها مع جيرانه النصارى ، ويبدو أن المستنصر بن هود قربه وأحظاه ، لأنه خرج معه فى إحدى مواقعه مع ألفونسو المحارب ، ومن سوء الحظ أن المستنصر انهزم ، ووقع الحجارى أسيراً فنقلوه إلى بسقاية وهى بلاد البشكنس حيث « بقى يحرك ابن هود بالأشعار ويحثه على تخليصه من الاسار ، فلم يُجْدِ عنده ذمامُه ولا تحرك له اهتمامه[٢] » وهذا طبيعى ، فإن أحمد المستنصر بن هود نفسه كان فى حاجة إلى من يسعفه وينجده ، وقد آل أمره إلى التخلى عن معقله والمسير إلى بعض نواحى طليطلة والاستقرار بها تابعاً اقطاعياً صغيراً على ما قلناه .

فإذا بلغ به اليأس مبلغه من احمد المستنصر بن هود ذكر صاحبه القديم وراعيه عبد الملك بن سعيد فكتب إليه شعراً يستنجده فيه :

أصبحتُ فى بسقاية مسلمَاً	إلى الأعادى ، لا أرى مسلِماً
مكلَّفاً ما ليس فى طاقتى	مصفداً منتهراً مُرْغَماً
أُطلَبُ بالخدمة ، واحسرتى !	وحالتى تقضى بأن أُخْدَما
فهل كريمٌ يُتَرَجَّى لها	إلاك يا أكرمهم[٣] منتمى؟

وانتظر الحجارى أن يأتيه الفرج فلم يأت ، فعاد فكتب إلى عبد الملك ابن سعيد بشعر آخر « فاجتهد فى فدائه فلم يمر شهر إلا وهو قد تخلص من

(١) ابن الخطيب ، الإحاطة ، مخطوط ، ص ١٧١ وانظر بحثنا عن الثغر الأعلى الأندلسى وسقوط سرقسطة ، ص ١١٨
(٢) الإحاطة ، ص ٢٣٠
(٣) الإحاطة ، ص ٢٣٠ — ٢٣١ و Abbadidis II, 142

والشطر الاول من البيت الأخير مكسور. والغالب ان صحته : فهل من كريم يترجى لها.

أسره ، واستقر لديه ، فكان طليق آل[1] سعيد وفيهم يقول . . . » وهنا تنتهى أخبار الرجل ، فلا نعود نسمع عنه شيئاً .

وقد ذكر بونس بويجس أن عبد الله بن ابراهيم الحجارى ولد سنة ٥٠٠ وتوفى ٥٥٠ ه . ولسنا نعلم مصدره الذى اعتمد عليه ، ومن الواضح أن هناك خطأ ظاهراً فى تاريخ ميلاده ، لأنه إذا كان قد غادر مدينة الفرج بعد استيلاء الفونسو المحارب عليها ، فلا بد أنه كان فى قيد الحياة وبل فى سن من يهاجر فى سنة ٤٨٧/١٠٨٥ ، فلو فرضنا أن سنه كانت عشرين سنة إذ ذاك فهو على هذا الحساب من مواليد ٤٦٧/١٠٦٥ أو نحوها ، أما وفاته سنة ٥٥٠/١١٥٥ فممكنة وإن كانت غير مؤكدة ، وقد عاش الرجل برهة قصيرة من عمره فى ظل عبد الملك بن سعيد ، وكان هذا هو الذى افتكه من الاسر ، وقد توفى هذا سنة ٥٦٠/١١٩٤

وإذن فقد عاش الحجارى حياة حَظُّها من الراحة والمتاع قليل ، فقد تشرد فى صدر شبابه عن وطنه واضطر إلى الالتجاء إلى شلب ، وفيها قضى سنوات طويلة يغلب أنها سنوات التحصيل والتكوين ثم التأليف ، فقد وردها بعد سقوط وادى الحجارة أى فى سنة ٤٧٩ أو ٤٨٠ ، وإذا صدق تقديرنا لتاريخ ميلاده بسنة ٤٦٧ فتكون سنه عند ما دخل شلب ١٢ سنة ، ولم يبارحها إلى غرناطة إلا قبيل ٥٣٠ ، وهى السنة التى ورد فيها على عبد الملك بن سعيد ، وقد رأينا ابن الخطيب يقول إن عبد الملك بن سعيد لم يكد يعلم بوصول الحجاري إلى بابه ويعرف اسمه حتى أمر بإدخاله ورحب به ، مما يدل على أنه كان قد سمع به وبمكانه من العلم ، ثم إن على بن سعيد يصفه فى خطبة « المغرب » بأنه « جاحظ الأندلس » ، أى أن الحجارى كان من أهل العلم الواسع الذين يوصفون بلقب الحافظ ، وهذا ظاهر من فقرات كتابه التى بقيت

---

(١) نفس المرجعين السابقين .

لنا ، ثم يقول على بن سعيد : « وصنف له كتاب « المسهب فى غرائب المغرب » فى نحو ستة أسفار ، وابتدأ فيه من فتح الأندلس إلى التاريخ الذى ابتدأه فيه وهو سنة ثلاثين وخمسمائة(١) » ولا يفهم من هذه العبارة إلا إلى أن المسهب كتاب تاريخ للأندلس خلال هذه الفترة الطويلة ، والفقرات الباقية بين أيدينا منه تدل على أنه لم يكن تاريخا صرفا ، بل تاريخا وجغرافية مع تراجم أدباء وشعراء وقطع مما أثر عنهم من النثر والشعر ، ومن هذه الفقرات أيضاً نستنتج أنه كان كتابا ضخما — « مسهبا » كما سماه — يقع فى أجزاء كثيرة يجعلها ابن سعيد ستة أو نحوها ، ومثل هذا الكتاب لا يؤلف فى عام ، والأغلب أنه وضعه فى أكثر من العام بكثير ، وأودعه علمه الواسع وما جمع وحفظ على مر السنين .

فلنلق نظرة على ما يتضمنه كلامه من هذه العناصر الثلاثة — التاريخ والجغرافية والأدب — حتى نعرف مكان الحجارى بين الجغرافيين والمؤرخين ، وإنصافاً له من الحول الذى وقع فيه عند ما أرادت الظروف أن يتناول بنو سعيد كتابه بالتغيير والتبديل والزيادة والحذف ليظهر أخيراً باسم « المغرب فى حلى المغرب » .

وتهمنا هنا الناحية الجغرافية : ينقل المقرى فى نفح الطيب فقرات كثيرة من مسهب الحجارى ، بعضها يتصل بالجغرافية العامة للأندلس وبعضها متصل بأوصاف المدن والنواحى وخواصها ؛ فأما ما يتصل منها بالجغرافية العامة فينفرد به المقرى ، وأما ما يتصل بالنواحى فنجده فى مغرب بنى سعيد ، كل فقرة فى موضعها من ترتيب الكتاب .

ونعتقد أن الفقرات الخاصة بالوصف الجغرافى العام للأندلس كانت أيضاً فى مغرب بنى سعيد ، فى الفصل الناقص من مخطوطته المنشورة المسمى « وشى الطرس فى حلى جزيرة الأندلس » ، فإن ما لدينا من المغرب يبدأ بإمارة الحكم

---

(١) المقرى ، نفح الطيب ، ٩٥/٣

الربضى من الجزء المسمى « كتاب النعم المطربة فى حلى حضرة قرطبة » وقد نبه الدكتور شوقى ضيف ناشر الكتاب على ذلك فى التعليق رقم ١ من صفحة ٣٨ من النص المنشور بقوله : « بهذه الترجمة يبدأ الجزء الحادى عشر من كتاب المغرب ، فهى أول الأوراق التى بقيت من الأندلس فى النسخة التى ننشرها . وبينا فى المدخل أن الجزء العاشر من الكتاب فقد كله ، وهو أول الأجزاء الخاصة بالأندلس ، وفيه كانت المنصة وحديث واسع عن فضائل الأندلس ، ثم القسم الأول من التاج ، ويتضمن ولاة الأندلس الذين اتخذوا قرطبة حاضرتهم ، ثم عبد الرحمن الداخل وابنه هشام ، وفى النفح أكثر هذا الجزء ، نقله المقرى بنصه ، ولم نر إعادة نشره » ونعتقد أن الناقص من المخطوط الذى وصل إلينا هو كتاب وشى الطرس كله ومنصة كتاب الحلة المذهبة فى حلى مملكة قرطبة وجزء من « تاجها » .

وقد استعملت هنا مصطلحى المنصة والتاج مجاراة لبنى سعيد فى تنظيمهم الغريب للمغرب وهو كما يلى على وجه التقريب : المنصة وهى الوصف الجغرافى للناحية أو البلد والتاج وهو يتضمن ذكر حكامه من أمراء أو خلفاء أو سلاطين ووزراء وقواد وعمال وما إلى ذلك ، والسلك ويندرج تحته الكُتاب والشعراء والحلة وهى تتضمن العلماء الذين ليس لهم نظم ولا نثر ، ولا ينبغى إهمال تراجمهم ، والأهداب وهى مختصة بأصحاب فنون الهزل وما ينحو منحاه . وهذا كله مصطلح غريب لا ندرى إن كان صاحبه الحجارى أو بنى سعيد ، وإن كنا نستبعد أن يكون هذا تصور الحجارى الذى يوصف بالبداوة والخشونة ، ونستبعد أيضاً أن يكون من اختراع عبد الملك بن سعيد أو ابنيه أحمد ومحمد أو موسى ابن هذا الأخير ، ويغلب على الظن أنه من ابتكار على بن موسى بن سعيد فقد كان رجلا ذا غرام بالزينة اللفظيه وبهارجها ، ولا نبالغ إذا قلنا إن أحداً من مؤلفى العرب لم يبتكر من الأسامى المسجوعة المزركشة بقدر ما ابتكر هذا « المصنف الأديب الرحال الطرفة الأخبارى العجيب الشأن » كما وصفه ابن الخطيب .

المهم لدينا أن الحجارى وضع أساس ذلك كله ، والأغلب أنه جعل كتابه قسمين : قسما للجغرافية وآخر للتاريخ ، وتحت التاريخ أدرج أخبار الأدب والأدباء والعلم والعلماء على طريقة سنراها بعد قليل .

فأما جغرافيته فكانت تحتوى على كلام عام عن صفة الأندلس وفضائله وهذا هو القسم الأكبر من الجزء الناقص من مخطوطة المغرب المنشورة ، وليس بغريب أن يكون هذا الجزء ناقصاً من مخطوطة وصلت إلينا بخط على بن سعيد نفسه ، لأن هذه كانت نسخة أولى أو مسودة ، عاد على بن سعيد فملأ فراغاتها وتممها فى نسخ أخرى لم تصل إلينـا ، وقد اعتمد المقرى وغيره على بعض هذه النسخ الكاملة وأوردوا منها تلك النقول الطوال التى لا نجدها فى الأصل الذى بين يدينا .

ومن الفقرات التى نقلها المقرى نتبين أن القسم الأول العام من وصف الأندلس من كتاب الحجارى كان يمضى على نفس الخطوط التى مضى عليها الرازى والبكرى ومن أخذ عنهما ، فهو يذكر أن « طول الأندلس من الحاجز إلى المحيط ١٠٠٠ ميل وأن عرضها فى موسطها عند طليطلة ١٦ يوما » ثم يأخذ كلام الرازى وابن حيان عن أركان الجزيرة ، وفى القطعة التى لدينا يتدخل ابن سعيد شارحا أو مفصلا أو مضيفا تفصيلات نقلها عن الإدريسى . ونستطيع أن نقول مثل ذلك عن بقية ما أورده المقرى منسوبا إلى ابن سعيد من الأوصاف العامة للأندلس ، فما كان منه منسوبا إلى مؤلفين سابقين على الحجارى أو غير منسوب أصلا فهو منقول عن كتاب الحجارى ، وما كان منه لمؤلفين بعد الحجارى كالإدريسى والشقندى وابن اليسع وأبى الفضل التيفاشى وغيرهم فهو من إضافات بنى سعيد ، أما ما ينسب إلى مؤلفين عاشوا بعد على بن سعيد فهو من جمع المقرى نفسه وتصنيفه .

وبعد هذا الوصف العام للأندلس يتحدث الحجارى فى مسهبه عن كور الأندلس كورة كورة ، وفى كل كورة يتحدث عن مدائنها وقراها وحصونها ،

وهذه هى « المنصات » التى نجدها فى مغرب بنى سعيد ، وهى المقدمات الجغرافية التى يبدأون بها الكلام عن النواحى ، وهى كما تبدو فى المغرب لا تجرى على نظام واحد ، فهناك مدن كبار لا نجد فى وصفها غير سطر أو بعض سطر ، وهناك قرى أو أرباض نجد عنها الفقرات الطوال، مثل ذلك أنه يقول عن مورور وكانت من أعظم كور الأندلس وأكثرها عمارة ومكانا : « ذكر الرازى أنها اشتملت على[1] فوائد كثيرة » وهى عبارة لا تقدم ولا تؤخر ، وعن أُشونه : « من كور اشبيلية فيما بينها وبين[2] غرناطة » وهى عبارة غير صحيحة على قصرها ، فإن أشونة لم تكن كورة ، بل مدينه كبيرة ، وعن تاكُرُنّا « هى كانت قصبة من الكور ثم خربت[3]» ثم يقول عن طَرَيّانه وهى من ضواحى اشبيلية « هى مدينة ممتدة على شاطىء النهر الأعظم فى مقابلة النصف من حضرة اشبيلية ، وهى مسورة من جهة الصحراء (أى من جهة البر) وفيها الأسواق والحمامات الضخمة ، وقد بنيت على تاج مطل على النهر ، ومناظرها التى من جهة النهر سَنّ فيها المعتمد بن عباد أن تبيض بالكلس ، لئلا تنبو العين عنها ، ومن لا ينهض إلى ذالك فيبنى من جهة الصحراء ، ولا يترك يبنى من جهة النهر ، فجاءت بديعة فتانة المنظر ، أكثر شراجيبها (أى شرفاتها) منقوشة مذهبة تخطف الأبصار ، ويكون فيها من أصناف الطرب فى الليالى القمرية ما هو مشهور فى[4] البلاد » أما عن شذونة ، وهى كورة كبيرة فيقولون : « من أجل كور اشبيلية محرثا وشجراً ومياهاً وماشية ، وهى إلى جانب[5] البحر المحيط » وهى عبارة عامة لا تحديد فيها وفيها خطأ واضح أيضاً ، فى حين يقول عن حصن العُقْبين وهو حصن صغير من توابع قلعة بنى سعيد:

---

(١) المغرب ، ٣١٢/١

(٢) المغرب ، ٣١٧/١

(٣) المغرب ، ٣٣٠/١

(٤) المغرب ، ١٩٣/١

(٥) المغرب ، ٣٠١/١

« حصن من حصون القلعة على وادى فُرجة ونضارة ، أخبرنى والدى أنه كان كثيراً ما يلم به للصيد فى صباه مع أقاربه وأصحابه ، وكان لهم على الوادى قصر جرّوا فيه ذيول الصبا ، وهبوا فى جنباته هبوب الصبا[1] . . . » والسبب فى ذلك التفاوت والتناقض أن بنى سعيد ، وخاصة آخرهم عليّاً ، حوروا المادة الجغرافية التى أخذوها عن الحجارى إلى شىء نستطيع أن نسميه الجغرافية الأدبية أو الفكرية ، فأهمية البلد أو الموضع لا تتوقف عندهم على خصائصه الجغرافية ، بل على من أنجب من الأدباء والشعراء وأهل العلم ، فرب بلد كبير لم ينجب فى رأيهم من هؤلاء ما لا يستحق به إلا سطراً من الوصف ، ورب ضاحية من بلد انجبت عدداً عظيما منهم ، فاستحقت لهذا وصفا طويلا ، وهذا الطول فى الوصف لا يتناول الخصائص الجغرافية الحقيقية ، بل تلك الخصائص التى تهم الكتاب والشعراء : المناظر الجميلة والأنهار وأماكن الفرجة والنزهة وما إليها مما كان يعتبر مواضع للإلهام الأدبى والشعرى .

ولكننا نستطيع أن نتبين من المواد التى بقيت كما كتبها الحجارى أن طريقته تتلخص فى الاتيان بشىء من وصف البلد من الرازى أو ابن حيان (نقلا عن الرازى) وغيرهما ، ثم يورد ما لديه من المعلومات ، وهذه المعلومات على جانب كبير من الأهمية لأنها تعطينا فكرة عن أحوال هذه البلاد وأوضاعها الجغرافية فى الوقت الذى كتب الحجارى فيه ، وهو سنة ٥٣٠/١٠٣٥—١٠٣٦ وما بعدها بقليل . حقيقة أن بنى سعيد غيروا وبدلوا فيما كتب الحجارى ، وأضافوا من عندهم أشياء كثيرة ، ولكننا نستطيع بالرجوع إلى تواريخ الحوادث أن نفرق بين ما وقع إلى أيام الحجارى ، وما جد بعدها ، وعلى أى حال فإن الصورة الجغرافية للأندلس كما تبدو فى كتاب المغرب هى صورته خلال النصف الثانى من القرن السادس الهجرى على وجه التقريب ، فإن ميزان

---

(١) المغرب ، ٢/١٨٥

القوى بين الإسلام والنصرانية فى الأندلس لم يختلف كثيراً خلال القرن السادس الهجرى إنما وقع الاضطراب الشديد بعد موقعة العقاب سنة ٦١٩/١٢١٢ وكان على بن سعيد قد غادر الأندلس ، ولم يدخل على الكتاب من هذه الناحية الجغرافية تعديل على ما أثبته أبوه موسى .

ومن الواضح أن هيكل كتاب المغرب هو نفس الهيكل الذى وضعه الحجارى للمسهب ، فإن على بن سعيد لم يقل إن جده عبد الملك أعاد تنظيم الكتاب ، بل قال بعد أن ذكر تأليف الحجارى للمسهب : « ثم ثار فى خاطر عبد الملك (ابن سعيد) أن يضيف إليه ما أغفله الحجارى ، وتولع بمطالعته ابناه أبو جعفر ومحمد ، وأضافا له ما استفاداه ، ولم يزل يزيد إلى أن استبد به محمد ، فاعتنى به أشد اعتناء ، ثم استبد به والدى . وكان أعلمهم بهذا الشأن . . . » وليس فى هذا كله إشارة إلى وضع نظام جديد للكتاب ، بل مجرد زيادات وإضافات ، والواقع أن تصنيف هذا الكتاب على أساس التوزيع الجغرافى للأعلام وأهل الأدب شىء طريف مبتكر ، فهو أشبه بخريطة أدبية للأندلس إلى أيام موسى بن سعيد ، وهنا موضع الأهمية بالنسبة لبحثنا هذا ، وما دام الكتاب يشير إلى ما أصاب كل بلد يذكره إلى أيام موسى بن سعيد فأمامنا خريطة جغرافية للأندلس فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى والنصف الأول من السابع ، وهى وثيقة ذات قيمة عظمى فى هذا الشأن .

وإذا كنا قد انتهينا إلى أن الحجارى هو صاحب الفضل فى رسم هذه الخريطة ، وأن بنى سعيد لم يفعلوا أكثر من تجويدها وإكمالها وإضافة ما فات الحجارى من الأعلام فى هذه الناحية أو تلك أو ما سقط من البلاد فى يد النصارى بعد أيام الحجارى فلنأخذ كلام على بن سعيد فى مقدمة « المشرق فى حلى المشرق » شارحاً لمنهجه فى تأليفه على أنه شرح للطريقة التى رسمها الحجارى لتأليف « المسهب » فهو يقول : « كل من التصنيفين مرتب على البلاد ، متى ذُكر بَلَدٌ ذَكَرْتُ كُوره ، وأتكلم عليه وعلى كل كورة منه ،

وابتدىء بكرسي مملكتها وقاعدة ولايتها بحسب مبلغ [علمى] من إعلام بمكانها من الأقاليم ، ومن بناها وما يحف بها من نهر أو منزه أو خاصة معدنية ونباتية ، ومن تداول عليها من أبناء الملوك أولى التواريخ التى لا يجب إغفالها ، ثم تأخذ فى الطبقات واحدة بعد أخرى ، وهى خمس . . . »[1] أى أن خطة الكتاب الأساسية هى أن يكون كتاب تقسيم جغرافى أولا وعلى هذا الأساس الجغرافى يقوم كل شىء بعد ذلك ، وهذا طبيعى من رجل رحالة طلعة مثل الحجارى .

ولكن الحجارى لم يضع هذا التقسيم الجغرافى على أساس الأوضاع الجغرافية السياسية الخاصة بأيامه ، بل وضعه على أساس أقسام الأندلس الكبير بحدوده أيام الخلافة ، وهو معذور فى ذلك ، إذ أنه لو اقتصر على أندلس القرن السادس لأسقط أدباء وعلماء كثيرين ينتسبون إلى نواح كانت قد ضاعت فى ذلك الحين ، ولا نلاحظ عنده من معالم التقسيم الجغرافى الذى جدّ بعد سقوط الخلافة إلا تقسيمه الأندلس إلى موسطة وشرق وغرب ، وهو تقسيم ظهر أولا عند ابن بسام ، وهو تقسيم نظرى صرف ، أى لم تكن تقابله حقيقة سياسية ، ويبدو أن المرابطين اتخذوه أساساً فى التعيينات فى الوظائف الكبرى ، فمن الثابت أنه كان لهم قائد لجيوشهم فى شرق الأندلس ، وقاضى قضاة خاص بهذا القسم ، ولسنا متيقنين مما إذا كان هنالك قائد أو قاضى قضاة للغرب أو للموسطة ، فذلك رهين بالعثور على أصول لتاريخ المرابطين أوسع وأدق ما لدينا . وقد عوضنا الحجارى عن إهماله للوضع فى أيامه بملاحظات طيبة أضافها إلى ما نقل من الأوصاف الجغرافية عن القدماء ، ثم أكملها بنو سعيد وهى ملاحظات تعين على تصور الأوضاع فى منتصف القرن السادس وأوائل السابع الهجريين ، فنحن نقرأ مثلا عن رندة مثلا : « كورة خصبة ، كانت أولا

---

(١) رواه الدكتور شوقى ضيف فى مقدمة تحقيقه المشكور للمغرب : ٩/١

من كور قرطبة ثم صارت فى الأخير من كور اشبيلية وفيها مزارع القطن كثيرة »[١] وعن رَمَادَه : « إنها من قرى شلب »[٢] وعن قرية الزاوية : إنها « من أعمال أونبة وينسب إليها بنو حزم »[٣] ويضيف على بن سعيد فى بعض الأحيان إلى مصطلحه القائم على حلية العروس (المنصة ، التاج ، السلك . . . الخ) مصطلحاً يسميه « البساط » وهو يريد البساط الذى تمشى عليه العروس حين زفافها ، والمقصود به هنا زمام البلد ، فيقول مثلا فى بساط أونبة : « غرب من مدينة لبلة إلى جهة البحر ، وهى قاعدة عملها »[٤] .

وبهذه المناسبة نذكر أن المصطلحات الإدارية التى تستعمل فى ذلك الكتاب اعتبارية صرفة لا يمكن التعويل عليها ، فهو لا يستعمل فى دقة مصطلحات مثل كورة ومملكة وقرية وحصن ، وقد حاولت أن أتبين له قاعدة فى هذه الناحية فلم أستطع ، وقد كان من المنتظر من رجال تولوا القيادة والحكم والإدارة كعبد الملك بن سعيد وموسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد أن يضيفوا ما فات الحجارى الأديب فى هذه الناحية ، ولكن يبدو أن النزعة الأدبية غلبت على ما عداها فى تصنيف ذلك الكتاب ، ومن ثم فقد استعملت الألفاظ بمعانيها الأدبية لا الإدارية ، وليس أدل على ذلك من قولهم عن بلد مثل شلب « هى[٥] عروس » ويريدون أنها قاعدة لها زمام وتوابع ، ومثل ذلك قولهم عن كثير من المواضع ، أنها « حالية » والمراد عروس حالية لها منصة وتاج وسلك وحلة وأهداب .

والخلاصة أن الحجارى فى مسهبه أضاف تفصيلات جغرافية كثيرة إلى ما وجدناه عند سابقيه من الجغرافيين ، وإضافاته نتيجة مشاهداته وملاحظاته ،

---

(١) المغرب ، ١/٣١٠
(٢) نفس المصدر ، ١/٣٩٢
(٣) نفس المصدر ، ١/٣٥٤
(٤) نفس المصدر ، ١/٣٣٩
(٥) نفس المصدر ، ١/٣٨٠

فقد كان رحالة طلعة زار جانباً كبيراً من نواحى الأندلس وأثبت بعض ما رأى ، وهو لا يصل فى هذه الناحية إلى شأو العذرى ، ولا يقارن بمعاصره الشريف الإدريسى ، ولكن دارس جغرافية الأندلس الإسلامى لابد أن يجمع ملاحظاته وإضافاته كلها معاً حتى تكتمل لديه الصورة التى يريد رسمها .

وحسب الحجارى أنه حدد معالم ما سميناه بالجغرافية الأدبية أو الفكرية وسار بها شوطاً بعيداً نحو الجغرافية بعد أن كان ابن بسام قد بدأ بها على أنها مجرد تقسيم للتسهيل والتيسير . وإذا كنا نجمع أطراف ما لدينا من جغرافية الرازى فإن مسهب الحجارى يعتبر من المراجع الرئيسية لهذه الجغرافية . ولو أننا وجدنا الفصل الأول من مغرب بنى سعيد المسمى « وشى الطرس فى حلى جزيرة الأندلس » لاستطعنا أن نعطى صورة أوفى عن الحجارى الجغراف ، ولو أن بنى سعيد تركوا كلامه على حاله ثم أضافوا ما أرادوا لكان ذلك أشبه بمقام الرجل وأقرب إلى إنصافه ، ولكنه رغم ذلك كله يحتل مكانا مرموقاً فى تاريخ الجغرافية فى الأندلس .

وقد أطلت الوقوف عند عبد الله بن ابراهيم الحجارى ، لأنه باعتراف بنى سعيد أنفسهم صاحب الفصل الأول فى كتابهم المشهور الذى يعتبر من أحسن ما لدينا من المراجع عن تاريخ الأندلس وحضارته ، وقد كانت مشاركتهم إياه فى كتابه داعية إلى التقليل من شأنه ومن مكانه فى تاريخ الفكر الأندلسى ، مع أنه كما رأينا صاحب طريقة ومنهج ومبتدعُ لون طريف من ألوان التأليف الجغرافى والتاريخى والأدبى فى الأندلس .

الشريف الادريسي

قمة علم الجغرافية عند المسلمين

فى تاريخ الفكر الأندلسى يمثل القرن الممتد من ٤٥٠ إلى ٥٥٠ هجرية (١٠٥٨ — ١١٥٥ ميلادية) حقبة متميزة بخصائصها عما سبقها أو لحقها من مراحل هذا التاريخ العامر بالفتوح الفكرية . فخلال هذه الأعوام المائة وصل التأليف فى شتى ضروب العلوم فى الأندلس إلى ذروته ، وإذا نحن درسنا ما ظهر من الأعمال قبلها تبينا أنها تمهيد أو خطوات نحو النضوج الذى ظهر خلالها ، وما ظهر بعدها كذلك كان نسجاً على طراز ما ظهر فيها ، فيما خلا استثناءات لا تضعف هذا الرأى ، وفى موضوعات الإنتاج الفكرى لا يمكن إصدار أحكام جامعة مانعة ، إنما هى محاولات للتأريخ لجانب من جوانب النشاط البشرى قلما يخضع لقاعدة مطلقة أو حكم لا يقبل الاستثناء .

والخصائص المميزة للانتاج الفكرى الأندلسى خلال هذا القرن هى : التجويد والإحكام فى التأليف ، ثم وفرة الإنتاج المنسوب إلى كل عَلَمٍ من الأعلام ، وتكامل الجهود فى شتى ضروب العلم حتى لا يكاد يخلو ضرب منه من مؤلفات مجيدة تعتبر معالم واضحة فى تاريخه كله . وخلال هذا القرن أيضاً نرى كيف وصلت الرسائل المختصرة التى تكتب فى موضوع بعينه إلى ذروة لم تعرفها هذه الرسائل قبل ذلك ، ونلاحظ اتجاهاً واضحاً نحو التخصص .

ولقد عرف تاريخ الفكر الإسلامى التخصصَ من زمن بعيد ولكن فى ميادين معينة كالفقه والحديث واللغة وعلوم القرآن ، أما التخصص فى غير هذه العلوم كالجغرافية والفلسفة والطب والنبات والعقاقير وما إليها فهو الجديد فى الأندلس خلال هذه الفترة . حتى العلوم التى عرف الأندلسيون الانقطاع لها قبل هذه الفترة نجد التخصص فيها يصل بها إلى ذروات لم تعرفها قبلها أو بعدها ، ورجال مثل أبى محمد على بن حزم وعياض بن موسى بن عياض وأبى الوليد الباجى وأبى عمرو الدانى وأبى عمر يوسف بن عبد البر النمرى وابن سيدة المرسى يعينون دون نزاع المرقاة العليا التى وصل إليها الفكر الأندلسى فى الفقه وعلوم الدين والحديث واللغة فى الأندلس .

ومن المعروف أن الإزهار الأدبى فى أندلس القرن الخامس وما تلاه كان ثمرة غراس عصرى الإمارة والخلافة ، وخلال القرن الرابع على الخصوص ، عند ما استقرت أمور الأندلس استقراراً كاملاً وسادها الأمن والنظام والعدالة قرابة قرن متصل من الزمان ، نشطت النفوس خلاله فتفتحت الآمال ، وانصرف الراغبون فى العلم إلى الدرس والتحصيل ، واستقرت أصول العلم ومراكز الدراسة وانتشرت حلقات الشيوخ وكثرت الكتب فى أيدى الناس ، وأطل القرن الخامس والناس آمن ما يكونون ، تتطلع نفوسهم إلى مستقبل أحفل بدواعى الاجتهاد فى العمل والطلب ، فإذا بهم فى هذا الاطمئنان إذ وقعت الواقعة بغتة ، وانقلب كلُّ شىء رأساً على عقب ، وتفرقت الجماعة وانتشبت الفتنة وصوّحت الآمال . وقدجرفت العواصف أهل العلم والأدب ، وآذتهم أذى شديداً ، فانزوى بعضهم من أول الأمر وانصرف إلى درسه ، واجتهد آخرون فى تلافى الكارثة ، ثم أدركهم اليأس فاعتكفوا هم الآخرون . وخلال النصف الثانى من القرن الخامس ، وهى حقبة قصيرة شهدت كارثة طليطلة وزوال ملك معظم أمراء الطوائف واجتماع ما بقى من الأندلس تحت راية المرابطين ، أصبح انصراف

أهل العلم إلى علمهم وابتعادهم عن السياسة وأهلها هو القاعدة التي اتبعتها الأغلبية ، وعلى آثارهم سار من خلفهم من تلاميذهم .

ومعنى ذلك أن العلم أصبح يدرس للعلم نفسه ، فيما عدا ما تدعو إليه مطالب العيش من قبول وظائف القضاء والكتابة دون أن يكون ذلك صارفاً عن الدرس والتأليف . وما دام العلم يطلب لذاته فقد انصرف كل عالم إلى ما أحب ، وأعان على ذلك ضعف أصحاب السلطان وانشغالهم بالحروب والأخطار المتلاحقة ، فأقبل أهل العلم على ما تهوى إليه نفوسهم من ضروبه دون حرج ، ومن هنا ظهر التخصص والتجويد لا في العلوم الأساسية التقليدية بل في غيرها أيضاً ، فنجد أنفسنا أمام عدد كبير من العلماء انقطعوا انقطاعاً تاماً إلى الفلسفة والجغرافية والطب والعقاقير والفلك وما إليها ، ووصلوا بها — نتيجة لهذا الانقطاع — إلى ذروتها العليا .

بهذا يكون ظهور الشريف الإدريسي وتخصصه في الجغرافية وانصرافه إليها عمره كله معقولا ومفهوماً ، ولو لم تكن الظروف التي ذكرناها — وأرجو أن يكون الاستقراء هنا صحيحاً — لما كان من الممكن أن ينصرف رجل كالإدريسي إلى الجغرافية هذا الانصراف الكامل الذي يجعل منه بحق أول جغرافيّ متخصص في هذا الفن في التاريخ ، ولقد فاق في ذلك الميدان بطلميوس وزاد عليه ، فقد كان هذا الأخير فلكياً رياضياً ، وكان اشتغاله بالجغرافية تطبيقاً لما درس من الفلك والرياضة ، أما الإدريسي فجغرافي خالص ، وهب نفسه لهذا العلم وأخرج فيه ما لم يخرجه عالم قبله ، ورفع الجغرافية بذلك إلى مصاف العلوم الكبرى ، وهذا فيما أعتقد هو الذي يحدد مكانة هذا العالم الفذ في تاريخ الفكر الإنساني قاطبة .

وليس بين الجغرافيين العرب من طارت شهرته مطار الشريف الإدريسي ، ولم يظفر واحد منهم بجزء مما ظفر به من دراسات ، فقد عُنِي كل بلد بنشر

ما كتبه الإدريسى عنه فى كتابه الأشهر « نزهة المشتاق » وترجَمَتِهِ إلى إحدى اللغات الحية والتعليق عليه ، وتخصص فى الدراسات الإدريسية نفر كبير من الباحثين فى الغرب ، ولكننا لا زلنا إلى الآن بالنسبة للرجل وكتابه فى نفس الموقف الذى كنا فيه من نحو ثلاثين سنة . لا زالت المشاكل الرئيسية المتصلة بترجمة حياته وتكوينه الجغرافى دون حل ، ولا زال موضوع مصادر معلوماته غامضاً مبهما كما كان ، فيما عدا بعض الفروض والاستنتاجات التى وصل إليها نفر من الباحثين من أمثال ميكيلى أمارى وكونراد ميلر وجويسيبى فورلانى وتادُويْتْسْ ليفيكى وسيزار دوبلر وفلهلم هونرباخ ، وهى افتراضات واستنتاجات لا تستند على دليل ثابت أو سند صحيح من نص كلام الإدريسى أو مَن كتبوا عنه من المسلمين ، وسنعرض لها فى مكانها من هذا البحث .

والسبب الرئيسى فى ذلك أن كل ما لدينا عن حياة الإدريسى لا يخرج عن سطور قليلة أدارها عليه حاجى خليفة فى كشف الظنون وصلاح الدين خليل ابن أيبك الصفدى فى الوافى بالوفيات والعماد الأصفهانى فى الخريدة . وفيما عدا هذه السطور لم يظفر الإدريسى بترجمة مفصلة فى أىّ من كتب التراجم فى المغرب أو المشرق ، وقد رد نفر من الباحثين هذا الإهمال إلى أن المسلمين أغفلوا ذكر الإدريسى لأنهم لم يرضوا عن اتصاله بملك نصرانى ودخوله فى خدمته[١] ، وذلك غير صحيح ، لأن ذلك لم يقلل من قدر الإدريسى فى نظر أهل العلم عندنا ، ولقيت كتبه من التقدير عند علماء العرب ما هى جديرة به ، فلا يخلو كتاب جغرافية كتب بعده من ذكره ، واختصته كتب المختارات الأدبية والموسوعات الكبرى بمديح طويل وأكثرت النقل عنه . أما خلو معاجم التراجم من ذكره فيرجع إلى طبيعة حياته نفسها ، فهذا رجل قضى معظم

---

(١) صاحب هذا الرأى هو المستشرق اتيين كترمير فى مقال نشره فى « صحيفة العلماء » *Journal des Savants* مجلد سنة ١٨٤٣ ص ٢١٤ — ٢١٥

عمره سائحاً جوالا أو مغترباً عن بلاد المسلمين ، وربما يكون قد مات فى الغربة أيضاً كما سنرى ، فلم يقع أصحاب التراجم على سيرته وتفاصيل حياته ، أما كتابه فيكفى للدلالة على ذيوعه أن لدينا من مخطوطاته الجيدة الكاملة قرابة العشرة ، خلا القطع والأجزاء التى لا تخلو منها مكتبة كبرى فى الشرق أو الغرب .

والوقائع الثابتة لدينا من حياة الإدريسى قليلة جداً ، وبعض هذا القليل لا يستند إلى أساس متين يمكن أن نطمئن إليه تماماً ، فالشائع عند أهل العلم أنه ولد فى سبتة سنة ٤٩٣/١١٠٠ وأصل هذا القول عند ميخائيل الغزيرى ، فقد ذكر ذلك التاريخ فى الفهرس الذى وضعه لمخطوطات الاسكوريال دون أن يعين المرجع الذى استند إليه[1] ، وأنه كان يتجول فى المشرق سنة ٥١٠/١١١٦—١١١٧ وأنه أتم كتابه سنة ٥٤٨/١١٥٣—١١٥٤ وتوفى سنة ٥٦٠/١١٦٤—١١٦٥ ؛ وهذا التاريخ الأخير مرجعه إشارة أوردها الحسن الوزان المعروف بليون الإفريقى فى وصف رحلته ، وقد عاش الحسن الوزان بعد وفاة الإدريسى بثلاثة قرون ، وإشارته مع ذلك غير واضحة كل الوضوح[2] . ويمكن أن يضاف إلى هذه التواريخ الأربعة خامساً نستنتجه من كلام الإدريسى ، فقد ذكر أنه أنفق ١٥ سنة فى تأليف كتابه ، ومعنى ذلك أنه بدأ عمله العلمى الكبير فى صقلية سنة ٥٣٣/١١٣٨—١١٣٩ ، ومن الممكن أن يكون هذا هو تاريخ وفوده على صقلية ودخوله فى خدمة رجار الثانى .

---

(١) Casiri, *Biblioteca Arabico-Hispana Escurialensis*, II, 13.
والنظر مقدمة الترجمة الفرنسية للقسم الخاص بالمغرب والأندلس وجزء من مصر :
R. Dozy et M. J. de Goeje, *Description de l'Afrique et de l'Espagne*, Leyde, 1866, p. III.
وسنشير إلى هذه الترجمة كما يلى : Dozy, *Espagne*...

(٢) Cf. Michele Amari, *Storia dei Musulmani di Sicilia* (Firenze, 1872) IV, p. 665, n. 3.

وقد ذكر الحسن الوزان أن الوفاة كانت سنة ٥١٦ هجرية ، ولاحظ البارون دى سلان أن هذا التاريخ لا بد أن يكون مصحفاً ، وأن صحته فى الغالب ٥٦٠/١١٦٤—١١٦٥ ، وهذا هو الأساس الذى نستند إليه فى القول بأن الإدريسى توفى فى هذه السنة . والحسن الوزان ولد سنة ٨٩٣/١٤٨٧—١٤٨٨ . وتوفى حوالى ٩٤٤/١٥٣٧ ، أى أن بينه وبين الإدريسى أكثر من ثلاثة قرون .

وما عدا ذلك من وقائع حياته التى يذكرها مترجموه إنما هى استنتاجات وفروض ، فقد ذهبوا إلى أنه أقام فى قرطبة ودرس فيها ، بدليل أنه وصفها وصفاً دقيقاً وأورد لمسجدها وصفاً لا يصدر إلا عمن عاينه بنفسه ، وهذا التقدير صحيح ، لأن ذلك الوصف فريد فى بابه لا نجده عند واحد ممن سبق الإدريسى من الجغرافيين والكتاب ، وقد نقله عن الإدريسى بعد ذلك نفر ممن أتوا بعده ، وأصبح من الأصول التى لا يستغنى عن دراستها من يعنون بدراسة تاريخ العمارة الأندلسية .

ولكن هذه الطريقة فى الاستنتاج ليست مأمونة دائماً ، فقد ذهب رينو فى تعليقاته على ترجمته لجغرافية أبى الفدا إلى أن الإدريسى زار شمال غربى فرنسا المعروف ببريطانيا وجنوبى انجلترا مستندا إلى وصفه الدقيق لهاتين الناحيتين[١] ثم تبين بعد ذلك أنه لم يزر أيا منهما ، بل اعتمد فى وصفها على أقوال نفر من أهلها ، وفى دراستى لوصف مصر فى « نزهة المشتاق » تبينت اضطرابا واضحاً فى تحديد المواقع مع أن الثابت أن الإدريسى زار مصر وأقام فيها . أى أن دقة الوصف ليست دائماً دليلا على المشاهدة الشخصية ، وانعدامها ليس دليلا على أن الإدريسى لم يكن فى الموضع وفى حالات قليلة جداً كان الوصف الدقيق دليلا على المعاينة الشخصية ، كما أثبت ذلك رامزى وتوماتشيك فيما يتصل بجزء الإدريسى الخاص بآسيا الصغرى[٢] وكما يتبين بوضوح من كلام

---

(١) M. Reinaud, *Géographie d'Aboulféda,* tome I, *Introduction générale à la geógraphie des oreintaux,* Paris 1848, pp. CXIII-CXXII, CCCX-CCCXVI.

César A. Dublen, *Los Caminos a Compostela en la Obra de Idrisi,* al-Andalus, XIV, 1949, fasc. 1, p. 70, n. 3.

(٢) W. M. Ramsay, *The historical Geography of Asia Minor* in *Royal Geographical Society,* Supplementery papers, IV, London, 1890.

Wilhelm Tonaschek, *Zur historischen Topographie von Kleinasien im Mittelalter* Apud *Sitzungsberichte der Kais. Akademie der Wissenschaften in Wien* (phil-hist. Classe), 124 (1891).

وانظر لنفس المؤلف أيضاً :

Zur Kunde der Hámus - Halbinsel - Die Handelswege im 12. Jahrhundert Nach der Erbundigungen des Arabers Idrisī Apud *Sitzungsberichte der Philosophisch- Historischen Classe der Kais. Akademie der Wissenschaften,* vol. 113, Vienna, pp. 275-373.

الإدريسى على صقلية وسواحل إفريقية القريبة منهـا والجزء الجنوبى من شبه الجزيرة الايبيرية ، ففى هذه الأجزاء يتجلى أن الوصف الدقيق دليل المشاهدة الشخصية، ولا غرابة والحالة هذه أن تكون هذه الأجزاء بالذات أحسن جغرافية الإدريسى كلها .

لهذا كله لا بد من التحفظ فى الاستنتاج من النص ، حتى لا تختلط الحقائق الواضحة بالفروض والتصورات فى حياة رجل له مقام الإدريسى . فمن الأقوال الشائعة مثلا أن الإدريسى ابنٌ لإدريس العالى سابع الخلفاء من بيت بنى حمود ، وهو خطأ واضح لأن إدريس هذا توفى سنة ٤٤٤/١٠٥٢ — ١٠٥٣[١] فلا يمكن أن يولد له ولد سنة ٤٩٣/١١٠٠ . ومن الممكن تفسير هذا القول على أنه من أحفاد إدريس العالى هذا ، ويؤيد ذلك أن اسم الإدريسى ورد فى مخطوطة أوكسفورد : « أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس أمير المؤمنين العالى بأمر الله » .

وإدريس العالى هذا من أواخر الأدارسة الحموديين الذين أوضعوا فى الفتنة الأندلسية الكبرى عقب انتثار عقد الخلافة الأندلسية وكان لهم فيها دور غير محمود ، فقد هجم جدهم علىّ بن حمود بن ميمون بن أحمد بن على بن عبيد الله بن عمر بن إدريس بن إدريس على الخلافة فى آخر دولة سليمان بن الحكم المستعين الثانية ، وادعى أن هشاماً المؤيد عهد إليه بها سراً ، واتخذ لقب الناصر لدين الله وبدأ بداية حسنة ، ولكن أمره لم يلبث أن اضطرب وتخلى عنه أنصاره ونفرت منه الأحزاب المتنافسة حول الخلافة ، وانتهى أمره بأن قتله نفر من غلمانه فى الحمام أول ذى القعدة سنة ٤٠٨ الموافق أول يوليو ١٠١٨[٢] ثم توالى على طلب الخلافة نفر من أهل بيته ، ادعى منهم الخلافة وحمل ألقابها ثمانية منهم ، لا يكاد الواحد منهم يظهر على مسرح

---

(١) ابن القطان ، برواية ابن عذارى ، البيان المغرب ، ٣/٢١٧

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ٣/١٢١ — ١٢٤

الحوادث حتى يختفى قتيلا أو هاربا أو معزولا ، وإدريس العالى هذا سابعهم ، ويعرف بإدريس الثانى ، وهو ابن يحيى المعتلى وحفيد على الناصر لدين الله الذى ذكرناه ، نادى بنفسه فى ٦ جمادى الثانية ٢١/٤٣٤ يناير ١٠٤٣ فى مالقة ، ولم يلبث أن قام عليه ابن عمه محمد بن إدريس المتأيد بن على الناصر لدين الله فى شعبان ٤٣٨/ فبراير ١٠٤٦ ، ففر إلى سبتة لاجئاً إلى سوّاجات البرغواطى ، وكان من رجال بنى حمود هؤلاء يتولى لهم سبتة ، وسواجات هذا هو الذى يسمى أيضاً سقوت أو سكوت ، وقد أصبح هو الآخر أميراً من أمراء الطوائف ، ولكن على سبتة ، وكان له دور كبير فى الفتنة إلى أن قضى عليه المرابطون . وأصله غُمارى ثم دخل فى قبيلة برغواطة ، وهذا يعلل صلته بآل حمود الإدريسيين ، لأن دولة الأدارسة قامت في دورها الثاني على أكتاف قبيلة غمارة[(1)] .

المهم لدينا هنا أن إدريس العالي هذا لجأ إلى سواجات إلى أن مات سنة ٤٤٤ كما قلنا ، ولا يستبعد أن يكون نفر من أولاده ظلوا فيها منصرفين إلى مطالب العيش بعيداً عن السياسة ومتاعبها . ولاشك أن حياتهم كانت قلقة غير آمنة طالما عاش سواجات ، فقد كان رجلا قاسياً أنانياً ، قتل إدريس بن يحيى الثانى الملقب بالقائم بن إدريس الحمودى الأول الملقب بالمتأيد فى سنة ٤٤٤/١٠٥٢—١٠٥٣ ، وإدريس هذا هو المعروف بالثالث وهو تاسع من تلقب بالخلافة من الأدارسة الحموديين وآخرهم[(2)] ، وكان سواجات حريصاً على أن يعفى آثار هذا البيت حتى يستقيم الملك له ، وقد انفرد بالأمر فعلا ابتداء من سنة ٤٥٣/١٠٦١ وخلفه ابن له يسمى سواجات أو سقوت أيضاً وتلقب بعز الدولة ، وظل إلى أن قضى عليه المرابطون[(3)] . وتحت سلطان هؤلاء فى سبتة ولد الشريف الإدريسى ، فهو على هذا أندلسى مغربى ، ومن هنا كان مكانه

---

(١) ابن خلدون.

(٢) جمع الأستاذ سيكو دى لوثينا أخبار أولئك الحموديين فى رسالة صغيرة عظيمة الفائدة :
Luis Seco de Lucena, *Los Ḥamūdíes de Málaga y Algeciras*. Málaga, 1955.

(٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٣/٢٥٠

بين أهل الجغرافية فى الأندلس ، وسنرى بعد قليل أنه درس فى الأندلس بعد أن درس فى المغرب ، وأن تكوينه الجغرافى استمرار للتقليد الأندلسى الذى نؤرخ له .

ولا نعلم شيئاً عن الادريسى حتى سنة ٥١٠ /١٠١٦ — ١١١٧ ، فقد كان فى ذلك العام فى آسية الصغرى كما تدل عليه إشارة له فى نزهة المشتاق ، وكانت سنه إذ ذاك — إذا صح أن تاريخ ميلاده سنة ٤٩٣ — سبع عشرة سنة هجرية ، وإننا لنتساءل هنا كيف كان فى آسية الصغرى فى هذه السن الباكرة ؟ إذا كان قد خرج من المغرب الأقصى لطلب العلم أو الحج ، أليس من المنطق أن يكون قد ذهب إلى مصر والحجاز والشام قبل أن يصل إلى آسية الصغرى ؟ أو هل يكون المركب الذى استقله قد أرسى به فى إحدى موانى آسية الصغرى ، فمر بناحية اضنه التى يقول إنه شهدها بنفسه سنة ٤١٠ ومن هناك توجه إلى بقية بلاد المشرق ؟ ، وحتى لو استقام هذا الفرض الأخير ، فإن معناه أنه بارح المغرب الأقصى وسنه ١٥ أو ١٦ سنة هجرية ، ولا يصح تبعاً لهذا أن يكون قد درس دراسة واسعة فى المغرب الأقصى ، ثم خرج إلى المشرق وحده للاستزادة من العلم ، لأن العلم الواسع لا يحصل فى هذه السن الباكرة ، ولا يعقل خروج شاب صغير مثله إلى المشرق إلا إذا كان ذلك فى صحبة أبيه أو نفر من آله كما حدث للعذرى ، ونحن هنا أمام أحد أمرين : اما أن نقبل فرضاً كهذا أو نشك أصلا فى تاريخ مولده كما ذكره ميخائيل الغزيرى ، وربما كان هذا الحل الأخير أقرب إلى المعقول .

ويذهب سيزار دوبلر وعبد الله كنون إلى أن الإدريسى أقام فى رحلته المشرقية هذه سنتين[1] ، أى أن سنه عند العودة كانت دون العشرين ، وهذا

---

(١) César Dubler, *Los Caminos a Compostela en Idrīsī*, al-Andalus, XIV, 1949, fasc. 1, p. 70.

وسنشير إلى هذا البحث هكذا : Dubler, *Compostela*...

عبد الله كنون ، الشريف الإدريسى ، سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب ، رقم ٢٤ ، تطوان ، بدون تاريخ ، ص ١١

أيضاً رأى ضعيف ، فان الإدريسى قال عند عودته من المشرق أبياتاً من الشعر تجعلنا نستبعد عودته فى هذه السن :

إن عَيْباً على المشارق أن أر جع عنها إلى ذيول المغارب
وعجيب يضيع فيها غريب بعدما جاء فكره بالغرائب
ويقاسى الظما خلال أناس قسموا بينهم هدايا السحائب

فهذه شكوى لا تصدر عن شاب دون العشرين بعد سنتين قضاهما فى المشرق ، فماذا كان يريد أن يبلغ وهو بعدُ دون العشرين ؟ وأى غرائب هذه التى جاد بها ذهنه ولم يقدرها الناس ؟ هذه شكوى لا تصدر إلا عن رجل أقام فى المشرق فأطال الإقامة ، ودرس وحصل الكثير وجاء ذهنه بالغرائب ثم لم يجد من الناس تقديراً ، ولهذا كله فاننا مضطرون إلى القول — تمشياً مع المنطق — إن إقامته فى المشرق طالت أكثر من هاتين السنتين ، وإنه عندما أخذ طريقه إلى المغرب يائساً من إدراك شىء فى المشرق كان فوق سن العشرين بكثير ، ربما كان يقارب الثلاثين ، وهذا هو المعقول بالنسبة للنضج الذى سنراه عليه بعد قليل .

ثم إن الإدريسى لم يطلب فى المشرق تلك العلوم التى كانت تفتح لأصحابها الأبواب كالفقه والحديث واللغة ، وإنما هو كان يطلب الحساب والهندسة والجغرافية والفلك ، فتلك هى العلوم التى « جاء فكره بالغرائب » فيها حقاً كما يتجلى من مؤلفاته ، وهذه « الغرائب » لم تكن تبهر الناس أو تمهد لهم طريقاً ، إنما كانت هوايات ، ولا شك أن الإدريسى كان يعرف ذلك ، ومن ثم فإن شكواه غير مفهومة ، اللهم إلا إذا كانت من النوع التقليدى الذى تعود أهل المغرب فى تلك العصور أن يقولوه بعد إقامة يسيرة فى المشرق ، ونجد أمثلة من ذلك عند ابن سعيد المغربى والمقرى ، بل إن كثيراً من الأندلسيين

والمغاربة الذين وجدوا المكانة وسعة العيش فى المشرق قالوا مثل هذا الشعر على سبيل التقليد كما نجد عند أثير الدين أبى حيان الغرناطى .

وليس من الواضح إن كان الإدريسى قد عاد من المشرق إلى وطنه سبتة أو ذهب إلى صقلية رأساً ، وربما كان افتراض عودته إلى العدوة أقرب إلى المعقول لأن ذلك يفسح المجال لامكان سياحته بالمغرب الأقصى وإلمامه بأحواله ومعرفته جهاته من ناحية ثم زيارته للأندلس وإقامته فى قرطبة وتجوله فى بعض نواحى شبه الجزيرة ، والأمران حقيقتان تدل عليهما اشارات كثيرة فى جغرافيته ، ولا يمكن أن نفترض تجوله فى المغرب وزيارته للأندلس قبل ذهابه إلى المشرق ، فإن ملاحظاته واشاراته التى ذكرناها ليست لشاب دون السابعة عشرة ، بل هى لرجل ناضج جيد التكوين واسع العلم بعيد الملاحظة ، وهنا أي بعد عودته من المشرق يمكن القول إنه درس فى قرطبة ، فقد كانت أحوالها قد استقرت وعاد إليها شىء من رونقها فى ظل المرابطين ، وإلى هذه الاقامة يمكن أن نرجح ما نلاحظه فى كتابه من ميل للمرابطين وامتداحه إياهم كلما أتيحت له فرصة ذلك ، وإليها أيضاً يمكن أن ننسب نفوره من الموحدين وحملته عليهم ، فإن الرجل بعد أن أقام فى الأندلس ولمس اجتهاد المرابطين فى الدفاع عن الدين وحماية الأندلس الإسلامي كره أولئك الذين قاموا عليهم وحاربوهم وقضوا على سلطانهم . هذا بالإضافة إلى أن المرابطين هم الذين قضوا على سلطان سواجات فى سبتة وأراحوا آل إدريس منهم ، فى حين أن محمد بن تومرت مهدى الموحدين زعم لنفسة نسباً إدريسياً[1] وهو أمر ينكره الأدارسة ولا يقرونه .

من العدوة ، والأرجح من سبتة ، كما يذهب من ترجموا للادريسى ، استدعاه رجار الثانى ملك صقلية ليؤلف له كتابا فى الجغرافية ، وتلك هى الحلقة غير

---

(١) كتاب الأنساب فى معرفة الأصحاب ، نشر قطعاً منه ليفى بروفنسال فى نفس المجلد الذى يضم أخبـار المهدى ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين لأبى بكر الصنهاجى المكنى بالبيدق ، باريس ١٩٢٨ ، ص ٢٦

الواضحة حقاً فى حياة الإدريسى ، إذ كيف علم الملك النورمندى أن هناك فى العُدْوَة رجلا يسمى الإدريسى ماهراً فى الجغرافية قادراً على تأليف كتاب جامع شامل فيها ؟ إلى ذلك الوقت لم يكن الإدريسى معروفاً بالجغرافية ، ولم يكن قد كتب فيها كتابا حتى يمكن القول بأن رجار اطلع عليه فاستدعاه ، وليس فى مقدمة « نزهة المشتاق » ما يفهم منه أنه كتب إلى رجار يعرض عليه تأليف كتاب فى الجغرافية له ، فكيف يمكن تفسير هذا الاستدعاء ؟ إن الإدريسى رجل صريح ، ولو أنه كان قد طلب إلى رجار أن يعمل له كتابا فى الجغرافية لقال ذلك ، وخاصة والكتاب كله مهدى إليه . لابد أن يكون هناك طريق ما مهد للاتصال بين الرجلين ، فعرف رجار أن الإدريسى جغرافى متضلع ، وأنه قادر على أن يؤلف له الكتاب الذى كان يحلم به ، فبعث يستدعيه .

وهناك نقطة أخرى تزيد المسألة تعقيداً ، فإنه يستنتج من كلام الإدريسى أنه بدأ تأليف كتابه سنة ٥٣٣/١١٣٨—١١٣٩ ، فإذا افترضنا أنه وفد على صقلية قبل هذه السنة بقليل ، سنة ٥٣٠/١١٣٥—١١٣٦ مثلا ، وجدنا أن تلك السنة وما بعدها إلى سنة ٥٤٠/١١٤٦ توافق السنوات التى اشتدت فيها حملات رجار الثانى على افريقية وطرابلس ، وفى ٥٣٠/١١٣٥ بالذات استولى على جزيرة جِرْبه ، وفى مثل ذلك الجو المشحون بالعداوة بين الملك النصرانى والمسلمين يستبعد أن يكون الإدريسى قد رغب فى خدمته أو سعى إليه ، ويستبعد أيضاً أن يستدعى رجار الثانى عالماً مسلماً ، كان فى نظره من أبناء الملوك ، ليؤلف له كتابا فى الجغرافية ، وربما كان هذا حافزاً لنا على القول بأن الإدريسى وفد على الجزيرة قبل ذلك ، وأن وفود الإدريسى على رجار للعمل معه كان أمراً متفقاً عليه من قبل ، فى أيام لم تكن العداوة قد بلغت فيها هذا المبلغ بين رجار الثانى والمسلمين .

وهناك رأى ذهب إليه تادُوْيتس ليفيكى[1] يبدو معقولا ومقبولا لأول وهلة ، ولكنه لا يثبت للمناقشة طويلا . وخلاصة رأيه أن اهتمام رجار الثانى (٥٠٦/١١١٢—٥٤٣—٥٤٤/١١٥٢) باستدعاء الإدريسى لم يكن سببه علمه بالجغرافية ، وإنما بشخصه كرجل من بيت الأدارسة يمكن أن يكون مطالباً بعرش أو منافساً فيه ، أى الانتفاع به فى تحقيق مآربه فى غزو الأندلس والسيطرة على غرب البحر الأبيض المتوسط . ويعلل ليفيكى ذلك بأن مكانة الإدريسي كجغرافى لم تكن قد تقررت بعد ، بل إن أمره لم يكن قد اشتهر كرحالة[2] .

ويعلل ليفيكى رأيه هذا بما يحكيه الصفدى من أن الإدريسى عندما وفد على صقلية لم يكن ينوى الاقامة الطويلة فيها ، ولكن رجار رغّبه فى ذلك وقال له : «أنت من بيت الخلافة ، ومتى كنت بين المسلمين عَمِل ملوكهم على قتلك ، ومتى كنت عندى أمنتَ على نفسك[3] »

والأساس التاريخى الذى يقوم عليه هذا الرأى ضعيف ، فإن رجار الثانى لم يكن يفكر فى غزو الأندلس أو سيادة حوض البحر الأبيض ، إنما كان هدفه الأقصى توطيد مركزه فى صقلية ، لأن دولة النورمان فى صقلية كانت فرعا من دولتهم التى أنشأها روبرت جِسْكارد فى جنوبى إيطاليا ، ولم يكن لهذه الدولة من سند إلا أذن البابوية لأصحابها فى الاستيلاء على جنوبى إيطاليا

---

(١) Todeusz Lewicki, *Polska i Kraje Sasiedmie w Swietle «Ksiegi Rogera», geografa arabeskiego* 2. XII w. al-Idrīsī 'ego. Czesc I, Krakow 1945, Czesc. II, Warsawa, 1945.
وقد نشر ليفيكى فى هذين المجلدين نص جغرافية الادريسى لبولندا والأراضى المجاورة لها وترجمتها إلى البولونية مع تعليقات ضافية . وقد استعنت فى قراءة مقدمة الكتاب وتعليقات المؤلف على الترجمة بزميل بولونى .

(٢) ليفيكى ، جـ ١ ص ١١ . وقد أيد هذا الرأى مقبول أحمد العالم الهندى ، انظر :
S. Maqbūl Aḥmad, *India and the neighbouring tenitories in the Kitāb Nuzhat al-Mushtāk fī 'Khtirāq al-Āfāq* (Leiden, Brill, 1961) p. 3.

(٣) الصفدى ، الوافى بالوفيات ، نشر التراجم الخاصة بصقلية ميكيلى أمارى فى المكتبة الصقلية ، لايبسك ١٨٥٧ ، ص ٦٥٨

(أبُولِيَا وكَلاَبْرِيا) وانتزاعه من أيدى البيزنطيين وإقامة دولة كاثوليكية فيه ، ولم تعترف الدولة البيزنطية باغتصابهم لهذا الجزء من أراضيها وظلت تعاديهم وتعمل على القضاء عليهم ، بل لم يعترف بهم أباطرة الهوهنشتاوفن الألمـان ، وكانوا يدعون السيادة على ايطاليا كلها ، ولهذا ظلت دولتهم فى جنوبى ايطاليا قلقة مهددة بعواصف الحروب ، حتى قضى عليها هنرى السـادس امبراطور الهوهنشتاوفن سنة ١١٩٤ (٥٩٢ هـ.) وقضى تبعاً لذلك على دولتهم فى صقلية وتُوج ملكا على هذه الجزيرة فى بلرم فى نفس السنة . ولما كانت دولتهم فى صقلية امتداداً لدولتهم في جنوبي ايطاليا، إذ أن البابوية كانت قد أذنت كذلك لروبرت جسكارد في غزوها وانتزاعها من أيدي العرب فندب روبرت أخاه روجَر للقيام بذلك وبدأ الغزو في سنة ١٠٦٠ (٤٥٢) وتم له الاستيلاء على الجزيرة سنة ١٠٩١ (٤٨٣) ، واعلن نفسه ملكا على صقلية عقب ذلك بعد ان منح العرب ضمانات وعهوداً . وبعد أن توفى روجر الأول سنة ١١٠١ (٤٩٥ هـ.) خلفه ابنه سيمون ثم ابنه الثانى روجر الثانى الذى عرفه العرب باسم رُجّار أو لُجار تحت وصاية أمه أدِيلِيد ، ثم بلغ سن الرشد وحكم بنفسه سنة ١١١٢ (٥٠٦) ، ثم تمكن من أن يضم جنوب ايطاليا إلى ملكه ويصبح ملكا على دولة النورمان كلها فى إيطاليا وصقلية فى سنة ١١٣٠ (٥٢٦ هـ.) وهنا انتهت اطماعه السياسية ، واقتصر همّه كله على الحفاظ على مابيده وتأمينه .

أما حروبه مع بنى زيرى أصحاب إفريقية (تونس) فقد كان هدفه منها تأمين دولته لا إضافة شىء من بلاد المسلمين إليها ، ولم يتصد له بنو زيرى أصحاب إفريقية ولا قاوموه ، لأن صقلية لم تكن جزءً من ولايتهم على إفريقية ، فإن التفكير السياسى الماكر الذى جرى عليه الفـاطميون جعلهم يفصلون بين صقلية والقاعدة الاسلامية الوحيدة التى كان يمكن الدفاع عنها منها ، وهى إفريقية ، فكانت صقلية ولاية منفصلة تابعة للخليفة الفاطمى فى مصر وكذلك كانت طرابلس واجدابيه وصرت وما إليها ، والفاطميون هم الذين ولوا على

صقلية حسن بن على بن أبى الحسين الكلابى ، وكان الفاطميون عاجزين عن تأييده ، ولهذا فقد اضطرب الأمر عليه وساءت أحوال صقلية ، وعندما أخذ النورمان فى غزوها لم يحرك بنو زيرى ساكناً إلا بعد فوات الفرصة ، وكان همهم بعد ذلك أن يعيشوا فى سلام إلى جانب هذا الخطر الجديد ، وكل ما فعله الفاطميون للدفاع عن الجزيرة مكاتبات تعبر عن الاستنكار ، كهذه المراسلة التى جرت بين المعز الفاطمى ورجار الثانى عقب استيلاء هذا الأخير على جربة سنة ١١٣٤—١١٣٥ (٥٢٩—٥٣٠ هـ.) ؛ وتأميناً لصقلية من الفاطميين استولى رجار على مدينة طرابلس سنة ١١٤٦ (٥٤٠ هـ.) والمهدية سنة ١١٤٨ (٥٤٣—٥٤٤) ، ولكنه لم يغز إفريقية ولم يضم إقليم طرابلس إلى ملكه ، إنما احتفظ بهذه المواقع ، وأقام فيها الحاميات لمجرد تأمين صقلية[1] ، وقد أزال الموحدون هذه المواقع كلها واستردوها لدولة الإسلام سنة ١١٦١ (٥٥٥ هـ.) وفى اثناء ذلك كله كان رجار مشغولا بصراع البيزنطيين والألمان ، ثم مع البابوية ، وقد مُنِىَ فى كل من هذه الميادين بخسائر وهزائم كثيرة .

ودولة هذه ظروفها لا يمكن القول بأن صاحبها كان يرمى بنظره إلى الأندلس ويعنى نفسه بغزوه أو أنه كان يسعى إلى السيطرة على حوض البحر الأبيض المتوسط .

ولكن رأى ليفيكى يوحى بفكرة أخرى قد تكون أقرب إلى المنطق ، فإن الدولة التى أقامها النورمان فى صقلية لم تكن نورمانية إلا بالاسم والرياسة ، أما العناصر التى قامت عليها فقد كانت غير نورمانية فى الغالب ، وفى صقلية بالذات كانت تلك العناصر بيزنطية عربية ، وقد حلل مؤرخون مثل شالاندون وفردينان لوت و س. هـ. هاسكنجز طبيعة هذه الدولة تحليلا دقيقاً لا بأس

---

(١) ابن الأثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٦٧
وقد أوجز ابن الأثير فى الصفحات التالية الظروف التى استولى النورمان خلالها على صقلية .

من إيراد خلاصته هنا لأنه يلقى ضوءً كاشفاً على طبيعة علاقاتهم بعرب صقلية وجنوب إيطاليا ، ويوقفنا بالتالى على نوع الصلة التى قامت بين رجار الثانى والجغرافى العربى الأكبر .

وخلاصة آراء أولئك الباحثين أن روح المغامرة التى أتت بالنورمان إلى شمال غرب فرنسا هى التى فرّقتهم بعد ذلك من هذه الناحية التى سميت بعد ذلك باسم نورمانديا (نورماندى) إلى كل مكان ، وأن خير من صور خلقهم هو معاصرهم جُودْفرْوَا مالاتيّرا ، وهو يصورهم لنا كشعب ميزته الأولى هي المكر وإهمال ما ورثوه عن أجدادهم طمعاً فى الحصول على ما هو أعظم منه ، ويقول : كانوا دائماً فى شوق إلى الكسب والسيادة ، ودأبهم تقليد غيرهم فى كل شيء ، وقد جمعوا فى خلقهم صفتين متناقضتين : السخاء والجشع ، واستطاعوا أن يوفِّقوا بين هذين المتناقضين فى مهارة كبيرة . وكانوا إلى جانب ذلك شعباً ماهراً فى التملق مغرمين بدراسة البلاغة ، حتى أن صبيانهم كانوا خطباء ، وكانوا لا يضبطهم ضابط إذا تُركوا على حريتهم ، أما إذا أمسكتهم يد حازمة أذعنوا بالطاعة للقانون ، وهم بسبب ولعهم بالتقاليد لم يبتكروا شيئاً ، وقد أدى بهم هذا إلى اصطناع الرجال وكسب الصداقات واستخدام المبرزين فى كل علم وفن ، ومن الغريب أن شعباً جمع هذه الصفات كلها وأدى للناس خدمات كبرى بسبب الولع باصطناع ذوى الملكات ، قد زال من قيد الوجود كشعب ، ولم تبق منه بقية خالصة فى مكانٍ مّا ، ولقد اتخذ النورمان اللغة الفرنسية فى فرنسا وبذلوا جهداً كبيراً فى نشرها خارج فرنسا (يريد فى انجلترا) ، وقبسوا من نورمانديا أصول طراز خاص من العمارة واجتهدوا فى النهوض به وتنميته حتى أصبح طرازاً معماريا معروفاً بخصائصه فى تاريخ ذلك الفن يعرف بفن العمارة النورمانية . وفيما يتصل بالنورمان فى صقلية يقرر أولئك المؤرخون أنهم كانوا أمراء على بلد غريب عنهم ، وأنهم كانوا غرباء عن كل عناصر السكان فيه ، فقد

وجدوا فى الجزيرة شعباً مسيحياً يتكلم اليونانية وآخر مسلماً يتكلم العربية ، وكانت العلاقات بين الشعبين تختلف من مكان لمكان فى الجزيرة ، ولكن السيادة كانت للمسلمين بوجه عام ، وكان أولئك المسلمون طوائف شتى ما بين عرب أصلاء ومغاربة استعربوا وصقليين أسلموا ، وإذا كان العرب الأصلاء أقلية فى جماعة المسلمين فى صقلية ، فكذلك كان النورمان الأصلاء أقلية فى الجماعة التى قادوها إلى الغزوات واستولوا بسواعدها على البلاد ، فقد كان النورمان الأصلاء فى ذلك الحشد قليلين جداً ، وكان معظم كبار قادتهم وأمراء بحرهم إيطاليين أو فرنسيين أو ألمان ، وعندما استقروا فى صقلية لم يميزوا لهذا بين مسيحىّ ومسلم من رعاياهم الجدد ، فاعتمدوا على النابهين من الجانبين ، فكان الكثير من نصحائهم وأهل بلاطهم وقادتهم وأمراء بحرهم يونان ومسلمين ، ولم يكن للدين سلطان كبير على نفوسهم ، وإذا كانوا قد حاربوا المسلمين فى المغرب فإن دافعهم إلى ذلك لم يكن الدين ، بل المحافظة على الملك ، وعندما شاركوا فى الصليبيات كان المكر والحرص والطمع دوافعهم الأولى ، ثم يأتى الدين بعد ذلك ، ولهذا فقد عاش معهم الناس فى صقلية فى مأمن من عصبيات الدين ، وأصبح الملك النرمانى قاعدة التوازن بين المسيحية والإسلام فى الجزيرة ، وقد خف عصب الدين عند النرمان أكثر وأكثر بعد أن اختلف رجار الثانى مع البابوية ووقع العداء بينه وبينها . وقد خسر المسلمون سيادتهم على الجزيرة بعد الغزو النرمانى ، ولكنهم لم يخسروا الأرض والأموال والعقار ، ولم يَصدُر عن الملك شىء يضير حريتهم الدينية ، فدخلوا فى خدمة النظام الجديد دون مضاضة . وفى عالمَ القرن الثانى عشر المسيحى كانت صقلية شيئاً فريداً فى بابه وملجأ آمناً لمن أرادوا العيش بعيداً عن عصبيات الدين التى عمت القرن كله . وما وقع من اضطهاد المسلمين فى بعض نواحى صقلية كان سببه رجال الدين من النصارى الذين اجتهدوا فى نقل الروح الصليبية إلى أرض لم تشأ أن تعرفها ،

وسببه كذلك خوف النورمان من المسلمين من أهل الشمال الإفريقى الذين لم ينسوا ضياع صقلية من أيديهم طوال القرن[١] .

هذه اللمحات عن النورمان تعيننا على فهم طبيعة العلاقة بين الملك النورمانى والجغرافى العربى الذى دخل فى خدمته ، وتضع هذه الخدمة فى إطارها الصحيح ، وتفهمنا كيف استجاز الإدريسى — وهو شريف علوى — أن يعمل فى بلاط صقلية ، فقد قصد باباً مفتحاً على مصراعيه لأمثاله من النابهين ، وكان إلى جانبه مسلمون كثيرون يعملون فى البلاط النورمانى ويشاركون فى شئون القيادة والإدارة ، وكانت الجزيرة عامرة بالمسلمين ومعالم الإسـلام ، وكان شعور الإدريسى أنه عالم يُهدى العلم إلى من يقدره . وربما كانت علوية الإدريسى وشرف محتده من أسباب إقبال رجار عليه ، فإن وجود ذلك الشريف العلامة إلى جانبه يُعلى جاهه بين رعاياه من المسلمين ويؤيد سلطانه فى نظرهم ، ولاشك فى أن رجار استفاد سياسياً من ثناء الإدريسى عليه فى مقدمة كتابه ووصفِه إياه « بالملك المعظم المعتز بالله المقتدر بقدرته » وليس بغريب أن يتناقل النـاس شائعة إسلام رجار سراً[٢] ، فإن المسلم الصقلى الذى يقرأ هذا عن لسان رجل مثل الإدريسى لا يخطر بباله إلا أن الموصوف ملك مسلم ، وقد اجتهد رجار فى دفع هذا الظن عن نفسه خوفاً من تذمر رعاياه المسيحيين ، فأقبل على بناء الكنائس وشجع تنصر المسلمين واليهود فى أواخر أيامه ، بل قتل قائده على

---

(١) انظر عن النورمان فى صقلية :

E. A. Freeman, *History of Sicily*, London, 1891-1894.

A. F. von Schack, *Geschichte der Normannen in Sicilien*, Stuttgart, 1889.

F. Chalendon, *La domination normande en Italie, et Sicile*, 1009-1094, Paris 1907.

C. H. Haskins, *The Normans in European History*, Boston- New York, 1915.

ويضاف إلى هذه المراجع كتاب ميكيلى أمارى « تاريخ المسلمين فى صقلية » فهو العمدة فى ذلك الباب ، وسنشير إليه أكثر من مرة فيما يلى من البحث . وليس لدينا فى العربية إلا كتاب الدكتور إحسان عباس : «العرب فى صقلية» ، القاهرة سنة ١٩٥٩ وهو كتاب جيد أفدنا منه كثيراً .

(٢) راجع إشارة ابن الأثير إلى ذلك ، ص ٢٨٨ فى المكتبة الصقلية .

البحر فيليب الملقب بالمهدوى ، لأنه عندما استولى على بونه ترك نفراً من عُبّاد المسلمين وصالحيهم يخرجون من المدينة بأهلهم دون أذى[١] .

بقيت مسألة الطريق التى وصل بها الإدريسى إلى رجار الثانى ونوع الصلة التى قامت بينهما ، وقد استبعدنا فيما سبق أن يكون الادريسى سعى بنفسه إلى الدخول فى خدمة رجار ، أو أن يكون هذا قد سمع بعلمه بالجغرافية فاستدعاه ، ولم يبق إلا أن نبحث عن سبيل أخرى لهذا الاتصال ، وليس أمامنا ، ونحن لا نملك شيئاً ثابتاً ، إلا أن نستخرج مما لدينا ما عساه أن يحل لنا هذه المشكلة .

أدارسة صقليـــة

ولا بد على أى حال أن رجار عرف من أمر الإدريسى شيئاً قبل أن يدعوه للعمل معه ، ووسيلة هذه المعرفة لا يمكن أن تكون كتابا فى الجغرافية كتبه الشريف ووصل إلى يد رجار ، فوقف منه على مكانه من العلم ، وقد تبادر إلى ذهنى أن يكون الإدريسى قد كتب كتابه المختصر فى الجغرافية «أنس المهج وروض الفرج»[٢] قبل أن يكتب كتابه الكبير ، ولكنى تبينت بعد دراسة نص هذا الكتاب أن ذلك الفرض مستبعد ، فالكتاب موجز لنزهة المشتاق ، والاشارات إلى هذا الأخير فيه كثيرة ؛ ولكن من الممكن أن يكون كتاب الإدريسى فى النبات والأعشاب[٢] سابقاً على كتبه فى الجغرافية ، ومن الممكن أن يكون هذا هو الذى وصل إلى رجار ونبهه إلى مكان الإدريسى من العلم ، ولا يمكن على أى حال القطع بهذا ، لأن أصل ذلك الكتاب فقيد ، وما لدينا منه نقولٌ يصعب معها تحديد تاريخ تأليفه ولو على وجه التقريب .

---

(١) ابن الأثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٩٩

(٢) سنتحدث عن هذا الكتاب فيما بعد .

لم يبق إذن إلا أن نفترض أن يكون رجار قد عرف الشريف الإدريسى معرفة شخصية قبل أن يدعوه إلى العمل معه . وهذا الرأى يبدو مستبعداً أول وهلة ، ولكننا إذا درسنا تاريخ المسلمين فى صقلية خلال العصر الذى عاش الادريسى فيه رأينا شعاعاً من الضوء يمكن أن ينير لنا جوانب هذه المشكلة بعض الشىء ، بل يضع يدنا على حقيقة هامة جديرة بعناية المهتمين بدراسات صقلية الاسلامية ، وهى وجود بيت إدريسى حمودى فيها ، كان له سلطان كبير ودور واسع فى تاريخها من النصف الثانى للقرن الخامس الهجرى إلى أواخر القرن السادس .

وأول ما نسمع بهذا البيت فى أخبار غزو النورمان لصقلية ، فعندما وصل هذا الغزو إلى وسط الجزيرة وبدأ الصراع حول جرجنت Girgente وقَصْرُيَانه Castrogiovanni وما حولهما من الأراضى كان صاحب الأمر هناك الذى تولى أمر الدفاع رجلا يسمى أبا القاسم بن حمود ، وكان ذلك سنة ٤٧٩/١٠٨٦ .

ومن أسف أن مؤرخينا لم يذكروا شيئاً عن الدور الذى قام به بنو حمود هؤلاء فى الدفاع عن ناحيتهم ، ولكن ابن الأثير يذكر أن المسلمين قاوموا مقاومة عنيفة فى الموضعين ، قال : «ولم يبق للفرنج ممانع ، فاستولوا على الجزيرة ، ولم يثبت بين أيديهم غير قصريانة وجِرْجِنت ، فحصرهما الفرنج ، وضيقوا على المسلمين بهما ، فضاق الأمر على أهلهما حتى أكلوا الميتة ، ولم يبق عندهم ما يأكلونه ، فأما أهل جرجنت فسلموها إلى الفرنج ، وبقيت قصريانة بعدها ثلاث سنين ، فلما اشتد الأمر عليهم أذعنوا إلى التسليم ، فتسلمها الفرنج لعنهم الله سنة ٤٨٤ ...» [(١)] ، ولم يذكر ابن الأثير شيئاً عن قائد هذه المقاومة فى تلك الناحية ، ولكن جودفروا مالاتيرّا مؤرخ الغزو

(١) ابن الأثير ، الكامل ، الأجزاء الخاصة بصقلية ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٧٨

النورمانى لصقلية[١] ذكر أن اسمه Chamut ، وقد رده ميكيلى أمارى إلى أصله وهو حمود[٢] ، والمراد به أبو القاسم بن حمود من سلائل بنى حمود الأدارسة ، واسم هذا البيت مذكور فى تاريخ صقلية من ذلك الحين وبعده مدة قرن من الزمان على الأقل ، وقد ورد فى النصوص اللاتينية تحت هذه الصورة وصور أخرى مقاربة : Hamus أو Hamutus

وقد ذكر أمارى أن منشىء هذا البيت الحمودى الصقلى لابد قد بارح وطنه فى المغرب أو الأندلس بعد ضيـاع أمر بنى حمود فى منتصف القرن الخامس الهجرى كما ذكر ابن حزم . وليس هناك ما يمنع قبول هذا الرأى ، ففى ذلك الحين كان المرابطون قد ثبتوا أقدامهم فى جنوب المغرب الأقصى وتطلعوا للامتداد شمالا ، ففى سنة ١٠٥٨/٤٥٠ تمت بيعة أبى بكر بن عمر اللمتونى على جنوبى المغرب الأقصى حتى وادى دِرْعة ، وفى سنة ١٠٦٩/٤٦٢ —١٠٧٠ كانوا قد تمكنوا من الأراضى الممتدة شمالا إلى مجرى نهر تانسفت ، وضاقت بهم أغمات وَريكة ، فبدئ فى بناء مراكش فى رجب من تلك السنة ، وفى أواخر سنة ١٠٧٠/٤٦٢ تقدم يوسف بن تاشفين ابن عم الأمير أبى بكر بن عمر شمالا حتى وصل وادى ملوية ، وفى ربيع الأول سنة ٤٥٦/ فبراير ١٠٦٣ تنازل أبو بكر بن عمر عن الإمارة ليوسف بن تاشفين ، وانفرد هذا بالملك ، وبدأ التوسع السريع إلى الشمال ، فاستولى المرابطون على فاس سنة ١٠٧٤/٤٦٧ ، وفى السنة التالية استولوا على تلمسان ، ودخل شمال المغرب الأقصى كله فى حكم المرابطين[٣]

---

(١) G. Molaterra, *La Conquista de Sicilia,* Collezione d'Opere inedite o Rare, Bologna 1865; lib. IV, cap. 5.

(٢) Amari, *Musulmani di Sicilia,* III, 175.

(٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، الجزء الثالث الخاص بالمرابطين والموحدين ، قطعة منه نشرها أمبروزيو أويثى ميراندا فى مجلة *Hespéris Tamuda,* II, 1961 fasc. 1. ص ٤٦ وما يليها .

وفى هذه الظروف لم يعد للباقين من بنى إدريس أمل فى السلطان ، فانزوى من استطاع الانزواء منهم فى ناحيته ، وفر مَن فرّ . ولاشك أن أبا القاسم بن حمود هذا انتقل إلى صقلية فى هذه الفترة مع نفر من أبنـاء أولئك الأدارسة ، وسنرى فيما بعد أن أباه كان يسمى عليا ، وقد بحثت فى الشجرة الإدريسية عمن يسمى علياً فى هذه الفترة ، فلم أجد إلا اثنين : على ابن إدريس المتأيد بن على الناصر ، وعلى بن محمد حفيد إدريس المتأيد ، ومن الراجح أن أبا القاسم بن حمود الصقلى ابنٌ لأحد هذين ، ونستطيع القول إنه وصل إلى رياسة ناحية جرجنت وقصريانة بعد سنة ١٠٦٨/٤٦١ بقليل ، فقد ذكر ابن الأثير أنهما كانتا من سنة ٤٢٧/١٠٣٥—١٠٣٦ فى طاعة القائد على بن نِعْمة المعروف بابن الحوّاس ، وأن ابن الحواس هذا قُتل سنة ٤٥٣/ ١٠٦١—١٠٦٢ أو بعدها بقليل ، وحاول أيوب بن تميم بن المعز الزيرى أن يسيطر على الناحية فلم يستطع ، فترك صقلية هو وأخوه علىّ سنة ١٠٦٨/٤٦١ « وصحبهم جماعة من أعيان صقلية والأسطولية ، ولم يبق للفرنج ممانع . . . »[1] فلا بد أن أبا القاسم بن على بن حمود تولى قيادة هذه الناحية ورياستها فى ذلك الحين ، أى قبل أن يزحف الغزو النورمانى إليها بقرابة ١٨ سنة . ولابد أنه هو الذى قاد الدفاع عن جرجنت وقصريانة على النحو الذى رويناه عن ابن الاثير .

وتذهب المراجع اللاتينية والنورمانية التى رجع إليها أماري في تتبع أخبار استيلاء النورمان على صقلية، إلى أن أبا القاسم بن حمود هذا بعد أن أسلم قصريانة إلى رجار الأول اعتنق النصرانية مع أهله أجمعين وخاف على نفسه بعد ذلك من مسلمى البلد، فطلب إلى رجار أن ينقله إلى بلد من بلاده في شبه الجزيرة الإيطالية ، فنقله إلى بلدة ميلاطو Mileto فى بولية Apulia وهنـاك

(١) ابن الأثير المكتبة الصقلية ، ص ٢٧٩

ظل حتى مات[١] وهذا قول ظاهر الاختلاق ، فإن بنى القاسم بن حمود ظلوا بعد ذلك أصحاب جرجنت وقصريانة تحت سلطان النورمان ، وكان لهم دور كبير فى شئون الجزيرة إلى أكثر من قرن من الزمان بعد ذلك ، ثم إن ابن جبير الرحالة لقى رئيساً من رؤساء هذا البيت بعد ذلك بقرن من الزمان ، فى ذى قعدة سنة ٥٨٠/مارس ١١٨٥ ووصفه بالجلالة واتساع الجاه ، ثم قال : «ومن عِظَم هذا الرجل الحمودى المذكور فى نفوس النصارى ، أبادهم الله ، أنهم يزعمون أنه لو تنصر لما بقى فى الجزيرة مسلم إلا وفعل فعله ، اتباعاً له واقتداء به ، تكفل الله بعصمته جميعهم ، ونجاهم مما هم فيه بفضله وكرمه . . . »[٢] فكيف يقال بعد هذا أن جده قد تنصر هو وأهله جميعاً من مائة سنة ؟

وقد تتبعنا تاريخ أولئك الحموديين الأدارسة الصقليين فى بحث آخر ، وخلاصة ما قلناه هناك أن أبا القاسم بن على بن حمود هذا عاش فى أمان مع رجار الأول ، فقد تركه هذا على ضياعه وأحواله وقيادته لجرجنت وقصريانة ، ويبدو أنه توفى أواخر حكم رجار الأول أو بعده بقليل ، فقد توفى رجار سنة ٤٩٥/١١٠١ وخلفه ابنه سيمون لفترة قصيرة ، ثم مات سيمون سنة ٤٩٩/١١٠٥ وتولت الأمر الملكة أدليليد Adelaide وصية على أخيه الأصغر رجار ، وفى سنة ٥٠٦/١١١٢ بلغ هذا سن الرشد وتولى العرش باسم رجار الثانى ، وهو صاحب الإدريسى ، وقد حكم ٤٠ سنة إذ توفى سنة ٥٤٧—٥٤٨/١١٤٨ . وفى هذه الفترة ظهر أمر فقيه صقلية الأكبر محمد بن أبى محمد بن ظفر (٤٩٧—٥٦٧/ ١١٠٤—١١٧١) ، وقد نشأ فى ظل أبى القاسم بن على بن حمود ثم ابنه أبى عبد الله محمد بن أبى القاسم بن على بن حمود ، وإلى هذا الأخير أهدى

---

(١) Amari, *Musulmani di Sicilia*, III, 175-176.

(٢) رحلة ابن جبير ، بتحقيق الدكتور حسين نصار ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٣٣٣

طائفة من أحسن كتبه مثل «أساليب الغاية فى أحكام الآية» و «سلوان المطاع فى عدوان الأتباع» ، وكان تأليفه لهذا الكتاب الأخير سنة ٥٥٤/١١٥٩ ، ولابد أنه ألّفَ له الكتب الأخرى قبل ذلك بسنوات ، ومن المظنون أن كتاب «أساليب الغاية» أُلِّف سنة ٥٣٩/١١٤٤—١١٤٥ ، وكان أبو عبد الله محمد ابن أبى القاسم بن حمود إذ ذاك من كبار رجال الدولة النرمانية ومدبِّرى الأمر فيها ، فلابد أن يكون قد خلف أباه ومكّن لنفسه الأمر قبل ذلك التاريخ . وكان أبو عبد الله محمد بن أبى القاسم هذا رجلا كريمًا ممدَّحا ، يفد عليه الشعراء من المشرق والمغرب ويمدحونه ويصلهم بالصلات السنية ، ويُقَدِّمهم إلى رجار الثانى فيمدحونه ، ومثال ذلك عبد الرحمن بن رمضان الشاعر المعروف بالقاضى ، وعبد الرحمن بن محمد بن عمر البُثَيْرِى الصقلى ، وأبو حفص عمر ابن حسن النحوى الصقلى وغيرهم ممن أورد عماد الدين أبو عبد الله محمد بن حامد الأصفهانى أطرافًا من أشعارهم فى الخريدة ، بل بلغ من كثرة شعرهم أن العماد سئم ذكر بقيتهم وقال : «واقتصرت منها على هذه النغبة مع الظمأ إليها ، فما أوثر إثبات مديح الكفر ، عجل الله بهم إلى ألفح ناره المسعرة»[1].

وهذه السنوات التى نتحدث عنها هى التى ذهب الشريف الإدريسى فيها إلى المشرق وعاد إلى المغرب والأندلس ، فهل نستبعد أن يكون قد سمع بذكر هؤلاء الحموديين الذين انتشر ذكرهم فى المشرق وخف الشعراء إليهم ليمدحوهم ويلتمسوا نداهم ؟ لقد كانت صقلية محطا فى طريق البحر من المغرب والأندلس إلى المشرق ، وكان كثير من المسلمين ينزلون بها فى رحلتهم ويقضون الأسابيع والشهور ، ومعظم من نزلها من ذوى الشأن منهم قصدوا أولئك الحموديين أو قصدهم هؤلاء للاجتماع بهم ، كما حدث لأبى بكر الهروى والرحالة ابن جبير

(١) الخريدة للعماد ، المكتبة الصقلية ، ص ٥٨٨

من بعده ، فهل يمكن أن يكون ذكرهم قد غاب عن الإدريسى ، وهو حمودى مثلهم ، بل منسوب إلى البيت الذى خرجوا منه ؟ ثم إن الإدريسى كان إذ ذاك شابا ذكيا حصل من العلم بالطب والجغرافية شيئا كثيراً ، ولابد قد بلغه أن رجار صاحب صقلية معنى بهذين العلمين متطلب لأصحابهما ، وقد خرج من المشرق يشكو قلة التقدير فى أبيات مأثورة عنه سبق أن ذكرناها ، ولم تكن الأحوال فى المغرب والأندلس مواتية ولا آمنة كل الأمن لرجل مثله سليل بيت كان له شأن وسلطان ، فأى شىء أقرب إلى المنطق من أن يكون قد عرج على صقلية وعرف أبا عبد الله محمد بن أبى القاسم بن حمود ، ووقف هذا على ما عنده من العلم بالجغرافية والطب ، فقدمه إلى رجار الثانى أو تحدث إليه فى شأنه ، فأعجب به رجار ووجد فيه طلبته ، فسأله أن يقيم عنده ويعمل معه ؟ هنا — أَشَبّ — مكان العبارة التى يقول الصفدى إن رجار قالها للادريسى مُرَغِّباً له فى المقام عنده : «أنت من بيت الخلافة ، ومتى كنتَ بين المسلمين عمل ملوكهم على قتلك ، ومتى كنت عندى أمنتَ على نفسك[1] » فهذه مناسبة الترغيب ، ولا معنى لها إذا كان الإدريسى قد وفد واستقر بالفعل وبدأ يعمل ، وهى فى نفس الوقت تصور حال أبى عبد الله محمد بن أبى القاسم ابن حمود ، فقد كان هو وآله بالفعل آمنين فى ذلك الركن بعيداً عن منافسات السلطان .

على أساس من هذا الفرض نستطيع أن نفسر ما يلى من أدوار حياة الإدريسى ، فقد عرف الآن أن أمامه فرصة للعمل وتحقيق أحلامه كرجل علم أمله الأقصى أن يستزيد من علمه وأن يجد وسيلة لإثبات ما عنده فى كتب واذاعته فى الناس ، ولهذا فقد مضى إلى المغرب ليستكمل علمه به وليتأهب للاستقرار النهائى فى صقلية ، ومن المغرب ذهب إلى الأندلس ليدرس

(١) صلاح الدين بن خليل الصفدى ، الوافى بالوفيات ، المكتبة الصقلية ، ص ٦٥٨

فيه بعض الوقت ويرى ما يمكنه رؤيته من نواحيه بنفسه ، ثم عاد إلى صقلية بعد ذلك ليشرع فى عمله العظيم حوالى سنة ٥٣٣/١١٣٨—١١٣٩ ، حقيقة أن الإدريسى لا يشير إلى شىء من ذلك فى مقدمة كتابه ، ولكننا سنرى أن هذه المقدمة كلها موضع نظر ، ثم إن الادريسى كان رجلا شديد التحفظ ، لا يتكلم إلا بمقدار ، وهذا واضح من كتابه ، وربما يكون هذا من الأسباب التى رغبت رجار فيه وحملته على إكرامه وتقديره .

وإذا نحن قرأنا فقرة « الوافى بالوفيات » التى تتحدث عن الادريسى لاحظنا أنهـا يمكن أن تؤيد هذا الرأى ، وجدير بالملاحظة أن الصفدىّ لم يختص بها الادريسى بل « رَجَّار ملك الفرنج صاحب صقلية » (وهكذا ضبط اسم رُجار) ، فهى تقول إنه هو الذى « استقدم الشريف الإدريسى صاحب كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق من العدوة إليه ليضع له شيئاً فى شكل صورة العالَم . . . » وبعد أن يفصل كيف صنع الادريسى هذه الصورة يذكر المكافأة العظيمة التى كافأه بهـا ، ثم تأتى العبارة التى قالها رجار للادريسى مرغباً إياه فى المقام عنده (وقد ذكرناها قبلا) ثم يلى ذلك ذكر خبر تأليف الكتاب (١) ، أى أن هناك مرحلتين لعمل الادريسى فى صقلية يفصل بينهما ترغيب رجار له على الاقامة عنده . وهذا النسق يمكن تفسيره كما قلنا على أن الإدريسى عرف رجار أولا وأطلعه على ما يمكن عمله لعمل صورة مجسمة للأرض ، فكان هذا حافزاً له على ترغيبه فى البقاء عنده ، فوافق الادريسى ، وبادر بإكمال رحلته إلى المغرب ، حيث قضى ما كان بسبيله أولا واستكمل ما أراد من دراسة جغرافية المغرب ، ثم ذهب إلى الأندلس للدراسة والمشاهدة ، وعاد بعد ذلك إلى صقلية وبدأ العمل مع رجار .

---

(١) أورد هذه الفقرة أمارى فى المكتبة الصقلية ، ص ٦٥٧—٦٥٨

أما الفقرة التى أورها العماد الأصفهانى فى الخريدة فلا يمكن التعويل عليها ، فقد خلط النسّاخ بين مادتين من موادها ، فوردت هكذا : «محمد بن محمد يعرف بابن الثيرى القرطبى ، معظم ما يذكره ابن بِشْرُون فى المختار من الأندلسيين رواية عنه ، ويذكر أنه لقيه فى مدينة صقلية ، وقد صنف لمتملكها رجار الافرنجى فى مسالك الأرض وممالكها كتابا كبيراً سماه نزهة المشتاق . . [1]» وواضح أن الكلام يدور أولا على أديب راوية أخذ ابن بشرون عنه معظم ما أورده فى كتــابه « المختار فى النظم والنثر لأفاضل أهل العصر» من شعر الصقليين ونثرهم ، ثم يتصل الكلام عن الإدريسى ، والأول قطعاً ليس هو الادريسى ، ومن الغريب أن نفراً كبيراً من الباحثين لم يتنبهوا إلى ذلك ، فذهبوا إلى أن الادريسى كان يلقب أيضاً بابن الثيرى وبالقرطبى ، وليس هذا بصحيح .

أما بقية الإشارات الخاصة بالادريسى ، وهى لا تخرج عن سطور أوردها ابن أبى أصيبعة فى طبقات الأطباء[2] وابن خلدون فى العبر[3] وحاجى خليفة فى «كشف الظنون[4] » . فلا تكاد تضيف إلى علمنا بحياة الادريسى شيئاً ذا بال ، ويهمنا أن نلاحظ هنا أن ابن أبى أصيبعة لا يذكره باسم الادريسى بل

---

(١) الخريدة للعماد الأصفهانى ، قطعة نشرها أمارى فى المكتبة الصقلية ، ص ٦١٠—٦١١ ، وكل الذين انتفعوا بهذه القطعة اعتمدوا على هذه الصورة التى نشرها بها أمارى ، ويلاحظ أن ترجمة محمد بن محمد المعروف بابن الثيرى ترد فى آخر صفحة تنتهى بعبارة «مدينة صقلية» ثم يبدأ الكلام أول صفحة أخرى : « وقد صنف لمتملكها رجار . . . » ومعنى هذا أن هناك ورقة أو أكثر ساقطة من مخطوط الخريدة الذى اعتمد عليه أمارى . ولم يتنبه أحد إلى ذلك ، وقد راجعت هذه الفقرة فى نسخة الخريدة المصورة عن مخطوطة باريس رقم ١٣٧٥ (ورقة ٢٠) فوجدت فيها نفس الخطأ .

(٢) انظر القطعة التى اشرها من «طبقات الاطباء» نور الدين عبد القادر والحكيم هنرى جاهي وهى الباب الثالث عشر فى أطباء إفريقية والأندلس . الجزائر سنة ١٩٥٨ ، ص ٥٣ وترجمتهـــا إلى الفرانسية ص ٥٢ والتعليق على ذلك ص ١٦٠ و ١٦١

(٣) فى المكتبة الصقلية ، ص ٤٨٥

(٤) نفس المرجع ، ص ٧٠٦

باسم : أبى عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسنى ، ولا يشير إلى ما كتب فى الجغرافية ، وإنما يذكر كتابه عن الأدوية المفردة .

ولا نعرف كيف انتهت حياة الإدريسى أو أين مات فان آخر خبر ورد فيما ذكرناه من المراجع هو ما يقوله ابن بشرون من أنه لقيه فى بلرم ، وقد سبق أن شككنا فى أن المراد بهذا هو الادريسى بل محمد بن محمد الثيرى القرطبى . ولكن إشارة يسيرة أوردها الحسن بن الوزان المعروف باسم ليون الإفريقى تقول إن الإدريسى توفى فى صقلية سنة ٥١٦هـ/١١٢٢—١١٢٣ ، وهو تاريخ غير معقول ، لأن الإدريسى ولد سنة ٤٩٣ ، ولهذا فقد صوبه البارون دى سلان[١] إلى ٥٦٠/١١٦٤—١١٦٥ ، لأن الخلط بين ٥١٦ و ٥٦٠ قريب فى العربية وأى لغة لاتينية . وهذا هو التاريخ المعتمد عامة المؤرخين إلى اليوم .

ولكن هنالك رأيا آخر فى تاريخ وفاة الجغرافى الكبير لا بأس من عرضه هنا ، فقد ذكر العماد الأصفهانى فى «الخريدة» فى سياق «محاسن جماعة من شعراء المغرب الأدنى والقيروان وافريقية» نقلا عن ابن بشرون أن يحيى بن التيفاشى القفصى «انتقل إلى قابس ، وسكن بها ومدح بنى هلال ، فقتله الأفرنج بصقلية بعد سنة ٥٥٠ بعد فتكهم بالمسلمين[٢]» وتناول أمارى هذه العبارة بالتحقيق الدقيق المعهود فيه ، فقال إن استرجاع الموحدين للمهدية كان له وقع شديد على غليالم الأول الذى خلف رجار الثانى على صقلية وأهل بلاطه فقد غضب الملك على نفر من الاشراف واتهمهم بالخداع والغش والتهاون فى الحرب مما أدى إلى استيلاء المسلمين على ذلك المعقل ، وبادر وزيره ماجون بتجريد مسلمى بلرم من كل سلاح خوفاً من انتقاضهم ، ثم وقعت فتنة

(١) انظر : M. Amari, *op. cit.* III, 664 n. 1
(٢) المكتبة الصقلية ، ص ٥٩٩

شديدة من جانب نفر من النبلاء والفرسان ، وهجموا على القصر ونهبوا الذخائر التى كان رجار الثانى قد ادخرها (٩ مارس ١١٦١/ربيع الأول ٥٥٦) ، ثم قام النصارى فى بلرم على المسلمين ، فتحصن هؤلاء فى حيهم المسمى كازارا Cazzara وكان أغنى أحياء بلرم وكان يقع فى غربها ، وأغلقوا أبوابه واستعدوا للدفاع عن أنفسهم ، ولكنهم كانوا بغير سلاح ، فتمكن النصارى المهاجمون من اقتحام الحي عليهم ، وأنزلوا بهم مذبحة قاسية هلك فيها عدد عظيم منهم من بينهم الشاعر يحيى التيفاشى وكان شاعراً وَسَطاً أصله من قَفْصَه ، وقد مدح عبد المؤمن بن علىّ عند وصوله إلى بلده ، ثم مضى إلى صقلية يلتمس شيئاً من رفد آل حمود كما كان الكثيرون من شعراء إفريقية يفعلون ، ووفد إلى بلرم حيث وافاه بها حتفه ، وقد أضاف أمارى إلى ذلك أنه يظن أن الإدريسى كان فى بلرم إذ ذاك ، فقد كان متصلا ببلاط غليالم الأول ، وعمل له نسخة موسعة من نزهة المشتاق لم تصل إلينا ، والغالب أن المراد بهذه النسخة الموسعة كتاب «روض الأنس ونزهة النفس» الذى ذكره ابن بشرون[1].

ولا نعرف أين ذهب الإدريسى بعد مبارحته بلرم ، والغالب أنه مات فى صقلية بعد ذلك بقليل ، مما يرجح ما ذهب إليه الحسن الوزان من القول بوفاته سنة ٥٦٠/١١٦٤ ، وليس لدينا ما يدل على أنه عاد إلى المغرب أو ذهب إلى أى بلد إسلامى آخر بعد ذلك .

أما عن حياة الإدريسى فى صقلية فلدينا إشارة طيبة أوردها الصفدى فى «الوافى بالوفيات» ، ولا نعلم من أين استقى المعلومات التى أوردها فيها ، ويغلب على الظن أنها ترجع إلى كتاب ابن بشرون ، ومن أسف أن هذا الكتاب قد ضاع ، وقد لاحظنا أن ما نقله العماد الأصفهانى عن ذلك الكتاب خاصاً بالإدريسى مضطرب مختلط بترجمة أخرى ، وقد سقطت من المخطوط ورقة أو

---

(١) أمارى ، تاريخ مسلمى صقلية ، ج ٣ ص ٤٨٦ والهوامش .
وسنرى بعد قليل أن روض الانس، لم يكن نسخة موسعة بل موجزة من النزهة وأن الخطأ في الوصف جاء من لاماري.

أكثر لابد أنها كانت تضم أول ترجمة الإدريسى ، وربما كانت هناك التفصيلات التى يوردها الصفدى فى كتابه .

واستناداً إلى ما ذكرناه عن زيارتَىْ الإدريسى لصقلية وتعرُّفه برجار الثانى فى الأولى منهما ، ثم استقراره فيها وشروعه فى العمل فى الثانية نقول — اعتماداً على كلام الصفدى — أن رجار « أكرم نزله وبالغ فى تعظيمه » ويسر له طريق العمل ، وبدأ الادريسى بعمل صورة الأرض على الفضة ، فلما فرغ منها كافأه مكافأة سنية ، وألح عليه فى الاستمرار فى العمل معه فاستجاب « ورتب له — الملك — كفاية لا تكون إلا للملوك ، وكان يجئ إليه راكباً بغلة ، فإذا صار عنده تَنَحَّى عن مجلسه ، فيأتى ، فيجلسان معاً[1] » أى أن الادريسى لم يكن مجرد عالم يخدم ملكا بعلمه ، بل كان صديقاً له أثيراً لديه ، يجلسان معاً ويتحدثان فى طريقة العمل ويتشاوران فيما يعرض لهما من المشاكل ، وهذه الصورة معقوله ، فإن رجار الثانى كان شديد الاهتمام بهذه العلوم التى برع فيها الإدريسى وهى الجغرافية والطب والنبات والحساب والفلك، لايكاد يسمع بأحد من الظاهرين فيها إلا عنى به وشجعه على العمل شأنه فى ذلك شأن معظم ملوك النورمان كما رأينا ، وقد وجد عند الإدريسى فوق ما يطلب من هذه العلوم كلها ، فزاد قدره عنده وأنس إليه ، واتصلت بين الرجلين صداقة كانت ثمرتها هذه الكتب الجليلة التى خلفها الإدريسى .

ولم تتغير حال الادريسى بعد وفاة رجار الثانى ومجئ غليالم الأول ، ولكن أحوال الدولة النورمانية نفسها تغيرت ، فقد اشتد التنافس على السلطان بين معاونى الملك وخرج الأمر عن يده ، واشتد النزاع بين اثنين من مستشاريه هما اصطفان وماتيو ، وكان بيت بنى حمود — والعرب تبعاً لذلك — من خصوم الأول وأنصار الثانى ، فاجتهد اصطفان فى التأليب على العرب متعللا بأن

(١) الصفدى ، الوافى بالوفيات ، المكتبة الصقلية ، ص ٦٥٨

الموحدين ، وقد أصبحوا سادة المغرب كله واستعادوا ما كان بيد النورمان من موانيه مثل المهدية وصفاقس وطرابلس ، يتأهبون لاستعادة صقلية مستعينين بمن فيها من المسلمين ، فكان من نتائج ذلك قيام النصارى على المسلمين فى بلرم كما ذكرناه ثم مبارحة الادريسى هذا البلد، ولهذا فإننا نستطيع القول بأن السنوات الأخيرة من حياة الادريسى لم تكن سعيدة ولا هادئة ، نعم إنه استمر يعمل وأنجز كتاب « بهجة الأنس » ولكن العمل نفسه كان عسيراً فى الظروف التى ذكرناها ، خاصة وقد غضب غليالم الأول على القاسم بن أبى عبد الله محمد ابن محمد بن أبى القاسم بن حمود واستصفى أملاكه وأبعده ، وصيره فى الحالة التى وجده عليها ابن جبير .

منهج الإدريسى وطريقته فى العمل

يدل الادريسى فى « نزهة المشتاق » على علم واسع بالجغرافية والفلك والحساب والتاريخ ، وتدل النقول الباقية لدينا من كتابه عن « الأدوية المفردة » على علم واسع بالأدوية والأعشاب ، فقد كان هذا الكتاب من المراجع الرئيسية فى هذا الباب ، حتى لقد نقل عنه ابن البيطار مائة مرة[١] . أى أنه كان متمكناً تماماً من العامين اللذين أثرت عنه فيهما كتب ، وشهرته كنباتى لا تقل عن شهرته كجغرافى ، حتى أن ابن أبى أصيبعة ذكره كنباتى فقط ، دون إشارة إلى تواليفه فى الجغرافية .

وقد أورد الإدريسى فى فاتحة نزهة المشتاق طائفة من الكتب الجغرافية التى اعتمد عليها ، فحسب نفر من الباحثين أن هذه كل مراجعه ، وعددها عشرة

(١) انظر تعليق عبد القادر نور الدين وهنرى جاهيه على نص ابن أبى أصيبعة وترجمته الفرنسية ، المصدر الذى ذكرناه ، ص ١٦٠ — ١٦١ . وقد ذكرا فى ذلك النص أن وفاة الادريسى كانت سنة ٥٦١/١١٦٦ ، وهكذا أيضاً قال لكليرك .

هى : «كتاب العجائب للمسعودى ، وكتاب أبى نصر سعيد الجيحانى وكتاب أبي القاسم عبيد الله بن خرداذبة ، وكتاب أحمد بن عمر العذرى ، وكتاب أبى القاسم محمد الحوقلى البغدادى ، وكتاب جاناخ بن خاقان الكيماكى ، وكتاب موسى بن قاسم القردى ، وكتاب أحمد بن يعقوب المعروف باليعقوبى ، وكتاب اسحق بن الحسن المنجم ، وكتاب قدامة البصرى ، وكتاب بطلميوس الأقلودى ، وكتاب أرُسُيُوس الانطاكى» . وثمانية من هذه الكتب معروفة لنا ، فكتاب العجائب لأبى الحسن على بن الحسين المسعودى (توفى ٣٤٥ أو ٣٤٦/ ٩٥٦) هو أخبار الزمان وعجائب البلدان ويسمى أيضاً «الجمان فى مختصر أخبار الزمان»[١] وهو من أهم كتب المسعودى الجغرافية التاريخية . وكتاب أبى نصر سعيد الجيحانى موضع تساؤل كبير ، لأن المعروف لنـا هو أبو عبد الله محمد ابن أحمد الجيحانى (ويكتب الجيانـى أيضاً) ، وكان وزيراً فى البلاط السامانى فيما بين سنة سنتى ٢٧٩/٨٩٢ و ٢٩٥/٩٠٧ وقد صنف كتابا احتذى فيه كتاب قدامة بن جعفر عن الخراج ، ذكره المقدسى فى فاتحة أحسن التقاسيم ، وقد عثرنا على مخطوطة منه فى كابل[٢] ، ونقل منه مؤلف «حدود العالم» نقولا كثيرة ، وقد أثبت بارتولد الذى قام بنشر هذا الكتاب الأخير أن كتاب الجيحانى أول محاولة عربية لرسم صورة (أى خريطة) للعالم ، ثم التعريف بأعلامها الجغرافية فى كتاب[٣] ، وقال بارتولد أن مؤلف ذلك الكتاب اعتمد فى رسم خرائطه على خرائط بطلميوس ، ولكنه خالفه بعض الشيء فى حدود خطوط

---

(١) لم نعثر على أصل هذا الكتاب ، ولكن على مختصر صغير له توجد منه مخطوطة فى المكتبة الأهلية فى باريس ، وقد ترجمه كارا دى فو إلى الفرنسية ونشره فى باريس سنة ١٨٩٨ بعنوان : *L'Abregé des Merveilles* ثم نشر النص العربى السيد عبد الله الصاوى فى القاهرة سنة ١٩٣٨

(٢) عثر على هذه المخطوطة المستشرق فراى ، وكتب عنها مقالا فى مجلة بيزانطيون :
R. Frye, *Note on the Jayhanī Manuscript in Kabul,* Apud Byzantion XVIII, 1948.

(٣) نشر كتاب «حدود» العالم المستشرق بارتولد فى لينجراد سنة ١٩٣٠ والكتاب صغير ، ولكنه يضم ٧٨ خريطة مع مقدمة روسية مطولة .

العرض ، وذهب بروكلمـان إلى أن كتاب الجيهانى وكتاب حدود العالم متشابهان تماماً [١]

أما كتب ابن خرداذبة والعذرى وابن حوقل واليعقوبى فمعروفة متداولة ، وبقىَ كتابا جاناخ بن خاقان الكيماكى وموسى بن قاسم القردى دون أن يتعرف عليهما أحد . وكتاب قدامة البصرى هو الخراج لقدامة ابن جعفر ، وكتاب بطلميوس معروف ، وقد تحدثنا فيما سبق بما فيه الكفاية عن كتاب أُرُسيوس أو هروشيُش ، وكتاب اسحق بن الحسن (أو حسين) المنجم هو «كتاب آكام المرجان فى ذكر المدائن المشهورة بكل مكان» ، وهو معجم جغرافى يظن أن مؤلفه مغربى أو أندلسى كتبه خلال القرن الرابع الهجرى [٢] .

وإذا نظرنا إلى هذه الكتب فى مجموعها لاحظنا أنها كلها ، فيما عدا كتاب العذرى ، قد كتبت فى القرن الرابع الهجرى فى حين أن الإدريسى كتب كتابه فى القرن السادس الهجرى . فهل معنى ذلك أن اطلاع الادريسى على المؤلفات العربية فى الجغرافية وقف عند ذلك الحد ولم يمتد إلى ما أُلِّفَ فى القرن الخامس

---

(١) انظر ، بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى ، ملحق ١ ص ٤١١
والمشكلة بعد هذا كله هى مشكلة اسم المؤلف كما كتبه الادريسى ، وهو يختلف عن اسمه المعروف لدينا .

(٢) نفيس أحمد : جهود المسلمين فى الجغرافية ، ترجمة فتحى عثمان ، مجموعة الألف كتاب ، الناشرة بدون تاريخ ، ص ٧٧
وذكر المؤلف أن الرجل كتب كتابه فى مراكش فيما بين سنتى ٣٤٠ و ٩٥١/٤٥٤ — ١٠٦٣ أى أنه من أهل القرنين الرابع والخامس الهجريين . وقد أخذ نفيس أحمد هذه المعلومات من بروكلمان (ملحق ١/٥٠٤) ، وكلام بروكلمان على صحته : كتب أيضاً فى القرن الثالث الهجرى ، وربما يكون قد كتبه فى ٩٥١/٣٤٠ وعلى أى الأحوال قبل سنة ١٠٦٣/٤٥٤ وهى سنة اختطاط مدينة مراكش ، ولم يذكرها هو فى كتابه ، وعنوانه : «آكام المرجان فى ذكر المدائن المشهورة بكل مكان» وقد انتفع الادريسى بهذا الكتاب بصفة خاصة فى كتابه «المهج والفرج» (مخطوط بمكتبة حكيم أوغلو فى استامبول رقم ٦٨٨) . وقد وجدت نسخة من آكام المرجان فى المكتبة الأمبروسية فى الفاتيكان برقم H. 104 ، ونشرها مع ترجمة إيطالية انجيلو كودازى فى روما ١٩٢٧ :
Il Compendio, geografico - arabo, publicato i tradotto di Angelo Codazzi, Roma 1927, Rend. d. Lincei, S. VII, vol. V, 372 - 463.

كله والنصف الأول من السادس ؟ بل حتى تلك المؤلفات التى كتبت قبل نهاية القرن الرابع ينقص منها الكثير مما نفترض أن الإدريسى لا بد أن يكون قد اطلع عليه مثل كتاب البلدان لأبى بكر أحمد بن إسحاق بن الفقيه (كتب حوالى ٢٨٩/٩٠٢) وكتاب محمد بن أبى مُسلم الجَرْمى الذى عاش وكتب فى أيام الواثق العباسى واعتمد الجيحانى وأبو عبيد البكرى عليه فيما كتبا عن شرقى أوربا ، ورحلة سليمان التاجر (كتبت حوالى ٢٣٧/٨٥١) التى نقلها وعلق عليها أبو زيد السيرافى (حوالى ٣٠٤/٩١٦) ووصلت إلينا ونشرها لانجليز باسم «سلسلة التواريخ» خطأ ، وكتاب الأعلاق النفيسة لأبى على أحمد بن عمر ابن رُسته (كتب فيما بين سنتى ٢٩٠ و ٣٠٠/٩٠٣—٩١٣) ، وكتاب رسم الربع المعمور المعروف بصورة الأرض لمحمد بن موسى الخوارزمى (كتب بعد ٢٣٢/٨٤٦) ، وغيرها كثير ، وقد اكتفيت بالإشارة إلى هذه لأنها أصولٌ ما كان يمكن الاستغناء عنها بالنسبة لرجل كهذا تدل كتاباته على اطلاع واسع وتكوين علمى متين فى الفروع التى تخصص وكتب فيها . وإن الانسان ليدهش لغياب اسم الخوارزمى بالذات من هذه القائمة ، فهو كان فى ذلك الحين المرجع الأول لكل من تناول الرياضة والفلك والجغرافية على مذهب كلاوديوس بطلميوس ، إذ أنه كان أول من استخدم الترجمة العربية لجغرافية بطلميوس وصاغها على النحو الذى استعملها به العرب[١] هذا إلى مؤلفاته الكثيرة فى الرياضيات .

---

(١) انظر : J. Lelewel, *Geographie du Moyen Âge*, Epilogue, Paris 1852

Aldo Mieli, *La Science arabe*, pp. 14-32.

J. Ruska, *Neue Bausteine zur Geschichte der arabische Geographie*. Geographische Zeitschrift, 1918 pp. 77 sqq.

C. Nallino, *Al-Ḫwarizmī e suo rifacimiento della Geografia di Tolomeo*. RAL. serie V, vol. 2, 1ª. Roma 1894-95.

Afrika nach der Bearbeitung der Γεωγραφικὴ ὑφήγησις des Claudius Ptolemaius von al-Ḫwarizmī, herausgegeben von H. von Mzik in Denkschrift der Wiener Akkademie, 59, 4, 1916.

ولكن قارىء « نزهة المشتاق » يتبين بوضوح أن الإدريسى عرف النتائج الرياضية والجغرافية التى وصل إليها أولئك العلماء واستخدمها استخداماً صحيحاً ، ويكفى أن نعرف أنه خير من استخدم جغرافية بطلميوس من العرب وغير العرب إلى أيامه ، بل هو صححها وأضاف إليها فى كثير من المواضع ، ويكفى أن نتصور الطريقة التى عمل بها صورة الأرض على قطع صغيرة من الفضة ثم ضمّه بعضها إلى بعض فى شكل دائرة أو كرة ، ونقله بعد ذلك رسوم كل قطعة إلى « لوح الترسيم » كما يقول ليعمل الخرائط اللازمة لكتابه ، ثم قيامه بحساب المسافات والأبعاد واستعماله البركار وغيره من أدوات الرسم فى القياس وتحديد المواقع ، ولا بد كذلك أنه كان حاذقاً فى استخدام الاسطرلاب والصفيحة وما إليهما من أدوات القياس الفلكية ، هذا إلى معرفته بالزيوج وقدرته على الانتفاع منها ، بل تصويب تقديراتها فى أكثر من موضع ، وهذا كله لا يتأتى إلا بعد اطلاع واسع على مراجع أكثر من هذه الكتب القليلة التى أوردها فى مقدمة كتابه .

وربما جاز لنا هنا أن نلقى شيئاً من الشك على أصالة هذه المقدمة جملة ، فإن الادريسى لا يشير إلى نفسه أو إلى عمله فى الكتاب أدنى إشارة ، فبعد فاتحة بليغة يقول : « فإن أفضل ما عُنى به الناظر ، واستُعمل فيه الأفكار والخواطر ما سبق الملك المعظم رجار المعتز بالله المقتدر بقدرته ، ملك صقلية وإيطالية وأنكُبَرْده (لومبارديا) وقلورية (كالابريا) وإمام رومية الناصر للملة النصرانية . . . الخ » ثم يقول بعد ذلك : « إنه لما اتسعت أعمال مملكته ، وتزايدت همم أهل دولته . . . أحب أن يعرف كيفيات بلاده حقيقة ، ويُقَلِّبها يقيناً وخبرةً ، ويعلم حدودها ومسالكها براً وبحراً ، وفى أى إقليم هى ، وما يخصها من البحار والخلجان الكائنة بها ، مع معرفة غيرها من البلاد فى الأقاليم السبعة التى اتفق عليها المتكلمون ، وأثبتها فى الدفاتر الناقلون والمؤلفون ، وما لكل إقليم منها من قسم بلاد تحتوى عليه ويرجع إليه ويعد منه ، بطلب ما

فى الكتب المؤلفة فى هذا الفن من علم ذلك كله مثل كتاب...[١] فلم يجد ذلك فيها مشروحاً مستوعباً مفصلا ، بل وجده منها مغفلا ، فاحضر لديه العارفين بهذا الشأن ، فباحثهم عليه وأخذ معهم فيه ، فلم يجد عندهم علماً أكثر مما فى الكتب المذكورة ، فلما رآهم على مثل هذه الحال ، بعث إلى سائر بلاده ، فاحضر العارفين بها ، المتجولين فيها ، فسألهم عنها بواسطة[٢] جمعاً وأفراداً ، فما اتفق فيه قولهم ، وصح فى جمعه نقلهم أثبته وأبقاه . وما اختلفوا فيه ألغاه وأرجاه ، وأقام فى ذلك نحواً من خمس عشرة سنة ، لا يخلى نفسه فى كل وقت من النظر فى هذا الفن والكشف عنه ، والبحث عن حقيقته إلى أن تم له فيه ما يريده... »[٣] وهكذا يسترسل الكلام إلى آخر الفاتحة ، ثم يدخل فى المقدمة الجغرافية رأساً ، فأين الادريسى من ذلك كله ؟ أين نصيبه من العمل إذا كان رجار قد فعل ذلك كله ؟ أم أنه يريد أنه هو الذى فعل ولكنه — من باب الاحترام — نسب ذلك إلى الملك ؟ الحق أنى كلما أمعنت النظر فى هذه المقدمة أحسست أنها ليست للادريسى ، أو كأن شيئاً سقط منها فأصبحت وكأنها مبنية للمجهول . ولو أننا تصورنا أن هذا الناقص يقع بعد لفظ « بواسطة » كان شيئاً فى معنى « العبد الفقير مؤلف هذا الكتاب أبى فلان الفلانى » لاستقام المعنى بعض الشىء ، ولأصبح ما بعد هذه الإضافة هو عمل الادريسى وهو الثابت الصحيح . ولعل الرجل بعد أن فرغ من الكتاب وجاء دور كتابة الفاتحة أحس بحرج ، إذ كيف — وهو الشريف العلوى الادريسى — يرفع كتابا إلى ملك نصرانى ؟ أقصد الناحية الأسلوبية البحتة ، فإن فواتح الكتب وإهداءاتها إلى الملوك والأمراء فى تلك

---

(١) هنا يرد ذكر الكتب التى ذكرناها آنفا .

(٢) اقترح بعض الباحثين قراءة هذا اللفظ « بواسطتى » ولا محل لهذا التعديل ، فإن المراد أنه سألهم بواسطة مترجم .

(٣) نشر هذه المقدمة أمارى فى المكتبة الصقلية ، ص ١٤ وما بعدها .

الأيام كانت تتطلب الثناء المبالغ فيه وتعظيم المُهدى إليه وتواضع المُهدِى ، وهذا الأسلوب فى التقديم معقول مقبول فى المحيط الإسلامى العربى ، ولكن حالة الادريسى فريدة ولا نظير لها ، هو ليس شاعراً مادحاً كأولئك الذين ذكرناهم ، إنما هو شريف علوى من العسير عليه جداً أن يكتب شيئاً يعيره به الناس بعد ذلك ، خاصة والقرن السادس الهجرى كله كان عصر نهضة عربية إسلامية ، فالأيوبيون فى المشرق والموحدون فى المغرب يعملون فى جد لرفع الهمم وإعلاء كلمة الإسلام ، ثم يجئ الادريسى ، وهو سليل أشرف بيوت العروبة والإسلام فيتطامن ويتواضع فى عبارات لا يمكن أن يؤولها خصوم بيته الحمودى على أنها مجرد عبارات تقليدية ؟ لهذا جاءت المقدمة مبهمة بالنسبة لنصيب الادريسى ، وهى على هذه الصورة تعفيه من كل لوم . لهذا كله أعتقد أن هذه الفاتحة ليست من قلمه ، فإما أنه كتب الفاتحة بطريقته العلمية التى تتبين فى قسمها الثانى ثم أضاف إليها أحد رجال البلاط من العرب ما أراد ، أو أن هذا الغير قد قام بإنشائها كلها ، وهنا نستطيع أن نجد عذراً عن هذا النقص الواضح فى المراجع التى جاء ذكرها فيها .

نقول هذا لأن الباحثين تبينوا عند دراسة الأجزاء المختلفة من هذه الجغرافية أن الادريسى رجع إلى أكثر منها بكثير ، وقد تبينت فى إعداد الجزء الخاص بمصر أن الرجل رجع إلى ما كتبه أبو عبيد البكرى عن مصر ، نعم إنه لم يطلع على ما كتب القضاعى وهو معاصره ، ولكن إهمال كتب المعاصرين لم يكن عيباً فى تلك الأيام وخاصة فيما يتصل بالجغرافية ، فإن كتبها لم تكن تذيع كما تذيع كتب الأدب والفقه ، وكانت شهرة الكتاب فيها لا تطير إلا بعد زمن طويل .

ولكننا مع هذا كله لا نستطيع أن نفهم كيف أهمل الادريسى مؤلِّفين لا يمكن أن يقال إنه لم يعرف مؤلفاتهم ، فأين مؤلفات أبى الريحان البيرونى (٣٧٢ — بعد سنة ٤٤٢/٩٧٢ — ١٠٥٠) : وأين كتاب أحسن التقاسيم للمقدسى

وقد كتب سنة ٣٧٥/٩٨٥) ؟ بل أين جغرافية الرازى للأندلس ؟ هل يمكن أن يذكر ابن خرداذبة ولا يذكر البلخي ؟ أو يذكر العذرى ويهمل الرازى ؟ نستطيع أن نفهم هذا فيما يتصل ببلاد زارها الإدريسى وعرفها بنفسه مثل مصر وآسية الصغرى والمغرب والأندلس وصقلية وجنوبى إيطاليا ؛ ولكن ما عذره فى إهمال البيرونى ؟ بل كيف يمكن أن يقال إنه لم يسمع به وقد كان ذكره على كل لسان فى نواحى الشرق العربى التى زارها الادريسى ؟ إننا لا نذكر البيرونى لمجرد أن اطلاع الادريسى على مؤلفاته كان يعينه على إعطاء صورة للهند رايرانشهر[1] أدق وأوفى مما نقرأ فى «نزهة المشتاق» بل لأن أبا الريحان هو الرياضى الفلكى الجغرافى المسلم الوحيد الذى كان يستطيع أن يضيف إلى مفهوم الجغرافية عند الادريسى شيئاً جديداً حقاً ، فإن نظرياته السليمة فى الفلك والجغرافية ، وآراءه فى هيئة الأرض ومعالمها وتاريخها ، ثم نقده الرصين لنظريات بطلميوس الاسكندرى كانت كفيلة بأن تضيف للادريسى شيئاً جديداً وتخطو بجغرافيته خطوات واسعة إلى الأمام . لقد كان البيرونى كفيلا بأن يضيف إلى جغرافية الادريسى عمقاً ينقصها بشكل واضح ، لان أبا الريحان بين جغرافيينا هو ابن خلدون بين مؤرخينا ، وكما لم ينتفع بأنظار ابن خلدون إلا تلاميذه المقربون مثل تقى الدين أحمد بن على المقريزى ، فإن الذين انتفعوا بكلام البيرونى من جغرافيينا قليلون جداً[2] .

ولكن ، يبدو لنا أن الإدريسى بعد أن قرأ ما قرأ من كتب الجغرافية والفلك ، وبعد أن ساح فى البلاد على قدر ما استطاع ، بدأ يرتسم فى ذهنه

---

(١) مصطلح جغرافى يراد به عند ياقوت الأراضى التى تضم العراق وفارس والجبال وخراسان ، وعند ابن رستة : خراسان وسجستان وكرمان وفارس والأهواز والجبال وآذربيجان والموصل والجزيرة انظر : Wadie Jwaideh, *The introductory chapters of Yakūt's Mu'djam al-Buldān* (Laiden, Brill, 1959) p. 40, n°. 2

(٢) راجع عن آراء البيرونى ونظرياته ما يقوله نفيس أحمد فى « جهود المسلمين فى الجغرافية » ترجمة فتحى عثمان ، ص ٦٤ وما بعدها ، وص ٢٤٢ وما بعدها .

تصور جديد لجغرافية الأرض ومنهج جديد لكتابتها ؛ تصور يختلف تمام الاختلاف عما سبقه إلى ذلك الحين : تصور عام يشمل الأرض كلها على أنها كلٌّ واحد كل ما فيه جدير بالوصف والتحقيق ، فلا يقتصر التحقيق على حوض البحر الأبيض كما عند بطلميوس أو على عالم الاسلام كما عند معظم جغرافيي العرب إلى ذلك الحين ، تصور جغرافى خالص لا يختلط بالتاريخ هذا الاختلاط الذى جعل الكثير من كتب الجغرافية كتب تاريخ أيضـــاً كما نجد عند أبى عبيد البكرى ، ولا يخلط بين الحقيقة والاسطورة كما نجد عند الهَمْدَانى : تصور جغرافى علمي خالص . وبناء على هذا التصور رسم منهجه : منهج مشاهدة وقياس ومقارنة وربط بين الأجزاء بعضها ببعض ومراعاة النسب بينها ، وعمل صورة كاملة للأرض ثم كتابة وصف كامل لهذه الصورة يشمل وصف هيئتها العامة وتقسيمها بعد ذلك إلى منـاطق يستقصى الكلام عنها فى تفصيل ويجمع عنها كل ما تيسر له من المعلومات ، فما شهده بنفسه أثبته كما رآه ، وما لم يشهده سأل عنه أهله ومن رحلوا إليه وساروا فى طرقه أو أبحروا فى أمواهه أو اشتغلوا بالتجارة فيه . ويستكمل ذلك بما عسي أن يجده فى كتب الجغرافية التى تتيسر له . ولا نبالغ إذا قلنا إنه رسم منهجه كما يرسمه أى جغرافى معاصر ، فإن الذى يتصدى اليوم لكتابة جغرافية للمغرب مثلا لا يبدأ بقراءة أبى عبيد البكرى بل ينظر أولا فى كتب المساحة والإحصائيات والدراسات الجزئية عن الجغرافية الطبيعية ثم البشرية ، ويعتمد أولا وقبل كل شيء على المصورات الجغرافية والأوروجرافية ورسوم القطاعات وبيـانات مراكز الارصاد وما إلى ذلك .

وليس معنى هذا أن الادريسى فكر فى هذه العناصر كلها وهو يرسم منهجه الجغرافى ، فإن تصور الجغرافية على هذا النحو لم يولد إلا بعد عصره بقرون ، ولكنه على أى حال فكر فى منهج جديد أو بتعبير أدق : سار فى طريق جديد ، هو الطريق الذى وصل بالجغرافية إلى ما هى عليه اليوم ، وتطلب

منه السير فى ذلك الطريق عناصر لم يجدها فيما بين يديه من الكتب ، لا مصورات عامة أو جزئية دقيقة ولا قياسات يمكن التعويل عليها ، ولا أوصاف للنواحى يمكن الاعتماد عليها ، ولا تفاصيل موثوق فيها كل الثقة عن أجناس البشر ومصادر ثروتهم وميادين نشاطهم وإنتاجهم . وكان عليه أن يبدأ هو بذلك ، فقرر أولا أن يرسم صورة شاملة للأرض حتى يسير على خطة واضحة فى عمله ، ثم قسم هذه الخريطة إلى أقسام صغيرة ، ومضى يبحث المعلومات الموجودة عن كل قسم ويحققها بسؤال من يعرفونها ومقارنة أقوال بعضهم ببعض واستخراج شىء يمكنه الاطمئنان إليه من ذلك كله .

وهذا كله يعطينا فكرة عن المشاكل التى واجهت الادريسى عند ما شرع فى تخطيط جغرافيته ، والطريقة التى لجأ إليها فى علاج هذه المشاكل ، فهذا رجل تنبه فى أوائل القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى إلى المشاكل التى واجهها الجغرافيون المحدثون فى القرن الثامن عشر الميلادى ، واجتهد فى حلها بالوسائل التى كانت فى استطاعته ، ومن الواضح أنها مشاكل لا يستطيع حلها رجل واحد ، إذ الأمر محتاج إلى هيئة أو دولة تؤيده وتعينه ، وقد وجد بعض هذا التأييد عند رجار الثانى ، فأمده بالمال وهيأ له وسائل العمل ، وأضفى عليه حماية الدولة ووسائلها ، فلم يلبث مشروعه أن خرج إلى حيز الوجود ، وأيا كانت الملاحظات التى أبداها العلماء على جغرافيته ، سواء بالنسبة لتصوره الجغرافى العام أو للأوصاف الجزئية أو أبعاد البلاد وأطوال الطرق أو مواقع المدن وحدود النواحى ، فإنه يكفى الادريسى أنه أول من تصدى لعمل جغرافية كاملة للكرة الأرضية معتمداً على أساس علمى تجريبى ، ووفق فى ذلك إلى حد كبير ، فهو مِنْ ناحيةٍ القمة التى وصل إليها العلم الجغرافى فى العصور القديمة والوسيطة ومن ناحية أخرى أول جغرافى حديث .

وقد بنى الادريسى جغرافيته على مفهومات علمية صحيحة مثل كرويةِ الأرض وخطِّ الاستواء والأقاليمِ المناخية التى تتدرج من ذلك الخط إلى القطب واستطراقِ

بحار العالم الكبرى بعضها إلى بعض وتعادل منسوب الماء فيها والبحر وأثره فى المناخ والجبال ودورها فى تكييف الجو وتوجيه الرياح وسقوط الأمطار وما إلى ذلك . وأيا كان حكمنا اليوم على هذه المفهومات فقد كانت ثابتة فى رأيه لا يشك فيها ، فكروية الأرض عنده ثابتة لا شك فيها ، ومن هنا فهو لا يعرض نظريات أخرى فى صورة الأرض ويترك للقارئ أن يختار ما يراه منها كما فعل ياقوت[١] ، وخط الاستواء عنده مفهوم جغرافى ثابت يبنى عليه تقسيمه للأرض إلى أقاليم ، وهو لا يتردد بين خطوط مختلفة ليتخذ منها خطاً رئيسياً يبنى تقسيمه عليه ، وإنما يتخذ الخط المار بالجزائر الخالدات ويثبت عنده . ومعظم هذه المفهومات الأساسية التى ثبت عندها صحيح ، ومن هنا فإن معظم النتائج التى وصل إليها صحيحة سابقة لعصره بمراحل رغم ما تبين من خطأ بعضها بعد ذلك بقرون ، كاعتقاده بثبات الأرض وسط قبة الفلك ودوران الكواكب الأخرى حولها ، وقوله بأن هناك جبلا عظيما محيطاً بالأرض كلها يسمى جبل قاف ، وهو معذور فى هذه الأخطاء ، إذ كيف كان يستطيع أن يتبين أن جبل قاف خرافة إذا كان الناس لم يصلوا إلى آخر الأرض ويتبينوا ذلك إلا بعد ذلك بقرون كثيرة ؟ ونستطيع أن نتتبع المنهج الذى تصوره الادريسى لعمل جغرافيته للأرض ، ثم سار عليه بعد ذلك بدقة فيما يلى :

١ — فيما يتصل بالخريطة العامة الأساسية اعتمد الادريسى على خريطة بطلميوس[٢] ، لأنهـا تشمل الأرض كلها ، ولا يبعد أن يكون قد بدأ بنقلها

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، طبعة القاهرة سنة ١٩٠٧ ، جـ ١ ص ١٣ وما بعدها ، وراجع الترجمة الانجليزية لمقدمة ياقوت بقلم وديع جويدة ، ص ١٩ وما يليها .

(٢) يذهب كونراد ميلر فى مقدمة مجموعة الخرائط العربية التى قام بنشرها إلى أن الادريسى لم يعتمد على خرائط بطلميوس بصورة مباشرة ، بل على نسخ منها قام بعملها مرينوس الصورى ، وربما كان هذا صحيحاً . فسنرى بعد قليل أن الغالب أن الخرائط الجغرافية التى رسمها بطلميوس وجعلها الجزء السابع من كتابه فى الجغرافية قد ضاعت من زمن بعيد ، وربمـا تكون خريطة مرينوس الصورى قد اعتبرت بدلا منها . وأخذها الادريسي على أنها لبطلميوس نفسه .

مكبرة لكى يستطيع بعد ذلك إدخال ما يرى من التعديلات عليها . ولكن بطلميوس كان يتصور الأرض مسطحة ، وقد رسم خريطته على هذا الأساس ، فكان على الادريسى أن يعدل الرسم على أساس كروية الأرض ، ويبدو أن الطريقة التى لجأ إليها فى ذلك هى التى تحدثت عنها مادة « الوافى بالوفيات » حديثاً مبهما كما يلى : « وهو — أى رجار — هو الذى استقدم الشريف الادريسى صاحب كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » من العدوة ، ليصنع له شيئاً فى شكل صورة العالم ، فلما وصل إليه أكرم نزله وبالغ فى تعظيمه ، فطلب منه شيئاً من المعادن ليصنع منه ما يريد ، فحمل إليه من الفضة الحَجَر (أى الخام) وزن ٤٠٠٠٠٠ درهم ، فصنع فيه دوائر كهيئة الأفلاك ، وركب بعضها على بعض ثم شكلها له على الوضع المخصوص[١] » ، وتفسير هذه العبارة فيما أرى أن الادريسى أراد أن يحول الرسم المسطح إلى رسم ينطبق على كرة ، فأتى بصفائح فضة ورسم على كل منها ما رسمه بطلميوس فى كل من الأقاليم السبعة ، ثم أتى بكرة — من الخشب مثلا — فى الحجم المطلوب ، ثم أدار حول نصفها الأعلى ابتداء من خط الاستواء الصفيحة الأولى التى تمثل الإقليم الأول ، ثم أدار صفيحة الإقليم الثانى فالثالث وهكذا إلى السابع (دوائر على هيئة الأفلاك وركب بعضها على بعض ثم شكلها على الوجه المخصوص) ، وعبارة « شكّلها على الوجه المخصوص» يراد بها أنه قَطَع من صفائح الفضة ما تطلبه تطبيق الصفائح على وجه الكرة ، وقد يكون الادريسى قد فعل هذا مستعملا شيئاً غير الفضة — الورق مثلا — واختلط الأمر على الصفدى أو مَن نقل عنه فلما تم الأمر على الورق نقله على صفائح الفضة .

ولا بد أن هذا التطبيق اقتضى من الادريسى عمليات حسابية كبيرة ، لأن

---

(١) المكتبة الصقلية ، ص ٦٥٧ — ٦٥٨

المسألة لم تكن مجرد قطع الزائد من صفائح الفضة أو الورق ، بل حساب ذلك القطع بحسب ما تقتضيه الانحناءات ثم تعويضه .

٢ — ووجد الإدريسى بعد ذلك أن بطلميوس يكتفى بتقسيم الأرض إلى أقاليم أى مناطق عرضية ، والمنطقة الواحدة تدور حول الكرة كلها دون حدود ، مما يصعب معه توقيع الأماكن والأعلام الجغرافية بالدقة ، فقسم محيط الكرة طولا إلى عشرة أجزاء متساوية بخطوط تبدأ من قطب الكرة الأعلى وتنتهى عند قطبها الأسفل ، على طريقة خطوط الطول اليوم ، وبهذا حصل على مستطيلات ، كل منهم يضم مساحة معينة من الأرض وما يقع فيها من الأقطار والمعالم الجغرافية .

أما الأطوال قبل الإدريسى فكانت أطوالا فلكية لا جغرافية ، بمعنى أن الفلكيين قسموا قبة الفلك فوق الأرض إلى ٣٦٠ درجة ثم حرروا ما يمكن أن يقع مقابل كل خط من مدن الأرض ، وقد جعلوا هذا التقسيم بالنسبة لمحيط الأرض عند خط الاستواء ، وقالوا إن الدرجة تعدل ٢٥ فرسخاً ، وتصوروا أن خطوط الطول هذه خطوط مستقيمة متوازية ، ثم أنهم اختلفوا حول خط الطول الذى يتخذ أساساً للحساب (كما نقول نحن خط جرينيتش اليوم) فذهب اليونان إلى أنه الخط المار بساحل المحيط الأطلسى ، وذهب آخرون إلى أنه الخط المار بجزائر السعادات أو فورتوناتوس ، ولا نعلم على وجه التحديد إن كان المراد بها جزائر الكنارياس أو جزائر الأزورس ، أما الهنود والفرس فقد اتخذوا الخط المار بما يسمى قبة أرين أو قبة العرين ، ولا ندرى إن كانت فى الهند أو فى جزيرة فى المحيط الهندى على خط الاستواء ، والنتيجة أن خطوط الطول هذه كانت خطوطاً وهمية فلكية لا تعين على شىء ، وقد أشار إلى ذلك أبو الريحان البيرونى[1] .

---

(١) راجع كلامه عند ياقوت ، معجم البلدان ، ٣٩/١

أما هذه الأطوال التي ابتكرها الادريسى لخطوط تقسيم محدودة المعالم على خريطته ، وهى وسيلة عملية واضحة الفائدة بالنسبة لمن يستعمل هذه الخرائط ، وقد اتخذ الخط الرئيسى ذلك المار بالجزائر الخالدات فى المحيط الأطلسى متابعاً فى ذلك بطلميوس .

٣ — وإلى جانب ذلك أخذ الإدريسي بخطوط العرض المعروفة ، فقسم المسافة بين خط الاستواء والقطب الشمالى إلى تسعين قسماً ، وسمى كل قسم درجة ، وقد فعل ذلك بطريق الحساب ، فى حين كان القدماء يقسمون قبة الفلك نفسها إلى ٣٦٠ درجة ، لكل نصف من نصفيها ١٨٠ درجة ثم يحاولون ضبط مواضع المدن بالنسبة لبروج الفلك ، فكان التقسيم والتوقيع لهذا غير دقيقين ، ومع أن تقسيم الادريسى لم يكن دقيقاً كل الدقة ، لأنه حسب للدرجة ٧٥ ميلا تقريباً ، إلا أنه مقارب للواقع بل أقرب إلى المعقول من التقسيم الفلكى الخالص ، ومن الممكن قياس الدرجات بالمقاييس العادية على حسابه ، وبهذا أمكنه أن يرسم على خريطته بالإضافة إلى حدود الأقاليم خطوط عرض يفصل بين كل منها والذى يليه شمالا وجنوبا ٧٥ ميلا تقريباً . ومن أسف أنه لم يضع خطوط العرض هذه على خرائط الأقاليم التى استخرجها من خريطة العالم التى رسمها .

٤ — وعندما ضبط الإدريسى توزيع البلاد على خطوط العرض على هذه الصورة تبين له أن بطلميوس لم يستوف نواحى المعمور من ناحية ، وأخطأ فى وضع نواح فى غير أقاليمها من ناحية أخرى ، فقد وجده ينتهى فى الشمال إلى الجزر البريطانية ، فى آخر الإقليم السادس ، ولا يضع بعد ذلك شيئاً ، فأكمل الجزر البريطانية وبلاد شمال أوروبا حتى فنلاندا وشمال الروسيا وبلاد اللاب Lappland ووضع ذلك كله فى الإقليم السابع ، وقال فى النص إن أقصى المعمور يصل إلى درجة ٦٨ شمالا فى حين أن هذه النواحى القاصية تصل فى

خرائطه إلى نحو درجة ٧٢ شمالا ، ومن هذا الخط الأخير إلى القطب لم يضع شيئاً على الخريطة ، لأنها بحسب ما انتهى إليه علمه بلاد شديدة البرودة لا تسكن .

وفيما يتصل بجنوب خط الاستواء ، وجد أن بطلميوس لا يتعداه قائلا أن وراء ذلك بلاداً غير مسكونة بسبب شدة الحرارة ، فصوب الادريسى ذلك ، ومد العمران إقليما وخُمسَين جنوب خط الاستواء ، ليضع فيه جزيرة سرنديب وما وصل إلى علمه من جزائر بحر الهند ، ثم منابع النيل ومنابع نهر النيجر ، وهو عنده نيل السودان ، ولم يضع بعد ذلك إلى الغرب شيئاً ، وإنما رسم مساحة أرضية واسعة غير واضحة الحدود ، وقال إنها بلاد غير مسكونة لشدة الحرارة وانعدام الرطوبة وقال : « ولم يقع فى قَسم القِسم الغربى وراء خط الاستواء بَحْرٌ يؤثر فيه هذا التأثـير ، فبقى على كيفية طبعه من اليُبس ، لا يمكن به نباتُ نباتٍ ولا حياةُ حيوان » .

٥ — بعد هذا نزع الإدريسى هذه الصفائح أو الأوراق وبسطها ، وقام بالعملية التى قام بها مركاتور فى أواسط القرن السادس عشر الميلادى ، أى حَوَّل الخريطة الكروية إلى خريطة مسطحة ، مراعياً فى ذلك كل العمليات الحسابية والرياضية التى يقتضيها ذلك التحويل ، وهنا تظهر عبقرية الشريف الإدريسى ، لا كرياضى جغرافى فحسب ، بل كمجدد وصاحب نظر حصيف ومفكر سابق لأوانه(١) ، فإن تحويله جاء من الدقة بحيث أنه عندما عمل بعد

---

(١) Konrad Miller, *Mappae Arabicae, Arabische Welt und Landeskarten,* (6 vols. Stuttgart 1926-1928) 1, 2, p. 53.

O. J. Tuulio, *Le géographe arabe Idrīsī et la topographie baltique,* Ann. Soc. Fenn. B, XXX, 2, 1934.

وقد عاد توليو إلى هذا الرأى فى أبحاثه الأخرى عن الادريسى ، أنظر له :
Du Mouveau sur Idrisi وهو بحث نشر فى نفس الصحيفة (حوليات الجمعية الشرقية الفنلدية) مجلد ٧ قسمى ٣ و ٤ ، وانظر أيضاً :

O. J. Tallgren - Tuulio et M. Tallgren, *La Finlande et les autres pays baltiques orientaux* (Geographie VII, 4). Edition critique du texte arabe, avec facsimilés de tous les Manuscrits connus, traduction, étude de la toponomie, aperçu historiques, cartes et gravures ainsi qu un appendice donnant le text de VII 3 et VII 5, dans Studia Orientalia, Helsinki 1930.

ذلك كرة أرضية من الفضة وجعل النقاشين والرسامين ينقلون على مستطيلاتها محتويات كل مستطيل من مستطيلات الخريطة المسطحة ، جاء النقل دقيقاً كل الدقة ، فجاء كل بلد أو علم جغرافى فى موضعه وهذه الخريطة المسطحة هى التى يسميها الإدريسى لوح الرسم .

ونظن أن عمل لوح الرسم هذا وتحقيقه ووضع أسماء المواضع عليه هو الذى استنفد معظم الوقت الذى قضاه الادريسى فى هذا العمل ، فقد قرأ أولا ما كتبه بطلميوس وحقق المواضع الواردة فى نصه على خريطته — أى خريطة بطلميوس — واستكملها ، ثم أعاد قراءة ما لديه من كتب الجغرافية عن كل ناحية ووقع ما فيها من الاعلام على لوح الرسم ، ثم عمد بعد ذلك إلى تحقيق ذلك كله « فوقع اختيارهما — أى الإدريسى ورجار — على أناس أَلِبَّاء فطناء أذكياء ، وجهزهم رجار إلى أقاليم الشرق والغرب جنوباً وشمالا ، وسَفَّر معهم قوماً مصورين ليصوروا ما يشاهدونه عياناً ، وأمرهم بالتقصى والاستيعاب لما لا بد من معرفته ، فكان إذا حضر أحد منهم بشكلٍ أثبته الشريف الادريسى حتى تكامل له ما أراد »[(١)] . وينبغى أن نضيف هنا أن الادريسى لم يعتمد فقط على أولئك الذين يصفهم الصفدى بأنهم « أَلِبَّاءَ فطناء » بل اعتمد فى كثير من الأحيان على تجار أو سُفَّار من أهل تلك النواحى أو من جابوا أقطارها وبحارها ، وليس من الضرورى أن يكون التجار والسُّفَّار والملاحين عارفين بالمواقع الدقيقة للبلاد واتجاهات الأنهار وفروعها والبحار وخلجانها وأبعادها ، ومنهم من يقدر المسافات بالمراحل (جمع مرحلة وهى مسيرة يوم على ظهور الدواب ، والبغال تقطع فى اليوم ما بين ٣٥ و ٤٥ كيلومتراً) ومنهم من قدر بالميل الرومانى (وهو نحو ١٤٨١ متراً) ، ومنهم من قدر بالميل العربى (وطوله كما يتبين من قياسات الإدريسى يتراوح بين كيلومتر وكيلومترين) ومنهم من قدر بالميل

(١) الصفدى ، الوافى بالوفيات ، قطعة نشرها أمارى فى المكتبة الصقلية ، ص ٦٥٨

البحرى (وطوله نحو ٢٠٠٠ متراً) ، أو بالمجرى (وهو المسافة التى تقطعها السفينة الشراعية فى البحر فى يوم ، وهذه المسافة تتراوح بين ٤٠ و ٥٠ كيلومتراً) ، ونتيجة ذلك أن وقعت فى لوح الرسم مفارقات جسيمة فى تقديرات الأبعاد والاتجاهات . فأما فيما يتصل بالأولى وهى الأبعاد فقد كان على الادريسى أن يحوّل كل بُعد منهـا إلى مقياس الرسم ، ثم يوقعه على الخريطة مستعيناً « بآلات الحديد » والمراد بها البركار والمثلث والمسطرة وما إليها . وكان عليه فى كل حالة أن يحسب البعد الصحيح للموقع بالنسبة للمستطيل الذى يقع فيه أولا ، ثم بالنسبة للخريطة كلها .

وقد وصف لنا الإدريسى نفسه ما لقيه من العنـاء فى ذلك العمل حين قال : « . . . فأحضر لديه العارفين بهذا الشأن ، فباحثهم عليه ، وأخذ معهم فيه ، فلم يجد عندهم علماً أكثر مما فى الكتب المذكورة ، فلما رآهم على مثل هذه الحال بعث إلى سائر بلاده ، فأحضر العارفين بهـا المتجولين فيها ، فسألهم عنها بواسطة[١] جمعاً وأفراداً ، فما اتفق فيه قولهم ، وصَحَّ فى جمعه نقلهم أثبته وأبقاه ، وما اختلفوا فيه ألغاه وأرجاه ، وأقام فى ذلك نحوا من خمس عشرة سنة ، لا يُخْلِى نفسه فى كل وقت من النظر فى هذا الفن ، والكشف عنه والبحث عن حقيقته إلى أن تم له فيه ما يريده . ثم أراد أن يعلم[٢] يقيناً صحة ما اتفق عليه القوم المشار إليهم فى ذكر أطوال مسافات البـــلاد وعروضها ، فأحضر إليه لوح الترسيم ، وأقبل يختبرها بمقاييس من حديد شيئاً فشيئاً ، مع نظره فى الكتب المقدم ذكرها ، وترجيحه بين أقوال مؤلفيها وأمعن النظر فى جميعها[٣] حتى وقف على الحقيقه فيها . . .[٤] » .

---

(١) هذا هو اللفظ الذى أشرنا إليه آنفاً وقلنا ان بعده شيئاً ناقصاً ، وقد اقترح بعضهم تصويبه الى « بواسطتى » .

(٢) فى الأصل « يستعلم » والقراءة التى أثبتناها واردة فى إحدى النسخ التى رجع إليها أمارى .

(٣) فى الأصل « جمعها » والصورة التى أثبتناها أوفق للسياق .

(٤) فاتحة نزهة المشتاق ، المكتبة الصقلية ، ص ١٨ .

وقول الإدريسى « فأحضر إليه لوح الترسيم ، وأقبل يختبرها بمقاييس من حديد شيئاً فشيئاً » تقتضى أن لوح الترسيم هذا كان قد أُعِدَّ قبلا وأن الإدريسى مضى يحقق عليه أقوال الكتب والرحالة ويختبره بمقاييس الحديد ، أى بآلات القياس التى ذكرناها .

وجدير بالملاحظة أن إنشاء لوح الرسم هذا واستكماله أعان الادريسى على تصحيح كثير من المفهومات القديمة ورسمها على نحو قريب من الحقيقة ، مثال ذلك أن شبه الجزيرة الإيبيرية موصوف فى النص على أنه مثلث الشكل اتباعا للرأى القديم الذى أشرنا إليه ، فإذا نظرنا إلى خريطة الجزأين الأول والثانى من الإقليم الرابع وجزء من الإقليم السادس كما نشرها ميلر لاحظنا أن شبه الجزيرة لا يبدو مثلثاً ، بل على صورة قريبة جداً من هيئته فى الحقيقة .

ولوح الرسم أو الترسيم هذا هو الذى نقل الإدريسى رسمه على الكرة الفضية كما سنرى ، وهو الذى نقله أجزاء فى كتـــاب نزهة المشتاق ، والشائع أنه ضاع ولم يبق له أثر ، وهو بالفعل قد ضاع كما ضاعت الكرة الفضية ، ولكن بقيت منه صورة نقلها بعضهم سنة ١١٩٢ (٥٨٨ هـ.) فى صقلية ، ومن حسن الحظ أن هذه الصورة بقيت ، ونشرها كونراد ميلر فى مجموعته المسماة « الخرائط العربية[١] » وهى التى تصور مستوى الادريسى فى رسم الخرائط . أما الخرائط الصغيرة الواردة فى مخطوطات « نزهة المشتاق » فقد أصابها تحريف شديد بسبب كثرة النقل وقلة مهارة الناسخين فى نقل الرسوم ، وأمامى الآن خرائط مصر فى ٧ مخطوطات لا تكاد إحداها تتفق مع الأخرى تمام الاتفاق .

٦ — فإذا تم هذا التحقيق المتعب قام الإدريسى بخطوة أخرى لا تقل عسراً ، وهى نقل لوح الترسيم هذا على كرة أرضية ، ونحن نذكر لفظ كرة

---

(١) Konrad Miller, *Mappae Arabicae* خريطة الجزأين الأول والثانى من الاقليم الرابع وجزء من كل من الاقليمين الثالث والخامس .

هنا لأنه أقرب إلى تصورنا لا لأنه ثابت ، لأن الادريسى نفسه يقول : « فأمر عند ذلك أن يفرغ له من الفضة الخالصة دائرة مفصلة عظيمة الجرم ضخمة الجسم فى وزن أربعمائة رطل بالرومى ، فى كل رطل منها ١١٢ درهماً » ولا نفهم المراد هنا بلفظ « دائرة » ، لأن الدائرة غير الكرة ، والادريسى رجل دقيق ، فلماذا لم يستعمل هذا اللفظ الأخير ؟ أما الصفدى فيقول : « ليصنع له شيئاً فى شكل صورة العالم » وصورة العالم فى رأى الادريسى كرة . ثم إن قول الادريسى « دائرة عظيمة الجرم ضخمة الجسم » يفهم منه أن الذى عُمِلَ كان شيئاً ضخماً عظيم الجرم ، لا مجرد صفيحة مبسوطة . ومع أن هناك خلافاً فى تقدير الفضة التى دخلت فى ذلك العمل بين ما يقوله الادريسى وما يذكره الصفدى ، فقد أخذ سكياباريللى بقول الادريسى ، فحسب دراهم الفضة التى ذكرها وهى ٤٤٨٠٠ درهماً وقال إنها تزن ١٥٠ كيلوجراماً[1] ، وذهب ميلر إلى أن الذى صنع كان صفيحة لا كرة ، وقدر سمكها بثلاثة مليمترات ، وعلى هذا الأساس قدر أبعادها : ٣,٥ متراً فى الطول و ١,٥ فى العرض .

وأياً كان شكل الصورة الأخيرة لخريطة الادريسى ، فقد وصف لنا بنفسه طريقة تنفيذها ، قال : « فأمر عند ذلك أن يفرغ له من الفضة الخالصة دائرة مفصّلة عظيمة الجرم ضخمة الجسم فى وزن ٤٠٠ رطل بالرومى ، فى كل رطل منها ١١٢ درهماً ، فلما كملت أمر الفَعَلَة أن ينقشوا فيها صور الأقاليم السبعة ببلادها وأقطارها وسيفها وريفها ، وخلجانها وبحارها ومجارى مياهها ومواقع أنهارها ، وعامرها وغامرها ، وما بين كل بلدين منها وبين غيرها من الطرقات المطروقة والأميال المحدودة ، والمسافات المشهودة ، والمراسى المعروفة ،

---

(١) Luigi Schiaparelli, *L'Italia descritta nel Libro del Re Ruggero Compilato da Edrisi - Ralazione preceduta da un cuadro degli studi geografici in Occidente dall principio dell Impero romano al secolo XIII*, Torino 1883.

على نص ما يخرج إليهم ممثلا فى لوح الترسيم ، ولا يغادروا منه شيئاً ، ويأتوا به على هيئته وشكله كما يرسم لهم فيه » .

ومعنى هذا أن « لوح الترسيم » أو الخريطة التى صنعها نقلت على الفضة بغاية الدقة مُبَيَّناً فيها : حدود الأقاليم السبعة — الأقطار الواقعة فى كل منها — شواطئ هذه الأقطار وأراضيها — ما فى هذه الشواطئ من الخلجان وما تطل عليه من البحار — مجارى المياه ومنابعها ، أى وديان الأنهار وأحواضها والعيون والآبار والأراضى المزروعة المسكونة والأراضى القاحلة أو الصحراوية غير المسكونة — المدن والمسافات بينها — الطرق المستعملة بين المدن والأقطار مبينة بالأميال أو غيرها من المقاييس المستعملة — الموانى المعروفة .

٧ — وإكمالا لهذا العمل كان لابد من تأليف كتاب مطول يشرح هذه الخريطة : « وأن يؤلفوا كتاباً مطابقاً لما فى أشكالها وصورها ، غير أنه يزيد عليها بوصف أحوال البلاد والأرضين فى خلقها وبقاعها وأماكنها وصورها وبحارها وجبالها وأنهارها ومسافاتها[١] ومزروعاتها وغلاتها ، وأجناس نباتها وخواصها ، والاستعمالات التى تستعمل بها ، والصناعات التى تنفق بها ، والتجارات التى تجلب إليها وتُحمل منها ، والعجائب التى تذكر عنها وتنسب إليها ، وحيث هى فى الأقاليم السبعة ، مع ذكر أحوال أهلها ، وهيئاتهم وخلقهم ومذاهبهم وزينتهم[٢] وملابسهم ولغاتهم ، وأن يسمى هذا الكتاب « بنزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » ، وكان ذلك فى العشر الأوائل من يناير الموافق لشهر شوال الكائن فى سنة ٥٤٨ ، فامتُثِلَ فيه الأمر ، وارتُسم فيه الرسم ، وأول ما ابتدئ به الكلام على صورة الأرض ...[٣] » .

---

(١) فى الأصل ومماواتها ، ولا معنى له . والصورة التى أثبتناها وردت فى أحد المخطوطات التى رجع إليها أمارى ، وفى مخطوطة أخرى : ومواتها .

(٢) فى الأصل : وزيهم ، وهو جائز فى معنى ما أثبتناه .

(٣) المكتبة الصقلية ، ص ١٨ — ١٩ .

ومعنى هذا أن الادريسى رسم خطة كتابه على أن يكون جغرافية طبيعية وبشرية كاملة للعالم أجمع ، وتخطيطه هنا — إذا أضفنا إليه ما ورد من التفاصيل بشأن الخريطة — مفهوم كامل علمى سليم . وقد سبق الادريسى إلى مثل هذا المنهج المقدسىُّ ، ولكن الفرق فى التنفيذ بين الاثنين واسع جداً ، فعلى حين أن المقدسى لم يحقق مما وعد به فى فاتحة كتابه إلا جانباً يسيراً جداً ، نجد الادريسى حققه كاملا فى كتابه ، فأورد وصف كل جزء من جغرافيته بطريقة علمية موضوعية خالصة كما يكتب أى باحث جغرافى اليوم كما سنرى فى الفقرة التالية .

عمل الإدريسى وعلاقته بما قبله

على رغم قلة المؤلفات الجغرافية الوارد ذكرها فى فاتحة نزهة المشتاق يلاحظ بوضوح أن عمله — سواء فى الخرائط أو فى نص نزهة المشتاق — يمثل كل المدارس الجغرافية العربية والاسلامية التى ظهرت إلى عصره فى الشرق أو الغرب الاسلاميين ، فإن أخذه بنظرية الأقاليم السبعة واتباعه إياها يدل على أنه عرف الترجمات العربية لجغرافية بطلميوس واطلع فى الأغلب على أحسن ترجمة لها ، وهى التى قام بها ابن خرداذبة ، ولم تصل إلينا هذه الترجمة ، ولكن ابن خرداذبة يقول فى فاتحة كتابه أنه اعتمد عليها فى تصنيف كتابه « المسالك والممالك » ، ولو أننا استطعنا الحصول على أصل هذا الكتاب لتبينت لنا العلاقة بين الادريسى وهذا الرائد الجغرافى بصورة أوضح ، ولكننا لا نملك إلا المختصر الذى نشره دى خوية . وتدل مناقشة الادريسى لآراء بطلميوس فى بعض الفصول الأولى من « نزهة المشتاق » على أنه أطلع على كتاب « صورة الأرض » لمحمد بن موسى الخوارزمي دون أن يقتنع باتجاهه الفلكى فى الجغرافية . ومن الواضح أن الخوارزمى ومدرسته كان لهما تأثير قليل فى سير العلم الجغرافى عند المسلمين ، حتى إن المقدسى عند ما استعرض كتب الجغرافيين السابقين عليه

ونقدها لم يشر إلى الخوارزمى أو أحد من تلاميذه . وربما كان السبب فى قلة احتفاله بآراء هذه المدرسة أنه اطلع عليها كما عرضها المسعودى فى كتبه ، وقد كانت هذه الآراء قد فقدت كل أساسها الرياضى والفلكى وأصبحت مجرد جداول جافة بالأطوال والعروض ، ومن نتائج ذلك أن عَسُر تطبيقها على المؤلفين حتى لقد قال المسعودى إن جميع المدائن الكبرى فى العالم تقع على خط عرض واحد[١] ، ثم إن الرسوم الواردة فى ذلك الكتاب لا تعد — باستثناء خريطة النيل — خرائط جغرافية ، إنما هى رسوم توضيحية للنص فحسب . ويبدو أن الادريسى باتجاهه العملى الواقعى ، استبعد من أول الأمر تلك المؤلفات الفلكية ، لأنها لا تفيد فيما كان يطلبه من وصف البلاد وتحديد مواقعها على صورة تطابق الواقع[٢] .

أما المدرسة التى سار الادريسى فى طريقها ووصل بعملها إلى قمته فهى مدرسة البلدانيين والمسالكيين : مدرسة أبى القاسم عبيد الله بن عبد الله ابن خرداذبة وأبى العباس جعفر بن محمد المروزى (توفى سنة ٢٧٤/٨٧٧) وأحمد بن محمد بن مطيب السرخسى (توفى ٢٨٦/٨٨٩) وأحمد بن أبى يعقوب ابن جعفر بن واضح اليعقوبى (توفى ٢٨٤/٨٩٧) ، وغيرهم ممن لم يأخذوا من الفلكيين إلا مفاهيم عامة مثل تقسيم الأرض إلى الأقاليم السبعة ووقوع بعض البلاد على أفلاك بعض النجوم وأثر ذلك فى الأخلاق والمزاج ، ثم اعتمدوا بعد ذلك فى بناء صلب كتبهم على أقوال الرحالة والتجار وأهل البلاد وقوائم الخراج

---

(١) نشر كتاب صورة الأرض للخوارزمى هـ. فون مجيك H. V. Mzik سنة ١٩٢٦ . وانظر مادة «جغرافية» فى ملحق دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الأولى) ص ٦٨ .

(٢) انظر عن هذه المدرسة الفلكية وتقدير قيمة أعمالها :

Aḥmad Zaki Walīdī, *Der Islam und die Geographische Wissenschaft*, *Geographische Zeitschrift*, 1934, p. 361 sqq.

George Sarton, *Introduction to the History of Science*, vol. II, Baltimore, 1927-1931.

ووثائق الدولة إذا أمكن ، وذلك واضح من تفصيل منهج الإدريسى كما يتبين فى فاتحة كتابه التى أتينا بمعظم فقراتها .

ويتجلى ذلك بصورة أوضح إذا نحن قارنا طريقة الادريسى فى نزهة المشتاق بطريقة المسالكيين والبلدانيين من أهل القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) مثل أبى بكر بن محمد بن إسحق بن الفقيه المعروف بالهمدانى (ألف كتابه البلدان سنة ٢٩١ / ٩٠٢ على الأغلب ، وليس لدينا إلا مختصره الذى عمله جعفر ابن على الشيرازى سنة ٤١٣ / ١٠٢٢) وأبى الفرج قدامة ابن جعفر المتوفى سنة ٣١٠ / ٩٢٢ ، وكتابه «الخراج» إن هو إلا قطعة من موسوعة كبيرة جمع فيها أشتات العلوم والمعارف فى عصره ، وأبى على أحمد بن محمد بن اسحق ابن رُسْتَه ، وهو موسوعى آخر لم يبق لنا من كتابه الجامع المعروف بالأعلاق النفيسة إلا جزؤه السابع ، وهو يضم لحسن الحظ أوصاف بعض الطرق الكبرى فى مملكة الاسلام ، ووصفه هذا هو النموذج الذى احتذاه المسالكيون بعده ، وأثره واضح فى وصف الطرق عند الادريسى ، ثم مدرسة الجغرافيين الخرائطيين وأهمهم البلخى والاصطخرى وابن حوقل وآخر من انتهى إليه علم المسالك والممالك والبلدان فى الشرق وهو المقدسى .

هذه الجماعة الأخيرة هى التى ابتكرت طريقة رسم «الأشكال» أو «صور الأقاليم» واعتبارها الأساس الحقيقى للعلم الجغرافى ، ثم تكون النصوص المكتوبة بعد ذلك شرحاً وتوضيحاً لها ؛ وكان معولهم فى جمع المعلومات اللازمة لهذا الشرح على أقوال أهل البلاد والرحالة أو الرحلة والمشاهدة المباشرة إذا أمكن . ولم تصل إلينا مجموعة خرائط أبى زيد أحمد بن سهل البلخى المسماة «بالأشكال» أو «صور الأقاليم» ، ولا الكتاب الذى يشرحها المسمى «بالمسالك والممالك» ، ولكن معظم نص هذا الأخير وصل إلينا برواية أبى اسحاق إبراهيم بن محمد الاصطخرى فى كتابه المسمى «بالمسالك والممالك» أيضاً ، فإن قراءة نص هذا الأخير تدل على أنه اعتمد اعتماداً كبيراً على كتاب البلخى ، حتى لقد ذهب بعض

الباحثين المحدثين إلى أن الإصطخرى لم يصنع أكثر من أن نقل كتاب البلخي مع زيادات وتعديلات طفيفة جداً [١] .

ويستتم الكلام عن هذه الجماعة بذكر ابن حوقل ، أبى القاسم محمد النَّصِّيبى ، فإنه وإن كان رحالةً جوابَ آفاق ومعظم معلوماته مستقى من مشاهداته وتحقيقاته إلا أن كتابه « المسالك والممالك » يقوم على أساس من كتاب الإصطخرى ، والتشابه بين النصين فى الفصول الأولى خاصة يصل إلى الحرفية [٢] ، بل يبلغ التشابه إلى درجة أن ابن حوقل ينقل عن الإصطخرى عبارات لم يكن يصعب عليه أن يجد ما يؤدى معناها لولا ذلك الالتزام [٣] .

والأساس فى هذه الكتب الثلاثة هى « الصور » أو « الأشكال » أى ما نسميه نحن بالخرائط ، وينص كل من الإصطخرى وابن حوقل على ذلك فى فاتحة الكتاب ، بل إن منهجهما فى رسم الصور وتقسيمها واحد ، يبدأ بصورة عامة للأرض ، ثم تليها مجموعة خرائط تفصيلية ، لكل إقليم أو ناحية خريطة وهما يقولان فى تفصيل هذا المنهج : «فاتخذت لجميع الأرض التى يشتمل عليها البحر المحيط الذى لا يُسلك صورةً إذا نظر إليها ناظر علم مكان كل إقليم مما ذكرناه واتصال بعضه ببعض ومقدار كل إقليم من الأرض . . .» . . . ثم «أفردت لكل إقليم من بلاد الاسلام صورة على حدة بينت فيها شكل الاقليم وما يقع فيه من المدن وسائر ما يحتاج إلى علمه مما آتى على ذكره فى موضعه إن شاء الله تعالى» .

---

(١) انظر : De Goeje, *Die Istachri-Balchi-Frage* Z. D. M. G., XXV), p. 42, sqq.
J. H. Kramers, *La question Balhī - Istahrī - Ibn Ḥawkal et l'Atlas del Islam,* Acta Orientalia, X, 9 sqq.

(٢) راجع الصفحات الأولى من نص كل من الكتابين وخاصة ما يتعلق بتقسيم الأقاليم وحدود الممالك .

(٣) لاحظ قول ابن حوقل : فابتدأت بديار العرب ، لأن القبلة بها ومكة فيها ، وهى أم القرى وبلد العرب وأوطانهم التى لم يعترهم فى سكناها غيرهم . . . الخ (ص ١٨ — ١٩) وهذا الكلام يرد حرفياً تقريباً عند الاصطخرى ، ص ١٢ — ١٣ .

بيد أن الخرائط التى يضمها كل من الكتابين تختلف فيما بينها اختلافاً واضحاً يدل على تقدم ظاهر فى تصور الأطالس وطريقة تقسيمها ورسمها ، وما دمنا نستعرض الآن تطور هذا الفن حتى الإدريسى فلنذكر محتويات كل « أطلس » منهما حتى تتضح الزيادة التى أتى بها الادريسى والخطوة التى خطاها فى هذا الميدان .

فأما خرائط الإصطخرى فلم تصل إلينا ، ولكنه أورد بيانها فى مقدمة كتابه ، وعددها — بعد صورة الأرض — عشرون هى :

١ — ديار العرب
٢ — بحر فارس
٣ — المغرب
٤ — مصر
٥ — الشام
٦ — بحر الروم
٧ — الجزيرة
٨ — العراق
٩ — خوزستان
١٠ — فارس
١١ — كرمان
١٢ — المنصورة وما يتصل بها من بلاد الهند والسند والاسلام
١٣ — أذربيجان وما يتصل بها
١٤ — كور الجبال
١٥ — الديلم
١٦ — بحر الخزر
١٧ — المفازة التى بين فارس وخراسان
١٨ — سجستان وما يتصل بها
١٩— خراسان
٢٠ — ما وراء النهر

وأما خرائط ابن حوقل فقد وصلتنا كاملة ، وأدرجها ج. ه. كرامرز فى الطبعة الثانية من كتاب صورة الأرض (١٩٣٨) ، وعددها ، بعد صورة الأرض اثنتان وعشرون ، هى :

١ — ديار العرب
٢ — بحر فارس

٣ — المغرب من مصر إلى القيروان ٤ — المغرب من القيروان إلى طنجة والأندلس

٥ — مصر من الجيزة إلى البحر ٦ — مصر من الجيزة إلى النوبة

٧ — الشام ٨ — بحر الروم

٩ — الجزيرة المشهورة بديار ربيعة وبكر ودجلة والفرات ١٠ — العراق وبطائحها إلى البحر

١١ — خوزستان ١٢ — فارس

١٣ — كرمان ١٤ — بلاد السند مع نهر ملتان وما يصاقبه من بلاد الهند والاسلام

١٥ — أذربيجان ١٦ — الجبال وأعمالها

١٧ — الديلم وطبرستان ١٨ — بحر الخزر

١٩ — برية فراسان وفارس ٢٠ — سجستان

٢١ — خراسان ٢٢ — ما وراء النهر

ونلاحظ أولا أن هذه الخرائط كلها هى خرائط العالم الإسلامى وحده ، ومن هنا فقد سميت مجموعة خرائط البلخى والأصطخرى وابن حوقل « بأطلس الإسلام » ، وتضاف إليها الخرائط التى كانت فى كتاب «أحسن التقاسيم» لمحمد بن أحمد بن أبى بكر المقدسى ، فقد كان هو الآخر يضم رسوماً فقد قال : «وأوضحنا الطرق لأن الحاجة إليها أشد ، وصورنا الأقاليم لأن المعرفة بها أروح[1] » وواضع مصطلح أطلس الإسلام ، هو كونراد ميلر فى دراسته القيمة على الخرائط الإسلامية .

ولا شك فى أننا لو عثرنا على خرائط المقدسى لوجدنا الحلقة المفقودة بين خرائط ابن حوقل وخرائط الإدريسى ، فإن تصور المقدسى للأقاليم يكاد يشف

(١) أحسن التقاسيم للبشارى المقدسى ، بتحقيق دى خوية ، ص ٨ .

عن هيئة الخرائط كما صورها[١] . ولم يذكر الإدريسيُّ المقدسىَّ بين من أخذ عنهم ، ولكننى تبينت نقله عنه فى أكثر من موضع ، مثال ذلك :

يقول المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٥٨

... فأما الأرض فإنها كالكرة موضوعة جوف الفلك كالمحة فى جوف البيضة ، والنسيم حول الأرض ، وهو جاذب لها من جميع جوانبها إلى الفلك وبِنْيَةُ الخلق على الأرض أن النسيم جاذب لما فى أبدانهم من الخفة ، والأرض جاذبة لما فى أبدانهم من الثقل ، لأنَّ الأرض بمنزلة الحجر الذى يجذب الحديد ... والأرض مقسومة بنصفين بينهما خط الاستواء ، وهو من المشرق إلى المغرب ، وهذا طول الأرض ، وهو أكبر خط فى كرة الأرض ، كما أن منطقة البروج أكبر خط فى الفلك .

ويقول الإدريسى فى فاتحة نزهة المشتاق :

... الأرض مستقرة فى جوف الفلك ، وذلك لسرعة الفلك ، وجميع المخلوقات على ظهرها ، والنسيم جاذب لما فى أبدانهم من الخفة ، والأرض جاذبة لما فى أبدانهم من الثقل ، بمنزلة المغنطيس الذى يجذب الحديد إليه .

فالأرض مقسومة بقسمين ، بينهما خط الاستواء ، وهو من المشرق إلى المغرب ، وهذا هو أطول [خط فى] الأرض ، كما أن منطقة البروج أكبر خط فى الفلك .

وإذن فقد رجع الادريسى إلى المقدسى واعتمد عليه ، وخاصة فى هذه المفهومات العامة الخاصة بهيأة الأرض ووضعها فى الفلك وقسمتها بخط الاستواء

(١) انظر وصف المقدسى لمملكة الاسلام ، أحسن التقاسيم ، ص ٦٢ — ٦٣ .

إلى قسمين وما إلى ذلك مما نجده متواتراً عند جغرافيينا من الخوارزمي فصاعدا ، ولكن ألفاظ الادريسي هنا أقرب إلى ألفاظ المقدسي ، ولهذا رجحنا أن يكون أخذه عنه لا عن غيره . وربما كان تشبيه وضع الأرض في الفلك بالمح في البيضة راجعاً آخر الأمر إلى ابن رستة ، فهو أول من قال بذلك بين جغرافيي العرب ، ولكن الادريسي اختار قول المقدسي ، وهو محق في ذلك ، لأن المقدسي دون شك أكبر مَسَالِكِيّ الشرق الإسلامي قبل الادريسي ، وهو لم يدرس إلى الآن الدراسة التي هو جدير بها .

ولكن الادريسي إذ أخذ هذه الأقوال أضاف إليها من علمه وذكائه وجعل تلك المفهومات العامة أقرب إلى صورتها التي هي عليها اليوم ، خذ مثلا قوله : « ومع أن الأرض كرة ، هي غير صادقة الاستدارة ، منها منخفض ومنها مرتفع ، ولهذا قيل فيما انكشف أنه تضاريس ، والبحر محيط بنصف الأرض إحاطة متصلة ، دائر بها كالمِنْطَقة ، لا يظهر منها إلا نصفها ، وهو ما دارت عليه الشمس في قوس النهار ، مثل بيضة مُغَرَّقَة في ماء ، انكشف منها ما انكشف وانغمر ما انغمر » والمراد بنصف العبارة الثاني هو إحاطة البحار باليابس في النصف الشمالي وبعض الجنوبي من الأرض ، بحسب تصور الادريسي ، وهو تصور لا يبعد عن الصحيح المقرر ، ومن الغريب مع هذا الوضوح أن الباحث الهندي مقبول أحمد فَهِم أول هذه العبارة على أن الادريسي لم يقل بكروية الأرض وترجم عبارة الادريسي التي رويناها ترجمة تدعو إلى الدهشة حقاً ، ومن الغريب كذلك أنه ينسب هذا الكلام إلى لويجي سكياباريلي في مقدمته للجزء الذي نشره عن إيطاليا من نزهة المشتاق ، ولم نجد مثل هذا القول في كلام سكياباريلي في الموضع الذي أشار إليه[١] .

---

(١) Maqbūl Ahmad, *India* ... p. 7. ونص عبارته :

Al-Idrīsī held the conception that the Sphericity of the earth was not true ..!

ويلاحظ أن مقبول أحمد في كتابه هذا يغمط قدر الادريسي بصفة عامة ، وهو في هذا يتابع أستاذه مينورسكي وهو أيضا على هذا الرأي ، كما يبدو في تقديمه للكتاب .

وربما كان هذا الاتجاه نحو ما هو واقعى ومنطقى هو الذى صرف الادريسى عن الاعتماد على «المسالك والممالك للبكرى» ، فإن هذا الكتاب يبدأ بمقدمات طويلة عن أصل الخلق وسِيَر الأنبياء ، ولا يصل القارئ إلى الأجزاء العلمية من الكتاب إلا بعد أن يقطع نحو نصف الجزء الأول ، ولعله رأى بعد ذلك أن البكرى يعتمد على كتابى بطلميوس الرئيسيين ، وهما «جغرافيا» و «المجسطى» وعلى مؤلِّفين آخرين أهمهم العُذْرى ، وكان كتاب العذرى بين يديه ، ثم إن الجزء الأهم من جغرافية البكرى وهو الخاص بالمغرب والبحر الأبيض لا يقدم له شيئاً جديداً ، فهو — أى الادريسى — خبير بالمغرب والبحر الأبيض ، كما يدل على ذلك كلامه ، وسواء أكان هذا هو الصحيح أو أن كتب البكرى لم تصل إليه ؛ فقد خسر الادريسى بعدم الاعتماد عليه ما خسره بعدم الاطلاع على أبى الريحان البيرونى ، فإن البكرى يقارب البيرونى فى الغرب الإسلامى فى علمه وذكائه وأمانته ، وإن كان البيرونى ناقداً مدققاً يبحث كل ما يقرؤه أو يصل إلى علمه ، فى حين كان البكرى ناقلا فحسب ، وهو نفسه يقول : « وإنما ننقل فى كل موضع من هذا الكتاب ما يُسْتَنْسَخُ لنا ، وعندنا كتب الناس ، فننقل ذلك عنهم على حسب ما نجده ، لا ما نقع على صحته »[1] ، وقد أسرف البكرى فى التواضع فى هذا القول ، لأنه ـ وان كان لا ينقل عنهم ـ كان يقرأ ما يطلع عليه قراءة جيدة ويعرضه عرضاً هو غاية فى الوضوح ، مثال ذلك كلامه عن الأقاليم السبعة ، وهو كلام لا يقل فى الدقة والإيجاز والوضوح عما نجده عند الادريسى وياقوت[2] .

وعلى أى الأحوال ، فإن الادريسى لم يغادر شيئاً هاماً مما وصل إليه الجغرافيون المسلمون — عدا البيرونى — فيما يتصل بالتصور العام للأرض

---

(١) مخطوط دار الكتب بالقاهرة رقم ٣٠٤٤ ، ورقة ٩٩-١ .

(٢) راجع نفس المخطوط ، الفصل الذى عنوانه « جملة جمعناها من كتب فلاسفة اليونانيين فى الأقاليم السبعة» ورقة ٩٩ ب وما بعدها .

والكون ، وكل ما فاته هو ذلك الإيجاز البليغ الذى نجده عند البكرى ، ولا شك أن هذا الأخير أوجز كل ما عند الخوارزمى وابن رستة عن كروية الأرض عند ما قال : « وقد بيّن أهل العلم بالهندسة بغير وجه من البراهين أن الأرض ثابتة فى وسط العالم ، قائمة فى مركزه ولا حركة لها فى ذاتها ، وأنها مستديرة الشكل ، وأن جميع الأثقال تميل ويرجعن إليها بالطبع ، وأن كل جزء من أجزائها البعيدة عن المركز بِدَوْرِ الارتفاع والانخفاض ، مطيعة إلى مركزها ، وأن الفلك المستقيم يدور عليها بجميع ما يحيط به من الأفلاك والكواكب السيارة والثابتة دورةً واحدة فى كل أربع وعشرين ساعة مستوية ، هى جملة النهار والليل من آخر النهار ، وركب الله عز وجل على الأرض جرم الشمس ، لعلمه بالحكمة التى ينبغى أن يكون عليها تركيب العالم فى فلك أُخْرِجَ مركزه عن مركز الأرض بدرجتين ونصف من درج فلك البروج ، فلذلك ما اختلفت حركة الشمس على الأرض ، فَحَمِىَ مزاج جوهر الهواء المحيط بالناحية الجنوبية ، وكان الجزء المعمور من الأرض فى الناحية الشمالية ، إذ كل حيوان بطبعه أحمل للبرد منه للحر ، ألا ترى أنه يتولد فى الماء من الحيوان ما لا يحصى كثرة ، وكذلك من النبات ، ولا يتكون فى النار منه شىء إلا الشاذ النادر ، إن صح ذلك فيه . . . »[1] فهذه هى خلاصة آراء جغرافيينا جميعاً فى هيئة الأرض وطبيعتها وعلاقتها بالشمس والكواكب ، ولم يزد الإدريسى على هذا إلا تفاصيل لا تمس الصلب ، وعلى هذا ظل الناس إلى أيام كوبرنيق .

والخلاصة أن الادريسى يمثل القمة التى وصل إليها العلم الجغرافى فى الشرق والغرب على السواء ، فقد أخذ من علم اليونان خلاصة ما فيه ، وأخذ عن مدرسة الجغرافيين الفلكيين زبدة آرائهم ، ثم أخذ عن مدرسة المسالكيين فكرة عمل الخرائط والأطالس واعتبارها أساس الجغرافية ، وطوّر هذه الناحية من

---

(١) المسالك والممالك للبكرى ، نفس المخطوط ، ورقة ١٠٤

« أطلس الإسلام » إلى « أطلس العالم » ، وذلك هو تجديده الأكبر ، فهو أول جغرافى فى التاريخ نظر هذه النظرة العامة وسما إلى مفهوم عالمى للعلم الجغرافى ، وحق له بذلك أن يوصف بأنه أعظم جغرافى ظهر فى الدنيا إلى مطالع العصر الحديث ، ثم قبس من المسالكيين المشارقة هذه الدقة فى وصف الطرق والبلاد وتقدير المسافات ، وأخذ عن المسالكيين الأندلسيين هذا الالتفات إلى الزروع والمحاصيل والمنتجات والصناعات والمتاجر وطرقها وأصنافها ، وأضاف إلى هذا كله شيئاً لم يعرفه أحد من السابقين — حتى المقدسى — وهو تحقيق أقوال الكتب والرحالة ومقارنة بعضها ببعض واختبار الأصح ، ثم تحقيق المقاييس والأبعاد وتحويلها إلى مقياس الرسم « بمقاييس الحديد » وتوقيع ذلك على الخريطة شيئاً فشيئاً كما يقول .

مؤلفات الإدريسى

لا زال الخلاف شديداً بين الباحثين حول إحصاء أعمال الشريف الإدريسى ، ولكن الأستاذ جيوفانى أومان استطاع — بعد بحث طويل — أن يحصر هذه المؤلفات فيما يلى :

١ — نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، أو الكتاب الرجارى أو كتاب رجار ، تم تأليفه سنة ٥٤٩/١١٥٤ ، وسنعرض له بالبحث فيما بعد .

٢ — كتاب الجامع لأشتات النبات أو كتاب المفردات أو كتاب الأدوية المفردة . كان المظنون أن هذا الكتاب فقيد ، ولكن ماكس مايرهوف عثر على إحدى مخطوطاته فى مكتبة فاتح فى استامبول ، وتحقق من أنها تضم بالفعل كتاب الجامع لأشتات النبات للشريف الادريسى ، ونشر عنه مقالا

قصيراً فى سنة ١٩٢٩[١] وفى نفس الوقت نشر ترجمة ألمانية لأهم فصول الكتاب فى مقال آخر[٢] . والمخطوطة ليست مؤرخة ، ولكن مايرهوف رجّح أن الفراغ منها كان فى سنة ٩٠٦ — ١٥٠٠/٧ وقد ذكر الناسخ أنه نقلها عن الأصل الذى كتبه الادريسى بيده ، وتتألف المخطوطة من ١٤٨ ورقة (٢٩٦ صفحة) مقسمة إلى ثلاثة كتب ، وفى الفاتحة يقول الادريسى إن الكتاب يتضمن ذكر ١٢٠٠ دواء مع وصفها ، ولكن الأدوية التى يرد ذكرها فى المخطوطة تبلغ ٦١٠ فقط مرتبة على حروف المعجم ، وواضح أنه سقط من الأصل جزء كبير ، فإنها لا تضم إلا الأبواب الخاصة بأربعة عشر حرفاً فقط من حروف الأبجدية ، أى أن الضائع حوالى نصف الكتاب ، وقد ورد اسم الإدريسى فيها هكذا : محمد بن محمد بن عبد الله الأندلسى الحسينى . ويلاحظ أن ابن أبى أصيبعة يرسم اسم الإدريسى على هذه الصورة .

وهذا النصف الباقى من الكتاب يدل على علم واسع بالنبات والأعشاب والأدوية ، وهو يمتاز بدقة فى رسم أسماء العقارات ووصف خصائصها لا نجدها إلا عند ابن سينا وابن البيطار ، مما يجعل للادريسى مكانا ممتازاً بين النباتيين والعشابين والأطباء فى العصور الوسطى ، وبهذا الامتياز وصفه فعلا ابن البيطار وابن أبى أصيبعة .

وذهب أمارى إلى أن هذا الكتاب قد يكون أول ما كتب الإدريسى ، وأنه كتب قبل أن يفد الادريسى على صقلية[٣] ، وهذا هو الذى رجحناه فيما سبق من كلامنا ، وعلى هذا الفرض يكون كتاب النبات هو أول ما ذاع

(١) Max Mayerhof, *Eine Arzneimittellehre des arabischen Geographen Edrîsî*, in *Forschungen und Fortschritte*, 5° Jahr, 1929, Heft 28, ss. 388-390.

(٢) Idem, *Allgemeine Farmakologie und Botanik bei Idrisi* in *Archiv für Geschichte der Mathematik, Naturwissenschaft und Technik*, Berlin, XII (1929), pp. 45, ff. 225.

(٣) Amari, *op. cit.* 2ª ediz. Catania, 1939, III, parte 3ª, p. 702.

وعرف من مؤلفات العلامة الكبير ، وقد سبقته شهرته إلى صقلية فعرفه به رجار قبل أن يفد على الجزيرة المرة الأولى فى طريق العودة إلى المغرب ، قدمه به إليه أبو عبد الله محمد بن القاسم بن حمود ، إذا صدق ما ذهبنا إليه ، وبهذا يكون الإدريسى قد وفد على الجزيرة أول مرة نباتياً ، ثم تبينت لرجار ملكاته فى الجغرافية ، فركز جهده عليها فى المرة الثانية .

٣ — كتاب روض الأنس ونزهة النفس أو كتاب المسالك والممالك . ذكره ابن بشرون ، وقال إنه ألفه لغليالم الأول (٥٤٩/١١٥٤ — ٥٦٢ — ٥٦٣/١١٦٦) خليفة رجار الثانى ، ولم نعثر عليه ، ولكن لدينا مختصراً له فى مكتبة حكيم أوغلو فى استامبول برقم ٦٨٨ ، ولهذا المختصر عنوانان ، أحدهما فى أوله وهو : «أنس المُهَج وروض الفَرَج» والثانى فى آخره ، وهو : روض الفرج ونزهة المهج . ويسمى هذا المختصر بالادريسى الصغير ، تمييزاً له عن نزهة المشتاق الذى يسمى الادريسى الكبير . وكان أول من نبه إلى هذا المختصر كريستيان زايبولد فى المادة التى أدارها على الادريسى فى الطبعة الأولى لدائرة المعارف الإسلامية . وكان هوروفتس قد عثر على هذه النسخة قبل ذلك وأشار إليها ، ثم عثر جابرييل فِرّان Gabriel Ferrand على نسخة أخرى من نفس المخطوط ، وجدها فى دمشق ، ولكن هذه النسخة الثانية تنقصها الخرائط ، ويظن أنها منسوخة عن مخطوطة استامبول . وقد نشر مجموعة الخرائط الكاملة الموجودة فى مخطوطة استامبول كونراد ميلر فى أطلس الخرائط العربية الذى أشرنا إليه مراراً .

وقد عنى بدراسة هذا المخطوط نفر من الباحثين مثل توليو تالجرين وكرامرز ونالينو ويوسف كمال واهتموا بمقارنته بنزهـــة المشتاق وتَبَيُّنِ وجوه المشابهة والاختلاف بينهما فى التقسيم ورسم الأعلام وما إلى ذلك . ووردت فى آخر المخطوط عبارة : واشتمل الفراغ عليه فى العشر الأوسط من شهر صفر سنة ٥٨٨/١١٩٢ .

ومخطوطة إستامبول تقع فى ١٦٢ ورقة من القطع الكبير مسطرتها ١٦ سطراً فى الصفحة[١] .

٤ — أما الكتاب المسمى «نزهة المشتاق فى ذكر الامصار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق» فمختصر ناقص مشوه من كتاب الإدريسى الكبير ، وقد وُجدت منه نسخة فى مكتبة آل مديتشى فى روما ونشرت نشراً سيئاً بدون مقدمة أو تعليق أو تاريخ على مطبعة آل مديتشى ، ثم قام بعمل ترجمة لاتينية لها راهبان مارونيان كانا يشتغلان مترجمين فى البلاط الفرنسى ، هما جبرائيل صهيون Gabriel Sionta ويوحنا حزرون Johannus Hesronita ، ونشرا الترجمة فى باريس سنة ١٦١٠ باسم Geographía Nubiensis أى جغرافية النوبة لأن الجزء الذى نشراه يبدأ بالكلام عن النوبة ، ووردت فيه عبارة «أرضها» فقرآها «أرضنا» ، فظنا أن المؤلف نوبى يكتب عن بلاده . ولم يُتبين أن الكتاب للادريسى إلا فيما بعد[٢] ، ويوجد من هذه الطبعة نسخة مصورة بدار

---

(١) Tuulio Tallgren, *Du Nouveau sur Idrisi*, p. 89.
Carlo Nallino, apud Amari, *Storia dei musulmani di Sicilia*, 2ª ed., III, 3, p. 681.
Youssouf Kamal, *Monumenta Cartografica Africae et Aegypti*, Leiden, 1935, p. 106.

(٢) Cf. Casiri, *Bibliothecae Arabico-Hispanae Escurialensis*, tomus II (Matriti, 177.

وعنوان ترجمة الراهبين المارونيين :

Geographia Nubiensis, id est accuratissima totius orbis in septem climata divisi descriptio continens praesentim exactam Universiae Asiae et Africae, rerumque in iis hactenus incognitarum explicatione. Recens ex Arabico in Latinum versa a Gabriele Sionita, Siriacarum et arabicarum literarum professore atque interprete Regio, et Joanne Hesronita, earandum Regio interprete, Maronitis. Parisiis, 1619.

انظر : Geovanni Oman, *op. cit.*, p. 50-51.

وقام بعمل ترجمة إيطالية لهذا المختصر برناردينو بالدى Bernardino Baldi وجعل عنوانها :

Geografia Universali, libro intitulato Horto Delitioso de le Regione, Paesi, Provincie, Isole, Citta et Horizonti.

ولكن هذه الترجمة الايطالية لم تنشر ، وهى باقية مخطوطة فى مكتبة جامعة مونبليه بفرنسا تحت رقم H 299

وذكر مفهرس مكتبة آل مديتشى أن نشر النسخة العربية كان فى فلورنسا سنة ١٥٩٧ ولكن الأستاذ دى شنورر أنكر ذلك التاريخ وقال إنه لم يجد ما يدل على صحته .

والرأى فى هذا المختصر أنه سىء ناقص وغير دقيق ، بل هو تشويه لكتاب نزهة المشتاق ، قال بهذا كرامرز وليلويل ، وقام جيوفانى أومان بمقارنته بأصل نزهة المشتاق وأمن على أقوال من سبقوه ، ثم اضاف انه لم يستطع الاهتداء إلى المنهج الذى اتبع فى عمله . Cf. Giovanni Oman, *op. cit.*, p. 51-52

الكتب المصرية تحت عنوان : « نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والأقطار... الخ » (رقم ٢٦٥ جغرافيا) .

٥ — وذكر جيوفانى أومان أن كتاب « جنى الأزهار من الروض المعطار » المنسوب لتقى الدين أحمد بن على المقريزى إنما هو فى الحقيقة مختصر لنزهة المشتاق عمله رجل يسمى شهاب الدين أحمد المقريزى ، وعلى هذا فلا علاقة له بمؤلفات تقى الدين المقريزى أو بكتاب الروض المعطار لابن عبد المنعم الحميرى . وقد أثبت ذلك فولرز فى مقال له ودلل على أن الكتاب مختصر لنزهة المشتاق قام به رجل من أهل النوبة[1] وذكر ذلك أيضاً بلوشيه فى فهرس مخطوطات المكتبة الأهلية فى باريس[2] ، ثم أثبت الأمر بصفة نهائية جاستون فييت فى مقال له تعليقاً على نشرة ليفى بروفنسال للأعلام الأندلسية من الروض المعطار لابن عبد المنعم الحميري، وقام بعد ذلك بانتقاء الأعلام المصرية من « جنى الأزهار » هذا ونشر ترجمة فرنسية لها[2] ويلاحظ أن فى المكتبة الأهلية فى باريس مخطوطاً لذلك المختصر عنوانه « جنى الأزهار من الروض المعطار فى عجائب الأقطار »[3] .

كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق

مخطوطات نزهة المشتاق مفرقة فى عدد عظيم من مكتبات الدنيا ، ومن الغريب أن مكتبة منها لا تجمع الكتاب كله ، حتى القطعتان الموجودتان فى المكتبة الأهلية فى باريس تحت رقمى ٢٢٢١ و ٢٢٢٢ ليستا كاملتين ، والمتفق

---

(١) K. Vollers, *Note sur un manuscrit arabe altribués à Maqrīzī*, dans *Bulletin de la Société Khediviale de Géographie*, III[e] Série, Le Caire, 1893, pp. 131-139.

(٢) E. Blochet, *Bibliothèque Nationale - Catalogue des Manuscrits Arabes des nouvelles aquisitions* (1884-1924), Paris, 1925, p. 140.

(٣) Gaston Wiet, *Un resumé d'Idrīsī*, dans *Bulletin de la Société Royale de Géographie d'Egypte*, tome XX, 2[a] fasc., 1939, pp. 161-210.

عليه بين العلماء أن هاتين هما أحسن مخطوطات النزهة وأدقها وأولاها بالثقة ، وقد تأكدت من ذلك عند مباشرتى تحقيق الجزء الخاص بمصر من ذلك الكتاب العظيم ، وتليهما القطعة التى كانت فى مكتبة المستشرق إدوارد بوكوك . وفى مكتبات استامبول قطع أخرى وفى دار الكتب بالقاهرة مجلد مخطوط يسميه فهرس الدار بالجزء الأول وهو يشمل الفصول الأولى من الكتاب ثم الإقليمين الأول والثانى عدا الجزئين التاسع والعاشر من هذا الأخير ، وبه عشرون خريطة لبعض أجزاء الاقليمين الأول والثانى (رقم ١٥٠ جغرافيا) . ولكن الكتاب رغم هذا التفرق الشديد كامل ، ولدينا من معظم أقسامه مكررات وافرة ، وقد جمع المعهد الإيطالى للشرق الأدنى والأقصى صوراً من هذه القطع كلها وبدأ العمل فى نشر نزهة المشتاق كاملا على أيدى نفر من المتخصصين .

وهذه هى المرة الأولى فيما نعتقد تجمع فيها أشتات كتاب نزهة المشتاق فى مكان واحد وتدرس على أنها كلٌّ واحد ، ولقد نُشرت قطع كثيرة منه ، وتُرجمت كل قطعة منها إلى لغة من اللغات الأوروبية ودرست هذه الأجزاء المنشورة دراسة طيبة، وكان أول ما نشر من هذه القطع مجلداً أول في روما سنة ١٨٧٨ يضم المقدمات والجزأين الثاني والثالث من الاقلم الرابع بعناية ميكيلي أماري وتشلستينو سكياباريلي، ونشرت بعد ذلك قطع أخرى خاصة بالمغرب والاندلس والمانيا ووسط أوربا وبلاد شمال أوربا وانجلترا وروسيا وفلسطين وآسية الصغري[١] والهند، وأصدر كل باحث رأيه فيما نشر وبحث، وهذه الآراء

---

(١) أحصى كل ما نشر من الادريسى وعنه الأستاذ جيوفانى أومان فى دراسة قصيرة جامعة هى أحسن دراسة بيليوغرافية عن الادريسي الى الآن :

Giovanni Oman, *Notizie bibliograpiche sul geografo arabo al-Idrīsī* (XII secolo) e sulle sue opere (Estratto dagli *Annali dell'Instituto Universitario Orientale di Napoli*. Nuova serie, volume XI. Roma, 1961.

والأستاذ أومان هو الذى يشرف مع الأستاذة Laura Veccia Vaglieri على الطبعة الكاملة لنزهة المشتاق التى تعد حالياً في روما .

تجمع بين الاعجاب الكبير بالإدريسى من ناحية ، والنقد اليسير أو الشديد لما كتب عن هذا البلد أو ذاك ؛ واعتمادنا فيما نقول هنا على هذه القطع وترجماتها وما قاله محققوها بالإضافة إلى ما تبيناه فى اعداد القسم الخاص بمصر ولكن الحكم على عمل الإدريسى كله لن يصبح سليماً إلا إذا نشر الكتاب كله ودرس ككل واحد .

واعتماداً على ما وصل إلينا من هذه الأجزاء المنشورة ومقدماتها والدراسات الخاصة بها نستطيع أن نقول ان القسم الأول من «نزهة المشتاق» الذى يشمل المقدمات العامة عن صورة الأرض وهيئتها ومقدار المسكون منها وتقسيمه إلى الأقاليم السبعة وذكر البحار ومبادئها وما تنتهى إليه وما يلى سواحلها من البلاد والأمم وما إلى ذلك ، يدل على فهم كامل لطبيعة العلم الجغرافى وموضوعه ، وقد تناولنا الفصول التمهيدية فيما سبق وأعطينا فكرة عنها ، وأتينا بقطع منها ، وربما لم يكن فيما أتى به الإدريسى فيها شىء جديد لا نجده فيما تقدمه من الكتب ، ولكن الجديد حقاً هنا هى النظرة السليمة إلى الجغرافية كعلم قائم بذاته لا يختلط بالتاريخ ولا تمتزج مادته بالأساطير ولا تتعلق حقائقه بمسائل الفلك ، والإدريسى هنا جغرافى موضوعى يذكر الحقائق كما تصورها واضحة مجردة ويصوغها فى أسلوب بسيط منطقى لا تكلف فيه ولا تظاهر بالعلم ولا دعوى برحلات طويلة أو قراءات مستبحرة .

وبعد هذه المقدمات يتحدث الادريسى عن قسمة الارض إلى الأقاليم السبعة ، ويحدد كلا منها بصفة عامة ، وتقسيمه هذا هو الذى اعتمد عليه من تناول الموضوع من الجغرافيين بعده ، وخاصة ابن سعيد وأبى الفدا وياقوت .

ثم يخصص الادريسى لكل من الاقاليم باباً ثم يقسمه إلى عشرة فصول لكل جزء من أجزاء الأقاليم فصل ، وهو يسير من الغرب إلى الشرق ،

فيبدأ فى كل إقليم من المحيط الأعظم أى الأطلسى عند الجزائر الخالدات ، ثم ينتقل إلى الجزء الذى يليه وهكذا حتى يصل إلى الجزء العاشر عند بحر الصين ، وهو عنده آخر الدنيا شرقاً ، وبحر الصين فى رأيه جزء من المحيط الأعظم الذى يحيط باليابس كله وتتصل مياهه بحراً واحداً محيطاً باليابس من كل جهاته وتتفرع منه البحار الكبرى التى توغل فى اليابس كأنها خلجان كبيرة . ولا يخالف الادريسى هذا النظام إلا فى كلامه عن الإقليم الأول جنوب خط الاستواء ، فهو عنده يبدأ من الغرب بصحار ورمال غير مسكونة لشدة الحرارة ، وهذا الطرف الغربى للاقليم الأول جنوب خط الاستواء «لا يظهر فيه البحر المحيط من المغرب الأقصى ولا فى الجنوب ، إذ أنه فسيح مترام لم يصل إلى آخره أحد» ولا يبدأ الادريسى فى الوصف الصحيح فى ذلك الإقليم إلا فى جزئه الثالث ، وهو الذى تقع فيه منابع النيل ، وكلامه فى هذا الجزء قريب من كلام بطلميوس عن منابع النيل ، ولكن تصوره أقرب إلى تصور الخوارزمى . وفكرة جغرافيينا القدامى على العموم عن منابع النيل قريبة جداً من الحقيقة ، وإذا نحن استبعدنا الأساطير التى تقال عن جبل القُمُر (أو القَمَر كما ضبطه ياقوت) قلنا أن هذا الجبل يقابل ما يعرف اليوم بجبل كليمانجارو ، وكان الرأى أن النيل ينبع من هذه الجبال وأنه « ينصب عشرة أنهار . . . كل خمسة أنهار من شعبة» ، ثم تتبحر تلك العشرة أنهار فى بحيرتين ، كل خمسة أنهار تبحر بحيرة بذاتها ، ثم يخرج من البحيرة الشرقية منها بحر لطيف يأخذ شرقاً على جبل فاقولى ، ويمتد إلى مدن هناك ، ثم يصب فى البحر المندى (المراد نهر النيجر ، وكان يعرف بنيل غانة) ثم يخرج من تينك البحيرتين ستة أنهار ، من كل بحيرة ثلاثة أنهار ، ثم تجتمع تلك الستة أنهار فى بحيرة متشعبة» ومن هذه الأخيرة يخرج النيل ويسير شمالا ، ويسمى الجغرافيون مجراه إلى البحر الأبيض بعمود النيل .

ويمد الإدريسى ساحل افريقية الشرقى بعد باب المندب فى اتجاه أفقى تقريباً من الغرب إلى الشرق حتى يصبح موازيا لسواحل جنوب آسيا ، والامتداد يجئ من ناحية ما يعرف الآن بالصومال وإريتريا ، وتقع على هذا الامتداد بلاد بَرْبَرة والزنج وسُفَالة ثم واق الواق وهى آخر المعمور شرقاً جنوبى خط الاستواء ، ويفصل بين آسيا وهذا الساحل الافريقى بحر الهند .

وهذا التصور الإدريسى للساحل الافريقى مشكلة من مشاكل جغرافيته وخرائطه ، لأن بطلميوس — بحسب خريطته المتداولة بين الناس — رسم هذا الساحل على نحو قريب جداً مما هو عليه فى الواقع ، ثم إن المواضع التى يذكرها الإدريسى هى نفس المواضع التى يذكرها بطلميوس ، بل يزيد عليه مواقع كثيرة مثل سفالة ومُمْبَسَّة ، وجبل عجرد ، ويضيف فى وصفه معلومات كثيرة أخذها عن المسعودى ، وكان من أعلم الناس بهذه النواحى . فكيف يكون تصور بطلميوس أقرب إلى الحقيقة من تصور الإدريسى ، مع أن المفروض أنه نقل عنه أو عن نسخة خريطته التى عملها مرينوس الصورى ؟ الحقيقة فيما أعتقد أن خريطة بطلميوس الموجودة بين أيدينا ليست هى التى رسمها بنفسه ، وإنما هى رسم جديد صنع فى القرن الخامس عشر الميلادى بعد أن ترجم يعقوب أنجيلوس دى سكارباريا Jacobus Angelus de Scarparia كتاب الجغرافية من أصل غير معروف إلى اللاتينية سنة ١٤٠٦ ، وقد نشرت هذه الترجمة بعد ذلك بخمس وستين سنة (سنة ١٤٧٥) فى فيتشينزا فى إيطاليا ، أما النص اليونانى فلم يعثر عليه إلا سنة ١٥٣٣ ، وقد اكتشف فى بازل بسويسرا ، وقام على نشره إرَازْمُوس ، وهنا فقط عرف الناس اسمه الأصلى : « جيوجرافيكى هوفيجيسيس » أى المرشد إلى وصف الأرض ، ولا يضم الأصل الذى ترجم عنه يعقوب انجيلوس دى سكارباريا أى خرائط ، لأن هذه الأخيرة كانت تكوِّن الجزء الثامن من الكتاب ، وقد ضاع هذا الجزء من زمن بعيد ، فلابد أن الخرائط قد وضعت فيما بين تمام

الترجمة والنشر ، رسمها الناشرون اعتماداً على الخرائط المعروفة بالبورتولية Portolani أى أدلة الموانئ وقد بدأ ظهورها وتداولها بين الناس فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى[1] . وهى خرائط تدهشنا بدقتها ومقاربتها للواقع ،

(١) هذا هو أصح الآراء فيما يتصل بهذه الترجمة ، أما ما يخالف ذلك من التفاصيل فوضع شك كبير لدى المحققين . ولكى يتبين القارئ مقدار الضعف فى هذه الأقوال نورد موجزاً لها : المظنون أن أقدم نص إغريقى لجغرافية بطلميوس وصل إلينا يرجع إلى أواخر القرن الثانى عشر أو أوائل الثالث عشر الميلاديين . ومن هذا النص وجدت نسختان أو روايتان ، الأولى تعرف بالمجموعة ا تصاحبها ٢٧ خريطة والثانية تعرف بالمجموعة ب تصاحبها ٦٣ خريطة . وقد حصل على نسخة من المجموعة «ا» بالا ستروزى Palla Strozzi وعهد فى ترجمتها إلى Manuel Chrysolorus مؤسس الدراسات اليونانية فى إيطاليا ، فقام هذا بتكليف تلميذه يعقوب انجلوس دى سكاربارا بترجمتها إلى اللاتينية ، فقام بها وأتمها سنة ١٤٠٦ وقد ادخلت على هذه الترجمة إصلاحات كثيرة بعد ذلك وأصبحت لمدة قرن من الزمن أساس الدراسات الخاصة بجغرافية بطلميوس فى الغرب . وقد نشرت ترجمة المجموعة «ا» بدون خرائط فى فيتشينزا سنة ١٤٧٥ ، وكان عالمان إيطاليان قد قاما بعمل نسخة من خرائطها أوائل القرن الخامس عشر وترجما اسماء الأعلام فيها إلى اللاتينية . أما خرائط المجموعة ب فلم تدرس أو تحقق ثم اختفى أصلها ، ووصلت لنا رسوم يقال إنها نسخ منها . وقد ضاعت النسخة الأصلية لترجمة دى سكاربارا وكذلك الخرائط التى نسخها العالمان الايطاليان ، ولكن بقيت نسخ منها عملها علماء آخرون مثل نسخة الكردينال جيوم فليستر Guillaume Fillestre سنة ١٤٢٧ وهذه النسخة تعرف اليوم بمخطوطة نانسى ، وهى تضم — إلى جانب الخرائط المنسوبة إلى بطلميوس — خرائط أخرى رسمت لبلاد أخرى لم يعرفها بطلميوس . وقد تعاقب على العمل فى جغرافية بطلميوس هذه وخرائطها نفر من المعنيين بالجغرافية والخرائط فى أوروبا ، ولكنهم جميعاً رسموا خرائط بطلميوس كما تصوروها معتمدين على النص حينا وعلى خرائط معاصرة لهم حينا آخر ، وكلهم قال ذلك صراحة ، ومثال ذلك أن Pietro del Massajo الفلورنسى قال إنه «أعاد تكوين» جغرافية بطلميوس ورسم خرائطها بنفسه أكثر من مرة ، فى النسخة التى عملها سنة ١٤٥٨ نجد ٢٧ خريطة بطلمية «مع خرائط أقاليم أخرى جديدة وغير ذلك» Cum additione provinciarum noviter repertarum et alia nonulla وكذلك خريطة إيطاليا التى أضافها الراهب باولينو معتمداً على أخرى رسمها بيترو فاسكونتى Pietro Vasconti ومثل ذلك يقال عن أحسن مخطوطات جغرافية بطلميوس وخرائطها وهى التى عملها Dominicus Nicholaus Germanus فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، فقد كتب بيده ١٢ نسخة من «جغرافية بطلميوس» ورسم خرائطها ، وقال انه ادخل تعديلات و «تحسينات» على النص ، وأعاد رسم الخرائط فى حجم أصغر ايسر تداولا ، بل رسم الخرائط على أساس مسقط ابتكره و «صحح» خطوط الرسم وأضاف خرائط جديدة . وعلى أساس أحد مخطوطات دومينيكوس نيكولاوس جرمانوس طبعت تلك الجغرافية البطلمية المحرفة لأول مرة فى بولونيا بإيطاليا سنة ١٤٧٧ ، وأعيد طبعها فى روما سنة ١٤٧٨ . وهاتان الطبعتان =

وينسب فضلها عادة إلى الملاحين الإيطاليين والقطلونيين ، وأعتقد أن الذين رسموها كانوا يعتمدون أيضاً على خرائط ملاحية عربية ، وأبسط دليل على أن هذه الخريطة المنسوبة إلى بطلميوس ليست أصيلة هو أن صورة النيل فيها تطابق صورته كما رسمها ووصفها الإدريسى ، فى حين أن وصف بطلميوس للنيل ومنابعه يختلف كل الاختلاف عن ذلك ، وبينما نجد جغرافية بطلميوس لا تذكر شيئاً جنوب خط الاستواء ، نجد الخريطة المنسوبة إليه تضع منابع النيل جنوب ذلك الخط وعلى صورة قريبة جداً من وضعها الحـالى . لقد كان اليعقوبى ثم المقدسى هما أول من وضع هذه المنابع جنوب خط الاستواء ، ولكن تلك الخرائط البطلمية الزائفة تنسب ذلك إليه ، واعتماداً على هذا يقول مؤرخو فن الخرائط إن خريطة بطلميوس أدق وأحسن من خريطة الإدريسى ، وإن ما وصل إليه الجغرافى الإسكندرانى فى القرن الثانى للميلاد لم يصل إليه الإدريسى بعد قرابة عشرة قرون ، وهى عبارة يأسف الانسان إذ يقرأها لعلماء لهم قدر ومكانة .

وابتداء من الجزء الأول من الاقليم الأول شمال خط الاستواء نبدأ مع الإدريسى طريقاً أكثر وضوحاً ، فهو يتحدث عن مناطق عرفها وسكنها المسلمون وكتب بعضهم عنها ، فيما عدا الجزائر الخالدات فى المحيط الأطلسى ، وليس للإدريسى مراجع محددة فيما يتصل بالأجزاء الغربية الأولى من الاقليم الأول ، فلابد أنه جمع كل ما وجده من المعلومات فى شتى الكتب العربية

= هما الأصل الذى ينقل عنه معظم الناس إلى اليوم الخرائط المنسوبة إلى بطلميوس . وهذا التحريف الشديد للنص والخرائط الزائفة المنسوبة إلى بطلميوس هى التى دفعت أرازموس إلى نشر النص الإغريقى الذى عثر عليه فى بازل كما قلنا . وقد نشره دون خرائط . ومن هنا فقد ظلت الخرائط التى تكلمنا عنها هى المتداولة فى الكتب على أنها خرائط بطلميوس .

انظر :

Almagia, R., *Monumenta Italiae Cartographica*, Firenze, 1929.

Gallios, L., *Les géographes allemands de la Renaissance*, Paris, 1903.

Lynam, E., *The first engraved atlas of the world; the Cosmographia of Claudius Ptolomaeus*, Bolonia, 1477. Jenkintown, 1941.

Stevens, H. N., *Ptolemey's «Geography»: a brief account of the printed editions to* 1730. 2.ª edition, 1908.

Crone, G. R., *Maps and their makers*, London, 1953.

ونسقها وقسمها على أجزاء ذلك الاقليم على نحو مقبول ، ومع أن ابن سعيد كتب بعده بقرنين واعتمد على كتاب ابن فاطمه الذى يبدو أنه أحسن ما كتب المسلمون عن المناطق الواقعة جنوب الصحراء الكبرى ، إلا أننا لا نجد مادة ابن سعيد هنا أغنى بكثير مما عند الإدريسى ، بل إن كلام الإدريسى عن غانة وملكها صالح بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب فريد فى بابه ، ولا نجده عند البكرى أو أحد ممن نقل هذا الأخير عنهم .

وتتوالى فصول « نزهة المشتاق » بعد ذلك ، لكل جزء من الأجزاء السبعين فصل ، ولكل إقليم باب يتكلم فيه عن خصائصه العامة قبل أن يدخل فى وصف الأجزاء .

والطريقة التى يجرى عليها فى وصف الأجزاء هى الاعتماد على المدن كنقط ارتكاز للوصف ، فيذكرها واحدة واحدة كأنه يسير فى رحلة فى نواحى الجزء الذى يصفه ، فيصف ما يلقاه من المدن مدينة مدينة ، ويحدد موضعها ويذكر شهرتها وما يزرع حولها وما يصنع فيها وما يتجر به منها وإليها ، وقد يذكر شيئاً عن ناسها ، ثم ينتقل إلى ما يليها حسب اتجاهه ، وفى الطريق يصف ما يلقى من المعالم الجغرافية من نهر أو جبل أو بحيرة ، ويشير إلى المناخ ، ثم يذكر المسافات بين كل مدينة وأخرى .

وهو فى ذلك كله يجرى على طريقة ثابتة لا يغيرها إلا إذا أعوزته المادة عن شىء من هذه الأشياء التى يهتم بها ، بل يستعمل مصطلحاً واحداً يتميز به عن غيره ، وقد نجد أصول ذلك المصطلح عند ابن حوقل ، ولكن الإدريسى أكمله وثبت معانيه إلا فى نقط قليلة ، فهو مثلا لا يفرق كثيراً بين المدينة والقرية ، ويستعمل اللفظين دون تمييز كبير ، ثم يضيف بعد ذلك ما يرى من الأوصاف التى تحدد أهمية الموضع كقوله مثلا : « ومدينة شرشال صغيرة القدر لكنها متحضرة » والمدينة أو القرية المتحضرة عنده هى العامرة ذات الأسواق

والأسوار والمتاجر . واتساع معارفه بالنبات يتجلى فى كل مناسبة ، فإلى جانب اهتمامه بالزروع المعروفة كالقمح والشعير وقصب السكر وحرصه على ذكر أنواعها فى كل ناحية لا يفوته ذكر الشجر وثمره ونوعه وصفته ، كقوله إن بمدينة شرشال هذه « سفرجل كبير الجرم ذو أعناق كأعناق القرع الصغار ، وهو من الطرائف غريب فى ذاته » ولا يفوته كذلك نبات طبى إلا ذكره ، فيقول مثلا عند كلامه على جبـــل مجاور لمدينة بجاية المغرب : « وفى أكنافه جُمَل من النبات المنتفع به فى صناعة الطب مثل شجر الحضض والستولوقندريون والبرباريس والقنطوريون الكبير والزراوند والقسطون والأفسنتين وغير ذلك من الحشائش » ، وهو يحرص كذلك على ذكر الماشية وأنواعها ولحومها ، والأسماك وأسمائها وخصائصها ، حتى لقد ذكر من أسماء أسماك النيل وحده ١٤ اسماً بصفاتها وخصائصها ، وهو يذكر إلى جانب ذلك « المعادن » أى المناجم وما يستخرج منها ونوعه وكميته وما إلى ذلك مما يجعل كتابه معرضاً دقيقاً للحالة الاقتصادية فى كل ناحية يتحدث عنها .

وربما كان تقسيم الكتاب إلى أقاليم وأجزاء هو أكبر صعوبات قراءة هذا الكتاب ، فإن البلد الواحد يقع وصفه فى أجزاء من أقاليم شتى ، فإن الذى يريد أن يقرأ وصف النيـــل عنده يجد منابعه فى الجزأين الثالث والرابع من الاقليم الأول جنوب خط الاستواء ، ثم يستتم الكلام عن هذه المنابع ويصل إلى النوبة فى الجزء الثالث من الاقليم الأول شمال خط الاستواء ومن حدود النوبة إلى قوص فى الجزء الرابع من الاقليم الثانى ، ومن قوص إلى منتصف الدلتا فى الجزء الرابع من الاقليم الثالث ، وبقية الدلتا فى الجزء الرابع من الاقليم الرابع ، ولا يتأتى الالمام بهذا الوصف وضبطه إلا إذا رسم القارئ خريطة بحدود الاقاليم والأجزاء كما تصورها الادريسى ، ثم يتابع الكلام عليها جزءاً جزءاً . وربما كان وادى النيل أسهل من غيره هنا ، لانه يسير فى خط واحد من الجنوب إلى الشمال ، ولكن الامر يزداد عسراً عندما يتعلق ببلاد

تتسع شرقاً وغرباً وتقع فى أجزاء مختلفة من أقاليم كثيرة مثل ايران أو وسط أوروبا ، وقد وقع الادريسي فى أخطاء كثيرة بسبب هذا التقسيم ، ويبدو ذلك واضحاً فى كلامه عن منطقة ايرانشهر ، وقد عاب عليه بعض البحاثة المحدثين ذلك ، ولكن الخطأ أتى من محاولة الادريسى ترتيب معلومات وصلت إليه مضطربة مختلطة لا يمكن ضبطها على وجه الدقة ، ومن الجدير بالملاحظة أن هذه الناحية التى يسميها الجغرافيون العرب ايرانشهر ناحية غير محدودة ولا واضحة المعالم ، وما نجده عنها فى كتابات ابن رستة وابن خرداذبة والمقدسى وابن حوقل يبدو فيه محاولتهم جمع أوصاف وتحديدات وجدوها فى كتب الفرس القديمة ووضعها فى نطاق عربى إسلامى بعد أن امحت حدودها القديمة ولم يعد من الميسور تتبعها وتحقيقها [1] .

وطبيعى ألا تتساوى أوصاف الأجزاء فى الدقة ، لأن الادريسى هنا — كأى عالم غيره — يكتب بالقدر الذى تسمح به مراجعه ومصادر معلوماته ، فهو لا يستطيع مثـلا أن يقدم نفس النوع من المعلومات عن الصين ومصر وجزيرة العرب وصقلية والأندلس والمغرب ، فهو عن الصين لا يملك إلا نزراً يسيراً من المعلومات ، وهذا النزر اليسير خليط من إشارات غير محققة وجدها فيما بين يديه من الكتب وأقوال رحالة وملاحين لا يمكن التأكد من صحتها ، ومن هنا فإمكان الخطـأ كبير وعملية الضبط والتنسيق عسيرة ، أما عن جزيرة العرب مثلا فالمادة بين يديه وافرة تمكنه من الموازنة والتحقيق ، ثم ان الذين يعرفون الجزيرة من حوله كانوا كثيرين ، أما عن مصر فقد اعتمد اعتماداً رئيسياً على ابن حوقل ، وهو دليل لا بأس به فى وصفها ، فى حين أن الادريسى عرف

---

(١) مثال ذلك النقد الذى يوجهه ماركارت فى بحثه عن ايرانشهر :

J. Marquart, *Erānšahr* in *Abhandlungen der Gesellschaft der Wissenschaften zur Göttingen*, 1901.

ولنفس المؤلف عن شرق أوروبا وشرق آسيا :

Osteuropäische und Ostasiatische Streifzüge. Leipzig, 1903.

بنفسه صقلية والأندلس والمغرب ، ومن هنا فإن كلامه عن هذه الأقاليم الثلاثة فى غاية من الضبط والاحاطة . ومهما وجه من النقد للادريسى فإن المسؤولية تقع آخر الأمر على مراجعه ، وما ذنب الادريسى إذا لم يملك عن كل من الصحراء الكبرى أو الهند إلا مرجعاً واحداً ؟ كيف يمكن أن يتحقق من صحة ما وجده فى ذلك المرجع الواحد ؟ وكيف يمكن أن تأخذ عليه عدم اطلاعه على رسالة ابن فضلان عن بلاد البلغار وشواطىء البحر الأسود والجزء الأدنى من وادى الفلجا ونحن أنفسنا لم نكن نعرف عن رسالة ابن فضلان إلى حين قريب إلا تلك النقول التى أخذها عنها ياقوت وأوردها فى معجم البلدان ؟ ثم ، على فرض أنه اجتهد حتى حصل على رحلة ابن فضلان ، كيف يتحقق من صدق ما فيها وعدم صدقه ؟ كيف يزن بالموازين التى كانت فى متناول يده حكاية السمكة التى يقول ابن فضلان أنها كانت تخرج إلى البر كل يوم ليقطع الناس من لحمها ما يحتاجون إليه ثم تعود إلى الماء ؟ كيف يشك فى صحة كلام سفير خليفة المفروض أنه رجل متزن مصدق فيما يروى ؟ إننا اليوم نستطيع أن نرفض مثل هذا الخبر ، ولكن ينبغى أن نذكر أن الادريسى عاش فى زمن كان الناس فيه لا يستبعدون ما يحكيه عالم موثوق فى رأيه كأبى الحسن المسعودى يقول إن فى أقصى الجنوب الشرقى للمعمور بـلاداً ينبت فيها شجر يخرج منه نبات كالاترنج ويولد منه جوار يتعلقن بشعورهن وتصيح الواحدة منهن « واق واق ! » ومن هنا جاء اسم هذه الناحية الأسطورية المعروفة ببلاد واق الواق ؟ لقد استبعد الادريسى مئات من هذه الأساطير وسخر منها واتجه إلى المعلومات التى يقبلها العقل ، ولو أحصينا أحاديث الخرافة فى كتبه لما بلغت قدر ما نجد فى بضع صفحات من مؤلفات أى مؤلف آخر فى ميدان الجغرافية ، وفى ذلك من الفضل ما فيه .

وقد دُرست معظم أجزاء جغرافية الادريسى على يد نفر كبير من المستشرقين قام كل منهم بدراسة الجزء الخاص ببلاده ، فيما عدا الجزء الخاص

بالمغرب والأندلس فقد قام بتحقيقه هولنديان هما دى خوية ودوزى ، وفى معظم هذه الحالات ترجم النص إلى إحدى اللغات الأوروبية ، وحققت أسماء المواضع وابعاد الطرق ومقاييس الأنهار وما إلى ذلك ، وقد اختلفت آراء هؤلاء الباحثين باختلاف حظ الادريسي من الاصابة فى الكلام عن هذا البلد أو ذاك ، واختلفت الأحكام كذلك باختلاف مزاج الباحث وموازينه فى النقد والكلام ، ولكن حتى الذين اشتدوا فى الحكم على عمل الادريسى مثل رينو Reinaud ، الذى ترجم جغرافية أبى الفدا إلى الفرنسية وقدم لها بمقدمة طويلة عن الجغرافية عند العرب ، لم يسعه آخر الأمر إلى أن يقول : « إن عمل الادريسى إذا نظرنا إليه فى مجموعة تبينا أنه — مثل عمل استرابون — أثر رفيع من آثار العلم الجغرافى »[١] وقال ماك جوكين دى سلان : « إن الادريسى قام بالعمل الضخم الذى انتصب له بكفاية واضحة كل الوضوح ، ولسنا نجد فيما تقدمه من المؤلفات قبله فى نفس الموضوع عملاً نستطيع أن نقارنه بعمله ، وحتى الآن ، وعلى الرغم من اتساع مجال العلم الجغرافى لا زالت هناك نواح كثيرة من الأرض يجد الجغرافى أو المؤرخ نفسه دون مرشد لو أن الملك رجار لم يقدم للإدريسى ما قدم من المعاونة ليقوم بعمله »[٢] ويقول إتيين كاترمير : « إن هذا الكتاب يضم قدراً عظيما من المعلومات لا يظفر بها الانسان — على نفس الصورة — فى أى كتاب آخر ألفه العرب »[٣] وبعد دراسة مسهبة — هى خير ما لدينا عن عمل الادريسى إلى الآن يقول ميكيلي أمارى : « إن عمل الادريسى يحتل مركز الصدارة بين كل ما ألف الناس فى الجغرافية فى العصور الوسطى »[٤] وقد اقتصرنا على

---

(١) M. Reinaud, *Géographie d'Aboulféda;* tome I, Introduction générale à la Géographie des Orientaux, Paris, 1848, pp. CXM- CXXII; CCCX- CCCXVI.

(٢) Mac Guckin de Slane, *Géographie d'Idrīsī, traduite en français par Mr. Jaubert* dans *Journal Asiatique*, 1841, III, Série, vol. XI, pp. 372-387.

(٣) Etienne Quatremère dans *Journal des Savants*, 1848, p. 749.

(٤) Michele Amari, *Storia dei Musulmani di Sicilia*, 1ª edizione, III, 605 sqq.

آراء هؤلاء وهم من أهل القرن الماضي ، لأن المستشرقين خلال تلك الحقبة كانوا يقرأون المطولات ويصبرون على متاعبها ، فى حين أن ما يقرأ اليوم وتصدر الاحكام عليه هى الاجزاء والفصول القصار ، ولهذا فالاحكام عليها جزئية تصدق على جزء دون جزء ، ولا تعطى فكرة عامة عن عمل الادريسى ككل واحد لا يتجزأ .

ولا يتسع المجال هنا لعرض هذه الأجزاء وما قيل فيها ، ولهذا فسنكتفى بعرض أهم ما قاله ميكيلي أمارى مؤرخ صقلية الاسلامية ، ثم نتبع ذلك بالكلام على قسم واحد من نزهة المشتاق ، وهو الخاص بالأندلس .

يذهب أمارى إلى أننا إذا قرأنا نص نزهة المشتاق فى إمعان تبينا أن الادريسى استخدم فى كتابته مراجع أخرى كثيرة غير التى ذكرها فى فاتحة الكتاب ، ثم إننا نلاحظ أن المقياس الذى ذكره فى كلامه عن جنوب خط الاستواء هو الميل الرومانى لا الميل العربى ، وهذا الميل الرومانى هو نفسه الذى ذُكرت به الأبعاد فى صقلية ؛ وبعض الأعــلام الجغرافية الواردة فى صقلية مرسومة على صورة قديمة ترجع إلى أيام الاغريق ، بدلا من ذكر أسمائها العربية أو أسماءه التى كانت معروفة بها خــلال القرن الثانى عشر الميلادى ، وقد سبق ان لاحظ ليلول أن الميل الرومانى يعدل ١٤٨١ متراً ، وأن الميل الصقلى الذى كان مستعملا إلى سنة ١٨٠٩ يعدل قريباً من ذلك : ١٤٧٧ متراً ، فى حين أن الميل الذى اعتمد عليه الادريسى فى صقلية يختلف عن كليهما ، فمن أين أخذه ؟ [١] ومن أين أتى بهذه الصور القديمة للأعلام الصقلية واليونانية وبعض الفرنسية ، مع أننا نعرف أنه كان يأخذ رسم أسماء الأعــلام الأوروبية من أفواه الرحالين والتجار ويثبتها بالصورة التى كانت

---

(١) Joachim Lelewel, *Géographie du Moyen - Age*, Bruxelles, 1852, chap. 60. tome I, p. 100.

مستعملة بها على أيامه فعلا ؟ وأتى أماري ببعض الامثلة من نص الإدريسي وأصلها اليوناني أو اللاتيني والاسم الذى كانت معروفة به إن وجد ، مثلا :

الاسم كما رسمه الادريسي	الأصل اللاتيني إن وجد	الصورة الشائعة للاسم إن وجدت
نبكته	Naupactus	ليبانتو
شكله	Scylaum	
لا كدمونه	Lacedomona	
اغريبش	Euripos	Negroponte
ابلخونية	Aflakhonia	Paphlakhonia
مدُيلان	Mediolanum	
أرنمِنِسْ	Arinminum	
بادى	Padum	
البرنية	Alvernia	Auvergne
انقلزمه	Aequolesima	Angoulème
بُلُنْيَهْ	Bologna	
برى		Berry
الكرمنت		Clermont
ازبرج		Augsburg
انكرتره		Inghiterra
استرك		Utrecht
هستنجس		Hastings

ويحاول أماري بعد ذلك أن يتعرف الطريقة التى رسم بها الادريسى خريطته ، وانتهى إلى شىء قريب مما ذكرناه آنفاً ، غير أنه يرى أن الذى عُمِل أول الأمر لم يكن كرة أرضية وإنما خريطة مسطحة تبيِّن وجهى الأرض

planisphaerio مساحتها متر أو أقل قليلا ، وأن خرائط الأجزاء التي أدرجت في الكتاب عملت بمقياس السُدس أو الخُمس بالنسبة للخريطة الكبيرة ، وأن التصغير عمل دون رسم خطوط طول أو عرض ، واعتمد أولا وآخراً على كفاية الناسخ أو عدم كفايته .

ثم يضيف أماري أن مواقع البلاد الرئيسية حُدِّدَتْ بالاستعانة بنجوم معروفة ، ثم حددت مواقع ما يقاربها بالقياس إليها مع الاستعانة بخرائط قديمة مثل تلك المنسوبة إلى الفريد الكبير أو خريطة الدنيا المحفوظة في مكتبة الجامعة في تورين . هكذا نستطيع تعليل أحاديث الخرافة التي ينقلها الادريسي عن بلاد يأجوج ومأجوج وتحديد موقعها ، وقد نقل الادريسي ذلك عن الجغرافي الاسكندري (أي بطلميوس) لأنه لم يحصل على أوصاف رحلات أحدث منها في هذه النواحي ، ولو حصل عليها لاستطاع تحقيق كلام بطليوس كما فعل في غير ذلك من النواحي . ويمكن القول بأن رجار عندما شرع في هذا العمل لم يكن لديه خرائط ملاحية دقيقة ، لأن هذه لم تظهر إلا في القرن الرابع عشر ، بعد شيوع استعمال البوصله .

ويلاحظ بصورة عامة أن الأجزاء التي حصل الادريسي على معلومات عنها رُسمت أكبر من تلك التي لم يجد عنها إلا شيئاً قليلا ، وذلك واضح حتى بالنسبة لخرائط إقليم واحد مثل إيطاليا ، فإن حوض التيبر وأراضيه مثلا رسمت كبيرة مفصلة ، لأن هذه النواحي كانت تحت حكم رجار ، أما وسط إيطاليا فرُسِم مصغراً لأن المعلومات عنه كانت قليلة ، إذ كان خارجاً عن حكم رجار ، ومثل ذلك يقال عن خريطة صقلية ، فهي كبيرة مفصلة ، بل أكبر بكثير مما كان ينبغي بالنسبة لحوض البحر المتوسط، وذلك لوفرة المعلومات التي استطاع الادريسي جمعها عنها .

وأحسن أجزاء الكتاب في رأي أماري هو وصف البحر الأبيض والبلاد الاسلامية ثم صقلية وجنوبي إيطاليا ، ويلي ذلك — من حيث الدقة والجودة —

آسيا الصغرى واليونان ووسط أوروبا وانجترا وبلاد الشمال ، أما فيما عدا ذلك فالأخطاء والمتناقضات كثيرة ، ويعلل هذا بما ذكرناه ، ثم إن هذه الأجزاء كانت آخر ما كتب ، وكان الادريسى معجلا يريد أن يفرغ من الكتاب قبل وفاة رجار ، فأسرع بإنجاز هذه الأجزاء بما كان تحت يده من المعلومات ، وبالفعل مات رجار بعد أن نجز الكتاب بأسابيع .

ويقول أمارى أن هذا الكتاب العظيم الذى يعتبر دون شك من « مفاخر التراث العلمى الإيطالى » خرج عن نطاق التراث الثقافى الأوروبى ، لأنه لم يترجم فى حينه إلى اللاتينية ، وهو لا يستبعد أن يكون بلاط رجار قد شرع فى عمل هذه الترجمة ، ولكن الفوضى التى ضربت بجرانها على صقلية بعد وفاة رجار الثانى ثم قيام النصارى على المسلمين ، كل ذلك أوقف هذا العمل ، وقد استطاع الادريسى فى أثناء تلك الاضطرابات أن يبعث بنسخة من كتابه إلى بلد إسلامى ، وهناك لقيت الإقبال الذى ضمن للكتاب الخلود ، فقد عملت منه نسخ كثيرة . وأصبح من عمد العلم الجغرافى عند المسلمين بعد ذلك ، وانتفع به كل من جاء بعد الإدريسى من الجغرافيين المسلمين مثل ابن سعيد وأبى الفدا وياقوت . أما فى أوروبا فقد نُسِىَ الكتاب تماماً حتى عُثر على القطعة التى أشرنا إليها وترجمت إلى اللغة اللاتينية ونشرت باسم جغرافية النوبة دون اسم المؤلف ، وظل هذا هو كل ما تعلمه أوروبا عن عمل الادريسى ، حتى استطاع المسيو أسلين Aselin قنصل فرنسا فى مصر أن يحصل على قطعة كبيرة من نزهة المشتاق ضمن مخطوطات كثيرة اشتراها فى القاهرة ، وهذه القطعة هى اليوم المخطوط رقم ٢٢٢٢ فى المكتبة الأهلية فى باريس ، وهى من أحسن مخطوطات الادريسى وأدقها ، وأمارى يأسف لخروج هذا العمل من التراث الأوروبى واندراجه فى التراث العربى مع أنه تم على أيدى رجال ربما كان معظمهم إيطاليين وتحت إشراف ملك نرمانى إيطالى .

وصف الإدريسي لشبه جزيرة إيبريا

يعتبر هذا القسم من أقسام نزهة المشتاق من أحسن أجزائها وأدلها على ملكة الادريسي الجغرافية وقدرته على الابتكار وجمع المعلومات ثم تنسيقها في كلّ واحد مترابط ، ويرجع ذلك إلى أن الادريسي عرف أجزاءاً كثيرة من اسبانيا ، ثم كانت لديه وفرة من المعلومات والأصول ، وهو بنفسه يشير إلى أنه رجع إلى العذرى ، ومع أنه لا يشير إلى الرازى أو البكرى ، إلا أننا نعتقد أنه لابد أن يكون قد اطلع على جغرافية الأول ، عن طريق العذرى على الأقل .

وقد كان هذا الجزء أحسن أجزاء «النزهة» (١) حظاً ، فقد نشر دوزى ودى خوية القسم الواقع في الجزأين الثاني والثالث من الاقليم الرابع وترجماه إلى الفرنسية وأضافا إليه تعليقات وشروحاً وافية ، ونشر قطعة منه قبل ذلك

---

(١) José Antonio Conde, *Descripción de España de Xerif Aledris, conocido por el Nubiense, con traducción y notas,* Madrid 1799.

وعنوان الجزء الذى نشره بالعربية : ذكر الأندلس تأليف الشريف الادريسي .

و R. Dozy et J. de Goeje, *Description de l'Afrique et de l'Espagne par Edrisi,* Leiden 1866.

وعنوان النص العربي : المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الادريسي ، وهذا القسم يشمل :

الأجزاء ١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥ من الاقليم الأول
والأجزاء ١ و ٢ و ٣ و ٤ من الاقليم الثاني
والأجزاء ١ و ٢ و ٣ و ٤ من الاقليم الثالث
والجزء الأول من الاقليم الرابع

Eduardo Saavedra, *La Geografía de España del Edrisi,* en *Boletín de la Real Sociedad Geográfica de Madrid,* XVIII, 1885, pp. 224-242.

وهذا المقال يتكون من مقدمة قصيرة ثم نص الجزء الأول من الاقليم الخامس الخاص بشبه الجزيرة الايبيرية معتمداً على المخطوطات أرقام ٨٩٢ و ٨٩٣ و ٨٩٤ بالمكتبة الأهلية في باريس (الملحق) ومخطوط أوكسفورد رقم ٨٨٧ ومخطوط رقم ١٥١ كيمبردج .

César E. Dubler, *Los Caminos a Compostela en la obra de Idrīsī,* en al-Andalus, XIV, 1949, pp. 59-122.

Ibidem, *Las Laderas del Pirineo según Idrīsī,* en al-Andalus, XVIII, pp. 337-373.

يوسف أنطونيو كوندى وحققها تحقيقاً ضعيفاً على قدر معرفته باللغة العربية وهذا القسم يشمل شمال شبه الجزيرة إلى جبال الشارات وهى المعروفة بجوادارّاما أو وادى الرمل ، وتقع إلى شمال مدريد بقليل ، ثم نشر إدواردو سافدرا بقية وصف الإدريسى لشبه الجزيرة أى ما يقع منها فى الجزأين الأول والثانى من الإقليم الخامس ، وقام بدراسة ذلك الوصف كله.ألمانى بولوفر دراسة طيبة فى بحثه القيم عن « شبه الجزيرة الإيبيرية عند الجغرافيين العرب » وفى السنوات الأخيرة عكف على دراسة بعض أجزائه المستشرق السويسرى سيزار دوبلر ونشر عنه بحثين من خير ما قرأنا عن الأبحاث الإدريسية .

وقد سبق أن ذكرنا أن الإدريسى زار الأندلس وقضى فيه ردحاً من الوقت بعد عودته من المشرق ، وأنه أقام فى قرطبة خلال هذه الزيارة وتردد على بعض نواحى الأندلس الإسلامى ، وقد عمد سيزار دوبلر إلى استعراض حوادث التاريخ الأندلسى خــلال الفترة التى قضاها الإدريسى فيه ليتعرف النواحى التى يحتمل أن يكون قد زارها ، لأن هذه الفترة كانت حقبة مد وجزر بين الإسلام والنصرانية فى الأندلس ، ولا يستطيع الإدريسى أن يزور بلاداً فى أيدى النصارى أو مناطق كانت إذ ذاك ميادين قتال ، فخلال السنوات التى قضاها الادريسى فى رحلته المشرقية سقطت سرقسطة وإقليم الثغر الأعلى سنة ٥١٢/١١١٨ ، وكان المرابطون قد استعادوا الكثير من القواعد الأندلسية الكبرى قبل ذلك : استعادوا بلنسية وإقليمها سنة ٤٩٧/١١٠٢ بعد وفاة السيد القمبيطور ، وشنترين سنة ٥٠٥/١١١١ ، ولم يستطيعوا إستعادة طليطلة رغم ما بذلوا من جهود ، وإن كانوا قد استولوا على بعض الحصون الواقعة جنوبها وشرقها ، أى أن حدود الأندلس الإسلامى عندما كان الادريسى هناك كانت خطاً يبدأ فى الغرب شمالى شنترين ويسير شرقاً شمالى بطليوس ثم ماردة حتى يصل إلى البحر الأبيض شمالى مربيطر (سجونتو الحالية) . فما وقع شمالى هذا الخط نستطيع أن نقول إن الادريسى لم يزره بنفسه ، فأخذ معلوماته

عنه من الكتب أو من أفواه التجار وأهل الرحلة ، وما وقع جنوبه نستطيع القول بأنه قد زار بعضه وعرفه بنفسه[١] .

وفى أثناء مقام الادريسي فى صقلية منصرفا إلى العمل فى كتابه تغيرت الأحوال فى الأندلس تغيراً كبيراً بعد أغسطس سنة ١١٣٧/ذى القعدة ٥٣١ أى بعد زواج بترونيلا إبنة رذمير الراهب Ramiro el Monje وإبنة أخى الفونسو المحارب Alfonso el Batallador بالكند رامون بيرنجير الرابع صاحب قطلونية ، أى بعد اتحاد كندية قطلونية مع مملكة أرغون ، إذ أن ذلك كان نذيراً بتضعضع الجناح الشرقى من جهة الإسلام الأندلسى ، ثم اتصل التضعضع حتى شمل الجبهة كلها بسبب انشغال المرابطين بالحرب المؤسفة التى شنها الموحدون عليهم فى وقت كان المسلمون فى أشد الحاجة فيه إلى التماسك ، فقد كان المرابطون آنذاك فى عنفوان جهادهم على طول الجبهة الأندلسية ، وقد تمكنوا بفضل ثباتهم المجيد أن يحتفظوا للاسلام بجزء يقل قليلا عن نصف شبه الجزيرة ، ولكن عند ما قام عليهم الموحدون تداعت تلك الجبهة وتوالى التراجع ، ولم يستطع الموحدون أن يستعيدوا شيئاً بعد ذلك إلا فى النادر ؛ وأظن أن شيئاً من هذا كان فى نفس الشريف الادريسى وهو يكتب ، فهو معجب بالمرابطين غير راض عن الموحدين : سقطت شنترين سنة ٥٤٢/١١٤٧ والاشبونة فى اكتوبر من نفس السنة (ربيع الثانى ٥٤٢ هـ.) ، وفى نفس الشهر سقطت المرية فى يد الفونسو السابع ملك قشتالة ثم استعادها الموحدون بعد ذلك بعشر سنوات ٥٥٢/١١٥٧ ، وسقطت طرطوشة فى رجب ٥٤٣/ديسمبر ١١٤٨ ، وفى العام التالى سقطت لاردة وإفراغة Fraga ومكناسة Mequinenza .

ولم يشر الادريسى فى النص إلى زيارته للمواضع إلا فى حالات قليلة جداً ، وفيما يتصل بالأندلس لا ينص صراحة إلا عن زيارته لموقعين : أبال (Ovejo)

(١) César Dubler, *Los Caminos de Compostela*, pp. 67-70

على مسيرة يومٍ شمال قرطبة ثم الاشبونة ، ولكن وصفه الدقيق لبعض مواضع أخرى مثل المرية يدل على أنه زارها ، فهو يصفها وصفاً دقيقاً ويتحدث عن أسوارها وأهميتها التجارية بتطويل ، بل يضيف فى سياق حديثه عنها ملاحظة تدل على أنه كانت لهذا البلد مكانة فى نفسه ، قال : «المرية فى هذا الوقت الذى ألفنا كتابنا هذا فيه صارت ملكاً بايدى الروم ، وقد غيروا محاسنها وسبوا أهلها وخربوا ديارها وهدموا مشيد بنيانها ، ولم يبقوا على شىء منها»[١] ، وجدير بالذكر هنا أن وصف الادريسى للمرية أوفى من وصف العذرى وأحفل بالمادة النافعة ، فإذا كان العذرى هو الجغراف الأندلسى الوحيد الذى ذكره الادريسى بين مراجعه ، استطعنا أن نستنتج أنه أخذ جزءً كبيراً مما كتبه عنها من مرجع آخر أو كتبه بناء على مشاهدة شخصية .

وقد استبعد دوبلر أن يكون الإدريسى قد زار نواحى مما كان فى يد النصارى من الأندلس فى الوقت الذى كان هو فيه هناك ، فوصفُه لطليطلة لا يصورها كما كانت فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى بل فى العصور الإسلامية التى سبقت سقوطها سنة ٤٧٦/١٠٨٦[٢] . ويلاحظ كذلك أن أوصافه لبلاد هامة مثل غرناطة وإشبيلية مقتضبة وغير دقيقة ، مما نستنتج منه أنه لم يزرها بنفسه ، أو مر بها مروراً سريعاً لم يسمح له بالتحقيق والتقصى كما فعل فى المرية .

أما فيما يتصل بمراجعه عن اسبانيا ، فقد رأيناه يذكر العذرى ، وقد لاحظت هنا وهناك لمحات قصيرة تؤيد انتفاعه بهذا النص ، ولكننا لا نستطيع القول بأنه اعتمد عليه اعتماداً رئيسياً ، بل سنرى أنه استخدم تقسيم العذرى للكور إلى أقاليمها واجزائها الادارية استخداما خاصاً ليقسم الأندلس تقسيما جغرافياً لا نجده عند غيره ، ولكنه اعتمد على الرازى اعتماداً رئيسياً كما سنرى

---

(١) الإدريسى : وصف المغرب وأرض السوادن ومصر والأندلس ، ص ١٩٨ .
(٢) نفس المصدر ١٨٧ — ١٨٨ .

وربما أخذ أشياء عن البكرى ، ولا نستطيع القطع بهذا لأن نص البكرى عن الأندلس لم تبق لنا منه إلا بضع أوراق كما ذكرنا ، أما اعتماده على بطلميوس وهروشيش فظاهر من تصوره لهيئة شبه الجزيرة .

والحقيقة أن الادريسى عندما تعرض لوصف شبه الجزيرة الايبيرية وجد نفسه أمام مشاكل كثيرة كان عليه أن يحلها ، وقد اجتهد فى ذلك ، ولكن الحلول التى وصل إليها لم تكن موفقة دائماً ، فقد عاش وكتب فى عصر كانت الأحوال والأوضاع فى شبه الجزيرة تتغير تغيراً سريعاً ، وفرق بين شبه الجزيرة كما وجده موصوفاً فى كتابات الرازى والعذرى والبكرى ، وشبه الجزيرة الذى عاش فيه وألم ببعض مواضعه قبل ذهابه إلى صقلية ، والفرق بعيد كذلك بين هذا كله وصورة شبه الجزيرة كما وصلته وهو يكتب كتابه فى صقلية ، وينبغى أيضاً أن نذكر أنه كان يكتب لعالمين : عالمَ المسلمين الذين هو منهم ويكتب بلغته ولغتهم وعالَم النصارى الذين يتعاون معهم ، ولكل من هؤلاء نواح تهمه وأشياء يحرص على أن يقرأها فى ذلك الكتاب ، فبينما كان العذرى أو البكرى يعنيان ببلاد الاسلام فحسب ويكتفيان باشارات صغيرة إلى ما وراء ذلك شمالا دون أن يضر ذلك بمجموع ما يكتبان ، كان على الإدريسى أن يوفى بلاد الشمال حقها من الوصف ، وأن يذكر المزارات المسيحية والطرق إليها ويوفيها حقها من الكلام ، ثم إن المادة الطيبة عن ذلك كله كانت وافرة عنده ، فمن حوله ملاحون وسفار كثيرون من قطلونية ونبرة وأرغون واشتريس وليون وجليقية ، وهو يريد أن يدخل هذه المعلومات كلها فى كتابه وينسق بينها وبين ما لديه فى كتب الجغرافية الإسلامية وهو كثير أيضاً .

أضف إلى ذلك أن الوضع السياسى كان له أثر بعيد فى تصوره لشبه الجزيرة ، فقد وُجد حد فاصل عريض يفصل بلاد الاسلام عن بلاد النصرانية فى شبه الجزيرة فى العصر الذى كتب فيه ، وهو لا يستطيع أن يهمل هذا الحد الفاصل ، ثم إن قرطبة لم تعد مركز شبه الجزيرة ، ولم يعد فى الامكان

حساب الطرق وابعادها منها وحدها كما كان السابقون عليه يفعلون ، وهو لا يستطيع أن يتخذ طليطلة مركزاً لأنها لم تكن قد وصلت بعد إلى هذه الدرجة من الأهمية ، ولهذا كله كان عليه أن يبتكر أسلوباً جديداً للكلام على شبه الجزيرة ، أسلوباً لا يتعارض مع تقسيمه المعروف إلى أقاليم وأجزاء . وقد ابتكر فى الحق كثيراً وجاء بصورة لشبه الجزيرة لم يسبقه إليها أحد ، وإن كان ذلك قد أوقعه فى أخطاء لا تنقص من قدر ابتكاره ، وقد كنا نتمنى لو استطاع تداركها ، خاصة وأن ذلك لم يكن عليه عسيراً .

ولكى يحل الادريسى طائفة من المشاكل التى اعترضته اتخذ أساساً لتصوره لشبه الجزيرة خطاً يسير مع سلسلة جبال وادى الرملة Guadarrama وهذا الخط يستمر من قلمرية Coimbra إلى قرب المجرى الأوسط لنهر إبره ، وهو يسمى هذه الجبال الشارات أو الشّارّات ، ويقول إن الأندلس مقسومة بها من وسطها فى الطول[1] والطول هنا يراد به من الشرق إلى الغرب ، لأنه قبل ذلك يقول ان الأندلس مثلثة الشكل ، وعند كلامه عن طليطلة يقول « وعلى بعد منها فى جهة الشمال الجبل العظيم المتصل المعروف بالشارات ، وهو يأخذ من ظهر مدينة سالم (Medinaceli) إلى أن يأتى قرب مدينة قلمرية »[2] فهذه الجبال توازى الخط الذى رسمه فاصلا بين الإقليمين الرابع والخامس ، وإلى جنوبه يسير موازيا له الخط الفاصل بين اسبانيا الاسلامية وإسبانيا النصرانية وهو يقول بهذا الصدد : « وما خلف الجبل المسمى بالشارات فى جهة الجنوب يسمى إشبانيا ، وما خلف الجبل فى جهة الشمال يسمى قشتالة ، ومدينة طليطلة فى وقتنا هذا يسكنها سلطان الروم القشتاليين »[3] ، وهذه هى المرة الأولى التى نلقى فيها هذا التقسيم وتلك التسميات : فشبه الجزيرة كله يسمى عنده الأندلس ، ونصفه النصرانى

---

(١) الإدريسى : المغرب وأرض السودان ... ، ص ١٧٣
(٢) نفس المصدر ، ص ١٧٨
(٣) نفس المصدر ، ص ١٧٤

يسمى أندلس قشتالة. ونصفه الجنوبى أندلس اشبانيا ، وهذا التقسيم فى ذاته يدل على فهم صحيح لحال شبه الجزيرة على أيامه ، ففى النصف الثانى للقرن الثانى عشر الميلادى كانت قشتالة Castilla رأس الممالك النصرانية وأكبرها ، ولا بأس لهذا فى أن يسمى الجزء النصرانى كله اندلس قشتالة . واعتماداً على هذا الخط المتوسط الذى اتخذه فاصلا بين قسمي شبه الجزيرة يقول : « وفى جنوب هذا الجبل تأتى مدينة طليطلة ، ومدينة طليطلة مركز لجميع بلاد الأندلس ، وذلك أن منها إلى مدينة قرطبة بين غرب وجنوب (أى إلى الجنوب الغربى) ٩ مراحل ، ومنها إلى لشبونة غرباً ٩ مراحل ، ومن طليطلة إلى شنت ياقب على بحر الأنقليشيين ٩ مراحل ، ومنها إلى جاقا شرقاً ٩ مراحل ، ومنها إلى مدينة بلنسية بين شرق وجنوب ٩ مراحل ، ومنها أيضاً إلى مدينة المرية على البحر الشامى ٩ مراحل »[1] ، ولا يمكن الحكم بدقة هذه التقديرات أو عدم دقتها ، لأن الأمر هنا يتعلق بالطرق التى كانت تسلك فى الانتقال من طليطلة إلى كل من هذه المدن ، ولكنها تعطي على أى حال فكرة عن توسط طليطلة فى شبه الجزيرة ، وهذا هو ما قصد إليه الادريسى .

ويبدو غريباً أن يدقق الادريسى التدقيق فى تعيين مكان قرطبة بالنسبة لطليطلة : جنوباً بغرب ، ثم يقول بعد ذلك إن جاقا Jaca شرقى طليطلة وإن لشبونة إلى شرقها مع أن الأولى إلى الشمال الغربى والثانية إلى الجنوب الغربى ، ولكن تعليل ذلك واضح ، وهو أنه كان يعتقد أن شبه الجزيرة مثلث الشكل وأن جبال البرت (يسميها جبال الأبواب أو البرنيو) تسير من الشمال إلى الجنوب : وفى هذه الحالة يتغير محور شبه الجزيرة ، ويصير الخط الممتد من لشبونة إلى طليطلة ومنها إلى جاقة متجهاً من الغرب إلى الشرق بدلا من اتجاهه الطبيعى من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرق .

---

(١) صفة المغرب والأندلس للادريسى ، ص ١٧٣

وقد تبع الادريسى بطلميوس وهروشيش وبقية جغرافيي العرب فى القول بأن شبه الجزيرة مثلث الشكل ، ولم يكن يستطيع تصحيح هذا الخطأ ، لأن هذا كان يقتضى منه معاينة نواحى الجزيرة وسواحلها ، وهو لم ير إلا جزءاً من هذه وتلك ، ثم إن تعرف الاتجاهات على وجه الدقة لم يتم إلا بعد تجويد صناعة البوصلة وإحكام استعمالها ، وقد كانت البوصلة معروفة ولكن فن استعمالها لم يتم إلا في القرن الرابع عشر ، وعلى أى حال فقد استطاع الادريسى فى خريطته الكبيرة أن يعدل هيئة شبه الجزيرة ، فلم تظهر مثلثة الشكل فيها ، وإنما قريبة من هيئتها الحالية ، وكأنما لم يستطع وهو يرسم ويحقق المواضع والمسافات إلا أن يدخل هذا التعديل ، أما فى الكتابة فإن غرابة الشكل المثلث لشبه الجزيرة لا تكاد تلاحظ ، وعلى أى الأحوال فإن نقط الخلاف بين خريطة الادريسى ونص جغرافيته كثيرة جداً ، وأبسط ما لاحظه الباحثون من هذه النقط هو وجود أعلام كثيرة على الخريطة لا وجود لها فى النص والعكس بالعكس ، وتعليل ذلك أنه ، وهو يعمل كانت تتصل بعلمه مواضع فيثبتها على الخريطة وينسي إدخالها فى النص ، أو يصادف فى قراءته مواضع فيثبتها فى النص دون أن يوقعها فى الخريطة ، وعمله كله على أى حال كان فى حاجة إلى مراجعة دقيقة ، ولكنه كان معجلا يرجو الفراغ من النص وتقديمه لرجار ، فلم يتسع الوقت لذلك ، وكان على الحق فى إسراعه ، فقد توفى رجار بعد أن نجز الكتاب بأسابيع قليلة ، ثم لم تسمح له الظروف بالعمل الهادئ الذى تستلزمه المراجعة كما رأينا .

ويتكون كلام الادريسى عن شبه الجزيرة من ثلاثة أقسام ، الأول قصير جداً عن الهيئة العامة لشبه الجزيرة وانقسامها إلى قسمين ، إسلامى ونصرانى ، وقد تحدثنا عنه ، والثانى أطول قليلا ، وفيه يقسم شبه الجزيرة إلى أقاليم ، والثالث وهو الأكبر والأهم يتناول الوصف والكلام عن المدن والطرق والابعاد والحاصلات والسكان والصناعات والزراعات وما إلى ذلك .

والقسم الثانى ، الخاص بالتقسيم إلى أقاليم يعتبر فى ذاته مشكلة من مشاكل الجغرافية الادريسية .

ذلك أن هذه الأقاليم — وعددها عنده ستة وعشرون — لا تتمشى مع أى تقسيم جغرافى أو إدارى سابق ، فلا هى إدارية سياسية مثل تقسيم الرازى إلى كور ومدن ، ولا هى جغرافية تحدد مناطق معينة ذات خصائص طبيعية واضحة ، وإنما هو فيما يبدو تقسيم خاص لجأ إليه الادريسى لتيسير الوصف الجغرافى ، وحتى هذا الفرض لا يحل المشكل ، فلو كان الأمر كذلك فلماذا اتبع هذا التقسيم فيما يتصل بالقسم الإسلامى من شبه الجزيرة دون القسم النصرانى ؟ ولماذا لم يتبع نظاماً واحداً فى التسمية ، أى يجعلها على أساس المدن فيقول مثلا إقليم إشبيلية وإقليم قرطبة وإقليم المرية ، أو على أساس الظواهر الجغرافية فيقول مثلا إقليم البحيرة وإقليم السهل وإقليم الجبل ، أو على أساس المحصولات الزراعية فيقول إقليم الزيتون وإقليم البصل وما إلى ذلك ؟ لماذا اتخذ أسماء المدن حيناً والأعلام الجغرافية الطبيعية حيناً ثانيا والمزروعات حيناً ثالثاً ثم الأقوام رابعاً ثم إذا كان هذا تقسيماً خاصاً لجأ إليه هو ، فلماذا لم يجعله تقسيماً هندسياً كالتقسيم إلى أقاليم وأجزاء ، وهو هندسى صرف هدفه تقسيم سطح المعمور إلى مستطيلات يمكن تصوير كل منها فى خريطة خاصة ؟

تلك كلها أسئلة لا نستطيع لها جواباً . لقد حاول إدواردو سافدرا فى بحث قيم أن يقرب بين هذا التقسيم وتقسيم اسبانيا الحالى إلى مديريات ولكنه لم يستطع ، لأن حدود أقاليم الادريسى لا تطابق حدود أى تقسيم آخر سياسى أو إدارى سابق أو لاحق ، وحاول قبله أوريليانو فرنانذث جرا Aureliano Fernández Guerra أن يطابق بين هذا التقسيم والتقسيم الكنسى لاسبانيا على أيام القوط ، ولكنه لم يوفق رغم ما بذل من جهد ، وهذا طبيعى ، لأن الذى يطابق هذا التقسيم الكنسى هو التقسيم الإدارى العربى كما أثبته الرازى وبيناه فى موضعه من هذا البحث ، وأخيراً تعرض للموضوع — دون

بحث أصوله — خوسيه اليمانى بولوفر José Alemany Bolufer فى مقال معروف عن وصف اسبانيا عند الجغرافيين العرب ، وكان هذا فى سنة ١٩١٩ ، وبعد هذا لم يعد أحد إلى الموضوع [1]

وقد يبدو لنا أن جغرافية العذرى تعيننا على حل هذه المشكلة ، لأن معظم « الأقاليم » التى قسم الإدريسى الأندلس إليها هى أقاليم من كور بحسب تقسيم العذرى ، ولكننا لا نفهم السبب الذى حدا بالادريسى إلى اختيار أسماء أقاليم صغيرة من كور وإطلاقها على مساحات واسعة تعدل الكور فى المساحات ، خاصة إذا لاحظنا أن أقاليمه تلك تضم مدناً أهم وأكبر من أسماء تلك التى أطلقها عليها ، فاقليم شذونة مثلا يضم إشبيلية ، وإقليم البيرة يضم غرناطة ، وإشبيلية أكبر وأهم من شذونة مرات ، والبيرة لم تكن شيئاً إلى جانب غرناطة .

ولا نستطيع القول لذلك إن هذه الأقاليم تعين التقسيم الإدارى على عهد المرابطين أو أوائل أيام الموحدين ، لأننا لم نسمع بأن أياً من الدولتين أعادت تقسيم الأندلس إدارياً وأطلقت أسماء جديدة على الوحدات الجديدة ، ثم إنه من الثابت أن كورتى إشبيلية وغرناطة ظلتا بهذا الاسم على أيامهما ، ومن ثم فتسميتهما بإقليمى شذونة والبيرة لا علاقة لها بتقسيم إدارى .

بقى فرض واحد نعرضه وننتظر به ما عسى أن يجدّ من النصوص التى يمكن أن تكشف لنا وجه الحق فى هذا الموضوع ، وهو أن هذه الأقاليم وأسماءها كانت مصطلحات شعبية جرى الناس عليها فيما بينهم ، كما نقول فى مصر مثلا الوجه القبلى والوجه البحرى ، فهذان مصطلحان لا نجدهما فى أى كتاب من كتب الجغرافية حتى العصر التركى على الأقل ، ولم يدخلا فى

---

(١) Eduardo Saavedra, *La España del Edrisi*, (Madrid 1881).

وقد ضمن سافدرا فى كتابه هذا آراء أوريليانو فرناندث جيرا

José Alemany Bolofer, *La Geografía de la Península Ibérica en los escritores Arabes* (Revista del Centro de Estudios Históricos de Granada y su Reino) tomo IX, mans. 3-4, 1919.

الاستعمال الرسمى إلا فى العصر الحديث ، ومع هذا فقد كانا هما اللذان يطلقهما الناس فيما بينهم على قسمي مصر الكبيرين ، بينما كانت لهما فى المصطلح الإدارى والجغرافى لمصر أسماء أخرى ، وقد أخذها الادريسى من أفواه الناس : التجار وأهل الرحلة والفلاحين ومن إليهم ، فالأغلب أن الناس لم يكونوا يقولون «كورة الجزيرة الخضراء» وإنما إقليم البحيرة ، ولم يكونوا يقولون كورة إشبيلية وإنما إقليم شذونة وكذلك كانت كورة قرطبة عندهم الكنبانية ، ولم يكونوا يقولون كورة المرية وإنما إقليم بجانة ، وكذلك إقليم البيرة بدلا من كورة غرناطة ، وكذلك إقليم القواطم بدلا من كونكة ، وهكذا ، وهذه كلها مصطلحات شعبية تعارف الناس عليها فيما بينهم ، وحدود هذه الأقاليم لا تتمشى مع أى تقسيم إدارى أو جغرافى ، إنما هى نواح أو جهات ، والكثير من هذه التسميات قديم كان معروفاً قبل أيام العرب وربما قبل أيام القوط ، روبما كان الكثير منها إيبيريا قديماً أو بربريا مثل براميرة والولجة ومرمرية . وإلى هذا الأصل الشعبى ترجع الصور العربية الغريبة لبعض الألفاظ مثل البلالطة جمع لبلوط ، ثم الصيغ الهجينة التى تورد ألفاظاً غير عربية مجموعة جمعاً عربياً مثل الشارات والبشارات ، والعكس : ألفاظ عربية معاملة على نحو غير عربى وأمثلته كثيرة كما سنرى .

ومن أدلة المصدر الشعبى لهذه الأسماء أنها لا تستوفى الأندلس الإسلامى كله ، فليس فيها ذكر لمرسية أو بلنسية أو المرية ، بل تدخل فيه نواح خارجة عنه مثل برشلونة ، ثم إن الإدريسى فى كلامه المفصل بعد ذلك يذكر ما أهمله فى ذلك التقسيم من المدن الأندلسية ، ثم يقول فى نهاية كلامه عن هذه الأقاليم : «فهذه كلها أقاليم اشبانيا المسمى جملتها الأندلس» وهذا يناقض ما نص عليه قبلا من أن شبه الجزيرة كله يسمى الأندلس ، وأن ما شمال جبال الشارات يسمى قشتالة ، وما جنوبه يسمى اشبانيا . وربما جاز لنا هنا أن نقول إن هذا التقسم أخذه الإدريسى من رجل غير أندلسى : من واحد من تجار القطلونيين أو

الأرغونيين مثلا ممن تصادف مرورهم بصقلية ، سأله الادريسى عن تقسيم الأندلس كما رآه فذكر له ذلك ، فاثبته كما هو قبل أن يأتى بالوصف المفصل لشبه الجزيرة ، وكان ينبغى أن يعيد الادريسى النظر فيه ويصوبه على أساس فهمه الأساسى لتقسيم شبه الجزيرة كما ذكره أولا ثم على أساس المعلومات الوافية التى أتى بها بعد ذلك . ولكن الإدريسى لم يراجع ولم يصوب ، إذ أعجلته الأيام عن ذلك ، فبقيت أجزاء هذا الوصف وكأنها مسودة تنتظر المراجعة والتصويب والتنسيق . ودليلنا على ذلك قول الادريسى بعد إيراد هذه الأقاليم : «والأندلس المسماة اشبانيا أقاليم عدة ورساتيق جملة ، وفى كل إقليم منها عدة مدن ، نريد أن نأتى بذكرها مدينة مدينة بحول الله تعالى» وليس فى هذه العبارة إشارة إلى الأقاليم التى ذكرها قبل ذلك ، والاشارة إليها قليلة فى الوصف المفصل ، مما يدل على أن الفقرة الخاصة بالأقاليم وضعت بين التقديم العام عن هيئة شبه الجزيرة وأقسامها والوصف المفصل ، وقد وضعها الادريسى هنا لتكون أشبه بخط السير الذى سيتبعه فى وصفه المطول للأندلس . والواقع أنه يتخذ هذا التقسيم طريقاً للوصف بعد ذلك دون أن يشير ولو مرة واحدة إلى أصله أو طبيعته ، إنما هو عنده مجرد طريقة لتيسير الوصف ؛ وعدد هذه الأقاليم ستة وعشرون ، منها اثنان يسميان كورتين وهما تدمير وكونكة ، وأسماؤها وحدودها والأعلام الواردة فيها حافلة بالتفصيلات ، وقد تناولها البحاثون السابق ذكرهم بالبحث والتعليق ، وكذلك فعل دوزى و دى خوية فى الترجمة الفرنسية لهذا الجزء من جغرافية الإدريسى ، وليس هنا مجال عرض هذه الأقاليم ومناقشة أسمائها وأصولها وحل معضلاتها ، فهذا مكانه دراسة خاصة عن جغرافية شبه الجزيرة عند العرب .

وبعد ذكر هذه الأقاليم يبدأ الجزء الأهم — والأكبر أيضاً — من صفة الادريسى للأندلس ، وهو وصف عام يعتمد على المدن دون الأقاليم أو الكور ، فيذكر المدينة ويصف هيأتها العامة وموقعها على بحر أو نهر أو سفح جبل ،

فإذا كانت ميناء نهرياً أو بحرياً وصف مرفأها وبيّن أهميته وأنواع السفن التى تلم به ومن أى البلاد تجئ وإلى أيها تذهب ، وعدّد أصناف المتاجر التى تحمل إليه ومنه ، ثم يذكر إذا كان للمدينة سور أو كانت غير مسورة ، وحالة ذلك السور ، ومن أى المواد بنى وهل لها قصبة أو ليس لها « سور ولا حظيرة » ثم سقياها ومن أين تكون : من نهر أو عيون ، وما نوع هذا الماء ، ثم الاقليم من حولها وما يزرع فيه ، وإذا كان فيه معدن ذكره وبيّن قدره ودرجته من الجودة وما يصنع منه ، ويذكر ما فى ناحية المدينة من أعلام جغرافية ذات أهمية كالجبال والأنهار والسهول أو الملاحات أو الأراضى المنتجة أو المقفرة ، ويذكر أسماء هذه كلها إذا استطاع ، ثم يذكر بعد ذلك الطرق من هذه المدينة إلى ما يجاورها ويليها من المدن والقرى ، ويقدر الطريق بالأميال أو المراحل ، أو بهما معاً ، وربما أراد التدقيق فيذكر أن طول المسافة كذا «مرحلة خفيفة» ، ولا يفوته أن يذكر القناطر والآثار الهامة والمشاهد الفريدة مع وصف قصير ، وقد يفسر أسماء بعض الأعلام كشرف إشبيلية وقصر أبى دانس وجزيرة أم حكيم وما إلى ذلك ، وهو يذكر فى الغالب شيئاً عن أهل المدينة وناحيتها ويصف حالهم من الفقر والغنى والنشاط والخمول ، ونادراً ما يستطرد مع التاريخ أو مع ذكر العجائب والغرائب .

ومعنى ذلك أن الادريسى حشد فى أصغر حيز أكبر قدر من المعلومات الجغرافية ، بحيث يدهش الإنسان لكثرة المادة التى يقدمها فى سطور قليلة . وإذا تأملنا هذه المادة وجدنا بعضها من الرازى وبعضها الآخر من العذرى أو هروشيش ، وهناك معلومات كثيرة لابد أنه استقاها بنفسه من المشاهدة المباشرة أو من العارفين بهذه النواحى ؛ أى أن الذى لدينا هو خلاصة طيبة لمعظم المادة الجغرافية السابقة وكثير من المعلومات الجديدة مجموعة جمعاً سليماً قائماً على علم وفهم بما ينبغى للوصف الجغرافى وما يدخل فيه وما لا يدخل .

ووصف الادريسى للأندلس فى معظم نواحيه يدل على أنه يعرف ما يتكلم عنه ، فبينما نراه فى وصف مصر مثلا يعتمد فى الغالب على ابن خرداذبة وابن حوقل دون أن يراجع ما ينقله أو يحققه ، نجده فى الأندلس ينقل عن هذين وغيرهما ممن ذكرنا ولكنه يراجع ويدقق ويقيس بحيث لا نكاد نستدرك عليه خطأ يستحق الذكر فى أوضاع المدن والأعلام الجغرافية أو خصائصها . وعرضه لهذه الجغرافية أشبه برحلة ينتقل الانسان فيها من موضع إلى موضع ومن ناحية لناحية ، وخط سير الرحلة هو هذا التقسيم إلى أقاليم الذى أشرنا إليه ، فهى تبدأ من الجنوب عند جزيرة طريف Tarifa ثم تتجه إلى الغرب فتصف إشبيلية وإقليمها وشَرَفها ، ثم تستطرد مع الشرف إلى المحيط الأطلسى فتصف ما يعرف اليوم بجنوبى البرتغال وما فيه من مدن ومواضع ، ثم تعود إلى قرطبة وإقليمها الذى يسميه الكنبانية ، ويمتد هذا الاقليم جنوباً حتى استجة وقبره ، ثم يمر بما فاته من النواحى جنوبى نهر الوادى الكبير ، فيصف أشونة Osuna ولورة Lora ، ويستمر إلى شاطئ البحر الأبيض عند مالقة ، ويهبط مع هذا الساحل إلى مربله Marbella ، ويلم بذكر ما يقابل ذلك فى الداخل مثل أرشذونه Archidona وببشتر Bobastro ، ويصف إقليم جيان Jaén الذى يسميه إقليم البشارات Las Alpujarras ، ثم يعود إلى ساحل البحر الأبيض فيلم بالمرية وإقليمها وهو يسميه إقليم بجانة Pechina ، ويستطرد إلى الغرب فيصف غرناطة وما حولها ، ومن غرناطة يصعد إلى الشمال فيذكر إقليم فريرة Ferreira وهو الذى يعرف فى جغرافية الرازى بمدينة فريش Firrix ، ومن هناك يعوج إلى الشرق مرة أخرى ليتحدث عن تدمير أى مرسية واقليمها ، ويتجه شمالا بغرب ليصف إقليم كونكة Cuenca ، ويصعد بعد ذلك شمالا بغرب ليصف إقليم شاطبة ودانية ، وهو يسميه إقليم أرغيرة Enguiera ، ويستطرد منه إلى بلنسية وإقليمها مسمياً إياه إقليم مرباطر Murviedro ، ثم يذكر إلى جنوبه الغربى إقليماً يسميه إقليم القواطم ، وهى تسمية غريبة حيرت الباحثين

ويرى دوزى أن القراءة الصحيحة للاسم هى القواسم ، وهم بيت بنى القاسم احفاد عبد الملك بن قطن الفهرى عامل الأندلس على عهد الولاة ، وهو يؤيد رأيه بأن الإدريسى يذكر فى هذا الاقليم مدينة الفُنت Alpuente وكان بنو القاسم قد انتزوا بها أيام الطوائف ، ولا زلنا نجد إلى الآن قرب الفُنت بلداً صغيراً يسمى بنى قاسم Beni Cásin [(١)] .

ويُتبع الإدريسى ذلك بالكلام على إقليم يسمى الوَلَجة وهو لفظ حار العلماء فى أمره حتى أزال اللبس إلياس تيريس سادابا فى دراسة له قال فيها إن الولجة مشتق من فعل وَلَجَ يلج وهى تستعمل بمعنى الأرض الواقعة فى منعطفات الأنهار ، فتكون مثل شبه الجزيرة فتعتصم بها الجيوش لحصانتها ، وأتى إليـاس تيريس بأمثلة عند ياقوت تؤيد ذلك ، ثم رجع إلى لسان العرب فى مادة وَلَجَ فوجد ابن الأعرابىّ يقول : « ولاَج الوادى معاطفه ، واحدتها ولجة » . وقال اننا نجد فى المغرب موضعين على الأقل يحملان اسم الولجة ، وقد استعمل اللفظ — ومصغره الوُلَيْجَة — فى الأندلس بمعنى الأرض الواقعة فى منعطف الوادى أو الأرض الخصبة الواسعة على شاطىء النهر ، وقال إن إقليم الولجة الوارد عند الإدريسى يقابل على وجه التقريب ناحية قلعة رباح المسماة Campo de Calatrava فى محافظة ثيوداد ريال الحالية [(٢)] . والإدريسى يذكر فى ذلك الاقليم ثلاث مدن هى سُرِتَه Almonacid de Zurita وفِتَه Hita وقلعة رباح .

ويلى ذلك إقليم البلالطة ، وهى كما قلنا تسمية محيرة ، لأن الاسم المعروف لهذه الناحية عند جغرافيى العرب هو فحص البلوط Valle de los Pedroches ، وجمع بلوط على بلالطة جمع دارج . وكان اسم فحص البلوط يطلق على مساحة من الأرض شمال قرطبة تقع اليوم فى الجزء الجنوبى من مديريتى ثيوداد ريال Ciudad Real

---

(١) الترجمة الفرنسية لوصف الأندلس الادريسى ، ص ٢١٠ هامش ٣

(٢) ألقى الأستاذ إلياس تيريس هذه المحـاضرة فى الدورة الخامسة للجلسات العلمية الأندلسية فى مالقة فى ديسمبر ١٩٦٦

والبسيط Albacete بين مدينتي إينوخوسا دل دوكِ Hincjosa del Duque وجبل المعدن Sierra de Almadén ، وكان الجزء الجنوبي من فحص البلوط يسمى المدور Almodóvar نسبة إلى حصن المدور ، ولم يذكر الإدريسي هنا حصن المدور ، بل ذكر بطروش Pedroche وغافق وحصن ابن هارون el Castillo de Aznarón[(١)].

ثم يستطرد بعد ذلك غرباً إلى إقليم يسميه القفر[(٢)] ، والمراد به إقليم الجوف الممتد فى غرب اسبانيا ووسط البرتغال ، وهو الذى سماه البكرى بالمفازة ، ويجعل الإدريسي فيه من البلاد شنت مارية Santa María de Algarve ومارتلة Mertola وشلب Silves (وثلاثتها فى البرتغال حالياً) وحصونا أخرى .

وإلى الشمال الشرقى من هذا الاقليم يذكر إقليم القصر ، وقد سمّى هذه المساحة باسم المدينة التى كانت تحمل اسم قصر أبى دانس Alcocer do Sal وذكر كذلك يابوره Evora (كلاهما فى البرتغال أيضاً) وبطليوس Badajoz وشريشة Jerez de los Caballeros وماردة Mérida وقنطرة السيف Alcántara (فى مديرية قصريش أو قصر إش أو قِصرِش Cáceres) وقورية Coria .

ثم يذكر إقليماً إلى الشمال والغرب من هذا يسميه إقليم البلاط نسبة إلى مدينة صغيرة تسمى البلاط لا زالت موجودة إلى الآن بنفس الاسم Albalate ، ويظهر أن الإقليم كان يسمى بإقليم البلاط ، لأن مادوث يذكر هنا ناحية تسمى Campana de Albalat ، ويذكر الإدريسي فيه أيضاً مدينة مدلين Medellín الحالية ، وكل هذه مواضع فى غربى مديرية قصرش الحالية .

---

(١) انظر : Eduardo Saavedra, *La Geografía de España del Edrisi*, Madrid, 1881.
وفى هذا الكتاب يجد القارىء تحقيقاً دقيقاً جداً لكثير من أسماء الأعلام الواردة فى صورة مبهمة عند الادريسى ، وعافق قرية كانت إلى شمال قرطبة ، انظر عنها الترجمة الفرنسية للروض المعطار ، ص ١٨٧

(٢) فى النص المطبوع تحقيق دوزى ودى خوية (ص ١٧٥) : إقليم الفقر ، وفى نسخة أخرى الصقر ، ويلاحظ أن نقط الحروف فى الأصل غير واضحة ، ولعتقد أن قراءتنا له أقرب إلى المعقول .

وفيا بين هذا الإقليم والمحيط يذكر الادريسى إقليماً يسميه بلاطه يضع فيه ما يقابل وسط البرتغال الحالية فيا بين قلمرية Coimbra ولشبونة ويذكر فيه شنترين Santarem ولشبونة وشنترة Cintra .

وشمالى هذه الأقاليم الخمسة الأخيرة (البلالطة ، والقفر والقصر والبلاط وبلاطة) يذكر الإدريسى إقليم الشارات ، وهو عنده إقليم يمتد من جنوبى نهر تاجه إلى شمالى سلسلة الجبال المعروفة بوادى الرملة Guadarrama فى تصوره شرقاً (والحقيقة شمالا بشرق) حتى أقصى مديرية وادى الحجارة Guadalajara وربما جزء من مديرية سوريا Soria الحاليتين ، ويذكر فيه طلبيرة Talavera de la Reina وطليطلة Toledo ومجريط Madrid والفهمين Alfamín ووادى الحجارة وأقليش Uclés ووبذة Huete .

ويستمر بعد ذلك شرقاً (فى تصوره ، والحقيقة شمالا بشرق) فيتحدث عما كان يعرف بكورة سرقسطة مسمياً إياه إقليم أرنيط Arnedo وهى بلدة صغيرة فى مديرية لجرونيو Logroño الحالية فى منتصف المسافة بين قاعدتها (بنفس الاسم) وتطيلة Tudela ، ويذكر فيه من البلاد قلعة أيوب Calatayud وقلعة دروقة Daroca ومدينة سرقسطة Zaragoza ووشقة Huesca وتطيلة .

ويضع بعد ذلك — فى طريقه إلى جبال البرت — إقليما صغيراً يسميه إقليم الزيتون ، واسمه فى الغالب مشتق من نهر الزيتون المعروف الآن باسم el Cinca وهو نهير صغير يصب فى السيجر el Segre أحد فروع نهر إبره ويذكر فيه من المدن جاقة Jaca ولاردة Lérida ومكناسة Mequinenza وإفراغة Fraga .

ويتحدث بعد ذلك عن إقليم قطلونية مسمياً إياه إقليم البرتات والمراد بها جبال البرينيوس (التى تعرب خطأ باسم البرانس) ويذكر فيه طرطوشة Tortosa وطركونة Tarragona وبرشلونة Barcelona .

ويختم الوصف بإقليم يسميه مرمرية أو مرمريرة ، ولا نستطيع تحقيقه لأنه يكتفى بالقول بأن فيه حصونا خالية . ويقول بعد ذلك : ومما يلى البحر حصن طشكر Tiscar وكشطالى ، وهى ليست Castellón de la Plana وإنما Castello de Chiver كما رجح دوزى ،[1] وكتندة Cutanda [2] .

وواضح أن خط السير هذا ليس بالأمثل ولا الأقرب إلى التقسيم الجغرافى ، فهو يسير شمالا ثم غربا ثم شرقا ثم غربا مرة أخرى وهكذا ، ولو أنه تابع الرازى أو العذرى لكان أقرب إلى المنهج الصحيح ، نعم إن الإدريسى استوفى فى الوصف المفصل ذكر المدن الرئيسية والأعلام الجغرافية الهامة على أحسن صورة ممكنة حتى عصره ، ولكن تتبع خط السير عسير بحيث لا يتيسر العثور على الفقرات الخاصة بالمدن والأعلام الجغرافية إلا بالاستعانة بكشاف مفصل ، ثم إننا لا نجد أى إشارة إلى تقسيم إدارى أو مالى ، ولكنها رحلة طويلة حافلة بالتفاصيل ، وفى غضون التفاصيل يضيع التصور العـام ، ولو أنه عنى بالاستفادة من جغرافية العذرى لاستكمل هذه الناحية أيضاً .

والادريسى حريص فى هذه الجغرافية على ذكر المسافات بين المدن أو الأبعاد الخاصة بالجبال والشواطىء والأنهار ومسافات ما بينها ، ومرجعه فيما يذكر منها كتب الجغرافية أولا ثم أقوال الرحالة وأهل البلاد ، وفيما يتصل باسبانيا يمكن القول إنه كان يعتمد على نفر من المستعربين أى من الأندلسيين النصارى ، وفى العصر الذى كان الإدريسى يكتب فيه ، كانت المستعربية كتسمية لطائفة معينة من أهل اسبانيا تعيش تحت السيادة الاسلامية ، قد أخذت تفقد طابعها المميز نتيجة لزوال هذه السيادة الاسلامية نفسها عن كثير من النواحى وتخلخلها فيما بقى للاسلام من نواحى الأندلس ، فقد أثبت سيزار

(١) انظر الترجمة الفرنسية لنص الادريسى ، ص ٢١٢ هامش ١

(٢) الادريسي ، المغرب وأرض السودان . . . الخ ، ص ١٧٧ — ١٧٩

دوبلر اعتماداً على ما ذكره الإدريسى من الاحداث التاريخية أنه كتب ذلك الجزء الخاص بالأندلس ابتداء من منتصف ٥٤٢/الشهور الأخيرة من ١١٤٧ إلى آخر ٥٤٣/أوائل ١١٤٩ أى بعد أن وصل إلى صقلية خبر سقوط المرية فى يد الفونسو السابع فى جمادى الأولى ٥٤٢/أكتوبر ١١٤٧ وربما بعد وصول خبر سقوط الاشبونة فى نفس الشهر والسنة وقبل وصول خبر سقوط طرطوشة فى يد رامون بيرنجير الرابع أواخر سنة ٥٤٣/أواخر ١١٤٨ وأوائل ١١٤٩ [١] ، ونتيجة لهذا التطور الذى كان يجرى على قدم وساق انفتحت السبل أمام المستعربين للتنقل فى معظم أنحاء شبه الجزيرة ، ولابد أن أولئك الذين اعتمد عليهم الادريسى كانوا عارفين بالنواحى الشمالية من شبه الجزيرة وكذلك بمنطقة جبال البرت وما يليها من جنوب فرنسا الذى كان يعرف بافرنجة العظمى .

وصف اسبانيا النصرانية عند الإدريسى

يضع الادريسى هذا الجزء الشمالى من شبه الجزيرة الإيبيرية فى الجزء الأول من الاقليم الخامس ، وهو يتحدث فيه عن نواح لم يتناولها بالتفصيل جغرافى مسلم أو غير مسلم قبله ، فيما عدا هذه الاشارة المقتضبة التى أتينا بها من كلام هرشيش فى ترجمتها العربية ، ومن ثم فإن الادريسى لم يعتمد فيما أورد من صفتها على أصل سابق ، ولم يزرها هو بنفسه ، وإنما جمع المعلومات من أفواه من وجد من أهلها فى صقلية تجاراً أو ملاحين أو سفاراً ، وربما كان بعضهم من نصارى صقلية أو إيطاليا ممن ذهبوا للحج إلى شنت ياقب فى جليقية ، ولا غرابة والحالة هذه فى أن نجده يتخذ شنت ياقب هذه مركزاً لوصف شمال اسبانيا كله : إليها تتجه الطرق وبالنسبة لهذه الطرق تذكر المدن والنواحى .

---

(١) César Dubler, *Los Caminos de Compostela en Edrisi*, p. 91

ويذكر الإدريسي نواحي شمال شبه الجزيرة الواقعة فى ذلك الجزء الأول من الإقليم الخامس ، ولكنه بعد ذلك لا يحدد أقساماً أو أقاليم ، وإنما هو وصف عام بحسب المدن والطرق ، يصف الأولى ويبين مراحل الثانية ، ويقف وقفة قصيرة عند ما يصادفه من القرى والمواضع والمعالم الجغرافية ملتزماً ما التزمه فى جغرافيته كلها من حشد أكبر قدر من المعلومات فى أصغر حيز وتحرى الدقة قدر ما استطاع . وقد وفق الادريسى فيما طلب فى أصغر حيز يمكن تصوره ، فأتى بصورة وافية بالغرض لاسبانيا الشمالية والشمالية الغربية ومنطقة جبال البرت وجنوبى ووسط فرنسا ، وقد وقعت أخطاء فى بعض الحقائق الهامة والتفاصيل ، ولكن مسئولية هذه الأخطاء كما قلنا لا تقع عليه بل على مصادر معلوماته ، فقد وضع إقليم قطلونية شمالى جبـال البرت ، ونقل بذلك جرنده Gerona وبرشلونة إلى ما يلى هذه الجبال إلى الشمال ، وهذا أمر يستغرب من مثله ، ولكن ما حيلته ، وقد قال له أهل هذه النواحى أنفسهم ذلك ؟ وكيف كان يمكنه أن يصحح هذا الخطأ ، وهو لم يذهب إلى منطقة قطلونية ، ولا كانت له أي وسيلة للذهاب اليها ؟ وكذلك يمكن أن يقال عما أخذ عليه من أخطاء فى تقدير المسافات ، وقد عنى سيزار دوبلر فى بحثه عن طرق شنت ياقب وناحيتى جبال البرت يتتبع ما سماه بأخطاء الادريسى فى هذه التقديرات ، وكذلك فعل معظم من نشروا وبحثوا أجزاء من جغرافيته . ونعتقد أن ذلك الوجه من النقد لا محل له ، لأنهم يحكمون على تقريرات الادريسى بحسب الطرق الحالية ومسافاتها ، وليس من الضرورى أن تكون تلك الطرق هى التى كان يسلكها الناس فى العصور الوسطى ، وليس من الصواب لهذا أن يقال مثلا إن الادريسى أخطأ فى تقدير المسافات بين مراحل الطريق من شنت ياقب إلى جنوب فرنسا عن طريق ممر شيزروا وهو المعروف برنشفالة ، والمراحل التى سنذكرها تبدأ بعد شنت ياقب مباشرة :

البلد برسم الادريسي	أصل هذا الرسم	الاسم الحالى	تقدير الادريسي	التقدير الحالى
منت فبرير	Mons Februarii	Monte Febrero	١٢٠ كـ.م.(١)	١٢٠ كـ.م.
منت راد	Portus Montis Yracis	Ponferrada	١٨ » (٢)	
استرقة	Astorica	Astorga	٣٦ »	٤٧ »
ليون	Legio	León	٤٠ »	٥٢ »
سنقفون	Sanctun Facundum	Sahagún	٤٠ »	٣٦ »
قريون	Carrionus	Carrión	٨٠ »	٨٠ »
برغش	Burgus	Burgos	١٢٠ »	١٢٠ »
ناجرة	Nagera-Nagara	Nájera	٤٠ »	٧٩ »
قسطيلية	Stella	Estella	٤٠ »	٨٤ »

وقد ذكر الادريسي فى موضع آخر بلدتين بين ناجرة وقسطيلية هما :

لكروى	Gronium	Logroño		
سولى	San Zoil	Sansol		
بنت لرينه	Pontem Regine	Puente la Reina	٤٠ »	٢٠ »
بنبلونة	Pampilonia	Pamplona	٤٠ »	٤٣ »
برت شيزروا	Portus Cisereus	Roncesvalles	١٠٥ »	(طول الممر)
من بيونة الى شنت جوان		Sain-Jean-Pied-de-Port	٨٠ »	٥٤ »
قنجه		St. Bertrand de Ceming…	٩٠ »	١٦٠ »
مرلاس		Morlaas	٩٧,٥ كـ. م.	١٢٠ »
أوش أو آش		Ouch	١٠٥ »	٢٠٠ »

وبعد ذلك تلى بقية الطريق فى فرنسا .

ويلاحظ أن تقديرات الادريسي لا تختلف عن الواقع الحالى إلا قليلا فى معظم الأحيان ، لأنه وجد فى هذا الجزء من يذكر له تقديراً صحيحاً للمسافات ولهذا فقد كانت تقديراته سليمة على العموم ، أما فى بعض نواحى وسط

(١) قدر الادريسي ثلاثة أيام ، وكان ما يقطع فى اليوم فى العصور الوسطى على الخيل أو البغال بين ٣٥ و ٤٥ كـ. م. فأخذنا المتوسط ٤٠ كـ. م. وسنسير على ذلك الأساس .

(٢) فى النص ١٢ ميــلا ، وميل الادريسي يتراوح بين كيلومتراً واثنين فأخذنا المتوسط : الميل = ١,٥ كـ. م.

إفريقية ووسط آسيا والهند وشرق آسيا فلم تكن أمامه إلا تقديرات خاطئة فأخذ عنها ، والعهدة فى ذلك كله على مصادر معلوماته كما ذكرنا[١] .

ولكن الادريسى استطاع أن يقدم وصفاً دقيقاً للناحية الطبيعية من جغرافية هذه النواحى . وربما كان أول جغرافى استطاع الكلام عن سلسلة جبال كنتبرية وتحديد اتجاهها ومبتدأها ونهايتها على صورة تطابق حقيقتها ، فيقول : «ومن حصن ألفارو (Faro فى جليقية) المتقدم ذكره قبل هذا يبتدئ جبل شيبه ، فيمر مع مجرى البحر إلى أن يصل بيونة Bayonne ، فمرة يبعد عن البحر ، حتى يكون بينهما يوم ومرة يقرب حتى يكون بينه وبين البحر ١٥ ميلا ، ويتمادى متصلا غير منفصل إلى مدينة بيونة ، ويتصل هناك بجبل هيكل الزهرة ، ويكون طوله مسير ٩ مراحل ، والمرحلة ٣٠ ميلا[٢] » . وهنا أيضاً نلاحظ أن الأسماء التى يذكرها هى التسميات الدارجة للأعلام الجغرافية ، لا أسماؤها كما ستكتب بعد ذلك فى الكتب ، فاسم شِيبَه لجبال كنتبريه معرب لِ Mons . Auseva وأوْسِبَة مغارة فى ذلك الجبل يقال فى الأساطير أن بِلاى Pelayo هزم جيشاً إسلامياً عندها[٣] ، فاطلقت العوام اسمها على سلسلة الجبال ، كلها فى حين أن اسمها فى المصطلح الجغرافى سلسلة الجبال الكنتبرية La Cordillera Cantábrica ، وكذلك استعمال جبل هيكل الزهرة أو جبل هيكل اسما لجبال البرت أصله اسم معبد كان يسمى هيكل الزهرة عند بلد فرنسى صغير يسمى اليوم Port-Vendres (واسمه القديم Portus Veneris) على شاطئ البحر الأبيض جنوبى بَيُّونة ، وهذه تسمية دارجة تقابل الاسم المعروف وهو البرينيو ، والإدريسى يذكره أيضاً .

---

(١) اعتمدت فى تحقيق الأسماء على : C. Dubler, *Compostela...*, 114-117

(٢) الادريسى ، الجزء الأول من الاقليم الخامس ، نشره سافدرا فى دراسته التى أشرنا إليها قبلا ، ص ٦٥ .

وانظر : C. Dubler, *Compostela*, 86-87

(٣) Lévi-Provençal, *La Péninsule Ibérique...*, p. 5, n. 1

وهذه الدقة فى الوصف الجغرافى الطبيعى واضحة فى ذلك الجزء كله ، فهو يصف ساحل البحر ابتداء من الاشبونة إلى الشمال ثم منحرفاً شمالاً بشرق ثم شرقاً حتى يصل إلى جنوب فرنسا وصفاً هو الغاية فى الدقة ، وفى أثناء ذلك الوصف يلم بذكر الأنهار التى تصب فى هذا الجزء من ساحل الأطلسى وخليج بسكاية ويصف مجاريها ويقدر أهميتها واحداً واحداً .

ومثل هذا الوصف الدقيق ما كان يتأتى للادريسى بدون اعتماده على خرائط أدق بكثير من الخرائط التى تضمنتها كتب الجغرافية إلى ذلك الحين ، وقد ذهب سيزار دوبلر إلا أن الادريسى لابد أن يكون قد اعتمد على خرائط تشبه أدلة الموانى Portulani التى شاع انتشارها واستعمالها ابتداء من القرن الرابع عشر الميلادى ، وهى خرائط غاية فى الدقة والضبط ، يذهب مؤرخو هذا الفن إلى أنها من ابتكار الجنويين والقطلونيين ، ولكن أرجح الآراء أن أصلها عربى .

وينبغى أن نلاحظ هنا أن هناك نوعين من الخرائط كانا معروفين حتى فن الخرائط الحديث فى القرن السادس عشر الميلادى ، فأما الأول فالخرائط النظرية التى نجد نماذج منها عند الجغرافيين النظرين من بطلميوس إلى الخوارزمى وبعض الرحالة الجغرافيين من أمثال ابن حوقل ، وهى خرائط توضيحية لا أكثر ، ليست وظيفتها تحديد المواقع على وجه الدقة وإنما مجرد بيان الهيئة العامة للأرض وبحارها وتوقيع البلاد بالنسبة بعضها لبعض ، وأما الثانى فالخرائط العملية التى كان أهل البحر يستعملونها ويسيرون بمقتضاها ، وهى رسوم عملية دقيقة كان أولئك الناس يعولون عليها فى رحلاتهم ، وقد عرف ربابنة البحر والملاحين من العرب هذه الخرائط فيما يتصل ببحار آسيا والبحر الأبيض ، وذلك واضح من كلام المقدسى عن المحيط الهندى : « وأما أنا فسرت فيه نحو أَلْفَىْ فرسخ ، ودرت على الجزيرة (العربية) من القلزم إلى عَبّادان ، سوى ما تَوَّهَتْ بنا المراكب إلى جزائره ولججه ، وصاحبتُ مشايخ فيه وُلِدُوا ونشأوا

من ربانيين ووكلاء وتجار ، ورأيتهم من أبصر الناس به وبمراسيه ورياحه وجزائره ، فسألتهم عنه وعن أسبابه وحدوده ، ورأيت معهم دفاتر فى ذلك يتدارسونها ويعولون عليها ويعملون بما فيها [١] » ويقول فى ذلك خوان بيرنيت « وتدلنا الاشارات السالفة على أن ملاحي المحيط الهندى فى أواسط القرن العاشر كانوا يسافرون اعتماداً على كتب المسالك والخرائط البحرية ، التى كانت وقتئذ بدائية ناقصة ثم تحسنت بعد ذلك فى عام ٤٠٠/١٠٠٩ بواسطة المعلم أو مستعلم المركب جوازير بن يوسف الأريكى ، الذى وضع أسس المسالك البحرية العربية ، بعد أن قام برحلة فى مركب الهندى دَبْوُكَرَه Dabawkarah وستسمى خرائط المسالك البحرية فى مصطلح الملاحين فيما بعد رَحْمَنَاش Rahmanach وأدخلت عليها تحسينات عدة ، وتردد صداها فى مخطوط مجهول المؤلف فى القرن الرابع عشر ، حتى وصلت آخر الأمر إلى حوزة ابن ماجد ربان الرحالة فاسكو داجاما . ويبدو تاريخ تطور الرحماش واضحاً فى مقدمة كتاب ابن ماجد المسمى « علم البحر » ، ثم أدخل المعلمون ، خلفاء ربابنة القرن العاشر تحسينات متعددة تدريجياً على الدفاتر التى أشار إليها المقدسى . ونذكر على وجه الخصوص من بينهم ملاحاً من أصل أندلسى أو مغربى هو عبد العزيز بن أحمد المغربى ، حتى إذا كانت سنة ١١٨٤ استطاع إسماعيل بن حسن بن سهل بن أبان أن يقوم بدراسات فى هذا الصدد ، فكتب ورسم الرحماش التى استخدمها ابن ماجد فى كتابه [٢] » .

---

(١) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ١٠ وانظر أيضاً ص ٥٥

(٢) خوان بيرنيت خيليس : هل هناك أصل إسبانى عربى لفن الخرائط البحرية ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد ١ ص ٨٠ — ٨١ . وهذا المقال من أحسن ما كتب فى الموضوع وقد رجع فى كتابته إلى كل ما كتب قبله فيه ، والنتائج التى وصل إليها غاية فى الأهمية ، وقد وردت فى مقاله بعد ذلك عبارة تؤيد ما ذهبنا إليه من وجود نوعين من الخرائط : نظرية وعملية ، قال : من هذا يرى كيف أن ملاحي المحيط الهندى قد قاموا برحلاتهم ومعهم كتب المسالك البحرية قبل أن يعرفها إخوانهم الأوروبيون بعدة قرون ، كما يلاحظ أيضاً أن المقدسى عندما أشار إلى الخرائط البحرية فرق بينها وبين الخرائط الفنية (وهى التى سميناها نحن بالخرائط النظرية) التى كان يعدها علماء اليابسة لتقديمها للملوك والأمراء والزعماء » (ص ٨١) وكان ينبغى أن يضيف بعد ذلك « ولتضمينها فى الكتب على سبيل الشرح والتوضيح » .

ومعنى هذا أن معرفة الخرائط البحرية واستعمالها لم تقتصر على ملاحى المشرق من المسلمين ، بل عرفها ملاحوهم فى البحر الأبيض ، ولدينا خبر عن ملاح أندلسى يعرف بالشيخ القادسى ، كان ماهراً فى هذه الشئون وله بها معرفة واسعة[(١)] .

والمهم لدينا هنا أن الإدريسى عرف هذه الخرائط البحرية وانتفع بها فى تقدير المسافات بالبحر بين ميناء وميناء فى ذلك الجزء من كتابه ، وهذا واضح من قوله مثلا : « والطريق من قُلُمْرِية Coimbra إلى شنت ياقوب Santiago de Compostela وذلك — إذا شئته فى البحر — سِرتَ من حصن منت ميور (Mons Major حالياً Montemorovelho) إلى موقع نهر بوغو (Fluvius Voga وحالياً Rio Vouga) ، وهو أول أرض برتقال مجرىً الاشيا ؟ ، وبرتقال أرض معمورة بالقرى والحصون والعمارات المتصلة ، وبها خيل ورجال حرابة يغيرون على من بجوارهم ، ولا يُسْتَضَاء بنارهم ، ونهر بوغو نهر كبير ، تدخله المراكب والشوانى ، وماؤه يدخله المد والجزر أميالا كثيرة ، ومنه إلى موقع نهر دْوِيره ١٥ ميلا ، وهذا النهر نهر كبير خَرَّار ، كثير الماء شديد الجرية عميق القعر ، وعلى ضفته مدينة سمورة (Zamora) ، وبين سمورة والبحر ٦٠ ميلا ، ومن هذا النهر إلى موقع نهر مِينُو (Mineus واليوم El Minio) ٦٠ ميلا ، وهو نهر كبير عظيم واسع كثير العمق ، والمد والجزر يدخله كثيراً ، والمراكب تدخله إرساء وسفراً ، لما على ضفتيه من القرى والحصون ، وفى وسط هذا الوادى ، وعلى ٦ أميال من البحر حصن فى جزيرة متوسطة فى النهر ، وهو فى نهاية من الحصانة والمنع ، لأنه على قمــة جبل وعر ليس بكثير العلو ، ويسمى هذا الحصن ابواقه (Isla Boega بحسب رأى سافدرا ، ولكن سيزار دوبلر يعتقد أن الإدريسى خلط بين هذا الموقع وجزيرة أخرى تسمى Insúa فى نفس مصب المينيو) . ومن نهر مينو إلى موقع نهر طرون (هذا النهر يسمى Oitavén

---

(١) انظر : Ferrand, *L'Elément Persan dans les Textes Nautiques Arabes des XV et XVI Siécles*, dans *Journal Asiatique*, 1934, fasc. 1, p. 193-257.

ولكن على ضفته قرية تسمى Tourón وبها سماه الإدريسى) ٦٠ ميلا ، وهو أيضاً نهر كبير يدخله المد والجزر ، وعلى مقربة من البحر فى وسطه جزيرة ، وفيها حصن كبير ، والنهر يضرب سُورَيْه من كلتى الناحيتين ، وهو عامر كثير العمارات . وله أقاليم وعمارات متصلة ، ومنه إلى موقـــع نهر الأذر (Lercium, Lerceusi ، حالياً Rio Lerez) ٦ أميال ، وهو نهر صغير ، ولكنه يحمل المراكب الكبيرة إرساء . ومن هذا النهر إلى مصب نهر وادى قَرّار (Rio Ferreira وحالياً Umia) ٦ أميال ، وهو أيضاً نهر كبير ، والمد والجزر يدخله ، وترسى (كذا) به كبار المراكب ، وهو نهر جريه من قريب . وعلى موقع هذا النهر فى البحر جزيرة صغيرة غير معمورة ، وفيها مرسى وماء وحطب . ومن موقع هذا النهر إلى موقع نهر شنت ياقوب (Rio de Santiago) ٦ أميال ، ويسمى هذا النهر نهر أُنَاشْت (أناشت إسم قلعة تطل على نهر شنت ياقوب كانت تسمى Castellum Honesti وتسمى اليوم Torres del Oeste) وهو نهر كبير كثير المـــاء رحب القناء ، يدخله المد والجزر ، وتطلع فيه المراكب الكبار ، نحو ٢٠ ميـــلا ، وهناك قنطرة عظيمة ، عدد قسيها ٥ قسى كبار جداً ، وارتفاعها بمقدار ما يدخله المركب الكبير بقلاعه ، وعلى طرف القنطرة حصن عظيم يسمى أناشت ، ومنه إلى كنيسة شنت ياقب نحو من ٦ أميال[1] » .

ومثل هذا الوصف لا يمكن أن يكتب إلا بناء على خريطة مفصلة لهذا الجزء بالذات ، لأن الخرائط النظرية المعروفة لا تثبت الأماكن ومجارى الأنهار ومصباتها واتساع هذه المصبات وصلاحيتها للملاحة بهذه الدقة ، وبالفعل إذا نظرنا إلى هذا الجزء من خريطة الإدريسى الكبيرة كما نشرها كونراد ميلر وجدناها مفصلة تفصيلا كبيراً ، يدل على أنها نقلت عن خريطة مسالك بحرية

---

(١) الادريسى ، الجزء الأول من الاقليم الأول ، اشره إدواردو سافدرا ، ص ٦١ — ٦٢ . وراجعت فى تحقيق الأعلام مقال دوبلر *Compostela,* 104-105

بل هى أدق من الوصف ، فهى تثبت على مصب نهر الأذر بلدة تسمى عونة (Aonios وتسمى اليوم Isla de Ons) ، وهى مما أثبته الإدريسى على خريطته أثناء الكتابة ، وفاته أن يدخها فى الوصف . ولابد أن الادريسى رجع إلى أمثال هذه الخرائط البحرية فيما يتصل بحوض البحر الأبيض ، على ذلك تدل مقارنة خرائطه بأدلة الموانى المعروفة بالبورتلانية ، وفى ذلك يقول سيزار دوبلر : « . . . وليؤذن لنا هنا بأن نشير إلى استخدام الإدريسى للخرائط الملاحية ، وهو استخدام يتجلى فى خريطته بصورة لا تقبل الشك ، وذلك عند ما يتتبع شواطىء إفريقية الشمالية أو ساحل المحيط الأطلسى فى أوروبا ، وقد كانت النماذج التى اعتمد عليها الإدريسى هى نفس النماذج التى استخدمها رسامو أدلة الموانى الإيطاليون والقطلونيون المايورقيون منذ أوائل القرن الرابع عشر ، وقد استخدمها الإدريسى ف القرن الثانى عشر انتفع بها هؤلاء بعد ذلك فى القرن الرابع عشر . ولنلاحظ أيضاً أن البوصلة استعملت للملاحة فى البحر الأبيض بعد سنة ١١٠٠ مما هيأ الوسائل للقياس البحرى[١] » .

وهذه الملاحظة الأخيرة عظيمة الأهمية ، لأن الإدريسى ما دام قد استخدم خرائط الملاحة التى قامت على أساس من استعمال البوصلة فلا بد أنه عرف البوصلة واستخدمها لتحقيق ما وجده فى رسوم هذه الخرائط .

ومن المحقق أن ملاحى العرب عرفوا البوصلة واستخدموها قبل أن يستخدمها الأوروبيون ، قال خوان بيرنيت فى مقاله الآنف الذكر : « ويخبرنا تشو ـ يو Chu-Yo حوالى ١١٠٠ ميلادية أن أول استعمال للبوصلة كان فى بحر الصين على مركب متجه من سومطرة إلى كانتون ، ونستنتج من ذلك الخبر أن العرب عرفوا البوصلة فى القرن الحادى عشر ، ولكنهم احتفظوا بسر تركيبها الذى كان يسمح لهم بمزاولة التجارة البحرية دون منافسيهم . ويتوسع

---

(١) C. Dubler, *Compostela*.., 89

فران Ferrand فى الكلام عن الأشياء التى استعملها ملاحو العرب لتعيين الاتجاهات الرئيسية فى القرن الحادى عشر ، وانتهى إلى أن المسلمين — فى أواسط ذلك القرن — استعملوا بوصلة على هيئة الصنارة ، وقد يكون مصيباً فى كلامه ، إلا أنه من الثابت أن النصوص لم تشر إلى البوصلة حتى الثلث الأول من القرن الثالث عشر ، وذلك عندما أشار « محمد الوافى » ، فى كتابه « جوامع الحكايات » إلى أن ربانا ضل طريقه فى الخليج الفارسى أثناء عاصفة هوجاء ، ولم يهده إلى الطريق إلا إبرة على شكل سمكة ؛ وهناك بياق القبشاق (توفى حوالى ١٢٨٢) الذى يروى فى كتابه « كنز التجار » (كتب سنة ٦٤٠/١٢٤٢) أنه فى أثناء الرحلة التى قام بها فى شرق البحر الأبيض ، لاحظ أن الملاحين يستعملون البوصلة أداةً للتوجيه ، كما كانوا يجعلون مكة فى الجنوب المغناطيسى ، بمعنى أنه إذا اتجهت الابرة نحو الجنوب فإنها تسمى القبلة « الجنوب[١] » .

واستعمال الإدريسى للخرائط البحرية واستخدامه للبوصلة فى تحديد الاتجاه يعين لنا ناحية جديدة من نواحى امتيازه وسبقه على عصره ، فإنه من المعروف أن ميلاد الجغرافية الحديثة وعلم الخرائط المصاحب لها لم يتيسر إلا عندما صرف الناس النظر عن آراء الإغريق وتصورات النظريين فى هيئة الأرض وأوصافها وعولوا على معلومات الملاحين وأهل الرحلات المستمدة من الخبرة والممارسة الواقعية بفضل اعتمادهم على البوصلة وغيرها من أدوات القياس بدلا من التعويل على النجوم وافلاكها وسموتها ، أى عندما تنبه الناس إلى أن الجغرافية ليست علماً نظرياً ثانوياً يقوم على مذاهب وتصورات وإنما هى علم عملى أساسى لابد أن يقوم على الحقائق الثابتة بالمشاهدة

---

(١) خوان بيرنيت ، هل هناك أصل عربى لفن الخرائط البحرية . . . ، ص ٨٦ — ٨٧ والمراجع الوافية المذكورة هناك .

أما مقال فران المشار إليه فهو :

Ferrand, *Notes d'Histoire Orientale, Contribution à l'Histoire de la Boussole*, dans Mélanges Réné Basset, Paris, 1923.

والخبرة والقياس والدراسة ، ونظن أن هذا كان مذهب الإدريسى ، ورأيه فى المؤلفات الجغرافية النظرية السابقة عليه واضح فى مقدمة كتابه ، ومن هنا كان اتجاهه إلى سؤال الملاحين والرحالين والتجار وأهل الأسفار وحرصه على القياس والتحقيق واستخدام الآلات ، وقد أثبتنا فيما مر تنبهه إلى أهمية الخرائط الملاحية واستخدامه لها ، ثم انتفاعه بالبوصلة ، وهذا كله ثابت من طريقته فى الوصف الجغرافى كما يتجلى فى الفقرات التى أتينا بها ، وهى جزء صغير مما يضمه كتابه. حقيقة أن الإدريسى لجأ إلى الكتب النظرية وأخذ عنها ، ولكنه لم يفعل ذلك إلا لاستكمال المعلومات عن هذا الموضع أو ذاك ، وفى حالات قليلة لم يجد غيرها فنقل عنها ، كما نقل عن بطاميوس كلامه عن الهند ، ولا غرابة والحالة هذه أن يكون هذا الجزء بالذات أضعف أجزاء « نزهة المشتاق »

وليس بغريب فى هذا المجال أن تكون أقدم خريطة صحيحة للبحر الأبيض خريطة عربية ، ففى المكتبة الأمبروزية فى ميلان خريطة لذلك البحر تسمى بالخريطة المغربية Carta Mogrebina ، يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر الميلادى ، وهى على هذا أقدم من الخريطة المعروفة بالبيزية Carta Pisana التى كان يظن أنهـا أول خريطة حديثة لذلك البحر ، فإن تسمية هذه الخريطة بالمغربية يدل على أن صانعها عربى مغربى ، وقد اقترح باحث إسبانى تسميتها بالأندلسية Carta Arábigo Española (١) ، وأيا كانت تسميتها فهى عربية الأصل ، وقد صنعت على نفس الأساس الذى صنع به الإدريسى خريطته ، وهى بالفعل تشبهها إلى حد كبير ، مما يأذن لنا فى أن نضع الادريسى على رأس القافلة التى أنشأت علم الجغرافية الحديث وخرائطه .

ويتجلى هذا التجديد الادريسى الشامل كلما أمعنا النظر فى ذلك الجزء

(١) انظر : José Alemany Bolufer, *La Geografía de la Península Ibérica en los escritores cristianos, desde San Isidoro basta el siglo XVI*, Revista del Centro de Estudios Históricos de Granada y su Reino, tomo XII, 1922, núms. 1, 2, p. 5-6.

الذى كتبه عن اسبانيا الشمالية وبقية نواحى أوروبا ، ولقد تعرض الرجل فى هذه الأقاليم كلها لعالم لم يسبقه إلى وصفه وصفاً جاداً جغرافى عربى قبله ، وكان عليه أن يصور هيئات هذه النواحى وطرقها والمسافات بين مواضعها تصويراً دقيقاً ، وقد توقف توفيقه على نوع المعلومات التى يسرتها له مصادر معلوماته ، فأجاد الاجادة كلها حيث وجد معلومات سليمة ، وقل نصيبه من الاجادة عند ضعف هذه الأصول ، ولقد أبدى سيزار دوبلر دهشته من توفيق الادريسى فى الكلام على الطرق المؤدية إلى شنت ياقب ، حتى لقد فاق فى وصفه لهذه الطرق أدلة الرحلات التى كانت مُعْتَمَدَ حجاج المسيحية إلى ذلك المزار الكبير ، فقد كان أكبر هذه الأدلة واحد يسمى الكاليكستينى Calixtino وقد حدد الطرق المؤدية من جنوب فرنسا إلى شنت ياقب بأربعة ، يسلك كل منها ممراً من ممرات جبال البرت ، ولكنه ذكر بعد ذلك ممرين فقط ، أما الادريسى فقال إنها أربعة ثم ذكر الأربعة بغاية الدقة : « وفيه أربعة أبواب فيها مضايق يدخلها الفارس بعد الفارس ، وهذه الأبواب (أى الممرات) عِراض لها مسافات ، وهى مخوفة الطرق . وأحد هذه الأبواب الباب الذى فى ناحية برشلونة ، ويسمى برت جاقة (Puerta de Jaca) ، والباب الثانى الذى يليه يسمى برت أشبره (Portus Asperi وهو اليوم ممر Somport) والباب الثالث منها يسمى برت شيزرو (Portus Cisereus ويسمى عادة رنسفالة Roncesvalles بالاسبانية و Roncevaux بالفرنسية) وطوله فى عرض الجبل ٣٥ ميلا ، والباب الرابع منها يسمى برت بيونه (ربما كان الممر المعروف اليوم بإسم Puerta de Maya وهو وادى بزتان Baztán) . ويتصل بكل برت منها مدن فى الجهتين فما يلى برت شيزرو مدينة بنبلونة (Pamplona) ، والباب المسمى باب جاقة عليه مدينة جاقة ، وسنذكر ما خلف هذا الجبل وما اتصل به من بلاد الروم بعد هذا بحول الله[1] » .

---

(١) الادريسى ، الجزء الأول من الاقليم الأول بتحقيق سافدرا ، ص ٦٥
C. Dubler, *Compostela...*, 94-96.

خبر الفتية المغرورين أو المغررين

وختاماً لهذا الكلام عن الإدريسى نشير إلى الخبر المشهور الذى رواه عن هذا النفر من أهل الاشبونة الذين اقتحموا المحيط الاطلسى « ليعرفوا ما فيه وإلى أين انتهاؤه ، ولهم باشبونة موضع بقربه الحمة منسوب إليهم ، يعرف بدرب المغرورين » والخبر طويل مشهور نقله عن الإدريسى أبو حامد الغرناطى وابن عبد المنعم الحميرى والقزوينى[1] ، وخلاصته أن ثمانية رجال « كلهم أبناء عم » أعدوا مركباً « وادخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر ، ثم دخلوا إلى البحر فى أول طاروس الرياح الشرقية » فجروا بها نحواً من أحد عشر يوماً ، فوصلوا إلى بحر غليظ الموج ، كدِر الروائح ، كثير القروش ، قليل الضوء ، فأيقنوا بالتلف ، فردوا قلعهم فى اليد الأخرى ، وجروا فى البحر فى ناحية الجنوب اثنى عشر يوماً ، فخرجوا إلى جزيرة الغنم ، وفيها من الغنم ما لا يأخذه عد ولا تحصيل ، وهى سارحة لا ناظر لها ولا راع ، فقصدوا الجزيرة ونزلوها ، فوجدوا عين ماء جارية ، عليها شجرة تين برى ، فأخذوا من تلك الغنم وذبحوها ، فوجدوا لحومها مرة لا يقدر أحد من أكلها ، فأخذوا من جلودها ، وساروا مع الريح إلى الجنوب » حتى وصلوا إلى جزيرة فيها عمارة وحرث ، فلما نزلوا بها أحيط بهم وأخذوا وحبسوا ، وقد وصفوا أهل الجزيرة بأنهم « شقر زعر شعورهم سبطة ، وهم طوال القدود ، ولنسائهم جمال عجيب » ثم حملوا إلى تلك الجزيرة ، فلما علم أمرهم أمر بهم فوضعوا فى زورق جرى بهم ثلاثة أيام وصلوا بعدها إلى شاطئ إفريقية عند مدينة أسفى ، ومن هناك عادوا إلى الاشبونة . ويغلب على الظن أن الجزيرة

---

(١) الادريسى : المغرب والأندلس وإفريقية ... ص ١٨٤ — ١٨٥ ، أبو حامد الغرناطى ، تحفة الألباب ، بتحقيق فران ، ص ٢٣٣ — ٢٣٤ ، ابن عبد المنعم الحميرى ، الروض المعطار ، ص ١٧ — ١٨ ، القزوينى ، عجائب المخلوقات ، ج ١ ص ١٢٤ — ١٢٥

التى وصلو إليها أول الأمر هى إحدى جزر آزورس (أى الجزائر الزرقاء) ، والجزيرة الثانية إحدى جزر الكناريايس ، أى جزر السعادات ، ويستبعد أن يكونوا قد وصلوا إلى ساحل أمريكا ، لأن أبعد نقطة وصلوا إليها فى الغرب كانت على بعد ١١ يوماً ، وحتى لو تصورنا أنهم ساروا بعد ذلك جنوباً بغرب حتى وصلوا «جزيرة الغنم» ، فإن ساحل أمريكا لا يدرك بعد ٢٣ يوماً بالمركب الشراعى ، ولا يعقل أن تكون الجزيرة الثانية التى وصلوا إليها وقبض عليهم فيها إحدى جزر البحر الكاريبى أو شيئاً من سواحل أمريكا الشمالية لأنهم أركبوا بعد ذلك فى مركب وصل بهم إلى شاطىء إفريقية عند بلدة أسفى فى المغرب بعد ثلاثة أيام ، وهناك قيل لهم أن بينهم وبين الاشبونة شهر ، ولهذا قلنا إن هذه الجزيرة الثانية هى إحدى جزر الكناريايس .

والذين يجتهدون فى إرغام هذا النص لاتخاذه دليلا على أن العرب وصلوا إلى العالم الجديد قبل الأوروبيين ، ينسون أن الوصول إلى شواطىء ذلك العالم ليس فى نفسه بذى بال ولا يدل على تقدم ولا يوصف بأنه كشف ، فالهنود الحمر الذين وجدوا فى ذلك العالم كانوا قطعاً أول من وصل إليه ، ومع ذلك فلم يوصفوا لهذا بالتقدم ولم يعدوا مكتشفين ، إنما العبرة فى عمل كولومبوس أنه قام على نظرية علمية وأثبت صحتها ، وهو أن المتجه من شواطىء أوروبا غرباً يصل إلى آسيا لأن الأرض كرة ، وهذه النظرية عربية أتينا بنص واضح صريح للبكرى فيها ، وهذا فى رأينا هو الكشف الصحيح وموضع الفخر ، اما أن يكون الذى قام بتطبيق هذه النظرية العربية كولومبوس أو غيره فمسألة تلى ذلك فى الأهمية ، وقد تحققت لعوامل علمية وصناعية أخرى مثل إتقان فن الخرائط البحرية وتقدم صناعة السفن وإحكام استخدام البوصلة ثم لعوامل سياسية أهمها المنافسة الشديدة بين البرتغاليين والإسبان ، فأما البرتغاليون فقد قادهم العرب علمياً وعملياً إلى آسيا ، وأما الاسبان فقد قادهم العرب علمياً ، وهذا هو المهم .

ولكن القصة تهمنا من نواح أخرى ، فهى الحكاية الطويلة الوحيدة التى اهتم الإدريسى بروايتها فى ذلك الجزء من جغرافيته ، وهو لم يقصصها على أنها غريبة أو عجيبة ، بل هى فى الواقع جزء من جغرافيته ، فهى أول وصف لدينا لمياه المحيط الأطلسى على بعد شاسع من شواطئه ، وواضح أن الذين قاموا بالرحلة كانوا قد أعدوا من الزاد ما يكفيهم لأشهر ، ولا بد أنهم كانوا من مهرة الملاحين ، إذ لا يطلب مثل هذه المغامرة إلا الواثق من نفسه فى شئون البحر ، ومع ذلك فلم يستطيعوا الاستمرار فى الاتجاه الغربى إلا ١١ يوماً ، واضطروا إلى الاتجاه جنوباً ، وإذا كان متوسط ما كانت تقطعه السفن الشراعية فى اليوم فى تلك العصور ١٠٠ كيلومتراً ، فمعنى ذلك أنهم قطعوا فى الاتجاه الغربى نحو ١١٠٠ كيلومتراً ، وهناك اضطروا إلى الاتجاه نحو الجنوب ، فساروا ١٢ يوماً أى حوالى ١٢٠٠ كيلومتراً حتى وصلوا إلى جزيرة الغنم ، فإذا علمنا أن جزر أزورس تقع تقريباً فى مقابلة ساحل إيبيريا غرباً ، فلا بد أن الرياح سارت بهم بعد إبحارهم بقليل إلى الشمال الغربى ١١٠٠ كيلومتراً ، ثم انحرفوا إلى الجنوب أو جنوباً بغرب حتى وصلوا جزر آزورس ، وقد استبعدنا أن يكون وصولهم إلى جزر ماديرا لأن هذه أقرب إلى ساحل إيبيريا من ذلك ، ثم اتجهوا بعد ذلك جنوباً بشرق حتى وصلوا الجزيرة الثانية التى ذكروها ، وقد غلب على ظننا أنها إحدى جزر الكناريآس ، لأن الناس الشقر الزعر ذوى الشعور السبطة « وهم طوال القدود ولنسائهم جمال عجيب » تنطبق أوصافهم على الجُوَانْشِي الذين كانوا يسكنون هذه الجزر قبل الغزو الإسبانى ، فيما عدا وصف النساء بالجمال العجيب ، لأن هذه مسألة تقديرية . والغريب فى كلامهم هى الغنم التى وجدوها فى الجزيرة الأولى ، وهى غنم غريبة لحومها مرة « لا يقدر أحد على أكلها » ، فهى إذن ليست غنما ، ثم إن الغنم لم توجد لا فى الأزورس ولا فى ماديرا قبل كشف البرتغاليين لها ، إنما كانت هناك أرانب برية وحيوانات أخرى لا تؤكل لحومها » .

فإذا حسبنا مقدار ما قطعه أولئك الرجال فى المحيط الأطلسى وجدنا أنهم قضوا ٣٨ يوماً (١١ + ١٢ + ١٢ + ٣) قطعوا فيها قرابة ٣٨٠٠ كيلومتراً فى مياه هذا المحيط ، وهذه أطول مسافة قطعت فيه إلى ذلك الحين ، وذلك فى ذاته عمل عظيم سبق به العرب غيرهم ، وهو أمر محقق لا خيالى ، ولم يكن أولئك الأشبونيون هم العرب الوحيدين الذين أقدموا على ركوب هذا المحيط وأتونا عنه بنبأ ، فإن لدينا نصوصاً كثيرة تدل على أن خروج المسلمين من اسبانيا فى اتجاه الغرب أو الجنوب بمحاذاة إفريقية كان أمراً كثير الحديث ، قال خوان بيرنيت فى مقاله عن الأصل العربى للخرائط الملاحية : « هذه النصوص المتقدمة تحملنا على الظن بأن معلومات ملاحى المحيط الهندى عن السواحل الإفريقية الأطلسية لا ترجع فقط إلى المعلومات التى أمدهم بها البرتغاليون بعد رحلة فاسكو داجاما ، وإنما من الممكن أن يكون ملاحو الأندلس والمغرب فى الزمن القديم » كما يقول ابن ماجد قد وصلوا المحيط الهندى بعد أن طافوا بإفريقية ووصلوا رأس الرجاء الصالح ، وزارت سفنهم بعد ذلك سُفالة فى بلاد الزنج ، وهى تقع على خط عرض ٢٠ جنوباً أى أنها قريبة نسبياً من الطرف الجنوبى لإفريقية . وكانت سفن المسلمين المشارقة تفد على هذا الميناء ابتداء من القرن التاسع على الأقل ، وهناك كانوا يلتقون بإخوانهم المقبلين من الأندلس والمغرب . وكان خروج المسلمين فى المحيط الأطلسى أمراً كثير الحدوث ، إما لأغراض علمية أو تجارية ، ولا ينبغى أن ننسى بهذا الصدد أن العرب تابعوا بطلميوس فى اعتبار خط الطول المار بإحدى جزر المحيط الأطلسى خطاً رئيسياً ، وأقاموا على أساس من ذلك جداول خطوط الطول . . . هذا بالإضافة إلى رحلة الشيخ القادسى التى وصلتنا أطراف منها ، ثم رحلة المسمى خسخاس إلى جزر الكناريا س قبل سنة ٩٥٦ ميلادية ، ثم مغامرة « المغررين » إلى جزر ماديرا والكناريا س وشاطىء إفريقية حوالى سنة ١٠١٣ ورحلة سُليم الاسوانى (حوالى ٣٦٤ / ٩٧٥) الذى وصل إلى قلب إفريقية عن طريق المحيط

الأطلسى » وهناك أيضاً رحلة ابن فاطمة (توفى ٧٣١ / ١٣٣١) التى وصل فيها إلى ما بعد الرأس الأبيض على الشاطىء الغربى لإفريقية . ولدينا فى مكتبة الاسكوريال خريطة للمحيط الأطلسى نسبها ميخائيل الغزيرى لابن الزيات ، وتاريخها يرجع إلى ما قبل سنة ٥٩٤ / ١١٩٨ وهى تعطينا فكرة عما كان المسلمون يعرفون عن المحيط الأطلسى ، ويرى فيها خليج غانه بوضوح[1] .

* * *

إلى هنا نقف بالحديث عن الشريف الإدريسى ومكانه فى تاريخ العلم الجغرافى فى الغرب الإسلامى ، وفى تاريخ الجغرافية عند المسلمين بصفة عامة ، نقف هنا لأن الحديث عن الإدريسى ، يحتاج إلى أضعاف ما قلنا ، ولكن ما عنانا هنا هو تحديد دوره فى تطور هذا العلم ، فهو من ناحية القمة التى وصل إليها علم الجغرافية العربية من ميلادها إلى أوائل القرن الثالث عشر ، ومن ناحية أخرى نقطة البداية للعلم الجغرافى الحديث . ولو وجد من يواصل عمله فى ذلك الاتجاه لتقدم ميلاد الجغرافية الحديثة ثلاثة قرون على الأقل ، ولكن الإدريسى كان نادرة من نوادر الزمان ، وهؤلاء النوادر لا ينتظمون فى سلسلة تطور ، ولا يسهل ربطهم بمن قبلهم ويعسر وجود من يواصل عملهم ، وربما كان شىء من هذا ممكناً لو أن الإدريسى عاش فى وطن عربى ونشأ حوله تلاميذ يأخذون عنه ويواصلون عمله ، ولكن الرجل عاش بعيداً على هامش عالمه العربى أو بتعبير أدق فى منطقة فاصلة بين الشرق والغرب ، ولقد

---

(١) خوان بيرنيت خينيس ، نفس المرجع ، ٨٣ — ٨٥

George Sarton, *Introduction to the History of Science*, III, p. 1150 sqq.

Ch. de la Roncière, *La découverte de l'Afrique au Moyen Age, Cartographes et explorateurs*, Le Caire, 1924-5.

Aḥmad Zaki Pasha, *Une seconde tentative des Musulmans pour decouvrir l'Amérique* dans Bulletin de l'Institut d'Egypt, 1920, pp. 57-59.

أسف ميكيلى أمارى لأن عمل الادريسى لم يترجم فى حينه إلى اللاتينية بل ظل عربياً وورثه العرب ، وأسفنا نحن لأنه لم يعمل بين ظهرانينا حتى تكون فائدتنا منه أوسع وأشمل ، وربما كانت مشيئة المقادير فى تسيير حياته وعمله على هذا النحو أبلغ من أى أسف ، فهذا عبقرى من عباقرة الفكر الانسانى ، واحد من أولئك الذين يعيش البشر آجمعين على تراثهم ، ووطنهم هو العالم كله ، ذلك العالم الذى كان الادريسى أول من تصوره ككل واحد وصوره على كرة وجمع وصفه من أقصاه لأقصاه فى كتاب .

معاصرو الادريسى

بينما كان الإدريسى يعمل فى صقلية ، كان جغرافيون آخرون يعملون فى نواح شتى من مملكة الإسلام ، ولكنهم كانوا يسيرون فى الجغرافية على النهج القديم ، ولم يقرأ أحد منهم شيئاً مما كتب ، لأن الإدريسى عمل فى ظروف خاصة جعلت وصول كتبه إلى معاصريه من المسلمين عسيرة ، بل منهم من لم يسمع به ، وظلوا يعملون سائرين على درب الماضين غير عالمين أن أخا لهم قد فتح فى الفن الذى أولعوا به فتحاً حاسماً خطا به قروناً كثيرة إلى الأمام .

وليس معنى ذلك أن أعمال أولئك المعاصرين قليلة القيمة أو لا تستحق عناء دراستها ، لأن المنهج الجغرافى التقليدى ، وإن بدا قليل الجدوى إلى جانب منهج الإدريسى ، إلا أن له فضائله وقيمته ، والجيدون من السائرين عليه لهم قدرهم ودورهم فى تاريخ هذا العلم فى عالم الإسلام ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن بعضهم جمع صفات الدقة والأمانة ورُزق موهبة طيبـــة فى جمع المعلومات الجغرافية وكتابتها على طريقة البلدانيين أو الفلكيين والعجائبيين تبينـا أن تاريخاً للعلم الجغرافى فى الأندلس لا يكمل إلا بالكلام على رجال مثل أبى القاسم خلف بن بشكوال واليسع بن عيسى الغافقى وأبى حامد الغرناطى وأبى بكر الزهرى وأمثالهم ، خاصة وقد امتاز بعضهم بخصائص الدقة والفهم لمطالب الوصف الجغرافى ، وتفرد بعضهم الآخر بالإبعاد فى الرحلة والسياحة فى بـلاد كانت فى ذلك الحين فى حكم المجهولة والعودة إلى بلاد الإسلام بكل عجيب

طريف ، وأتيح لواحد منهم (وهو محمد بن أبو بكر الزهرى) أن يحتفظ لنا بنص أحد كتب الجغرافية التى كان يتداولها الملاحون والتجار وأهل الموانى ، وهى كتب عملية كانت تكتب شرحاً للخرائط التى كانوا يستعملونها ويعولون عليها ، وهى كتب تبدو لنا قليلة القيمة العلمية إلى جانب ما مررنا ونمر به ، ولكنها تصور مفهوم الجغرافية عند هذه الطوائف من الناس التى كان أهل العلم يدرجونها فيما يسمونه بالعوام .

الجانب الجغرافى من ابن بشكوال

وقد يبدو غريباً أن نذكر أبا القاسم خلف بن بشكوال فى بحث خاص بالجغرافية والجغرافيين لأن ابن بشكوال مشهور بأنه فقيه محدث ، ولكنه كان إلى جانب ذلك مؤرخاً مجيداً ، وابن الأبار الذى أتانا بأوسع ترجمة لابن بشكوال يقول إنه كان « حافظاً حافلا اخبارياً ممتعاً تاريخياً مُقَيِّداً ذاكراً لأخبار الأندلس القديمة والحديثة ، وخصوصاً لما كان بقرطبة ، حاشداً مكثراً » . وعن طريق التاريخ اسهم ابن بشكوال فى الجغرافية ، وكانت الجغرافية لا تفترق عن التاريخ فى مفهوم الأندلسيين على ما قلناه .

وحياة أبي القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن موسى بن بشكوال (٣ ذى الحجة ٤٩٤ — ٨ رمضان ٥٧٨/٢٩ سبتمبر ١١٠١ — ٥ يناير ١١٨٣) حياة عالم حق . عاش أربعاً وثمانين سنة هجرية إلا أشهراً أنفقها كلها منذ شب عن الطوق فى الدرس والبحث والقراءة والتأليف والتعليم . شيوخه عشرات من علية أهل العلم وجلة الفقهاء ، وأصحابه وأنظاره فى الشرق والغرب لا يقلون عن شيوخه عدداً أو مقاماً ، وتلاميذه أعاظم أهل العلم فى الأندلس من العقد الثالث من القرن السادس الهجرى إلى نهايته ، أما خلقه فكان مضرب المثل

عفّة ونزاهة وتصاونًا وقناعة وصبراً على التعلم والتعليم ، ولابن الأبار فى ترجمته له عبارة تصور خلقه أصدق تصوير ، قال : « وحدثنا عنه جماعة من شيوخنا الجلة ووصفوه بصلاح الدِّخله وسلامـــــة الباطن وصحة التواضع وصدق الصبر للراحلين إليه ولين الجانب وطول الاحتمال فى الكبرة للاسماع رجاء المثوبة ، ولم يعرض فى تاريخه لما اراده أبو عبد الله النميرى وسواه منه ، ونعوا تركه عليه وأحبوا خوضه فيه من اجتلاب ما رآه أحق بالاجتناب » أى أنه تصاون عن أن يذكر فى كتابه (الصلة) مساوىء الناس وعيوبهم وسقطاتهم مما أحب أولئك الفقهاء أن يضمنه تراجمه ، لأن خلقه لا يرضى ذكر هذه النواحى التى لا يكاد يسلم منها أحد . ولم يتول ابن بشكوال من الوظائف إلا قضاء بعض نواحى إشبيلية نائباً عن أبى بكر بن العربى ، تولاه لفترة صغيرة ، وعَقَدَ الشروط فترة أخرى طلباً للرزق ، ثم ترك ذلك كله وانقطع للعلم وحده بقية عمره الطويل .

وقد كتب ابن بشكوال نحو خمسين كتاباً أورد أسماء بعضها ابنُ الأبار فى مادته الضافية عنه ، واستكملها بونس بويجس فى الفصل الوافى الذى أداره عليه معتمداً على ابن الأبار وابن خلكان وحاجى خليفة ، وهذه الكتب هى :

١ — كتاب « الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم » وهو أهم كتبه وأكثرها ذكراً فى المراجع ، وهو كتاب تراجم اكمل به كتاب « تاريخ علماء الأندلس » الذى ذكرناه لابن الفرضى ، وقد نشره فرنثيسكو كوديرا فى جزأين فى مدريد سنة ١٨٨٣

٢ — التاريخ الصغير فى أحوال الأندلس (ذكره حاجى خليفة برقم ٢١٦٥ من طبعة فستنفلد) .

٣ — أخبار قضاة قرطبة ، حاجى خليفة ، رقم ٢٢١

٤ — معجم مشيخته ، ذكره ابن الأبار فى مقدمة التكملة .

٥ — كتاب الفوائد المنتخبة والحكايات المستغربة ، ذكره ابن الأبار فى ترجمته لابن بشكوال وقال إنه فى عشرين جزءاً .

٦ — كتاب التنبيه والتعيين لمن دخل الأندلس من التابعين ، ذكره ابن الأبار .

٧ — كتاب الغوامض والمبهمات ، ذكره ابن الأبار ، وقال عنه : « فى اثنى عشر جزءاً ، وقد اختصره شيخنا أبو الخطاب بن واجب ورتبه ترتيباً عجيباً ، واستحقه بذلك ، لحملناه عنه وسمعناه منه مختصراً » .

٨ — كتاب المحاسن والفضائل فى معرفة العلماء الأفاضل ، ذكره ابن الأبار .

٩ — ذيل الصلة . ورد ذكر هذا الكتاب فى بعض تراجم ابن الأبار فى التكملة ، ويبدو أن ابن بشكوال شرع فى كتابته بعد أن فرغ من الصلة ليستدرك فيه ذكر من فاته من الشيوخ ، ولم ينتشر ذكر هذا الكتاب ، بل لم يشر إليه أبو جعفر أحمد ابن الزبير فى كتابه الذى ألفه لنفس الغرض وأعطاه نفس الاسم .

ولكن المقّرى أتى فى نفح الطيب بفقرات لابن بشكوال لا نعرف إلى أى كتبه تنتسب ، فهى فقرات طويلة ذات قيمة جغرافية كبرى ، مثال ذلك قوله :

« وذكر ابن بشكوال — رحمه الله — أن أبواب قرطبة سبعة أبواب :

باب القنطرة إلى جهة القبلة ويعرف بباب الوادى ، وبباب الجزيرة الخضراء ، وهو على النهر .

وباب الحديد ، ويعرف بباب سرقسطة .

وباب ابن عبد الجبار ، وهو باب طليطلة ، وباب رومية ، وفيه تجتمع الثلاثة الرُّصُف التى تشق دائرة الأرض من جزيرة قادس إلى قرمونة إلى قرطبة إلى سرقسطة إلى طرَّكونه إلى أربونه مارة فى الأرض الكبيرة .

ثم باب طَلَبِيرة ، وهو أيضاً باب ليون .

ثم باب عامر القرشى ، وقُدّامه المقبرة المنسوبة إليه .

ثم باب الجوز ، ويعرف بباب بطليوس .

ثم باب العطارين ، وهو باب إشبيلة .

وهذا التفصيل فى ذكر أبواب قرطبة وحدها لا يكون إلا فى كتاب كبير عن الأندلس كله أو عن قرطبة على الأقل . وسنرى من الفقرة التالية أن ذلك الكلام جزء من كلام غاية فى التفصيل عن قرطبة ، أى أننا أمام قطع من كتاب كبير إما فى صفة الأندلس أو فى صفة قرطبة وحدها ، وعلى الحالين فهو كتاب وصف جغرافى أو طبوغرافى داخلٌ فى موضوعنا ، ويؤيد ذلك ما يقوله ابن الأبار فى سياق كلامه عنه أنه كان : « حافظاً حافلا أخباريا ممتعاً تاريخيا مقيِّداً ذاكراً لأخبار الأندلس القديمة والحديثة ، وخصوصاً لما كان بقرطبة حاشداً مكثراً » وقوله إنه كان مقيداً وحاشداً ومكثراً يدل على أن كتب الرجل الأخرى كانت أكبر من كتاب الصلة الذى بين أيدينا ، وهو على غزارة مادته من صغار الكتب ، فأين يكون موضع هذه الفقرات الطويلة من كتبه التى ذكرناها ؟ أفى مقدمة التاريخ الصغير للأندلس أو فى أخبار قضاة قرطبة أو فى كتاب الفوائد المنتخبة والحكايات المستغربة ؟ لا نستطيع القطع بشىء ، لأن طرائق مؤلفينا القدامى فى انشاء كتبهم لم تكن تسير على نحو يمكننا من تصور ما تحتويه فى كثير من الأحيان . ولكن يغلب على ظننا أن هذه قطع من وصف مطول لقرطبة لم يصل إلينا اسمه ، وسقوط اسم كتاب كهذا لا يستغرب ، فقد كان الكثيرون من الشيوخ يــرون أن كتب الجغرافية وما إليها مؤلفات لا تستحق الذكر ، وقد رأينا كيف أغفل الكثيرون ذكر المسالك والممالك بين كتب البكرى ، وسيتكرر هذا مع كتاب « الروض المعطار » لمحمد بن عبد المنعم الحميرى وغيره .

فإذا نظرنا فى نص القطعة التى أوردناها تبينا أنها من أنفس ما لدينا عن قرطبة ، وإذا نحن قارناها بما بين أيدينا من أوصاف هذا البلد فى عصوره الإسلامية زادت قيمتها وضوحاً ، فإن أحسن ما لدينا فى هذا الباب هو ما ذكره الإدريسى ثم ابن عبد المنعم الحميرى ، والثانى نقل عن الأول معظم المادة الطبوغرافية التى أوردها . فأما ما ذكره الإدريسى فهو مشكلة فى ذاته إذ أنه يقول إن قرطبة «فى ذاتها خمس مدن يتلو بعضها بعضا ، وبين المدينة والمدينة سور حاجز ، وفى كل مدينة ما يكفيها من الأسواق والفنادق والحمامات وسائر الصناعات ، وطولها من غربيها إلى شرقيها ثلاثة أميال ، وعرضها من باب القنطرة إلى باب اليهود ميل واحد ، وهى فى سفح جبل مُطِل عليها ، يسمى جبل العروس ، مدينتها الوسطى هى التى فيها باب القنطرة[١] » ولا ندرى ما ذا عناه الإدريسى بهذه المدن الخمس التى يتلو بعضها بعضاً : هل يريد قرطبة وأرباضها ؟ إذن لماذا يقول إن عرضها من باب القنطرة إلى باب اليهود ميل واحد ؟ وهذا ليس عرض قرطبة بأرباضها . . ثم ما هى هذه الأسوار الحاجزة التى تقوم بين كل مدينة ومدينة ؟ اننا لا نعرف إلا سوراً واحداً لقرطبة الإسلامية هو هذا الذى تقع فيه الأبواب التى ذكرها كلها ابن بشكوال وذكر بعضها الإدريسى .

ان ابن بشكوال هو الوحيد من مؤلفينا الذى ذكر أبواب قرطبة السبعة وحدد لنا أسماءها ومواقعها وما يؤدى إليه كل باب منها ، لأن قوله أن باب القنطرة كان يعرف أيضاً بباب الجزيرة الخضراء معناه أنه يشرع إليها ، وأن باب الحديد يعرف بباب سرقسطة معناه أنه يقع فى شمالى شرقى قرطبة ويؤدى إلى سرقسطة ، وباب ليون فى اتجاه طلبيرة ، أى أنه يقع فى شمال غربى البلد وهكذا .

---

(١) الإدريسى ، المغرب والأندلس ، ص ٢٠٦ — ٢٠٧ ، الروض المعطار ، ص ١٥٧

ويستوقفنا بصفة خاصة كلامه عن باب ابن عبد الجبار وقوله : « وهو باب طليطلة وباب رومية ، وفيه تجتمع الثلاثة الرُّصف التى تشق دائرة الأرض من جزيرة قادس إلى قرمونة إلى قرطبة إلى سرقسطة إلى اربونة مارة بالأرض الكبيرة » فهذه العبارة تكشف عن حقيقة كبرى ، وهى أن الطرق الرومانية القديمة كانت قائمة مستعملة على أيام العرب ، وابن بشكوال يكمل هنا المعلومات التى وصل إليها الباحثون الذين درسوا شبكة الطرق الرومانية فى اسبانيا .

ذلك أن ابن بشكوال عندما يقول عن باب ابن عبد الجبار أنه « باب طليطلة وباب رومية » إنما يريد أن هذا الباب يشرع عنده طريق طليطلة وطريق روما ، وعنده تجتمع « الثلاثة الرصف » وهى الطرق الرومانية القديمة المعبَّدة المرصوفة Viae Romanae ، ولهذا يسميها بالرُّصُف جمع رصيف ، ومن هنا نعلم أن الرصيف فى المصطلح الأندلسي يطلق على الطريق الرومانى القديم وعلى كل طريق معبد مرصوف أنشئ على هذا الغرار ، فرصيف قرطبة هو الشارع المرصوف الذى أنشأه الأمراء والخلفاء بين الجامع ونهر الوادى الكبير ومدوه ناحية الشرق إلى آخر ما كانت تنتهى إليه أرباض قرطبة الشرقية التى سيتحدث عنها ابن بشكوال فى فقرة نفيسة سنعرض لها بعد قليل .

وقد كانت قرطبة على أيام الرومان ملتقى شبكة مواصلات إقليم باطقة Bética أى حوض الوادى الكبير وما يليه جنوباً ، والمعلومات التى لدينا تذكر ستة رُصُف كانت تتفرع منها أو تمر بها ، أولها رصيف هرقل Via Herculea الذى سمى بعد ذلك رصيف أغسطس Via Augusta نسبة إلى ذلك الامبراطور ، ثم رصيفان رئيسيان يشرع أحدها إلى طليطلة ، ومن طليطلة إلى سرقسطة وهناك يلتقى برصيف أغسطس ، والثـــانى يشرع إلى انطكيرة فالقة ومنها إلى طركونة ثم برشلونة إلى أمبُرياش Ampurias وهناك يلتقى برصيف أغسطس .

والرصف الثلاثة الأخرى التى كانت تشرع من قرطبة يذهب أحدها إلى مدلين Medellén فالاشبونة والثانى يشرع إلى قرمونة واشبيلية فقادس أى أنه استمرار للرصيف الأغسطى ، والثالث يشرع إلى « صحراء » Zafra وبلاد صغيرة أخرى إلى غربها[1] .

وإذن فثلاثة من هذه الرصف التى تلتقى عند قرطبة كانت تشرع إلى روما سالكة مسالك مختلفة ، ولكنها تلتقى كلها عند أمبرياش ، ومنها تستمر فى غالة فشمالى إيطاليا فروما ، وتلك هى التى عناها ابن بشكوال هنا .

وابن بشكوال دقيق جداً عندما يصف هذه الطرق بـأنها تشق دائرة الأرض ، لأنها بعد أن تلتقى فى امبرياش تستمر إلى روما ومنها شرقاً حتى انطاكية . ولكنه عندما يقول إنها كلها تشرع من قادس إلى قرمونة إلى قرطبة إلى أربونة مارة بالأرض الكبيرة إنما يعنى الرصيف الأغسطى وحده ، فهذا كان الطريق الرئيسى الذى يسير بهذا الاتجاه ويستمر إلى روما ومنها إلى انطاكية .

وقد حدد لنا ابن حوقل طرق التجارة الرئيسية التى كانت تلتقى عند قرطبة وعددها ستة وهى تقابل على وجه التقريب الطرق الرومانية الستة التى ذكرناها ، وهذه الطرق هى :

الأول من قرطبة إلى إشبيلية فقادس فالجزيرة الخضراء ، وعند إشبيلية يتفرع طريق آخر يذهب إلى شلب .

الثانى من قرطبة إلى طليطلة فسرقسطة فلاردة .

الثالث من قرطبة إلى غرناطة إلى مرسية فبلنسية فطرطوشة فلاردة .

الرابع من قرطبة إلى مالقة ماراً باستجه ثم إلى مرسية ثم يلتقى بالسابق .

---

(١) انظر عن ذلك الفصل الذى كتبه خوسيه رامون ميليدا :
José Ramón Mélida, *El Arte en España durante la Época Romana*,
فى كتاب :
Ramón Menéndez Pidal, *Historia de España*, tomo II, *España Romana*, Madrid, 1935, pp. 567-574.

الخامس من قرطبة إلى المعدن إلى قورية فسلمنقة فسمورة .

والسادس من قرطبة إلى الجزيرة الخضراء ماراً باستجه ومورور وشذونة[١] ،
فأما الطريقان الأول والثانى فهما على الحقيقة طريق واحد يبدأ عند لاردة
وينتهى عند قادس ، وهو الرصيف الأوغسطى .

والطريقان الثالث والرابع من هذه هما الرصيفان الرئيسيان اللذان ذكرناهما فى
تعداد الرصف الرومانية الشارعة من قرطبة مع ملاحظة أن الطريقين العربيين كانا
ينتهيان عند لاردة ولا يستمران إلى امبرياش ، لأن هذه الأخيرة كانت خارجة
عن الأندلس الإسلامي وداخلة فى كونتية برشلونة ، كذلك لم تكن الطرق
العربية الذاهبة إلى الشرق تستمر إلى برشلونة لنفس السبب ، وإنما كان
منتهاها فى هذه الناحية عند طرطوشة ، وكانت هذه تقوم على الحدود بين بلاد
الإسلام وبلاد النصرانية من هذه الناحية ، وإلى هذا ترجع أهميتها فى العصور
الإسلامية ، وقد فقدت طرطوشة هذه الأهمية بعد سقوطها فى يد النصارى ،
إذ انتقلت الأهمية إلى طركونة وبرشلونة .

وعبارة ابن بشكوال هذه هى الوحيدة فى كتب مؤلفينا خاصة بالرصف
الرومانية واستعمال الناس لها فى العصور الإسلامية ، وهو يذكر بصراحة أنها
تؤدى إلى روما وأنها تشق دائرة الأرض ، وربما يكون ابن بشكوال قد
عرف أن ذلك الرصيف الاوغسطي يستمر بعد روما حتى يصل إلى انطاكية ،
وربما يكون ذلك قد غاب عن علمه ، ولكن قوله إنه « يشق دائرة الأرض »
يدل على أنه يعرف أنه طريق طويل يقطع الأرض من طرف إلى طرف :
من الغرب إلى الشرق[٢] .

---

(١) ابن حوقل ، كتاب صورة الأرض ، ج ١ ص ٤٦

(٢) كتب مانويل أوكانيا خيمنيث دراسة مطولة عن فقرة ابن بشكوال هذه الخاصة بأبواب قرطبة :
Manuel Ocaña Jiménez, *Las puertas de la Medina de Córdoba*, Al-Andalus, III, 1935, pp. 143-151.

وقد أورد المقرى فى « نفح الطيب » بعد هذه الفقرة فقرة أخرى تزيد عليها فى الأهمية بالنسبة لطبوغرافية قرطبة العربية ، ونصها : « وذكر أيضاً — أى ابن بشكوال — أن عدد أرباض قرطبـة عند انتهائها فى التوسع والعمارة أحد وعشرون ربضاً ، منها :

القبلية بعدوة النهر (أى الجنوبية على الضفة اليسرى للوادي الكبير)

ربض شقندة .

وربض مُنْيَة عَجب .

وأما الغربية فتسعة :

ربض حوانيت الريحانى .

وربض الدقّاقين .

وربض مسجد الكهف .

وربض بلاط مغيث .

وربض مسجد الشفاء .

وربض حمام الإلبيرى .

وربض مسجد مسرور .

وربض مسجد الروضة [(١)] .

وربض السجن القديم .

وأما الشمالية فثلاثة : [(٢)]

ربض باب اليهود .

---

(١) أورد ابن الخطيب فى أعلام الأعلام بياناً بارباض قرطبة مطابقاً لبيان ابن بشكوال (انظر ص ١٠٣) وهو يسمى هذا الربض : ربض الروض المحدث .

(٢) ابن الخطيب يقول إن الأرباض الثلاثة التالية تقع « بالجهة الجوفية » ويريد بها ما يريده ابن بشكوال بالجهة الشمالية .

وربض مسجد أم سلمة .

وربض الرصافة(١) .

وأما الشرقية فسبعة :

ربض شَبُلاَّر .

وربض فُرِّن بِرِّيل .

وربض البُرج .

وربض منية عبد الله .

وربض منية المُغيرة .

وربض الزاهرة .

وربض المدينة العتيقة .

قال : ووسط هذه الأرباض كلها قصبة قرطبة التى تختص بالسور دونها ، وكانت هذه الأرباض دون السور (أى خارج السور) فلما كانت أيام الفتنة صُنِع لها خندق يدور بجميعها وحائط مانع(٢) » .

وقد درس هذه الفقرة بما هى حقيقة به من عناية علماء أجلاء من طراز رافائيل كاستيخون وفرديناند زيبولد وليفى بروفنسال ومانويل أوكانيا خيمنيث وانتفعوا بها فى دراساتهم عن قرطبة العربية(٣) ، ونضيف إلى ما استخرجوه من هذا النص حقيقتين تهمان من يدرسون تاريخ قرطبة والمدن الأندلسية بصفة عامة :

---

(١) ابن الخطيب (أعلام ، ص ١٠٣) : ربض قوت راشه المنسوب إلى أم سلمة .

(٢) المقرى ، نفح الطيب ، ٢/١٣ — ١٤

(٣) انظر : Rafael Castejón y Martínez de Arizala, *Córdoba Califal*, Córdoba, 1930.

Ibidem, *Guía de Córdoba*, Madrid, 1930.

C. F. Seybold, *Hispano-Arábica*, I, en la Revista del Centro de Estudios Históricos de Granada y su Reino, tomo III.

Lévi-Provençal, *L'Espagne Musulmane, au X^e Siècle*, Paris 1932, pp. 195-236.

Ibidem, *Hist. de l'Espagne Musulmane*, III, pp. 356 sgg.

ومقال أوكانيا خيمنيث الذى أشرنا إليه فى الهامش قبل السابق .

الأولى أن الربض هنا ليس معناه الضاحية ، بل معناه الحى من أحياء المدينة ، وواضح أن هذه الأرباض كانت أول الأمر ضواحٍ لقرطبة العربية الأولى خارج أسوارها ، ثم امتدت المدينة شيئاً فشيئاً فدخلت الأرباض فى المدينة نفسها وأصبحت أحياء ، ومن هنا أصبح الربض مرادفا للحى .

والثانية أن قرطبة كانت تتكون فى الواقع من أربعة أقسام رئيسية : القسم الأول هو المدينة أو القصبة ، وهى المدينة القديمة وامتدادها إلى الشمال فشملت على الترتيب من الجنوب إلى الشمال ربض باب اليهود وربض مسجد أم سلمة وربض الرصافة ؛ والقسم الثانى هو « الجانب الشرقى » أو « المدينة الشرقية » إلى الشرق ويضم سبعة أحياء أو أرباض ؛ والقسم الثالث هو « الجانب الغربى » أو المدينة الغربية ويضم تسعة أرباض أو أحياء ، والقسم الرابع هو المدينة القبلية على الضفة اليسرى للوادى الكبير ويضم حيين أو ربضين هما شقندة ومنية عجب .

وقد أورد ابن الخطيب مثل هذا البيان فى « أعلام الأعلام » ، وواضح أنه أخذه عن ابن بشكوال دون أن يذكر ، والنص عنده أدق مما هو عند المقرى فى مواضع وأقل دقة فى مواضع أخرى ، ولا ندرى إن كان ذلك راجعاً إلى ابن الخطيب والمقرى أو إلى الناسخين ، وعلى أى حال فقد تابعنا نص المقرى لأنه ينص صراحة على أن هذا كلام ابن بشكوال .

ولكن رواية ابن الخطيب تنفرد بفقرة تلقى ضوءاً على ما عناه الإدريسى بقوله إن قرطبة « فى ذاتها خمس مدن يتلو بعضها بعضاً ، وبين المدينة والمدينة سور حاجز . . . الخ » قال ابن الخطيب — نقلا عن ابن بشكوال فى الأغلب — فى كلامه عن القسم الأوسط من قرطبة : « ربض المدينة — القصبة العتيقة ، واسطة البلدة — وكان ينقسم على ربضين : الجامع وما حوله ربضٌ واحد يتولاه عريفُه ، ومحارسُه على حدة ، وربضٌ آخر بذاته ينفرد به أيضاً عريفه » أى

أن القسم الأوسط انقسم إلى حيين : القسم الجنوبى الملاصق للنهر ويضم الجامع وما حوله ، أى قلب قرطبة العتيقة ، ثم بقية المدينة العتيقة إلى الشمال وتضم أحياء أو أرباض مسجد أم سلمة (قوته راشه) وباب اليهود والرصافة ؛ وكان كل من هذين القسمين كأنه مدينة قائمة بذاتها له عريفه ومحارسه . واعتماداً على هذا يمكن القول بأن أقسام قرطبه الثلاثة الأخرى كانت كأنها مدن قائمة بذاتها لكل منها عريفه ومحارسه ، أى أن أقسام قرطبة الخمسة كانت فى وقت ابن بشكوال والإدريسى كأنها خمس مدن ، لكل منها عريف ومحارس ، وربما كان لها أسوار أيضاً ، وهذا ربما كان تفسيراً معقولا لكلام الإدريسى .

هناك بعد ذلك ملاحظتان جانبيتان تهمان أولئك الذين يدرسون تاريخ قرطبة العربية : أولاهما أن ابن بشكوال يذكر الجامع وما حوله فى هذه الفقرة دون إشارة إلى قصور الخلافة وكانت مواجهة له على الجانب الغربى للمحجة العظمى ، ولو كانت موجودة لأشار ابن بشكوال إليها هنا ، فقد كانت بالنسبة لتخطيط قرطبة فى نفس أهمية المسجد الجامع ، وعدم الإشارة إليها هنا يدل على أنها كانت قد تهدمت وعدا الناس على أرضها والباقى من مبانيها ، ويؤيد ذلك الفرض أن الإدريسى أيضاً لا يشير إلى هذه القصور ؛ وثانيتهما أن البلد فقد وحدته فلم يعد مدينة واحدة يشرف على الأمن فيها صاحب المدينة ، وإنما خمس مدائن متجاورة يشرف على الأمن فى كل منها عريف مستعيناً بعدد من الحراس ، والعريف فى الماضى كان نائب صاحب المدينة فى كل حي من الأحياء ، فأصبح الآن رأسا فى ناحيته ، فكأن التقسيم الذى شمل الأندلس كله شمل قرطبة كذلك .

وقد أورد المقرى فى نفح الطيب نقولا أخرى كثيرة عن ابن بشكوال من كتابه الذى قبس منه هاتين الفقرتين ، وهذه النقول تدل فى مجموعها على أنها أخذت من كتاب فى الجغرافية والتاريخ ، أى كتاب يتكون من مقدمة

جغرافية طويلة ثم موجز تاريخى ، ومعظم هذه الفقرات يدور حول مسجد قرطبة الجامع وتاريخه وتطوره ووصفه[١] .

ويستوقفنا من هذه النقول واحد يقول : « وسئل ابن بشكوال عن قصر قرطبة فقال ...[٢] » لأن هذه العبارة تدل على أن ابن بشكوال كان يقرأ كتابه هذا فى درسه ، وفى أثناء الدرس سأله أحدهم عن قصر قرطبة فأدلى بالبيانات التى سنشير إليها بَعْدُ . حقيقةً أن إحدى مخطوطات « النفح » تجعل هذه العبارة « ولما وصف ابن بشكوال قصر قرطبة قال . . . » ولكن العبارة الأولى أقرب إلى المعقول ، لأن قصر قرطبة لم يكن على أيام ابن بشكوال إلا أطلالا ، فهو هنا لا يصف شيئاً قائماً وإنما يُسأل عن شىء تهدم وزالت معالمه . ولما كان ابن بشكوال قد عرف هذا القصر فى أواخر أيام رونقه — فقد كان ابن بشكوال فى مداخل شبابه أيام بلغت دولة المرابطين أوجها — وكانت هذه الدولة قد أوقفت الفتنة وحركة النهب والتخريب التى سادت عصر الطوائف ، وأبقت بذلك على ما بقى من رواء القصور فى قرطبة وغيرها لفترة من الزمن . وربما كان عمال المرابطين هم الذين نظموا قرطبة على أساس خمس مدن لكل منها عريفها ومحارسها ، وعلى هذه الحالة رآها الإدريسى عندما زارها ووصفها فى « نزهة المشتاق » . ولما قام الموحدون على المرابطين قامت الفتنة من جديد فى الأندلس وعاد التخريب ، فأتى على البقية الباقية من القصور ، وكان ذلك كله فى حياة ابن بشكوال الطويلة ، ومن هنا كان قادراً على أن يحدث الناس عن القصر الذاهب وتاريخه وأقسامه على النحو الذى رواه المقرى فى نفح الطيب[٣]

---

(١) هذه الفقرات تدور حول : الأحاديث النبوية فى فضـــل الأندلس (١٩٠/١) وجباية الأندلس أيام الناصر (١٩٦/١) وقصر قرطبة (١١/٢) وزيادة المنصور ابن أبى عامر فى جامع قرطبة (٨٤/٢) ونص للخليفة الحكم المستنصر عن هذه الزيادة (٩٨/٢) وأصل موضع الجامع (٩٩/٣) ومصحف عثمان الذى كان فى المسجد (١٣٥/٢) .

(٢) نفح الطيب : ١١/٢

(٣) انظر نفح الطيب ، ١١/٢ — ١٣

اليسع بن عيسى بن حزم الغافقى

وننتقل من ابن بشكوال إلى فقيه آخر معاصر له هو اليسع بن عيسى ابن حزم بن عبد الله بن اليسع الغافقى الجيانى المتوفى فى القاهرة فى رجب ٥٧٥/ ديسمبر ١١٧٩ [١] ، ألف كتابا يسمى «المغرب (أو المعرب) فى محاسن المغرب» يكثر النقل عنه فيما تلاه من الكتب ، وعنه أورد المقرى فى النفح عدداً من النقول ذات الطابع الجغرافى .

ولا يقارن اليسع الغافقى بابن بشكوال فى علمه أو مكانه أو موضعه من الثقة ، فقد كان ابن بشكوال شيخ عصره فى الأندلس وعماداً من عمد تاريخ الفكر الأندلسى عامة ، أما اليسع فقد كان فقيهاً عاديا أصل بيته من جَيَّان وسكن أبوه المرية ، والأغلب أن اليسع ولد فيها أوائل القرن السادس الهجرى ، فقد ذكر أبو عبد الله التجيبى «وأكثر خبره عنه» كما يقول ابن الأبار فى «التكملة» إنه «توفى بعد انصرافى عنه فى رجب سنة ٥٧٥ وكان مُسِنّاً» ودرس القرآن والحديث على أبيه ونفر من شيوخ بلده وغيرهم . ويذكر ابن الأبار أنه سمع البخارى من ابن هذيل سنة ٥٤٤/١١٤٩ — ١١٥٠ ، وابن هذيل هذا هو أبو الجد هذيل بن محمد بن هذيل الأنصارى الاشبيلى ، من تلاميذ ابن بشكوال (التكملة رقم ٢٠٢١ ص ٧١٦) . ويقول ابن الأبار فى التكملة أن اليسع لقي ببلنسية أبا حفص بن واجب وأبا إسحق بن خفاجة الشاعر ، وابن خفاجة توفى على أصح الأقوال فى ٢٦ شوال ٥٣٣/٢٦ يونيو ١١٢٩ [٢] ، مما يفهم منه أن اليسع لقى ابن خفاجة وسمع منه فى أواخر أيام

(١) ورد هذا التاريخ فى ترجمة اليسع فى التكملة ، وفى ترجمته فى «المعجم فى أصحاب أبى على الصدفى» (وكلا الكتابين لابن الأبار) رجب ٥٩٥

(٢) راجع ترجمة ابن خفاجة فى المعجم فى أخبار أصحاب أبى على الصدفى لابن الأبار ، رقم ٤٤ ص ٥٩ — ٦٢ وخاصة الحاشية رقم ١ ص ٦٠ ففيها نص تعليق على إحدى نسخ ديوان ابن خفاجة يحدد تاريخ وفاته كما ذكرناه .

هذا الأخير ، وقبل ٢٦ شوال ٥٣٣ على أى حال . ونفترض أن اليسع كان إذ ذاك فى مطالع شبابه وأوائل دراسته ، لأنه سمع البخارى من ابن هذيل بعد ذلك باحدى عشرة سنة (سنة ٥٤٤) ، وليس هناك تجوّز كثير فى افتراض أن اليسع ولد حوالى سنة ٥١٠/١١١٦ ، ويؤيد هذا الفرض قول أبى عبد الله التجيبى أنه رآه (فى مصر) فى رجب سنة ٥٧٥ (ديسمبر ١١٧٩) «وكان مسناً» ، فقد كانت سن اليسع إذ ذاك على افتراضنا فوق الخامسة والستين بقليل .

وقد هاجر اليسع من الأندلس إلى المشرق فى تاريخ لا نستطيع تحديده ، ولكنه بعد سنة ٥٤٤ ، ففى تلك السنة سمع من هذيل بن محمد بن هذيل الإشبيلى ، ونزل اليسع الأسكندرية ، ولابد أنه أقام فيها زمناً ، لأن ابن الأبار يقول إنه «استوطنها» ثم رحل إلى القاهرة ودخل فى خدمة صلاح الدين . ويرتبط دخول اليسع فى خدمة صلاح الدين بقيامه بدور هام فى حادث كبير من حوادث تاريخ مصر ، وهو قطع الخطبة للفاطميين والدعوة للعباسيين ، وما قام به اليسع هنا جدير منا بوقفة قصيرة .

ذلك أن ابن الأبار ينص فى الترجمتين اللتين اختص اليسع بهما فى «المعجم» و«التكملة» على أنه هو الخطيب الذى أقام أول خطبة للخليفة العباسى بمصر عندما قرر صلاح الدين — بأمر نور الدين محمود — أن يقطع الخطبة لبنى عبيد . وكان من نتائج ذلك أن حَظِى اليسع عند صلاح الدين ولقى منه كرامة كبيرة بعد ذلك ، قال ابن الأبار : «ورحل إلى المشرق واتصل بالملك صلاح الدين أبى المظفر يوسف بن أيوب ، فاشتمل عليه وأجزل إحسانه اليه ، وأجرى له فى كل شهر ما يقوم به ، وكان يكرمه ويشفِّعُه فى حوائج الناس ، فابتنى بمصر داراً على شاطىء النيل ، وجعل لها اسطوانا يزار فيه ، حكى ذلك أبو عبد الله التجيبى شيخنا ، وكان قد لقيه بالأسكندرية فى سنة ٥٧٠ ، ثم لقيه بمصر ثانية بعد صدره من الحج» . قال : وذكر لى أنه أول من خطب للعباسية على منابر العُبيدية : صعد المنبر والأَغْزَارُ حوله سيوفهم مصلتة خوفاً

من الشيعة أن ينكروا فيقوموا ، فلم يجسر أحد أن يخطب سواه ، فحظى بذلك . قال : وانحدرت فى النيل عائداً إلى الاسكندرية ، فتوفى بعد انصراف عنه فى رجب سنة ٥٩٥ ، على ما بلغنى ، وكان مُسِنًّا[١] » ؛ وفى الترجمة الثانية فى « التكملة » يردد ابن الأبار نفس الكلام عن استيطانه الاسكندرية ثم يقول : « ثم رحل إلى مصر واشتمل عليه الملك صلاح الدين ورسم له جاريا يقوم به ، وكان يكرمه ويشفِّعه فى مطالب الناس لأنه كان أول من خطب على منابر العُبيدية عند نقل الدعوة العباسية[٢] ؛ تجاسر على ذلك حين تهيبه سواه ، وكان فقيهاً مشاوراً مقرئاً محدِّثاً حافظاً نسابة من أبدع الناس خطاً ، وله تاريخ سماه « المعرب فى محاسن المغرب » ، وهو متّهم فى هذا التأليف ، حدثنا عنه أبو عبد الله التجيبى وأكثر خبره عنه ، قال وتوفى بعد انصراف عنه فى رجب سنة ٥٧٥ وكان مسناً . قلت : وروى عنه ابن المفضل المقدسى وأبو القاسم الصفراوى وجماعة ؛ رأيت تاريخه[٣] » .

وإذن فقد كان هذا الشيخ الأندلسى الجَيَّانى اليسع بن عيسى بن حزم الغافقى هو الذى تصدى لاقامة الخطبة للعباسيين على منبر العبيديين فى القاهرة عندما رهب غيره القيام بذلك ، ومن طريف ما يذكر هنا أن أبا المحاسن يوسف بن تغرى بردى يقول : « واختلفوا فى الخطيب ، فقيل إنه رجل من الأعاجم يقال له الأمير العالم ، وقيل : هو رجل من أهل بعلبك يقال له محمد ابن المحسِّن بن أبى المضاء البعلبكى المقدم ذكره الذى توجه فى الرسلية من قبل

---

(١) ابن الأبار ، المعجم ، رقم ٣١٥ ص ٣٢٢ — ٣٢٣
ويلاحظ أن تاريخ ٥٩٥ واضح الخطأ ، فإن أبا عبد الله التجيبى رأى اليسع بن عيسى سنة ٥٧٠ ورآه مرة ثانية بعد صدوره من الحج ، ثم توفى اليسع بعد ذلك بقليل ، ويستبعد أن يحج التجيبى من سنة ٥٧٠ إلى سنة ٥٩٥ والأصح سنة ٥٧٥ كما ورد فى ترجمة اليسع فى التكملة .

(٢) كذا فى الأصل ، والأصح : إلى العباسية .

(٣) التكملة ، رقم ٢١١٢ ص ٧٤٤ — ٧٤٥

صلاح الدين إلى بغداد ، وقيل انه كان رجلا شريفاً عجمياً ، ورد من العراق أيام الوزير الملك الصالح طلائع بن رزّيك[(١)] » ، فاما أن الخطيب كان ابن أبى المضاء البعلبكى فبعيد الاحتمال لأن ابن أبى المضاء كان رجلا معروفاً لا يخفى أمر قيامه بالخطبة على أحد لو أنه فعل ذلك حقاً ، ثم انه كان رسول صلاح الدين إلى الخليفة العباسى بعد أن تم الأمر ، ولو كان هو الذى خطب لما خفى الأمر على مؤرخ ثبت كأبى المحاسن ، ثم ان الأمر لم يكن يتطلب رجلا معروفاً ، بل رجلا جريئاً متفانياً فى سنيته ليقتحم هذه العقبة غير مُبالٍ بالخطر أو غير عارف بمداه ، وقد ولد اليسع وتربى فى بلاد اجتاحتها الأخطار وتهددها الغزو النصرانى ، فنشأ ثابت الجأش معتادا الثبات فى لحظة الخطر شديد العصبية لعقيدته السنية ، وقد وفد على مصر دون أن يتنبه أحد إلى مكانه أول الأمر ، ومن الطبيعى أن يكون أكثر من غيره ضيقاً بهذه الشيعية التى وجدها سائدة فى مصر ، فما كاد يحس أن صلاح الدين يطلب من يتصدى لالقاء أول خطبة باسم العباسيين حتى عرض أن يقوم بالعمل ، وقام به فعلا ، والغالب أن لهجته الأندلسية بدت للسامعين أعجمية شبيهة بنطق الايرانيين والخراسانيين ، فحسبوه رجلا من هذه النواحى ، وربما يكون رجال صلاح الدين قد كتموا اسمه خلال الأيام الأولى حرصاً على حياته ، فتضاربت الأقوال فى شأنه كما رأينا فى نص أبى المحاسن ، وما هو فى الحقيقة إلا اليسع ابن عيسى بن حزم الغافقى الجيانى .

والسؤال بعد ذلك : كيف وصل هذا الرجل إلى صلاح الدين ، أو كيف وقع اختيار هذا عليه ؟ وأمثال هذه الأسئلة تعسر الاجابة عليها من مادة التراجم الضئيلة التى تقدمها لنا معاجمنا ، ولكن لدينا البرهان على أن اليسع قام لصلاح الدين بخدمة جليلة وهى هذه الكرامة التى أولاه إياها بعد ذلك

---

(١) النجوم الزاهرة ، ٥/٣٥٥–٣٥٦

حتى كان يشفَع فى حوائج الناس لديه ، وهذا المال الذى أغدقه عليه حتى ابتنى داراً على النيـــل فيها اسطوان أى قاعة واسعة يقابل فيها الوافدين عليه . وهذا يمكن تعليله بما افترضناه فى الفقرة السابقة من أنه ربما يكون قد سمع أن صلاح الدين يطلب من يستطيع إلقاء أول خطبة باسم الخليفة العباسى ، فعرض أن يكون هو القائم بذلك ، ووافق صلاح الدين على ذلك ، وقـام اليسع بالمهمة وفتح لنفسه بذلك طريقاً واسعاً فى الحياة .

وقد نقل المقري وابن القطان عن اليسع بن عيسى الغافقى نقولا كثيرة بعضها فى الجغرافية وبعضها الآخر فى التاريخ ، وكلها فى الغالب من كتابه الآنف الذكر « المعرب فى محاسن المغرب » الذى قال عنه ابن الأبار أنه « متهم فيه » والشبهة هنا تنصب إما على مبالغة اليسع فيما ذكر من المعلومات عن الأندلس أو على أخطاء ظاهرة وقع فيها عند الكلام عن الموحدين وانكرها عليه مؤرخوهم ، ومنهم ابن القطان . فمن أمثلة المبالغة أو عدم التدقيق قوله ان طول جزيرة الأندلس « من أ ربونة إلى أشبونة ، وهو قطع ستين يوما للفـارس المجد ، وانتقد بأمرين : أحدهما أنه يقتضى أن أربونة داخلة فى جزيرة الأندلس ، والصحيح أنها خارجة عنها ، والثـانى قوله : « ستين يوما للفارس المجد » أعياء وافراط ، وقد قال جماعة « إنها شهر ونصف » انتهى كلام المقرى[1] .

ويورد المقرى بعد ذلك تعليقاً لابن سعيد يقول فيه : « وهذا يقرب إذا لم يكن للفارس المجد ، والصحيح ما نص عليه الشريف من أنها مسيرة شهر ، وكذا قال الحجاري ، وقد سألت المسافرين المحققين عن ذلك ، فعملوا حسابا بالمراحل الجيدة ، أفضى إلى نحو شهر بنيف قليل[2] » وبصرف النظر عن هذه

---

(١) نفح الطيب ، ١/١٢٥

(٢) نفس المصدر والصفحة .

الاعتراضات ، فكلها غير دقيقة ، فإن هذا التعليق يدل على أن كتاب اليسع كان متداولا فى المشرق وموضع مناقشات واستدراكات ممن كتبوا عن الأندلس بعد ذلك .

ومن أمثلة المبالغة كذلك قول اليسع عند ذكره مدينة شِنْتَره (Cintra فى البرتغال حالياً) «من خواصها أن القمح والشعير يزرعان فيها ويحصدان عند مضى أربعين يوما من زراعته ، وأن التفاح فيها دَوْرُ كل واحدة ثلاثة أشبار وأكثر . قال لى أبو عبد الله الباكوري ، وكان ثقة ، أبصرت عند المعتمد ابن عباد رجلا من أهل شنترة أهدى إليه أربعا من التفاح ما يُقِلُّ الحاملُ على رأسه غَيرها ، دور كل واحدة خمسة أشبار ، وذكر الرجل بحضرة ابن عباد أن المعتاد عندهم أقل من هذا ، فاذا أرادوا أن يجىء بهذا العِظَم وهذا القدر قطعوا أصُلَها وأبقوا منه عشراً أو أقل ، وجعلوا تحتها دعامات من الخشب[1] » .

والمبالغة فى هذه الأقوال ظاهرة ، فإن القمح والشعير مهما كانت جودة الأرض وملاءمة الجو لا يمكن أن يحصدا قبل ثلاثة شهور فى شنترة أو غيرها ، ثم أين هى التفاحة التى دروها خمسة أشبار أى نحو ١٠٠ سنتيمتراً ؟ حتى فى أيامنا هذه ، وقد بلغ التفاح فيها أقصى ما وصل إليه فى التاريخ حجماً ووزناً لا يمكن أن يصل دور أكبر تفاحة أكثر من شبرين أى حوالى ٤٠ سنتيمتراً . ودليل المبالغة محاولة اليسع تأييد كلامه برواية عمن يسميه أبا عبد الله الباكورى من أنه رأى هذا التفاح العجيب عند المعتمد بن عباد ، والمعتمد انتهى أمره سنة ١٠٩١/٤٨٤ أى قبل مولد اليسع بخمس وعشرين سنة على الأقل ، والأغلب أن سن صاحبه الباكورى كانت تقارب سنه .

---

(١) نفح الطيب : ١/١٥٤ — ١٥٥

ومن أمثلة المبالغة أيضاً قوله إن الأندلس «لا يتزود فيها أحد ما حيث سلك لكثرة أنهارها وعيونها ، وربما لقى المسافر فيها فى اليوم الواحد أربع مدائن ، ومن المعاقل والقرى ما لا يحصى ، وهى بطاح خضر وقصور بيض[1] » ، فهذا كلام لا يصح ، إذ أنه مهما هطل المطر ونما الزرع لا يمكن أن يقال إن الأندلس بطاح خضر وقصور بيض ، ومن المعروف أن شبه جزيرة إيبريا حافلة بالمناطق الجرداء .

ومن أمثلة أخطائه فى التاريخ قوله أن من بين الهيئات الأساسية فى تنظيم الموحدين جماعة تسمى السبعين أو أهل سبعين ، ولم يرد لهذه الهيئة ذكر عند العارفين بنظام الدعوة الموحدية ، وقد علق على ذلك ابن القطان بقوله : «أما ما ذكره اليسع من أمر السبعين فلا أعرفه ولا أراه صحيحاً[2] » .

والخلاصة أن اليسع بن عيسى بن حزم الغافقى لم يكن جغرافيّاً أصيلا محققاً ، ولكنه كتب فى جغرافية الأندلس على سبيل الدعوة لوطنه الذى خلفه وراءه فى حال من الاضطراب وترادف الأخطار جعلت الأمل فى انقاذه ضئيلا ، ولهذا بالغ فى وصف محاسنه ليحفز الهمم على السعى لاستنقاذه ، ولم ينفرد اليسع بهذا الطراز من الكتابة عن الأندلس ، فسنرى عليّا ابن سعيد المغربى يفعل هذا أيضاً ، نعم إن ابن سعيد لم يسترسل مع المبالغة إلى الحد الذى ذهب إليه اليسع ، ولكنه كان أيضاً داعية للأندلس انتدب نفسه للحديث عن وطنه بين إخوانه من أوطان المسلمين مذكراً إياهم بما كان للأندلس من عز ومجد وما له من حقوق على المسلمين ، ولم يكن اليسع على علم واسع بجغرافية بلاده أو بتاريخ الغرب الإسلامى ، فاعتمد فى ذلك على ما وصل إلى يده من كتب وأضاف من خياله أشياء أخرى من طراز ما ذكرناه ، ومن أسف أن كتابه

---

(١) نفح الطيب : ١/١٩٤

(٢) نظم الجمان لابن القطان ، الجزء السادس بتحقيق الدكتور محمود على مكى ، تطوان ، ١٩٦٤ ، ص ٢٩

قد ضاع ، ولولا أن المقري — ذلك الجماع الحاشد — احتفظ لنا بفقرات من الكتاب لما كانت لدينا أى فكرة عن طبيعته وقيمته أو مكانه بين كتب الجغرافية والتاريخ .

لقد كان أمثال اليسع فى المشرق كثيرين جداً أحصينا منهم فى « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » نحو مائتى رجل ، كلهم غادروا وطنهم الذى أشبه — ابتداء من القرن السادس — بسفين دهمته العواصف وسط البحر ، فأخذ يغرق شيئاً فشيئاً ، ونجا من استطاع من ركابه وحط على أقرب شاطئ ، ومضى يتحدث عما كان للسفين من جمال وما كان فيه من أعاجيب ، ولكن القليلين منهم اجتهدوا فى الدعوة الخالصة لانقاذ الأندلس ، وربما كان اليسع أقدر الجميع على القيام بجهد فى هذه الناحية بما كان له من المكانة والحظوة عند صلاح الدين ، وربما يكون قد فعل شيئاً من ذلك فقد كان رجلا مقداماً ، فيه ذلك الاندفاع إلى القول والعمل الذى تميز به الكثيرون من الأندلسيين ، ومن يدرى ؟ فربما كان لليسع أثر فيا لوحظ من اهتمام صلاح الدين بالجناح الغربى لمملكة الإسلام وتطلعه إلى التعاون مع الموحدين ؟

ومثل كتاب « المعرب عن أحوال أهل المغرب » هذا لدينا أسماء كتب أخرى كتبت على غراره ، حررها فى المشرق نفر من مهاجرة الأندلسيين أو المغاربة الذين هاجروا إلى المشرق أو استقروا فيه ، وعنها نقل كتّاب المشرق ومثال ذلك تلك المعلومات الكثيرة عن المغرب والأندلس التى يوردها أبو البركات محمد بن أحمد بن اياس المصرى (ت ٩٣٠/ ١٥٢٤) عن المغرب والأندلس فى كتابه « نشق الأزهار فى عجائب الأقطار[1] » ناسباً إياها « لبعض أهلها » ، فان معظم ما يورده ابن إياس فى هذا الباب مبالغات من طراز ما رأيناه فى كتاب اليسع ، وكذلك كتاب « مناهج الفكر ومباهج العبر » (أو مباهج الفكر ومناهج

(١) لم ينشر هذا الكتاب بعد ، ومخطوطاته كثيرة (انظر بروكلمان ، ملحق ٢ ص — ٤٠٥ — ٤٠٦ ، وينقل المقرى فى نفح الطيب عنه كثيراً مكتفياً بقوله : قال صاحب نشق الأزهار .

العبر) لجمال الدين محمد بن ابراهيم بن يحيى بن على الانصارى المعروف بالوطواط الكتبى الوراق (٦٣٢ — ٧١٨/١٢٣٣ — ١٣١٨) ، فهو أيضاً كتاب مبالغات وتهويلات ، وما يخص المغرب والأندلس فيه كثير ، ولم ينشر ذلك الكتاب بعد[١] ، ولكن المقرى أورد فى نفح الطيب مقتطفات كثيرة منه شبيهة بما أورد من كتاب اليسع بن عيسى الغافقى . وقول ابن إياس أنه أخذ هذه المعلومات عن « بعض أهلها » أى بعض أهل الأندلس يدل على أنه نقل عن كتب كثيرة فى هذا الشأن ألفها أندلسيون مهاجرون .

أبو حامد الغرناطى

ويختلف عن هؤلاء جميعاً رجل من مشاهير معاصرى الإدريسى من الأندلسيين ، وهو محمد بن عبد الرحيم بن سليمان بن ربيع القيسى الغرناطى[٢] .

---

(١) انظر بروكلمان ، تاريخ ٥٤/٢ وملحق ٥٣/٢

(٢) أوردت اسمه هنا كما ذكره هو بنفسه فى فاتحة كتابه « المعرب عن بعض عجائب المغرب » مخطوط أكاديمية التاريخ فى مدريد (رقم ٣٢ مجموعة جايانجوس) ورقة ٤ ا ، وعلى هذه النسخة معولنا فيما سنذكر عن هذا الكتاب .

وقد وردت كنية مؤلفنا « أبو بكر » و « أبو محمد » و « أبو عبد الله » فى المراجع المختلفة ، ويغلب على الظن أن أبا حامد هى أصح الكنى ، فقد كان له بالفعل ولد يسمى حامد . وورد اسم أبيه عند حاجى خليفة عبد الرحمن ، ويبدو أن هذا تصحيف .

ومعولنا فى الكثير مما سنورد عن أبى حامد على المقدمة الضافية التى كتبها جابرييل فيران لتحقيقه الكتاب تحفة الألباب .

Cf. *Le Tuḥfat al-Albāb* de Abū Ḥāmid al-Andalusī al-Gharnāṭī; édité d'après les mss. 2167, 2138, 2170 de la Bibliothèque Nationale (de Paris) et le ms. d'Alger, par Gabriel Ferrand. Journal Asiatique, Juillet Septembre 1925.

وسنشير إلى هذا المرجع باسم « التحفة » .

واعتمدنا كذلك على الدراسة المستفيضة التى ضمنها سيزار دوبلر الكتاب الذى نشر فيه قطعة من « المعرب عن بعض عجائب المغرب » وهو :

César E. Dubler, *Abū Ḥāmid el-Granadino y su Relación de viaje por Tierras Eurasiáticas* (texto árabe, traducción e interpretación). Madrid 1953.

وسنشير إلى هذا المرجع باسم : المعرب — دوبلر ، وسنشير إلى ما نورد من المخطوط بعبارة : المعرب — مخطوط .

كان رحالة يدفعه إلى جوب الآفاق شوق لا يقارن إلا بهذا الذى دفع ابن بطوطة إلى رحلاته ، بل أربى على هذا الأخير فى ذلك ، إذ كانت له جرأة غير معهودة على اقتحام المخاطر والدخول فى بلاد بعيدة مجهولة الأحوال والألسن ولا يدخلها الغريب إلا على غَرر ، وأوغل فى تلك النواحى المرة بعد المرة وأطال التغرب ، وعاد إلى دار الإسلام فى كل مرة يحكى من الغرائب والعجائب ما لا يكاد يصدق ، واستمر فى ذلك الجهد المضنى حتى نيف على التسعين وهو فى رحلة ما يزال ، وخلف لنا طائفة من كتب فريدة فى بابها ، فهى ليست كتب رحلات شبيهة بما كتب ابن فضلان مثلا ، وليست كتب غرائب وعجائب كالتى سنجدها في كتاب أبي بكر الزهري الذي سنتعرض له بعد قليل وليست كتب جغرافية خالصة كتلك التى مررنا بها إلى الآن، وإنما هى مزاج من ذلك كله : نلتقى فيها الرحالة الطلعة القوى القلب ، والجغرافىّ الدقيق البعيدَ الملاحظة ، والعجائبيّ المغرب المسرف فيما يروى من أخبار المستبعدات وأوصافها ، وهو يؤكد أنه رأى الكثير من ذلك بنفسه أو اختبره بيده ، ولولا أننا نعرف أن المولعين بهذا الشأن فى تلك العصور كانت فيهم سذاجة فى التصور وإسراع إلى التصديق يجعلانهم يخادعون أبصارهم حتى ليتوهمون رؤية ما لا يرون أو يبالغون فى تصوير ما يرون حتى يجاوزوا به المعقول ، لولا هذا لقلنا أنه غير صادق فيما روى . وحال أبى حامد الغرناطى فى هذا هى حال أبى الحسن المسعودى وشمس الدين محمد بن أحمد بن أبى بكر البناء المقدسى فى الكثير مما ذكرا فى كتبهما ، وهما رغم ذلك من أهل الصدق والثقة فى حسابنا ، ونحن عندما نقرأ لأمثال هؤلاء أحاديثَ الخرافة والمستحيلات ونجدهم يؤكدون أنهم رأوا ذلك بعين رأسهم ندرك أنهم لشدة ولعهم بالعجيب الخارق وفرط إيمانهم بقدرة الله تعالى على كل شىء حسبوا أنهم رأوه أو أحسوا به كما وصفوه أو خيّلوه لأنفسهم كما تصوروه ، وربما أحسسنا ونحن نقرأ لهم أن الرغبة فى تشويق السامعين والولع باستلفات الانتباه بحديث

الغرائب حملا الكثيرين منهم على زعم الرؤية وتوكيد المشاهدة ، فانساقوا فى قول ما قالوه عن حسن نية ورغبة ساذجة فى الامتاع والتسلية .

نقول هذا لأننا سنجد أحاديث أبى حامد الغرناطى حافلة بالغريب وما يخرج عن حد التصديق ، ثم نجد الرجل نفسه يؤكد أنه رأى ذلك بنفسه أو اختبره بيده ، وأبو حامد بعد ذلك رجل فاضل عاقل يستبعد منه الكذب والشعبذة والاسفاف إلى ما لا تقبله العقول أو الاستخفاف بسامعه وقارئه ، ولا تفسير لأعاجيبه وتهويلاته إلا ما ذكرناه ؛ ثم إن أبا حامد كان ابنَ عصره ، والعصر كان يقبل هذه الأحاديث ولا يستبعدها ، وفى هذه الحدود ينبغى أن نقرأ أبا حامد الغرناطى ونفهمه .

حياة أبى حامد الغرناطى ورحلاته

وحياة أبى حامد نفسها ربما كانت أغرب من كثير من الأعاجيب التى أوردها فى كتبه ، فهى حافلة بالحوادث والحركة والنشاط على نحو يندر أن نجد له مثالا ، وقد استخلص جابرييل فران مراحل هذه الحياة من أقوال المؤرخين ومن كتابات أبى حامد نفسه ، وأوردها فى المقدمة الضافية التى ساقها بين يدى تحقيقه « لتحفة الألباب » ، وعاد فحكاها فى صورة أدق وأوفى سيزار دوبلر فى مقدمة ما نشر من « المعرب من عجائب المغرب » معتمداً على ما ذكره أبو حامد فى ثنايا كتبه وما ذكره المقرى فى ترجمته الضافية له فى « نفح الطيب » ، وفيما يلى مراحل هذه الحياة الحافلة :

ولد أبو حامد فى غرناطة سنة ٤٧٣/١٠٨٠—١٠٨١ ، وقد نص هو على ذلك فى « المعرب » فقال : « ومولدى بالمغرب الأقصى بجزيرة تعرف بأندلس فيها أربعون مدينة ، ومولدى فى مدينة تسمى غرناطة » . وأعاد ذلك فى « التحفة » : « فإن بلدى بأندلس ، واسم بلدى غرناطة ، وهو بلد عظيم

كبير يقال إنه مدينة دقيانوس » . أما نسبته « القيسى » فليست كما قال فى المعرب (١٣) نسبة إلى قيس عيلان بن الياس بن مضر بن نزار ، بل إلى قرية قريبة من غرناطة تسمى قيس ، أما نسبته الأخرى « الأقليشى » فإلى بلدة أقليش أو أقليج Uclés فى مديرية كونكة Cuenca حالياً ، وربما يكون قد قضى فيها سنوات من صبوته وشبابه الباكر ، فنسب إليها .

ولا ندرى شيئاً عن حياة أبى حامد حتى مغادرته الأندلس إلى غير رجعة حوالى سنة ٥٠٠/١١٠٦—١١٠٧ فى الغالب ، أى فى سن السابعة والعشرين ، ولا شك أنه درس على الشيوخ على نفس النظام الذى جرى عليه غيره من أبناء عصره ووطنه ، ولكننا لا نحسب أنه تعمق فى دراسة الفقه أو الأدب وما إليهما من فروع العلم الإسلامى ، لأننا لا نلمح فى كتبه ما يدل على تعمق أو استبحار ، بل نلاحظ قصوراً واضحاً فى الزاد الفكرى والعلمى ، ولكن الذى يستنتج من كتاباته أنه كان حاد الذكاء شديد التطلع دقيق الملاحظة حسن الحديث خفيف الروح ، ومَن كانت هذه خلاله تتفتح له الأبواب وتسهل أمامه الحياة ولا يحتاج إلى كد النفس وإرهاقها فى طلب العلم ، وحسبه من كل شىء طرف يسمر به فى المجالس ويتحدث به بين الناس .

وليس فى كتابات أبى حامد ما يشير إلى عودته إلى وطنه ، ويعلل سيزار دوبلر هذه الهجرة النهائية بسقوط بلده أقليش فى أيدى النصارى[1] . وقد

---

(١) يعلق دوبلر على هذا بقوله ان المقرى يقول ان أبا حامد كان فى الاسكندرية سنة ٥٠٨ هـ واعتماداً على ذلك افترض فيران (مقدمة التحفة ص ٢١) ان أبا حامد عاد إلى الأندلس ، وتابعه فى ذلك بروكلمان وجورج سارتون (وبذلك قال كراتشكوفسكى ، الأدب الجغرافى ، ص ٢٩٥) وذهب إلى مثل ذلك مينورسكى اعتماداً على ترجمة لحياة أبى حامد شبيهة بما يذكره المقرى عنه وجدها فى مخطوطة طشقند التى ترجع إلى القرن الرابع عشر الميلادى ، وربما كانت هناك علاقة ما بين الترجمتين . ويقول دوبلر انه لا يستبعد إمكان وجود أبى حامد فى الاسكندرية سنة ٥٠٨/١١١٤—١٥ ، ومن الممكن أن يكون قد عبر البحر من هناك وزار بعض جزائره ثم عاد إلى الاسكندرية سنة ٥١٢ ، وربما يكون قد حدث خلط بين التاريخين (٥٠٨ و ٥١٢) ، ومن هنا جاء القول بان أبا حامد عاد إلى الأندلس والمغرب بين هذين التاريخين .

طاف أبو حامد بعد مغادرته الأندلس بنواحى المغرب الأقصى ، ووصل إلى سجلماسة ، وكانت مركزاً تجارياً عظيما على الحدود الشمالية للصحراء الكبرى . ولا شك أن أبا حامد وصل إلى هذا البلد ، فقد أعطانا معلومات دقيقة عن أصناف المتاجر التى تحمل من وسط إفريقية إلى هناك ، ووصف طريقة صنع السهام التى تستعملها قبيلة الكوكو ، وكانت من أقوى القبائل فى تلك الناحية .

ومن هناك انتقل أبو حامد إلى افريقيّة (تونس الحالية) . ومما يستوقف النظر أنه يخلط بين مدينتى تونس والقيروان ، وهو خلط يرجع — فى الغالب — إلى أن ما ذكره عنهما فى التحفة كتبه بعد ذلك بسنوات طويلة . وقد ذكر فى التحفة أيضاً (ص ١٣٨—١٣٩) ، أنه زار هناك قبر رجل صالح يقال له محمد المعلم ، والمراد به محرز بن خلف بن رزين المتوفى سنة ٤٢٣/١٠٣٢ ، وأخطأ الناسخ فكتب محمدا مكان محرز . وأخذ أبو حامد شيئاً من تراب قبره ، وكان الناس يتبركون به ويحملونه معهم إذا ركبوا البحر لتبعد عنهم الأنواء ، ويقص أبو حامد حكاية طريفة عن هذا الموضوع .

ويغلب أن أبا حامد غادر تونس إلى الاسكندرية بطريق البحر سنة ٥١١/١١١٧—١١١٨ ، ويحتمل أن يكون قد نزل أثناء هذه الرحلة بجزيرة سردانية ، فهو يقول فى التحفة (ص ١٠٤) : « وفى بحر الروم من الجزائر كثير جداً ، منها جزيرة تسمى بسردانية ، وهى عظيمة جداً ، فيها من الكفار خلق كثير شجعان ، والبحر الذى هم فيه يقال له بحر اللاذقية خلف قسطنطينية ، متصل بالبحر الرومى الذى قبلى بلد قسطنطينية » . وشاهد بنفسه جبل النار (بركان إتنا) ، ووصف خروج حمم اللافا منه ، قال : « ويقال إنها جمر كبار كأعدال القطن ، يتقطع فيقع بعضها فى البر فيصير حجرا أبيض خفيفاً يطفو على الماء لخفته ، والذى يقع فى البحر يصير حجراً أسود مثقباً ، تحك به الأرجل فى الحمام . . . »

وفى نفس هذه السنة كان أبو حامد فى الاسكندرية وسمع العلم على أبى عبد الله الرازى وأبى بكر الطرطوشى . وفى الاسكندرية زار المنــارة ووصفها وصفاً دقيقاً ، وقد كان أبو حامد من آخر من رآها بحالتها الكاملة من رَحالة العرب وجغرافييهم ، ووصفُه لها دقيق يدل على مشاهدة مباشرة وإن كان شديد الشبه بوصف البكرى إياها ، وأبو حامد يذهب إلى أنها من بناء ذى القرنين ، وهو يذكر تاريخها القديم ثم يصفها كما رآها ، ولا يكتفى بالوصف بل يرسمها بيده : « والنصف الأسفل الذى من عمل ذى القرنين : يدخل الإنسان من الباب الذى للمنارة ، وهو مرتفع عن الأرض مقدار عشرين ذراعاً ، يصعد عليه على قناطر مبنية بالصخر المنحوت على هذه الصورة التى أصورها . . . » (تحفة ، ص ٧١) وقد أورد الرسم بالفعل (ورقة ١٧ من المخطوط) وهو رسم لا بأس به ، وعيبه الكبير هو أن الرسم مسطح لا منظور ، وهذا عيب شائع فى التصاوير العربية والفارسية إلى ذلك الحين . وأبو حامد يؤكد أنه صعد المنارة ودخل غرفها مرات كثيرة أثنــاء وجوده فى الاسكندرية سنة ٥١١ هـ.

وفى الاسكندرية زار أيضاً معبداً يغلب أنه سيرابيوم الاسكندرية المشهور ووصفه وصفاً دقيقاً (تحفة ٧٢—٧٣) ، وعلى مثل هذه الصورة وصف ذلك المعبد جغرافيون ورحالة مسلمون آخرون[١] . وكرر أبو حامد نفس الكلام عن الاسكندرية فى المغرب (مخطوط ورقة ٤٥—١٤٦) وأضاف هنا أنه : « يأتى إلى اسكندرية خليج من ماء النيل ، ومن ذلك الخليج يشربون ويملأون منه صهاريج فى بيوتهم ، ويشربون أيضاً من ماء المطر ، يجمعون ماء المطر وماء العين (سبق أن وصف هذه العين وعجائبها) فى صهاريج فى بيوتهم . وليس فى الاسكندرية ماء إلا من النيل أو من المطر ، وماء العين الصدفية ماء يسير ليس بطيب » .

(١) أورد ذكر بعضهم فيران فى تعليق رقم ١ من نفس الصفحة من التحفة ، وكذلك جاستون فييت فى تعليقاته على ما نشر من خطط المقريزى ، ج ٣ ص ١٣١ هامش ٦

ومن الاسكندرية انتقل أبو حامد إلى القاهرة فى السنة التالية (٥١٢/ ١١١٨—١٩) وهو يسميها مصر (تحفة ٧٣ ، معرب ورقة ٤٦ ا — ب) ويقول فى الأخير : « ودخلت مصر سنة اثنى عشر وخمسمائة وهى التى تعرف بالفسطاط التى بناها عمرو بن العاص » ، ويؤكد ذلك فى التحفة بقوله : « وفى مقابلة مصر الفسطاط ثلاثة [أهرامات] ، أكبر هذه الثلاثة . . . » وهو يطيل وصف جامع عمرو ويبالغ على عادته ، ولكنه لا يذكر اسم القاهرة ولا الجامع الأزهر كأنه لم يره ، وله فى أثناء ذلك ملاحظة تدل على استنكاره لدعوى الفاطميين فى نسبهم ، وربما يكون قد كتبها إرضاء للوزير عون الدين الذى ألف له الكتاب ، قال (ورقة ٤٦ ب) : « وذكر لى المصريون أن الأفضل ابن أمير الجيوش كان من أهل السنة ، وكان هو فى السنة التى دخلتُ مصر ، سنة اثنتى عشرة وخمسمائة ، بالحياة قاهراً للمدعى الذى بمصر الذى يقول إنه من ولد اسماعيل بن جعفر ، ويكذب ، لأن اسماعيل بن جعفر مات صغيراً لم يبلغ الحلم...» والعبارة ذات أهمية خاصة ، لأن المعروف أن الخلاف بين الخليفة الفاطمى أبى علىّ منصور المعروف بالآمر بأحكام الله ووزيره الأفضل شاهنشاه ابن بدر الجمالى كان شديداً ، وأن العلاقات بينهما لم تزل تسوء حتى انتهت بمقتل الأفضل فى ٣٠ رمضان ٥١٥ ولكن سبب النفور بين الرجلين لم يكن الاختلاف فى المذهب (انظر النجوم الزاهرة ، ٥ / ١٧٠ وما بعدها) ، وإنما كان التنافس على السلطان وخوف كل منهما من الآخر ، ولا يمكن لهذا القول بأن الأفضل كان فى سنة ٥١٢ سنياً متحمساً لمذهبه قاهراً للآمر لهذا السبب ، إلا إذا كانت هذه أحاديث سمعها أبو حامد فى مجالس الناس فى مصر ، وعلى هذا الاعتبار تكون لها أهمية تاريخية .

وبالإضافة إلى جامع عمرو بن العاص وصف أبو حامد الغرناطى الكثير من آثار مصر وعجائبها كمقياس الروضة (٤٧ ا) وهو يقول إنه مسجد بناه أمير المؤمنين المأمون وسط النيل ، ولكنه يصف المقياس وصفاً دقيقاً ، ثم

يصف الفيضان ، ويستوقف انتباهه من مظاهر الفيضان أن الفيران والحيات والثعابين تخرج « من تلك الأرض وتدخل على الناس فى القرى ، والناس يقتلونهم ليلا ونهاراً أياماً كثيرة ، لأن أرض مصر من أكثر البلاد حيات وثعابين » ويقف هنا وقفة طويلة ليتحدث عن ثعابين مصر حديثاً مغرقاً فى المبالغة حتى ليصف الطريق الذى سار فيه ثعبان فى الرمال بأنه كان « مثل النهر عريضاً عميقاً » وأن عرضه كان ٢٠ ذراعاً . ثم يتحدث عن قصر فرعون على الضفة الغربية للنيل . ثم يتكلم عن خصوبة أرض مصر ، ويقول إنه رأى فيها البطيخ المندى « فى كل واحدة منها مائة مَنّ ، يحمل اثنان منها على جمل قوى ، وهى حلوة طيبة عذبة جداً ، لم أشاهد فى الدنيا مثل ذلك » ، والمنّ المصرى كان وزنه إلى سنة ١٤١٤ ميلادية ٨١٢,٥ جراماً أما المن العراق فوزنه على التقريب ٨١٦,٥ جراماً[1] ، ومعنى ذلك أن هذه البطيخة التى رآها بمصر وزنها أزيد من ٨١ كيلوجراماً بقليل ، وهى مبالغة تذكرنا بتفاحة اليسع ابن عيسى بن حزم الغافقى ومحيطها خمسة أشبار أى نحو ١١٠ سنتيمتراً .

ثم ينتقل إلى وصف التمساح (١٤٩) ثم يتحدث عن الأهرام (١٥٠) وهنا خرم فى المخطوط ينتقل الكلام فيه إلى اليمن ، ولكننا نجد بقية مشاهداته فى مصر فى التحفة (ص ٧٤ وما يليها) : فهو يتحدث هناك عن مسلة عين شمس ، وهو يقول إنها « منارة مربعة علوها مقدار ١٠٠ ذراع من الرخام المجزع الصافى ، قطعة واحدة محددة الرأس » ويصف بقايا المعابد التى كانت لا تزال قائمة إلى أيامه فى موضع المسلة .

وظل أبو حامد فى مصر حتى سنة ٥١٥/١١٢١—١١٢٢ (مقرى ، نفح ٥٥١/١) ونزل دمشق ودرّس الحديث بها ، وربما يكون قد زار فى أثناء ذلك بعلبك وتدمر إذ هو يصفهما فى كتابه ، ووصل بغداد سنة ٥١٦/١١٢٣—

(١) Cf. Walther Hinz, *Islamische Masse und Gewichte* (Leiden 1955) p. 16-17.

١١٢٤ (حاجى خليفة ٤/١٩٠ والمعرب ورقة ٢ ب) وأقام فى بغداد أربع سنوات على وجه التقريب .

ولأول نزوله بغداد عرف الوزير عون الدين الذى سيكون راعيه وملاذه من ذلك الحين ، وله ألف كتاب المعرب وقال فى فاتحته (١٢) «... ورأيت أن اسمى هذا المجموع بالمعرب عن بعض عجائب المغرب ، وان أجعله برسم خزانة مولانا الوزير العادل الزاهد المجاهد عون الدين ملك الجيوش صفى الامام ، معين الدولة ، مصطفى الخلافة ، سيد الوزراء ، صدر الشرق والغرب ، أبى المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة بن سعد بن حسن بن أحمد بن الحسين بن جهم بن عمرو بن هبيرة الشيبانى ظهير أمير المؤمنين...» ولم يكن يحيى بن هبيرة الشيبانى هذا وزيراً عندما دخل أبو حامد بغداد ، إنما كان من علية الناس ، ولابد أنه كان شاباً إذ ذاك ، لأنه سيتولى الوزارة للمقتفى فى ربيع الأولى ٥٤٤/أغسطس ١١٤٩ وسيظل فى الوزارة أيام المستنجد إلى جمادى الثانية ٥٦٠/مارس ١١٦٥ وسيعظم أمره حتى يلقب بسلطان العراق . وعبارة أبى حامد هذه تدل على أنه كتب «المعرب» بعد سنة ٥٤٤ ، وقد لقى أبو حامد من يحيى ابن هبيرة هذا كل اكرام حتى أنزله فى داره وفتح له أبواب مكتبته الزاخرة ، وظل إلى وفاته راعياً للرحالة الجغرافى مشجعاً له على الرحلة والتأليف مستمعاً إلى أحاديثه فى شوق ، مما كان له أبعد الأثر فى حياة أبى حامد وعمله فيما بعد .

وبفضل هذه الرعاية أتيح لأبى حامد أن يشبع نهمه العظيم للرحلة ومشاهدة البلاد الغريبة البعيدة ، ويصعب تتبع خطواته بعد ذلك ، لأن الرجل فى كتبه لا يصف رحلة متصلة الحلقات بل ينتقل من عجيبة فى ناحية إلى عجيبة مشابهة لها فى ناحية أخرى ، فبينما يتحدث عن منارة الاسكندرية ينتقـل إلى الأندلس ليصف صنم قادس ، ولكنه لحسن الحظ أثبت تواريخ زياراته لبعض المواضع ورؤيته لبعض العجائب ، وهذه التواريخ تعيننا على تتبع بعض خطواته .

وبصفة عامة يمكن القول إنه اتخذ بغداد قاعدة لرحلاته ومعظمها فى هضبة إيران التى وصل إلى أقصاها شرقاً وفى بلاد التركستان ثم فى جنوبى روسيا وحوض الفلجا وشرقى أوروبا ، وقد بلغ فى رحلاته إلى المجر ووصفها ، وفقرات « المعرب » التى يصف فيها ما شاهد فى تلك النواحى الأخيرة هى التى حددت مكانته كجغرافى أصيل زار بلاداً لم يزرها إلا القليلون قبله وأتانا عنها بتفاصيل غاية فى المتعة والفائدة والدقة ، نعم إن حديثه لا يخلو أبداً من حديث الخرافة والعجائب ، ولكن هذا كان وسيلة للتشويق والترغيب فى القراءة ، وإذا كان هو يرحل ليشاهد ويتأمل فقد كان قراؤه يقرأون للتسلية والتسرية عن النفس ، ولم يكن لأبى حامد بد من أن يرضى هذه الرغبة ، ثم أنه كان يعتقد فى صحة ما يحكيه .

وسنتتبع فيما يلى ما يمكن من خطواته بعد وصوله بغداد اعتماداً على التواريخ القليلة التى أوردها فى كتابيه المعرب والتحفة .

ففى سنة ٥٢٤/١١٣٠ أى بعد ثمانى سنوات من نزوله بغداد كان فى أَبْهَر فى إيران[١] ، ويذكر أبو حامد هنا حقيقة هامة وذلك حيث يقول « فالناس يحملون من بلاد الإسلام سيوفاً تتخذ فى زنجان وابهر وتبريز وأصفهان نصولا ، ولا يتخذون لها آلة ولا حلية ، إلا حديداً كما يخرج من النار ، ويسقون تلك السيوف سقياً عظيما ، حتى إذا علق السيف بخيط ونُقر بالظفر أو بشىء من حديد أو خشب يسمع له طنين دائم ، فذلك السيف هو الذى يحمل إلى يُورا » وهم شعب من الشعوب التى كانت خاضعة لبلغار الفولجا[٢] .

---

(١) حدد هذا التاريخ فيران فى مقدمة التحفة (ص ٢٢) وعلق على كلام أبى حامد شرحاً طويلا صحح فيه خطأ وقع فيه سلفستر دى ساسى فى ترجمته وتعليقاته على رحلة عبد اللطيف البغدادى .
Silvestre de Sacy, *Rélation de ʿAbd Allatif*, p. 218

(٢) علق سيزار دوبلر على هذا القبيل من الناس بقوله ان الأرجح أن المراد هنا هم اليورا كيون السمويون Yuracos Samoyeaos لأن السمويين القدامى (بالألمانية Altsamoyeden كانوا قبيلا أعرق فى القدم ، ولم تبق منهم إلا بقايا فى شرق سيبريا . Cf. *Abū Hāmid* 207 n. 2.

ومن هناك انتقل إلى أرْدَبيل ، وهو يتحدث بهذه المناسبة عن حجر كبير أسود موضوع فى ميدان البلد «أسود له طنين كالفولاذ ، له محك كمحك القلعى الرصاص ، وهو على صورة كلية البقرة فيه أكثر من مائتى مَن» ويقول ان هذا الحجر يستدر المطر ، وقد ذكر ذلك الحجر ووصفه بنفس الوصف جغرافيون عرب آخرون مثل الإدريسى وأبى الفدا وياقوت[1] وزاد أبو حامد فرسم هذا الحجر بيده رسماً طريفاً .

وحديث أبى حامد عن هذه النواحى النائية فى شرق هضبة إيران وشمالها الشرقى حديث طويل حافل بالفائدة ، فهو يتحدث عن الأمم التى كانت تسكن عند دَرَبَنْدَا أو الدربند أو باب الأبواب وهو أقصى ما وصل إليه الفتح الإسلامى شرقاً أيام الأمويين ، ويذكر نظامها السياسى ، ويقف وقفة طويلة عند وصول مسلمة بن عبد الملك إلى هناك ، ويفصِّل لنا أمر «سيف مسلمة» الذى تركه للناس هنـاك لتقوى قلوبهم على محاربة من يجاورهم من الأمم «فعملوا له محراباً من الصخر وأقاموه فى داخله على تل حيث كان نازلا (مسلمة) ، وهو الآن باق فى تلك الأرض يزوره النـاس» (تحفة ٨٤) ، ويقول إنه «بالقرب من دربندا جبل عظيم فى أسفله قريتان فيهما أمة يقال لها زريه كاران (بالفارسية ومعناه صناع الجلود) «يعنى صناع الدروع ، يتخذون الآلات جميعها للحروب من الدروع والجواشن والخوذ والسيوف والرمـاح والقسى والنشاب والخناجر وجميع أنواع آلات النحاس ، جميع نسائهم وأولادهم وبناتهم يتخذون هذه الصنائع كلها ، وليس لهم حرث ولا بساتين ، وهم أكثر الناس خيراً ومالا ، يقصدهم الناس بجميع النعم من جميع الآفاق ، وليس لهم دين ولا يعطون جزية» .

وقد أقام أبو حامد فى هذه النواحى المتطرفة فترات طويلة وتردد عليها المرة بعد المرة حتى ليذكر أنه دخل خوارزم ثلاث مرات (التحفة ، ص ٨٢) ، ومن

---

(١) التحفة ، ص ٨٢ والتعليق ١

الطريف أنه دخل خوارزم عن طريق بلاد البلغار وجنوب روسيا أى أنه عبر البحر الأسود من آسيا الصغرى إلى القرم ثم عبر بحر آزوف واتجه شرقاً حتى وصل إلى مصب الفولجا ثم انحدر إلى شرق إيران وخوارزم ماراً ببحر الخزر (قزوين)، وكأنما راقته هذه النواحى فأكثر الكلام عنها وعن عجائبها فى كتابَيْه التحفة والمعرب.

ولدينا بعض التواريخ عن إقامته فى هذه النواحى أو مروره ببعض بلادها، ففى سنة ٥٢٥/١١٣١ كان فى سَجْسين أو سقسين أو سخسين(١) عند مصب نهر إتِلْ وهو الفولجا، وهو يقص هنا (التحفة ١١٦—١١٧) حكاية طويلة طريفة تتلخص فى أن شيخاً فقيراً عثر على سوار من الذهب «وزنه أربعون مثقالا» ولم يعرف ما ذا يصنع به، فطاف به فى كل ناحية يبحث عن صاحبه فلم يجده، لحار فى أمره، وسأل أبا حامد، فقال له أن يتصرف فيه فهو مال حلال، فرفض الرجل، وأخيراً قال أبو حامد: «افدِ به الأسرى من أيدى الترك، ففرح وقال: بارك الله عليك، فرَّجْتَ عنى كُرْبَه، فقلت: أوليس هنا من أهل العلم من يأمرك بمثل هذا؟ فقال: ها هنا من أهل العلم من يقول: أعطنا إياه، ونحن نعرف ما نصنع به، وإنما يريدون أكله!».

وأبو حامد يصف ناحية سجسين هذه وصفاً يعتبر اليوم من المراجع التى يُعتمد عليها فى تاريخ روسيا القديم بسبب ما يتضمن من المعلومات وما فيه من الدقة التى لا تصدر إلا عن معاينه، قال (المعرب ص ٣ من طبعة دوبلر): «ودخلت البحر إلى بلاد الخزر، فوصلت إلى نهر عظيم أكبر من الدجلة

---

(١) بلدة كانت قرب مصب الفولجا، يصفها جغرافيو المسلمين بأنها كانت اصفين، واحد على كل من شطى النهر. ويسميها بعضهم مدينة إتل وقد ورد ذكرها فى بعض المدونات الروسية باسم سكسيني. وقد زالت هذه المدينة اما بسبب مد نهر الفولجا وتغييره لمجراه أو بسبب تخريب المغول. وفى القرن الثالث عشر الميلادى نجد مكانها مدينة تسمى حاجى طرخان وهو تحريف لاسمها الأصلى طرخان خاقان، ومن تلك الصورة المحرفة جاء اسمها الحالى استرخان التى ينسب إليها الفرو المعروف. ومعنى سجسين باللغة الخزرية الموضع الجاف Cf: Dubler, *Abū Ḥāmid*, pp. 225-230

مرات أضعافاً مضاعفة ، كأنه بحر تخرج منه أنهار عظيمة (يريد نهر إتل وهو الفولجا) وعليه مدينة يقال لها سجسين ، فيها من الغزّ أربعون قبيلة ، لكل قبيلة أمير على حده ، ولهم دور كبيرة ، وفى كل دار خركاه[1] عظيمة كالقبة الكبيرة ، تسع الواحدة مائة رجل وأكثر ، مغشاةً باللبود . وفى المدينة من أمم التجار والغرباء وأولاد العرب من المغرب آلاف لا يحصى عددهم ، وفيها جوامع يصلىَّ فيها الجمعة فى الخزر ، وهم أمم أيضاً ، وفى وسط البلدة أمير من أهل بلغار ، لهم جامع كبير يصلى فيه الجمعة ، وحوله أمم من البلغاريين ، وجامع أيضاً آخر فيه أمة يقال لها أهل صُوَاز[2] ، وهم أيضاً كثيرون ، ويوم العيد يخرجون بمنابر كثيرة ، يصلى كل أمير بأمم كثيرة ، ولكل أمة قضاة وفقهاء وخطباء ، والجميع على مذهب أبى حنيفة ، إلا أولاد المغاربة ، فانهم على مذهب مالك ، والغرباء على مذهب الشافعى ، ودارى الآن فيهم ، وأمهات الأولاد وأولادى وبناتى » .

ومعنى هذا أن أبا حامد استقر فى هذه النواحى زماناً حتى اتخذ أمهات أولاد وأنجب بنين وبنات ، وقد راقت له الاقامة هناك رغم ما لا يزال يشكو منه من شدة البرد : « الشتاء عندهم شديد البرد ، وبيوتهم فى الشتاء من خشب الصنوبر ، جذوع كبار بعضها فوق بعض ، وسقوفها وسطوحها من ألواح الخشب ، ويوقدون النـــار ، ولها أبواب صغار مغشاة بجلود الأغنام بصوفها ، وداخلها حارة مثل الحمام ، والحطب عندهم كثير . ويجمد النهر حتى

---

(١) الخركاة خيمة كبيرة مستديرة أو خيمة ملكية على هيئة قبة
انظر J. A. Vullers, *Lexicon Persico-Latinum*, Bonnao 1864, I, 678-9.
ويذهب بعضهم إلى أنه من الفارسية القديمة خورنة ويستعمل ابن بطوطة اللفظ فى صورة معربة : خرقة . انظر : دوزى ملحق القواميس ، ١/٣٦٦ ودوبلر : أبو حامد ص ٣٤٩

(٢) قبيل من الناس مجهول الأصل كان يسكن الضفة الشرقية لدلتا الفولجا ، ينطق اسمهم أيضاً سواش وشواز ، وقد قرأ زكى وليدى اللفظ عند ابن فضلان صواز مقرباً إياه من هاتين القراءتين ، وكانوا مجاورين ومعاصرين لقبيل البرطاش الذى يكثر ذكره عند جغرافيينا .
Cf: Dubler, *Abū Ḥāmid*, p. 261

يصير كالارض ، تمشى عليه الخيل والعجل من البهائم جميعاً ، ويتقاتلون على ذلك الجد ، ومشيت عرض ذلك النهر لما جمد فكان عرضه ألفى خطوة وثمانمائة ونيفاً وأربعين خطوة بخطوي ، سوى الأنهار التى تخرج من ذلك النهر» (مُعرِب ، دوبلر ، ص ٥ — ٦) .

وقد بقى أبو حامد هناك ثلاث سنوات ، فهو يذكر فى (التحفة ص ١٢٣) أنه لقى هناك سنة ٥٢٨/١١٣٣—١١٣٤ رجلا «من أهل جيلان ساحل طبرستان اسمه عبد الواحد بن على» ويقص من أمره حكاية عجيبة . وبعد سنتين أى فى سنة ٥٣٠/١١٣٥ — ١١٣٦ نجده فى مدينة بلغار[1] (التحفة ١٣٢) ولقى هناك «من نسل العاديين رجلا طويلا ، كان طوله أكثر من سبعة أذرع ، كان يسمى دنقى (أو دفمى أو وَنقى) كان يأخذ الفرس تحت إبطه كما يأخذ الإنسان الحمل الصغير ، وكان من قوته يكسر ساق الفرس بيده ، ويقطع جسده وأعضاءه كما يقطع باقة البقل ، وكان صاحب بلغار قد اتخذ له درعاً يُحمل على عجلة وبيضة لرأسه كأنها مرجل ، وكان إذا وقع القتال يقاتل بخشبة من شجر البلوط يمسكها كالعصا فى يده لو ضرب بها الفيل قتله ، وكان خيِّراً متواضعاً ، كان إذا التقانى يسلم علىَّ ويرحب بى ويكرمنى ، وكان رأسى لا يصل إلى حقوه رحمه الله . ولم يكن ببلغار حمّام يمكن أن يدخل فيها إلا حمام واحدة واسعة الأبواب ، فكان يدخل فيه . وكان من أعجب بنى آدم ، لم أشاهد قط مثله . وكان له أخت على طوله ، ورأيتها مراراً عدة فى بلغار ، وقال لى فى بلغار القاضى يعقوب بن النعمان أن هذه المرأة الطويلة العادية قتلت زوجها ، وكان اسمه آدم [وكان] من أقوى أهل بلغار ، ضمته إلى

---

(١) بلغار مدينة يذكر ابن فضلان أنها كانت حديثة البناء أيام زارها ، ثم ذكر ابن حوقل أنها قد صارت مدينة كبيرة أواخر القرن العاشر الميلادى ، وفى «حدود العالم» نقرأ أن بلغار مدينة سكانها من المسلمين فقط ويصفها أبو حامد بأنها مدينة عامرة ، ثم خربت بعد ذلك ، ويفهم من كتابات الجغرافيين بعد ذلك أنها كانت قريبة من قازان . وفى القرن الثامن عشر عثر على آثار بلغار قرب مدينة سيميرسك Simirsk الحالية . Cf: Dubler, *Abū Ḥāmid*, 230-231

صدرها فكسرت أضلاعه ، فمات [فى ساعته] » (التحفة ، ١٣٢ — ١٣٣) .

ولابد أن أبا حامد كان يعيش من التجارة فى أثناء مقامه فى هذه النواحى ، فإن اهتمامه باصناف المتاجر وأسعارها شديد ، نعم إنه لا يصرح بذلك ، ولكننا لا نتصور أن يقيم وينشئ أسرة وتكون له أمهات أولاد معتمداً على ما كان يمده به الوزير عون الدين . وهو يخلط ما يقدم من المعلومات التجارية بحديث العجائب ، لأن هذا الحديث هو العنصر الهام الذى يعجب سامعيه وقراءه . ومثال ذلك قوله عن بلاد البلغار[1] (المعرب ، دوبلر ، ص ٦ — ٧) : « وهذه الولاية شديدة البرد ، وفى هذا النهر من أنواع السمك ما لم أشاهد قط فى الدنيا مثله ، السمكة[2] الواحدة حِمل رجل قوى ، ومنها نوعٌ السمكة حمل جَمَل قوى ، ومنها صغار أيضاً ، ليس فى السمكة شوك ولا عظم فى رأسها ، وليس لها أسنان ، كأنها إلية الحمل محشوة بلحوم الدجاج ، بل أطيب من لحم الحمل السمين وأعذب ، تَشْوِى هذه السمكة وتجعل فيها الأرز فتكون أطيب من لحم الحمل السمين ومن لحم الدجاج . تشترى هذه السمكة التى يكون فيها مائة مَنٍّ[3] بنصف دانق ، ويخرج من بطنها دهن يكفى السراج شهراً ، ويخرج من معدتها من غِرَى[4] السمك نصفُ مَن ، ويُقَدَّد فيكون أحسن من كل قديد فى الدنيا ، فى لون الكهرباء أحمر صافياً يؤكل مع الخبز كما هو ، لا يحتاج أن يطبخ ولا يغلى . والذى ينفق بينهم الرصاص الأبيض : كل ثمانية أمنان بالبغدادى بدينار ، يقطعونها قطعاً ويشترون بها ما يشاءون من

(١) المراد هنا بلغار الفولجا وكانت بلادهم تمتد حتى قرب كييف ، وتمتد جماعة منهم إلى حوض الدنيبر ، ويمتدون شرقاً إلى القوقاز .

(٢) حدد دوبلر هذا السمكة بأنها من النوع المعروف بالاستوريون Esturión واسمها العلمى Acipenser Starlo L وهى تعيش فى مياه بحر قزوين . Cf: Dubler, *Abū Ḥānid,* p. 212

(٣) وزن المن البغدادى فى المتوسط ٨١٦,٥ جراماً حتى القرن السادس عشر الميلادى .
Cf: Walther Hinz, *op. Cit,* 17

(٤) غرى السمك ، يراد به ما يعرف بالبطارخ .

الفواكه والخبز واللحم ، واللحم عندهم رخيص ، بحيث يكون الغنم — إذا جاءت القوافل من الكفار — يكون الغنم الواحدة بنصف دانق ، والحمل بُطسوج ، وعندهم أنواع من الفواكه لا يوجد أكثر منها ، وفيها بطيخ حلو فى الغاية ، ومن البطيخ جنس يمسك فى الشتاء » .

ومن ملاحظاته ذات القيمة العظيمة بالنسبة للتاريخ الطبيعى قوله فى المعرب (دوبلر ، ص ١٠—١١) : « ويوجد فى أرضهم (أى أرض البلغار) من عظام قوم عاد : السن الواحد عرضه شبران ، وطوله أربعة أشبار ، ومن طوله إلى منكبه خمسة أبواع ، ورأسه مثـــل القبة العظيمة ، وهو هناك كثير » وهذه العظام التى لا تزال توجد إلى الآن ليست عظاماً آدمية وإنما هى عظام حيوانات منقرضة . ويقول أبو حامد بعد ذلك : « ويوجد تحت الأرض أنياب الفيلة ، بيض كالثلج ، ثقيل كالرصاص ، الواحد مائتا من وأكثر واقل ، لا يُدرى من أى حيوان هو ، يقطع ويحمل إلى خوارزم وخراسان ، ويتخذ منه الأمشاط والحقاق وغير ذلك ، كما يتخذ من العاج . وهو أقوى من العاج لا ينكسر[1] » .

وفى هذه الناحية مات ابن لأبى حامد ، وهو يتحدث عنه عرضاً فى كلامه عن مشاهداته بمدينة بلغار (تحفة ١١٧ — ١١٨) : « وسمعت ببلغـــار ، وهى مدينة فى آخر بـــلاد الإسلام فى الشمال ، هى فوق سقسين باربعين يوماً ، يكون النهار فى الصيف عشرين ساعة والليل أربع ساعات [ويكون الليل فى الشتاء عشرين ساعة والنهار أربع ساعات] ويَشُدُّ البرد فيها حتى إذا مات لأحد ميّت لا يقدر أن يدفنه ستة شهور ، لأن الأرض تكون كالحديد ، ولا يمكن أن يحفر فيها قبر ، ولقد مات لى بها ولد ، وكان فى آخر الشتاء ، فلم أقدر على دفنه ، فبقى فى البيت ثلاثة أشهر حتى أمكن دفنه ، وبقى الميت كالحجر » .

---

(١) المراد هنا عظام الماموث أو ما يسمى باسم Elephas antiquero ولا زال الناس يستخرجونها إلى الآن فى نواحى القوقاز وحول بحر قزوين ، وهى تعتبر من موارد الثروة هناك .

Cf: Dubler, *Abū Ḥāmid*, 205-206

ويذهب فيران (مقدمة التحفة ، ص ٢١) إلى أن أبا حامد زار فى ذلك الوقت ناحية بلخ (باكتريا Bactria) ولكن دوبلر (أبو حامد ، ص ١٢٩) لا يرى ذلك . وعلى أى حال فاننا نجد أبا حامد فى سنة ٥٤٥/١١٥٠—١١٥١ فى باشغِرد أو باشغورد وهو الاسم الذى يطلقه على المجر (تحفة ، ١٩٥—١٩٦) وهو يصف المجر هنا بقوله : «وهذا باشغورد أمم عظيمة ، وهى ثمانية وسبعون مدينة ، كل مدينة كأصفهان وبغداد ، وفيها من النعمة والرخاء ما لا يعد ولا يحصى ، وابنى الأكبر حامد فيها ، تزوج بامرأتين من بنات كبار المسلمين» وهو يطيل الكلام عن المجر فى (المعرب دوبلر ، ص ٢٨ وما يليها) وكلامه كله حافل بالفوائد التاريخية والجغرافية ، وقد أقام هناك ثلاث سنين ، وترك ابنه حامدا هناك . والتفاصيل التى يقدمها تلقى ضوءا على طبيعة عمله وحياته فى تلك البلاد ، وإليك بعض فقرات منه «فلما وصلت إلى بلاد أُنْقُورِيَّة (يريد أونجريا وهى المجر ويكتبها الإدريسى أنكرية وياقوت الهنكر) وفيهم أمة يقال لهم باشغرد[1] ، من أول ما جاء عن بلاد الأتراك ودخل بلاد الأفرنج[2] ، وهم شجعان ، لا عدد لهم ، وبلادهم التى تعرف بأنقورية هى ثمانية وسبعون مدينة ، كل مدينة لها حصون ورساتيق وقرى وجبال وعناصير وبساتين كثيرة ،

---

(١) تكتب كما ذكرنا باشغرد أو باشغورد ، والأولى تجعل الإسم من فصيلة الأسماء الفارسية المنتهية بـ «جرد» بمعنى مدينة ، والثانية تجعله من الألفاظ الفنيه التى منها بـ «جور» و «أجور» بمعنى قبيلة وكان اللفظ مستعملا فى صورتيه للدلالة على أقوى القبائل الهنغارية أيام قيام هنغاريا الكبرى Hungria Magna وهو الوقت الذى زارها فيه أبو حامد . وقد ذهب بعضهم إلى أن باشغرد هو الأصل البعيد لاسم مدينة بوخارست ، وهو مستبعد Cf. Dubler, *Abū Ḥāmid*, 233 n. 3 وقد ذكر أبو حامد أن أنقورية (ربما كانت صحة قراءة الإسم أنقارية) أكبر مساحة من بلاد الروم ، أى الدولة البيزنطية ، وقال أنها تقطع فى ٢٠ يوماً ، ولا مبالغة فى ذلك ، فقد كانت مملكة المجر قد وصلت إذ ذاك إلى أقصى اتساعها وامتدت من جبال الكربات إلى البحر الأدرياتى ومن تاترا Tatra فى روسيا حتى اتصلت حدودها بحدود الدولة البيزنطية عند نهر مورافا ، أى أنها امتدت ما بين ٨٠٠ و ١٠٠٠ كيلومترا طولا ومثلها عرضاً Cf. Dubler, *op. cit.*, p. 221

(٢) أى من أول القبائل الأسيوية هجرة إلى الغرب واستقراراً فى أراضى الدولة الرومانية .

وفيها من أولاد المغاربة[1] آلاف ، لا عدد لهم أيضاً ، وفيها من أولاده الخوارزميين آلاف لا عدد لهم أيضاً . وأولاد الخوارزميين يخدمون الملوك ، ويتظاهرون بالنصرانية ويكتمون الإسلام ، وأولاد المغاربة لا يخدمون النصارى إلا فى الحروب ، وهم يعلنون بالإسلام . ولما دخلت بين أولاد المغاربة أكرمونى ، وعلمتهم شيئاً من العلم ، وأطلقت ألسنة بعضهم بالعربية . وكنت أجتهد معهم فى الاعادة والتكرار فى فرائض الصلاة وسائر العبادات ، واختصرت لهم الحج وعلم الموارث حتى صاروا يقسمون المواريث . . . » وهو فى أثناء ذلك يروى لنفسه شعراً هو مجرد نظم مثل :

العلم فى القلب ليس العلم فى الكتب ... ولا تكن مغرماً باللهو واللعب

ثم يقول إنه علمهم صلاة الجمعة ويضيف « فعندهم الآن اليوم أكثر من عشرة ألف مكان يخطب فيه يوم الجمعة ظاهراً وباطناً ، لأن ولايتهم عظيمة » ولا ندرى إن كانت هذه الآلاف العشرة من المواضع التى تخطب فيها الجمعة نتيجة لنشاطه هو ، وعلى أى حال فالرقم ظاهر المبالغة .

ثم يقول : « أقمت بينهم ثلاث سنين ، لم أقدر أدخل إلى أربعة من المدائن ، وتلك الولاية (أى بلاد المجر) من رومية العظمى ، وفيها جبال يخرج منها الذهب والفضة ، وتلك البلاد من أكثر البلاد رخاء ونعمة ، يكون الغنم عشرين بدينار ، والحملان والجداء ثلاثين بدينار ، والعسل خمس مائة رطل

---

(١) ذكر أولئك المغاربة كثير فى النصوص العربية الخاصة ببلاد وسط أوروبا وشرقها حتى بلاد الدولة البيزنطية ، بل وجدت جماعاتهم فى القوقاز وشمال شرقي إيران ، ولم يدرس أحد إلى الآن هذه الظاهرة . والغالب أنهم بقايا الجماعات المغربية التى كانت تقوم بالغزوات على شواطىء أوروبا الجنوبية وتستقر فى مراكز توالى غزواتها منها : ومن هناك كانت تنتقل كوحدات متماسكة أو أفراداً متفرقين إلى داخل أوروبا وتعمل لحسابها الخاص أو تدخل فى خدمة الدول القائمة ، ويلاحظ من كلام أبى حامد أن الكثيرين من أفرادها كانوا قد نسوا اللغة العربية .

بدينار ، والجارية الحسناء بعشرة دنانير . وفى وقت الغزو تشترى الجارية الجيدة بثلاثة دنانير ، والغلام الرومى [. . .] [١] ، واشتريت جارية مولدة ، أبوها وأمها واخوتها بالحياة ، اشتريتها من سيدها بعشرة دنانير ، بنت خمس عشرة سنة ، أحسن من القمر ، سوداء الشعر والعين ، بيضاء كالكافور ، تعرف الطبخ والخياطة والرقم ، واشتريت جارية أخرى رومية ، بنت ثمانى سنين بخمسة دنانير . . » ثم يروى أبو حامد كيف استطاعت هذه الصبية أن تستخرج « خمسة أقراص من الشمع الصافى كالذهب » من « حُبَّيْن مملوءين بالعسل شهداً بشَمْعه » اشتراهما بنصف دينار . ثم يضيف « وجاء منها ولد ومات ، فاعتقتها وسميتها مريم ، ورَغِبت أن تجئ معى إلى سجسين ، فخشيت عليها من أمهات الأولاد الترك الذين فى سجسين » أى أن حياة أبى حامد هناك كانت رخية سعيدة يستمتع فيها بأطايب العيش عن سعه ، فيتزوج وينجب وقد تخطت سنه السبعين سنة ، ويتأهل فى بلاد المجر مع أن له نساء أخريات فى سجسين على مقربة من بحر قزوين . ولم يكن هذا حاله وحده بل شاركه فى ذلك ابنه حامد ، فهو يقول (المعرب ، دوبلر ، ٣٤) « وتركت ابنى الأكبر حامدا فيهم ، وهو من أول يوم تركته عمره نيف وثلاثون سنة ، وتزوج بامرأتين من بنـات المسلمين المحتشمين ، ورزق أولاداً ، وهو شجاع فاضل ، كنت أعطيه على كل مسألة يحفظها فى حال صغرة نصف دانق » .

وكانت لأبى حامد هناك مكانة رفيعة ، فكان أشبه بالرئيس الروحى للمسلمين هناك ، يتصدى للدفاع عنهم والوساطة بينهم وبين ملك باشغرد ، ويبدى ذكاء عظيما ، ومن أمثلة ذلك أنه كان قد حرم على المسلمين شرب الخمر وأباح لهم « الجوارى وأربعة من الحرائر » فانكر الملك ذلك وقال : « ليس هذا من العقل ، لأن الخمر يقوى الجسد ، وكثرة النساء تضعف الجسد والبصر ؟ ودينُ

---

(١) بياض بالأصل .

الإسلام لا يكون على وقف العقل » (أى على ما يناقضه) فقلت للترجمان : « قل للملك : شريعة المسلمين ليست مثل شريعة النصارى ؛ والنصرانى يشرب الخمر على الطعام بمنزلة الماء ، ولا يسكر ، وذلك يزيد فى القوة ؛ والمسلم الذى يشرب الخمر إنما يطلب منه غاية السكر ، فيذهب عقله ، ويصير كالمجنون ، يزنى ويقتل ويكفر ، ولا خير عنده ، ويعطى سلاحه وفرسه ، ويضيع ماله فى طلب لذته ؛ وهم هاهنا جندك ، وإذا أمرته بالغزو لا يكون له فرس ولا سلاح ولا مال ، قد أهلكه فى الشراب ، فإذا علمت إما تقتله ، أو تضربه ، أو تطرده ، أو تعطيه خيلاً وسلاحاً يفسده أيضاً . وأما الجوارى والنساء ، فإن المسلمين يوافقهم النكاح لحرارة طباعهم ؛ وأيضاً فإنهم جندك ، فإذا كثر أولادهم كثر جندك » . فقـال : « اسمعوا من هذا الشيخ ، فإنه عاقل ، فتزوجوا ما شئتم ، ولا تخالفوه » . ذلك الملك خالف القسيسين ، واستبـاح الجوارى ، وذلك الملك يحب المسلمين » .

ومن أدلة المركز الكبير الذى وصل إليه عند ملك باشغرد أنه لما استأذنه فى الذهاب إلى سجسين اشترط عليه أن يترك ابنه حامدا عنده ، وأصحبه رجلا يسمى إسماعيل بن حسن « ممن كان يقرأ علىّ ، وهو من أولاد أمراء المسلمين الشجعان الذين يظهرون دينهم » وأعطاه الملك خطاب توصية إلى ملك الصقالبة « وختمه بالذهب الأحمر الذى فيه صورة الملك » وكان الملك قد طلب إليه أن يرسل له عدداً من «ضعفاء فقراء المسلمين والأتراك الذين يحسنون رمى النشاب» ، وقد فعل ذلك أبو حامد ، ويقول : « فجمعت لذلك الرسول جماعة من المسلمين الذين يرمون النشاب ، وأرسلت معهم تلميذاً من أصحابى ممن يحفظ شيئاً من الشريعة ، وقلت له : أَذْهَبُ إلى الحج وأرجع إليكم إن شاء الله على طريق قونية فلما ذهبوا إلى باشغرد ركبت البحر شهراً ، وقصدت أرض خوارزم ، وقد كنت دخلتها قبل ذلك » (المعرب ، دوبلر ، ٣٨ — ٣٩) .

ويبدو أن مقامه فى بلاد الصقالبة ، أى الروس لم يطل لأنه يتحدث عن مروره بها حديثاً سريعاً ؛ ولكن يبدو من كلامه أنه كان فى قاعدة ملكهم نفر من المسلمين فقد صحبه واحد منهم يسمى عبد الكريم بن فيروز الجوهرى ، كان هو الآخر قد اتخذ سجسين مركزاً لأعماله وترك فيها أهله ، وقد ترك عبد الكريم هذا زوجته فى سجسين ثم عاد إلى بلاد الصقالبة ، وعبر أبو حامد البحر الأسود فى شهر ، ودخل أرض خوارزم .

وصل أبو حامد خوارزم فى أواخر ٥٤٥/١١٥٣ ، ولم يطل مقامه هناك هذه المرة ، إذ خرج فى ٥٤٦/١١٥٥ إلى الحج ماراً ببخارى ومرو ونيسابور والرى وأصفهان والبصرة فى الغالب ، فأدى الفريضة ثم ذهب إلى بغداد حيث استقبله صاحبه الوزير عون الدين بن هبيرة وانزله فى داره . ولم يستقر أبو حامد فى بغداد طويلا ، لأنه كان يريد اللحاق بأسرته وابنه حامد فى باشغرد ، فسأل عون الدين أن يتوسط له لدى مسعود الأول سلطان سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى ليأذن له فى اجتياز بلاده إلى قونية ، ويفهم من نص التحفة (١٣٣ — ١٣٤) أنه سأل بعض الناس عن طريق قونية ، ولكنه لم يقُم بهذه الرحلة ، ربما لأن سنه العالية قعدت به ، إذ أنه كان إذ ذاك فى الخامسة والسبعين من عمره . وقد ظل فى بغداد حتى سنة ٥٥٦/١١٦١

ويرجّح دوبلر أن أبا حامد كتب «المعرب» مدوناً فيه رحلاته ومشاهداته فى سنة ٥٤٦/١١٥٥واهداه للوزير عون الدين . وفى سنة ٥٥٦/١١٦١ ذهب إلى الموصل حيث بقى عاما ، وهناك كتب «التحفة» استجابة لرجاء الشيخ معين الدين أبى حفص عمر بن محمد بن خضر الأردبيلى ، وهو مؤلف معروف ذكره بركلمان ونسب إليه كتاب «وسيلة المتعبدين» وقد فرغ أبو حامد من من كتابه «التحفة» كما تدل عبارة الختام فى ٣ ربيع الثانى ٥٥٧/٢٢ مارس ١١٦٢ — وفى ٢٠ رمضان من نفس السنة — نسخت منها نسخ كثيرة دفعة واحدة ، وبعد الفراغ من ذلك خرج إلى حلب فأقام فيها سنة ٥٦٠/

١١٦٥ ، ثم انتقل إلى دمشق حيث ادركته المنية فى سنة ٥٦٥/١١٦٩ — ١١٧٠ فى الثانية والتسعين من عمره .

تلك هى حياة هذا الرحالة الطلعة الذى قضى عمره يجوب الآفاق ويرمي بنفسه فى المخاطر يدفعه إلى ذلك شوق عظيم إلى المجهول ورغبة لا تخبو فى الوقوف على غرائب هذا الكون الواسع وبدائع صنع الله فيه . وانه لما يستثير الاعجاب أن نرى ذلك الغرناطى الذى غادر بلاده على رأس المائة الخامسة وهو فى السابعة والعشرين من عمره يقطع القفار والبحار من سجلماسة فى أقصى مملكة الإسلام غرباً إلى بخارى فى أقصى شرقها ، ثم يغامر بنفسه فى بلاد خارج دار الإسلام باحثاً عن الجماعات الإسلامية المتناثرة فى مساحات شاسعة تمتد من بحر آزوف إلى وسط سهل المجر عابراً بحر قزوين ثم يتخذ لنفسه داراً وأهلا فى سجسين إلى شماله ثم يصعّد مع نهر الفولجا حتى يصل إلى مدينة بلغار عاصمة أمة البلغار ثم يوغل فى بلاد الصقالبة فيزور عاصمتهم وهى كييف فيكون بذلك أول رحالة علامة يصل إلى هذا البلد ويتحدث عنه بـــل يسترسل إلى شمالها فيزور جوركان على نهر الدنيبر ثم يخترق الأرض إلى سهل المجر عابراً جبال الكربات ، وهناك يتخذ بيتاً وأهلا وينشر العربية بين جماعات المسلمين هناك ويعلمهم شرائع الإسلام ، ثم يعود خلال هذا الطريق الطويل حتى يصل بغداد ماراً ببخارى ومرو والرى . ولا يقعده الشّيخ بعد ذلك عن الحج إلى بيت الله الحرام ، ويفكر بعد ذلك فى العودة إلى المجر ، ويتخذ الأهبة لذلك ، ولكن السن — ولها حكمها — تقعد به فيستقر فى الموصل ، ثم يمضى إلى دمشق حيث تـــلاقيه المنية .

هذا الشوق إلى استجلاء المجهول الذى نراه عند المسعودى والمقدسى ، والذى سيظهر فى صورة أوسع فى حيـــاة ابن بطوطة إنما هو جزء من ذلك النزوع العلمى الذى ملأ قلوب أمة العرب فى عصور النشاط والازدهار ، وهو مظهر من مظاهر الحيوية العربية الدافقة التى ملأت العصور الوسطى نشاطاً وعلماً ، فلم

يكن أبو حامد يرجو من وراء هذا العناء كله رزقاً ولا كسباً ، فقد كان له فى بغداد مكان مرموق ، وكان حريا بأن يقر مكانه قانعاً برعاية الوزير عون الدين بن هبيرة ، إذ كان أبو حامد على علم وفهم كفيلين بأن يمهدا له أسباب الرزق فى أى مكان يحل به فى بلاد الإسلام ، ولكن الشوق إلى العلم والمعرفة دفعه إلى هذا الجهد كله ، وجعل حياته أقرب إلى الاسطورة ، ومكن له من أن يضيف إلى تراث العرب الجغرافى شيئاً جديداً فريداً فى بابه ، رأينا نماذج منه فيما سبق ، وسنرى نماذج أخرى فيما يلى من ذلك البحث .

مؤلفات أبى حامد

لم يصل إلينا من كتب أبى حامد إلا كتابان هما «تحفة الألباب ونخبة الاعجاب» و «المعرب عن بعض عجائب المغرب» أما ما ورد ذكره من كتب له مثل « عجائب المخلوقات[1] » الموجود فى المكتبة البودلية ، والذى ينسبه إليه يونس بويجس فليس من تأليفه ، وإنما هو مجموع من أحاديث العجائب مستخرج من مؤلفات يوسف الوراق وابن البيطار والهروى وغيرهم . أمّا ما يرد فيه من أن الذى صنفه هو أبو حامد فغير ممكن لأن ابن البيطار توفى بعده بثلاثين سنة .

ومثل ذلك «كتاب تحفة الكبار فى أسفار البحار» الموجود فى مكتبة أكاديمية التاريخ فى مدريد ، فهو مجموع من حكايات الغرائب صنف فى زمن متأخر ونُسِب إلى أبى حامد الغرناطي ، وقد نسبه إليه يونس بويجس أيضاً .

---

(١) انظر : بروكلمان : ١/٦٢٩ والملحق : ١/٨٧٨ ، ويونس بويجس ، ص ٢٣٠ وتعليقات جايانجوس على ما ترجم من نفح الطيب للمقرى إلى الانجليزية (لندن ١٨٤٠) جـ ١ ص ٢٥ وما يليها . انظر : سيزار دوبلر ، أبو حامد ، ص ١٣٢ ومقدمة جابرييل فيران لتحقيقه وترجمته الفرنسية لنص التحفة ، وقد سبق أن ذكرنا ذلك كله .

كتاب المعرب فى بعض عجائب المغرب

ذكرنا فيما سبق أن أبا حامد كتب هذا الكتاب بعد وصوله بغداد ٥٥٦/ ١١٦١ وأنه أهداه إلى الوزير عون الدين بن هبيرة . ويبدو من نص هذا الكتاب أنه أول ما كتب ، فليس فيه إشارة إلى كتاب سابق له .

وقد ورد ذكر هذا الكتاب بعناوين مختلفة فى المؤلفات التى أخذت عنه بعد ذلك ، وكذلك فى بعض نسخه ، ومن هذه الأسماء « نخبة الأذهان فى عجائب البلدان ، والمغرب عن بعض عجائب البلدان » وقد أخذنا هنا بعنوانه الوارد فى مخطوطة أكاديمية التاريخ بمدريد . وتوجد من هذا الكتاب إلى جانب تلك المخطوطة نسخة أخرى فى مكتبة جوتا برقم ١٥٣٥ (وقد درسها هارتويج ديرينبور وكتب عنها مقالا فى La Revue Critique, 1882, I, 210, n. 3 وتناولها بالبحث كذلك مقالٌ نُشر فى : Bolletino italiano degli Studi Orientali, N S 315 ، وتوجد منه نسخة أخرى فى مكتبة جامعة كيمبردج (انظر ملحق الكتالوج تحت رقم ٨٥٣) ولكن مخطوطة أكاديمية التاريخ فى مدريد (مجموعة جايانجوس رقم ٣٢) هى أحسن نُسَخِهِ وأكملها .

والكتاب صغير الحجم ، عدد أوراقه بحسب مخطوطتنا ١١٤ ورقه من القطع الصغير ، ولكنه حافل بالمادة الطيبة التى تلقى ضوءً على معارف أبى حامد وتدل على توفره على دراسة الفلك والتقاويم المختلفة . وهو يبدأ بفاتحة قصيرة يذكر فيها الوزير عون الدين ويفيض فى مديحه ويقول إنه أهدى هذا الكتاب إليه ، ثم يبدأ بذكر اسمه ولقبه ومكان ولادته . وبعد ذلك مباشرة يدخل فى ذكر العجائب فيذكر كهفاً تحت الأرض إلى جوار مدينة لوشه (Loja) فيه سبعة نيام منذ الزمن القديم يشبهون أهل الكهف ، ثم ينتقل إلى جبل الثلج المطل على غرناطة ويتحدث عن كنيسة قرب هذا الجبل عندها

شجرة زيتون عجيبة تزهر وتثمر الزيتون ويتم نضجه فى يوم واحد من أيام الربيع ، ثم يقول عن الأندلس : « بَنَت الجن لسليمان عليه السلام مدينة النحاس ، دورُها أربعون فرسخاً وعلو سورها خمسماية ذراع فيما يقال والله أعلم » ثم يذكر وصول موسى بن نصير إليها ، وكيف استحال عليه أن يقتحم أسوارها ، لأنه كلما صعد رجل من رجاله السور ضحك وألقى نفسه بداخلها ، ثم تبين له أخيراً أن « فى المدينة جناً يجرُّون من اطلع على المدينة والله أعلم » ثم يقول « وليس إلى ذكر ما جعله الله تعالى فى العالم من عجائب الأشياء سبيل ، والذى عاينا منها يسير من كثير » .

ولا يذكر أبو حامد عن وطنه الأندلس إلا أمثال هذه العجائب ، فهو يطيـل الحديث عن مدينة النحاس والألواح العشرة التى إلى جانبها والبحيرة المجاورة لها ، وما وجد فيها موسى بن نصير من « حِباب من النحاس لها أغطية من الرصاص مختومة ، فأمر الأمير موسى ففتح منها حِب واحد ، فخرج من ذلك الحب فارس كأنه من الذهب ، وفرسُه ورمحه أيضاً من الذهب فى رؤية العين ، وطار فى الهوا وهو يقول : يانبى الله لا أعود ! وفتح حِبا آخر فخرج منه فارس على فرس بيده رمح كأنه لهب النار ، وطار فى الهوا وهو يقول : يانبى الله لا أعود . . ! » .

وهو عندما يقف بطليطلة يذكر قنطرتها ويقول إن الجن بنتها لسليمان عليه السلام ، ويذكر سرقسطة باسم « المدينة البيضاء » ، ويقول أيضاً إن الجن بنتها لسليمان « فيما يقـال لا يدخلها حية ولا عقرب ولا شىء من الحشرات ، وفى رُستاقِها نوع من العنب وزن الحبة الواحدة عشرة مثاقل » فإذا عرفنا أن متوسط وزن المثقـال ٤,٥ جراماً ، كان وزن حبة العنب هذه ٤٥ جراماً ، ثم يقول : « وأخبار هذه البلاد وما فيها كثير ، وإنما أذكر منها الشىء الذى لا يوجد مثله فى الدنيا فيما رأيت » ثم يذكر تفاح شنتره الذى ذكره اليسع ،

ويقول إن محيط التفاحة ثلاثة أشبار (حوالى ٦٠ سنتمترا) ويضيف هنا عبارة لها مغزاها : «والعاقل يعرف الجائز والمستحيل ، وقدرة الله ومقدوراته لا نهاية لها ، ولا سبيل إلى الاحاطة بها» ثم يعود إلى مدينة النحاس ، فيورد شعراً يقول إنه أرسل به إلى خوارزم شاه من بلاد الترك ، ويختم هذا الشعر بقوله :

في الأرض آيات فلا تكُ مُنْكِرا   فعجائب الأشياء من آياته

ويتحدث بعد ذلك عن «البحر الأسود الذى يعرف ببحر الظلمات ، يحيط بأكثر بلاد الأندلس من ناحية مغرب الصيف والشتاء (كذا) وناحية الشمال . وفى آخر أندلس يكون مجموع (يريد مجمع) البحرين الذى ذكره الله تعالى فى القرآن» وهو يريد به مضيق جبل طارق ، وكلامه عن المحيط الأطلسى طويل ملخصه أنه يقسمه إلى بحرين : الأخضر وهو ما جاور الساحل ويصب فيه بحر الروم ، والبحر الأسود وهو ما بُعد عن الساحل ، ويقول إنه رأى فى ذلك البحر عجائب كثيرة منها حيوان بحرى يشبه أن يكون الأخطبوط ، وحيوان ملتصق بقـــاع البحر يبدو للرائى وكأنه عرجون عنب ، وسمكة أخرى كانت له معها حكاية طويلة لها ذنب مثل ذنب الحية ورأس مثل رأس الأرنب .

ثم يترك الأندلس ليتحدث عن عجائب جبل اللكام ، ثم عجائب جبـــل السَّراة فى بلاد العرب ، وجبل الراهون «الذى هبط عليه آدم عليه السلام من السماء بسرنديب ، جزيرة فى بحر الهند» ويذكر من عجائبه وآثار آدم فيه شيئاً كثيراً ، ثم يمضى فى ذكر جبال أخرى ويروى من عجائبها أحاديث أشبه بالخرافات .

ومن نهاية ورقة ١١٤ تتغير لهجة الكتاب تغيراً يستوقف النظر ، فأبو حامد يبدأ باباً عن «أوقات الصلاة ومعرفة الفَىء والزوال» ويريد بالفىء الظلّ وبالزوال تعامد الشمس ، وهو يبدؤه على طريقة المحدثين . ــ١ــ ثنا محمد بن عبد الله

الحضرمى قال : حدثنا هُدْبَه بن عبد الوهاب المروزى بمكة والحسين بن حرث قال . . . الخ » ثم يروى حديث نزول جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم وتلقينه إياه الصلوات فى مواقيتها .

ثم يُتبع ذلك بفصل عن « ذكر ساعات الليل والنهار فى الزيادة والنقصان » وهو يروى فيه عمن يسميه أبا العباس ويقول : « فالليل والنهار فى كل زمان عندنا ٢٤ ساعة والساعة ١٥ درجة ، وهى ٣٠ شعيرة ، وكل درجة ٦٠ دقيقة ، والدقيقة ٤٢ طَرْفَه ، فالليل والنهار ١,٨١٤,٤٠٠ طرفه على ما زعم أهل العناية بهذا الشأن » وهذا الحساب لا يصح إلا إذا قرأنا العبارة : « . . وكل شعيرة ٦٠ دقيقة » . ثم يصف بعد ذلك اختلاف الليل والنهار فى الطول والقصر بحسب شهور السنة ، وهو يحسب ذلك بالشهور الرومية والفارسية دون ذكر للشهور العربية ، والشهور الرومية عنده هى ما يسمى بالسريانية ، وهو لا يشير فى اثناء ذلك إلى شىء من تجاربه الشخصية ، فهو يقول مثلا قال : « أبو العباس : فأطول ما يكون النهار خمسة عشر (كذا) ساعة ، ويكون الليل حينئذ تسع ساعات » مع أنه سيقرر فى هذا الكتاب نفسه أن الليل فى بلاد الصقالبة ٢٠ ساعة فى الشتاء ، وهذا يدل على أنه أخذ هذه الفقرة كلها عن أبى العباس هذا ووضعها فى كتابه ، ودليل ذلك أنه يقول فى سياق الكلام : « فأنا مفسر ذلك على قدر أزمنتها إن شاء الله تعالى من يوم تأليفنا هذا الكتاب وذلك أول يوم من المحرم سنة ثمان عشرة وثلثمائة من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وعن أبى العباس هذا ينقل بعد ذلك أبوابًا عن « الزوال ومقادير الظل فى البلدان » و « معرفة استخراج الزوال » و « معرفة ما مضى من ساعات النهار وما بقى » و « معرفة طلوع الفجر » و « معرفة دخول شهور الفرس » و « معرفة سنة الكبيس الرومى » و « معرفة سنة الكبيس العربى » و « شهور العرب » و « إذا أردت معرفة أيام الشهور » .

وفى أثناء باب عنوانه « معرفة أيّات الستين » ينقطع الكلام فجأة فى آخر ورقة ٤٠ ا ، ويعود الحديث إلى مجمع البحرين ، ومعنى ذلك أن هذه الفصول الفلكية والتقويمية أقحمت فى الكتاب اقحاماً ، والغالب أن أبا حامد الغرناطى هو الذى أدرجها فى كتابه استجابة لرغبة الوزير عون الدين بن هبيرة ، ثم جاء الناسخ فبتر النص فى فصل منها وعاد إلى أحاديث العجائب .

وقد بحثت عن أبى العباس الذى أخذ منه أبو حامد الغرناطى هذه الفصول فلم أصل إلى بيان شافٍ ، ولكنى وجدت فى تحفة الألباب (ص ١٠٦) ذكراً لعجائبى يسمى أبا العباس الحجازى وكان ممن أقام بأرض الهند والصين أربعين سنة ، وكان الناس يحدثون عنه بالعجائب ، فقلت له : يا أبا العباس ، إنى سمعت عنك أشياء كثيرة من العجائب ، والآن أريد أن أسمع منك شيئاً عن عجائب خلق الله تعالى ، وكان الشيخ الإمام محمد بن أبى بكر [محمد بن الوليد] الفهرى (يريد الطرطوشى) حاضراً ، فقال أبو العباس : قد رأيت أشياء كثيرة ، ولا يمكن أن أحدث بها ، لأن أكثر الناس يحسبون أنها كذب ، فقال الشيخ الإمام أبو بكر : « يكون ذلك من العوام الجهال ، وأما العقلاء وأهل العلم فانهم يعرفون الجائز والمستحيل ، وذِكرُ عجائب خلق الله تعالى يستحبُّ التحدث بها إظهاراً لقدرة الله تعالى فى عجائب مخلوقاته » ، فقال أبو العباس : « دخلت جزيرة سرنديب ، وهى جزيرة عظيمة فى وسطها جبل الراهون الذى نزل عليه آدم عليه السلام . . . » فإذا ذكرنا أن كلام أبى حامد فى العجائب وقف عند ذكر عجائب الجبال ، وجبل الراهون هذا على وجه التحديد ، تبينا أن أبا حامد كان يتابع كلام أبى العباس الحجازى فيما ذكر من العجائب ، ثم استرسل فى النقل من كتاب له لم يذكر اسمه ، فجاء بهذه الفصول الفلكية والتقويمية ، ثم عاد إلى العجائب مرة أخرى . وربما كان كتاب أبى العباس هذا هو المشار إليه فى كتاب الأنساب للسمعانى منسوباً إلى من يسميه أبا العباس الصينى .

وفى سياق هذه العجائب يحدثنا أبو حامد عن «صفة البركان» فى جزيرة صقلية ، ويقول إنه مشرف على البحر الأخضر ، وكان أولى به أن يقول على بحر الروم ، ويطيل فى وصف البركان وما يخرج منه من حمم ، ويقول انه أقام فى البحر مقابل هذه الجزيرة خمسة أيام إذ «لم يكن لهم ريح» وفى اليوم السادس تحركت بهم السفينة إلى الاسكندرية ، ثم يذكر جزيرة مالطة ويقول إن فيها غنماً كثيراً مثل الجراد المنتشر ، ثم يذكر أنواعا شتى من حيوانات البحر الأبيض مثـل السرطانات الكبيرة وسمك يعرف بخنزير البحر وآخر يسمى الكوسج وثالث يسمى بالحبر بسبب ما يخرج من مرارته من مادة سوداء ، وأسماك أخرى ذات صفات وخصائص عجيبة منها واحدة تعرف بالمنـارة ، «فى طول المنارة الطويلة ، تخرج من البحر وتلقى نفسها على السفينة فتكسرها وتهلك من فيها ... »

ومعظم هذه الأسماك التى يذكرها ليست مخلوقات خرافية ، بل من بينها أسماك معروفة يصفها أبو حامد بغاية الدقة . ومن سمكة المنارة ينتقل أبو حامد إلى ذكر الاسكندرية وبعض عجائبها ، وحديثه هنـا حديث رجل عرف الاسكندرية وشاهد عجائبها مثل المغارات والانفاق المعروفة بالكاتاكومب ، وقد دخل أبو حامد فى واحد منها ووصفه وصفاً طويلا ، ثم يتحدث عن منارة الاسكندرية ، ويرسم صورة لها كما شاهدها ، وأبو حامد من آخر الرحالة الذين شهدوا المنارة فى تمام هيئتها وقبل تهدمها ، وقد وصفها معاصره الإدريسى بمثل وصفه ، وكلامه هنا يعتبر وثيقة تاريخية لها أهميتها ، لأن المنارة تهدمت بعد ذلك وزالت معالمها .

ثم ينتقـل بعد ذلك إلى ذكر عجائب مصر ، وقد أشرنا إليها ، ثم يستطرد إلى ذكر النجم سهيل ويورد أشعاراً ورد ذكره فيها . ومن هنا يدخل فى فصول فلكية عن «نجوم القبلة السيارة من المشرق إلى المغرب منازل للشمس والقمر» وهو يطيل وصف كل صورة أو جريدة نجمية ويرسم هيأتها على وجه

التقريب . ويتحدث بعد ذلك عن « المجرة وكيف الاستدلال بها على القبلة » وعن « الرياح الدالة على القبلة » و « ذكر جهة البلاد إلى بيت الله الحرام » وكلامه فى هذه الفصول الأخيرة دقيق يمكن وصفه بأنه علمى ، خاصة وهو يستند فيه إلى علماء كثيرين .

وبعد ذلك يتحدث عن « صفات الأرضين وطولها وعرضها ، وكلامه هنا اسطورى صرف ، لأنه يتحدث عن الأرضين الست الواقعة تحت هذه الأرض التى ذكرناها » ويذكر عرضها وما يسكنها من أمم وأسماء هذه الأمم وكذلك السماوات السبع .

ومن هنا ينتقل أبو حامد إلى « ذكر طول الأرض وعرضها » فيعود مرة أخرى إلى الكلام الدقيق بحسب مفهوم تلك العصور عن الأطوال والعروض ، ويلى ذلك « ذكر طول بيت الله والمسجد الحرام » ناقلا عن جغرافيين وكتاب عديدين ، ثم يتحدث عن البحار ، طولها وعرضها « ناقلا عن أبى العباس الذى ذكرناه » ، وكلامه هنا يشبه كلام معظم جغرافيى العرب من مشارقة ومغاربة .

ويختم أبو حامد هذا القسم الجغرافى من كتابه بالكلام عن الأقاليم السبعة ناقلا عن أبى العباس أيضاً ، وأبو العباس هذا يأخذ بقول الفرس القدماء فى تقسيم الأرض إلى سبعة أقاليم أو كشورات ، وهى أقاليم إيرانشهر ، والصين والروم وافريقية والعرب والهند والترك ، أى أنها ليست الأقاليم الجغرافيـة النظرية التى أخذها العرب عن اليونان وأثبتها الإدريسى على خريطته ، بل هى أقاليم بمعنى النواحى ، وهو يتابع الفرس فى قولهم إن إقليم ايرانشهر يتوسط الأقاليم الستة الأخرى « وهى محدقة به وهذه صورتها . . » ومن أسف أن الناسخ أسقط الصورة ، ثم يقول بعد ذلك : « قال — أى أبو العباس الحجازى — : وقسموا هذه الأقاليم السبعة أربعـــة أقسام ، فجعلوا منها إقليم ايرانشهر ، وسموه قلب الأرض ، والقسم الثانى إقليم العرب والهند ، والقسم الثالث إقليم الصين والترك ، والقسم الرابع إقليم الروم وإفريقية » ثم يطيـــل الكلام عن

ايرانشهر ويقول إنه خير أقاليم الأرض جميعاً ، ويروى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو كان العلم معلقاً بالثريا لنالته رجال فارس » . ثم يتحدث عن الأقاليم السبعة واحداً واحداً .

وبعد ذلك يتحدث عن الجبال ، ولكن حديثه هنا ليس عجائبياً بل واقعيا صرفاً فيه لمحات على طريقة المسالكيين فى ذكر المسافات والمراحل .

وصف أبى حامد لخوارزم وتركستان والقوقاز وجنوب روسيا وبلاد المجر

وبعد هذا الفصل يأخذ الكلام صورة وطريقة أخريين ، فإن أبا حامد يخصص بقية الكتاب (٩٧ — ١١٤) لوصف البــلاد التى عاش فيها سنوات طويلة من عمره ، وهى البــلاد التى سماها سيزار دوبلر ناشر ذلك القسم من الكتاب بالبلاد الأورو-أسيوية وتمتد المنطقة التى زارها أبو حامد ووصفها فى هذا الجزء من كتابه من خوارزم إلى سهل المجر ، وقد ذكرا أطرافاً من كلام أبى حامد عنها ، وهو كلام دقيق يعتبر من الأسانيد العلمية التى يمكن الاعتماد عليها فى التأريخ لهذه النواحى ووصف خصائصها الجغرافية سواء أكانت طبيعية أم بشرية .

وأبو حامد فى هذا الجزء من كتابه أصيل فى كلامه ، فهو يتحدث عما رأى وعاين ، ويصف النــاس والأشياء كما رآهم ورآها ، وهو يقول ما يقول فى أسلوب بسيط يقرب أن يكون عامياً وساذجاً ينم عن صدق رغم ما فيه من مبالغات هنا وهناك ، كهذا الرجل الضخم الذى لم يصل أبو حامد إلى حَقْوِه ، والحقو أعلى الفخذ ، ولم يكن أبو حامد بالقصير أو الدحداح ، وإنما هو وسط فى طوله ، ومعنى هذا أن ذلك الرجل الضخم لابد أن طوله كان ثلاثة أمتار ونصف ! وما أراد أبو حامد قوله هو أن الرجل كان مسرفاً فى طوله ، ومثل ذلك قوله فى سياق مشاهداته فى بلدة غوركومان ، من كبار بلاد الصقالبة

(الروس) إذ ذاك ، وتقع إلى الشمال قليلا من كييف : « ورأيت يوماً فى أصل شجرة حيواناً يشبه العظاية بيدين ورجلين ، كأن الله تعالى أخرجها من الجنة ، كأنها عُملت من الياقوت الأحمر الصافى ، الذى ينفذ به البصر فى صفائه ، ومن الذهب المجلىّ الصافى الذى ما شاهدت فى الدنيا مثله ، كأنها منظومة بصنعة وتأليف ، وتحيرت فى حسنها ، فأحاط أصحابى بها على الخيول ، وهى تنظر بعينين كأن السحر فى عينيها ، وتدير رأسها إلينا يميناً وشمالا ولا تتحرك ، ولا تبالى بنا البتة » ، والمراد هنا نوع من السَّلَمَنْدر Salamander ، ولم يصب دوبلر عندما قال (ص ٣٥٦) بأن المقصود هنا حيوان خيالى ، لأن أبا حامد لم يزد على أن وصف عظاية شمالية شديدة الحمرة وصفاً شاعرياً . ومثال ذلك أيضاً قوله فى وصف الثيتل : « وفى باشْغُرد (المجر) بقر وحشية كبار أمثال الفيلة ، جلد الواحد منها حِمل بغلين قويين ، ورأسه حمل عَجَلَة ، يصطادونها وتسمى الثيتل ، وهى من أعجب الحيوان طيب اللحم ، سمين ؛ وقرونها كبار طوال مثل أنياب الفيلة » (معرب ، دوبلر ، ص ٣٤) ، والمراد هنا الثيتل المجرى المعروف علمياً باسم Bos taurus وقد انقرض الآن ، وقد رآه فى القرن السادس عشر الرحالة هيربنشتاين Herbenstien وصوره تصويراً دقيقاً لا يخرج عن كلام أبى حامد[1] .

وليس أدل على دقة أبى حامد فى هذا الجزء من كتابه من ذلك الوصف المتقن لما يسمى بالاسكى Ski وهى ألواح الانزلاق على الثلج . (معرب ، دوبلر ، ص ١٦ — ١٧) ، قال : « والطريق إليهم (أى إلى بلاد اليورا[2]) فى

(١) Cf. Dubler, *Abū Ḥāmid*. 207.

(٢) ذكر هؤلاء اليورا البيرونى ونفر من جغرافيى المسلمين ، وهم مذكورون فى حولية كييف الروسية باسم يوجرا Jugra وتحدث عنهم ا. فيشر فى تاريخ سيبريا .

J. E. Fischer, *Siberische Geschichte*, 2 vols., St. Petersburg, 1768, I, 177 ff.

وذهب دوبلر (ص ٢٦٩) إلى أنهم من شعوب سيبريا القديمة — وربما كانوا الأجور Ogor أو الاستياكوس أو الوجول Woguls أو اليوراك Yorak من فروع الساموبين — وانهم هربوا قبل زمن أبى حامد بقرون كثيرة أمام البدو الطورانيين وأقاموا فى النواحى الباردة الممتدة شمال شرق الفولجا .

أرض لا يفارقها الثلج أبداً ، ويتخذ الناس لأرجلهم ألواحاً ينحتونها ، طول كل لوح باعٌ وعرضه شبرٌ ، مقدّم ذلك اللوح ومؤخره مرتفعـان من الأرض ، وفى وسط اللوح موضع يضع فيه الماشى رجله ، وفيه ثقب قد شدوا فيه سيورا من جلود قوية يشدونها على أرجلهم ؛ ويقرن بين اللوحين التى تكون فى رجليه بشندال طويل مثل عنان الفرس ، يمسكه فى يده الشمال ، وفى يده اليمنى عصى بطول الرجل ، وفى أسفل العصى مثل كرة من الثياب ، محشوة بصوف كثير ، مثل رأس الإنسان ، خفيفة ؛ يعتمد على تلك العصى على الثلج ويدفع العصى خلف ظهره ، كما يصنع الملاّح فى السفينة ، فيذهب على ذلك الثلج بسرعة ، ولولا تلك الحيلة لم يمكن أحد أن يمشى هناك البتة ، لأن الثلج على الأرض مثل الرمل لا يتلبد البتـة ، وأى حيوان مشى عليه يغوص فى ذلك الثلج فيموت فيه ، إلا الكلاب والحيوان الخفيف كالثعلب والأرنب ، فإنه يمشى عليه بخفة وسرعة . والثعالب والأرانب فى تلك البـلاد تبيَضُّ جلودها حتى تكون مثـل القطن ، وكذلك الذئاب أيضاً ، تكون فى ناحية بلغار تبيض جلودها فى زمان الشتاء » . وليس فى الدقة على هذا من مزيد ، بل أن أبا حامد رسم هذه الألواح بيده زيادة فى الايضاح .

ولا يطيل أبو حامد الكلام فى جهة من الجهات مثـل إطالته فى الكلام عن خوارزم ؛ وقد وصف هذا الاقليم الكثيرون من جغرافيينا ، ولكن كلام أبى حامد أحفل ما لدينا بالفائدة لأنه لا ينفق الوقت فى تعداد المدن والمسافات بينها ، بـل يهتم بالناس وهيئتهم وأعمالهم والأرض وحاصلاتها ومتاجرها ، ويقص ما اتفق له من العجائب وغريب الحكايات هناك ، وهى ليست عجائب خرافية ، بل أشياء تشبه ما نقرؤه فى كتب « صدق أو لا تصدق » المعاصرة ، فهى طرائف لا عجائب . وبوصف خوارزم يختم كتابه هذا وعبارته هنا جديرة بالذكر قـال : « وإنما ذكرت بعض ما شاهدته على طريق الاختصار ، ولو شرحت لأطال الكتاب ، والاختصار فيه كفاية . ولولا هؤلاء الأئمة الفضلاء

الذين سألونى ورغبوا فى جمع هذه الجملة لما تصديت لهذا المجموع ، إذ لست أرى نفسى أهلا للتأليف .

وخرجتُ من باشغرد سنة ثلاث وخمسين ؛ وخرجت من سجسين إلى خوارزم سنة أربع وخمسين ؛ وخرجت من خوارزم طالباً للحج فى ربيع الأول سنة خمس وخمسين فى شوال (١) . . . ؛ وحججت وعدت إلى بغداد . وقد أعاننى المولى الوزير عون الدين ، جلال الإسلام ، صفى الإمام ، شرف الأنام ، معز الدولة ، مجير الأمة ، تاج الملوك والسلاطين ، سيد الوزراء ، صدر الشرق والغرب ، مصطفى الخلافة ، ظهير أمير المؤمنين ـ أدام الله بنعمته كَبْتَ أعادى دولته ـ وأوصل إلى من خلعه الشريفة وماله وإفضاله ما أعجز عن عده وحصره ؛ وأخذ لى كتاباً من حضرة الخلافة — أدام الله على العالمين فى مشارق الأرض ومغاربها ظلها ، وكبت بالذل والصغار أعداءها — وكتب إلى صاحب قونية ابن الملك مسعود — رحمه الله — ليكون طريقى عليه إلى باشغرد ، لعل الله تعالى يسهل بالوصول والاجتماع بالأهل والأولاد ؛ وما ذلك على الله بعزيز ، وهو عليه يسير ، وهو على كل شىء قدير » .

وإذن فأبو حامد فى هذا الكتاب ليس جغرافياً صرفا أو عجائبياً خالصاً ولا رحالة فحسب ، إنما هو ذلك كله ، وقد أخطأه التوفيق فى نظم الكتاب ، فانتقل انتقالا سريعاً من مبحث لمبحث ومن أسلوب لأسلوب ، وحشد فى الكتاب فصولا كثيرة نقلها عن أبى العباس الحجازى دون أن يحسن الربط بينها وبين سياق الكتاب ، ولا يُعَلَّل إقحام هذه الفصول إلا بأحد أمرين : أما أن الوزير عون الدين طلب إليه ذلك أو أن أبا حامد أراد ألا يكون كتابه كله حكايات ونوادر وعجائب ، فضمنه بعض المباحث العلمية التى يحتاج

---

(١) هنا شىء سقط من الناسخ واختل السياق بسقوطه ، ولستقيم إذا أضفنا شيئاً مثل : [فوصلت الحجاز] فى شوال .

إليها الناس ، وهو فى هذا يجمع بين المفيد واللطيف كما يُقال ، ولو أنه قصر كتابه على مشاهداته فى البلاد الأورو-أسيوية وأطال فى ذلك كيف شاء لكان هذا الكتاب كله وثيقة جغرافية إجتماعية تاريخية ذات قيمة لا تقدر ، ولكن الأدب الجغرافى العربى على أيامه كان قد أخذ يتحول إلى أدب عجائب وغرائب ، ولم يعد الناس يطلبون كتباً جغرافية صرفة ككتلك التى ألفها أعلامُ المسالكيين والبلدانيين ، وإنما أصبح الناس على أيام أبى حامد يطلبون كتب تسلية وترويح عن النفس وإزجاء للفراغ ، ولم يكن لأبى حامد مفر من أن يصب كتبه على هذا القالب .

وأبو حامد من أوائل من اتجهوا بالعلم الجغرافى العربى هذه الوجهة العجائبية ، وقد أسرف الناس بعد ذلك فى هذا الباب حتى غدت كتبهم وكأنها صفحات من ألف ليلة ، ولم يشذ عن ذلك إلا أمثال أبى الفدا وياقوت ، فأما الأول فقد كان أميراً يؤلف لنفسه وهو فى سعة من العيش ، فلم يكن بحاجة إلى أن يطلب تسلية قارىء أو يلتمس إطراف وزير أو أمير ، وأما ياقوت فمن طلائع الموسوعيين المنهجيين ، وهو عالم متبحر جمع فأوعى ، فاقتدر على النجاة من التيار العام واستطاع الابتداع . أما أبو حامد فكان رجل رحلة وحركة وشوق إلى المشاهدة والتنقل لا يكاد يتسع وقته لجمع علم غزير أو الانكباب على تأليف كبير ، ومن ثم فقد كتب ما تيسر له استجابة لطلب راعيه وتَمَشِّياً مع ما كان الناس يستحبونه من أحاديث المستحيلات ، وهو نفسه يعتذر عن سوء تأليفه ويقول « لست أرى نفسى أهلا للتأليف » ولو وفق إلى ما وفق إليه ابن بطوطة من رجل مثل ابن جُزَى يأخذ عنه حديثه ويدونه ويصوغه فى قالب جميل لكانت مؤلفاته أحسن وأشمل ، أما وهو مشغوف بالرحلة مشغول بأهله الذين فرقهم فى نواحى الأرض ، فلم يكن يستطيع أن يفعل أكثر مما فعل ، وهو مشكور عليه ، وله مكانه الذى لا ينكر بين جغرافيينا .

كتاب تحفة الألباب ونخبة الاعجاب

كتب أبو حامد هذا الكتاب بعد « المُعرب » بسنتين ، فقد فرغ منه فى ٣ ربيع الثانى ٥٥٧/٢٢ مارس ١١٦٢ بعد خروجه من بغداد واستقراره فى الموصل فى كنف صديقه الشيخ معين الدين أبى حفص عمر بن محمد ابن الخضر الأرْدَبِيلى مؤلف كتاب « وسيلة المتعبدين »[1] الذى يثنى عليه أبو حامد ثناء طويلا فى فاتحة الكتاب ويقول : « ولم يزل أيده الله وأبقاه ، ومن المكاره وقاه ، يحثنى كلما كنت ألقاه أن أجمع ما رأيته فى الأسفار من عجائب البلدان والبحار ، وما صح عندى من نقلة الأخبار والثّقاة الأخيار ، فأجبته إلى ذلك ، وإن لم أكن هنالك[2] ، لِعُزُوب الفِطَن ، وضيق العطن ، وبعدِ الأهل والوطن ، وتشتت الأحوال ، وركوب الأهوال ، وطول الاغتراب والبعد عن الأحباب ، ومساورة العذاب . أسألُ الكريم المجيب ، أن يمن علىّ بالفرج القريب ، « ويرحم الله عبدا قال آمينا » ، ورأيت أن أسمى هذا المجموع « تحفة الألباب » وأرتبه على مقدمة وأربعة أبواب . فالمقدمة للبيان والتمهيد ، والأبواب لتتمة المقصود :

الباب الأول : فى صفة الدنيا وسكانها ، من إنسها وجانها .

الباب الثانى : فى صفة عجائب البلدان وغرائب البنيان .

الباب الثالث : فى صفة البحار وعجائب حيواناتها ، وما يخرج منها من العنبر والقار ، وما فى جزائرها من أنواع النفط والنار .

الباب الرابع : فى صفة الحفائر والقبور ، وما تضمنت من القفار إلى يوم النشور .

---

(١) انظر بروكلمان ، ملحق : ١/٧٨٣ — ٧٨٤

(٢) أى : وإن لم أكن أهلا لذلك .

ليكون ذلك سبباً للاعتبار وداعياً إلى الفرار من دار البوار إلى دار القرار ، جعلنـا الله وإياكم من الفائزين ، وأدخلنا برحمته فى عباده من الصالحين » .

وإذن فقد كتب أبو حامد كتابه هذا وهو يتطلع إلى العودة إلى المجر ليلقى أهله وأحبابه ، وقد تشتت ذهنه واستبد به حنين الشيخ إلى أهله وولده ليقضى معهم آخر أيامه . وقد كانت سن أبى حامد إذ ذاك ٨٤ سنة هجرية ، وهى سن تؤيد ما ذكره فى خطبة الكتاب ، وكلامه يُشعر بأنه كان يحس أن أمنيته لن تتحقق ، ولهذا فهو يرجو القارىء أن يقول «آمين» لكى تتيسر الأسباب لأبى حامد للعودة إلى باشغرد التى كانت قد أصبحت له وطناً ، وخلف فيها ابنه حامداً .

وإذا كان أبو حامد صادقاً فى تصوير حاله النفسية واعتذاره عن قلة تماسك الكتاب « بعزوب الفطن وضيق العطن » إلا أنه فاته أن تجربته الأولى فى التأليف نفعته عند ما أمسك القلم ليكتب كتابه الثانى ، فقد كتب كتابه الأول (المعرب) دون خطة أو ترتيب ، وقال انه « فى بعض عجائب المغرب » ثم لم يلبث أن خرج الأمر عن يديه فمضى يجمع الغرائب من كل مكان فى الدنيا ، وأعوزته مادة طيبة فأستعار فصولا من كتاب سابق ، ثم ارتد إلى عجائب المغرب ، ولم يدخل فى موضوع أصيل ذى قيمة مبتكرة إلا فى الأوراق العشرين الأخيرة من الكتاب كما ذكرنا .

أما فى كتابه الثانى فقد وضع للكتاب خطة قبل أن يكتبه ، وجعله — بناء على هذه الخطة — تمهيداً وأربعة أبواب ، والتزم هذا التقسيم فى كتابه التزام مؤلف يكتب فى موضوع محدود واضح أمامه ، ولا عجب والحالة هذه أن يلقى هذا الكتاب قبولا أكثر مما لقية كتابه الأول ، وأن يكون سبب ذيوع اسم أبى حامد وتواتر ذكره فى المؤلفات التى كتبت بعده .

ومخطوطـات هذا الكتاب كثيرة توجد فى مكتبات باريس ولينجراد والمتحف البريطانى وجوتا والجزائر ، وفى مكتبة باريس الأهلية وحدها خمس

مخطوطات منه ، ولقد لقى من عناية المحدثين مثل ما لقى من تقدير القدماء ، فعكف على دراسته نفر كبير منهم ، ونشروا منه قطعاً ، وترجموا قطعاً أخرى إلى لغـات أوروبيه شتى ، ونشره كاملا جابرييل فيران فى سنة ١٩٢٥ وعلق عليه شروحاً ضافية ذات قيمة علمية كبرى (١) .

وقد اهتم أولئك العلماء بأبى حامد لأنه من أوائل من اتجه بالعلم الجغرافى العربى نحو ما يسمى بعلم الكون أو الكوزمولوجية Cosmology فى الإنجليزية وعلم وصف الكون أو الكوزموغرافية Kosmographie - Cosmography فى

---

(١) Gabriel Ferrand, *Le Tuhfat al-Albāb* de Abū Ḥāmid al-Andalusī al-Garnātī, *Journal Asiatique*, Juillet - Septembre 1925.

وقد أورد فيران فى مقدمة تحقيقه للتحفة بياناً وافياً بكل الأبحاث التى تمت عن أبى حامد إلى سنة ١٩٢٥ . وأهم من درس أبا حامد وكتاباته إلى ذلك التاريخ ثلاثة : دورن الروسى وجيورج ياكوب وفرين الألمانيان .

وقد نشر دورن Dorn معظم ما كتب عن أبى حامد فى :

Mélanges Asiatiques tirés du Bulletin de l'Académie Impériale des Sciences de Saint Pétersbourg. المجلدات ٦ — ٨ فيما بين سنتى ١٨٦٩ و ١٨٧٣ ومقالاته فى هذا المجموع تدور كلها حول ما كتبه علماء المسلمين عن البلاد الشمالية وروسيا بصفة خاصة . ويهمنا منها ما نشره فى المجلد السادس (ص ٦٨٥ — ٧١٨) والمجلد السابع كله فهو يتضمن مختارات من تحفة الألبـاب وترجمتها إلى الألمانية بعنوان :

Über zwei für das Asiatische Museum Erworbene arabische Werke.

ونشر فى نفس المجلد نص كتاب يسمى « مختار من مختصر تحفة الألباب لمجالسة الأحباب » وهو مختصر للتحفة عمله محمد بن عاصم بن عبيد الله بن محمد بن ادريس الأندلسى الرندى .

وفى مقال آخر فى نفس المجموعة عنوانه .

Auszüge aus vierzehn morgenländischen Schriftstellern, betreffend das Kaspisbe Meer und angränzende Länder Mélanges, VI, 685-716.

ويلى ذلك فى نفس المجلد :

Die jetzigen Kubätschi, Eine Erläuterung aus Abū Ḥamid el-Andalusīs Nachrichten über diesen Volksstamm (p. 717-740).

أما جيورج ياكوب Georg Jacob فدراساته التى يدور البحث فى أثنائها عن أبى حامد فهى :

—*Der Nordisch - Baltische Handel der Araber im Mittelalter*, Leipzig, 1887.

—*Studien in arabischen Geographen*, Heft I, Berlin 1890; Häfte II, III, IV, Berlin 1892

وانظر أيضاً : A. Seippel, *Rerum Normannicarum Fontes Arabici*, Oslo, 1896-1928.

وبحث سيزار دوبلر المستفيض عن أبى حامد الغرناطي ، وقد سبق أن ذكرنا عنوانه كاملا .

الألمانية مع شيء من علم حركات الوحدات الكونية والبحث عن أسبابها وتعليل مظاهرها ، وهو ما يسمى بالكزموجونية Cosmogony . وقد اتجه المسلمون من زمن مبكر بهذا العلم نحو عجائب الكون ، ووصلت إليهم كتابات اليونان فى هذا الصدد من طاليس الملطى Thales of Miletus (حوالى القرن السادس قبل الميلاد) إلى بطاميوس الأسكندرى أو القلوذى كما يسمى فى الكثير من كتبنا ، وهو تعريب لاسمه الكامل Claudius Ptolemaeus ، ووصلت إليهم كذلك آراء الفرس والهنود فى هذا الباب ، وتناولها مفكر واسع العلم والذكاء كأبى الحسن المسعودى من وجهة النظر الكوزموجرافية و الكوزموجونية معاً ، واجتهد فى وصف المظاهر الكونية وتعليلها بما عرف عنه من النفاذ واصالة التفكير ، وتناول الموضوع من زاويته العلميـة الفلكية الرياضية أبو الريحان البيرونى .

وفى العصر الذهبى لعلم الجغرافية عند المسلمين خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين انصرف الناس عن الكوزموجرافية إلى وصف الأرض نفسها وتحديد علاقتها بالكون فى كلام مقتضب لا يتطرق إلى حديث العجائب ، ولكن العلم الجغرافى كله اتجه خلال القرن السادس وما يليه وجهة عجائبية صرفة ، أى أن هم الناس اتجه إلى البحث عن عجائب الكون والأرض والمخلوقات ووصفها والمبالغة فى ذلك الوصف على اعتبـار أن ذلك إظهار لقدرة الخالق سبحانه وتعالى على خلق المعجزات والعجائب وما لا يحيط به عقل البشر . وقد كتب المسلمون فى ذلك كثيراً جداً ، ومعظم ما كتبوه خرافى بعيد عن التصديق مما كان يلائم عقلية هذه العصور ، ولم يشذ عن هذا الانحدار بعض الشيء إلا قليلون مثل القزوينى فى كتابه « عجائب المخلوقات » والدميرى فى « حياة الحيوان الكبرى » ومن فى طبقتهما .

وعلى الرغم من أن أبا حامد الغرناطى كان رحالة جواب آفاق ، شهد من الأرض المعمورة إذ ذاك قدراً يبلغ النصف أو يشف قليلا ، وكان قديراً

بهذا على أن يكتب وصف رحلته على النحو المفيد الممتع الذى وصف به ما زار من البـلاد الأورو-أسيوية ، وعلى الرغم من اطلاعه الواسع فى الجغرافية والفلك ، وكان قديراً لهذا على أن يكتب كتاباً جيداً فى الجغرافية ، إلا أن ظروفه الخاصة واتجاهه الذهنى نحو أحاديث العجائب غلبت على ما ألف ، ثم إنه بطبعه لم يكن بصاحب بحث أو صبر على الكتابة والتدوين ، إنمـا كان محدثاً بارعاً يُطْرِف سامعيه بعجائب ما رأى وشاهد ، وإذا كان قد كتب فقد فعل ذلك مستجيباً إلى طلب أصحابه ومن اتصل بهم ، فدون — على رغمه — ما أحبوا أن يدونه ، ومن ثم فقد قصر كلامه تقريباً على الناحية العجائبية من وصف الكون ، فكان بهذا من أوائل من اتجهوا بالعلم الجغرافى نحو الكوزموجرافية العجائبية ، فبينما كان معاصره الإدريسى يتجه بالجغرافية وجهة علمية سليمة ويضع أسس الجغرافية كما ينبغى أن تدرس ، اتجه هو بالعلم تلك الوجهة الأسطورية التى لم تبق فيه من الجغرافية إلا اسمها ، والحسنة الوحيدة لهذا الاتجاه أنه قدم للقصاص الشعبيين مادة واسعة من أحاديث الخرافة صبّت بعد ذلك فى تيار الأدب الشعبى وظهرت فى حكايات ألف ليلة وما ماثلها .

واتجاه أبى حامد هذا الاتجاه أمر مؤسف حقاً ، لأنه مما يؤلم أن تجد رجلا قادراً على عمل شىء ثم يعمل ما هو دونه ، وقد كان الرجل قادراً على أن يضيف إلى ثروة العلم الجغرافى العربى شيئاً كما رأينا فى تلك الصفحات القليلة التى عرضنا مادتها ، وقد رأى أبو حامد أضعاف ما كتب وعمر نحو ثلاثين سنة زيادة على الإدريسى . ولكننا نتعزى فنقول إنه كان ابن عصره ، والناس فى كل زمان ومكان أبناء عصورهم إلا أن يكونوا أفذاذاً كالإدريسى وابن بطوطة وابن خلدون والمقريزى وياقوت الحموى ومن إليهم ممن خرجوا على حكم زمانهم وساروا بشعلة العلم العربى خلال ظلام عصورهم . والتيار الذى جعل الجغرافية فى يد أبى حامد علم عجائب ، هو نفس التيار الذى جعل الكثير من كتب التاريخ مدائح ملوك ودواوين الشعر مجموعات محسنات وتزاويق لفظية ،

وهو الذى مسخ أسلوب النثر سجعاً عقيما وجعل كتب الأدب مجموعات مختارات معظم ما فيها هزيل ، وكتب الفقه مختصرات وشروحاً على مختصرات . من هذه الزاوية نستطيع أن نقدر أبا حامد ونضعه فى مكانه الذى يرضاه له الإنصاف .

يبدأ أبو حامد مقدمته بترتيب العقول درجات « فعقول الملائكة والأنبياء أكبر [من عقول جميع العلماء ، وعقول العلماء أكبر] من عقول [جميع] العوام فى الدنيا ، وعقول العوام أكبر من عقول النساء ، وعقول النساء أكبر من عقول الصبيان ، وبقدر هذا التفاوت يقع الانكار لأكثر الحقائق من أكثر الناس لنقصان العقل ، لأن الذى يعرف الجائز والمستحيل يعلم أن كل مقدور بالاضافة إلى قدرة الله تعالى قليل ، فالعاقل إذا سمع [عجباً] جائزاً استحسنه ولم يكذب قائله ولا هَجَّنَه ، والجاهل إذا سمع ما لم يشاهد قطع بتكذيب وتزييف قائله ، وذلك لقلة بضاعة عقله وضيق باع فضله . . » (التحفة ، ص ٣٧) وهذا الكلام أشبه بالاعتذار عن غرابة ما سيروى بعدُ فى الكتاب من غرائب ، ثم يضرب مثلا للعجائب التى لا يصدقها إلا من عرف شأنها فيقول : ومن شهد حجر المغناطيس وجذبه للحديد ، وكذلك حجر [عرة] الماس[1] الذى يعجز عن كسره الحديد ويكسره الرصاص ، ويثقب اليواقيت والفولاذ ولا يقدر على ثقب الرصاص يعلم أن الذى أودعه هذا السر قادر على كل شىء . . » . وأبو حامد هنا ينقل ما سمع من غيره دون أن يتكلف عناء اختبار ما يقول ، ولم يكن هذا الاختبار عليه عسيراً ، وإذا التمسنا له عذراً فى مبالغاته عند الكلام عن حجر المغناطيس فأى عذر له فى القول بأن الرصاص يكسر الماس ، وكان فى استطاعته أن يجرب ذلك بنفسه ؟

ثم يبدأ الباب الأول « فى صفة الدنيا وسكانها من إنسها وجانها » فيقول : اعلم وفقك الله أن الدنيا عبارة عما فى ذلك القمر من الهواء والبحار

---

(١) هكذا ورد أيضاً عند القزوينى (عجائب المخلوقات ، ١/٢٣٦) .

والأرض وما عليها وما تحتها وما يحيط بها ، والمعمورة منها فيما يقال مسيرة مائة عام من ناحية الشمال مع ما يقارب ذلك من المشرق والمغرب ، وما سواه من الأرض ليس فيه آدمي لقرب الشمس وميلها على ما سوى الشمال ، وشدة سلطانها على ما سوى الشمال ، فإن الشمال بارد يابس ومغربه بارد رطب ومشرقه حار يابس . . . » وهذا كلام يستغرب من رحالة ساح فى معظم الأرض وقطع المسافة من سجلماسة إلى غرمكان شمالى كييف ، ولكنه هنا ناقل لا منشىء أو ناقد ، وتلك من خصائص عصر الانحدار : النقل دون مناقشة ودون استخدام العقول التى أفاض أبو حامد الكلام عنها فى المقدمة .

ثم يتحدث عن يأجوج ومأجوج ، وينتقل إلى أمم السودان فيتحدث عنهم حديثاً هو خليط بين المعقول وغير المعقول ، ونضرب صفحاً عن غير المعقول ، فهو كثير ولا محل له فى هذا البحث ، ونقتصر على أمثلة من المقبول الذى يمكن أن نخرج منه بشىء : « . . وأهل غانة أحسن السودان سيرة وأجملهم صوراً ، سُبُطُ الشعور لهم عقول وفهم ، ويحجون إلى مكة ، وأما فاوة وقُوقُو ومَلِّيّ وتكرور وغدامس فقوم لهم بأس وليس فى أرضهم بركة ولا خير ، ولا دين لهم ولا عقول ، وأشرهم قوقو : قصار الاعناق فُطس الأنوف حُمر العيون كأن شعورهم حب الفلفل ، وروائحهم كريهة كالقرون المحرقة ، يرمون بنبل مسمومة بدماء حيات صفراء لا تلبث ساعة واحدة حتى يسقط لحم من أصابه ذلك السهم من عظمه ، ولو كان فيلا أو غيره من الأفاعى . . » وقد كان أبو حامد حريا بأن يقول كلاماً أحسن وأدق من هذا ، فقد كانت هذه الأمم كلها معروفه المسلمين ، وقد كتبوا عنها كلاماً أحسن من ذلك بكثير .

ويتحدث بعد ذلك عن جلد جيد من جلود الماعز يؤتى به من بلد السودان ويصف خصائصه وصفاً طيباً ، ثم يتحدث عن حيوان اللمط وجلده الذى تصنع منه الدروع اللمطية ، واللمط نوع من الوعول شبيه بالبقر وإن كان

أقل منه حجماً ، أبيض الشعر أسود الظفر سريع العدو وشهرته ترجع إلى جلده الذى كانت تصنع منه الدروع اللمطية التى اشتهر بها المرابطون . ومن مؤلفينا من يذهب إلى أن لمطة قبيلة من صنهاجة [1] .

ثم يتكلم عن بعض أمم السودان ، فيثنى على أهل زبلع ، وينتقل إلى جزيرة العرب فيقول كلاماً غريباً لا ندرى كيف استجاز قوله عن جزء من الأرض معروف للمسلمين مثل جزيرة العرب : « عند صنعاء أمة من العرب قد مسخوا كل إنسان منهم نصف إنسان ، له نصف رأس ونصف بدن ويد واحدة ورِجل واحدة يقال لهم وبار ، هم من ولد إرم بن سام أخى عاد وثمود وليس لهم عقول ، يعيشون فى الآجام [و] فى بلاد الشحر على شاطىء بحر الهند والعرب تسميهم النسناس ويصطادونهم ويأكلونهم ، وهم يتكلمون العربية [ويتناسلون] ويسمون بأسامى العرب ، ويقولون الأشعار . . . » ثم يروى لهم شعراً ! .

ويمتدح أبو حامد بلاد الهند والصين امتداحاً طويلا ويقول عن أهلها إنهم أهل « الملك العظيم والعدل الكثير والنعمة الجزيلة والسياسة الحسنة . . . » ويذكر أنهم من أعلم الناس ، ويختم كلامه عن الصين بقوله : « ويحترمون التجار من المسلمين غاية الاحترام ، ولا يؤخذ منهم أعشار [فى بيع أو شراء] ولا مكس ، فياليت ملوك المسلمين اقتدوا بمثل هذه السياسة الحسنة ، فهم كانوا أحق بها ، ولكن ذلك للحكمة الالهية ، وذلك لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال : الدنيا سجن للمؤمن ، والسجن موضع الضيق والخوف ، ولا يكون ذلك إلا مع عدم العدل وكثرة الظلم والجور وقلة المال والخصب حتى يتحقق فى حق المؤمن السجنُ فى الدنيا . . » (ص ٥٠) .

---

(١) انظر تعليق فيران الطويل على هذا اللفظ ، ص ٢٤٨ تعليق ١

ويختم الباب — بعد حديث قصير عن الجان — بكلام عن الأرض والجبال والبحار «التى أحاط بها جبل قاف» وهو هنا لا يشير ولو من بعيد إلى كروية الأرض أو نظام الأفلاك ، كأنه رأى أن يهمل كل ما وصل إليه علماء المسلمين قبله مفضلا عليه كلاما خرافياً أخذه من مبالغات القُصّاص وشطحات الصوفيين ، ولا عجب فهذا الكتاب مُهدى إلى رجل صوفى .

أما الباب الثانى «فى صفة عجائب البلدان وغرائب البنيان» (ص ٥٥ وما يليها) فمعظمه أحاديث خرافة لا يستوقفنا منها إلا حديثه عن صنم قادس ومجمع البحرين (وهو عنده مضيق جبل طارق) ومنارة اسكندرية ، وهو هنا ينقل ما قاله فى «المعرب» حرفاً بحرف ، ويسترسل فى النقل فيذكر عجائب البنيان فى مصر بما فى ذلك من منارة عين شمس والأهرامات و«مدينة فرعون» وبربا أخميم ، وكل ذلك وارد أيضاً فى «المعرب» ؛ ثم يتحدث عن بعض عجائب البنيان فى الشام : حصن بعلبك ومدينة حمص ومدينة تسمى اللجاة فى حوران ، وينتقل إلى العراق فيذكر «تل عَقَرْقُوف» ويصف إيوان كسرى أو طاق كسرى وصفاً دقيقاً يدل على مشاهدة ، ولا عجب فى ذلك فهو يذكر أنه دخل إلى هذه الناحية من مدينة أبهر سنة ٥٢٤ ونزل عند القاضى أبى السَّرِى بن عطاء بن اسحاق الشيرازى ، وهو يذكر هذا الشيخ بعد قليل باسم أبى اليسر عطاء بن نبهان ، ويقول إنه كان من أصحاب الشيخ الامام أبى إسحاق الشيرازى ، وقد روى له هذا الشيخ ابنُ عطاء من عجائب البنيان فى فارس شيئاً كثيراً .

ثم يتكلم عن أردبيل وبلاد دربندا ، وقد أشرنا إلى كلامه عن هذه النواحى ، ويختم الكلام عن خوارزم وسخسين وما حولها معيداً ما ذكره فى المعرب .

والباب الثالث «فى صفة البحار وعجائب حيواناتها وما يخرج منها من العنبر والقار وما فى جزائرها من النفط والنار» (ص ٩١ وما يليها) يبدأ بكلام معقول

عن البحار بحسب نظرية أهل العصور الوسطى : « اعلم أن البحر المحيط — الذى أحاط بالدنيا والأرض فى وسط البحر كالكرة فى غدير ماء ، وهو البحر الأسود الذى يعرف ببحر الظلمات — لا تدخله السفن ، وبحر الهند خليج منه ، وبحر الصين خليج منه ، وبحر القلزم (البحر الأحمر) خليج منه ، وبحر الروم خليج منه ، وبحر اللاذقية (الحوض الشرقى من البحر الأبيض) خليج منه ، وبحر فارس خليج منه ، يمتد بعضه إلى البصرة وعبادان وسيراف وكرمان والبحرين [وجزيرة قيس] (هى جزيرة كيس فى الخليج الفارسى) والدَّيْبُل (ميناء صغير كان إلى جنوب بومباى على ساحل الهند) إلى [بلاد الحبشة إلى الزنج وإلى] سرنديب والصُّولِيّان (ساحل كروماندل) ، وكل هذه البحار التى ذكرتها وما لم أذكرها إنما أصلها من البحر الأسود الذى يقال له البحر المحيط ، وأما بحر الخزر (بحر قزوين) وبحر خوارزم (بحيرة آرال) وبحر الخلاط (بحيرة وان) وبحر أرميه (البحر الميت) والبحر الذى عنده مدينة النحاس (غير محقق وقد ذهب جودفروا ديمومبين إلى أن المراد به بحيرة تشاد) وغير ذلك من البحار الصغار فهى منقطعة عن البحر الأسود ، ولذلك ليس فيها جزر ولا مد ، وإنما هى [ماء له] مادةٌ من الأنهار الكبار ، وأكبرها بحر الخزر» ثم يتكلم بعد ذلك عن المحيط الأطلسى (الذى يسميه البحر الأسود) وعلاقته ببحر الروم و « مجمع البحرين الذى بينهما » كلاماً سبق أن ذكره فى المعرب ويسترسل فى ذكر أسماك عجيبة كثيرة سبق أن ذكر بعضها فى « المعرب » أيضاً .

ويتحدث عن جزائر بحر الروم فيذكر سردانية وصقلية ومالطة . وينتقل إلى جزائر بحر الهند والصين ، وهنا يذكر لقاءه مع الشيخ أبى العباس الحجازى الذى ذكرناه ، ويروى عنه خبر جبل الراهون فى جزيرة سرنديب . ويسترسل فى الرواية عنه ، ولكنه لا يروى فى هذه المرة فصولا عن الفلك والمواقيت بل أحاديث خرافة نراها كلها بعد ذلك فى « ألف ليلة » ، مثل الدهن الذى إذا ادَّهن به أحد لم تؤثر فيه السيوف حتى يغتسل « ومن شرب من ذلك

الدهن عشرة دراهم ولا يأكل لبناً ولا ما يتخذ من اللبن لم يضره الحديد البتة » ودهن آخر أعطاه إياه ملك الصين إذا دُهن به جرح زال ألمه والتحم فى وقته قبل أن يخاط فتق مثله ، ويروى أبو العباس هذا أن ملك الصين أهدى الأفضلَ بن أمير الجيوش شيئاً كثيراً من تحف بلاده . ثم يقول أبو حامد أن أبا العباس هذا اتخذ حمامات وخانات ودكاكين وأن له سبعة أولاد من سبعة أنواع من الجوارى : صينية وهندية وحبشية وسرنديبية وصوليانية من جزيرة الصوليان . . . وكان أولاده يتكلمون بالسنةٍ جماعةً ، وكان بعضهم يأنس بى وأعطانى من العود الفائق ومن ورق الصين أنواعاً زرقا وحمرا[1] [كلها] عليها تصاوير [الصين] بذهب أحسن من الديباج الرومى » (ص ١٠٧ — ١٠٨) .

وبعد ذلك ينتقل أبو حامد إلى الحديث عن طائر الرخ « الذى يكون فى جزائر بحر الصين » (ص ١٠٩ — ١١٠) ، وقد نقل كلامه الدميرى فى حياة الحيوان الكبرى وقرر انه ينقــل عن الجاحظ وأبى حامد ، وكلام هذا الأخير قريب جداً مما نجده فى قصة السندباد فى ألف ليلة .

ويتحدث عن الكركدن ، وهو الصورة الأسطورية التى يرسمها العجائبيون لوحيد القرن أو الخرتيت ، وهى مأخوذة عن كتابات أهل الصين والهند ، واللفظة نفسها أصلها سنسكريتى : خَضْجَدَنْتَا ثم حُرِّفت إلى كَرْكَدَن أو كَرْكَنْدْ ، ومعناها « الحيوان ذو السن على هيئة الحربة » وتصاوير الكركدن فى الرسوم الصينية القديمة شديدة الشبه بالتفاصيل الغريبة التى يحكيها عنه أبو حامد وغيره من كتّابنا ، مما يدل على أنهم لم يكونوا يخترعون وإنما ينقلون ما يروى لهم دون محاولة تحقيقه أو التفكير فى امكانه على الأقل ، فإن القول بأن جناح الرخ ١٠٠٠ باع يحتاج إلى تفكير ، لأن البــاع متران ، أى أن جناح هذا الطائر طوله كيلومتران ، وهذا أمر أظن أن أحداً لا يتصوره مهما

(١) انظر الترجمة الفرنسية للتحفة ، ص ٢٦٧ ، تعليق ١

اتسع خيـاله ، وكذلك القول بأن طول الكركدن ١٠٠ ذراع ، والذراع ٥٦ سنتيمتراً على وجه التقريب ، فطول هذا الحيوان ٥٦ متراً . والطريف أن أبا حامد يذكر بعد ذلك حمار الوحش ويصفه وصفاً دقيقاً كما هو فى الحقيقة وقد يكون حمار الوحش عجيبة فى نظر أبى حامد ، ولكنه لا يوضع فى نفس المستوى مع الرخ والكركدن أو الطاووس البحري الذى يصفه (ص ١١١) وصفاً شاعريا : « وقال لى رجل شريف يعرف بالهارونى من ولد هارون الرشيد أنه كان فى بحر الهند فرأى طاووساً قد خرج من البحر أحسن من طاووس البر وأجمل ألواناً ، فكبَّرنا لحسنه ، وجعل يسبح فى البحر وينظر إلى نفسه وينشر أجنحته وينظر إلى ذنبه ساعة ، ثم غاص فى البحر » وقد نقل هذا الخبر الأبشيهى فى المستطرف عن أبى حامد ، وقال إن هذا رواه عن أبى العباس الحجازى ، ولا ذكر لأبى العباس هنا عند هذا الأخير .

ثم يذكر طيراً مصريا فى هيئة العقاب يعيش على سمك النيل ، ويقول إنه يصيح فى الجو « الله فوق الفوق ! بكلام فصيح يسمعه النـاس من بُعد وهو نوع كثير على نيل مصر » (ص ١١٢) والغالب إنه يريد الكروان ، والناس فى مصر يقولون أنه ينشد فى السماء « الملك لك لك ياصاحب الملك » وما نسمعه على الألسنة فى مصر إنما هو بداية الاسطورة التى استقرت فى كتب العجائبيين على هذه الصورة .

وينتقل إلى بحر الخزر ، وهو بحر عَرَفَهُ وركب مياهه ، فيذكر بعض عجائبه ويقف طويلا عند منطقة البترول قرب باكو . وقد تحدث عن هذا البترول المسعودى (مروج الذهب ، ٢/٢١) : « والروس انتهوا إلى ساحل النَّفـاطة من مملكة شروان المعروفة ببَاكُه » ، ولكن أبا حامد يفصل الأمر تفصيلا طيباً : « وفى مقابلة هذه الجزيرة على جانب البحر أرض سوداء كالقِير ينبت فيها الحشيش ، وفيها أنواع من الوحوش ، ويخرج من تلك الأرض السوداء القير والنفط الأبيض والأسود ، وهى قريبة من باكوه من عمل

شروان ، ويظهر فى الليـل فى تلك الأرض والجزيرة نار مثل نار الكبريت زرقاء ، تشتعل ولا تحرق الحشيش ولا حرارة لها ، وإذا نزل عليها المطر زادت واشتعلت وعلت ، يراها الناس من بعيد ، وليس لها فى النهار أثر . . . » وهو كلام واضح عن البترول والغاز الطبيعى ، لولا ما فيه من القول بأن نار الغـاز الطبيعى لا حرارة فيها وأنها تنطفئ فى النهار ، والحقيقة أنها دائمة الاشتعال ، ولكن لهبها الأزرق لا يرى فى ضوء الشمس .

ثم يصف نهر إتل (الفولجا) ويكرر الكثير مما قاله فى المعرب ويضيف عجائب أخرى مثل السمكة الآدمية ، ووصفها عنده شبيه بوصف جِنِّيَّة البحر فى ألف ليلة .

وينتقل إلى الباب الرابع « فى صفـات الحفائر والقبور وما تضمنت من العظام إلى يوم البعث والنشور (ص ١٢٠ وما بعدها) ، وهنا يعيد ذكر كهف لوشه Loja قرب غرناطة الذى وصفه فى المعرب ، ثم يشير إلى عذاب الظالمين فى قبورهم ، ويذكر على سبيـل المثال حكاية واحد من الظـالمين فى بلدة غرناطة بنى لنفسه « قبراً من الرخام ذا قُبَّة جميلة ، فتقطع ذلك الرخام واسودَّ واحترق واسودت القبة من الدخان الذى يخرج من قبره حتى صارت كالأتون ، ولم يدفِن أحدٌ بقربه ميتـاً ، وكنت أذهب مع الناس إلى قبره للاعتبار ، ونأخذ من سواد دخان قبره كما يؤخذ من الأتون السوادَ ، وهذا عذاب ظاهر ، وأمثاله [فى الدنيا] كثيرة » وهو يسمى هذا الظالم قِراح ، وإذا كان ولا بد أن نصدق أبا حامد فلا بد أن ناساً أحرقوا قبر هذا الرجل بعد موته فصار القبر إلى هذه الصورة ، لأن قبور الظالمين لو كان يصيبها هذا حقاً لرأينا من هذا القبر ألوفاً .

ويورد بعد ذلك أمثلة كثيرة من عجائب عذاب الظالمين فى قبورهم منها واحد يدور على عذاب أبى جهل منسوب إلى عبد الله بن عمر ، وينتقل إلى عجائب القبور فى مصر ، وهو باب أكثر مؤلفونا الكلام فيه ، ثم ينتقل إلى

« المغرب الأعلى قريب من القيروان » وهو يريد هنا ما يعرف بافريقية ، وهى تونس فيذكر « قبر محرز المعلم » ، ثم يعود إلى مصر ، ومصر أم العجائب كما يقولون ، فيروى حكاية رجل يسمى عفان وقعت له قصة طريفة مع عبد زنجى له ، والحكاية طويلة ، وقد انتقلت برمتها إلى ألف ليلة . ثم يختم الكتاب « بحكايات عجيبة فى أمر أمير المؤمنين على بن أبى طالب وظهور قبره بعد الثلاثين وخمسمائة فى ناحية بلخ » .

وقد أورد فيرّان بعد ذلك قطعة من « التحفة » وجدها فى مخطوط الجزائر وليس لها وجود فى مخطوطات باريس ، وهى تدور حول وصف القسطنطينية ، ومن الغريب أن أبا حامد يسميها رومية العظمى . وفى نهاية القطعة يتكلم عن باشغرد (يكتبها باشغورد) ويعيد كثيراً من الكلام الذى سبق أن ذكره فى المعرب حرفاً بحرف تقريباً .

وفى هذه القطعة يمر بذكر الأندلس قائلا : ومما فى جزيرة الأندلس أن ابن حازم ذكر فى رسالته التى وضعها فى وصفها وذِكر خصائصها وطبائع أهلها أن أرضها شامية فى طيبها ، تهامية فى اعتدالها واستوائها ، أهوازية فى عظم جبايتها ، عدنية فى منافع سواحلها ، صينية فى معادنها ، هندية فى عطرها وزكائها ، وأهلها عرب فى العزة والانفة وفصاحة الألسن وطيب النفوس وإباء الضيم وقلة احتمال الذل والنزاهة عن الخضوع ، هنديون فى فرط عنايتهم بالعلوم وحبهم لها ، بغداديون فى ظرافتهم ونظافتهم ورقة أخلاقهم ونباهتهم ولطافة أذهانهم ودقة أفكارهم ، نَبطيون فى استنباطهم المياه ومعاناتهم للغراسة وتركيب الشجر والفلاحة ، صينيون فى اتقان الصناعة العملية وأحكام المهن الصُّوَرِية ، تركيون فى معاناة الحروب ومعالجة آلاتها والنظر فى مهماتها [1] .

---

(١) التحفة ، ص ١٩٩ — ٢٠٠

وظاهر أن ابن حازم المذكور هنا هو ابن حزم ، لأنه هو الذى كتب الرسالة المعروفة فى فضل الأندلس ، ولكن نص الرسالة كما احتفظ به المقرى لا يضم هذه العبارة ، وهذا طبيعى ، لأن هذه العبارة على الحقيقة لأبى عبيد البكرى ، ولكن نصها كما أورده المقرى فى النفح وابن عبد المنعم الحميرى فى الروض المعطار ، وكما قارنه ليفى بروفنسال بأصله فى القطع الباقية عن الأندلس من المسالك والممالك للبكرى [1] لا يصل إلى كماله كما أورده أبو حامد الغرناطى ، ولا يمكن القول بأنه أضاف إليه من عنده ، فأسلوب هذه القطعة أعلى بكثير من أسلوب أبى حامد ، ولا يبقى بعد ذلك إلا أحد فرضين : إما أن مخطوط المسالك والممالك مختصر للكتاب الأصلى بدلالة هذه القطعة الباقية ، وإما أن واحداً من الناس تناول نصه بالتحسين والتزويق ، وعلى هذه الصورة رآه أبو حامد ونقله ناسباً إياه إلى ابن حزم ، ولم يكن الرجل كما رأينا ذا ميل إلى الكتب ومطالعتها أو ذا معرفة بكلام ابن حزم ونص رسالته ، فأورد الكلام كما هو دون تدقيق كبير ، وهذا مثال واضح من طريقته فى النقل عن الأصول وإيراد النصوص .

وينتقل بعد ذلك إلى عجائب بلد اسمه حمص فى ناحية كرمان ثم إلى بلاد التبت فيقول إن من أقام فيها ، « اعتراه سرور لا يدرى ما سببه ، ولا يزال مبتسما ضاحكا حتى يخرج منها » .

وبعد أن يمر بعجائب كثيرة فى بلدان شتى يأتى بفصول قصار (ص ٢٠٧ وما يليها) تتضمن أحكاماً موجزة عن البلاد ، وهذه الأحكام أشبه بالحِكَم فالهند « بحرها دُرٌّ وجبلها ياقوت وشجرها عود وورقها عطر» وكرمان « ماؤها وَشل وثمرها دقل [2] وعودها بَهل » . . . وطريف منه قوله « والشام عروس بين نساء جلوس ، ومصر هواؤها راكد وحرها متزايد ، تطوّل الاعمار وتسوِّد الأبشار » .

---

(١) نفح الطيب ، ١/ ١٢٥ ، الروض المعطار ، ص ٣

(٢) الدقل أردأ أنواع التمر (لسان العرب) .

ثم يقول : « فصل : ونذكر خصائص البلاد العملية ، فيقال حكماء يونان وأطباء جنديسابور وصاغة حران وحاكة اليمن وكُتَّاب السواد » ، ثم : « فصل : ونذكر خصائص البلاد فى الأحجار ، فيقال فيروج (فيروز ؟) نيسابور وياقوت سرنديب ولؤلؤ عمان وزبرجد مصر وعقيق اليمن وجزع ظَفار ونجاد[1] بلخ ومرجان افريقية » ثم : « فصل : نذكر خصائص البلاد فى الحيوانات ذوات السموم ، فيقال : أفاعى سجستان وثعابين مصر وعقارب شهرزور وحرارات الأهواز وبراغيث ارمينية وفأر أرْزَن ونمل ميافارقين وذباب ندفافان (يصححها فيران فى الهامش تل فافان) و « فصل : ونذكر خصائص البلاد فى الملابس ، فيقال برود اليمن وقُصُب مصر وديباج الروم وخز السوس وحرير الصين وأكسية فارس وحُلل اصبهان وسقلاطون بغداد وعمائم الاُبلَّة ومُسَيَّر الرَّى ومُلَحَّم مرو » وهذه الضروب من النسيج كلها واردة مشروحة فى معجم الملابس العربية لدوزى .

ويستطرد أبو حامد فى هذه الفصول القصار التى تعتبر من أحسن ما فى كتابه ، وكلها نُقول عن ناس يصرح باسمائهم حيناً ويغفلها حيناً آخر ، ويطيل النقل عن الجاحظ دون أن يذكر من أى كتبه يأخذ .

هذا هو كتاب تحفة الألباب ، وهو كما يرى خليط عجيب من المفيد وغير المفيد ، من الواقعى والاسطورى ، مما يدخل فى نطاق العلم وما يدخل فى نطاق علم العوام والقصص الشعبى ، ولكنه فى مجموعه كتاب كوزموجرافية ، أى تصوير لعجائب الكون والأرض بصفة خاصة . وهذه هى الصورة التى أعطاها أبو حامد لعلم الجغرافية ، وهو نفسه لم يدرك أنه يكتب فى هذا العلم ولا ذكر اسمه مرة واحدة ، ولكنه صاغ مادة كان يمكن أن تكون جغرافية فى هذا الأسلوب ، ووضع بذلك نموذجاً سيحتذيه الكثيرون بعده مثل « تلخيص الآثار وعجائب

---

(١) صحته البجادى أو البيجاذق وهو حجر كريم كان معروفاً فى العصور الوسطى . انظر تعليق فيران ، ص ٢٠٩ هامش ٢

الواحد القهار » للباقَوى ، و « نُخْبة الدهر فى عجائب البر والبحر » لمؤلف مجهول و « كتاب جامع الفنون وسلوة المحزون » لمجهول أيضاً ، و « خريدة العجائب وفريدة الغرائب » لابن الوردى ، و « نزهــة القلوب » لحمد الله المستوفى و « المستطرف من كل فن مستظرف » للابشيهى ، وأحسن هذه الكتب جميعاً هما « عجائب المخلوقات » و « آثار البلاد » لزكريا بن محمد بن محمود القزوينى ثم « حياة الحيوان الكبرى » للدميرى .

وهذه كلها (فيما عدا الثلاثة الأخيرة) كتبت للتسلية لا للعلم ، فكل ما فيها من أدب وتاريخ وجغرافية لم ينظَر فيه إلا لجانب الطرافة والعجب ، والقطع الجغرافية فيها عجائبية الطابع ، وهى تعطينا فكرة عن تصور الناس للجغرافية فى عصور الاضمحلال ، وإذا كان الجغرافيون الأُوَل قد كتبوا فى « صورة الأرض » فان الغالب ابتداء من أيام أبى حامد ومن سار على طريقته هو « تصور الأرض » ، تصوُّرُها فى هيئة أعاجيب وغرائب ، وهذا التصور ناتج من غلبة الجهل وهبوط الهمم وقلة التطلع ، وهو قائم على الخوف من الشرور الكثيرة التى امتلأت بها الأرض فى تصور أهل عصور أخذ الركود يخيم عليها شيئاً فشيئاً ، ويستثنى من ذلك أولئك الأفذاذ الذين أشرنا إلى بعضهم ، أولئك الذين خرجوا على نطاق عصورهم وحافظوا على شعلة العلم والنور والحضارة والدنيا من حولهم ظلام .

ونضيف إلى هذا الكلام عن أبى حامد حُكما عاما أصدره عليه آخر من درسوه قبلنا وهو سيزار دوبلر ، فقد قال فى آخر مقدمته الضافية للقطعة التى نشرها « من المعرب فى عجائب المغرب » : « وسنختم هذا الكلام بمقارنة ، ونسأل : ما هى الغاية من كتاب أبى حامد ؟ إن المؤلف ليس علاّمة ولا يقول إنه علامة ، ومن هنـا فانه لا يرمى إلى هدف تعليمى ، والأمر الوحيد الذى طلبه هو تسلية جمهوره ، ومن هنا جاء اهتمامه الدائم بتقديم استطراد

بعد آخر ليُزهى بحشد مجموعه المتنوع اللطيف من الحكايات والأقاصيص . ولكن ألم يكن هذا الهدف الرئيسى نفسه هو الذى رمى إليه هيرودوت بأساليب مشابهة قبل أبى حامد بخمسة عشر قرناً ؟ [١] » .

« فإن مؤلف هاليكارناسوس[٢] لا يَنْفَكُّ يُدخل فى صلب كتابه حكايات معترضة لا تزال تستثير اهتمام مطالعِه إلى الآن بسبب ما تضمه من الفائدة الواقعية . لقد اشتهر الرجل أكثر بأوصافه الأثنولوجية ، ولكن هناك نقطة من كتابه تنتهى عندها هذه الحكايات المعترضة ، وذلك عند ما يستبد به الحماس الوطنى وهو يقص أخبار حروب اليونان والفرس . وهذه الفقرات التى تدور حول تلك الحروب وما تضمنه كتابه من اشارات اثنوجرافية تفيض بالحقائق ، هذان العنصران هما اللذان جعلا الناس يلقبونه بعد موته بأبى التاريخ . ولكن هيرودوت رغم كل الحقائق الكبيرة التى يعرضها لم يكن هدفه التعليم أو إثارة الحماس ، إنما كان هدفه الأخير هو امتاع جمهوره فترة من الزمن . وهيرودوت لم يكن إلا القصاص الشرقى فى ملابس اغريقيه ، إذ أنه فى عصره كما كان الحال فى أيام أبى حامد بلغ هذا التصوير الساذج لروحية الشعب درجة أدبية رفيعة المستوى » .

« ودون أن نحاول — بصورة عامة — أن نقارن هيرودوت بصاحبه المسلم الذى عاش فى القرن الثانى عشر ، نقول إنه ليس من العسير أن نلاحظ بين الاثنين وجوهاً ظاهرة من الشبه : كلاهما ضمّن كتاباته فقرات ذات قيمة تقريرية كبيرة لا تنكر ، وكلاهما لجأ إلى الاستطرادات كوسيلة أسلوبية ، وكلاهما يستحوذ على اهتمام جمهوره بمهارة القصاص الشرقى المعروفة فى كل العصور . وهناك أكثر من ذلك ، فإن كلام هيرودوت عن صور الحكم (٣/ ٨٠ وما يليها)

---

(١) Dubler, *Abū Ḥāmid*, p. 140.

(٢) المراد هنا هيرودوت .

— الذى ينتهى بمناقشة حامية حقيقية — مشهور بما ينطوى عليه من روح هيلينى خالص ، ولكنه مشهور أيضاً بما فيه من تشويق بسبب تلك الصورة الأدبية الجديدة ذات الطعم الشرقى الذي يتضمنها . وكان هيرودوت أول من استعمل هذا الأسلوب فى العالم القديم ، ثم أعقبه فى ذلك مقلدون كثيرون من أمثال توكيديد وبُوليبيُوس وتاكيتوس وغيرهم من المؤرخين اللاتين ، وهذه الطريقة نفسها يستخدمها أبو حامد عندما يروى محادثته مع ملك المجر ، ولن نناقش الآن ما إذا كانت هذه المحادثة حقيقية أم لم تكن ، ولكننا سننظر إليها كما هى : مناقشات مع ملوك فى موضوع الدين ، وهذه المناقشات كثيرة فى الأدب الشرقى فى العصور الوسطى ، وخاصة فى مجال التحدث بفضائل عقيدة المؤلف . وإذا كانت مسألة صورة الحكومة أو نظام الحكم مهمة بالنسبة لهيرودوت فقد كان لمسائل الدين نفس الأهمية فى العصور الوسطى ، وأبو حامد — وهو رجل عارف باهتمامات عصره — يلجأ إلى نفس الطريقة الأسلوبية ، وهى طريقة الحديث مع ملك فى الموضوع الذى يهم قراءه » .

« ولكن هيرودوت لم يستطع أن يتخطى عصره ونطاق ثقافته ، وكتابُه الرئيسى لا يستطيع ولا يصل إلى تحقيق ما أراد منه . ولقد تمسك اليونان القدماء بحقهم فى كتابه ، وأصبح هذا الكتاب الملئ بالاستطرادات — والذى لم يكن يرمي من ورائه إلا لتسلية سامعيه — جزءً من التراث القومى الهيلينى . أما أبو حامد ، وهو رجل دقيق الملاحظة ، فقد فهم عقلية جمهوره على صورة أحسن مما وفق إليه هيرودوت ، وأصبحت كتاباته فى نطاق الأدب العربى طليعة لغيرها ، وقدمت للناس شيئاً من تفاصيل حكايات ألف ليلة ، وهذه الحكايات كانت خلال العصور الوسطى المساهمة الأساسية التى قدمها الفكر الإسلامى للأدب العالمى [1] » .

---

(١) Dubler, *Abū Ḥāmid*, 139-141

وقد أفرد اغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكى لأبى حامد فقرات طويلة من كتابه الجامع « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » استصفى فيها كل ما كتب عنه منذ أيام دِرْبلو d'Herbelot ، ولكنه لم يقرأ دراسة دوبلر ، لأنها ظهرت بعد وفاته بسنتين ، ولهذا نجده يقول أن مادة أبى حامد عما زار من البلاد الأورو-أسيوية تنتظر بحثاً خاصاً .

وختم كراتشكوفسكى كلامه عن أبى حامد بعبارة غاية فى الأهمية نَسوقُها فيما يلى كما وردت فى الترجمة العربية البديعة التى قام بها الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم[1] :

« ومن المستحيل تجاهل الغرناطى فى تاريخ الأدب الجغرافى ، فهو قد اكتسب شهرة عريضة لدى جمهرة القرّاء ، لأن المنهج الذى ابتدعه فى الجمع بين معطيات واقعية دقيقة وضروب من العجائب مختلفة فى وحدة كوزموغرافية قد راق كثيراً للأجيال التالية . وقد اتسعت قراءة مصنفه واستنساخه بصورة ملحوظة ، كما حفظ لنا شذرات كبيرة منه كوزموغرافىُّ القرن الثالث عشر القزوينىُّ واستعمله كل من ابن الوردى وابن إياس فى بداية القرن السادس عشر ، ولم يقف عدد من نقلوا عنه عند حد الجغرافيين وحدهم بل تعداه إلى غيرهم ، فرجع إليه عالم الحيوان الأديب الدميرى (القرن الخامس عشر) وصاحب المجموعة الأدبية الذائعة الصيت الأبشيهى فى القرن الخامس عشر . وقد خمن أبو حامد تخميناً صحيحاً حاجة الأجيال القادمة إلى هذا الضرب من المؤلفات ، فمنذ ذلك الحين أصبح نمط الكوزموغرافيا بما يلازمه من عنصر الغرائب محبباً إلى الطبقات الشعبية بشكل خاص ، وليس فى مقدورنا بطبيعة الحال أن نعتبر هذا النمط خطوة تقدمية فى ميدان العلم ، اللهم إلا إذا استثنينا نقاطاً معينة فيه » .

---

(١) اغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكى « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » ترجمه من اللغة الروسية إلى العربية الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم ، القسم الأول ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٢٩٤ — ٢٩٧ ، ومن أسف أن هذا الكتاب القيم فى ترجمته العربية الرفيعة لم يصل إلى إلا أثناء الكتابة عن أبى حامد الغرناطى .

كتاب « الجغرافية » المنسوب إلى محمد بن أبى بكر الزهرى

وكتابات أبى حامد تؤدى بنا إلى الكلام على كتاب فى « الجغرافية » شبيه بها فيا تورد من حديث العجائب ، بل هو يغرق فيها إلى درجة تصل بنا إلى القصص الأسطورى الموغل فى الغرابة الذى نجده فى ألف ليلة ، وينفرد هذا الكتاب عن غيره من كتب الجغرافية بميزات تجعل له مكاناً فريداً فى ذلك البحث الذى نتولاه ، وهو كتاب « الجغرافية » المنسوب إلى محمد بن أبى بكر الزهرى .

ولا نملك أى معلومات ذات قيمة عن الزهرى هذا . بل إن اسمه غير وارد فى أى من مخطوطاته الكثيرة ، ولهذا ظل الكتاب معروفاً إلى حين قريب باسم « مخطوط المريّه المجهول المؤلف El Anónimo de Almería » ثم استطعنا بعد ذلك نسبته إلى الزهرى عن طريق بعض النقول التى أوردها المقرى عنه فى نفح الطيب ، ولم نجد لهذا المؤلف ذكراً فى كتب التراجم والتاريخ التى بين أيدينا ، وكل ما نعلم هو أنه كان حيًّا قبيل سنة ٥٤٥/ ١١٥٠ — ١١٥١ وهى السنة التى هُدمت فيها منارة قادس المعروفة فى كتبنا باسم صنم قادس ، فإن محمد بن أبى بكر الزهرى يقول إنه رآها قبل هدمها ، ثم حدثه بعض معارفه بخبر هذا الهدم ووصَفه له ، ومعنى هذا أنه من أهل النصف الأول من القرن الخامس الهجرى ، وأنه كان معاصراً للادريسى وأبى حامد الغرناطى وابن بشكوال ، ولا نعرف عنه غير ذلك . وقد تناول النُسَّاخ مخطوطاته بالزيادة فى مواضع كثيرة ، فأضافوا عبارة « أعادها الله للاسلام » عند ذكر بلاد سقطت فى القرن السابع الهجرى ، وأضافوا كذلك ملاحظات ترجع إلى عصور متأخرة ، وهذا هو الذى جعل ميكيلى أمارى يظن أن الكتاب ألف فى القرن الثامن أو التاسع الهجريين .

والمشاكل المتعلقة بهذا الكتاب ومؤلفه كثيرة ، ولم نستطع رغم البحث الطويل الوصول إلى حلول مقبولة للكثير منها . وأولى هذه المشاكل هى الاختلاف الكبير بين نصوص ما لدينا من مخطوطاته ، فى بعضها فقرات لا توجد فى البعض الآخر ، وقد يختلف السياق بينها كذلك ، أما الاختلاف فى رسم الاعلام الجغرافية وغير الجغرافية فلا يكاد يسلم منه إلا عدد قليل جداً منها .

وثانية هذه المشاكل هى طبيعة الكتاب نفسه كما يشرحها مؤلفه فى فاتحته ، فهو يقول : « قال مؤلف هذه الصفوة : أما بعد حمد الله تعالى ، فقد نسخت هذه الجعرافية[1] من جعرافية نسخت عن جعرافية القرازى (فى نسخ أخرى القمارى والفزارى) التى نسخت من جعرافية أمير المؤمنين عبد الله المأمون بن هارون الرشيد ، التى اجتمع على عملها سبعون رجلا من فلاسفة العراق ، وضعوا هذه الجعرافية فى صفة الأرض (نسخ أخرى : فى صفة صورة الأرض) . . . » ، ومعنى هذا :

١ — أن المؤلَّف الذي بين أيدينا « صفوة » أى مختصر .

٢ — أن المؤلِّف نسخ هذا المختصر الجغرافى من كتاب جغرافى نُسخ بدوره عن مؤلف آخر لرجل اسمه القرازى أو الفزارى أو القمارى .

٣ — وأن هذا الأخير نسخ جغرافيته عن جغرافية وضعها للمأمون سبعون عالمًا من فلاسفة العراق .

وإذن فأصل هذه الجغرافية يرجع آخر الأمر — على قول المؤلف — إلى جغرافية عملها للمأمون نفر من العلماء كما يزعم ، ولسنا نجد فى أى مرجع من مراجعنا إشارة إلى أن شيئاً مثل هذا صُنع للمأمون ، لأن الذى صنع هو الزِّيج الممتحن ، والزيج ليس جغرافية وإنما هو جدول رياضى يبنى عليه الحساب

(١) هكذا ورد رسم هذا اللفظ بالعين المهملة فى كل مخطوطاته ، وسنعلق على ذلك فيما بعد .

الفلكي والرياضي لأطوال المواقع وعروضها[١]، وحسابُ ما يقابل كل درجة من درجات دائرة الفلك بالأميال ، والزيج المتحن هو الجدول المُخْتَبَر أو المحقَّق الذى أمر الخليفة المأمون (١٩٨ — ٢١٨ / ٨١٣ — ٨٣٣) بعمله ليتحقق من صحة وقوع كل بلد من البلاد على العرض والطول الواردين فى الكتب ، ولكى يضبط مقدار ما يقابل كل درجة من المساحة الأرضية بالأميال ، وقد وصف لنا علىّ بن يونس المصرى الطريقة التى اتبعها الفلكيون فى هذا العمل بتدقيق كبير ، فى حين أن ابن خلكان عندما تعرض للزيج المتحن فى ترجمة محمد بن موسى ابن شاكر الرياضى وقع فى أخطاء جسيمة بيَّنها كارلو نالينو بتفصيل كبير فى كتابه عن علم الفلك عند العرب[٢]. وإذا نحن تأملنا طريقة عمل هذا الزيج كما وصفها على بن يونس والنتيجة التى أدى إليها تبينا أن الزيج المتحن كان فى الحقيقة جدولا بالأطوال والعروض وما يقابل كلا منها من بروج الفلك وما يقع على كل منها من البلاد وتقدير المسافات بين هذه البلاد بعضها ببعض اعتماداً على الأرصاد الفلكية وما يقابل قياساتها من مسافات على الأرض .

فإذا نحن تأملنا كتابا مثل « صورة الأرض من المدن والجبال والبحار والجزائر والأنهار الذى استخرجه أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمى من كتاب

---

(١) جاء فى كتاب « علم الفلك ، تاريخه عند العرب فى القرون الوسطى تأليف كارلو نالينو (طبع بالعربية فى روما سنة ١٩١١ وأعادت نشره مكتبة المثنى فى بغداد سنة ١٩٦٣ ، ص ٤٢) : « ولفظ زيج أصله من اللغة البهلوية التى كان الفرس يستخدمونها فى زمن الملوك الساسانيين ، وفى هذه اللغة « زيك » معنـــاه السدى الذى ينسج فيه لحمة النسيج ، ثم اطلقت الفرس هذا الاسم على الجداول العددية لمشابهة خطوطها الرأسية بخيوط السَّدَى — فهذه الكتب تشتمل على جميع الجداول الرياضية التى يبنى عليها كل حساب فلكى ، مع إضافة قوانين عملها واستعمالها مجردة فى الأغلب عن البراهين الهندسية — ومنها الزيج الصابى لمحمد بن جابر بن سنان البتانى المطبوع برومة فى ثلاثة أجزاء وكتب أخرى عديدة .

(٢) أورد كارلو نالينو فى كتابه المذكور فى التعليق السابق أوفى نصين باقيين لدينا عن الطريقة التى اتبعها الفلكيون الذين عهد إليهم المأمون فى عمل ذلك القياس الدقيق ، أولهما وارد فى كتاب الزيج الحاكمى الكبير لابن يونس المصرى المتوفى سنة ٣٩٩ / ١٠٠٩ (نسخة خطية فى مكتبة لايدن رقم ١٠٥٧ من فهرست مخطوطات هذه المكتبة ، ج ٣ ص ٨٨) والثانى وارد فى وفيات الأعيان لابن خلكان (ترجمة رقم ٧١٨ من طبعة جوتنجن) .

جغرافيا الذى ألفه بطلميوس القلوذى[١] » تبينـــا أنه جدول من هذا الطراز يبدو للناظر غير الخبير بمؤلفات العرب فى علوم الأوائل أو ترجماتهم لها أنه زيج لا جغرافية ؛ وفى مراجعنا خلط كثير بين مفهومى الزيج والجغرافية ، ومثال ذلك ما تجده فى القطعة الباقية لنا من زيج الفزارى كما أوردها المسعودى فى مروج الذهب ، قال : « .. فرأينا أن نختم هذا الباب بجوامع من مساحة مسافات الممالك وما بينها من القُرب والبعد على حسب ما رواه الفزارى صاحب كتاب الزيج والقصيدة فى هيأت[٢] النجوم والفلك وبالله القوة : زعم الفزارى أن عمل أمير المؤمنين من فرغانة وأقصى خراسان إلى طنجة بالمغرب ٣٧٠٠ فرسخ ومن باب الأبواب إلى جدة ٦٠٠ فرسخ ، ومن الباب إلى بغداد ٣٠٠ فرسخ ، ومن مكة إلى جدة ٣٢ ميـــلا . عمل الصين فى المشرق ٣١٠٠٠ فرسخ فى ١١٠٠٠ فرسخ . عمل الهند فى المشرق ١١٠٠٠ فرسخ فى ٧٠٠٠ فرسخ . عمل تبت ٥٠٠ فرسخ فى ٢٣٠ فرسخاً[٣] ... الخ » فهذه تحديدات جغرافية لا جداول فلكية ، وإذا كانت بقيـــة زيج الفزارى[٤] على هذه الصورة ، فهو

(١) نشر هذا الكتاب هانز فون مزيك فى لايبسك سنة ١٩٢٦ وأعيد طبعه سنة ١٩٦٢ بطريقة الأوفسيت فى مطبعة الرابطة فى بغداد سنة ١٩٦٢ ، ومن حسن الحظ أن الذين أعادوا الطبع نشروا المقدمة الألمانية كما هى ، فنص الكتاب لا يفهم بدونها ، ويتضح من قراءة هذه المقدمة أسباب الأخطاء التى وقعت فى هذا الكتاب اثناء عمليات النسخ المتوالية ، فإن درجات الطول والعرض واردة فيه بالحروف لا بالأرقام ، ولكل حرف قيمته العددية ، فيكفى أن يصحف الناسخ حرف الحاء إلى حرف الجيم أو حرف اللام إلى حرف الكاف حتى تختلف القيمة العددية .

(٢) كذا فى الأصل كما نشره باربييه دى مينار فى باريس سنة ١٩١٤ ج ٤ ص ٣٧ وما يليها وربما كانت صحته هيأة أو هيئات النجوم .

(٣) مروج الذهب للمسعودى ، بتحقيق باربييه دى مينار ، ج ٤ ص ٣٧ وما يليها .

(٤) هنـاك خلاف فى حقيقة اسمه : ابراهيم بن حبيب أو ابراهيم بن محمد ، وذهب القفطى فى أخبار الحكماء إلى أنهما رجلان ، وأثبت كارلو نالينو أنهما رجل واحد وقع التصحيف فى اسمه (علم الفلك ، ص ١٥٦ وما يليها) والغالب أن الفزارى عاش أيام المنصور ، ولكن الفقرة التى نقلها المسعودى عنه تشير إلى أشياء وقعت فى أيام هارون الرشيد وما بعده بقليـــل ، كإشارته إلى « عمل إدريس الفاطمى » وقد بدأ حكم الأدارسة فى المغرب الأقصى سنة ٧٨٩/١٧٢ ، فيحتمل أن يكون المسعودى قد اكمل النص من مراجع أخرى .

فى الحقيقة جغرافية لا زيج ، والحق أن الخط الفاصل بين الزيجات (وهى التقاويم الفلكية) وكتب الجغرافية الأولى التى اتبعت مناهج الفرس واليونان (وهى تقاويم البلدان) لم يتضح إلا للقلائل من أهل العلم فى عصورنا الماضية ، وفى هذا يقول ج. هـ. كرامرز فى مادة « جغرافية » فى ملحق الطبعة الأولى من دائرة المعارف الاسلامية (ص ٦٨) : « وأخيراً ، فإن مصطلح الزيج الذى كان يطلق على الجداول الفلكية والجداول الجغرافية التى تتضمن الأطوال والعروض ، يمكن أن يعتبر أثراً من آثار ذلك العلم الفارسى الايرانى (فى تاريخ العلم عند العرب[١]) » . ومن رأى كرامرز أن كتاب صورة الأرض للخوارزمى زيج على الحقيقة ، ومعظم أجزائه يبدو فى صورة جدول أو زيج ، لأن الخوارزمى كان فلكياً ، وكتابه ليس ترجمة حرفية لكتاب بطلميوس المسمى Γεωγραφικὴ ὑφήγησις (المرشد إلى صورة الأرض) وإنما تضمين للمادة البطلمية فى صورة جداول تتخللها معلومات جغرافية عن البلاد الإسلامية

وهذا الخلط بين مفهوم الزيج والجغرافية ناشئ عن ارتباط موضوعَىْ الفلك والجغرافية عند المسلمين فى أوائل اشتغالهم بالعلم الجغرافى ، وهو ناتج أيضاً عن أخذ الكثيرين منهم بآراء الهنود والفرس فى علم الفلك[٢] وعن الخلط بين موضوعَىْ كتابَىْ بطلميوس فى الفلك (المجسطى)[٣] وفى الجغرافيــة (أشرنا إليه مراراً) .

---

(١) يشير كرامرز هنا إلى القطعة الباقية لنا من زيج الفزارى التى ذكرناها آنفا .

(٢) انظر عن ذلك كتاب نفيس أحمد ، جهود المسلمين فى الجغرافية (ترجمة فتحى عثمان) الفصل الرابع ، ص ١٤٤ وما بعدها .

(٣) المجسطى اسم ابتكره علماء العرب لكتاب بطلميوس الرئيسى فى الفلك ، وقد شكله حاجى خليفة فى كشف الظنون المجسطى ، وقال انه لفظ يونانى معناه الترتيب « أصله ماجستوس ، لفظ يونانى مذكر ومؤنثه ماجستى » ثم قال : « وأما المجسطى فمعناه « الأعظم » فى لغتهم . هكذا قرأته فى كتاب أمبروز كالبينو (يريد Ambrsoius Calpinus) أما البيرونى فيشير إليه باسم سينطاسيس ، ويفسر هذا بأنه « الفكر فى ترتيب المقدمات » ، والبيرونى هنـــا أدق ، لأن اسم الكتاب الأصلى μεγιαλη σύνταξις μαθηματική ميجالى سونتاكسيس ماثيماتيكى (الجـامع الرياضى الكبير) ولم يرد ═

من هنا يغلب على ظننا أن جغرافية المأمون التى يشير إليها الزهرى فى فاتحة كتابه يقصد بها «الزيج الممتحن» الذى عُمل للمأمون ، إذ ظنه صاحب هذه «الصفوة» (الموجز) كتابَ جغرافية . أما قوله أنه نسخ هذه الجغرافية من جغرافية نسخت من جغرافية القزارى (أو القرازى أو القمارى) التى نسخت من جغرافية أمير المؤمنين المأمون ، ففيه خلط كثير ، إذ أننا لا نسمع عن جغرافى أو فلكى يسمى القرازى أو القمارى بعد المأمون أو فى أيامه ، فلم يبق إلا الفزارى الذى ذكرناه ، وقد عاش قبل عصر المأمون فلا يتأتى أن ينقل عن شىء صنع له .

ولكننا سنرى أن النص الذى بين أيدينا لا يمكن أن يكون منقولا عن زيج أو كتاب من كتب الجغرافية الأولى التى كان العرب يؤلفونها فى عصر المأمون أو قبله ، بل هو لا يمكن أن يكون منقولا عن كتاب واحد وضع فى زمان معين ، وإنما هو أشتات متفرقة بعضها متقدم وبعضها متأخر ، بعضها علم وبعضها حديث خرافة ، بعضها طريف وبعضها لا قيمة له ، وربما يكون السبب فى هذا التصنيف الهجين أن هذا النص سرح لخريطة جغرافية كما هو الحال فى سلسلة كتب أطلس الاسلام ، أو أن هذا النص قام أساساً على المعلومات الجغرافية والفلكية الموجزة التى توجد فى المؤلفات الجغرافية العربية المترجمة الأولى ، ثم أضيفت إليه معلومات وتفصيلات أخرى من أصول وطبائع شتى .

═ الكتاب فى أى نسخة من نسخه اليونانية باسم مجستى μεγιστη وذهب كارلو نالينو إلى أن العرب نحتوا اسم المجسطى من الاسم الأصلى للكتاب (علم الفلك عند العرب ، ص ٢٢٢ — ٢٢٣) والمهم لدينا أن ذلك الاسم الذى ابتكره العرب لازم الكتاب عند ما ترجم إلى اللاتينية ثم إلى اللغات الأوروبية فعرف باسم Almageste . وهذا الكتاب يتألف من ثلاث عشرة مقالة معظم موضوعاتها داخل فى نطاق المفهوم الإغريقى للجغرافية مثل : البرهان على كروية السماء والأرض ؛ وثبوت الأرض فى مركز العالم ؛ وميل فلك البروج ، واختلاف عروض البلدان ، وما إلى ذلك (راجع التفصيل فى كتاب الفلك عند العرب ، ص ٢٢١ وما يليها) ومن هنا جاء الارتباط الوثيق بين الفلك والجغرافية عند معظم الجغرافيين فى العصور الوسطى .

أما لفظ «نَسَخَ» الذى يستعمله صاحب المخطوط فلا يمكن أن ينصب إلا على هذه الخريطة ، لأن قِطعاً منه من كلام الزهرى نفسه ، وقطعاً أخرى ترجع إلى فترات قريبة من عصره ، فلا يمكن لهذا أن يكون منسوخاً بالتواتر مرات كثيرة حتى يرجع إلى عصر المأمون أو قبله . وسنرى من دراستنا لطبيعة الكتاب والغرض الذى رمى إليه مؤلفه أن الخريطة كانت الجزء الأساسي فيه ، ولهذا فقد كان لابد لهذا المؤلف من أن يجمع مادة عن كل ناحية وردت فيها ، ويضيف إلى ذلك ما كان لابد منه من مادة عجائبية تشوق القراء وتكون من أسباب رواج كتابه وتداوله بين الناس .

وربما استطعنا أن نقول إن هذه الاضافات من عمل ناس آخرين غير المؤلف الأول : أضاف كل منهم إلى مادة الكتاب ما أراد حتى وصل إلى الصورة المهجنة التى نجده عليها ، وقد ترامى إلى نفسى الشك فى وقت من الاوقات فى أن يكون اسم المؤلف مُلَفَّقا ، لأن له طابع الأسماء المصطنعة التى توضع على بعض الكتب لمجرد نسبتها إلى شخص خالص العروبة ، يوحى جرس اسمه بأنه من العلماء الأجلاء ، وهذا مجرد ظن على أى حال .

والعبارة التى تأتى بعد ذلك فى خطبة الكتاب عظيمة الأهمية ، قال بعد ذِكر الجغرافية التى وضعها «سبعون من فلاسفة العراق» للمأمون : «وضعوا هذه الجغرافية على صفة الأرض (فى نسخ أخرى : على صفة صورة الأرض) ، فإن قال قائل : هى على غير الحقيقة ، فالجواب على ذلك أن الأرض كُرِيَّة والجغرافية بسيطة ، ولكن وضعوها كما وَضعوا الاسطرلاب وهيئات الكسوف ، وكذلك بسطوا الجغرافية ليعلمَ الناظرُ بذلك أجزاءها وحدودَها وأقاليمها وجميعَ بحارها وأنهارَها وجميعَ بلادها ومعمورَها وقفارَها وحيث تقع كل مدينة من مدائِنها فى مشرقِها ومغربِها ، وفى جميع أجزائها وأصقاعها ، وينظرَ الناظرُ مكان أعاجيبها ، وما فى كل جزء منها من الأعاجيب المشهورة فيها والمبانى الموصوفة بالقلام (كذا فى الأصل ، وربما كانت صحتها بالكلام أو بالقدم) فى أقطارها ،

إذ اشتملت هذه الجغرافية على جميع أقطار الأرض وما فيها من الخلائق على صفاتها وصورتها وألوانها وأخلاقها وما يأكلون وما يشربون فى جميع بلادهم من الحبوب والفواكه ، واختلاف أرزاقها ، وما فى كل صقع منها مما ليس فى غيره من جميع الأرزاق ، وما يجلب لكل صقع منها من التحف والطرف والطيب والعطر والأمتاع والسلع مما فى البر والبحر ، وما فى جميع أقطار الأرض من الحيوان المذكور المشهور بالخواص والأعاجيب والسموم القاتلات والمانع لذلك ، وما فى برها وبحرها على ما وصفه الحكماء المتقدمون والفلاسفة الماضون ، مع ما ذكرتُ فى هذه الجغرافية من مساحة الأرض وطولها وعرضها ، وما قالت الفلاسفة فى تكسيرها وعَدِّ فراسخها وأميالها ، وما فى كل جزء من ذلك ، والله أعلم بحقيقة ذلك ، وهو المعين والموفق للصواب ، لا رب غيره ولا معبود سواه » .

وقبل أن نناقش هذه العبارة التى تتضمن منهج الكتاب وغايته نلاحظ ما يلى : ان المؤلف يستعمل لفظ جغرافية فى معنى صورة الأرض أى خريطة الدنيا كما نقول اليوم ، ويذهب الباحث الايطالى جريفينى — فى دراسة سنعرض لها بعد قليل — إلى أن هذا الاستعمال خاص بأهل الغرب الإسلامي دون المشارقة ، فان هؤلاء يقولون « جغرافيا » دون اداة التعريف ، وهم يعنون بذلك كتاب بطلميوس ، ومثال ذلك ما يقوله الخوارزمى من أنه استخرج كتاب صورة الأرض من « كتاب جغرافيا الذى ألّفه بطلميوس القلوذى » ، فلفظ جغرافيا هنا هو عنوان كتاب بطلميوس ، كما يقال كتاب المجسطى ، ومن أمثلة استعمال اللفظ على هذه الصورة فى المشرق قول المسعودى : « وقد ذكر الفيلسوف فى الكتاب المعروف بجغرافيا صفة الدنيا ومدنها وجبالها . . . » و « وذكر فى جغرافيا أن ابتداء بحر مصر والروم من بحر الأصنام ، أصنام النحاس . . . » و « وهذه البحار كلها مصورة فى كتاب جغرافيا بأنواع من الأصباغ مختلفة المقادير والصور . .[1] » ،

---

(١) هذه الأمثلة واردة فى مروج الذهب ، طبعة أوروبا ، ج ١ ص ١٨٣ — ١٨٥ ، وتجد أمثلة مشابهة فى كتاب التنبيه والاشراف للمسعودى أيضاً ، ص ١٣ و ١٢٧ و ١٢٩

ثم تطور استعمال اللفظ بعد ذلك ، فنقرأ فى رسائل اخوان الصفاء : « الرسالة الرابعة فى جغرافيا ، يعنى صورة الأرض والأقاليم ، من رسائل اخوان الصفاء صان الله اقدارهم[١] » أى أنه أصبح يدل على وصف صورة الأرض ، ولكنه ظل يُسْتَعْمَل دون أداة التعريف . وعند الإدريسى — وهو معاصر للزهرى — نجد اللفظ مستعملا مع أداة التعريف ، فهو يقول : « الكلام على صورة الأرض المسماة بالجغرافيا كما سماها بطلميوس ووصفها به » ، أى أن لفظ « جغرافيا » عنده يدل على صورة الأرض ، أى خريطة الدنيا ، ووصفها . أما ياقوت فيقول : « ... فأما مَن قصد ذكر العمران لجماعة وافرة منهم من القدماء والفلاسفة والحكماء أفلاطن وفيثاغوس وبطلميوس وغيرهم كثير من هذه الطبقة ، وسموا كتبهم فى ذلك جغرافيا ، سمعت من يقوله بالغين المعجمة والمهملة ، ومعناه صورة الأرض ، وقد وقفتُ لهم منها على تصانيف عدة جُهلت أكثر الأماكن التى ذُكرت فيها وأبهم علينا أمرها لتطاول الزمان فلا تُعرف[٢] » ، وغريب أن نجد ياقوت بعد ذلك لا يذكر كتاب جغرافيا لبطلميوس ، بل يذكر المجسطى فحسب ، وكلامه عن الرجل نفسه مضطرب ، وهو ينسب إليه أعمالا تنسب إلى اراتستنيز[٣] . ولا ذكر للفظ جغرافيا فى كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمى[٤] . أما ابن خلدون فيستعمل اللفظ مرة كاسم لكتاب بطلميوس ومرة أخرى بمعنى خريطة الدنيا .

---

(١) رسائل اخوان الصفاء (القاهرة ١٨٨١) ، ص ٩٢

(٢) ياقوت ، معجم البلدان (طبعة الخانجى) : ٧/١

(٣) نفس المصدر : ١٦/١ — ١٧ ، وانظر الترجمة الانجليزية للفصول التمهيدية من معجم البلدان التى قام بها وديع جويدة ، وقد أشرنا إليها فى تعليقاتنا ، ص ٢١ — ٢٦ والحواشى .

(٤) محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمى الكاتب : مفاتيح العلوم ، القاهرة ١٣٤٢ ، راجع الفصل الثانى من الباب السادس (ص ١٢٥ — ١٣٠) : « فى ذكر الافلاك وتركيبها وأحوال الكواكب فيها وهيئة الأرض وأقاليمها » .

ومعظم مؤلفينا يكتبون جغرافيا بفتح الجيم أو كسرها وأقلهم بضمها ، وهذه الصور كلها مقبولة لأن لفظ γεωγραφια اليونانى يمكن أن ينطق بضم الجيم وفتحها وكسرها أيضاً ، وقال كارلو ناللينو فى كتاب —

واستعمال لفظ جغرافيا للدلالة على خريطة الدنيا (صورة الأرض) أو الخريطة مع وصفها يعيننا على تفسير السطور الأولى من خطبة كتاب الزهرى وتعرّف طبيعته ، فهو يقول إنه نسخ جغرافيته عن جغرافية نسخت عن جغرافية الفزارى التى نسخت بدورها من جغرافية (كذا) المأمون . فالكلام هنا يدور حول صورة الأرض — أى خريطتها — التى رسمها ، وقد حرص على إيراد إسنادها لكى يعلم القارئ أنها منقولة بالتواتر عن أصول موثوق فيها ، وقد خانه التوفيق فى ذلك رغم حسن نيته ، فإن علماء المأمون لم يرسموا له خريطة ، والفزارى عاش قبل المأمون ، أى أن الخريطة التى وصلت مع إسنادها إلى الزهرى كانت خريطة وضعها أحدهم ونسبها إلى علماء المأمون ، ثم نقلت عنها خريطة نسبت إلى الفزارى ، وعن هذه نسخت أخرى ، وهذه الأخيرة هى التى نسخها الزهرى . ومن أسف أن خريطة الزهرى ضاعت ، ولكن العبارة تدل على أنه كانت هنــاك خرائط للدنيا كثيرة متداولة لا تعرف نسبتها ، وهذه حقيقة لها أهميتها فى تاريخ علم الخرائط عند المسلمين .

ثم يقول الزهرى بعد ذلك : « فإن قال قائل : هى — أى صورة الأرض — على غير الحقيقة ، فالجواب على ذلك أن الأرض كرية والجغرافية بسيطة ،

= الفلك عند العرب (ص ٢٧٨ تعليق ١) : « زعمت علماء العرب فى العراق والشام ومصر أثناء القرون الوسطى أن جغرافيا اسم من الأعلام الأعجمية ، فما عرفوه أبداً بأداة التعريف ولا قيدوه فى كتب اللغة . راجع الشواهد على ذلك التى أوردتها فى المجموعة المطبوعة لتخليد ذكر المستشرق الايطالى الشهير ميخائيــــل أمارى *Centenario della nascitá di Michele Amari*, Palermo, 1910, p. 422. ومثال آخر فى ص ١٦٣ (سطر ٧) من كتاب الدر المنتخب فى تاريخ حلب لمحمد بن الشحنة المطبوع فى بيروت سنة ١٩٠٩ » والشواهد التى يشير إليها ناللينو هنا واردة ضمن مقال E. Griffini المنشور فى كتاب الذكرى المئوية لميلاد ميكيلى أمارى المذكور هنا ، وعنوان المقال : *Nuovi Testi Arabo-Siculi*, I, 365. وهو مقال طويل عظيم القيمة ، يتضمن نصوصاً عربية عن صقلية لم يوردها أمارى فى المكتبة الصقلية أو أوردها برواية تختلف عن رواية جريفينى . وفى هذا المقال قطع من كتاب الزهرى واردة تحت رقم ٤ من النصوص الجديدة ، وعنوان هذه القطع :

Estratti dalla Geografia di Az- Zuhri o Anonimo di Almeria, p. 416 sqq.

ثم أضاف ملحقاً عن لفظ جغرافية انتفعنا به كثيراً هنا ، وسنرجع إليه فيما يلى من البحث مشيرين إليه باسم : Griffini, *Nuovi Testi*

ولكن وضعوها كما وضعوا الاسطرلاب ووضعوا هيئات الكسوف ، وكذلك بسطوا الجغرافية ليعلم الناظر بذلك أجزائها وحدودها وأقاليمها . . . الخ » وهذه العبارة لا تفهم على حقيقتها إلا إذا فسرنا لفظ « وضعوا » بأنه « رسموا » فهو يريد أن يقول : فإذا قال قائل إن هذه الجغرافية — أى خريطة الأرض أو رسمها أو صورتها — لا تتفق مع الحقيقة ، لأن الأرض كرية فى حين أن الجغرافية مبسوطة مسطحة على الورق ، قلنا : هذا صحيح ، ولكن العلماء رسموا صورة الأرض بسيطة — أى مبسوطة — مسطحة على الورق ليعلم الناظر بذلك أجزاءها وحدودها وأقاليمها . . . الخ ومعنى هذا أن الجغرافيا عنده هى الخريطة المسطحة للأرض ، أى ما يعرف بالبْلاَنِيسْفِير .

ويبدو من الفقرة الأخيرة من خطبة الكتاب أن معنى لفظ جغرافية عنده يشمل الخريطة ووصفها أو شرحها كذلك ، وربما تصور أن الخريطة لا تتم إلا إذا كان معها شرح مفصل لما فيها ، فهذه الفقرة تقول : « . . . مع ما ذكرتُ فى هذه الجغرافية من مساحة الأرض وطولها وعرضها ، وما قالت الفلاسفة فى تكسيرها وعَدِّ فراسخها وأميالها ، وما فى كل جزء منها ، والله أعلم بحقيقة ذلك . . . » .

وهذان المفهومان للفظ جغرافيــة (خريطة أو خريطة مع شرحها) كانا موجودين فى الغرب الإسلامى ، فقد ورد فى المعجم العربى اللاتينى المعروف بالفوكابوليستا لفظ جعرافية (بالعين المهملة) مرتين ، الأولى فى صفحة ٨٠ : جَعرافيَّة وأمامه لفظ mapa أى خريطة ، والأخرى فى صفحة ٤٦٩ : جَغْرَفِيَّة وأمامه mapamundi [1] أى خريطة الدنيا ، وابن خلدون يستعمل لفظ جغرافيا فى

(١) Vocabulista in arabico وهو قاموس عربى لاتينى ، لاتينى عربى وضع فى القرن الثالث عشر ليستعين به رجال الدين الاسبان فى التبشير بالمسيحية بين من وقع تحت سلطان ملوك إسبانيا النصرانية من المسلمين ، وألفاظ القاموس تدل على أنه وضع فى بلنسية ، ويظن أن مؤلفه هو الراهب المبشر رايموندو مارتين الذى تحدثنا عنه فى « تاريخ الفكر الأندلسى » . وقد نشره سكياباريلى فى فلورنسا سنة ١٨٧١ ، اقرأ عنه مقدمة ناشره وخاصة ص ١٩ و ٢٠ وملحق القواميس العربية لدوزى ، جـ ١ ص ١٠ من المقدمة ، وتاريخ المستعربين للأب سيمونيت ، ص ١٧٠ وما بعدها .

فى كتابه من المعلومات ، وسيختفى هذا الاضطراب عندما يفرغ الزهرى من معنى خريطة ، وأضاف : وقد ذكر ذلك كله بطليوس فى كتابه والشريفُ فى كتاب رُجار؛ ويقول ابن خلدون فى « المقدمة » : « وصوروا فى الجغرافيا جميع ما فى المعمور من الجبال والبحار والأودية ، واستوفوا من ذلك مالا حاجة لنا به لطوله ، ولأن عنايتنا فى الأكثر إنما هى بالمغرب الذى هو وطن البربر ، وبالأوطان التى للعرب من المشرق ، والله الموفق[1] » .

ويلاحظ أن الزهرى يكتب دائماً جعرافية بالعين المهملة ، وكذلك نجد اللفظ فى الفوكابوليستا وفى المخطوطات الجيدة من مقدمة ابن خلدون ، وهذا ليس مجرد تصحيف[2] ، وإنما كان رسماً معروفاً لهذا اللفظ فى كثير من الكتب الأندلسية خاصة ، وقد رأينا ياقوت يقول إنه سمع من يقوله — أى لفظ جغرافيا — بالغين المعجمة والمهملة ، وأكد ذلك دوزى وأتى بأمثلة كثيرة على ذلك فى معجمه[3] .

وبقية خطبة كتاب الزهري تعرفنا بمفهوم العلم الجغرافى عنده ، وهو مفهوم واسع يتناول كل المعلومات الخاصة بالأرض وما عليها ومَن عليها وعلاقة الأرض بالكون وموقعها من الفلك وما إلى ذلك ، أى كل ما يدخل فى نطـــاق الجغرافية الفلكية والطبيعية والبشرية ، وواضح أن سياق الكلام فى الخطبة غير قويم ، فهو ركيك كثير التكرار مضطرب النسق ، مما يدل على أن المؤلف كتب هذه الخطبة لكى يضمِّنها — فى صورة عامة — كل ما سيورده

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة (بولاق) ، ص ٤٠

(٢) أورد جريفيني فى مقاله الآنف الذكر (ص ٤٢٥) صوراً كثيرة لتصحيف لفظ جغرافيا على يد الناسخين ، وبعض هذه الصور يدل على أن الكثيرين من ناسخى الكتب فى العصور المتأخرة لم تكن لديهم أى فكرة عن رسم هذا اللفظ ومعناه ، فقد كتب واحد منهم « كتاب جفر الأنباء (يريد جغرافيا) لبطليموس » وكتب آخر : قال صاحب كتاب معارفنا (يريد جغرافيا) . وفى بعض الأحيان كان بعض مؤلفى هذه العصور يعرفون اللفظ ، ولكنهم لم يعرفوا كيف يرسمونه، فقد عمل رجل أرمنى من تونس يسمى مقرديج الكسيح مختصراً لكتاب نزهة المشتاق ، ورسم اللفظ هكذا : « كتاب الجكرافية الكلية ، أى صورة الأرض وما فيها ، قد التقطها من كتاب نزهة المشتاق الفقير مقرديج الكسيح الأرمنى ، فرضه منها تبجيل الصانع الخلاق وإفادة الاخوان » .

(٣) انظر ملحق القواميس ، ١/١٩٨ — ١٩٩

المقدمات ويدخل فى صلب كتابه ، مما يحمل على الظن بأنه كتب الخطبة بعد أن فرغ من الكتاب ، وكتبها معجلا دون تدقيق كثير ، وهى لهذا أضعف ما فى الكتاب واقل ما فيه دلالة على قيمته . وهذا كله بالاضافة إلى التصحيفات الكثيرة فى النص ، فعلى كثرة مخطوطاته لا نجد واحداً منها سليماً من التصحيفات الكثيرة التى لا يخلو منها سطر ، واسم العَلَم الواحد يرد فى كل نسخة بصورة ، وقد اعتمد كل من دوزى وأمارى وهنرى باسيه وجريفينى على ما تيسر له من المخطوطات فى نشر ما حاجه من نصوص الكتاب ، ورجعنا هنا إلى مخطوط بسكوال جايانجوس المحفوظ فى مكتبة أكاديمية التاريخ فى مدريد ، وراجعنا عليه القطع المنشورة مع مفارقاتها ، فتبينا أن النسخ جميعاً فى مستوى واحد من الدقة — أو قلها بتعبير أدق — بحيث لا تفضل واحدة منها الأخريات فى شيء[1] . وهذه التصحيفات من النوع الكثير الوقوع فى المخطوطات

---

(١) احصى رينيه باسيه فى مقدمة القطعة التى نشرها من جغرافية الزهرى المخطوطات الموجودة إلى أيامه (سنة ١٩٠٣) وعددها ستة ، واحد فى مكتبة جامعة الجزائر برقم ٢٠١٦ ، وهذا المخطوط منسوخ عن آخر بجامعة الزيتونة ؛ ومخطوط كان يملكه الشيخ عظوم التونسى واستنسخ منه رينيه باسيه نسخة لنفسه ؛ ومخطوط بالمكتبة الوطنية فى الجزائر تحت رقم ١٢٥٥ ؛ ومخطوط بالمكتبة الأهلية فى باريس برقم ٢٢٢٠ (مخطوطات عربية) ، والمخطوط رقم ٣٥ من مجموعة جايانجوس (وهى موجودة حالياً فى مكتبة أكاديمية التاريخ فى مدريد) ، والمخطوط رقم ٢٥٧٤٣ (اضافات) بمكتبة المتحف البريطانى . ويضاف إلى هذه ترجمة اسبانية ترجع إلى منتصف القرن الخامس عشر ، محفوظة فى مكتبة القصر الملكى فى مدريد . وقد نشر الجزء الخاص بجغرافية اسبانيا من هذه الترجمة فى مجلة جمعية مدريد الجغرافية سنة ١٨٧٩ ، ص ٧٠٣ وما يليها . ونشرت من جغرافية الزهرى قطع صغيرة فيما يلى :

Amari, *Biblioteca arabo-sicula,* 1855, p. 158 sqq.

الجزء الخاص بصقلية اعتماداً على مخطوط المكتبة الأهلية فى باريس .

Dozy, *Recherches,* 3.° ed. 1881, II, appendice XXXV p. LXXXIX.

القطعة الخاصة بأعمدة هرقل اعتماداً على مخطوط المتحف البريطانى .

Lerchundi y Simonet, *Chrestomatía Arabigo-Española,* Granada, 1881, pp. 44-45.

قطعتان قصيرتان خاصتان بجبل شاير وشجرة زيتون بجيبة قرب حصن يشكر فى

Houdas et René Basset, *Mission Scientifique en Tunisie,* II.e partie, Alger 1883, p. 154 sqq.

قطعة خاصة بالسوس الأقصى اعتماداً على مخطوطات باريس وتونس والجزائر والقيروان =

التى نسخت فى العصور المتأخرة ، وربما يكون هذا أيضاً هو الذى حدا بأمارى إلى القول بأن الزهرى نفسه عاش فى القرن الرابع عشر الميلادى [١] .

ومثل هذا الكتاب لا تنتظر أن نجد فيه مادة جديدة أو تصوراً للأقاليم يمتاز بالدقة وحسن الفهم وسعة المعلومات كما وجدنا عند مَن سبقوا الزهرى وكما سنجد عند بعض من أتى بعده ، إنما هو رجل استهواه العلم الجغرافى ، فقرأ فيه بعض ما تيسّر له من الكتب من تأليف المسعودى وابن الجزار ورجل يسميه « صاحب التاريخ » (وأظن أن المراد به أحمد بن محمد الرازى ، لأننى وجدت اشارة إليه على هذه الصورة فى مختصر مجهول المؤلف لجغرافية الرازى وتاريخه) ثم وصلت إلى يده خريطة مجهولة النسبة ، فنسخها ثم وضع كتابا فى شرحها معتمداً على ما أشرنا إليه من قراءاته ، وسماها معاً كتاب الجغرافية ، وهو هذا الذى وصل إلينا .

وجدير بالملاحظة أن هذا الرجل كتب كتابه فى المرية ، وقد رأينا أنها كانت موطن العذرى ، وإليها ذهب البكرى ولقى العذرى وأخذ عنه ، وكان لهذا أثره فى توجيهه نحو الجغرافية والتأليف فيها ، فكأنَّ هذا البلد كان مركزاً للدراسات الجغرافية فى الأندلس ، أو كانت فيه على الأقل جماعة تعنى بهذا العلم وتجد بين يديها مادة صالحة لدراسته ، وليس هذا بغريب فإن المرية كانت قد أصبحت خلال القرن الخامس الهجرى من أعمر بلاد الأندلس وأوفرها نشاطا

= R. Basset, *Documents géographiques* sur l'Afrique Septentrionale, Paris 1898, chap. II, pp. 14-30.

وهى ترجمة فرنسية للقطعة المنشورة عن السوس الأقصى . انظر :

René Basset, *Extrait de la Description de l'Espagne, tiré de l'ouvrage du Géographe Anonyme d'Almeria*, Homenaje a Codera, Madrid 1904, p. 619 sgg.

وراجع عن كتاب الجغرافية للزهرى ، بروكلمان ، تاريخ ١/٤٧٦ وملحق ١/٨٧٦

(١) ذكر أمارى ذلك فى الفقرة رقم ٥٤ من الفقرات الخاصة بمراجع المكتبة الصقلية ، وقد وردت هذه الفقرة فى ص ٦١ من المقدمة .

وحيوية ، ثم إن العلم الجغرافى الجديد ظهر فى موانى البحر الأبيض كما ذكرنا ، إذ كانت حاجة الملاحين إلى المعلومات الجغرافية كبيرة وعنايتهم بها كبيرة ، ويضاف إلى ذلك أن أولئك الملاحين كانوا من مصادر هذه المعلومات بما يأتون به من الأخبار والبيانات عن البلاد التى يبحرون إليها ويمرون بها ، وكانت المرية إذ ذاك قد أصبحت ميناء الأندلس الاسلامى الأكبر ومركز الاتصال البحرى مع المغرب والمشرق الاسلاميين ، بل منها كانت تصدُر المتاجر الذاهبة إلى غانة وغيرها من بلاد افريقية الغربية كما يقول العذرى ، ومن ثم فمن الطبيعى أن تكون مركزاً تتجمع فيه المعلومات عن شتى البلاد ، ولابد أن « الجغرافية » أى الخريطة التى وصلت إلى يد الزهرى — وانتسخها واتخذها أساساً لكتابه — كانت واحدة من الخرائط الكثيرة المتداولة بين أيدى ملاحى المرية ومن يفد عليها من التجار من كل حدب وصوب .

نقول إننا لا ننتظر أن نجد فى هذا الكتاب شيئاً من الخصائص الأصيلة التى وجدناها عند من مررنا بهم من جغرافِيِّى الأندلس مثل إحاطة الرازى بصفة شبه الجزيرة وصدق تصوره لنواحيها وأقسامها ، ودقة العذرى وعلمه ، وسعة علم البكرى ومنهجه العلمى ، وعبقرية الشريف الإدريسى ، وما إلى هذه من الخصائص التى اجتهدنا فى ابرازها ، لا ننتظر هنـــا من ذلك شيئاً لأن خطبة الكتاب نفسها تدل على فهم محدود لمعنى الجغرافية وعِلْمٍ قليل بما عداها ، فإن الأسلوب مفكك غير مترابط ، والكلام ركيك لا تكاد تستقيم فيه عبارة ، والمعلومات مرسلة دون تدقيق أو محاولة تعليل ، ويبدو لى أن المؤلف — إن وُجد ، ونحن لا نعلم عنه إلا اسمه — كان رجلا بسيطاً من العاملين فى البحر أو التجارة ، فان طريقته فى الكلام لا تحمل أى خاصة من خصائص التأليف العربى التقليدى ، ويتضح هذا بصورة ملموسة إذا نحن أخذنا وصفَه لبلد من البلاد كالأندلس مثلا ، فنجد أنفسنا أمام سياق يصعب تتبعه ، وليس مرد

ذلك إلى رداءة المخطوط الذى نتابعه ، بل إلى أصل الكتاب نفسه ، فقد جمع رينيه باسيه ستة من أحسن مخطوطاته الموجودة ليستطيع أن ينشر مقتطفات من وصفه للأندلس ، واجتهد فى الوصول إلى أحسن قراءة مقبولة لكل كلمة وأضاف اسفل كل صفحة المفارقاتِ الواردة فى النسخ الأخرى حتى بلغت أرقام التعليقات بين الأربع والعشرين والثلاثين فى كل صفحة ، والنتيجة بعد هذا كله نص متعب مجهد يحار الانسان فى فهمه ، وإليك مثلا من ذلك الفقرة الأولى من ذلك الوصف :

« ذِكر الصقع الثالث من هذا الجزء الخامس من معمور الأرض ، وهى بلاد الأندلس ، وفيها من العجائب ما نذكره إن شاء الله .

اعلم أرشدنا الله وإياك أن بلاد الأندلس هى من بلاد الشام وهى آخر صقع من أصقاع الشام .

« وطول هذا الصقع من المشرق إلى المغرب على ساحل البحر من الجبال المسماة بجبال أطريجوش إلى الطرف المسمى بطرف الأغر إلى أشبونة إلى البحر الأعظم إلى أول جبال الشارات — وهى تسعون فرسخاً — إلى أول الجبال على قريب من جزيرة طريف التى من الجبال المعروفة بجبال الصوف ، وهى كورة تاكورنة وهى ثلاثمائة . وعرضها فى المغرب من طرف الأغر إلى أشبونة على البحر الأعظم إلى جبال الشارات تسعون فرسخاً ، وذلك من الأيام تسعة أيام . وعرضُها فى المشرق من جبال أطريجوش إلى الموضع المعروف ببرتقال ، وهو المدخل إلى بلاد نبارة ثمانون فرسخاً ، وهى من الأيام ثمانية أيام » .

« وهذا الجبل المعروف بأطريجوش هو الفاصل بين بلاد الأندلس وبلاد الأفرنج ، وهذا الجبل يأخذ من الشمال إلى الجنوب حتى يدخل فى البحر ، وهو المعروف بطرف اليهودى ، فى هذا الجبل ثمار كبار عظيمة من الصنوبر والطخش والبقس ، وفيه أشجار يستظل تحتها ألف فارس فلا يظهرون . ومن هذا الجبل يجلب عود البقس إلى بلاد الأندلس وبلاد المغرب . وفى هذا

الجبل معدن الأثمد القرطاجنى ، ومنه يجلب إلى بلاد المشرق . وفى هذا الجبل نحل كثير يجمع منه عسل كثير ، حتى لا يمكن أن يكون فى بلاد الأرض أكثر منه عسلا . وفى هذا الجبل الحصن الذى لا يوجد فى الأرض معقل مثله ولا أكثر منه منعاً » .

فهذه الفقرة على قصرها تحوى من المشاكل والعبارات التى لا تفهم ما يحتاج حله وتفسيره وفهمه إلى صفحات بعد صفحات من المناقشات والفروض ثم لا ينتهى الأمر بعد ذلك إلى شىء حاسم ، وهى بعد ذلك غير وافية ولا متناسقة ، فان ثلثها يدور حول الجبـــل الذى يسميه أطريجوش ، والترجمة الاسبانية القديمة التى أشرنا إليها فى تعليق سابق ترسمه جبل Targios وليس هناك جبل بهذا الاسم فى شبه الجزيرة ، أما رينيه باسيه فيترجمه بجبال اشتُريس les Monts d'Asturies ، وقد رجع فى ذلك إلى الرسم اللاتينى لهذا الاسم Asturicus أى أن الاسم كان ينبغى أن يرسم فى العربية اسْطُرِيجُوس لا اطريجوش أو أطوجيوش أو أطرجيش كما ورد فى النسخ المختلفة لهذا المخطوط ؛ والمؤلف يطلق هذا الاسم على جبال البرت أو جبـــل الأبواب أو جبال هيكل المعروفة عادة باسم جبال البرانس ، ولم نقرأ فى أى كتاب آخر أنها تسمى جبال اشتريس ، لأن ما يطلق عليه هذا الاسم يسمى فى الحقيقة جبال كنتبرية ، والإدريسى يسميها جبال شِيبه Auseba ، وفى حين أن الإدريسى يفرق بين جبال شيبة هذه وجبال البرت نجد مؤلفنا يجعلها جبالا واحدة ويمدّها دفعة واحدة من جليقية إلى ساحل البحر الأبيض ويقول إنها كلها تتجه من الشمال إلى الجنوب ، وهو قول يدل على أن مراجعه والخريطة التى كان يعتمد عليها لم تكن من مستوى عالى جدير بالثقة ، وربما كانت من هذه الخرائط والدفاتر التى كان الملاحون والتجار والسُّفَّار يحملونها ويتبادلونها ، فإذا صح هذا كانت لهذا الكتاب أهمية خاصة إذ أنه يطلعنا على نوع الخرائط والمعلومات التى

كان أولئك الناس يعتمدون عليها والأسماء التى يطلقونها على الأعلام الجغرافية ، وتصورهم للاتجاهات ومواقع البلاد .

ومما يؤيد هذا الرأى اهتمام المؤلف بالحاصلات من زراعية وغير زراعية ومصادرها وإلى أى جهات كانت تصدر ، وقد رأينا مثلا من ذلك فى القطعة التى أوردناها فى صفة الأندلس ، فان ثلث المادة — على قصرها — يدور حول ثمار ما يسميه بجبل أطريجوش وما فيه من الخيرات ، ومن دلائله أنه يسمى جبال رندة (la Serranía de Ronda) « بالجبال المعروفة بجبال الصوف وهى كورة تاكورنة » ، وتاكورنة هى تاكُرُنَّا وهو الاسم الذى كان يطلق على كورة جبلية صغيرة جنوبى الوادى الكبير قاعدتها رندة[1] ، وقوله أن هذه الجبال معروفة بجبال الصوف يراد به أنها منطقة يجلب منها الصوف ، وهى إشارة ذات أهمية تجارية تذكرنا بما رأيناه عند الإدريسى من قوله اقليم البصل واقليم البلوط واقليم الزيتون ، وهى أيضاً تسميات تجارية لا جغرافية ، وقد أخذها الإدريسى من أفواه التجار ، وكان اعتماده فى الحصول على المعلومات عليهم عظيماً .

ومما يؤكد ذلك أن المؤلف يعقب هذه الفقرة السابقة بفقرة عن عمران الأندلس ووفرة الخيرات وكثرة المدن فيه ، وهذه الفقرة كسابقتها منقوصة فى أكثر من موضع من مواضعها ، مختلة السياق فى الكثير من عباراتها حتى ليبدو من غير المقبول نشرها على الصورة التى نشرها بها رينيه باسيه ، ومن حسن الحظ أننى عثرت على أصلها ، أو الأصل الذى اقتبست منه ، فى متحف النقول الأندلسية وهو نفح الطيب للمقري ، ومن أسف أنه صدرها بقوله : « وقال بعض المؤرخين » فضيع علينا بذلك فرصة كانت معينة على كشف النقاب عن أصل كتابنا هذا ، وتلك حالنا مع تراثنا الأندلسى الذى نجمع شوارده وأوابده بكل

---

(١) الغالب أن تاكرنا اسم آخر لكورة رندة . انظر عنها الروض المعطار لابن عبد المنعم الحميرى ، ص ٦٢ رقم ٦٣ وص ٧٨ من الترجمة الفرنسية وهامش رقم ٣

ميسور من الجهد والصبر ، وما دمنا لا نعرف إن كان « بعض المؤرخين » هذا هو مؤلفنا أو الأصل الذى نقل عنه ، فسأورد فقرات المخطوط وأكملها بما عند المقرى بين حواصر ، حتى يستبين القارئ مقدار ما فعل المؤلف بالأصل الذى أخذ عنه ، أو ما أصاب نصه على أيدى النقلة والنساخ :

«وبلاد الأندلس بلاد حسنة الهواء طيبة الماء طولها ثلاثون[1] يوماً [وعرضها تسعة أيام و] يشقها أربعون نهراً [كباراً] ولا يوجد هذا فى معمور الأرض إلا فيها ، [وبها من العيون والحمامات والمعادن مالا يحصى] وهى أبرك بقاع الأرض وأكثرها نسلا ، وذلك لأنها صقع صغير فيه ثمانون مدينة من القواعد الكبار ، وأزيد [من ثلثمائة] من[2] المدن الصغار [وفيها من الحصون والقرى والبروج ما لا يحصى كثرة حتى قيل : إن عدد القرى التى على نهر إشبيلية أثنا عشر ألف قرية] ، وليس فى معمور الأرض صقع أعمر[3] منه [يجد المسافر فيه ثلاث مدن وأربعا من يومه إلا فى الأندلس ، ومن بركتها أن المسافر] لا يمشى فيها فرسخين دون ماء [أصلا] ولا يمشى ثلاثة فراسخ إلا وجد فيها [الحوانيت فى الفلوات والصحارى والأودية ورءوس الجبال تبيع] الخبز الكثير [والفواكه والجبن واللحم والحوت] والزيت والزبيب والتين [وغير ذلك من الأطعمة] فى الحوانيت[4] .

وإذن فنحن أمام نص مختصر عن أصل ، وواضح أن المؤلف أساء الاختصار ، إذ لا يعقل أن يكون جميع كتّاب النسخ الكثيرة التى بين أيدينا قد وقعوا فى نفس الأخطاء أو فى أخطاء من نفس النوع ، فاستخرج نصاً سقيماً

---

(١) فى نسخة الأصل التى اعتمد عليها باسيه : أربعون ، وفى نسخة المكتبة الأهلية فى باريس : ثلاثون ، وكذلك فى نفح الطيب وفى الترجمة الاسبانية القديمة : tryenta .

(٢) فى نفح الطيب (١/٢١٠) : من المتوسط

(٣) فى الأصل : أصغر ، ولا يستقيم به المعنى ، وصوابه ما أثبتناه .

(٤) وردت العبارة فى الأصل مضطربة السياق فقومتها على قدر الاستطاعة .

مضطرباً ، ولكنه وافٍ بحاجات جماعات معينة من الناس ، جماعات لا تهتم بسلامة الأسلوب واستقامة السياق ، وإنما تهتم بمعلومات خاصة تهمها فى شئون عيشها ، وهذه المعلومات تدور فى الغالب حول الحاصلات والمنتجات وما تشتهر به الناحية أو البلد من المتاجر والصناعات وما لها من الفضائل وما فيها من العجائب . وهذه الجماعات — فيما نظن — هى جماعات التجار والملاحين والسُّفار .

وقد يكون الأصل الذى استُخرج منه هذا المختصر هو كتاب الزهرى نفسه ، وفى هذه الحالة لا تكون النسخ التى بين أيدينا إلا نسخاً للمختصر ، وقد تؤيد هذا الفرض كثرة النسخ التى وجدناها منه ، فلدينا ستة مخطوطات على الأقل ، ولم نجد من أى كتاب جغرافى آخر ما يقارب هذا العدد إلا نزهة المشتاق للادريسى ، وهذه النسخ الكثيرة تدل على أن الكتاب كان — على ركاكته واضطراب سياقه — كثير التداول عظيم النفع لطوائف من الناس حرصت على اقتناء نسخ منه ، وهذه الطوائف لا يمكن أن تكون من أهل العلم أو طلاب المعرفة أو المعنيين بالجغرافية ، فهؤلاء لا يعجبهم مثل هذا النص ولا يحرصون على اقتنائه ، ولو حرص هؤلاء على اقتنائه والانتفاع به لوجدنا نقولا منه فيما تلا ذلك من الكتب ، ولحرص أصحاب التراجم على اثبات شىء عن صاحبه ، ولكننا لا نجد منه إلا هذه النقول اليسيرة التى أوردها المقرى ولم نعثر لصاحبه على أثر فى أىّ من مراجعنا .

وعلى أى حال فنحن أمام طراز من الكتابة الجغرافية يختلف فى طبيعته وغايته عما مررنا به من طُرُز التأليف فى ذلك العلم : طراز شعبى ، إذا جاز أن نستعمل هذا الوصف فى مقابل ما يسمى فى اللغات الأوروبية vulgarisation ، طراز مبسط يجمع المادة الجغرافية التى تهم أهل الأسواق ، ومن ثم فليس فيه تدقيق علمى ولا تقسيم منطقى ولا عناية بأسلوب الكتابة ، لأن ما يهم أهل الأسواق من المادة الجغرافية هى الزروع والحاصلات والمواد ذات القيمة التجارية ثم أحاديث العجائب ، وتضاف إلى هذه بعض المعلومات العامة عن هيئة الأرض

ومكانها فى الكون وبحارها وجبالها وأنهارها الرئيسية مع تعريف بسيط لكل منها ، ثم تقسيم الأرض إلى أقسام كبيرة ، تسمى فى مخطوطنا أجزاء وهذه إلى أصقاع ثم إدراج عدد من البلاد والنواحى فى كل صقع ، ويعقب ذلك الكلام على الأصقاع واحداً واحداً دون تقيد شديد بهذا المنهج ، فقد يسمى الجزء إقليماً وقد يسمى الصقع بلداً ، وقد لا يقسم جزء إلى أصقاع ، بل قد تهمل بلاد بأسرها ، لأن المهم ألا يسقط من الحساب بلد مشهور يقصده المسافرون والرحالة والتجار ، ولا يُغفل أمر عجيبة لها شهرة بين الناس ، ولا يُنسى ما يهم التجار من شئون الحاصلات والصناعات وما يجلب من كل بلد وما يصدَّر إليه . هذا المزاج من المفيد والطريف ، من النافع والعجيب هو الذى يعطى ذلك الكتاب طابعه الفريد بين ما لدينا من كتب الجغرافيـــة الأندلسية ، وهو الذى حببه إلى الناس فأقبلوا على نَسخه وتداوله ، ومن الطريف أن الناسخين لم يتكلفوا جهداً فى التدقيق فى رسم الأعلام وضبط المسافات ، فقد كانوا يعرفون أنهم ينسخون لناس لن يجهدوا أنفسهم فى تحقيق النسخة أو مقابلتها على غيرها ، إنما هم تجار وملاحون لا يعنيهم فى كثير أن تكتب «يابل» بالياء أو «الأهوار» بالراء ، لأن بابل هذه مضت لشأنها وأصبح حديثها حديث أساطير ، والأهواز بعيدة فى بلاد فارس لا يكاد يقصدها من حوض البحر الأبيض قاصد من التجار ، إنما التدقيق يكون فيما يتصل بهذا البحر وموانيه وجزائره وسواحله ، وما يتصل به من بحار أهمها بحر القلزم وموانيه ، هنا نجد النص دقيقاً فى رسم الأعلام وفى ايراد التفاصيل ، لأن البحر الأبيض كان مجمع التجارة والتجار ، والمرية ــ بلد المؤلف ــ كانت على عصره من أكبر موانيه ، وحديثه عنها لذلك حافل بالفائدة ، وهو يضيف إلى معلوماتنا عنها فوق ما أضافه العذرى كما سنرى .

ومن هنا فإن أضعف أجزاء الكتاب هى فصوله الأولى الخاصة بالمقدمات العامة عن هيئة الأرض وموضعها فى الفلك وما إلى ذلك ، لأن هذه مباحث

علمية لا يهم قراء مثل هذا الكتاب إلا خلاصتها . وكلام المؤلف هنا عام غير دقيق ، وهو لا يحرص على تعليل شيء حرْصَ ابن رستة مثلا على تعليل ما يذكر من ظواهر ، لأن ابن رستة كتب لنوع آخر من القراء : كتب لأهل العلم ، فهو يحرص لهذا على أن يخاطبهم بمنطقهم ، أما كتابنا فيقول مثلا تحت عنوان : فى ذكر الأرض وصفتها ودَوْرِها واسقاعها (بالسين) وفراسخها وأميالها :

« قالت الحكماء : اختلف تخالف الناس ممن سلف وحدّث أن الأرض كورة ومنهم من قال إنها سطح فلا يقوم لها برهان ، غير أنه تعلق بقوله عز وجل « والأرض بعد ذلك دحاها » ، وتأويل هذه الآية لا يفهمها إلا أهل العلم ، ولولا أن الله بِمَنّه دحى (كذا) الأرض ما استقر عليها أحد ، وهو قوله عز وجل « لتسلكوا منها سبلا فجاجا » ؛ وأما من قال إنّ الأرض كورة فله فى ذلك البراهين الواضحة والدلائل البينة ، منها جريُ الماء الذى على الأرض واختلاف الناظر فى الفلك ، وقِصَر الليل وطول النهار ، وإيلاج بعضه فى بعض ، واختلاف دَرَج المطالع . ولو كانت الأرض سطيحة لم يكن فى الفلك من هذا كله شيء ، ولكان الليل والنهار على حد واحد طول الدهر . واختصرنا الكلام فى هذا ، إذ ليس هذا موضعه » [ورقة ١ ظهر] . وواضح أننا لسنا أمام كلام اختصره صاحبه لضيق المجال كما قال ، بل نحن أمام كلام مبتور سيّء الصياغة ، وربما فهم مؤلفه براهين كروية الأرض كما ذكرها ، أما القراء ، فلا نظن أن أحداً منهم فهم برهانا واحداً منها كما أتى بها المؤلف .

ومن هذا الطراز قوله بعد ذلك : « اتفق جميع الفلاسفة وكل من عيّن مساحة الأرض أن الأرض ٢٤٠٠٠ فرسخاً ، وهى من الأميال ٧٢٠٠٠[1] ، وإنما أُخذ ذلك من تسمية كورة الأرض من كورة الفلك ، وذلك أن كورة

(١) الفرسخ ٣ أميال ، والميل العربى كيلومتران تقريباً ، أى أن الفرسخ ستة كيلومترات تقريباً .
Cf: Walter Hinz, Islamische Masse und Gewichte, pp. 62-63

الأرض تدور بها كورة الفلك ، وفى الفلك ٣٦٠ درجة ، تقطع الدرجة ٧٥ ميلا ، وذلك ما يمشى الماشى ما بين اليوم والليلة ، كما تقطع الشمس درجة فى اليوم والليلة ، فيكون دَوْرُ الأرض على هذا الحساب ٢٧٠٠٠ ميل[1] ، وذلك ثلاثة أثمان التكسير على اقرب التقريب » (ورقة ١ ب و ١٢) .

ثم يزيد الموضوع خلطاً بعد ذلك فيقول : « وإذا كان تكسيرها ٢٤٠٠٠ فرسخاً كان ٢٧٠٠٠ ميلا (!) وَجَب أن يكون قطرها ٩٠٠٠ ميل ، وذلك ثلث الدّور على أقرب التقريب ، والله أعلم بذلك كله » !

وإليك تقسيم الأرض بحسب ما جاء فى ذلك الكتاب :

« فصل ، فلنذكر الآن أجزاء الأرض .

اعلم أرشدنا الله وإياك أن الأرض تنقسم على سبعة أجزاء :

الأول منها : بلاد الصين وبلاد السند وبلاد الهند .

والجزء الثانى : بلاد اليمن وبحر القلزم ومصر إلى أول بلاد الشام .

والجزء الثالث : بلاد العراق .

والجزء الرابع : أرض فلسطين وذواتها .

والجزء الخامس : بلاد الشام وذواتها .

والجزء السادس : بلاد العرب وذواتها .

والجزء السابع : بلاد السودان وذواتها (ورقة ١٢) » .

واين بقية الأرض ؟ بل أين الأندلس ، وهو وطن المؤلف ؟

انه يضعه بعد ذلك فى الجزء الخامس ، لأنه فيما يلى من الكلام يقسم كل جزء إلى أسقاع (يريد أصقاع) إلا الجزء الأول ، فهو غير مقسم عنده ، وهذه الأصقاع عنده تقسيمات غير دقيقة ، فالجزء الثانى مثلا ثلاثة أصقاع :

---

(١) سبق أن قال ان دور الأرض ٧٢٠٠٠ ميل ، لأنه افترض أن مساحتها (!) ٢٤٠٠٠ فرسخ ، ثم ضرب هذا فى ثلاثة . وطول الميل العربى كيلومتران فى المتوسط ، والفرسخ ثلاثة أميال أى ٦ ك. م. ، والبريد ٤ فراسخ أى ٢٤ كيلومترا تقريباً .

« الصقع الأول حده من ساحل مدينة عدن ومدينة صنعاء إلى أرض السحارة[١] وأرض تهامة إلى جزيرة العرب ، وبها البيت الذى فرضه الله تعالى قبلة ، وفرض الحج إليه .

الصقع الثانى من الجزء الثانى حده من مكة إلى القلزم إلى حيز مدينة بايل (أيلة ؟) إلى أرض مدين إلى بلاد الشام فى الشمال . وحده فى الغرب مدينة تيمة (تيماء ؟) .

« الصقع الثالث : اعلم أرشدنا الله وإياك أنه صقع كبير فيه من المدائن مدينة مصر ، ولم يذكر الله ، عز وجل ، من مدائن الأرض [مدينة] باسمها إلا مصر ، فقال تعالى : « اهبطوا مصر فإن لكم ما سألتم » وقال تعالى « ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » وهذه المدينة قديمة البناء ، وقد سكنها كثير من الجبابرة والفراعنة والعمالقة من القبط والروم وغيرهم ، وهذه المدينة لها خمسُ صُوَر : إما بيضاء فِضِّية ، وذلك عند انتهاء النيــل[٢] عليها ، وإما حمراء مِسْكِيَّة ، وذلك وقت الزيادة ، وإما سوداء عنبرية ، وذلك عند هبوط النيل عنها ، وإما خضراء زمردية ، وذلك عند كمال نباتها ، وإما صفراء ذهبية ، وذلك عند حصاد غرسها » (ورقة ٢٤ ب) .

ثم يلى ذلك كلام طويل عن عجائب مصر يصل إلى ورقة ٣٢ ب .

« الجزء الثالث ثلاثة أصقاع ، الأول حَدُّه أرض فارس ، وهناك من المدائن مدينة غرانة . . . حتى يصل إلى اصبهان والأهواز .

الصقع الثانى ، من هذه المدينة (الأهواز) إلى مدينة سرمين وفيه بغداد .

الصقع الثالث ، حده فى المغرب إلى بلاد غانة[٣] إلى بلاد خراسان إلى بلاد

---

(١) واضح أن المراد هنا : الصحراء ، وهذا الرسم يصور النطق الدارج للفظ على ألسنة الناس فى الأندلس .

(٢) يريد : عندما يبلغ فيضان النيل منتهاه .

(٣) فرغانة ؟

التبت ، إلى حد أرض بابل ، إلى صحارى (كذا وصحتها صحارى) القيطوم . . »

وعلى هذه الوتيرة يستمر المؤلف فى الكلام حتى نهاية التقسيم ، وقد يذكر أن الجزء الرابع مثلا ينقسم إلى ثلاثة أصقاع ، ثم يذكر اثنين وينسى الثالث .

وهذه النقول تعطى القارئ فكرة عن المستوى العلمى لهذا الكتاب ، إذا صح أن نتطلب فى مثله مستوى علمياً ، لأن هذه الناحية من بناء الكتاب شديدة الاضطراب يصعب ضبطها ، وأسلوب المؤلف كما رأينا قلق غير متصل ، يصل إلى البلاغة أحياناً كما رأينا فى الكلام على مدينة مصر ، ويسف إلى العامية أحياناً أخرى كما رأينا فيما أوردناه من النماذج ، ومصنِّفه يعتمد دائماً على حسن ظن قارئه وتسامحه فى الضبط والحساب .

أما إذا تعلق الأمر بميناء من موانى البحر الأبيض التى يهم التجار والملاحين شأنها ، فإنه يتكلم عنها كلاماً غاية فى الفائدة ، وأحسن مثل لذلك كلامه عن مدينة المرية . قال (ورقة ١٦٨) « وهى مدينة عظيمة على ساحل البحر الرومى ، وهى من بنيان معاوية بن محمد الأمير[1] ، وهى مرسى الأندلس ، وإليها تقلع مراكب المشرق والاسكندرية ، وهى قيسارية الأندلس ودار صناعتها ، وفيها كان يُعمل الديباج المحكم الصنعة من المدَبَّجات المعروفة بالبغداديات ، وثياب السندس الأبيض ، وهو ديباج أبيض كله لا يخفى على أحد من صناعته شىء ، وفيها استُنبط ثياب السُنة المعروف بالُخلدى ، وليس فى ثياب الجزيرة (كذا وربما كانت صحته الحرير) انصع منه ولا اتم جمالا ، ولذلك سميت بهذا الاسم الذى هو مشتق من الخلد ، وفيها كان يصنع كل شىء حسن من الأثاث من جميع الاشياء » .

وهذا كلام دقيق واضح الفائدة ، يضيف إلى معلوماتنا عن صناعة النسيج فى الأندلس مادة جديدة ، وربما كان السبب فى ذلك أن المؤلف نفسه

(١) كذا فى الأصل ، والصحيح عبد الرحمن بن الامير محمد ، وهو عبد الرحمن الناصر ، وقد اختط المرية فى سنة ٣٤٤/٩٥٥

من المرية ، فمعلوماته عنها دقيقة محددة . ونقول ذلك لأن المعلومات التى يقدمها الزهرى عن غير المرية من موانى البحر الأبيض أقل من ذلك تحديداً وتفصيلا ، والسبب فى ذلك — فيما نحسب — أن الرجل كان مشغولا أبداً بحديث العجائب ، فلا تكاد تخطر بباله عجيبة فى مدينة أو إلى جوارها حتى يقطع الكلام ويسترسل فى الكلام عنها ، ثم ينسى أن يكمل ما استطرد عنه ، ومثال ذلك أنه يقول عن مدينة اشبونه « وهى على آخر النهر المعروف بتاجُه عند وقوعه فى البحر ، وفى هذه المدينة الموضع الثانى الذى يوجد فيه الذهب ، وسيأتى ذكر الموضع الثالث ، إن شاء الله تعالى . وهذه المدينة كثيرة الأرزاق من الزرع والحبوب وغير ذلك ، وفى هذه المدينة تفاح كالتفاح الأرمينى دور التفاحة ثلاثة أشبار وأكثر وأقل ، وبين هذه المدينة ومدينه طَلَبيرة تكون القنطرة العظيمة المعروفة بقنطرة السيف ، وهى من عجائب الأرض ...[1] » وهنا يستطرد فى وصف هذه القنطرة إلى آخر المادة .

ولولا هذه الاستطرادات لكان الجزء الذى كتبه عن الأندلس من أكثر ما لدينا فائدة ، لأن له فى أثنائه ملاحظات لا تخلو من طرافة ، مثال ذلك انه يقول عند ذكر نهر الوادى الكبير (ورقة ٥٨ ا) « وليس فى الأندلس نهر باسم عربى إلا هذا النهر ، وكذلك جبل الأندلس الذى [يطل] عليها (أى على قرطبة) يسمى

(١) انظر القطعة التى نشرها رينيه باسيه ، فى كتاب تكريم فرنثيسكو كوديرا وقد سبق أن ذكرناه ، ص ٦٣٨ — ٦٣٩ ويلاحظ أنه يشير هنا إلى تفاح شنتره الذى تحدث عنه اليسع الغافقى وأبو حامد الغرناطى ، وإنه لما يدعو إلى الدهشة استمرار أولئك الرجال فى ترديد غرائب مثل هذه دون أن يكلف واحد منهم نفسه عناء التفكير أو الاختبار البسيط ، فان التحقق مما إذا كان من الممكن أن يكون دور تفاحة ثلاثة أشبار (حوالى ٦٠ سنتيمترا) أو خمسة أشبار (١٠٠ سم) أمر ليس بالعسير ، ولكن عبودية النقل والولع بالغرائب جعلت مثل هذه العبارة يتردد فى كتاب بعد كتاب . ويذكر المؤلف هنا طلبيرة وهذا وهم وصحة الاسم طبيرة Tavira ، ميناء على الشاطىء الجنوبى للبرتغال . وعلى الطريق من الأشبونة إليها تقع قنطرة السيف Alcacer do Sal على ٨٩ ك. م. جنوب غربى الاشبونة ، ولا زالت هذه القنطرة قائمة إلى الآن على نهر سادو Rio Sado الذى يمر بالبلدة المنسوب إليها .

بجبل العروس ، وليس فى الأندلس جبل يسمى باسم عربى إلا هذا » والملاحظة غير دقيقة ، لأننا نجد بين أنهار الأندلس وجباله كثيراً مما يحمل اسماء عربية ولا يزال يحملها إلى الآن مثل الوادى الأبيض (Guadalaviar) والوادى الأحمر (Gualamar) ووادى الارز (Guadalhorce) ووادى المدينة (Guadelmedina) وجبل الثلج (Sierra Nevada) وجبال المعدن (Sierra de Almaden) وقة أبو الحسن (Mulhacén) وغير ذلك كثير . ورغم هذا فان ملاحظته جديرة بالتقدير ، فقد تكلم على قدر علمه ، والمهم انه أبدى ملاحظته طريفة .

ومن ملاحظاته التى تستوقف النظر قوله فى الكلام عن قرطبة (١٥٩) : « وكذلك فى اسفل قرطبة — اعادها الله دار إسلام[١] — على الوادى الكبير [توجد إشبيلية وتسمى][٢] عروسة مدائن الأندلس ، لأن عليها تاج الشَّرَف[٣] ، وفى عنقها سبيكة[٤] النهر ، وهذا النهر ليس فى معمور الأرض اتم حسناً منه ، لأنه يضاهى الدجلة والفرات ونيل مصر ووادى الأردن الذى بالشام فى الحسن والجمال » .

ثم يقول : « وعلى مقربة من هذه المدينة بخمسة عشر فرسخاً[٥] أو نحوها عين الزاج ، ولا يوجد هذا الزاج فى معمور الأرض ، وإذا ما اسود يخرج من عين ، وينعقد منه على ضفتي هذه العين الزاج وغيره ، وهذه العين فى

---

(١) لا تدهشنا هذه العبارة هنا فهى إضافة من النساخ فيا بعد ، ومثل هذا كثير فى مخطوطات أخرى من ذلك الكتاب .

(٢) سقطت هذه العبارة من الأصل .

(٣) الشرف ، ويسمى إلى الآن Ajarafe أو Aljarafe هو الأراضى المرتفعة غربى الوادى الكبير وإلى الشمال الغربى من اشبيلية ، وإقليم الشرف مشهور بزيتونه .

انظر ، الروض المعطار لابن عبد المنعم الحميرى ، ص ١٠١ — ١٠٢ والترجمة الفرنسية ، ص ١٢٤ وتعليق ٤

(٤) فى الأصل سمك ، ولا معنى له هنا .

(٥) الفرسخ ، كما ذكرنا ، ٦ ك. م. تقريباً .

آخر شَرَف إشبيلية . . . ومن هذه الشرف يجلب الزيت إلى بلاد الروم وبعض بلاد الأندلس وإلى جميع بلاد المغرب وافريقية ، وإلى أرض مصر والاسكندرية ، وربما بلغ منه إلى اليمن قليـــل ، وهذا الزيت أطيب زيت المعمور كله وأَوْدَكه[1] ، وذلك أن كل زيتون بجميع الأرض لا يبقى أكثر من سنة واحدة ، ويعفّن ، ولا يخرج منه زيت ، وزيتون هذا السّقع (يريد الصقع) يظل تحت الأرض عشرين سنة وثلاثين سنة وأكثر من ذلك ، فيكثر زيته ويخرج . . . »[2] ويقول بعد ذلك (١٦٠) : « وبالغرب من إشبيلية على نحو الفرسخ معدن التراب[3] الذى يعمل منه النَّبل ، ولا يوجد هذا التراب فى الأندلس إلا فى هذا الموضع ، ومنه يجلب إلى جميع بلاد الأندلس للطباعين ، ومن عجب هذا التراب أنه ينبت كما ينبت الطّفل » .

وهذه الملاحظات ذات القيمة الاقتصادية كثيرة جداً فى الكتاب ، وهى تؤيد ما ذهبنا إليه من أنه مجموع صنف للتجار والملاحين ، وواضح أنه لا يهتم بشىء قدر اهتمامه بالحاصلات وعيون الثروة ، وهذه هى التى تهم أولئك الناس فى المكان الأول .

ومن أحسن فقرات « جغرافية » الزهرى عن الأندلس تلك التى يتكلم فيها عن غرناطة ، فهى لا تدل فقط على أنه عاش فى هذا البلد زمناً وعرف ما فيه معرفة تامة بل تكشف عن حقيقة هامة ، وهى أن الكثير من منشآت

---

(١) فى الأصل : كلها وأودكها ، وصوبته للسياق . وأودكه أى أكثره مادة دهنية ، لأن الودك هو الدهن .

(٢) قارن بذلك ، الروض المعطار ، ص ٢١ و ١٠١

(٣) يريد تراب الحديد ، والمقصود الأحجار التى تحوى معدن الحديد وهى كثيرة فى الجبال الواقعة شمال إشبيلية وتمتد بعد ذلك شمالا بغرب وكانت تعرف عند جغرافيينا باسم جبال المعدن ، واسمها الحالى سيرا مورينا Sierra Morena أى الجبال السمراء ، وفيها إلى اليوم مناجم حديد ، ولا تزال توجد هناك إلى اليوم بلدة كبيرة تسمى المعدن Almaden تقع على بعد ١١٨ ك. م. شمالى قرطبة فى مديرية ثيوداد ريال ، والمراد بالطباعين هنا الحدادين الذين يطبعون النبال والسيوف أى يصنعونها .

غرناطة المنسوبة إلى بنى الأحمر كانت قائمة فيها قبل أن يتخذها محمد بن يوسف ابن الأحمر عاصمة ويشرع فى تحصينها وتعميرها فى سنة ٦٣٠/١٢٣٢ — ١٢٣٣ ؛ فان الزهرى كان فيها حوالى سنة ٥٤٥/١١٥٠ — ١١٥١ لأنه شهد منـــارة قادس قبل هدمها فى هذه السنة ، ثم حَدَّثَهُ بأمر هدمها واحد من الذين حضروا ذلك ، أى بعد سنة ٥٤٥ . وحتى إذا فرضنا أن ذلك كان فى شبابه ، فانه يستبعد أن يكون قد عاش إلى ما بعد سنة ٦٣٠ ورأى منشآت محمد بن يوسف بن الأحمر فيها ، فلم يبق إذن الا القول بأن غرناطة التى عرفها ووصفها هى غرناطة قبل بنى الأحمر . وإليك وصفه لها ، نثبته لما له من الأهمية (ورقة ٦٤ ب) : « ومدينة غرناطة على النهر الكبير المسمى بوادى شِنِّيل ، يشق وسطها ، ومنه يؤخذ الذهب الأحمر الذى ليس فى الأرض أطيب منه ، وهو الموضع الثالث من الأندلس الذى تقدم ذكره ، والذهب الذى يؤخذ فى هذا النهر انما هو ورقه ، وأكثر ما يوجد هذا الذهب فى وسط المدينة فى الموضع المعروف بالبردوية[1] [عند] باب القنطرة المعروفة بقنطرة الحرائين والقنطرة المعروفة بقنطرة القاضى فى مصب الخندق المنصب من جبل السبيكة ما بين الحمرة[2] ومَرُور[3] . وقد يوجد فى باب الوادى وأسفله يسير من الذهب . وهذا الذهب إذا جُمع فانه يَنْباع

---

(١) كذا فى الأصل ، ولعل صحته البنيده أو باب البنيدة وهو أحد أبواب غرناطة القديمة التى لا زالت آثارها باقية إلى اليوم إلى جوار باب البيرة وباب زايدة Bib Coida فى شمال غربى غرناطة إلى الشمال من حى البياسين .

(٢) الحمرة أو باب الحمرة هو الرسم العامى للاسم الأصلى للباب الرئيسى من أبواب الحمراء ، وهو يلى الباب المعروف بباب الشريعة ، ويسمى هذا الباب الآن باسم بويرتا دل بينو أى باب الخمر ، ولا علاقة لهذا الباب بالخمر ، وإنما هو باب الحمرة حرفت إلى الخمرة وترجمت إلى البينو . وكان المظنون أن هذا الباب من انشاء بنى الأحمر ، ولكن يرى من هذا النص أنه كان موجوداً قبلهم .

(٣) كذا فى الأصل ، والأصح موروور والمراد ربض موروور إلى شمال غرناطة ، وكان عنده باب موروور ، نسبة إلى مدينة موروور وهى اليوم Morón . وباب موروور كان يسمى إلى عهد قريب باب الشرق Bib Axarc ثم سمى باب الشمس Puerta del Sol .

مثقاله بزايد على جميع الذهب بالرّبع والخمس فى القيمة . وهذا النهر يدخل غرناطة من ناحية الجوف ، ويخرج قبليها ما بين القصبتين (١) على باب محكم الصنعة على البناء ، قد علق عليه رُقُوقٌ مصفحة . وفى جوف هذا الباب بابان صغيران لاستقاء الماء وقت الحرب ، ولا يوجد مثل هذا الموضع فى الأندلس إلا فى غرناطة . وهذا النهر يشق غرناطة بشطرين ، قد بنى عليه أربع قناطر عالية البناء ، يجوز الناس عليها من النصف الواحد إلى النصف الثانى ، وهذه المدينة كثيرة البرودة والثلج ، ليس فى بلاد الأندلس أكثر منها برداً . ومن هذه المدينة يجلب الكتان والحرير إلى جميع بلاد الأندلس وبلاد المغرب ، ومن أحد عجائب هذه المدينة أن فيها طلسما من اللاطون . . . »

وقد بينا فى تعليقاتنا أهمية بعض ما تكشف عنه هذه الفقرة عن غرناطة قبل بنى نصر ، وهى من هذه الناحيـة وثيقة غاية فى الأهمية بالنسبة لمن يدرسون تاريخ غرناطة ، ولا يتسع المقام هنا للكلام بتفصيل عن كل الحقائق التى تكشف عنها هذه الفقرة .

وللمؤلف فى أثناء كلامه عن الأندلس ملاحظات عظيمة الفائدة ، وهذه الملاحظات تقع فى حديثه عن النواحى التى زارها وعرفها ، وقد رأينا حديثه عن المرية وغرناطة ، ومثل ذلك أيضاً حديثه عن صنم قادس ، وهى المنارة الكبيرة التى يقال انها كانت قائمة على ساحل البحر قرب قادس ، وتعرف فى الروايات اللاتينية باسم Colunnae Herculis أى أعمدة هرقل ، وذِكرُها كثير فى مراجعنا الأندلسية ، ولكن الزهرى رآى تلك المنارة قبل هدمها سنة ٥٤٥/ ١١٤٩—١١٥٠ ووصفها بغاية الدقة كما رآها ، ثم حدثه بعض أصحابه بأمر هدمها ، والفقرة عظيمة الأهمية ، لأنها تدل على أن الزهرى كان حَيًّا فى ذلك الحين ،

(١) أى القصبة القديمة على التل الذى يقوم عليه حالياً حى البياسين ، وكانت هذه القصبة تسمى قديماً حصن الرمان ومنه جاء اسم غرناطة للبلد كله ، ولم يسم بالبياسين إلا بعد هجرة نفر من أهل بياسة Baeza إليه وسكناهم فيه . وهذه العبارة تدل على أن القصبة الجديدة وهى قصور الحمراء اليوم كانت قائمة قبل بنى نصر .

وأنه كتب كتابه بعد سنة ٥٤٥ بقليل ، وقد نشر دوزى هذه القطعة بأكملها وعلق عليها (الأبحاث ، ج ٢ ملحق ٣٥ ص ٨٩ من الملاحق العربيـــة) مما يعفينا من إيرادها هنا ، ولكننا نجتزىء منها بفقرة تدل على دقته فى وصف ما شاهد ، وننشرها بحسب ما ورد فى مخطوطة أكاديمية التاريخ فى مدريد ، رقم ٣٥ ورقة ٦٠ ا وما يليها مراجعةً على ما نشره دوزى بناء على مخطوط المتحف البريطانى ورقة ٦٩ ب وما يليها) : « وكانت فى هذه المدينة (قادس) المنارة العجيبة ، وكان ارتفاعها مائة ذراع ، وكانت مربعة مبنية بالكذّان الأحرش المحكم النجارة معقّدة فى أعمدة النحاس الأحمر ، وكان فى رأس هذه المنارة مربّع ثانٍ قدر ثُلث الأول ، وكان فى رأس هذا المربع الصغير شكل مثلث محدود له أربعة أوجه ، على كل وجه من المربع الصغير وجه من المثلث ، ففى رأس تحديد المثلث رخامة بيضاء مربعة من شبرين فى شبرين ، وعلى تلك الرخامة مثال صورة ابن آدم من أبدع ما يكون من الاتقان وأحسن ما يكون من الانشاء ووجهه لناحية المغرب مما يلى البحر ملتفتاً على ناحية الشمال ، قد مدّ ذراعه الشمال وقبض أنامله وأشار بسبابته على فم الخليج الخارج من البحر الأعظم المسمّى بالزقاق المعترض بين طنجة وبين جزيرة طريف ، كأنه يُرِى السالكَ ، وقد أخرج يده اليمنى للبر تحت لحافه وقبضها ، وفى يده عصى كانه يشير برميها إلى البحر . وزعم كثير من الناس أنه مفتاح ، وهم فى ذلك على باطل من القول ؛ قال المؤلف لقد رأيته مراراً ولم أر فى يديه مفتاحاً ، وانما يظهر فى يديه شبه عود صغير لبعده من الأرض . ولقد أخبرنى من حضر هدم الصنم — وكان من العرفاء الذين حضروا تلك المنارة — أن الذى كان بيده عصى طولها اثنا عشر شبراً وفى رأسها شكاشف كالفرجلة وسيأتى ذكر هدم هذه المنارة فى موضعه ، ومنذ هدمت هذه المنارة انقطع دليلها ، وكان هدمها سنة أربعين وخمسمائة[1] فى أول الفتنة

---

(١) كذا فى الأصل ، والصحيح ٥٤٠ ، وسيذكر المؤلف هذا التاريخ فيما بعد .

الثائرة ببلاد الأندلس ، هدمها على بن عيسى بن ميمون ، حين شاع فى جزيرة قادس أن ذلك التمثال من الذهب ، فلما قلعه وجده من اللاطون ، وقد غسل بالذهب الطيب ، فجرِّد عنه ١٢٠٠٠ دينار من الذهب ، فبطلت حركته من البحر ... »

ومن الأخبـار الشبيهة بهذه فى الكتاب خبر « البيلتين » اللتين صنعهما أبو القاسم بن عبد الرحمن بن رز ليسجل بهما أيام الشهر القمرى يوما يوما عن طريق ما يدخلها من ماء نهر تاجة بتأثير المد الذى يتـــابع تطور القمر . والبيلة هى الحوض ذو البالوعة (بالإسبانية pila) ، وقد بنى ذلك المهندس العربى هذين الحوضين داخل غرفة ابتناها فى الماء ، وجعل ثقبى الحوضين على سطح الماء بحيث إذا مَدَّ النهر وعلا الماء دخل منه فى الحوضين بقدر ما علا ، وإذا جزر نقص من ماء الحوضين بقدر جزر ماء النهر ، وقد نقلها عنه المقرى مع بعض التعديل[1] وشوّه اسم المهندس ، فرأينا أن نأتى بها هنا على تواليها ، لأنها نموذج من أحسن صفحات هذا الكتاب وأقربها إلى روح العلم . وقد أورد الزهرى خبر هاتين البيلتين فى الفصل الذى اختص به طليطلة ، وهو يتضمن معلومات طيبة لها قيمتها ، ولهذا فسنورده كله ونعلق عليه بما يسمح به المقام ، وسنأخذ بأحسن ما يتراءى لنـــا من قراءات المخطوطات ، تاركين مفارقاتها لمن يريد أن يتتبع ذلك فى فقرات نص الزهرى كما نشره رينيه باسيه فى مجلد تكريم كوديرا .

« فصل : وكذلك من أعظم بلاد الأندلس مدينة طليطلة وهى مدينة عظيمة قد أحدق بها النهر المسمى بنهر تاجه وهى من بنيان الخزر وقيـــل أنها من

---

(١) لتمر هذه الفقرة ضمن ما لشر من وصف الأندلس من جغرافية العذرى رينيه باسيه فى مجلد التكريم المهدى إلى فرانثيسكو كوديرا (سبق أن أوردنا عنوانه) ، ص ٦٣٢ — ٦٣٤ وأورده المقرى فى النفح ، ١/١٩١ — ١٩٢ وعن لفظ بيلة أنظر رحلة ابن جبير ، بتحقيق وليـــام رايت ، (جامع المفردات) ص ١٨ و Simonet, Glosario de Voces Ibéricas y Latinas, p. 438

بنيان القوطيين ، وهى كانت دار ملكهم ودار ملك الروم من بعدهم ، وأصح الروايات أنها كانت من بنيان الخزر الذين كانوا فى مدة ابراهيم عليه السلام وقال ابن الجزار فى كتاب عجائب البلدان : أنه سكن فى هذه المدينة ابن النمرود وهو فرعون ابراهيم عليه السلام حين ولاه أبوه بلاد المغرب ، ومنها خرج إلى ساحل قرطجنة بكورة تدمير فى الأندلس ، وسيأتى ذكرها فى موضعها إن شاء الله تعالى . ومن عجائب طليطلة أن القمح يبقى فيها سبعين سنة وثمانين سنة لا يتسوس وهى كثيرة الزرع والضرع » .

« وفيها العجب العجيب الذى ما صُنع فى الدنيا مثله وهما البيلتان اللتان صنعهما أبو القاسم بن عبد الرحمن المعروف بابن رز ، قال : وذلك أنه عفا الله عنه لما سمع بذكر الطلسم الذى بمدينة أرين من أرض [الهند] الذى ذكر المسعودى أنه يدور باصبعه مع الشمس من طلوعها إلى غروبها كما تقدم ذِكره فى عجائب الهند ، صنع هو هاتين البيلتين ، وهما فى خارج طليطلة فى بيت فى جوف النهر الأعظم فى الموضع المعروف بباب الدباغين ، فمن عجائب هاتين البيلتين أنهما تمتلئان وتنحسران مع زيادة القمر ونقصانه ، وذلك أنه إذا كان الوقت الذى يُرى فيه الهلال يخرج فيهما شىء من ماء ، فاذا أصبح كان فيهما رُبع سُبعهما من ماء ، فاذا كان آخر النهار انكمل فيهما نصف سبع ، فلا يزال كذلك يزيد بين اليوم والليلة نصف سبع حتى تنكمل سبعة أيام وسبع ليال فيكون فيهما نصفهما ، ثم يزيد كذلك نصف سبع فى كل يوم وليلة حتى ينكمل امتلاؤهما بكمال القمر ، فاذا كان فى ليلة خمس عشرة وبدأ القمر فى النقصان نقصتا بنقصان القمر فى كل يوم وليلة نصف سبع ، حتى يكون من الشهر أحد وعشرون يوماً واحدى وعشرون ليلة فينقص منهما نصفهما . ولا يزال كذلك ينقص كل يوم وليلة نصف سُبع ، فاذا كان من الشهر تسعة وعشرون يوماً لا يبقى فيهما شىء من الماء . وإذا تكلف أحد حين يكون فيهما الماء دون امتلاء وجلب لهما الماء وملأهما ابتلعتا ذلك من حينهما حتى لا يبقى فيهما

شىء من الماء الا ما كان فيهما فى تلك الساعة ، فهذا ماء داخل وماء خارج[1] ، وكذلك لو تكلف أحد عند امتلائهما أن يفرغهما حتى لا يبقى فيهما شىء ثم ازاح يده عنهما خرج فيهما من الماء ما يملأهما فى ساعة واحدة ، فهما أعجب وأشنع ، وان كان الصنم الذى بمدينة أرين الذى تقدم ذكره عجيباً فهذا أعجب منه ، لأن ذلك فى نقطة الاعتدال من الفلك والأرض بالموضع الذى لا ينقص فيه ليل ولا نهار ، وأما هاتان البيلتان إنما هما بالموضع الذى ينقص ليله ويزيد نهاره خارجاً عن الاعتدال ، فهذا أغرب من ذلك الصنم والله أعلم » .

« وكانت هاتان البيلتان فى بيت واحد ، فلما اتصل خبرهما بملك طليطلة الادفونش أراد أن يبحث عن حركاتهما فأمر أن تقلع الواحدة منهما لينظر من حيث يأتى إليها المـاء ، وكيف حركاتها ، فانبطلت حركة الواحدة وكان قلعها وفسادها فى عام ثمانية وعشرين وخمسمائة ، وكان سبب فسادهما حنين بن ربوة اليهودى المنجم لعنه الله ، الذى جلب حمام الأندلس كلها إلى طليطلة فى يوم واحد ، وكان ذلك فى عام سبعة وعشرين وخمسمائة ، وأخبره أن ولده سيدخل قرطبة ويملكها ، فاراد اليهودى أن يكشف حركة البيلتين فقـال أنا أقلعهما وأردهما كما كانتا وأحسن ، وأردهما تمتلئان بالنهار وتنحسران فى الليل ، فلما قلعهما لم يقدر على ردهما ، وإنما أراد أن يسرق من صنعتهما ، فبقيت الواحدة معطلة والثانية باقية على حالها » .

وواضح أن الزهرى نقل هذه الفقرة برمتها من كتاب ابن الجزار الذى أشرنا إليه ، فان الكلام فيها على متسق صادر عن فهم صحيح لتركيب هاتين البيلتين وقائم على علم وثيق بالفلك ، ولا نسبة مطلقاً بين هذه الفقرة وأمثالها وتلك الفقرات الخرافية المهلهلة معنى وأسلوبا التى أتينا بنماذج منها ، وإنه لمن الغريب حقاً أن يجتمع الردىء جداً والجيد جداً بين دفتى كتاب واحد ، فهذا

(١) يريد : وذاك ماء خارج .

ليس تأليفاً أو تصنيفاً وإنما هو حشد احتطاب بِلَيْلٍ يؤيد ما افترضناه فى أمر هذا الكتاب ، وهو أنه مجموع من المعلومات احتطبها صاحبها من أى مصدر تيسر له : من أفواه الرحالة وأخبار التجار وأقاصيص السُّفَّار وحكايات السُّمَّار مع صفحات من كتب قيمة وأخرى غير قيمة . جُمعت كلها دون تكلف ترتيب أو تنسيق وسيقت شرحاً لخريطة مما كان الملاحون وأهل الرحلات يستعينون به ، وانصرف الاهتمام فيها إلى التجارات والمحصولات وما إليها مما يهم التجار وأهل الأسواق والملاَّحين .

ونخرج من هذا بأن كلام الزهرى عن الأندلس مقبول لا يخلو من الفوائد على الجملة ، وقد حفظ لنا قطعاً كثيرة من كلام ابن الجزار عن شبه الجزيرة ، ولا شك أن كتاب ابن الجزار هذا كان من أحسن ما كتب عنها . ونص كتاب الزهرى يزيد فى بعض فقراته فائدة على نص ابن عبد المنعم الحميرى فى الروض المعطار ، ولا شك أن نشره كاملا يضيف إلى معلوماتنا الجغرافية عن ذلك البلد .

أما كلامه عن غير الأندلس فيتفاوت من حيث القيمة ، فهو يجيد الكتابة — على طريقته — عن مصر والشام وجزيرة العرب ، وهذه الجودة تقل شيئاً فشيئاً كلما اتجه نحو الشرق ، حتى إذا وصل إلى الصين لم نجد إلا حديث خرافة ، ولكن الزهرى يحرص دائماً على إيراد المعلومات التي تهم التجار ما أمكنه ذلك ، فهو يقول عن خراسان (١٣٨) « ومن هذه المدينة تجلب الثياب المعروفة بدبيقان ، وهى ثياب رقاق من القطن مرقومة بالذهب وألوان السندس الملون بأحسن الصِّباغ ، وهذه الثياب لا توجد فى غير هذه المدينة ، ومنها تجلب إلى أقطار الأرض » وأمثال هذه المعلومات القيِّمة تقل فى حديثه عن بعض البلاد كالهند مثلا ، فان كلامه عنها سلسلة من أحاديث الخرافة والعجائب ، كأنما صرفته هذه الأعاجيب عن منهجه فمضى يتحدث عن الأفاعى والطيور العجيبة والغيلان المفترسة والأحجار السحرية والأشجار الغريبة فلم يعد يذكر منهجه إلا لماماً . ومن أمثلة عجائبه هنا قوله عن شجرة السيرج : « وهو

شجر طيار كبار ، تثمر فى كل عام فى شهر نيسان بجوز كبار ، وإذا كان شهر يونيه جمعت تلك الجوز ، وأخرج منها أطيار فى شكل الزرازير ، يطبخونها ويأكلون لحمها » (٩ ب) . ويلاحظ استعماله الأشهر السريانية والرومانية هنا ، مما يدل على أنه يُثبت ما سمع كما هو ، ولكنه لا ينسى الحاصلات والمعادن أبداً ، فهو مثــلا يتحدث عن جزائر السند ، ويذكر إحدى جزرها ويقول (ورقة ١١٩) : « وفيها معدن الحديد ، ومنها يجلب إلى بلاد الهند والصين . كذلك يجمع فيها كثير من الذهب ، ويوجد فيها كثير من اللبان وكثير من الشيطرح (؟) » ، ثم يقول بعد ذلك « واختصرنا بلاد السند ، إذ ليس فيها أعجوبة تذكر ، فلنذكر الآن ما يأكلون من الحبوب والفواكه ، وأخلاق أهلها وصفاتهم وأديانهم وشرائعهم » ثم يذكر بعد ذلك كلاماً هو أوغل ما يكون فى الغرابة والبعد عن التصديق ا ، ويختمه بقوله : « وأكثر طعامهم القطانى وقليل من القمح ، وربما بلغ إليهم أحياناً زيت الزيتون ، وإنما زيتهم زيت الشمس وزيت الشحم ، وعندهم من الفواكه الكمثرى وعين البقر وقليل من التفاح ، ولكن يجلب إليهم كثير من التمر من بلاد العراق والزبيب من بلاد اليمن ، ويجلب إليهم من بلاد الحبشة كثير من طعامهم الذى يزرعونه عندهم على النيل [1] مثل الفول وغير ذلك » . وهكذا يجمع الرجل بين ما يشوق التاجر والملاح وما ينفعهما : حديث العجائب وحديث المتاجر .

والخلاصة أن حديث العجائب فى هذا الكتاب جزء من صلبه وتكوينه ؛ وعجائبه تتراوح بين عجائب المنشآت والصنعة — ما هو ممكن منها وما هو غير ممكن — وعجائب الأرض والمخلوقات من الطراز الذى رأينــاه عند أبى حامد الغرناطى ومن طرز أخرى شبيهة بما نقرأ فى ألف ليلة ، وهذه العجائب تكثر فى النواحى البعيدة التى لا يعرف الناس عنها كثيراً مثل نواحى خط الاستواء

---

(١) كذا فى الأصل ، والغالب أن المراد : على طريقة الرى كما هو الحال فى وادى النيل .

والهند والصين ، فهو يذكر فى خط الاستواء حيوانًا شبيهًا بالقرد يسمى الزمردة « ذات سم زعاف يقتل من ساعته » (ص ٢ ب — ١٣) ، ثم يذكر طير الرخ ، ويضيف إلى ما نعرف من عجيب خلقه أنه يأكل بفمين ، ومن الطريف أنه يقول بعد ذلك : « وذكرت الحكماء فى هذه الأرض ما لا تقبله العقول ، واختصرنا ذكرها لبعدها عن الوجود ، والله أعلم » !

ثم ينسى أنه قال ذلك ، ويمضى فى الحديث عن جنوب خط الاستواء ويقول : « فمن نشأ وخُلق تحت الأبراج الشمالية فلا يستطيع دخول النصف الجنوبى ، لأنه يتغيب عليه الهواء ، ويرجع رأسه إلى ناحية الأبراج الجنوبية وقدماه إلى الناحية الشمالية ، وذلك بضد ما خلق فيه من الهواء ، وإنما يدخل النوبة والحبشة[1] فى هذا الموضع على خط الاستواء على ما تقدم ذكره لأنهم نشأوا ما بين الجنوب والشمال ، فهواؤهم ممتزج بعضه ببعض ، فلذلك يدخلون فى هذه الأرض عشرين فرسخًا ونحوها ، ثم يغلب عليهم الهواء ويقتبلون (يريد ينقلبون) فى الأرض ، فلا يمشون فى الأرض لذلك كله » .

وتكفى هذه العجيبة ، فإن الكتاب ملئ من أمثالها ، والزهرى حريص على إيرادها فى كل فقرة من كتابه تشويقًا لقارئه وامتاعه بهذه الأحاديث التى أصبحت بعد أبى حامد الغرناطى جزء من الجغرافية ، بل أصبحت هى الجغرافية كلها فى كثير من الأحيان .

أبو بكر بن العربى وميلاد أدب الرحلات فى الأندلس

ونختم هذا الفصل عن معاصرى الإدريسى بالكلام عن ناحية من نواحى نشاط الفقيه الأندلسى محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن العربى المعافرى (٤٦٨ — ٥٤٢ / ١٠٧٦ — ١١٤٨) نَبَّهَ إليها أغناطيوس كراتشكوفسكى فى

---

(١) يريد أهل النوبة والأحباش .

كتابه الجامع عن تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، وهذه الناحية هى مؤلفات ابن العربى فى وصف رحلته إلى المشرق ، وحديثه عما زار من البلاد ومن لقى من العلماء .

وقد أصاب العلامة الروسى عندما قال إن ابن العربى « أول من وضع الأساس لهذا الفن حسب علمنا »[1] لأن ما وصل إلينا من أوصاف رحلات ابن العربى هو بالفعل أقدم ما وصل إلينا من ثمرات هذا الفن فى الأندلس ، وقد يكون غيره قد سبق إلى ذلك ، ولكن شيئاً من ذلك لم يصلنا على أى حال .

وقد كتب ابن العربى وصفاً مفصلا لرحلاته سماه « ترتيب الرحلة للترغيب فى الملة » لم تصل إلينـــا منه إلا فقرات فى كتب شتى سنشير إليها ، وذكر أطرافاً من أخبار رحلته ومن لقى من العلماء فى خطبة كتابه المسمى « قانون التأويل فى تفسير القرآن » ، وقد ضاع هذا الكتاب أيضاً ، وليس لدينا منه إلا نقول ؛ ثم استخلص من « ترتيب الرحلة » بضع رسائل شبه رسمية كتبها إلى الخليفة المستظهر يتحدث إليه فيها عن أفضال المرابطين وخدماتهم للإسلام ، ورسائل أخرى كتبها له محمد بن محمد بن محمد بن جهير وزير المستظهر ، وخطابات أخرى يرد تفصيلها فيما بعد ، وجمعها كلهـــا فى رسالة نستطيع أن نسميها « شواهد الجلة والأعيان فى مشاهد الإسلام والبلدان[2] » وهذه الرسالة هى التى وصلت إلينا كاملة تقريباً .

ولسنا فى حاجة إلى أن نقف طويلا عند حيـاة أبى بكر بن العربى ، فقد أجملنا خطوطها الرئيسية فى « تاريخ الفكر الأندلسى » ، وعَرَضَها عرضاً سريعاً كراتشكوفسكى فى كتابه ، وتحدث عنه بونس بويجس فى كتابه مع تفصيل مشكور ، وجمع كل المادة الموجودة عن حياته محب الدين بن الخطيب

(١) اغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكى ، تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، نقله عن الروسية صلاح الدين هاشم ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ١/٢٩٨

(٢) استخلصت هذا الاسم من عبارة وردت فى السياق وسيجىء ذكرها .

فى مقدمته الحافلة لكتاب «العواصم من القواصم» لابن العربى (القاهرة ١٣٢٧) وأحصى كذلك كل مؤلفاته وأعماله .

وسنورد هنا ما لابد لهذا البحث من معرفته من حياة ابن العربى الحافلة بالحركة والأحداث . ولد فى اشبيلية فى ٢٢ شعبان ٤٦٨ / ابريل ١٠٧٦ وكان أبوه عبد الله بن محمد بن أحمد بن العربى (٤٣٥ — ٤٩٣ / ١٠٤٣ — ١٠٦٩)[١] من علماء اشبيلية المعروفين وإليه يرجع الفضل فى توجيه ابنه نحو العلم والدراسة . أما أمه فقد كانت من بيت من بيوت العلم والرياسة فى اشبيلية ، فكان أخوها الحسن بن عمر بن الحسن الهوزنى (٤٣٥ — ٥١٢) «فقيهاً مشاوراً عاليا فى روايته ، ذاكراً للأخبار والحكايات ، حسن الايراد لها»[٢] ، أما أبوها عمر بن الحسن بن عمر بن عبد الرحمن بن عمر الهوزنى (٣٩٢ — ٤٦٠) فكان عالماً ، ولكنه تطلع إلى السياسة ونافس المعتضد بن عباد فى الاستئثار بالسلطان ، ولم يستطع الثبات أمامه ، فقتله المعتضد « بيده ، ودفنه بثيابه وقلنسوته ، وهيل عليه التراب داخل القصر »[٣] . ويبدو أن تلك النهاية المحزنة كان لها أثر على البيت كله ، فاستكان أفراده لبنى عباد على نفور وكراهة . ومن الثابت على أى حال أن خال أبى بكر بن العربى وهو أبو القاسم الحسن بن عمر الهوزنى كان من الساعين فى القضاء على بيت بنى عباد ، ومن المحرضين ليوسف بن تاشفين على ذلك ، حتى خُلع المعتمد بن عباد ونفى إلى أغمات .

وفى هذه السنة بالذات ، وبعد أن صارت اشبيلية فى ملك المرابطين كانت سن أبى بكر بن العربى ١٦ سنة ، فخرج به أبوه فى رحلة حج ودراسة وسماع إلى المشرق ، وخلال هذه الرحلة إلى المشرق نلاحظ أن أبا بكر بن العربى

---

(١) ابن بشكوال ، الصلة ، ص ٦٢٠

(٢) نفس المصدر ، ص ٣١٥

(٣) نفس المصدر ، ص ٨٦٠

كان متفتح الذهن. واعياً لما يمر عليه من بلاد وناس ، وسيدون بعض ملاحظاته عن رحلته هذه فى « ترتيب الرحلة » وفى بعض فقرات « قانون التأويل » ، ثم فى « شواهد الجلة والأعيان » ، ونلاحظ عليه فى هذه السن الباكرة حماساً للمرابطين وتقديراً عظيماً لهم .

لم تكن رحلة الأب والابن بالبحر يسيرة ، فقد ألجأتهما الأنواء إلى الرسو فى ميناء بجاية ، وكان فى ذلك الحين مرسى صغيراً لم تمض على إنشائه سنوات ، فقد اختطه سنة ٤٥٧/١٠٦٥ محمد بن البَعْبَع أمير البحر لتميم بن المعز ابن باديس الزيرى ، ورغم ذلك فقد كان فيه نفر من العلماء سمع منهم أبو بكر وأبوه ، وهو يذكر بصفة خاصة أبا الحسن على بن محمد بن ثابت الحداد الخولانى المقرئ ويقول عنه « فكنت أحضر عليه كتابه المسمى بالاشارة وشرحها من تأليفه » . ثم انتقلا إلى المهدية فى أواخر ٤٨٥/١٠٩٢ وهناك لقى ابنُ العربى الامام أبا عبد الله محمد بن على المازرى (٤٥٣ — ٥٣٦/١٠٦١ — ١١٤١) وسمع عليه .

ومن المهدية رحل أبو بكر مع أبيه بالبحر إلى الاسكندرية ، ولكن البحر كان أقسى عليهم هذه المرة مما كان فى المرة السابقة ، فثارت عاصفة حطمت السفينة ، وكاد ابن العربى وأبوه يغرقان ، ولكنهما استطاعا الوصول إلى الشاطئ فى أسوأ حال ، وسيصف ابن العربى ذلك فى « قانون التأويل » وكان خروجهما من البحر فى موضع من ساحل طرابلس تسكنه بيوت من بنى كعب بن سُلَيم ، فأكرمهم رئيس أولئك السُّلَمِيِّين ، ثم واصلا السير إلى الاسكندرية .

لم يطل مقام أبى بكر وأبيه فى الاسكندرية ، بل اتجها إلى القاهرة فوصلاها قبل نهاية سنة ٤٨٥/١٠٩٢ وكان الخليفة إذ ذاك هو المستنصر والدعوة الفاطمية على أشدها وعلماء السنة يسترون مجالسهم لاسماع تلاميذهم ، فكان ابن العربى يذهب إلى القرافة الصغرى قريباً من قبر الامام محمد بن إدريس الشافعى ليسمع دروس القاضى أبى الحسن على بن الحسين بن محمد الخلعى

(٤٠٥ — ٤٩٢) وكان كبير مشايخ الشافعية فى وقته حتى كان يلقب بمسند[1] مصر . وسمع فى مصر أيضاً من أبى الحسن على بن شرف ومهدى الوراق ، وأبى الحسن بن داوود الفارسى[2] .

ثم انتقـل أبو بكر بن العربى إلى بيت المقدس ، وهناك لقى أبا بكر محمد بن الوليد الطرطوشى الفهرى المعروف بابن أبى رَنْدَقه (٤٥١ — ٥٢٠/ ١٠٥٩ — ١١٢٦) وهو أندلسى مثل ابن العربى ، ولم يكن قد استقر بعد فى الاسكندرية ، وقد أفاد ابن العربى كثيراً من دروس الطرطوشى وسمع ما كان يدور أثناءها من المناقشات وشارك فيها ، واستلفت انتباهَه بصفة خاصة موضوعُ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو موضوع ظل يشغل بال ابن العربى من ذلك الحين ، لأن علماء الأندلس كانوا يشعرون بعد ضياع الخلافة وتفرق بلادهم أن من واجبهم رعاية قومهم عن طريق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كما بيناه فى دراستنا عن « شيوخ العصر فى الأندلس » وسيكتب ابن العربى عن ذلك الموضوع كثيراً فى كتبه . ومن الموضوعات التى أثيرت فى مجالس الطرطوشى موضوع فضل الصحابة على[3] غيرهم ، وربما كان هذا هو الذى أوحى إلى ابن العربى فيما بعد كتابه المسمى « العواصمُ من القواصم » .

وأقام ابن العربى فى بيت المقدس ثلاث سنوات سمع فيها إلى جانب الطرطوشى دروس ابن الكازرونى ، وقال فيه « كان يأوى إلى المسجد الأقصى ، ثم تمتعنا به ثلاث سنوات ، ولقد كان يقرأ فى مهد عيسى (أى فى بيت لحم) فيُسمع من الطور ، فلا يقدر أحد أن يصنع شيئاً دون قراءته إلى الاصغاء إليه[4] » . وتجول ابن العربى بعد ذلك فى نواحى فلسطين وزار وادى موسى ووصفه فيما بعد .

---

(١) السبكى ، طبقات الشافعية ، ٣/٢٩٦

(٢) محب الدين الخطيب ، مقدمة العواصم من القواصم ، ص ١٤

(٣) محب الدين الخطيب ، ص ١٥

(٤) نفس المصدر والصفحة . وقد رواها محب الدين على هذه الصورة ، ومن الواضح أن العبارة فى حاجة إلى تقويم .

ثم انتقل إلى دمشق وسمع على نفر من شيوخها ، ودخـل بغداد حوالى سنة ٤٩٠/١٠٩٧ فى أوائل خلافة أبى العباس أحمد المستظهر بالله بن المقتدى[1] (٤٨٧ — ٥١٢/١٠٩٤ — ١١١٨) .

وقد طالت إقامة ابن العربى فى بغداد ، وسمع من شيوخها إذ ذاك ما بين شافعية وحنبلية ومعتزلة ، ودارت بينه وبينهم محاورات كانت بعيدة الأثر فى تكوينه الذهنى والفقهى . ويذهب محب الدين الخطيب إلى أن ابن العربى لقى فى بغداد محمد بن تومرت ، وهذا غير معقول قطعاً ، لأن ابن تومرت بدأ رحلته إلى المشرق سنة ٥٠٠ أو ٥٠١/١١٠٦ — ١١٠٧ ، ولا يمكن أن يكون قد وصل إلى المشرق قبل سنة ٥٠١ ، وفى هذا الوقت كان الغزالى قد ذهب إلى طوس حيث توفى سنة ٥٠٥/١١١٢[2] . وفى سنة ٥٠١ كان ابن العربى قد عاد إلى اشبيليـــة منذ ثمان سنوات ، ومع هذا فسيُسأل ابن العربى فى محضر عبد المؤمن بن على إن كان قد لقى ابن تومرت فى بغداد ، وسيضطر الشيخ إلى أن يجيب إجابة مبهمة ، ولكنه لن ينجو من عقابيلها ، لأن عبد المؤمن كان يريده أن يقرر أمام الناس أنه رأى ابن تومرت بين طلاب الغزالى ، فأخلف ابن العربى ظنه .

فى بغداد ندب ابن العربى نفسه لمهمة سياسية خدمة للمرابطين ، فكتب خطاباً إلى الخليفة المستظهر يعدد فيه فضائل يوسف بن تاشفين ويرجوه تأييده ،

---

(١) يذهب محب الدين الخطيب (مقدمة القواصم من العواصم ، ص ١٦) إلى أن ابن العربى دخل بغداد فى خلافة المقتدى ، وقبل خلافة المستظهر بسنتين ، وهذا غير ممكن ، لأن المقتدى توفى سنة ٤٨٧ / ١٠٩٣ ومعنى ذلك أن ابن العربى دخل بغداد سنة ٤٨٥ ، وهى السنة التى خرج فى ربيع الأول منها من اشبيلية ، وقد وصل إلى مصر قرب نهاية هذا العام ، ثم رحل إلى بيت المقدس وقضى فيه ثلاث سنوات ، ثم انتقل إلى دمشق وقضى فيها وقتاً ، ثم دخل بغداد بعد ذلك ، ولهذا قلنا انه دخلها حوالى سنة ٤٩٠ ؛ هذا إلى أن أول رسالة كتبها ابن العربى إلى الخليفة المستظهر مؤرخة فى رجب ٤٩٠

(٢) راجع مناقشة التواريخ فى : Ambrosio Huici Miranda, *Historia política del Imperio Almohade*, Tetuán 1956, p. 27-32.

ونص هذه الرسالة بين أيدينا ، وهو لا يشير إلى أن أحداً كلفه بذلك ، والخطاب مؤرخ فى رجب ٤٩٠/يونيو ١٠٩٧ ثم أخذ كتابا من محمد بن محمد ابن جهير وزير المستظهر إلى يوسف بن تاشفين يمتدحه ويؤيده ويقول فيه : « ولقد بالغ هذا الفقيه وولده (ابن العربى وأبوه) فى الثنـاء على الأمير ، وأطنب فى وصف ما يعتمده من لزوم قوانين العدل والانصاف ومجانبة طرق العسف والاعتساف » وهذه العبارة تدل على أن هدف ابن العربى وأبيه من انتداب نفسيهما لهذه المهمة كان التقرب من المرابطين ، والوصول إلى مكانة طيبة فى دولتهم .

وقد أورد ابن العربى بعد ذلك فى « شواهد الجلة » خطاباً قال إن الغزالى حمّله إياه فى تأييد المرابطين ، والخطاب كما يدل عليه أسلوبه وطريقته لا يشبه الغزالى فى شىء ، فهو يدعو للخليفة المستظهر بالله دعوة صريحة وهو يستعمل مصطلحاً ديوانياً ، وهو مسرف فى رضاه عن المرابطين ، وأبو حامد كان رجلا معتدلا متزناً بعيداً عن ذلك كله . وعندما لقى ابنُ العربى الطرطوشىَّ فى الاسكندرية وهو فى طريق العودة إلى الأندلس ، حمل منه خطاباً طويلا فى تأييد المرابطين أتى بنصه أيضاً فى نفس الكتاب .

وقد دفع ابن العربى إلى ذلك طموحه إلى الوظائف وتطلعه إلى المكانة فى دولة المرابطين ، وقد كان غنيـــاً عن ذلك بعلمه ومكان بيته ، ثم إن السلطان فى أندلس ذلك الحين كان قد هان وخلا من كل رونق ، ولكن ابن العربى كان بطبعه رجلا طموحاً إلى الوجاهة والمكانة بين الناس ، وسيصل بالفعل إلى ما كان يطمع فيه أيام المرابطين ، ولكن مركزه سيتحرج عندما ينتقل الأمر إلى الموحدين .

ولا يمكن أن يكون ابن العربى قد أطال السماع من أبى حامد الغزالى ، فان ابن العربى عندما وصل إلى بغداد كان الغزالى قد بارحها واعتزل فى دمشق ليؤلف كتاب احياء علوم الدين ، ثم حج وعاد إلى بغداد ، وهنا لقيه ابن

العربى وأخذ عليه ، ثم غادر الغزالى بغداد إلى دمشق ، ثم خرج سائحاً إلى بيت المقدس ومنها إلى الاسكندرية ، ولهذا ، فإننا نستبعد أن يكون ابن العربى قد لقيه مرة أخرى فى صحراء الشام كما ذكر فى رحلته .

وبعد أن عاد ابن العربى إلى الأندلس انصرف إلى التدريس والتأليف حتى سنة ٥٢٨/١١٣٤ عندما دعاه تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين والى اشبيلية لأبيه علىّ بن يوسف بن تاشفين إلى تولى القضاء ، فتولاه عن جدارة وقدرة شهد له بها كل الناس ، ولكنهم أخذوا عليه اهتمامه الزائد بالوالى وحرصه على لقائه حتى أن أحد السامعين عليه — وهو أبو عبد الله الإشبيلى — انقطع عن حضور دروسه ، وسئل فى ذلك فقال : « كان يدرِّس وبغلته عند الباب ينتظر الركوب إلى السلطان » .

وكان ابن العربى حازماً فى قضائه لا يجامل أحداً ، فنفر منه بعض الناس وحملوا عليه ، ثم إنه ندب نفسه للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقد ابتُلى المرابطون وولاتهم بطائفة من صغار الفقهاء كان لهم أسوأ الأثر فى سير الأمور فى الدولة ، فسعى نفر من هؤلاء بابن العربى عند تاشفين بن علىّ بن يوسف ورجاله ، ويبدو أن ابن العربى كان مبغضاً لهؤلاء الفقهاء شديداً عليهم ، ونحن نستنتج ذلك من موقفهم مما تعرض له من إصلاح سور اشبيلية ، فقد خرج عن شىء من ماله ودعا الناس إلى التبرع بجلود الأضاحى لاستخدام ثمنها فى ذلك العمل الجليل ، وتمكن بهذا من إصلاح السور . ولكن تصديه لهذا الأمر فتح الباب لنقده والتأليب عليه ، فوثب به نفر من العامة وأرادوا اقتحام داره ، وكان ذلك قبل سنة ٥٣٦/١١٤١ — ١١٤٢ لأنه تكلم عن الحادثة فى « العواصم من القواصم الذى ألفه فى ذلك التاريخ ، قال بعد أن ذكر مأساة استشهاد الخليفة عثمان (ص ١٣٧ — ١٣٨) « ولقد حكمتُ بين الناس فألزمتهم الصلاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى لم يكن يُرى فى الأرض منكر ، واشتد الخطب على أهل الغصب ، وعظم على الفَسَقَة الكرْب ، فتألبوا وألبوا ،

وثاروا إلىّ . فاستسلمت لأمر الله ، وأمرت كل من حولى الا يدفعوا عن دارى ، وخرجت على السطوح بنفسى ، فعاثوا علىّ وأمسيت سليب الدار ، ولولا ما سبق من حسن المقدار لكنت قتيل الدار » . وقد نُهبت كتب ابن العربى فى ذلك الحادث ، ثم صُرف عن القضاء وانتقل إلى قرطبة ، وفرغ للتدريس والتأليف .

وعاد ابن العربى بعد ذلك إلى اشبيلية بعد موت على بن يوسف بن تاشفين سنة ٥٣٧/١١٤٢ — ١١٤٣ فى الغالب ، ولكنه لم يعد إلى القضاء ولم يتول عملا ما ، وفى هذه الأثناء كان الصراع بين المرابطين والموحدين فى المغرب قد وصل إلى ذروته ، وانتهى بمقتل تاشفين بن على بن يوسف قرب وهران فى سنة ٥٣٩/١١٤٤ ثم الاستيلاء على مراكش وقتل أبى إسحاق ابراهيم بن تاشفين آخر أمراء المرابطين فى شوال ٥٤١/مارس ١١٤٧ .

ولم يكد الأمر يستقر للموحدين حتى فكر ابن العربى وطائفة من علماء اشبيلية وشيوخها فى الوفود على عبد المؤمن بن علىّ فى مراكش لتقديم ولائهم ، وكانت اشبيلية قد أصبحت فى الحقيقة عاصمة الأندلس بعد تضعضع أمر قرطبة نتيجة لفتن الفترة الأولى من عصر الطوائف ، وقد أورد صاحب « الحلل الموشيه » بياناً بأسماء رؤساء الوفد ، وبمقارنة تواريخ ميلادهم نستنتج أن أبا بكر ابن العربى كان أكبرهم سناً ، فقد كان إذ ذاك فى الرابعة والسبعين من عمره ، وربما كان أكثرهم اهتماماً باظهار الولاء للموحدين ، فإن علاقته بالمرابطين كانت معروفة للناس أجمعين ، وهذه رسائله فى « شواهد الجلة » أكبر دليل على ذلك ، وكذلك كانت علاقته بتاشفين بن على بن يوسف حديث الناس . وربما كان أفضل لهذا الشيخ الجليل لو قعد مكانه وليجر القضاء بما يريد ، ولكن ابن العربى كان كما ذكرنا قلقاً لا يهدأ ، والأغلب أن الذى دفعه إلى تجشم عناء هذه الرحلة هو الخوف من أن تظن الدولة الجديدة به سوءً ، فنهض يحمل

عبءُ سنواته ومضى يلتمس الأمان غير عالم أنه كان يمضى بقدميه نحو ما خاف منه ، وسبحان مَن جعل مصائر الخلق وراء أستار الغيوب .

وصل الوفد الإشبيلى إلى مراكش واستقبله عبد المؤمن بن على ، وكان أول المتكلمين أبا بكر بن العربى ، ثم أعقبه أبو بكر بن الجد ، وكان يعدُ شابا ، ثم التفت عبد المؤمن إلى أبى بكر بن العربى وسأله إن كان قد لقى محمد بن تومرت فى مجلس الغزالى ، فأحرج الشيخ إذ كان لابد — إذا أراد السلامة — أن يقول إنه لقيه ، ولو أنه قرر الحقيقة وقال أنه لم يره فى مجلس الغزالى لكانت العاقبة وخيمة ، وربما أدى الأمر — بعد عقابه — إلى أن يقال إن ابن العربى هو الذى لم يلق الغزالى ولا رآه ، والقول قول السلطان ! فتحيل الشيخ للخلاص وقال : « لم ألقه هناك ولكنى سمعت الناس يتحدثون عنه ، وكان الشيخ — أى الغزالى — يقول : لا ريب فى قرب ظهوره[1] » ، ولم تأت الاجابة على وفق ما أراد عبد المؤمن ، فصرف الوفد ولكنه لم يأذن له فى مغادرة مراكش ، فظلوا هناك تسعة شهور ، ثم أذن لهم فى العودة إلى بلدهم ، وخرجوا عائدين ، فإذا هم على مسيرة يوم من فاس أدركت المنية الشيخ أبا بكر بن العربى ، ويذهب النباهى إلى أنه مات مسموماً[2] ، فحمل إلى فاس ، وورى التراب فى ٧ ربيع الأول ٥٤٣/ ٢٧ يوليو ١١٤٨ ودفن خارج باب المحروق بتربة القائد مظفر .

كتابات ابن العربى فى الرحلات

تلك كانت حيـــاة أبى بكر بن العربى . قرابة ٧٥ سنة هجرية حافلة بالدرس والتأليف والرحلات والحوادث والمتاعب ، وقد جرَّ هو على نفسه الكثير

(١) الحلل الموشيه ، ص ١٢٣ — ١٢٤
(٢) النباهى ، تاريخ قضاة الأندلس ، ص ٩٥

منها ، لأنه كان إلى جانب صفاته التى ذكرناها متكلماً جَدِلا عنيف القول لا يكاد لسانه يسكت ، وكان منافساً لغيره طامحاً إلى الجـاه فى زمان مائل وفتن لا تكاد تنقطع ، فكثرت متاعبه وكثر القائلون فيه .

ولكن مثل هذه الحياة تشحذ الذهن وترهف الفهم ، وبالفعل كان أبو بكر بن العربى آية فى الذكاء وسرعة الخاطر وحضور البال وسرعة الحفظ ، وقد استوعب فى حياته علماً كثيراً وألف كثيراً وكتب فى أسلوب شائق يتراوح بين التصنع إذا سجع والسلاسة إذا أرسل نفسه على سجيتهـا ، وقد أحصى محب الدين الخطيب مؤلفات ابن العربى ، وأثبت خمسة وثلاثين كتاباً لم يصل إلينا منها إلا القليل ، ومعظم هذه المؤلفات رسائل صغيرة مثل « شرح حديث جابر فى الشفاعة » و « حديث الأفك » و « شرح حديث أم زرع » وبعضهـا مطول فى أجزاء مثل « عارضة الأحوذى فى شرح الترمذى » وقد وصل إلينا وطبع فى القاهرة ، واعتماداً على ما وصلنا من كتبه نستطيع القول أن الرجل كان غزير المـادة فى تأليفه ، بدليل ما نجده من فيض المعارف والمعلومات فى كتاب صغير مثل « العواصم من القواصم » وهو كتاب فى فضائل الصحابة والدفاع عنهم واستبعاد وقوع الخطأ منهم ، (نشره محب الدين الخطيب مع تعليقات ضافية فى القاهرة سنة ١٣٧١) . ومن حسن الحظ أن ابن العربى كان من أولئك الذين يميلون إلى الحديث عن أنفسهم ، فلا تكاد تسنح فرصة أثناء الكلام فى أى موضوع إلا استطرد إلى الحديث عن نفسه أو عن شىء وقع له ، ويبدو أن الرجل كان مبتلى بالأعداء والخصوم ، فهو فى دفاع عن نفسه أبداً ، وكانت كتبه هى وسيلته فى هذا الدفاع ، ومن المعروف أن نصوص الكثير جداً من كتب شيوخنا القدامى إنما هى روايات تلاميذهم ، كتبوها والشيخ يتلو ويشرح ، فكان التلاميذ يثبتون كل شىء — ما فى الموضوع وما هو خارج عنه — والكثير مما لدينا من كلام ابن العربى عن نفسه إنمـا هى استطرادات أثناء الدروس دفعت إليها الرغبة فى الدفاع عن النفس ، واندرجت

بعد ذلك فى النصوص وأصبحت جزء منها ، فظفرنا بهذا بمعلومات عظيمة القيمة عن الرجل وأحواله .

وسنرى مثلا واضحاً من ذاك فى خطبة رسالة « شواهد الجلة » التى سنوردها بعد قليل ، بل هذا واضح فى خطبه عارضة الأحوذى ، قال : « وفى علم علام الغيوب انى أحرص الناس على أن تكون أوقاتى كلها مستغرقة فى باب العلم ، إلا أنى مُنيتُ بِحَسَدة لا يتقون[1] ومبتدعة لا يفهمون ، قد قعدوا منى مزجَر الكلب يبصبصون ، والله أعلم بما يتربصون « قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ، ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ، فتربصوا إنا معكم متربصون » بيد أن الامتناع عن التصريح بفوائد الملة والتبرع بفوائد الرحلة لعدم المنصف أو مخافة التعسف ليس من شأن العالمين . . . »[2] .

كتاب ترتيب الرحلة للترغيب فى الملة

لم نعثر إلى الآن على هذا الكتاب ، وما لدينا منه نقول فى كتب سنشير إليها ، ولكننا وجدنا إشارة طيبة إليه فى خطبة « شواهد الجلة » تعطينا فكرة عن ذلك الكتاب وما فيه . قال ابن العربى بعد ديباجة قصيرة : « أما بعد فإن الداخل فى طلب العلم كثير ، والسعيد قليل ، وعدم الإنصاف خطب جليل ، وكم من حاضر بِعَرَفَة من غير معرفة ، ونازل بمنى وما نال مُنى[3] ، وكم من قارىء فى بغداد ، خرج وما قُرِى بزاد ، فالشجر يوجد والثمر يعدم ،

(١) فى الأصل المطبوع : لا يفتنون ، ولا معنى له هنا ، وأرجح أن الصحيح ما أثبته .

(٢) عارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذى لابن العربى ، القاهرة ١٩٣١ ، ١/٣

(٣) إذا لاحظنا أن ابن العربى لم يؤد فريضة الحج — كما يستنتج من المعلومات التى لدينا إلى الآن — فهمنا هذه العبارة على أنها تعريض بمن حجوا ولم يستفيدوا من حجهم .

والأجسام تفنى والأرواح تتقدم ، والقشر عام واللب خاص . وقد شاهدت من طلبة العلم بافريقية ومصر والشام والساحل والعراق والحجاز ما لا يأتى عليه الاحصاء ، ولا يُنال بالاستقصاء ، جميعهم يأمل الغاية وما حصل عليها ، ويقصد النهاية وما انتهى إليها ، وخلع ثياب الوطن ، واستظهر على الغربة واستوطن ، يجتهد بزعمه وهو لا يعلم كيف ولا أين ، ويرجع بعد طول المغيب بخفى حنين ، ومنهم من يأخذ العلم بدبيب ، ويقنع منه بأدنى نصيب ، فيعود بباع قصير وناظر غير بصير إن رمى عنه فغايته الأعمش ، أو بوحث فليله ليلُ أعمى وأعطش ، ومنهم من يعتمد من العلوم فناً ، ويرى غيره دوناً[1] ، فلا عليه حصل ، ولا به حفل ، ومنهم من يدخلها عاثراً لا ينتعش ، وأملس لا ينتقش[2] ، ومنهم من يدخلها لمحَ بارق ، وقبَس طارق ، وعجالةَ راكب أولى خطى برقه وخمد نفسه وقبره عجالته[3] .

ولما سبق خير القضاء برحلتى إلى تلك المشاهد الكريمة ، وحلولى فى تلك المقامات العظيمة ، دخلتها والعمر فى عنفوانه ، والغصن مائس بأفنانه ، والكتاب مختوم بعنوانه ، ومعى صارم لا أخاف نبوته ، وحصان لا أتوقع كبوته ، أب فى الرتبة وأخ فى الصحبة ، يسند ويعين ، ويسقى من النصيحة بماء معين ، وزوى الله بفضله عن قلبى كل بطالة ، وكشح عن فؤادى كل إهالة ، فجنيت من كل شجرة زهرة ، ووعيت من كل صنف درره ، وكشفت عن كل خفاء غوره ، وافتقرت من كل فن فقرة ، حسبما فسرته وأوضحته ، وشرحته وبينته ، وقررته ونزّلته ، فى كتاب « ترتيب الرحلة للترغيب فى الملة » ، وذكرت فيه لقاء الأعيان لنا ، وسِيَر الفضلاء معنا ، ولحظهم لجانبنا بناظر التعظيم ، ومقابلتهم

---

(١) الأصل دهرنا ، وقد صوبناه . (٢) كذا فى الأصل ، والعبارة قلقة .

(٣) ورد نص رسالة « شواهد الحلة » ضمن مخطوط صوره الدكتور محمود على مكى من مكتبة القرويين فى فاس ، واستخرج معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد منه نسخة لمكتبته ، وهذا المخطوط هو الذى أخذ منه الأستاذ ليفى بروفنسال نص كتاب مفاخر البربر ، ويبدأ نص « شواهد الجلة » فيه من ص ١١٣ ب وينتهى فى ص ١٤٩ ب ، والقطع التى أوردناهـــا فى ص ١١٣ ا و ب . ويقوم الدكتوران مكي والعبادى بإعداد هذا المخطوط للنشر الآن .

ورودَنا بالتجليل والتكريم ، ووعدنا لهم على غاية الرضى والتسليم ، وانقلابنا عنهم بصفة المرتضى ، واتبعناهم جملا من طرائفهم ونتفاً من فوائدهم ، بما تتأرج به اصائل الأيام ، ويجلو نوره ديجور الظلام ، وكان ذلك أمراً يطول النظر فيه ، ويذهل الشادى بخواتمه عن مباديه ، فاستخرت الله تعالى على تجريد هذه الأوراق ، بشواهد الجلة والأعيان ، فى مشاهد الإسلام والبلدان[1] لنا بمزية التعظيم والتوقير ، وتسجيلهم لنا بتحصيل العلوم على غاية التوفير ، حتى يظهر البون ، ويتبين أن الله تعالى يختص من يشاء بالعون ، ويتحقق الحسود الناقص المتقصى لما حولى ، ليغض بزعمه منى ، أنه فاسد الفطرة خاسر الصفقة مقبح الوجه مستحق النَّجْه ، وجعلته مراتب على حسب الوقت الذى حصل فيه كل نوع منه » .

وإذن « فكتاب ترتيب الرحلة للترغيب فى الملة » رسالة كتبها ابن العربى لغرض معين ، وهو الحديث عن رحلته المشرقية وما درس فيها وما أفاده من هذا الدرس ومن لقى من العلماء والأعيان .

وواضح أن دافعه الأول إلى كتابة كتابه هذا هو الدفاع عن نفسه ضد خصومه الكثيرين وإظهار امتيازه على غيره ممن درس فى المشرق وبيان ما حصله من العلوم فى المدة القصيرة ، ثم تفصيل ما قام به من مجهودات إيجابية للربط بين الخلافة العباسية ودولة المرابطين ، وذلك هو ما أشار إليه ابن خلدون عندما قال إن يوسف بن تاشفين بعث « عبد الله بن محمد بن العربى المعافرى الإشبيلى وولده القاضى أبا بكر ، فتلطفا فى القول وأحسنا فى الابلاغ ، وطلبا من الخليفة أن يعقد له على المغرب والأندلس ، فعقد له ، وتضمن ذلك مكتوب الخليفة بذلك منقولا بأيدى الناس ، وانقلبا إليه بتقليد الخليفة وعهده على ما إلى نظره من

---

(١) هذه هى العبارة التى اقتبسناها عنواناً لهذه الرسالة ، وهى ليست عنوانها على الحقيقة ، وإنما فعلنا ذلك تيسيراً للاشارة إليها .

الأقطار والأقاليم ، وخاطبه الامام الغزالى والقاضى أبو بكر الطرطوشى يحضانه على العدل والتمسك بالجد ، ويفتيانه فى شأن ملوك الطوائف بحكم الله [١] » .

ولم يقرأ ابن خلدون كتاب « ترتيب الرحلة » ، قراءة إمعان ، لأنه لو كان فعل ذلك لرأى بوضوح أن يوسف بن تاشفين لم يبعث عبد الله بن العربى (الأب) وابنه أبا بكر ليخاطبا الخليفة العباسى فى أمر توليته على المغرب والأندلس ، وهذا هو المعقول ، لأن عبد الله العربى (الأب) لم يكن كبير فقهاء الأندلس أو اشبيلية فى ذلك الحين ، بل لم يكن من كبارهم ، إذ كان هناك كثيرون يفوقونه مكانة وعلماً ، فكانوا لهذا أولى منه بأن يُنْدَبوا لهذه المهمة إذا كان ولابد أن يندب لها فقيه ، وأما ابنه فكان فى السابعة عشرة من عمره ، وهى سن لا تؤهل صاحبها لمثل هذه السفارة ، ثم إن يوسف بن تاشفين لم يكتب إلى الخليفة العباسى طالباً التولية على المغرب والأندلس ، وإنما الذى كتب هو ابنه على بن يوسف كما هو واضح من رسالة من الخليفة المستظهر العباسى ، سبق أن نشرناها [٢] ويصدق ذلك أيضاً على ما ذهب إليه ابن خلدون من أن الغزالى والطرطوشى افتيا يوسف بن تاشفين فى أمر ملوك الطوائف ، فهما فى الحقيقة لم يفتيا بشئ فى هذا الشأن ، وهذان خطاباهما — إذا صحا — فى « شواهد الجلة » يؤيدان ما نقول تأييداً صريحاً .

الحقيقة إذن أن عبد الله العربى وابنه ندبا نفسيهما لهذا العمل تبرعاً ورغبة فى اكتساب المكانة لدى المرابطين وسنرى مصاديق أخرى لذلك فى سياق ما يلى من الكلام .

والقطع التى لدينا من « ترتيب الرحلة » قليلة ، ولكن هذا القليل يدل على تيقظ والتفات وملاحظة ، ومن أسف أن الكثير من النقول التى لدينا لا تعيّن

---

(١) ابن خلدون ، العبر ، ٦/١٨٨

(٢) انظر مقالنا « سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم فى الأندلس » صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، مجلد ٢ عدد ١ — ٢ ص ٥٥ وما يليها ، ووثيقة المستظهر واردة فى ص ٦٦ — ٦٨

مصدر النقل ، ولكن الفقرة التالية التى رواها المقرى فى نفح الطيب (٢/٢٤٢ — ٢٤٣) منقولة عن « ترتيب الرحلة » (نقلها بشىء من الاختصار ابن العربى نفسه ، كما يرى فى آخرها) وربما يكون المقرى أخذها من « قانون التأويل » :

« وشاهدت المائدة بطور زيتا مراراً ، وأكلت عليها ليلا ونهاراً ، وذكرت الله فيها سراً وجهاراً ، وكان ارتفاعها أشفَّ من القامة بنحو الشبر ، وكان لها درجان قبلى وجنوبى ، وكانت صخرة صلوداً لا تؤثر فيها المعاول ، وكان الناس يقولون : مُسخت صخرة إذ مُسخ أربابُها قردة وخنازير ، والذى عندى أنها صخرة فى الأصل ، قطعت من الأرض مَحَلاً للمائدة النازلة من السماء ، وكل ما حولها حجارة مثلها ، وكان ما حولها محفوفاً بقصور ، وقد نُحتت فى ذلك الحجر الصلد بيوتٌ أبوابها منها ومجالسها منها ، مقطوعة فيها ، وحناياها من جوانبها ، وبيوتُ خَدَمَتها قد صوِّرت من الحجر كما تُصور من الطين والخشب ، فإذا دخلتَ فى قصر من قصورها ورَدَدْت الباب ، وجعلتَ من ورائه صخرةً مقدارَ ثُمُن درهم لم يفتحه أهل الأرضِ للصوقه بالأرض ، وإذا هبَّت الريح وحثَت تحته التراب لم يُفتح إلا بعد صب الماء تحته والإكثارِ منه حتى يسيل بالتراب وينفرج منفرج الباب ، وقد بار بها قومٌ بهذه العلة ، وقد كنت أخلو فيها كثيراً للدرس ، ولكنى كنتُ فى كل حين أكنس حول الباب ، مخافةَ مما جرى لغيرى فيها ، وقد شرحتُ أمرها فى كتاب ترتيب الرحلة بأكثر من هذا » .

وطور زَيْتَا هذا (ياقوت ٦/٦٨) « جبل مشرف على المسجد (مسجد القدس) وفيما بينهما وادى جهنم » وهو إذن ليس وادى موسى كما ظن محب الدين الخطيب . ويسمى أيضاً بجبل الزيتون وهى الترجمة العربية لطور زيتا ، وعلى رأسه مسجد بُنى ذكرى لمقام عمر بن الخطاب فى هذه البقعة عدة أيام ، وبين الجبل ومسجد القدس يمتد واد فيه حدائق وكروم وغيران للرهبان وكنيسة

بنيت على قبر السيدة مريم ، وفيه كذلك بناء قديم يسمى قبر أبْسَلُوم يسميه العامة طَنْطُور أو بيت فرعون ، وقد وصفه ناصرى خسرو بتفصيل[1] . وأغلب الظن أن ابن العربى خلط بينه وبين وادى موسى ، فإن الوصف الذى يذكره ينطبق أكثر على هذا الأخير .

والقطعة التالية أيضاً من « ترتيب الرحلة » : رواها المقرى فى النفح (٢/ ٢٣٩) قال : « منها ، أنه حكى دخوله بدمشق بعض بيوت الأكابر وأنه رأى فيه النهر جارياً إلى موضع جلوسهم ، ثم يعود إلى ناحيـة أخرى ، فلم أفهم معنى ذلك حتى جاءت موائد الطعام فى النهر المقبـــل إلينا ، فأخذها الخدم ووضعوها بين أيدينا ، فلما فرغنا ألقى الخدم الأوانى وما معها فى النهر الراجع ، فذهب بها الماء إلى ناحية الحريم من غير أن يقرب الخدم هذه الناحية ، فعلمت السر ، وإن هذا لعجيب ، انتهى بمعناه » وهو عجيب حقاً ، أن يبلغ الحرص على ستر الحريم والتفنن فى الحيلولة بين الرجال ورؤيتهن إلى هذا المبلغ .

ولكن معظم مادة ابن العربى فى « ترتيب الرحلة » تدور على الشيوخ وما دار بينه وبينهم وطرائف مما سمع منهم ، وهو هنا بعيدٌ عن التواضع كما رأينا فى خطبة « شواهد الجلة » ، وقد ذكر المقرى أنه نُقِل عنه أنه قال : كل من رحل لم يأت بمثل ما أتيت به أنا والقاضى أبو الوليد الباجى ، أو كلاما هذا معناه ، أو قال : لم يرحل غيرى وغير الباجى ، وأما غيرنا فقد تعب ، أو نحو هذا مما لم تحضرنى عبارته الآن »[2] ، ولا ندرى لماذا أختص أبا الوليد الباجى وحده بهذا التكريم ، مع أن الذين رحلوا إلى المشرق قبله وقبل ابن العربى وأتوا بأكثر مما أتيا به كثيرون جداً ، ولكنه كان بطبعه رجلا حديد اللسان

---

(١) Guy Le Strange, *Palstine under the Moslems,* (1890) 218-220

(٢) أزهار الرياض المقرى ، ٣/٦٣

قاسياً على غيره بقدر ما كان رفيقاً بنفسه ، مغالياً فى تقدير نفسه بقدر ما كان مسرفاً فى غمط اقدار الآخرين ، فكانت المساءة إلى الغير تصدر عنه فيضَ الخاطر وعفوَ اللسان والقلم دون أن يقدر موقعها وما تسببه للغير من ألمَ ، وهذا يفسر لنا سببَ كثرة خصومه وحرصهم على أذاه ، وفى هذه العبارة الماضية مثل واضح لذلك ، فقد أهان المئــات من الشيوخ وأهل الفضل اسوأ اهانة بجرة قلم ، وهل هناك آلم من قوله « لم يرحل غيرى وغير الباجى ، وأما غيرنا فقد تعب » ؟ .

وملاحظاته فى رحلته لا تقتصر على ذكر الشيوخ وما سمع منهم ، بل فيها طرائف لغوية وفقهية وأشيـاء أشبه بالنوادر ، فمن الطراز الأول قوله : « سمعت الشيخ فخر الإسلام أبا بكر الشاشى ، وهو ينتصر لمذهب أبى حنيفة فى مجلس النظر ، يقول : يقال فى اللغة العربية لا تقرَب كذا — بفتح الراء — أى لا تتلبس بالفعل ، وإذا كان بضم الراء كان معناه لا تدْنُ من الموضع »[1] ومن النوع الثانى قوله : « سمعت إمام الحنابلة بمدينة السلام أبا الوفاء بن عقيل يقول : انما تبِـعَ الولدُ الأُمَّ فى المالية وصار بحكمها فى الرق والحرية ، لأنه انفصل عن الأب نطفة لا قيمة له ولا مالية فيه ، ولا منفعة مبتوتة عليه ، وإنما اكتسب ما اكتسب بها ومنها ، فلذلك تبعها ، كما لو أكل رجل تمراً فى أرض رجل ، وسقطت منه نواة فى الأكل ، فصارت نخلة ، فإنها مِلك صاحب الأرض دون الآكِل باجماع من الأمة ، لأنها انفصلت عن الآكل ولا قيمة لها ، وهذه من البدائـع »[2] ، ومن النوع الثالث قوله : « وكان يقرأ معنا برباطِ أبى سعيد على الامام دانشمند (يريد الغزالى) من بلاد المغرب خنثى ليس له لحية وله ثديان وعنده جارية ، فربّك أعلم به ، ومع طول

---

(١) نفح الطيب ، للمقرى ، ٢٤٣/٢

(٢) نفح الطيب ، للمقرى ، ٢٤٨/٢

الصحبة عقلنى الحياء عن سؤاله ، وبودى لو كاشفتُه عن حاله »[١] . ومن هذا النوع أيضاً قوله : أخبرنى المهرة من السحرة بأرض بابل أنه من كتب آخر آية من كل سورة ويعلقها لم يبلغ إليه سحرنا ، قال : هكذا قالوا ، والله تعالى أعلم بما نقلوه »[٢] .

وواضح أن مثل هذا الكتاب لا يمكن أن ينال رضى شيوخ عصر ابن العربى ، بسبب ما فيه من زهو وتفاخر أولا ، وبسبب ما قرره فيه من نشاطه السياسى وتداخله مع رجال الدولة فى بغداد وسعيه إليهم ، ثم بسبب هذه الحكايات والنوادر التى ترد فيه ، قال معاصره القاضى أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبى : « ولكثرة حديثه وأخباره وغريب حكاياته ورواياته أكثر الناسُ فيه الكلام ، وطعنوا فى حديثه »[٣] . ولكن كل ذلك لا يقلل من أهمية كتاب « ترتيب الرحلة » فهو أول وصف رحلة يكتبه أندلسى ، ومعنى هذا أن أبا بكر بن العربى هو مبتكر هذا الفن فى الأندلس ، نعم إن أبا حامد الغرناطى كتب شيئاً قريبـاً من هذا ، ولكنه لم يصف رحلته ، ولم يُعيِّن مراحلها أو « مراتبها » بحسب مصطلح ابن العربى فى كتابه . لقـد تعود الناس قبـل ابن العربى أن يكتبوا « برامج » شيوخهم ، أى يذكرون اسماء من لقوا من الشيوخ وأخذوا عنهم وما أخذوه عن كل منهم ، ولكن هذه البرامج خالية من الوصف والملاحظة أو النظر إلى أى شئ خلا الشيوخ والكتب والروايات ، أما أبو بكر بن العربى فقد كتب رحلة حقاً ، ووصف مراحلها ومن لقى فى كل مرحلة ، نعم إنه لم يصل فى ذلك إلى شأو ابن جبير ، ولكنه دون شك السابقة التى سيحتذيها أمثال ابن رشيد والعبدرى .

---

(١) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٤٩

(٢) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٥٠

(٣) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٣٦

كتاب قانون التأويل

المشهور أن هذا الكتاب فى التفسير ، وربما كان ذلك صحيحاً ، لأن ابن العربى كتب فى الحديث وشرحه كثيراً ، وكان لابد أن يكتب شيئاً مطولا فى التفسير . وربما كان هذا الكتاب مكملا لكتابه « أحكام القرآن » .

والذى يهمنا من هذا الكتاب تلك الملاحظات ذات الطابع الوصفى أو الجغرافى التى نقلها عنه من أتوا بعده ، وهذه الملاحظات كثيرة ، وبعضها فقرات طويلة تصف شيئاً مما حدث له فى الرحلة . ويلاحظ أن كل الفقرات التى لدينا مقتبسةً من هذا الكتاب مصوغةٌ فى قالب السجع من الطراز الذى رأيناه فى خطبة « شواهد الجلة » ولهذا غلب على ظننا أن هذه الفقرات مقتبسة من خطبة « قانون التأويل » لأن خطب الكتب — وإن كانت تفسيراً — تجرى فى قالب السجع ، أما التفسير نفسه فلا يمكن أن يكون سجعاً ، ومن المستبعد أن يكون ابن العربى مسترسلا فى شرح آية فى نثر مرسل ، ثم يقطع الكلام ليقص شيئاً فى سجعات .

والغالب أن أبا بكر بن العربى جعل مقدمة « قانون التأويل » وسيلة ليقص أطرافا من رحلته وليذكر بعض من لقى من الشيوخ وما سمع منهم تدليلا على سعة علمه واصالة مصادره . وأهم فقرة بقيت لدينا من ذلك الكتاب هى تلك التى يذكر فيها غرق سفينته بعد أن ركب البحر من المهدية فى طريقه إلى الاسكندرية ونجاته (مع أبيه) ونزوله فى مكان من شاطئ طرابلس تنزل به بطون من كعب بن سليم ، والقطعة طويلة رواها المقرى فى أزهار الرياض (٣/٨٩ — ٩١) ونفح الطيب (٢/٢٣٧ — ٢٣٩) وابن غازى فى « التكميل » والرهونى فى « حاشيته على رسالة خليل » والشيخ مخلوف فى « شجرة النور الزكية » (١/١٣٧) ومحب الدين الخطيب فى مقدمة « العواصم من القواصم »

(١١ — ١٢) ، ولهذا فسنجتزئ منها بقطع يسيرة . قال : « وقد سبق فى علم الله تعالى أن يَعظُم علينا البحر بزَولِهِ ، ويغرقنا فى هوله ، فخرجنا من البحر خروج الميت من القبر ، وانتهينا بعد خطب طويل إلى بيوت بنى كعب بن سُلَيم ، ونحن من السغب على عطب ، ومن العرْى فى أقبح زى ، قد قذف البحر زقاق زيت مزقت الحجارة هيأتها[1] ، ودسمت الأدهان وبرها وجلدتها ، فاحتزمناها أُزُرا ، واشتملناها لِفَافًا ،تمجُّنا الأبصار ، وتخذلنا الأنصار ، فعطف أميرهم علينا ، فأوينا إليه فآوانا ، وأطعمنا الله على يديه وسقانا . . . » ثم يصف بعد ذلك كيف أنه اقترب فى هذا الزى من أمير بنى سليم هؤلاء ، فوجده يلعب بأعواد الشاه (الشطرنج) مع صاحب له ، فبدر منه ما أفهم القوم أنه يفهم هذه اللعبة ، ثم ما زال يشير على الأمير بما يفعل حتى فاز على صاحبه « فقالوا : ما أنت بصغير ! » ، ومن الطريف أنه يصف نفسه فى أثناء ذلك بقوله : « إذ كنت من الصغر فى حد لا يُسمح فيه للأغمار . . . » ولا ندرى كيف يكون هذا وقد كان إذ ذاك فى الثامنة عشرة من عمره .

ثم يصف بعد ذلك كيف شرح للأمير معنى كلمة « رب » فى بيتٍ للمتنبى ، فأعجب به إعجابـــاً عظيماً : « وأقبلوا يتعجبون منى ، ويسألوننى كم سنى ، ويستكشفوننى عن سِرِّى ، فبقَرت لهم حديثى ، وذكرت لهم نجيئى . . » وختم الحكاية بقوله : « فانظر إلى هذا العلم الذى هو إلى الجهل أقرب ، مع تلك الصُبابة اليسيرة من الأدب ، كيف انقذا من العطب ! وهذا الذكر يرشدكم إن عقلتم إلى المطلب . . » .

والقصة كلها مبالغ فيها ، إذ كيف استطاع هو وأبوه أن يواصلا الرحلة إذا كان كل ما معهم قد غرق وضاع حتى خرجوا من البحر فى حال « من العرى فى

(١) كذا فى طبعة ليدن ، وقد قرأها محيي الدين عبد الحميد « منيئتها وقال فى الهامش أن المنيئة الجلد أول عهده بالدباغ .

اقبح زى » ؟ ثم كيف يكون لشيخ بنى سليم « بياذقة » وحراس ؟ وكيف يكون من الترف بحيث يرسل إليهم « كل خوان بأفنان وألوان » ؟

ومن ملاحظاته فى هذا الكتاب وصفه للقائه للغزالى ، قال : « ورد علينا دانشمند (يريد الغزالى) فنزل برباط ابن سعد بأزاء المدرسة النظامية ، معرضاً عن الدنيا ، مقبلا على الله تعالى ، فمشينا إليه ، وعرضنا أمنيتنا عليه ، وقلت له : أنت ضالتنا التى ننشد ، وإمامنا الذى به نسترشد ، فلقينا لقاء المعرفة ، وشاهدنا منه ما كان فوق الصفة ...(١) » ، وقد وصف فى فقرة أخرى لقاء ثانياً للغزالى ، قال : « رأيت الغزالى فى البرية ، وبيده عكاز ، وعليه مرقعة وعلى عاتقه ركوه ، وقد كنتُ رأيته فى بغداد يحضر درسه أربعمائة عمامة من أكابر الناس وأفاضلهم ، يأخذون عنه العلم ، فدنوت منه وسلمت عليه ، وقلت له : ياإمام ، أليس تدريس العلم ببغداد أحسن من هذا ؟ فنظر إلىّ شزراً وقال : لمـا طلع بدر السعادة فى فلك الارادة (أو قال : فى سماء الارادة) وجَنَحَتْ شمس الوصول فى مغارب الاصول :

تركتُ هوَى ليْـلَى وسُعْدَى ... وعُدت إلى تصحيح أول منزلِ
ونادت بىَ الأشواق مَهْـلاً فهذه ... منازلُ من تهوى ، رويدك فانزلِ
غزلْتُ لهم غزلاً رقيقاً ، فلم أجد ... لغزلى نسجا ، فكسَّرت مغزلى (٢)

وهذا الخبر بادى الصنعة ، فهذه صورة للغزالى لا يعرفها أحد ممن يعرفونه حق المعرفة ، ولكن ابن العربى كان صاحب أخبار وحكايات وروايات غريبة كما قال أبو الفضل عياض اليحصبى ، ولم يكن هو الآخر بخير منه فى هذا المجـال ، وفى « ترتيب المدارك » ما هو أغرب مما ابتكره ابن العربى فى فاتحة « قانون التأويل » .

---

(١) المقرى ، أزهار الرياض ، ٣/ ٩١
(٢) ابن العماد ، شذرات الذهب : ٤/ ١٣

ومهما يكن الأمر فإننـا لا نستطيع إصدار حكم نهائى على كتابات ابن العربى فى الرحلات معتمدين على هذه القطع القليلة منها ، والمهم لدينا — وهو ما يعنينا هنا — أن الرجل فى حماسه للدفاع عن نفسه وإعلاء شأنه بدأ فى تاريخ الفكر الأندلسى شيئاً جديداً ، وهو أدب الرحلات ، وسيعقبه فى هذا الطريق من بعده كثيرون سيصل واحد منهم وهو ابن جبير إلى أن يكتب أجمل وأصدق وصف رحلة فى تراث الفكر الأندلسى كله .

* * *

هؤلاء هم أهم معاصرى الإدريسى من أهل الأندلس ممن كتب فى الجغرافية أو خلف شيئاً يدخل فى بابها . سار بعضهم على الدرب القديم قبله ، وانحدر بعضهم بالعلم الجغرافى إلى مستوى القصص وأحاديث الخرافة ، وادخل بعضهم الآخر فى الفكر الأندلسى شيئاً مبتكراً ، واشتركوا جميعاً فى شىء واحد : هو أنهم واصلوا تقليد الاهتمام بالجغرافية والكتابة فيها ، وهذا فى ذاته شىء جدير بالذكر والتقدير . ولم يكن من المنتظر أن يتأثر نفر منهم بالإدريسى ، فقد كان معاصراً لهم يكتب فى بلد خارج عن دار الإسلام ، ولن تذيع كتبه بين المسلمين إلا بعد أجيال ، لأن الكتب التى كانت تروج لوقتها فى تلك العصور كانت كتب علوم الدين والفقه والأدب ، أما الجغرافية وما إليها ، فكانت هوايات لا يعنى بنقل كتبها إلا أصحابها ، وما كان أقلهم ! هذا إلى أن دنيا الأندلس كانت قد مالت وتوالت عليه المحن ، وإنه لمن الغريب بعد ذلك كله أن يظل فيه من يعنى بالعلم ، فضلا عن الجغرافية وما إليها .

بعد الادريسى

الجغرافية وتطور التاريخ العالمى

من الظواهر التى تستوقف النظر فى تاريخ العلم الجغرافى فى العالم العربى كله أنه يضم — إلى جانب الثروة العلمية الحافلة — حشداً عظيماً من الشخصيات الطريفة التى تستثير بخصائصها الذاتيـة اعجابَ الدارس — وعجبَه — حتى على فرض أن أصحابها لم يضيفوا ما قُدِّر لهم أن يضيفوه من صفحات زاهرة إلى سجل العلم الانسانى . ففيما يتصل بتاريخ الجغرافية فى المشرق لدينا سلسلة ممتعة من الرجال سِيَرَهم أقرب إلى أحاديث المغامرات ، والقارئ ولا شك يذكر — على سبيل المثال — مغامرات أبى الحسن على المسعودى ومجازقات أبى القاسم ابن حوقل النصيبى وأقاصيص أبى عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر البنـاء المقدسى البشارى وما تضمه تواريخ حياتهم من قصص طريف ممتع جدير بأن يقرأ لذاته ، وليس لدينا ما يدعو للتشكك فى صحة ما رواه أولئك الناس عن أنفسهم كما فعل معهم ابن حوقل والمقدسى فى خطبتى كتابيهما ، وكما يحاول بعض المحدثين التشكيك فى بعض رحلات الإدريسى أو بعض فقرات رحلة ابن بطوطة ؛ ونعتقد أنه من المستبعد أن يدّعى رجل القيام برحلات لم يقم بها ، لأن الرحلة فى ذاتها لم تكن من مواضع الفخر فى تلك العصور اللهم إلا إذا كانت رحلة حج أو رحلة لقاء شيوخ وسماع منهم ، أما ادعاء دخول البلدان وركوب المخاطر والمجازفة بالنفس فى سبيل رؤية غريب أو عجيب ، فلم يكن يُعلى قدر الرجل أو يضيف إلى احترامه ، ومن هنـا فلم يكن هناك ما يدعو إلى تجشم الكذب فيه . وأما ما يوجهه بعض أولئك القدامى إلى بعضهم الآخر

من نقد مجارح فى بعض الأحيان فمرجعه إلى أنهم عاشوا وعملوا فى أيام ظالمة وظروف غير رحيمة جعلت العنف وطول الأظافر أدوات لازمة للنجاة من الهلاك أو الفقر والخمول فى معركة البقاء ، وقد انقضت تلك العصور ، وذهب هؤلاء وأولئك مع أمس الدابر ، ونحن حريون بأن نأخذ الرجل منهم بكلامه ما لم يقم على عدم تحريه الصدق دليل مقبول .

وفى العصر الذى نؤرخ فيه للجغرافية الأندلسية فى هذه السطور ، وهو عصر ما بعد الشريف الإدريسى ، من منتصف القرن السادس إلى منتصف السابع الهجريين (منتصف الثانى عشر إلى منتصف الثالث عشر الميلاديين) نرى مثالا حيًّا من أمثلة حياة الرحلة المتصلة وتواتر الأسفار والتعرض للمهالك فى سيرة أمير جغرافيِّى المشرق الإسلامى على الاطلاق وهو ياقوت الحموى الذى عاصر ، ضمن ما عاصر ، زحف التتار المخرب على عالم الإسلام واقترابهم رويداً رويداً من مرو التى كان يعمل فيها عندما تواترت الأنباء بزحف التيار التترى المخرب نحو الغرب ، فمضى يقطع الأرض أمامهم ناجياً بنفسه من الخطر حتى دخل الموصل خالى الوفاض ، لا كتب ولا مال ولا أوراق ، ثم ساعفتـه المقادير فعاد إليه الأمن فى ظل الوزير ابن القفطى فى حلب ، وهناك استقر وكتب معجمه الجغرافى الخالد ، وهو ديوان الجغرافية العربية الأكبر وكنزها الذى يمثل صرحاً من صروح العبقرية العلمية البشرية فى كل العصور .

ولم نفتقد ظاهرة الطرافة فى الشخصية أو سيرة الحياة عند أحد ممن مررنا بهم من أعلام الجغرافية الأندلسيين إلى الآن ، فقد رأينا — مثلا — قاسما بن أصبغ البيانى الفقيهَ المحدث يترك الفقه ردحاً من الزمن ليعمل فى شىء كان فى ذلك الحين أبعد ما يكون عن ولاية الفقهاء ، وهو الاشتراك مع مواطنه المسيحى حفص بن ألبر فى ترجمة كتاب هروشيُش من اللاتينية إلى العربية ، ورأينـا أبا عبيد البكرى يخرج من موطنه جزيرة شلطيش هارباً مع أبيه إلى اشبيلية ، ثم يتنقـل فى الأندلس من غرب إلى شرق حيث يلتقى بالعذرى فى المرية

ويأخذ عنه ، ويستقر أخيراً فى اشبيلية ويفرغ للتأليف فى الجغرافية ؛ ورأينا الشريف الإدريسى وما فى حياته من عجب خارج عن المألوف ، وأبا حامد الغرناطى الذى أشبه — بما طوّف ورأى وتعرض له — أن يكون سندباد بحر وبر معاً ، ثم أبا بكر بن العربى وما ملأ نفسه من قلق وطموح ؛ وهذه مجرد أمثلة تحدونا إلى القول بأن الجغرافىّ فى تلك العصور كان لابد أن يكون مغامراً جرئ القلب خفيف الحركة طُلَعَةً يحفزه إلى طلب المعرفة شوق إلى المجهول لا يأذن له فى ركون أو استقرار ، وإذا كانت الرحلة فى قافلة محروسة وعلى درب مطروق مغامرةً فى تلك الأعصر ، فما بالك برحلة الرجل وحيداً أو مع دليل لا تؤمن غدراته ؟ ثم كيف يكون الانسان جغرافياً فى تلك العصور إلا إذا أقدم على ذلك المرة بعد المرة ؟ إذ لم تكن هناك كتب وافية بالغرض فى هذا الباب ، وكان لابد للراغب فى الاتيان فيه بجديد من أن يترك أمان بيته إلى مخاوف الدروب والطرقات ومعاطب ركوب البحار على سفن يصدق عليها قولهم : الداخل إليها مفقود والخارج منها مولود . وإذا كان الدافع إلى طلب العلم هو ذلك القلق المبارك الذى يدفع الانسان إلى أن يعلم ويعرف ويستكشف ، فأننا مع جغرافيينا أمام ناس هم نماذج لهذا القلق الخيِّر الكشاف ومع طلائع فى ركب الانسانية فى سيرها الآبد فى مخاطر المجهول .

ولم نورد هذا المثل هنا لمجرد اتصال السياق ، بل لأنه يعبر أصدق تعبير عن شعور أبى الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني صاحب الرحلة المشهورة التى ننتقل إلى دراستها الآن ، فهو القائل :

البحرُ مُرُّ المذاقِ صعب لا جُعِلَت حاجتى إليه
أليس ماءً ونحن طين ؟ فما عسى صبرُنا عليه ؟ (1)

---

(١) رحلة ابن جبير بتحقيق الدكتور حسين نصار (القاهرة ١٩٥٥) ص ٦-٣ ، وهى طبعة جيدة اعتمد فيها على طبعة وليام رايت (لندن ١٨٥٢) التى اعاد طبعها مصححة منقحة دى خويه سنة ١٩٠٧ وقد حقق حسين نصار بعض قطع الرحلة على نقول منها فى عدد كبير من الكتب أورد بيانها فى صفحة ز من مقدمته .

وقد قال ابن جبير هذين البيتين — وهما من ألطف ما وصل إلينا من شعره — فى سياق وصفه الممتع لرحلته بالبحر الحافلة بالمتاعب والمخاطر والآلام من عكا إلى صقلية فى طريقه إلى الأندلس ، وهو وصف يصور لنا دون مبالغة ما كان الناس يكابدونه إذ ذاك من الأهوال فى ركوب البحار حتى على الطرق البحرية المألوفة إذ ذاك كطرق البحر الأبيض .

وكلام ابن جبير عن أهوال ركوب البحار وتربص الموت للسفن فى كل لحظة يكشف لنا عن حقيقة لابد لنا من تناولها قبل الفراغ لهذا الرحالة المبدع ومن عاصره أو أتى بعده ممن اشتغل بالجغرافية والرحلات من الأندلسيين .

ذلك أن ما وصل إليه الإدريسى والبيرونى وأبو حامد الغرناطى ومن سبقهم من العلم بالأرض وما عليها ومَن عليها هو أقصى ما كان يستطاع الوصول إليه بوسائل الرحلات وآلات قياس الابعاد والارتفاعات وتحديد الأوقات ومعرفة الاتجاهات التى عرفها الناس إلى ذلك الحين ، ولكى يصل الناس إلى معلومات جغرافية أكثر أو أحسن أو أدق كان لا بد من وسائل وأدوات أحسن وأدق مما كان لديهم ، فإن مراكب تلك العصور لم تكن تستطيع عبور البحار إلا على الاخطار التى وصفها ابن جبير فى رحلته الصغيرة نسبياً والتى سبقه إلى وصفها على نطاق أوسع أبو الحسن على المسعودى ، فقد كانت سفناً صغاراً غير متقنة الصنع يتسرب داخلها الماء باستمرار ، ولا تستطيع أن تقطع فى أمان إلا رحلة الأسبوع أو نحوه فى بحر ساكن كصفحة المرآة ، وأقلُّ زيادة فى المدة وأيسر نوء فى البحر أو أقل خطأ فى الاتجاه كان معناه الهلاك . وهذه السفن كانت اقصى ما يستطيع بُنَاتها صنعها فى هذه الأعصر وظروفها السياسية العامة ، فإن سفن التجارة كان يبنيها فى العالم العربى أفراد من الناس لا تصل رؤوس أموالهم إلى أن تعمِّر من السفن أكثر مما عمرت ، وكانت هذه السفن معرضة للمعاطب من العواصف والأنواء وشُعَب البحر ومتلصصته فى كل مرحلة من مراحل رحلاتها ، وحتى فى مرافئ بلادها لم تكن فى أمان من حكامها

أنفسهم ، إذ كانت يدهم على التجار والمتاجر ثقيلة ، ولم يكن هناك أهون عليهم من مصادرة تاجر أو الالحاح عليه بالمغارم والمطالب ومطالبته بالهدايا الغالية والألطاف النفيسة فى كل حين ، ولم يُعْنَ واحد من حكام القرن الهجرى الرابع وما بعده بأصلاح مرفأ أو بنـاء دار صناعة أو حراسة ميناء أو تأمين تجار فيما عدا أشياء قليلة قام بها الأمويون وأهل البحر والتجارة فى الأندلس ، ولهذا لم يكن أى تاجر أو ملاح ليغامر بجزء كبير من ماله فى عمارة سفينة ضخمة ينتظرها القدر المحتوم على أيدى الانواء أو الرياح أو المتلصصة أو الحكام ، ونتيجة لهذا ظلت السفن صغيرة غير متقنة الصنع قصارى ما تستطيعه بضع رحلات فى امد قصير ثم تتلاشى ، بل سنرى أن سفن البحر الأحمر كانت تبنى لرحلة واحدة ، وكان صاحبها يحسب حسابه على أن يسترد تكاليف بنائها فى هذه الرحلة الواحدة . ونتج عن ذلك أن التجارة البحرية فى ذاتها ظلت محدودة حجماً ومدى ، بل هى أخذت تتضاءل عما كانت عليه مع استمرار ضعف الحكومات وعجزها عن القيام بمسئولياتها حيال شعوبها وطمعها المتزايد فى أموال الرعية .

ومثل هذا يقال عن تجارة البر ، فقد ظلت تقوم على قوافل سيئة الحراسة لا تقطع مرحلة من الأرض إلا بعد دفع إتاوة باهضة لأصحابهـا ، ولا تدخل بلداً إلا انقض عليها المكاسون والعشارون كالصقور يمدون أيديهم حتى فى ملابس الناس ويعرسون الابر الطويلة فى أمتعتهم بحثـاً عن ذهب أو فضة أو أى شىء تجبى عليه ضريبة ، وهذه كلها حقائق يصفها لنا ابن جبير بأحسن بيان ومن هنا فلم يكن هناك طريق إلى تجارة ذات شأن إلا إذا كانت فى خدمة الحكام مباشرة أو بمشاركتهم للتجار فى المكاسب دون المغارم ، وهذه هى بعض الأسباب الأساسية فى هبوط أمر التجارة والتجار فى مملكة الإسلام كلها من أول العصر العباسى الثـانى ، وهو هبوط يسير متوازياً مع الهبوط السياسى وفسادِ نظم الحكم وغلبةِ الأتراك على أدوات الحكم وما استتبعه ذلك من ضياعٍ

لشئون الرعية وميلٍ لميزان العدالة وتخلخلٍ للأمن وانحدارٍ للمستوى الاجتماعى كله تبعاً لذلك .

وأهم ما يعنينا هنا من عقابيل هذا الانحدار السياسى الاقتصادى أن تجارة البحر الأبيض خرجت من أيدى المسلمين جملة ، وأن الطرق الكبرى التى كانت عامرة بالرحالة والسفار والقوافل فى العصور الأولى فَقَدت الأمان والحراسة وخلت من السابلة إلا من قوافل الحج ، وقد تعودنا أن نربط بين ضياع تجارة البحر الأبيض من أيدى المسلمين واضمحلال أساطيل الدول الإسلامية فيه ، ولكن الحقيقة أن العلاقة بين هذا الاضمحلال وضياع التجارة علاقـة غير حقيقية ، لأن الذين انتزعوا سيادة طرق البحر من أيدى المسلمين لم يكونوا أقوى منهم سياسياً أو عسكرياً ، ودولة النورمان التى قامت فى صقلية منتصف القرن الخامس الهجرى « الحادى عشر الميلادى » لم تكن أقوى من دول الفاطميين والأيوبيين والمرابطين والموحدين ؛ وكذلك الجمهوريات الإيطالية التى ورثت من المسلمين أمواه ذلك البحر لم تكن — بداهة — تضاهى تلك الدول الإسلامية قوة وثروة ، ولكنها كانت كلها دولا جديدة ، للحكم فى نظرها مفهوم آخر نستطيع أن نصفه بأنه كان جديداً فى تلك العصور .

فأما دولة النورمان فقد بيَّنا فى كلامنا على الإدريسى وفى بحثنا عن « أدارسة صقلية[1] » أنهم كانوا قوماً أذكياء أقاموا دولتهم فى صقلية على رضى الناس عنهم وتأييدهم إياهم وتقديمهم إلى النورمان أحسن ما لديهم من القوى والملكات والخبرات ، فخدمهم فى الجزيرة العرب والبيزنطيون والصقليون ، ولم يتدخل ملوك النورمان — وخاصة رُجار الثانى منهم — فى عقائد الناس أو ثقافاتهم أو شئونهم الخاصة إلا بالقدر الذى اضطرت إليه روح العصر ، فسعد الناس فى ظلهم وانتفعوا هم بهم ونشطت التجارة وانتظمت الملاحة بين موانى

(١) نشر فى مجلة المجمع العلمى العراقى ، مجلد ١١ (١٩٦٤) .

دولتهم وغيرها سواء أكانت فى بلاد النصارى أو المسلمين . وأما الجمهوريات الإيطالية فكانت — كما بينه سيسموندى فى كتابه الذائع الصيت عنها — طلائع أولى لفلسفة الحكم فى العصور الحديثة ، فسواء أكنا فى البندقية أو جنوة أو بيزا أو أمالفى فنحن أمام جماعات من التجار والملاحين تشترى من أمراء نواحيها حرية العمل فى مدينتها ومساحة ضيقة من الأرض حولها فى مقابل ضريبة سنوية تؤديها لأولئك الحكام . وما يكاد الاتفاق يتم حتى تتحول موانى أولئك التجار إلى مراكز كبرى للتجارة والنشاط البحرى فتقوم فيها دور الصناعة والمخازن والأسواق والمصارف ، وتبنى السفن وتمضى فى كل سبيل ، وينشىء التجار وأهل الصناعة والمال مجلساً للحكم مهمته الرئيسية حماية الأموال والمتاجر والسفن وحفظ حقوق التجار والملاحين ، وبفضل هذه الحماية تربو الثروات ويثرى البلد وينشىء أهله القصور الجليلة والمخازن الضخمة والأرصفة الواسعة والحصون والأسوار ووسائل الدفاع والأساطيلَ المحاربة لتعقّب متلصصة البحر الذين نسميهم عادة بالقراصين . ويطمع الأمراء المجاورون فى هذه الثروات الكبرى ولكن الجمهوريات التجارية ترد مطامعهم بجيوشها وتحصيناتها وينتهى الأمر بتلك الجمهوريات التجارية إلى أن تصبح دولا مستقلة أو تدين بطاعة اسمية لهذه الدولة أو تلك ، ومنها ما كان يدخل فى طاعة الدولة البابوية جملة للاستظلال بحمايتها الروحية .

والمهم بالنسبة لموضوعنا هنا أن طبيعة تكوين هذه الجمهوريات أدت إلى تقدم الفنون البحرية جميعاً تقدماً كان له فيما بعد أكبر الأثر فى تطور التاريخ العام ، فقد ارتقى فن بناء السفن بفضل وجود رؤوس الأموال القادرة على إنشائها ، ووجد الموهوبون من بُنَاتِها من يؤجرهم على عملهم فأجادوا وأبدعوا ، ولم يبخل التجار عليهم بالمال لأنهم آمنون على السمن أولا ثم واثقون ثانياً من أنهم سيجنون من ورائها الأرباح الكبرى ، فنشأت سفن كبيرة متينة قادرة على القيام بالرحلات البعيدة والصمود للأمواج والأنواء ، وعلى سكَّانات هذه السفن قام

ربابنة مهرة قادرون على الملاحة فى البحار الواسعة يعاونهم ملاحون ذوو دربة وجرأة وجلد ، وهؤلاء وأولئك جمعوا عن البحار والأرضين معلومات دقيقة وافية وأدلوا بها إلى رجال مهروا فى رسم الخرائط فى تلك الموانى الإيطالية وموانى الجزائر الشرقية (البليار) فنشأت الخرائط البورتولانية أو المرفئية التى تحدثنا عنها فيما سبق ، وبعبارة موجزة : وقفت تلك الموانى الإيطالية بفنون البحر على أبواب التحول العظيم الذى قاد إلى حركة الكشوف الجغرافية الكبرى ، ونتج عن هذا التحول العظيم فى فنون البحر تطورٌ واسع المدى فى المعلومات الجغرافية . أى أننا نشهد فى الواقع ميلاد علم الجغرافية كما نعرفه اليوم فى اثناء هذا التطور البعيد المدى الذى اجملناه فى سطور ، وهذه حقيقة شرحها بأجلى بيان الجغرافىُّ الفرنسى فيدال دى لابلاش فى مقدمته المبدعة لكتاب « الجغرافية العالمية » . وحركة الكشوف الجغرافية فى حقيقتها إن هى إلا نتيجة مباشرة لتقدم فنون الملاحة وأدواتها واتساع المعلومات الجغرافية ، وثمرة لتطور فلسفة الحكم فى بعض البلاد الأوروبية على الاساس الذى أشرنا إليه فى كلامنا عن قيام الجمهوريات الإيطالية [1] . ونحن عندما نقول إن كريستوفر كولومبوس كشف العالم الجديد ننسى أنه ما كان يستطيع الوصول إلى شىء من هذا لولا العلم الذى تجمع بين يديه عن الأرض وما فيها — وأساس الجزء الرئيسى فى هذا العلم عربي كما بينا فى كلامنا عن أبى عبيد البكرى — ولولا بنّاء السفن

---

(١) انظر عن تفاصيل هذا التطور الحاسم فى تاريخ أوروبا :

K. Bűcher: *Die Entstebung des Volkswirtschaft*, 7°. Auflage, Tűbingen, 1910.

A. Dopsch, *Wirtschaftlische und Soziale Grundlagen der Europäischen Kulturentwicklung aus der Zeit von Kaisar bis auf Karl den Grossen.* Wien, 2°. Auflage, 1923-1924, 2. Bănde.

A. Schaube, *Handelsgeschichte der romanischen Völker des Mittelmeersgebiets bis Zum Ende der Kreuzzüge* München - Berlin, 1906.

H. Pirenne, *Un Contraste économique: Mérovingiens et Carolingiens*, dans Revue Belge de philologie et d'histoire, tome I (1922) et II (1923).

Ibidem, *Les Villes des Moyen Age.* Essai d'histoire economique et sociale (Bruxelles,1927.

C. W. Previté Onten, *The Shorter Cambridge Medieval History* Cambridge, 1953), II, 1076 sqq.

الذى استطاع أن ينشئ له « السانتا ماريا » و « لا نِينْيَا » و « لا بِينْتَا » وهى كل أسطوله الذى غيَّر به وجه الأرض والتاريخ ، وكذلك لولا الحاكم الذى فهم كلامه ولمح احتمالات الثروة والقوة التى كان يتحدث عنها ، فأفرغ عليه الأموال وحشد له الملاحين المهرة ومكن له من أن يصمد فى البحر ثلاثة أشهر سويا حتى يصل إلى الشاطئ الموعود ، ولا يشوب ذلك أنه كان يحسب أنه وصل إلى شاطئ الهند أو الصين كما قرأ عند أبى عبيد البكرى ، فقد كان هذا أسعدَ خطأ فى التاريخ ، وهو كذلك خطأ قام على صواب كثير . وفى سياق هذه المعانى نقول إنه لم يكن مجرد مصادفة أن الشريف الإدريسى لم يجد مكاناً يعمل فيه ويبدع إلا فى بلاط النورمان وأن أبا الحسين بن جبير الذى سنتحدث عنه بعد قليل قام برحلته الأولى — وهى أهم رحلاته — من المغرب إلى المشرق — ذهاباً وعودة — على سفن جنوية .

وجدير بنا أن نطيل الوقوف عند هذا التطور البعيد المدى لأسباب كثيرة تتصل بموضوع دراستنا هنا ، ونكتفى منها هنا باثنين : الأول أننا سنرى أن ابن جبير سيلاحظ بعض مظاهره فى مروره ببعض بلاد النصرانية ، والثانى أن معرفة تفاصيله توضح لنا السبب فى أننا لم نستطع — رغم توفر العلم والربابنة القادرين فى بلادنا — أن نقوم بحركة الكشف الجغرافى أو نسهم فيها ونغادر غياهب عصورنا الوسطى فى الوقت الذى غادروا عصورهم الوسطى فيه .

فإلى جانب هذا التطور الذى شهدناه فى الجمهوريات البحرية الإيطالية كانت أوروبا كلها تمر بحركة تطور عميق وواسع المدى بدأ من أوائل القرن العاشر الميلادى ، فقد كان المجتمع الأوروبى قد تحول شيئاً فشيئاً عقب الغزوات الجرمانية — وحتى نهاية القرن التاسع الميلادى — إلى مجتمع زراعى مقفل شبيه بالمجتمع المصرى والشامى تحت حكم المماليك والأتراك العثمانيين ، فسيطر أمراء الاقطاع — وعلى رأسهم الملوك — على مصائر الأمم وشئون الناس ، وسيّروا شئون الحكم على نحو يجعلهم — مع من عاونهم من كبار رجال الدين —

المتمتعين وحدهم بخيرات البلاد كلها ، فاضمحلت المدن فى أوروبا كلها (عدا الأندلس) وتلاشى الكثير منها ، وتوقفت التجارة الكبيرة فى داخل القـارة الأوروبية وفى موانيها القائمة على البحر الأبيض على الخصوص . ثم بدأت دول جديدة تقوم على انقاض الاقطاع من القرن الثامن الميلادى فصاعدا ، وبعد تجارب عديدة فيما يعرف الآن بفرنسا على وجه خاص ، تبين الملوك أثناءها أن إقامة الدول على سواعد أمراء الاقطاع ومقاتليهم لا يسمح لها إلا بعمر قصير ومدى من اتساع الرقعة وقوة البِنْيَة محدود ، وأن دولة من الدول لن تقوى ويشتد ساعدها ويدوم لهـا السلطان إلا إذا تخلصت من الاعتماد على أمراء الاقطاع والأشراف ورجال الدين . فاتجه الأذكياء الواعون من الملوك إلى التجار والصناع من أهل البلاد يستعينون بهم فى صراعهم مع الاقطاعيين ، فمنحوا جماعات التجار والصناع فى المدن حقوقاً وضمانات ، وأذنوا لهم — لقاء اتاوات مالية — فى تحصين هذه المدن وتسيير شئون الحكم فيها كما يشاءون ، فبدأت المدن تتنفس من جديد ، وأدار أصحابها من التجار حولهـا الأسوار وأنشأوا القوات العسكرية ، ووضعوا — على أساس الوثائق التى أصدرها الملوك لهم — تشريعات جديدة مدنية أهم ما تحرص عليه هو تحصين المال والمتجر والمصنع وتأمين أهلها ، وقامت النقابات واجتهد رجالها فى المحافظة على أصول صناعات أعضائها وتثبيت قواعد أخلاق عملية جديدة ، فاستقوى أمر هذه المدن سريعاً كما حدث فى الموانى الإيطالية ، وزادت أسوارها حصانة وجيوشها قوة ، وخلف أسوار المدن هذه ولدت أوروبا الحديثة بعقليتها العملية الواضحة وبصناعاتها الجيدة المتقنة وبثرواتها الكبيرة القادرة على تدعيم بنيان الممالك التى ترضى عنها ، وبفضل قوانينها المدنية التى جعلت مفهومات الرومان والبيزنطيين فى هذا الباب أثراً من آثار الماضى ؛ وبدأت الشعوب الأوروبية المختلفة تظهر بسماتها وخصائصها ، وبعبارة مختصرة : فى هذه المدن ولدت أوروبا الجديدة وكانت النهضة الكبرى التى غيرت وجه التاريخ ، وأما القول بأن هذه النهضة بدأت فى إيطاليا بسبب

انتقال علماء الدولة البيزنطية إليها فكلام لا يثبت لأقل تفكير ، وأبسط ما يهدمه هو أن نسأل : إذا كان عدد قليل من أولئك العلماء البيزنطيين هم الذين اشعلوا قبس النهضة فى ايطاليا ، فكيف لم يشعلوها فى بلادهم نفسها ، وكانوا هنالك أكثر واقدر ، وبلادهم أولى بهذا الخير الذى أفاضوه على بلاد الآخرين ؟ الحق أن النهضة الأوروبية كلها ولدت فى هذه المدن والموانى ، ولم يتنبه أهل النهضة إلى علوم اليونان والرومان إلا بعد زمان طويل . هذا كله كان يحدث أثناء عصور الحروب الصليبية ، وبعدها سارت النهضة بخطوات أسرع وأكبر ، فى حين لم تلبث الشعلة التى توهجت عندنا على أيام الاتابكة ثم نور الدين وصلاح الدين وقضت على الخطر الصليبى أن أخذت تخبو تحت وطأة الأيوبيين المتأخرين ومن تلاهم من المماليك ، ثم سكنت الرياح فى مملكة الإسلام وانتشرت ظلال عصور طويلة من الركود فى كل ميدان ، وأغلقت الأبواب والنوافذ ورسخت قواعد مجتمع زراعى مقفل فقير زادته نظم الحكم القائمة إذ ذاك فقراً وركوداً .

وفى مثل هذه الظروف السياسية والاجتماعية لم يكن من الممكن أن يتقدم العلم الجغرافى ، لأن المعلومات الجغرافية لا تتحصل إلا من الرحلة والمشاهدة ودراسة المظاهر الطبيعية والاجتماعية فى شتى البلاد ، إذ الجغرافية — ربما دون سائر العلوم — علم لا يزهر ويثمر إلا فى جو طلق رحيب يأذن فى الحركة المتصلة دون قيد ، ولا غرابة والحالة هذه فى أننا سنمر فيما بقى من هذا البحث برجال موهوبين فى هذا الفن حقاً مثل ابن جبير وعلى ابن سعيد وأبى محمد العبدرى وابن عبد المنعم الحميرى وابن الخطيب ولكنهم لن يأتوا بجديد من المعلومات وإن جوّدوا فى فنون الرحلات والرسائل المختصرة أو المعاجم الجغرافية ، والذنب فى هذا ليس ذنبهم ، إنما هو ذنب الظروف التى عاشوا فيها وحكمت عملهم وحددت مداه ، فلا شك فى أن رجلا مثل على بن سعيد كان حقيقاً

بأن يضيف إلى العلم الجغرافى شيئاً عظيماً لو لم تحكمه وتحدد اتجاهات ذهنه ونشاطه ظروف لا تعين عالماً فى هذا الفن على التجديد أو الابتكار .

بيد أن هناك ظاهرة فتحت باباً واسعاً للأمل فى التجويد والابتكار أمام المشغوفين بالرحلة القادرين على الملاحظة والاستنتاج ، وهى إقبال الناس على أدب الرحلات بعد هذه البداية الطيبة التى قام بها أبو بكر بن العربى ، فمن منتصف القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى — نجد أنفسنا أمام سلسلة طيبة من كتب رحلات ذات قيمة كبرى قام بتأليفها أندلسيون ومغاربة ، وقد كانت الرحلة إلى المشرق أمراً تقليدياً عند الأندلسيين والمغاربة من فجر تاريخهم الإسلامى ، ولكن — لأمر ما — لم يدوّن أحد منهم وصف رحلته وما شاهده فيها قبل ابن العربى ، ولعل بعضهم دوّن وصف رحلته وضاع هذا الوصف ضمن ما ضاع من كنوز العلم الأندلسى ، وعلى أى حال فنحن لا نجد إشارة إلى وصف رحلة لأندلسى قبل أبى بكر بن العربى ، والطريف أن وصف الرحلة التالى له — رحلة ابن جبير — طفر بفن وصف الرحلات فى تاريخ الفكر الأندلسى طفرة وصلت به إلى قريب من القمة التى وصل إليها هذا الفن فى الأدب العربى كله ، فبعد رحلة ابن جبير نصل إلى القمة عند ابن بطوطة ، ولكل من هذين الرجلين مكانه فى تاريخ الأدب الجغرافى العالمى ، وبعدهما مباشرة يجئ الإيطالى ماركو بولو ، وهو من البندقية ، احدى الجمهوريات الايطالية التى أشرنا إليها ، ولانتقال زعامة فن الرحلات فى الأدب العالمى من أيدينا إلى أيديهم — كما هو واضح — مغزاه ومعناه فيما يتصل بانتقال زعامة العلم الجغرافى وفنونه إلى الغرب نتيجة لما شرحناه[1] .

---

(١) رجعنا فى هذا الموجز الى :

Kimble, G. H., *Geography in the Middle Ages*, 1938.
Bagrow, L., *Geschichte der Kartographie*, Berlin, 1951.
Beazley, C. R., *The Dawn of Modern Geography*, III, 1906.

أبو الحسين محمد بن جبير الكنانى

وابن جبير ، صاحب هذه الرحلة الجليلة الشأن هو أبو الحسين محمد بن جبير الكنانى ، ولد فى بلنسية أو شاطبة فى ١٠ ربيع الأول سنة ٥٤٠/ ٣١ أغسطس ١١٤٥ فى بيت عربى أندلسى عريق يرجع نسبه إلى رجل من رجال طالعة بلج بن بشر بن عياض القشيرى ، ودرس أول الأمر فى بلده ثم فى غرناطة ، ويبدو أن أباه هاجر بأسرته إليها للعمل فى دواوين الموحدين ، ومن الثابت على أى حال أنه — الأب — كان فى خدمة عمال الموحدين على غرناطة ، وقد سار ابنه محمد بن أحمد بن جبير الكنانى فى هذا الطريق ووصل إلى أن يكون كاتباً لأبى سعيد بن عبد المؤمن بن على عامل الموحدين على غرناطة ، ومن البديه أن تكون له مكانة ممتازة عند هذا الأمير بفضل علمه الواسع باللغة والآداب والفقه وقدرته على نظم الشعر .

وكل هذا لم يكن — كما قال كرتشكوفسكى بحق — ليصل بابن جبير إلى الشهرة أو يجعل له مكاناً ممتازاً فى تاريخ الفكر العربى ، لأن هذا الضرب من الفقهاء كان كثيراً فى الأندلس وبقية العالم الإسلامى ، ولكن مصادفة لم تكن فى الحسبان — إذا صدقنا القصة التى تحكى حولها — بعثته على الخروج إلى المشرق لأداء الفريضة ، فإذا برغبتـه لطلب العلم تتجدد فيمضى يسمع على الشيوخ فيما يمر به من بلدان ، وإذا هو يتكشف عن رجل دقيق الملاحظة صائب النظر طُلَعَة إلى المعرفة مشغوف بتسجيل ما يرى فى أسلوب سهل صادق يبعث على الثقة ، وإذا به نتيجة لذلك كله يخلِّف لنا وثيقة من أجمل وأصدق ما خلف الرحالة العرب يصل بها دفعة واحدة إلى قرابة القمة التى وصل إليها فن تدوين الرحلات فى تاريخنا الفكرى .

أما القصة التى يحكون عن سبب رحلته فمرجعها ذلك الجمّاعة الحاشد أحمد ابن محمد المقّرى ، وملخصها أن هذا الأمير أبا سعيد بن عبد المؤمن استدعى

الشيخ محمد بن أحمد بن جبير ليكتب عنه كتاباً وهو على شراب ، فأراد أن يمزح مع الشيخ فمد له يده بكأس من النبيذ ، فاعتذر عن قبولها وأبى واسترجع ، وعز على هذا الأمير أن تُرَد دعوته فاقسم على ابن جبير — تحت تأثير الخمر طبعاً — أن يشرب منها سبعاً ، فخاف الرجل وشربها اتقاء لما هو أسوأ ، فملأ الأمير له الكأس سبع مرات دنانير — بتأثير الخمر أيضاً — فازمع ابن جبير الحج بهذه الدنانير تكفيراً عما شرب من الاثم ، وأيًّا ما كان موضع هذه الأقصوصة من الصحة فهى لا تخلو من دلالة على خلق الأمير والشيخ معاً ، فأما هذا الأمير فكان رجلا سهلا محدود الملكات ذا ميل إلى الدعة والاستمتاع كعامة أولاد عبد المؤمن بن على فيما عدا ابنه أبو يعقوب يوسف الذى ورث الملك من بعده ، وأما الشيخ ابن جبير فقد كان رجلا متديناً سليم الطوية حسن التصرف فى الأمور ، فان الحج بالدنانير كان كفيلا بمحو السيئة ، ثم هو يريحه من هذا الأمير برهة من الزمان ويفتح أمامه باباً للفرجة والعلم والحركة هرباً من ركود الحياة فى غرناطة إذ ذاك .

وواضح لمن يطلع على وصف رحلته أنه قرر قبل السفر أن يكتب وصفها واستعد لذلك ، فكان أثناءها يرقب حساب الأيام والشهور فى دقة بالغة ويدون ملاحظاته عما شهد ورأى يوماً بعد يوم ، بل نعتقد أنه حتى فى الأوقات التى كان فيها على السفينة حرص على أن يُدَوِّنَ — وهو يقاسى هول الأنواء والعواصف — أحاسيسه وما يرى لكى يسجلها بتفصيل لأول ما تسنح له فرصة ، وبدون هذا لا يمكن تصور الدقة البالغة التى يصف بها كل شىء ويسجله دون خطأ فى تاريخ أو خلط بين حوادث يوم وآخر . وقد ورد فى أول المخطوط الوحيد للرحلة أن اسمها « تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار » وورد فى ختامها أن اسمها « اعتبار الناسك فى ذكر الآثار الكريمة والمناسك » ولا ندرى أيهما كان عنوان الكتاب ، وقد تكون الحقيقة ما قاله كراتشكوفسكى من أن العنوان لم يكن هذا ولا ذاك ، بل رحلة ابن جبير أو رحلة الكنانى فحسب .

حياة ابن جبير ورحلاته

غادر ابن جبير غرناطة فى رحلته الأولى إلى المشرق يوم الخميس ٨ شوال سنة ٥٧٨ / ٣ فبراير ١١٨٣ [١] فى صحبة صديق له من المشتغلين بالطب يسمى أحمد بن حسان كان يعمل معه فى الكتابة فى الديوان الموحدى فى غرناطة [٢] ، ولم يكونا — بداهة — يقصدان شهود الموسم فى نفس السنة ، فقد كان بينهما وموعده أقل من شهرين ، وهى مدة لم تكن تكفى لهذه الرحلة الطويلة فى تلك العصور ، إنما كان الناس يخرجون من الأندلس فى مثل هذا الموعد احتياطاً للطوارئ ولكى يسيروا على هَيْنَةٍ فيكونوا فى البقاع المقدسة فى رجب من العام التالى ، فيؤدون العمرة الرجبية ثم يقضون فى مهد الإسلام رجبا وشعبان ورمضان وشوال وذا القعدة ما بين درس وسماع وزيارات وأعمالِ تقىً ثم يؤدون الحج بعد ذلك فى ذى الحجة ، ثم يعودون إلى أوطانهم سعداء بهذه المجاورة التى كانوا يعدونها أسعد أوقات حياتهم وخير زادهم للآخرة .

وهذا على وجه التقريب ما فعله ابن جبير ، إذ وصل إلى جُدة فى يوم الثلاثاء ٤ ربيع الآخر ٥٧٨/٢٦ يوليو ١١٨٣ أى أنه استغرق فى الرحلة من بلده غرناطة إلى جدة خمسة أشهر هجرية وستة وعشرين يوماً ، وهى ١٦٢

---

(١) هذا هو ما ذكره ابن جبير فى كتابه ، وقد كان حريصاً على أن يدون مراحل سيره بالأيام والتاريخين الهجرى والميلادى . ولكننا نلاحظ أولا أن يوم ٨ شوال ٥٧٨ يقع يوم جمعة لا خميس ، ثم إنه يقابـــل ٢ (لا ٣) فبراير ١١٨٣ ، وتكفى هذه الملاحظة هنا ، وإن نُعنى نصحح كل أخطاء التواريخ فى الرحلة بل سنثبتها كما أثبتها هو ، فهى على هذه الصورة جزء من الرحلة نفسها .

(٢) أبو جعفر أحمد بن حسان بن أحمد بن الحسن القضاعى ، أصله من أنده — عمل بلنسية — كان متحققاً بعلم الطب وله فيه تقييد مفيد ، مع المشاركة الكاملة فى فنون العلم ، وكتب للسيد أبى سعيد ابن عبد المؤمن ، وجده لأمه القـــاضى أبو محمد عبد الحق بن عطية ، وتوفى بمراكش سنة ٥٩٨ﻫ أو ٥٩٩ (١٢٠٢ أو ١٢٠٣) ولم يبلغ الخمسين من عمره ، ولم يذكره ابن جبير فى رحلته إلا ثلاث مرات .
انظر مقدمة رحلة ابن جبير للدكتور حسين نصار ، ص : ى .

يوماً على وجه التقريب . وهذا هو متوسط المدة التى كان يحتاجها الراحل من الأندلس إلى الحجاز ، ونلاحظ أن ابن جبير اكتفى بأن يشهد فى طريقه أهم المزارات وأشدها قداسة عنده ، فلم يكد يسمع من أحد من الشيوخ ، وكانت العادة أن يبدأ النــاس السماعَ الحقيقى فى الحجاز إذا وصلوا إليه تاركين مَن يمرون به من الشيوخ فى الطريق إلى العودة ، فبعد أداء الفريضة يتسع الوقت للدراسة والطلب . حقيقة أن ابن جبير اضطر إلى الوصول إلى مكة عن طريق الصعيد الأعلى وقوص ثم عبور البحر من عَيْذاب إلى جدة بدلا من الطريق التقليدى عَبر شبه جزيرة سيناء إلى أَيْلَة ثم الانحدار جنوباً حتى المدينة فمكة ، ولكن هذا لا يغير من الوضع كثيراً ، فقد كانت الرحلتان متقاربتين من حيث الزمن اللازم لقطع كل منهما ، لأن فرق المسافة كان يعوضه عبور البحر الأحمر من عيذاب إلى جده ، وهى رحلة بحرية كان لا ينبغى أن تستغرق أكثر من ثلاثة أيام ، ولكنها كانت تستغرق فى العادة ما بين ثمانية أيام إلى عشرة كلها معاطب ومهالك مرجعها إلى سوء السفن واجتهاد أصحابها فى تحصيل تكاليف انشائها فى عبور واحد ، ثم انعدام رقابة الدولة على شئون هذا المرفأ البحرى الهام ، وهذه كلها حقائق أشرنا إليها فيما سبق ، ويرجع الفضل إلى ابن جبير فى تصويرها تصويراً واقعياً لا يخامرنا الشك فى صحته ، وسنعود إليه بتفصيل أوفى فيما يلى من الصفحات .

ونُتابع بقية رحلة ابن جبير الأولى وأحداث حياته إلى نهايتها لكى نفرغ بعد ذلك لدراسة الرحلة نفسها : بارح ابن جبير المدينة المنورة فى ٨ محرم ٥٨٠ مع ركب الحاج الكبير الجــامع لحجاج العراق وخراسان والشام فوصل إلى الكوفة فى ٢٨ محرم ، أى أن القافلة استغرقت ٢٠ يوماً لقطع مسافة تزيد على ٨٠٠ كيلومتر ، بمعدل نحو ٤٠ كيلومتراً فى اليوم ، وهو متوسط السرعــة لأسفار القوافل فى تلك العصور ، ووصل إلى بغداد مساء الأربعاء ٣ صفر ٥٨٠ ، ولم يقم فيها إلا ١٣ يوماً ، ولكنه رأى فى هذه الأيام القليلة ما لم ير

غيره فى شهور ، لأن ابن جبير كان شديد الشبه بمؤرخنا المصرى عبد الرحمن الجبرتى ، لا يكاد يسمع عن شيء غريب إلا أسرع لرؤيته ، ولا يتصل به طرف من خبر حتى يبادر إلى استقصاء تفصيله ، ولا يترك أثراً أو مشهداً أو اجتماعاً إلا خف إليه ، ثم هو حريص بعد ذلك على أن يدون كل ما يرى ويسمع على أدق صورة وأوفاها ، وإلى هذا الحرص ترجع أهمية رحلته هذه الفريدة فى بابها . ومن بغداد رحل إلى دمشق ماراً بتكريت والموصل ونصيبين ورأس العين وحران ومنبج وحلب وحماه وحمص ، فوصلها يوم الخميس ٢٤ ربيع أول ٥٨٠ / ٥ يوليو ١١٨٤ ، وقد اقتصرنا هنا على ذكر المراحل الرئيسية من خط سيره .

أقام ابن جبير فى دمشق حتى ٥ جمادى الآخرة ٥٨٠ / ١٣ سبتمبر ١١٨٤ فكأنه قضى فيها قرابة السبعين يوماً ، أى قريباً من المدة التى قضاها فى الحجاز وستّ مرات ونصفاً قدر المدة التى قضاها فى بغداد ، وليس مرد هذه الاقامة الطويلة إلى مجرد البحث عن وسيلة للسفر من دمشق إلى عكا على طريق كانت إذ ذاك تحت سلطان الصليبيين ، بل مردُّه فى الحقيقة إلى هذا الأنس الذى كان الأندلسيون يجدونه فى عاصمة الشام للمشابهة فى البيئة الطبيعية وأخلاق الناس ورابطة الأموية ، وهذا الأنس مصداق ما يقوله الجغرافيون الأندلسيون عن بلادهم من أنها شامية ، ولهذا لا نكاد نجد رحالة أو حاجا أندلسياً إلا يطيل المقام والكلام فى دمشق أو غيرها من مدائن الشام ، وسنرى عند كلامنا عن علىّ بن سعيد كيف استهوته حلب فجرى لسانه بمدحها وفكر فى الاقامة فيها ، وسيُعبِّر المقّرى عن هذا الشوق الشامى للأندلسيين فى صفحات بعد صفحات من كتابه النفيس « نفح الطيب » .

واستطاع ابن جبير الوصول إلى عكا حيث اكترى مكانا فى سفينة جنوية كان قصدها مدينة مِسِّينَة بجزيرة صقلية ، وأبحر فى يوم الخميس ١٠ رجب ٥٨٠ / ١٨ اكتوبر ١١٨٤ على هذه السفينة التى يصفها ابن جبير بالضخامة والعظم .

ومقارنة بين وصفه للسفينة التى عبر عليها من عيذاب إلى جدة ووصفه لتلك السفينة الجنوية توضح لنا بما لا مزيد عليه من البيـــان البونَ الشاسع بين صناعة السفن وفنون البحر عند المسلمين والنصارى فى أواخر ذلك القرن الهجرى السادس/أواخر الثانى عشر الميلادى .

قال فى وصف السفينة التى نقلته من عيذاب إلى جدة :

« والجِلاب التى يُصَرِّفونها فى هذا البحر الفرعونى ، ملفّقة الإنشاء ، لا يُستعمل فيها مسمار البتّةَ ، إنما هى مخيَّطة بأمراس من القِنْبَــار ، وهو قشر جوز النارَجيل يدرسونه إلى أن يتخيّط ، ويفتلون منه أمراساً يخيطون بها المراكب ، ويُخلّلونها بِدُسُر من عيدان النخل ، فإذا فرغوا من إنشاء الجلبة على هذه الصفة ، سَقَوْها بالسمن ، أو بدهن الخِرْوَع ، أو بدهن القِرْش ، وهو أحسنها ، وهذا القرش حوت عظيم فى البحر يبتلع الغَرْقَى فيه ، ومَقْصِدهم فى دهان الجلبة ليلين عودها ويرطب ، لكثرة الشِّعَابِ المعترضة فى هذا البحر . ولذلك لا يصرِّفون فيه المركب المسمارىّ . وعود هذه الجلاب مجلوب من الهند واليمن ، وكذلك القنبــار المذكور . ومن أعجب أمر هذه الجلاب أن شُرُعها منسوجة من خوص شجر المُقْل ، فمجموعها متناسب فى اختلال البنية ووهنها ، فسبحان مسخرها على تلك الحال ، والمسلِّم[١] فيها لا إله سواه . ولأهل «عيذاب» فى الحجاج أحكام الطواغيت . وذلك أنهم يشحنون بهم الجلاب ، حتى يجلس بعضهم على بعض ، وتعود بهم كأنها أقفاص الدجاج المملوءة ، يحمـــل أهلها على ذلك الحرص والرغبة فى الكراء حتى يستوفى صاحب الجلبة منهم ثمنها فى طريق واحدة ، ولا يبالى بما يصنع البحر بها بعد ذلك ، ويقولون : « علينــا بالألواح ، وعلى الحجاج بالأرواح » . وهذا مثل متعارف بينهم[٢] .

(١) أى الذى يكتب السلامة من العطب فيها .
(٢) الرحلة ، ص ٤٤ — ٤٥

وقال فى وصف السفينة التى استقلها من عكا إلى مسينة : « وصعدنا إلى المركب ، وهو سفينة من السفن الكبار — بمنة الله على المسلمين — بالماء والزاد ، وحاز المسلمون مواضعهم بانفراد عن الأفرنج ، وصعده من النصارى المعروفين . بالبِلِغْرِيِّين — وهم حجاج بيت المقدس — عالم لا يحصى ، ينتهى إلى أزيد من ألفى إنسان... وقل الزاد بايدى الناس ، ولكن هم فى هذا المركب — بمنة الله — فى مدينة جامعة المرافق ، فكل ما يحتاج شراؤه يوجد : من خبز وماء ، ومن جميع الفواكه والأُدمُ كالرمان والسفرجل والبطيخ السندى والكمثرى والشاه بلوط والجوز والحمص والباقلاء — نيًّا ومطبوخاً — والبصل والثوم والتين والجبن والحوت وغير ذلك مما يطول ذكره ؛ عاينا جميع ذلك يباع[1] » .

ووصل ابن جبير إلى مسينة يوم السبت ٢ رمضان ٥٨٠ / ١٨ ديسمبر ١١٨٤ بعد أهوال اشرف معها على الموت ، آخرها أن تحطمت السفينة فى مدخل مسينة وانتقل ابن جبير ومن معه إلى البر فى زوارق أقبل بها نواتية من الشواطىء . وأقام فى ذلك البلد عشرة أيام ، ثم عبر ممر مسينة فى مركب صغير إلى ميناء شفلودى ووصف لنا فى أثناء ذلك بركان اتنا أصدق وصف قرأناه عند أحد من جغرافيينا أو رحالتنا ، ومن شفلودى انتقل إلى ثرمة ثم إلى بلرم (يكتبها بلارمة) فدخلها يوم السبت ١٦ رمضان ٥٨٠ / ٢٢ ديسمبر ١١٨٤ فاقام بها إلى السبت ٢٣ رمضان ٥٨٠ / ٢٩ ديسبر ١١٨٤ ، ثم انتقل إلى إطرابنش Trapani ، فاقام بها على رغمه إلى ٢١ ذى حجة ٥٨٠ / ٢٥ مارس ١١٨٥ حيث رحل إلى الأندلس فى مركب جنوى أيضاً ، فوصل إلى الأندلس مساء الخميس ١٥ محرم ٥٨١ / ١٨ ابريل ١١٨٥ ونزل بميناء قرطاجنة ومنها سار إلى غرناطة فوصلها بعد سبعة أيام ، ودخل منزله بعد غياب عامين هجريين وثلاثة أشهر ونصف بحسابه .

---

(١) رحلة ابن جبير ، ٣٠٣ — ٣٠٤

وقد قاسى ابن جبير فى رحلتـه هذه كثيراً من الأهوال وصفها بتفصيل كبير مرة بعد مرة فى أسلوبه الساذج الجميل الذى ينم عن صدقه وسلامة طويته وعميق اعتقاده فى الله سبحانه . ونعتقد أنه عاد إلى عمله فى خدمة الموحدين فى غرناطة ، ولكنه لم يعد إلى خدمة أبى سعيد بن عبد المؤمن ، فقد كان هذا قد ترك ولاية غرناطة من زمن ، والثابت على أى حال أن ابن جبير كان رخى الحال ذا مكانة مرموقة فى المجتمع الغرناطي فى ذلك الحين ، وتدل قائمة الذين سمعوا عليه -- وقد أوردها المقرى — على أنه اشتغل بالتدريس زمناً دون أن يكون من كبار الشيوخ ، فلم يذكره أحد بين هؤلاء ، وكلامه فى رحلته يدل على علم متوسط ، فاقتباساته الشعرية من النوع القريب المتناول ، واشاراته الفقهية لا تنم عن علم عميق واسع بالفقه ، ولكنه كان — وهذا هو المهم — رجـلا صادقاً بسيطاً شهماً كريماً ، فقد حكى المقرى حكاية تدل على شهامته وكرمه خلاصتها أنه توسط لأحد أبناء أصحابه فى الزواج من ابنة صديق ، ولم يوفق الزواج وانتهى بالطلاق ، فاسرع ابن جبير إلى الشاب بمائة دينار قدّر أنها تعدل ما خسره الشاب فى ذلك الزواج غير الموفق ما بين مهر وشوار ونفقات عرس ، فلم يقبلها الشاب وتعلل فى الاعتذار عن قبولها بعلة وجيهة قبلها ابن جبير ، والطريف الذى يدل على أن الناس أبناء زمانهم أيًّا كانوا أن ابن جبير لم يفكر فى مواساة الشابة المطلقة وتعويض شئ من خسارتها ، وهى — كما هو بديهى — افدح بكثير من خسارة الشاب . وكان ابن جبير متزوجاً من سيدة كريمة ، أبوها شيخ كبير يسمى الوقَّشِى ، ولا نعرف من هو بين الشيوخ الوقشيين ، وهم كثيرون جداً ، وكان شديد التعلق بها ، حتى أنه لم يطق المقام فى الأندلس بعد وفاتها كما سنرى .

ورغم تلك الأهوال التى قاساها ابن جبير فى رحلته الأولى فاننا نراه ينهض لرحلة الحج مرة أخرى فيما بين سنتى ٥٨٥ و٥٨٧ / ١١٨٩ و ١١٩١ ويقال إن الذى دفعه إلى ذلك فرحُه باستيلاء صلاح الدين على بيت المقدس سنة ٥٨٣ /

١١٨٥ ، فقرر العودة إلى المشرق ليرى بنفسه ثالثة مدائن الإسلام المقدسة وقد اظلها الإسلام من جديد ، ومن أسف أنه لم يسجل هذه المرة يومياته كما فعل فى رحلته الأولى ، وكل ما لدينا من آثار هذه الرحلة الثانية قصيدة طويلة رفعها إلى صلاح الدين الأيوبى يهنئه فيها بالفتح العظيم ، ويشكو إليه عسف رجاله وأمنائه بالحجاج وسوء معاملتهم إياهم .

ولم يستقر ابن جبير فى غرناطة بعد عودته من رحلته تلك ، بل انتقل إلى مالقة ، ثم غادر الأندلس نهـائياً إلى سبتة ثم إلى فاس وهناك انقطع للأقراء واسماع الحديث ، وتزهد فى عيشة وإن لم ينقطع عن رواية الشعر ونظمه فقد كان مشغوفاً بذلك طول حياته .

ولم ينعم ابن جبير بحياة الهدوء طويلا ، فقد توفيت زوجته عاتكة فى سنة ٦١٤ / ١٢١٧ وهو فى الرابعة والسبعين من عمره ، ولم يحتمل الشيخ الواهن وطأة النكبة فقرر الخروج إلى المشرق والحج مرة ثالثة ، فذهب وجاور بمكة ثم انتقل إلى بيت المقدس وتحول بعد ذلك إلى الاسكندرية ، وهى مدينة طالما احبها وأطال فى وصفها ، وهناك اقام يحدث ويدرس حتى توفى فى شعبان سنة ٦١٦ أو ٦١٧ / ١٢١٩ أو ١٢٢٠ وقد قارب الثمانين من عمره .

تلك هى حياة محمد بن أحمد ابن جبير الكنانى ، حياة بسيطة عادية فى فى جوهرها ، فان ألوفاً من الأندلسيين قاموا بمثـــل هذه الرحلة قبله مرات وعاشوا كذلك مثل هذه الحياة السهلة الهينة . حتى وفاة زوجته يبدو لنا عادياً ، فقد وقعت وهو فى السبعينات من عمره ، ولابد أنها لم تكن أصغر منه بكثير ، ولكننا نرى — لأمر ما — أن الحوادث التى تستحق الذكر فى حياة ابن جبير تتحول إلى دوافع وحوافز تجعل لها طعم القصص ، فهو يقوم برحلته الأولى لأنه

أرغم على شرب الخمر وأراد التكفير بالحج ، وهو يقوم برحلته الثانية للاحتفال باستيلاء صلاح الدين على القدس ، وهو فى ذاته حادث فاصل جدير بأن يحتفل به ، وقيام ابن جبير بالرحلة لهذا السبب يدل على أنه كان ذا إحساس عميق بوحدة الوطن الإسلامى ، وهو يقوم برحلته الثالثة ليتعزى عن مصابه فى زوجه عاتكة ، وهو أمر يدل على أن الرجل كان ذا قلب إنسانى كبير ، فان هجرة الرجل من وطنه فى هذه السن للتأسى والنسيان وزيارة البيت الحرام أمر لا يقدم عليه الكثيرون .

وهذا الفيض العاطفى الذى امتاز به ابن جبير هو — فيما نرى — دافعه إلى تقييد رحلته ، فان تقييد الرجل لخطوات رحلته وتسجيله أحداثها يدل على أنه كان يشعر أنها أمر هام جدير بان يسجّل ويوصَف ، وانها ليست نزهة يقوم بها أو فرض يؤديه لأنه واجب فحسب ، ولهذا فهو يسجل كل شىء فى أوراق معه ، وكلما وجد فراغاً من الوقت استعاد ما رأى وكتبه بغاية الدقة دون سفسطة أو اسراف فى ألفاظ ، وهذا شأن رحالة حق ، يتجشم أخطار الأسفار ومتاعبها ليرى ويتعلم وليحس وينفعل بما يرى ، وهذا أيضاً هو الذى جعل لهذه الرحلة تلك القيمة العلمية والأدبية الكبرى ، فان ابن جبير الذى سار بأدب الرحلات خطوة ثانية للمحاولة الساذجة التى قام بها ابن العربى وصل بهذه الخطوة إلى أرقى ما يكون عليه أدب الرحلات إلى نهاية العصور الوسطى ، بل قَلّ أن تجد فى كتب الرحلات فى شتى الآداب ما يضاهى هذه الرحلة أو يساويها فى المتعة والصدق والقيمة العلمية من كل وجه .

وإذا كانت الرحلات للمشاهدة والملاحظة والدراسة تعتبر من عُمُد العلم الجغرافى ، فان ابن جبير يحتل عن جدارة مكاناً صدراً فى تاريخ الجغرافية فى الأندلس على هذا الأساس ، وإن لم تكن مادة كتابه جغرافية صرفة ، بل إن التاريخ والآثار هما الغالبان عليها . ولكن الذى يستوقف الانتباه أن ابن جبير كان دقيق الملاحظة فى كل ما يتصل بالمظاهر الجغرافية من أرضين وبحار

وخلجان ورءوس وأنهار ورياح وأمطار وشروق وغروب وفصول السنة وأجناس الناس وأشغالهم وصناعاتهم وزراعاتهم ومتاجرهم وما إلى ذلك . ولو أن رجلا متخصصاً فى الجغرافية قام بهذه الرحلة وسجل مشاهداته اثناءها ما زاد على ما قال ابن جبير شيئاً ، فهو من أول الرحلة يصف خط السير ويعين المراحل والزمن الذى استغرقته كل منها ، وهو حريص على أن يدون فى كل حالة التاريخين الهجرى والميلادى ، وهو فى هذه الثانية يكتب الشهور الميلادية على نحو قريب جداً مما نستعمله اليوم ، ولكنه لم يحدد السنة الميلادية أبداً ، ربما لأنه لم ير ما يدعو إلى ذلك اكتفاء بذكر السنة الهجرية ، وإذا قلنا إن ابن جبير كان لا يجد صعوبة فى تحديد التواريخ وهو بالأندلس إذ كان يكفى أن يسأل من حوله ليجد الجواب ، فقد جاء عليه وقت فى بلاد المشرق كان عليه أن يعتمد على نفسه فى حساب الشهور الميلادية ، وعلى ظهر المركب كان عليه أن يحسب التقويمين معاً ، فكان يرقب الهلال بنفسه ويحسب على أساس ما يرى ، وغريب بعد ذلك أن أخطاءه فى هذا قليلة ، وهى دلالة على ذهن صاح حاضر ، وهى صفة تدهشنا عند ابن جبير فى كل حالة ، لا فيما يتصل بحساب الأيام والتواريخ فحسب .

فمن أظهر أمثلة يقظته وحرصه على أن يعلم — ويسجل — دائماً أين هو وفى أى اتجاه يسير قوله : « وأقلعنا ظهر يوم الخميس التاسع والعشرين منه (يريد شوال ٥٧٨) وبموافقة الرابع والعشرين من فبراير المذكور (سنة ١١٨٣) ، بحول الله تعالى وعونه لا رب غيره ، وكان طريقنا فى البحر محاذياً لبَرّ الأندلس . وفارقناه يوم الخميس السادس لذى القعدة بعده ، عندما حاذينا « دانِيَة » . وفى صبيحة يوم الجمعة السابع من الشهر المذكور آنفا قابلنا برّ جزيرة « يابسة » ، ثم يوم السبت بعده قابلنا برّ جزيرة « مَيُورَقَة » ، ثم يوم الأحد بعده قابلنا جزيرة « مَنُورَقَة » ، ومن « سبتة » إليها نحو ثمانية مَجَارٍ ، والمجرى مائة ميل . وفارقنا بر هذه الجزيرة المذكورة ، وقام معنا بر جزيرة

« سَرْدَانِيَة » أول ليلة الثلاثاء الحادى عشر من الشهر المذكور ، وهو الثامن من مارس ، دفعة واحدة على نحو ميل أو أقل . وبين الجزيرتين « سردانية ومنورقة » نحو الأربع ، فكان قطعاً مستغربا فى السرعة » وهذه عبارة غاية فى الأهمية باالنسبة لطرق الملاحة فى تلك العصور ، فان ابن جبير يرسم لنا الطريق بالضبط ويذكر الشاطئ الذى سارت السفينة فى محاذاته فى كل تاريخ ويعين المراحل البحرية وأطوالها بالمجارى (جمع مجرى) ويذكر أن المجرى ١٠٠ ميل . ولا ندرى إن كان المراد ميلا عربياً أو ميلا بحرياً مما كان يستعمله الملاحون الجنويون . ومما يدل على أن ابن جبير كان يسأل عن كل شىء أو يدون كل ما يصل إليه علمه قوله : « ثم يوم الأحد بعده قابلنا جزيرة منورقة ، ومن سبتة إليها نحو ثمانية مجار » فهذه ملاحظة طيبة أراد ابن جبير أن يعيّن بها ما قطع فى البحر منذ اقلاعه يوم الخميس السابق على ذلك الأحد .

وقد كسب ابن جبير من طول ملاحظته لجرى السفن وتسيير الربابنة لها فَهماً يستوقف النظر لشئون السفن والرياح والأنواء ، وحديثه حافل بما يدل على ذلك الفهم ، وهو يستعمل فيه المصطلح الدارج كما سمعه دون محاوله للترجمة أو التعريب ، مما يعطى كلامه فى ذلك الموضوع قيمة خاصة ، ومن أمثلة كلامه عن مهاب الريح قوله قبيل إقلاعه من ميناء عكا فى طريق العودة : « وفى مهب الريح بهذه الجهات سر عجيب ، وذلك أن الريح الشرقية لا تهب فيها إلا فى فصلَى الربيع والخريف ، والسفر لا يكون إلا فيهما ، والتجار لا ينزلون إلى عكة بالبضائع إلا فى هذين الفصلين . والسفر فى الفصل الربيعى من نصف أبريل ، وفيه تتحرك الريح الشرقية ، وتطول مدتها إلى آخر شهر مايُه ، وأكثر وأقل ، بحسب ما يقضى الله تعالى به . والسفر فى الفصل الخريفى من نصف اكتوبر ، وفيه تتحرك الريح الشرقية ، ومدتها أقصر من المدة الربيعية ، وإنما هى عندهم خُلْسَة من الزمان ، قد تكون خمسة عشر يوماً وأكثر وأقل . وما سوى ذلك من الزمان فالرياح فيه تختلف ، والريح

الغربية أكثرها دواماً ، فالمسافرون إلى المغرب ، وإلى صقلية ، وإلى بلاد الروم ينتظرون هذه الريح الشرقية فى هذين الفصلين انتظارَ وعد صادق ، فسبحان المبدِع فى حكمته ، المعجز فى قدرته ، لا إله سواه » . ومن أمثلة استعماله للمصطلح البحرى قوله يصف بعض مراحل رحلة العودة هذه : « فلما كان نصف الليل ، أو قريب منه ، ليلة السبت التاسع عشر لرجب المذكور ، والسابع والعشرين لاكتوبر ، ترددت علينا الريح الغربية فقصفت قرّيةَ الصارى المعروف بالأردمون[1] ، وألقت نصفها فى البحر مع ما اتصل بها من الشراع ، وعصم الله من وقوعها فى المركب ، لأنها كانت تشبه الصوارى عظما وضخامة . فتبادر البحريون إليها ، وحُطّ شراع الصارى الكبير ، وعُطِّل المركب من جزْيه ، وصيح بالبحريين الملازمين للعشاريّ المرتبط بالمركب . فقصدوا إلى الخشبة الواقعة فى البحر ، وأخرجوها مع الشراع المرتبط بها . وحصلنا فى أمر لا يعلمه إلا الله تعالى . وشرعوا فى رفع الشراع الكبير ، وأقاموا فى الأردمون شراعا يعرف بالدّلون ، وبتنا بليلة شهباء ، إلى أن وضح الصباح ، وقد منَّ الله عز وجل بالسلامة . وشرع البحريون فى إصلاح قرّية أخرى ، من خشبة كانت معدة عندهم » .

ومن أمثلة ذلك أيضاً قوله : « وقام معنا بر جزيرة سردانية أول ليلة الثلاثاء الحادى عشر من الشهر المذكور (شوال ٥٧٨) وهو الثامن من مارس (١١٨٣) دفعة واحدة على نحو ميل أو أقل » وقوله « فخرج علينا طرف من بر سردانية المذكور ، فأخذنا فى الرجوع عوْداً على بدء ، إلى أن وصلنا طرفا من البحر المذكور يعرف بقوسمركة » (Capo Sammarco) وقوله — وهى ملاحظة غاية فى الدقة والأهمية — يصف حلقة من حلقات عوده بالبحر من عكا إلى

(١) القرية الصارى الأفقى الحامل للشراع ، ويرفع عادة أعلا الصوارى . والأردمون هو الصارى الخلفى ، معرب عن Artémone الإيطالى .

قرطاجنـــة الأندلسية « فأصبحنا ولم نكد . فكان من الاتفاقات الموحشة أن أبصرنا بر إقريطش عن يسارنا ، وجباله قد قامت أمامنا . وكنا قد خلفناه عن يميننا ، فأسقطتنا الريح عن مجرانا ، ونحن نظن أنا قد جزناه . فسقط فى أيدينا ، وخالفنا المجرى المعهود الميمون ، وهو أن يكون البر المذكور منا يميناً ، فى استقبال صقلية ، فاستسلمنا للقدر ، وتجرعنا غصص هذا الكدر ، وقلنا :

سيكون الذى قُضِى سخط العبدُ أو رَضِى »

ولو درسنا كلام ابن جبير عن البحر والسفن وأوصافه لما رأى وعاين فيه وعليها لكانت من ذلك رسالة غاية فى الأهمية عن الملاحة فى البحرين الأبيض والأحمر فى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى ، ولم يلتفت لهذه الناحية من مؤرخى التاريخ البحرى فى البحر الأبيض إلا هُويد فى كتابه الذائع الصيت عن تاريخ التجارة فى البحر الأبيض والبارون ماس لاترى فى مقدمة مجموعة وثائقه عن العلاقات بين المسلمين والنصارى أواخر العصور الوسطى ، أما سواهما من شاوِبه إلى أرشبيالد لويس ، فلم يتمطن واحد منهم إلى شىء من ذلك رغم أن رحلة ابن جبير مترجمة إلى الكثير من اللغات الأوروبية متداولة فيها كلها بالقدر الذى هى متداولة به عندنا [١] .

أما أوصافه الجغرافية فهى الغاية فى الدقة والصدق والفائدة ، فهو لا يصل إلى بلد إلا أعطى عنه صورة دقيقة فى كلمات مختصرة تضم لباب الموضوع ، فمن أمثلة ذلك قوله يصف الاسكندرية : « فأول ذلك حُسن وضع البلد واتساع مبانيه ، حتى أنا ما شهدنا بلداً أوسع مسالك منه ولا أعلى مبنى ولا أعتق. ولا أحفل منه ، وأسواقه فى نهاية من الاحتفال أيضاً . ومن العجب فى وصفه أن بناءه تحت الأرض كبنائه فوقها وأعتق وأمتن ، لأن المـاء من النيل يخترق جميع ديارها وأزقتها تحت الأرض ، فتتصل الآبار بعضها ببعض ، ويمد بعضها بعضاً » .

(١) انظر : P. Vidal de la Blache, *Géographie Universelle*, Vol. VII, 1ère partie (1934).

«وعاينا فيها أيضاً من سوارى الرخام وألواحه كثرة وعُلوا واتساعا وحسنا ما لا يُتخيل بالوهم ، حتى إنك تلفى فى بعض الممرات بها سَوارٍ يغص الجو بها صعوداً ، لا يدرى ما معناها ، ولا لم كان أصلُ وضعها . وذُكر لنا أنه كان عليها فى القديم مبان للفلاسفة خاصة ولأهل الرئاسة فى ذلك الزمان ، والله أعلم ، ويشبه أن يكون ذلك للرصد» ، وجدير بالملاحظة إشارته إلى السراديب والمجارى التى كان الناس يحفرونها فى الاسكندرية لإيصال الماء إلى البيوت على ما نفعل اليوم ، وهو يصف هذه المجارى بأنها أبنية تحت الأرض ، وهو تعبير فى غاية الدقة ، وواضح أن الاسكندرانيين انتفعوا بالسراديب المسيحية القديمة (الكاتاكومب) فى هذا الغرض . ويلى ذلك كلامه عن منارة الاسكندرية وهو أدق من وصف البكرى وقريب فى القيمة والصحة من وصف الإدريسى ، والسبب واضح ، وهو أن البكرى لم ير المنار ولا هو دخله ، وإنما نقل وصفه . أما الإدريسى فلا شك — بقرينة الدقة والمشابهة تلك — فى أنه عاينه ودخل إليه وصعد فيه ، وإن لم يذكر المسجد الذى كان فى أعلاه . وكلام ابن جبير عن هذا المسجد بالذات يكشف لنا عن اهتمامه بالتحقيق والضبط ، فبينما اكتفى غيره بالصعود فى المنار بعض درجاته أو طبقاته صعد ابن جبير إلى القمة ، قال : « وفى أعلاه مسجد موصوف بالبركة ، يتبرك الناس بالصلاة فيه ، طلعنا إليه يوم الخميس الخامس لذى الحجة (٥٧٨) ، وصلينا فى المسجد المبارك المذكور ، وشاهدنا من شأن مبناه عجباً لا يستوفيه وصف واصف » .

ووَصْفُ ابن جبير للرحلة النيلية من القاهرة إلى قوص فريد فى بابه ، فان عامة الجغرافيين قبل ذلك — كابن حوقل والإدريسى — يذكرون المدن الواقعة من القاهرة إلى أسوان سماعاً لا مشاهدة ، وهم لهذا ينقل بعضهم عن بعض ، حتى الإدريسى يمكن القول بأنه لم يغادر القاهرة جنوبا فى مروره بمصر ، أما ابن جبير فقد قام بالرحلة فعلا ووصف المدن والظواهر الجغرافية التى مر بها ،

وهو يذكر تاريخ وصوله إلى كل بلد نزل به أو مر به مما يعطينا فكرة واضحة عن الملاحة النيلية فى ذلك العصر من محطاتها ومراحلها وتوقيتها ومحصولات كل بلد وصناعة أهله وما يُحمل إليه من المتاجر وما إلى ذلك ، ويستوقف النظر وصفُه لأخميم والبِربا التى بها ، والمراد بها المعبد ، والبربا باللغة المصرية القديمة هى المقبرة ، ولكن اللفظ كان يستعمل فى العصور الوسطى فى معنى المعابد المصرية القديمة ومواقع الآثار عموماً ، ولم يكن يستوقف انتباه الجغرافيين والرحالة من العرب شىء من ذلك مثل بربا أخميم هذه ، فلهم فيها كلام مسرف فى الطول .

وفى هذه الرحلة إلى الحجاز عن طريق قوص وعيذاب يتحدث عن قوص حديثاً عظيم الأهمية بالنسبة للتاريخ الاقتصادى لمصر وافريقية عامة ، لأنها كانت إذ ذاك من أعظم مراكز التجارة والنشاط الاقتصادى فى القارة . ثم يعقب ذلك بكلام هو غاية فى الأهمية العلمية عن الطريق من قوص إلى عيذاب على البحر الأحمر ، فهو يصف مراحله واحدة واحدة ، ويتحدث عن كل منزل وما فيه من عيون الماء ، بل هو يذكر دواب الحمل التى تستعمل والشقاديف (أى المحامل أو الهوادج) التى يحملها جملان ويستعملها الأغنياء والمياسير . وجدير بالملاحظة قوله عن عمران هذا الطريق : « ورُمْنا فى هذه الطريق إحصاء القوافل الواردة والصادرة ، فما تمكن لنا ، ولا سيما القوافل العيذابية المتحملة لسلع « الهند » ، الواصلة إلى « اليمن » ، ثم من « اليمن » إلى « عيذاب » . وأكثر ما شاهدنا من ذلك أحمال الفُلْفُل ، فلقد خيل إلينا لكثرته أنه يوازى الترابَ قيمة . ومن عجيب ما شهدناه بهذه الصحراء ، أنك تلتقى بقارعة الطريق أحمال الفلفل والقرفة وسائرها من السلع مطروحة لا حارس لها ، تترك بهذه السبيل ، إما لإعياء الإبل الحاملة لها ، أو غير ذلك من الأعذار ، وتبقى بموضعها إلى أن ينقلها صاحبها مصونةً من الآفات ، على كثرة المار عليها من أطوار الناس » . وهذا كله صحيح ، فقد كانت هذه التجارة من احتكارات الدولة ، ولهذا كانت

عنايتها بها وبالطريق الذى تمر عليه عظيمة ، وإلى هذا يرجع الأمان الذى يتحدث عنه ابن جبير هنا . ومما هو جدير بالملاحظة — إذ هو يدل على مدى فهم الحكومات لمهامها فى تلك العصور — أن ذلك الأمان كان قاصراً على البضائع والقوافل حتى تصل إلى عيذاب ، أما الناس والحجاج منهم بصورة خاصة ، فإذا وصلوا إلى عيذاب تركوا تحت رحمة من يريد الاستبداد بهم من أهل ذلك الميناء أو أصحاب السفن أو البَجَّة أو البجاة ، وابن جبير يصفهم أسوأ وصف يتصوره العقل ويشكو من سوء أفاعيلهم بالناس ، حتى لقد عاهد الله وهو فى هذا الموضع الذى ثقل على نفسه بأن تكون عودته من الحجاز عن طريق بغداد وعكا وكانت إذ ذاك فى أيدى الصليبيين ، وحالٌ تجعل رجلا بالغ التقى مثل أبى الحسين ابن جبير يفضل الرحلة عن طريق يسود بعضه المسيحيون على الرحلة فى طريق بعيدة عنهم لابد قد بلغت من السوء أسوأ درجة .

ولا يتخلى ابن جبير عن تلك الدقة فى وصف المدن إلا عند كلامه على مكة والمدينة ، فإنه يدع الواقع إلى العاطفة ويفيض فى الاطراء والاعجاب ، وهو يجرى فى هذا على سنن المسلمين جميعاً ، فهم لا يرون مكة والمدينة بعينهم وإنما بعين الخيال والعاطفة والايمان ، فإذا اقتربوا من مكة لم يروا طريقاً ولا جبالا أو وديانا ، وإنما هى أنوار تهل عليهم وجنان تحيط بهم وعطور تمـــلأ الجو حولهم ، وما تحس به القلوب فى تلك الأحوال يطغى على كل ما ترى العيون ، ولا غرابة فى ذلك ، فان الرجل الذى يحمله الإيمان على ركوب المخاطر والتعرض للمهالك من ساحل الأطلسى أو من حدود الصين إلى الحجاز ينتقل بشعوره — إذا هو اقترب من مهد الإسلام وبلد البيت العتيق أو إذا هو أهل على مدينة سيد المرسلين وعترة بنى آدم — من عالم الواقع إلى عالم الاشراق الروحى ، وتستغرق إحساسه نشوة غامرة نحمد الله على ان كنا ممن عرفها واستشعر جمالها .

ومن أمثلة الدقة والتحديد الجغرافى وصفُ ابن جبير للطريق من مكة إلى المدينة ومنها إلى الكوفة . والجزء الأول من هذا الطريق (إلى المدينة) موصوف بضبط لا نجده عند رحالة آخر ، فهو يتحدث عن كل منزل من المنازل ويصفه وصفاً موجزاً مع ذكر ما فيه من موارد الماء ، وقد خُيِّل إلىَّ وأنا أتتبع سير قافلته من مكة إلى بطن مر إلى عُسفان إلى خُلَيص إلى بدر إلى الصَّفراء إلى الرَّوحاء إلى البيداء إلى مسجد ذى الحليفة إلى وادى العقيق إلى المدينة المنورة انه ربما رجع إلى البكرى فيما أتى به من أوصاف هذه المواضع فى « معجم ما استعجم » ، ثم تبينت أن الرجل يكتب من عند نفسه دون اعتماد على أحد ، لأن هناك أخطاء فى الابعاد وترتيب الأماكن وقع فيها البكرى — إذ أنه كان يصف هذه النواحى وهو فى حجرته معتمداً على كتبه — أما ابن جبير فقد قطع هذا الطريق بنفسه ، قَطَعَه واعياً متيقظاً لكل شىء ، ومن هنا فمن العسير أن يدخل عليه الوهم فى ذلك ، ولا بد إذن لمن يريد أن يؤلف فى جغرافية شبه الجزيرة العربية أو جغرافيتها التاريخية من أن يرجع إلى ابن جبير .

وفى أثناء كلامه عن هذا الطريق تجىء فقرة مشهورة يصف فيها ابن جبير فى بيان لا زيادة لمستزيد عليه محلة الحاج العراقى أو ركب الحج العراقى وهو يسميها « المحلة العراقية ومَن انضاف إليها من الخراسانية والمواصلة وسائر جهات الآفاق من الواصلين صحبة أمير الحاج المذكور »[1] وهى فقرة تروع النفس فى تصويرها ودقة وصفها لقافلة من قوافل الحج والتجارة الكبرى ، وهى الشرابين التى ظلت تبعث الحياة فى كيان الأمة الإسلامية الكبرى قروناً بعد قرون . ويكمل هذه العبارة كلامُه بعد أن وصل إلى الحِلة وأخذ على الطريق إلى بغداد وتفرقت القافلة الضخمة بعد وصولها إلى غايتها ودخلت بالناس إلى عمار العراق ، قال ابن جبير فى أسلوبه الواضح الجميل : « ومن مدينة الحِلة يتسلسل

---

(١) رحلة ابن جبير ، ص ١٦٩

الحاج أرسالا ، وأفواجاً أفواجا : فمنهم المتقدم ، والمتوسط ، والمتـأخر ، لا يعرج المستعجل على المتعذر ، ولا المتقدم على المتأخر ، فحيثما شاءوا من طريقهم نزلوا وأراحوا واستراحوا ، وسكنت نفوسهم من روعة نقر الكوس ، الذى كانت الأفئدة ترجف له بدارا للرحيل ، واستعجالا للقيام ، فربما كان النائم منهم يهذى بنقر الكوس ، فيقوم عجلا وجِلاً ، ثم يتحقق أنها من أضغاث أحلامه ، فيعود إلى منامه » .

وتلى ذلك فقرة ربما كانت من أحسن النماذج لكلام ابن جبير وما يضمه من الفوائد الجغرافية وغير الجغرافية ، فهى تحدثنا أولا عن عمران العراق فى ذلك الحين وما كان فيه من مجارى الماء الكثيرة وما عليها من القناطر ، بل هو يصف واحدة منها وصفاً موجزاً لا يحتاج إلى مزيد بيان ، ويتحدث عن الأمن الذى كان سائداً إذ ذاك والعناية بحراسة الطرق ، ثم يتكلم عن أمير الركب وعنايته بمن معه من الحجاج ، وهو أمر يهم الذين يدرسون تاريخنـا الاقتصادى وما يدخل فيه من نظم المواصلات ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى وصف قرية « القنطرة » وصفاً جغرافياً دقيقاً . قال : « ومن جملة الدواعى لافتراقهم ، كثرة القناطير المعترضة فى طريقهم إلى بغداد ، فلا تكاد تمشى ميلا إلا وتجد قنطرة على نهر متفرع من الفرات ، فتلك الطريق أكثر الطرق سواقى وقناطير ، وعلى أكثرها خيام ، فيها رجال محترسون للطريق ، اعتناء من الخليفة بسبيل الحج ، دون اعتراض منهم لاستنفاع بكدية أو سواها . فلو زاحم ذلك البشرُ تلك القناطر دفعة ، لما فرغوا من عبورها ، ولتراكموا وقوعا بعض على بعض . والأمير طشتكين المتقدم الذكر يقيم بالحلة ثلاثة أيام ، إلى أن يتقدم جميع الحاج ، ثم يتوجه إلى حضرة خليفته . وهذه الحلة المذكورة طاعة بيده للخليفة . وسيرة هذا الأمير فى الرفق بالحاج والاحتياطِ عليهم والاحتراسِ لمقدمتهم وساقتهم ، وضمِّ نشر ميمنتهم وميسرتهم ، سيرة محمودة ، وطريقته فى الحزم وحسن النظر

طريقة سديدة ، وهو من التواضع ولين الجانب وقرب المكان على وتيرة سعيدة ، نفعه الله ، ونفع المسلمين به » .

« وفى عصر يوم الاثنين المذكور ، نزلنا بقرية تعرف « بالقنطرة » كثيرة الخصب ، كبيرة الساحة ، متدفقة جداول الماء ، وارفة الظلال بشجرات الفواكه ، من أحسن القرى وأجملها ، وبها قنطرة على فرع من فروع الفرات ، كبيرة محدَوْدِبة ، يصعد إليها وينحدر عنها ، فتُعرف القرية بها ، وتعرف أيضاً « بحصن بَشِير » . وألفينا حصاد الشعير بهذه الجهات ، فى هذا الوقت الذى هو نصف مايُه » .

يقظته ودقـــة ملاحظته

ويطول بنا المقـام لو مضينا نتتبع الأوصاف الجغرافية فى هذه « الرحلة » المبدعة ، فالواقع أنها كنز حافل بالمعلومات من كل صنف ، ويكفى أن نقرأ كلامه عن رحلته من بغداد إلى دمشق ، فهذا دون شك أحسن ما كتب رحالة عربى وأصدقه وأدقه عن سَفْرة قام بها ، بالاضافة إلى ما أوتيه ابن جبير من دقة الملاحظة والرغبة فى رؤية كل شىء بنفسه ، ومثال ذلك وصفه الدقيق لحلة الأمير العراقى أى مضرب خيام أمير ركب الحاج العراقى ، وهو وصف طويل دقيق يدل على أن ابن جبير اجتهد حتى دخله وتمشى فى أرجائه ورأى كل ما فيه بنفسه ، ولابد أن ابن جبير قد بذل جهداً كبيراً حتى وصل إلى ذلك ، فان هذه الحلة كانت أشبه بالمدينة الصغيرة المسورة المحروسة بحيث لا يفضى إلى داخلها غريب ، ولا يتسع المقام هنا لإيراد ذلك الوصف فهو وارد بطوله فى « الرحلة » المطبوعة وهى بأيدى الناس (ص ١٥٨ — ١٦٠ من تحقيق الدكتور حسين نصار) . ومن أمثلة هذه الدقة أيضاً وصفه للخليفة العباسى أبى العباس أحمد الناصر لدين الله ، أطول خلفاء بنى العباس حكما على الإطلاق (حكم من

٥٧٥ إلى ٦٢٢/ ١١٨٠ — ١٢٢٥) وأطرف خلفاء العصر العباسى الأخير شخصية وأقربهم إلى مفهوم الخلفاء العظام ، وقد حرص ابن جبير على ألا تفوته رؤيته وأعطانا عنه صورة ناطقة كأنها لوحة ملونة ، قال : « أبصرنا هذا الخليفة المذكور — وهو أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بن المستضىء بنور الله أبى محمد الحسن بن المستنجد بالله أبى المظفر يوسف ، ويتصل نسبه إلى أبى الفضل جعفر المقتدر بالله ، إلى السلف فوقه من أجداده الخلفاء ، رضوان الله عليهم — بالجانب الغربى ، أمام منظرته به ، وقد انحدر عنها ، صاعدا فى الزورق إلى قصره بأعلى الجانب الشرقى على الشط ، وهو فى فتاء من سِنِّه ، أشقر اللحية صغيرها ، كما اجتمع بها وجهه ، حسن الشكل ، جميل المنظر ، أبيض اللون ، معتدل القامة ، رائق الرواء ، سنه نحو الخمس وعشرين سنة ، لابساً ثوبا أبيض شبه القباء برسوم ذهب فيه ، وعلى رأسه قلنسوة مذهبة ، مطوقة بوبر أسود من الأوبار الغالية القيمة المتخذة للباس مما هو كالفنك وأشرف ، معتمداً بذلك زىِّ الأتراك ، تعمية لشأنه ، لكن الشمس لا تخفى وإن سُترت . وذلك عشية يوم السبت السادس لصفر سنة ثمانين . وأبصرناه أيضاً عشى يوم الأحد بعده ، متطلعاً من منظرته المذكورة بالشط الغربى ، وكنا نسكن بمقربة منها » .

وربما انساق ابن جبير مع تيار هذا التطلع الغالب عليه فأتى بأشياء تقرب فى تفاصيلها مما تقرأ فى صفحات الأدب الشعبى وهى مع ذلك من صميم الواقع ، رآها هذا النَّظار اللماح الذى لا تفوت بصره الحاد شاردة ، ووصفها بأسلوبه السهل الواضح ، ومن ذلك وصفه لموكب الخاتونين (مُثَنَّى خاتون ومعناه الأميرة أو السيدة الكريمة ، وهو أصل اللقب النسائى المعروف عندنا : هانم) سلجوقة بنت السلطان مسعود وأم الأتابك عز الدين صاحب الموصل ، وهو وصف نحس ونحن نقرأه أن الشيخ طرب وهو يرى المشهد ، وطرب أكثر وهو يستعيده ويثبته على الورق ، قال : « وهاتان الخاتونان هما أميرتا هذا العسكر الذى توجهنا فيه وقائدتاه ، والله لا يجعلنا تحت قول القائل :

ضاع الرَّعِيــلُ ومن يَقُودُهُ

ولها أجناد برسمها ، وزادها الخليفــة جندا يشيعونها ، مخافة العرب الخفاجيين المضرين بمدينة بغداد ، وفى تلك العشية التى رحلنا فيها فجأتنـا خاتون المسعودية المترفة شبابا وملكا ، وهى قد استقلت فى هودج موضوع على خشبتين معترضتين بين مطيتين ، الواحدة أمام الأخرى ، وعليهما الجلال المذهبة ، وهما تسيران بها سير النسيم سرعةً ولينا ، وقد فتح لها أمام الهودج وخلفه بابان ، وهى ظاهرة فى وسطه متنقبة ، وعصابة ذهب على رأسها ، وأمامها رعيل من فتيانها وجندها ، وعن يمينها جنائب المطايا والهماليج العتاق ، ووراءها ركب من جواريها قد ركبن المطايا والهماليج على السروج المذهبــة ، وعصبن رءوسهن بالعصائب الذهبيات ، والنسيم يتلاعب بعذباتهن ، وهن يسرن خلف سيدتهن سير السحاب . ولها الرايات والطبول والبوقات تضرب عند ركوبهـا ، وعند نزولهـا . وأبصرنا من نخوة الملك النسائى واحتفاله رتبة تهز الأرض هزاً ، وتسحب أذيال الدنيا عزاً ، ويحق أن يخدمها العز ، ويكون لها هذا الهز ؛ فإن مسافة مملكة أبيها نحو الأربعــة أشهر ، وصاحب القسطنطينية يؤدى إليه الجزية ، وهو من العدل فى رعيته على سيرة عجيبة ، ومن موالاة الجهاد على سنة مرضية » . وفى مناسبة أخرى — أيام كان فى مدينة صور — شاهد زفافا نصرانياً واسترعت انتباهه العروس ، فمضى يصفها فى تؤدة وتدقيق حتى لقد راقته مشيتها فقال انها كانت « تمشى فتراً على فتر مشىَ الحمامة أو سيرَ الغمامة » ثم انتبه إلى نفسه واستدرك وقال : « نعوذ بالله من فتنة المناظر ! » ، ثم انساق فى الوصف مرة أخرى ، وختم كلامه عن ذلك المشهد قائلا : « فأدانا الاتفاق إلى رؤية هذا المنظر الزخرفى المستعاذ بالله من الفتنة فيه [١] » .

أما ملاحظاته التى تدخل فى نطاق التاريخ فربما كانت خير ما أتى به

(١) رحلة ابن جبير ، ص ٢٩٥ — ٢٩٦

شاهد عيان ممن كتبوا عن الحروب الصليبية على إطلاق ، ومن سعيد الاتفاقات أن رحلته الأولى — وهى التى وصفها — وقعت فى فترة حاسمة مُشرِقة من تاريخنا ، فقد كان السلطان إذ ذاك صلاحَ الدين الأيوبى ، وكان يستجمع قواه ويتأهب لاستعادة بيت المقدس وكسر ظهر القوة الصليبية فى الشام ، وقد أعطانا ابن جبير صورة صحيحة محايدة لذلك البطل الإسلامى الأكبر تعتبر من وثائق التاريخ . وجدير بالتقدير أن ابن جبير لم يغادر شخصية ذات أهمية مَرَّ بها فى طريقه إلا وفاها حقها من الوصف والكلام ، ولم تفته فى مجتمعات الناس من حوله ظاهرة ذات قيمة إلا أثبتها سواء أكان ذلك فى مصر أو الحجاز أو العراق أو الشام أو صقلية ؛ وبالنسبة لصقلية بالذات تعتبر فقرات ابن جبير عنها من أثمن ما يعتز به المؤرخ ، وقد نبه على ذلك اسكياباريلى وأمارى وجابرييلى فى أكثر من موضع ، ومن حسن الحظ أن ابن جبير كان رجلا واعياً عائشاً فى دنيا الناس لا طالبَ علم ذاهلا ينزل بالبلد فلا يرى فيه إلا الشيخ فلان والشيخ علان وينفق الصفحات فيما قرأ على هذا وما سمع عند ذاك ، وأنت إذ تقرأ رحلة رجل مثل ابن رُشَيد الفهرى يخيل إليك أن هذا الرجل كان يسير فى فراغ لا يرى فيه إلا مجالس الشيوخ ، وحاله كحال رجل سائر فى الليل ونظره مثبت فى السماء يعد النجوم . وقد نتج عن تيقظ ابن جبير لما حوله أن ملاحظاته وأنظاره تسلكه فى عداد أصحاب النظر التاريخى الثاقب ، وهو صاحب الملاحظة المشهورة عن اتصال علاقات التجارة والتبادل بين المسلمين والنصارى أثناء الحروب الصليبية ، وهى ملاحظة طويلة ختمها بقوله : « وأهل الحرب مشتغلون بحربهم ، والناس فى عافية ، والدنيا لمن غلب » وهى عبارة لم يبق مؤرخ شرقى أو غربى للحروب الصليبية إلا نقلها عن ذلك الرحالة البلنسى الأصيل[1] .

---

(١) رحلة ابن جبير ، ص ٢٧٧

وصل ابن جبير إذن بأدب الرحلات إلى قريب من ذروته فى تاريخنا الفكرى وأضاف إلى سجل الجغرافية والرحلات صفحات من أجمل ما فيه وأغزرها مادة وأقربها إلى روح العلم وأصدقها ، ومن أسف أنه لم يصف رحلتيه الثانية والثالثة ، ولكن هذا لا يقلل من قدره أو أهمية الخدمة التى أداها للعلم . ولقد قال كرتشكوفسكى إن رحلة ابن جبير تعتبر « من الناحية الفنية ذروة ما بلغه نمط الرحلة فى الأدب العربى[١] » وهو حكم له وجاهته من خبير بالجغرافية العربية مثل هذا العلامة الروسى الليتوانى الجدير منا بكل شكر وتقدير .

محمد بن أيوب بن غالب الغرناطى وكتابه « فرحة الأنفس »

وقبل أن نترك ابن جبير نقف لحظة عند رجل ينسب إلى غرناطة — ويغلب على الظن أنه من أهلها — خلّف لنا كتابا عظيم القيمة عن جغرافية الأندلس وإن كان جهده كله انصب إلى التلخيص والنقل دون انصراف إلى طلب شىء جديد يضيفه إلى ثروة المعلومات عن بلاده أو إلى تاريخ العلم الجغرافى فيه .

ذلك الرجل هو محمد بن أيوب بن غالب الغرناطى الذى يرجع الفضل فى تعريفنا به إلى المقّرى ، فقد كانت نقوله عنه منبهة للأذهان إلى قدره وفضل كتابه المسمى فرحة الأنفس . وإلى حين قريب لم تكن معلوماتنا عن كليهما لتزيد على إشارات المقرى إليه واشارة غير دقيقة فى « ذيل كشف الظنون » لاسماعيل باشا ومادة مضطربة فى كتاب بونس بويجس الجامع عن مؤرخى الأندلس وجغرافييه ، ولكن الحظ الحسن أراد أن يظفر الدكتور لطفى عبد البديع بقطعة من كتاب « فرحة الأنفس » انتقاها رجل من أهل القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى وسماها « تعليق منتقى من نزهة الأنفس لمحمد

(١) الأدب الجغرافى العربى ، ١ / ٣٠١

ابن أيوب بن غالب » فعكف على دراستها وتحقيقها ، ونشر النص مقدّما له بدراسة وافية ومعلقاً حواشيه بقدر عظيم القيمة من المعلومات أضافت إلى قيمة النص ، وهذه الدراسة هي مرجعنا الآن فيما سنذكر عن ذلك الجغرافي المغمور وكتابه النفيس الذى انتفع به كل مَن أتوا بعده وأولهم علىّ بن سعيد .

ولم يتيسر للطفى عبد البديع — رغم ما بذل من جهد — الحصولَ على معلومات عن حياة ابن غالب ، ويبدو أنه كان من جنود العلم المجهولين الذين ينعم النــاس بثمرات جهودهم دون أن يحفزهم ذلك إلى الاشادة بذكرهم ولو بسطور قليلة من هذه التى تكتفي بالمولد والوفاة والبلد والشيوخ وبعض اسامي الكتب ؛ بل أثبت لطفى عبد البديع أن نسبة « البلنسى » المضافة إلى اسم الرجل غير صحيحة ، وأنه كان فى الواقع غرناطياً ، ويبدو أن نسبة « البلنسى » راقت الناس وجرت على ألسنتهم فأضافوها إلى من لم يتحققوا من نسبه أو شكوا فى أنه أندلسى ، وسنلاحظ هذا فى نسبة أبى عبد الله محمد العبدرى إلى بلنسية ، والغالب أن هذه أيضاً غير صحيحة . وخلاصة ما انتهى لطفى عبد البديع إليه فى شأن العصر الذى عاش فيه هو أنه عاش فى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى ، وربما كان معاصراً لأبى سعيد عثمان بن عبد المؤمن والى غرناطة الذى خدمه ابن جبير وكانت له معه الحكاية التى دفعت هذا الأخير إلى الحج . وقد رجح لطفى عبد البديع ذلك بقرينة تكرار ذكر ابن غالب له وتمجيدة إيــاه ، فإذا صح هذا كان محمد بن أيوب بن غالب من معاصرى ابن جبير[1] .

---

(١) نشر لطفى عبد البديع بحثه الذى نشير إليه هنا فى مجلة معهد المخطوطات العربية ، ج ١ جزء ٢ (نوفمبر ١٩٥٥) ، ص ٢٧٢ — ٣١٠ والمواضع الأخرى التى أشرنا إليها هى ذيل كشف الظنون ، ٢ / ١٨٦ وبونس بويجس ، رقم ٩٨ ص ١٢٣ — ١٢٤ والسخاوى الاعلان بالتوبيخ ، لشر لصه مع تعليقات الدكتور أحمد الصالح العلى ضمن ترجمته لكتاب فرانتس روزنتال عن تاريخ التأريخ عند المسلمين ، ص ٦١٨ وتعليق ٤٨ . وقد ذكر روزنتال أن عنوان كتاب ابن غالب هو فرحة الأنفس فى أخبار أهل الأندلس ، وذلك اعتماداً على نفح الطيب .

وقد ورد عنوان الكتاب فى صور شتى لا يثبت منها غير شطره الأول : فرحة الأنفس ، ثم يختلف الشطر الثانى فهو تارة « للآثار الأولية التى فى الأندلس » (المقرى ، نفح الطيب ١ / ٧٧ طبعة أوروبا) وتارة فى فضلاء العصر من أهل الأندلس (حاجى خليفة ، ٢ / ٤١٧) وتارة ثالثة : فى أخبار الأندلس » (ياقوت ، ١ / ٢٧١) ، حتى ترامى إلى ظن بعض المؤلفين (مثل بونس بويجس) أن لابن غالب أكثر من كتاب ، وقد رد لطفى عبد البديع الأمر إلى نصابه فى مقاله الآنف الذكر فقال إن « ابن غالب لم يكتب فى الحقيقة إلا كتاباً واحداً قسّمه جزءين : أولهما فى جغرافية الأندلس وخططها عنوانه : فرحة الأنفس للآثار الأولية التى فى الأندلس ، والجزء الثانى فى أخبار الأندلسيين واسمه فرحة الأنفس فى فضلاء العصر من أهل الأندلس ، وكل جزء منهما يطلق عليه كتاب من قبيل تسمية القسم من أقسام المؤلَّف الواحد فصلا أو باباً ، أما الكتاب كله فعنوانه : « فرحة الأنفس » كما ذكر ياقوت ، أو « تاريخ الأندلس » كما ورد فى المخطوطة » . ونضيف إلى هذا أنه ليس من الضرورى أن يكون الكتاب مقسما إلى قسمين ، فإن الأغلب أنه كان كتاباً واحداً يضم فصولا : واحد فى صفة الأندلس أو جغرافيته ، وهو هذا الذى نقله صاحب التعليق المنتقى وعثر عليه لطفى عبد البديع وحققه ونشره ، وواحد عن الآثار الأولية التى فى الأندلس ، وثالث يضم المعلومات العامة التى يحرص الكثير من المؤلفين الأندلسيين على إيرادها ، إما فى باب مستقل أو متفرقة فى اطواء كتبهم ، ورابع للتراجم سماه « فى فضلاء العصر من أهل الأندلس » وهكذا ، ودليلنا على ذلك أن المقرى يقول ، (١ / ١٨٨) وقد أفرد ابن غالب فى « فرحة الأنفس » للآثار الأولية التى بالأندلس من كتابه مكانا » أى أنه خصص لهذه الآثار فصلا من الكتاب .

وقد وصلت إلينا نقول من ذلك كله ، وراجعنا كل ما نقله ابن سعيد فى المغرب من تراجم « فرحة الأنفس » فتبينا أنها لا تقتصر على أهل عصر ابن

غالب ، بل تتناول أعلاما من عصور شتى ، ففيها شيء عن عبد الرحمن الناصر وآخر عن جعفر مولى الحكم المستنصر وخبر عن أبي بكر محمد الاعمى المخزومى الشاعر وآخر عن الظافر اسماعيل بن ذى النون أو أبى العلا عبد الحق خلف ابن مفرج الكاتب النـاثر ، ومن هنا فإنه يغلب على ظنى أن عنوان ذلك الفصل : « فى فضلاء المصر من أهل الأندلس » .

التعليق المنتق من فرحة الأنفس

وتعنينـا من تلك النقول الكثيرة عن ابن غالب القطعة العظيمة القيمة المسماة « تعليق منتق من فرحة الأنفس » التى حققها ونشرها لطفى عبد البديع وقرر أنها قطعة من جغرافية الأندلس لأحمد بن محمد الرازى ، وهذا صحيح فإن نص هذه القطعة يطابق إلى حد كبير الترجمتين البرتغالية والإسبانية القديمتين لهذا الوصف ، وقد سبق أن ذكرناها ، ويطابق الترجمة الفرنسية الحديثة التى عملها ليفى بروفنسال للنص البرتغالى القديم ونشرها فى مجلة الأندلس ، وقد أشرنا إليها فيما تقدم أيضاً عند كلامنا على وصف الرازى للأندلس .

وقد بينا في دراستنا لجغرافية الرازى مدى التطابق بين مادة جغرافية الرازى كما تبدو في الترجمتين الاسبانية والبرتغالية بين وفقرات «التعليق المنتقى من فرحة الانفس» وتبينا أنها مطابقة حرفية إلى حد كبير وضربنا لذلك بضعة أمثلة مما يسمح لنا بالقول هنا أن ما فعله ابن غالب هو أنه أخذ المقدمة الجغرافية للرازى واختار منها القطع التى تناسب كتابه ، فاختصر المدخل واستغنى عن بعض الكور وحذف فقرات من الكلام على بعض الكور الأخرى ، وأضاف هنا وهناك اشارات يسيرة غير ذات أهمية ، فعمله فى هذا الوصف قليل ، ولو أننا عثرنا على نص كامل لمقدمة الرازى الجغرافية لمـا أصبحت له قيمة على

الاطلاق ، إنما نحن نقدّره الآن لأنه يحتفظ لنا بجزء كبير من كلام أبى الجغرافية والتاريخ فى الأندلس .

ولم أستطع تعرف الاساس الذي بنى عليه ابن غالب اختياره أو انتقاءه فإن عنوان الفقرات المنتقاة الخاصة بالكور يقول : «ذكر مدائن الاندلس الكائنة بأيدي المسلمين بعد الاربعمائة سنة من الهجرة، وذِكر ما فيها من ذلك كورة قبرة » فإذا كان هو من أهل القرن السادس ، فلماذا اختـــار المدائن (يريد الكور) الكائنة بعد الأربعمائة ، أى بعد انتثار عقد الخلافة وقيام دول الطوائف ؟ فإن كان يريد كور الأندلس عند قيام الفتنة فلم يكن هناك محل للاختيار أو الانتقاء من كلام الرازى ، لأن هذه الكور ظلت كما كانت عليه أيام الخلافة حتي سقوط طليطلة فى ١٥ محرم ٤٧٨ / ١١ مايو ١٠٨٥ ، وإذا كان يريد الكور التى كانت باقية إلى أيامه فلماذا أثبت طليطلة وسرقسطة ولاردة ووشقة ووادى الحجارة وبربطانية وكلها كانت قد استغلبها النصارى قبل أيامه ؟ ثم لماذا ينقل كلام الرازى كما هو دون تغيير سوى الحذف بداعى الاختصار ؟ .

الحق أن رجالا كابن غالب يضعون قارئهم فى حيرة كبرى وهو يقرأ ما كتبوا ويتأمل طرائقهم فى التأليف ، لأن رجلا يتحدث فى فصل التراجم من كتابه عن رجال عاشوا فى القرن السادس مثل أبى العلا عبد الحق بن خلف ابن مفرج بن الجنّان[1] المتوفى سنة ٥٣٩ / ١١٤٤ — ٤٥ ثم لا يشير فى كلامه عن طليطلة إلى أنها خرجت عن أيدى المسلمين سنة ٤٧٨ أو فى حديثه عن سرقسطة أنها انتقلت إلى حوزة النصارى فى رمضان سنة ٥١٢ / ديسمبر ١١١٨ لرجُلٌ غريب حقاً ، ولا نقول هذا منتقصين من قدر الرجل ، فالحق أنه أسدى لنا خدمة كبرى بالاحتفاظ بهذه القطع من جغرافية الرازى ، ولكننا نضع الأمر بين يدي القارئ على أنه مشكلة فى ذاته أو ظاهرة تستحق التأمل .

---

(١) انظر المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد ، بتحقيق شوقى ضيف ، ٢ / ٣٨٢

كلام ابن غالب عن قبائل العرب التى نزلت الأندلس ومنازلها فيه

ولكن ابن غالب أودع كتابه أشياء أخرى ذات قيمة جغرافية تعوض بعض ما لاحظناه عليه من نقل مطلق دون تفكير ، وإذا كانت قيمة مقتطفاته من وصف الأندلس للرازى قد تضاءلت بسبب عثورنا على نسخة طيبة من ترجمته إلى البرتغالية ، فان ما احتفظ لنـــا به المقرى وغيره من المقتبسات من فصول كتاب « فرحة الأنفس » الأخرى سيظل محتفظاً بقيمته ، لأنها اشارات — قصيرة أو طويلة — أثبت ابن غالب فيها بعض محفوظه أو خلاصة بعض مطالعاته ، ومثـــال ذلك تلك الفقرة التى يتحدث فيها ابن غالب عن منازل العرب فى الأندلس ، وهى فقرة كانت من أحسن ما نعتمد عليه فى دراسة هجرة القبائل العربية إلى الأندلس ومنازلها فيه ، وهو موضوع أساسى بالنسبة للتكوين البشرى (الأتنولوجى) للأندلس ، وهو جانب هام من جغرافيته وتاريخه . ومن الواضح أن ابن غالب لخص فى هذه الفقرة أهم ما ورد فى جمهرة ابن حزم عن قبائل العرب التى استقرت فى الأندلس ، ولكنه لا شك أضاف إليها من عنده قدراً صالحاً ، ومن أسف أننا لا نستطيع إيراد هذه الفقرة هنـــا بسبب طولها ، ثم إن المقرى عدّل فيها وأضاف إليها من عنده ومن كلام مؤلفين آخرين بحيث لا يؤمن إيرادها على أنها كلها من كلام ابن غالب ، والمهم أن لدينا — بفضله — فقرة طويلة تقع فى حوالى ثمان صفحات من نص نفح الطيب (طبعة محيى الدين ١ / ٢٧١ — ٢٧٩) تعطى فكرة واضحة عن استقرار القبائل العربية وتوزيعها فى الأندلس ومن انحدر من كل قبيلة من بيوت كان لهـا دور فى تاريخه[١]

(١) بالإضافة إلى ما ذكرناه فى « فجر الأندلس » عن هجرة العرب إلى شبه الجزيرة الايبيرية انظر البحث المطول الذى أداره خوليان ريبيرا على العرب فى إقليم بلنسية :

Julian Ribera y Tarragó, *Disertaciones y Opúsculos,* II, (Madrid, 1928) p. 77 sqq.

و Elías Teres, *Linajes árabes en al-Andalus,* al-Andalus, vol. XXI, fasc. 2, 1956; vol. XXII, fasc. 1, 1957.

كلام ابن غالب عن الآثار الأولية فى الأندلس

وتلى ذلك فى الأهمية فقرة طريفة قبسها المقرى من الفصل الخاص « بالآثار الأوليـــة » من « فرحة الأنفس » ، وسنورد هذه الفقرة نظراً لأهميتها بالنسبة للجغرافية التاريخية لاسبانيا ، ثم لأنها تدلنـا بالبرهان القاطع على تقدير العرب لمـا وجدوه فى شبه الجزيرة من معالم العمران عند دخولهم ، ومعرفتهم بدقائقها الفنية وحسن انتفاعهم بها .

قال المقرى : « وقد أفرد ابن غالب فى فرحة الأنفس ، للآثار الأولية التى بالأندلس من كتابه مكاناً ، فقال : منها ما كان من جلبهم الماء من البحر الملح إلى الأرحى التى بطركونة على وزن لطيف وتدبير محكم حتى طحنت به ، وذلك من أعجب ما صُنع ؛ ومن ذلك ما صنعه الأوَل أيضاً من جلب المـاء من البحر المحيط إلى جزيرة قادس[1] من العين التى فى إقليم الأصنام ، جلبوه فى جوف البحر فى الصخر المجوّف ذكراً فى أنثى وشقوا به الجبال ، فإذا وصلوا به إلى المواضع المنخفضة بنَوْا له قناطر على حنايا ، فإذا جاوزها واتصل بالأرض المعتدلة رجعوا إلى البنيان المذكور ، فإذا صادف سبخة بُنِيَ له رصيف وأجرى عليه ، هكذا إلى أن انتُهى به إلى البحر ، ثم دُخِل به فى البحر ، وأُخرج فى جزيرة قادس ، والبنيان الذى [يجرى] عليه الماء ، فى البحر ظاهر بيّن » ، قال ابن سعيد : إلى وقتنا هذا .

« ومنها الرصيف[2] المشهور بالأندلس ، قال فى بعض أخبار رومية : إنه

---

(١) هذه العبارة غير واضحة ، والمعنى المراد كما يتضح من النص . جلب الماء من [الأرض الى] البحر المحيط إلى جزيرة قادس ، لأن المراد هنا هو ايصال الماء من البر إلى طرف اللسان الذى تقوم عليه مدينة قادس بواسطة أنابيب مدت من الساحل خلال ماء المحيط . ولم أجد ذكراً فى مرجع آخر لاقليم الأصنام الوارد هنا .

(٢) الرصيف يراد به هنا الطريق الرومانى المرصوف ، وقد سبق أن بينا ذلك .

لـــا ولى يوليش المعروف بجاشر[١] ، وابتدأ بتذريع الأرض وتكسيرها ، كان ابتداؤه بذلك من مدينة رومية إلى المشرق منها وإلى المغرب وإلى الشمال وإلى الجنوب ، ثم بدأ بفرش المبلَّطَة[٢] ، وأقبل بها على وسط دائرة الأرض إلى أن بلغ بها أرض الأندلس وركزها شرقى قرطبة ببابها المتطامن المعروف بباب عبد[٣] الجبار ، ثم ابتدأها من باب القنطرة قبلى قرطبة إلى شقندة إلى إستجة إلى قرمونة إلى البحر ، وأقام على كل ميـــل سارية قد نقش عليها اسمه من مدينة[٤] رومية ، وذكر أنه أراد تسقيفها فى بعض الأماكن راحة للخاطرين من وهج الصيف وهول الشتاء ، ثم توقع أن يكون ذلك فساداً فى الأرض وتغييراً[٥] للطرق عند انتشار اللصوص وأهل الشر فيها فى المواضع المنقطعة النائية عن العمران ، فتركها على ما هى عليه » ، وذكر[٦] فى هذه الآثار صنم قادس الذى ليس له نظير إلا الصنم الذى بطرف جليقية ، وذكر قنطرة طليطلة ، وقنطرة السيف وقنطرة ماردة ، وملعب سربيطر » .

فهذه فقرة بيِّنة الدقة والأهمية ، فقد وصف ابن غالب فيهـا كيف جلب الرومان الماء إلى قادس ، ووصف الطريقة الهندسية التى اتبعوها فى ذلك ، وتكلم عليها كلام من شاهد الأنابيب والسقايات التى مدها الرومان لهذا الغرض ، أو شاهد بعضها على الأقل . أما كلامه عن الطرق الرومانية فيكمل كلام أبى

---

(١) المراد يوليوس قيصر .

(٢) كذا فى طبعة أوروبا من نفح الطيب (١/١٢٤) .

(٣) الكلام هنا يدور على الطرق الرومانية المعروفة والمؤلف ينسب شقها كلها إلى يوليوس قيصر ، وهو يرى هنا أن قيصر شق الطريق العربى منها من روما إلى قرطبة ، وليس هذا بخطأ خالص ، فقد سبق أن بينا أن لذلك الرأى من الحق وجهاً فى كلامنا على ابن بشكوال الجغرافى .

(٤) هنا شىء ناقص ، وتمام العبـــارة فيما نعتقد : . . . قد نقش عليها اسمه [والمسافة] من مدينة رومية .

(٥) كذا فى الأصل المطبوع ، والمعنى غير واضح .

(٦) المتكلم هنا هو المقرى ، يتحدث عن ابن غالب .

القاسم خلف بن بشكوال فى نفس الموضوع ، وربمـا يكون ابن غالب قد اعتمد عليه ونقل منه ، ومن اليسير على القارئ أن يتبين أهمية هذه الفقرة .

بقيت بعد ذلك اشارات قصيرة نقلها المقرى عن « فرحة الأنفس » الأولى (١/١٢٤) منقولة عن البكرى فى نسب أندلس بن يافث الذى تقول الاسطورة أن شبه الجزيرة سُمى باسمه ، والثانية (١/١٨٥) منقولة عن المسعودى فى أن العنبر يوجد فى الأندلس ، والثالثة (٢/٧) منقولة عن العذرى فى إرجاع اسم قرطبة إلى أصل يونانى « وتأويله القلوب المشككة » (عند العذرى ، ص ١٢١) قال : قال : « وذلك أن تفسير [اسم قرطبة] بلسان القوط طَاسْعُوت ، وهى عندهم القلوب المختلفة » ولفظ طاسعوت صحته فيما أعتقد طاشْقُرْت ، رسم عربى للفظ اللاتينى descordis بمعنى الخلاف ، ومنه جاء الإسبانى الحالى desacuerdo . وفقرة (٢/١٤) منقولة فى الغالب عن ابن بشكوال عن سور قرطبة وهى تقول ان شقندة (Secunda وهى الربض الجنوبى لقرطبـة على الضفة اليسرى للوادى الكبير) كانت معدودة جزءً من المدينة ، أى من مدينة قرطبة . وهذه كلها إشارات ذات قيمة بالنسبة للجغرافية التاريخية للأندلس .

كان ابن غالب إذن ناقلا يندر أن يأتى بجديد أو يضيف شيئاً من عنده ، ولكنه كان ناقلا جَيِّداً ، أى يحسن الاختيار مما بين يديه من الأصول ، ثم يعرف كيف يربط بعضه إلى بعض ويجعل منه كلاماً متصلا على طريقة أهل تلك العصور ، ولا شك أن كتابه لو عثرنا عليه كاملا يضيف إلى محصولنا من جغرافية الأندلس عند العرب شيئاً كثيراً نافعاً . وأمثال ابن غالب فى تاريخ العلوم فى العصور الماضية تتلخص مهمتهم فى إيصال المعلومات التى يقرأونها فى الكتب إلى غيرهم وتثبيتها بالتكرار ، واستنقاذ الكثير من علم السابقين عليهم ؛ لأن الكتب فى المـاضى كانت عرضة للضياع لقلة ما ينسخ منها وتلاشِى النُّسَخ مع الزمن بكثرة الاستعمال أو فعل الأرضة وما إلى ذلك من عوامل القضاء على الكتب ، وقد كانت الكتب الجديدة تُحمل القديمة التى ألفت فى موضوعها ، وهى فى

الغالب نقلٌ لمادتها أو اختيارٌ منها أو اختصارٌ لها مع اضافة الجديد . ولولا هذا لما وجدنا أثراً لما ضاع وفقد من الكتب فى الأندلس منذ قيام الفتنة الكبرى أوائل القرن الخامس الهجرى ، وفى المغرب منتصفَ القرن الخامس إثر غارة بنى هلال ، وفى الشرق الإسلامى فى القرن السابع إثر استيلاء المغول على بغداد ودمشق وتوالى مصائبهم على الجناح الشرقى لدولة الإسلام . ومن حسن الحظ أن أولئك الناقلين حرصوا على أن ينقذوا ما استطاعوا ، وبهذا وحده وصلت إلينا كتب كثيرة قيمة أو قطع منها ، وتاريخ الرازى ومقدمته الجغرافية خير مثال لذلك ، فها نحن نجمع أشتاتها كما يجمع حطام السفين الغارق ، والفضل فى ذلك لرجال طيبين ذوى إحساس — واعٍ أو غير واعٍ — بقيمة تراث الماضين وأهمية الحفاظ عليه كعنصر لازم لبقاء العروبة أولا ثم لسير ركب الحضارة كلها إلى الامام ثانياً .

أبو الحسن على بن سعيد ، جغرافياً

ومن ابن غالب ننتقل إلى رحالة من مواطنيه كان له فى تاريخ الفكر الأندلسى مكان أوسع وأشمل ، فقد شارك فى الأدب وتاريخه إلى جانب الجغرافية بنصيب كبير ، ورحل فأبعد فى الرحلة ، وجاب نواحى عالم العرب من طرف لطرف ، وعاش وأطال الاقامة فى الأندلس والمغرب ومصر والشام والعراق ، وعرف عن هذه البلاد كثيراً ، وداخَل أهل العلم والأدب والرياسة فيها ؛ وكان إلى جانب ذلك كاتباً شاعراً بارعَ الحديث مقبلا على التأليف والتصنيف ، فحفلت كتبه بملاحظاته وأنظاره وكلامه عما أعجبه وما لم يعجبه ؛ وبينما كان أبو الحسين بن جبير رجلا مطمئن النفس قنوعــاً مستسلماً للأقدار كان أبو الحسن علىّ بن سعيد رجلا قلقا طامحاً متداخلا مرير النفس دائم الحسرة على ضياع أندلسه العزيز على نفسه ، وقد كان غادره فى أسوأ حال سنة ٦٣٨/

١٢٤٠ — ١٢٤١ إلى غير رجعة ، ومضى يقطع بـلاد المشرق من طرف إلى طرف باكياً مُذَكِّراً ، كما فعل الكثيرون جداً من أصحاب الرأى والعلم والرياسة من مواطنيه الأندلسيين ، وقد عاونوا بتركهم بلادهم تنعى من بناها على ضياع هذه البلاد وأسرعوا بزوالها ، لأن أشد ما أصاب الأندلس فى عصور محنته هو إسراع أصحاب الرأى والفكر والثروة والرياسة والقيادة بالهجرة منه وتركهم جمهور الناس هناك ضياعاً لا حامى لهم ولا قائد ، فلما استغلب العدو البلاد لم يجد فيها من يتحدث بأسم أهلها أو من يقودهم ويحمى مصالحهم ، فضاع أمرهم بدداً ، وقد فصلنا الكلام فى ذلك فى مقدمتنـا لرسالة « أسنى المتاجر » للشيخ الونشريشى التى نشرناها من سنوات .

ولا تمنعنـا هذه الملاحظة العابرة من القول بأن أبا الحسن علىّ بن سعيد يعد من أفذاذ الرجال فى تاريخنا الفكرى ، وشهرته عند القدامى والمحدثين يحدثنا عنها لسان الدين ابن الخطيب والمقرى وابن شاكر الكتبى وابن رُشَيد الفهرى وابن العماد الأصفهانى فى خريدة القصر وأبو المحاسن بن تغرى بردى فى « المنهل الصافى » وغيرهم كثيرون ، وفى أيامنا هذه عرَّف به بونس بويجس وبروكلمان وغرسية غومس وشوقى ضيف وملشور انطونيا وجورج سارتون وب . موريتز وك . فولرز وتالكفيست واغنـــاطيوس كراتشكوفسكى و زكى محمد حسن وابراهيم الابيارى و ج. بوتيرون[1] وغيرهم .

---

(١) عن أبى الحسن على بن سعيد انظر : لفح الطيب للمقرى (طبعة القاهرة سنة ١٩٤٩) جـ ٣ ص ٢٩ وما بعدها (وفيه أوفى تفصيل لدينا عن حياته) ورحلة ابن رشيد الفهرى ، مخطوطة الاسكوريال رقم ١٧٣٧ ورقة ١٠١ ا وابن تعرى بردى ، المنهل الصافى ، مخطوطة المكتبة الأهلية بباريس ، (رقم ٢٠٧١ من فهرس دى سلان ، ورقة ١٦٦ ب) ، وتحفـــة العروس للتيجانى ، مخطوط مكتبة الجزائر الأهلية ، رقم ١٧٨٤ من فهرس فانيان ، وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ، جـ ٢ ص ١١٢ ، والاحالة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب ١/٢٢٠ وما بعدها ؛ ومن المحدثين : بونس بويجس ، رقم ٢٦٠ ، وبروكلمان ١/٣١٣ و ٣٣٦ و ٢/٦٩٩ والملحق ١/٥٤٦ و ٥٧٦ — ٥٧٧ ، ودائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة الأولى ٢/٤٣٩ وجورج سارتون ، مقدمة تاريخ =

فاما مؤلفونا القدامى (مِن هؤلاء) فلم يقدِّروا من ابن سعيد إلا ناحيته الأدبية ، وهى فى رأينا أضعف نواحيه ، وقل من اهتم منهم بابن سعيد المؤرخ وأهم هؤلاء المقرى وابن الخطيب ، وأما ابن سعيد الجغرافى فقد اهتم به الغربيون بصورة خاصة ، وهنا تبينَت القيمة الحقيقية لهذا الرجل النابه المتعدد الجوانب ، وقد كان بعض من نقلوا عن ابن سعيد من قدامى الجغرافيين مثل أبى الفدا قد خطّأوه وحملوا عليه وقسوا فى نقده ، فجاء بعض علماء الغرب من أمثال سارتون وبارتولد وكراتشكوفسكى فأثبتوا أن الرجل كان على علم صحيح حقاً ، وأن أبا الفدا ومن نحا نحوه لم يكونوا موفقين فى نقده .

والحق أننا إذا تأملنا الجوانب الرئيسية الثلاثة من انتاج ابن سعيد وجدنا أن أضعفها هو الأدبى رغم أنه هو الذى شُهر به عند القدامى والكثير من المحدثين . أما جانب القوة الحقيقية فيه فهو الجانب الجغرافى الذى لم يلق فى الماضى أى عناية ، وأما جانبه التاريخى فَبَيْن بين ، والرجل فى ذلك الميدان الأخير ناقل لا مبتكر ، حقاً إن عدداً كبيراً من مؤرخينا كانوا نقلة أو أصحاب مختصرات أو جماعين لفقرات شاردات من هنا وهناك ، ولكن ابن سعيد

= العلم ، ٢ / ١٠٦٥ من الأصل :

K. Vollers, *Fragmente aus dem Mugrib des Ibn Sa'īd*, I, Berlin, 1894.

Ibidem, *Bericht über die Handschrift und das Leben des Aḥmad ibn Ṭūlūn*, Berlin, Felber, 1894.

وهو يتضمن قطاعاً من تاريخ أحمد بن طولون ودولته من الجزء الخاص بمصر من كتاب المغرب و

K. L. Tallquist (Buch IV, *Gesch, der Ikhschīden*, Leiden, 1899.

وهو جزء من « المغرب فى حلى الغرب » يتضمن تاريخ الاخشيديين المسمى « العيون الدعج فى تاريخ بنى طغج » ، المقدمة الالمانية . وقد أعاد نشر هذا الجزء زكى محمد حسن وحسن محمود وسيدة الكاشف فى القاهرة (سنة ١٩٥١) . ونشر جزء خاصاً بصقلية ب. موريتز فى :

B. Moritz, *Ibn Sa'īds Beschreibung von Sicilien, Centenario della naschità di Michele Amari*, I, Palermo, 1910, pp. 292-305.

ونشر Emilio García Gómez كتاب رايات المبرزين وغايات المميزين لابن سعيد مع ترجمة إسبانية ومقدمة صافية وتعليقات وافية فى مدريد سنة ١٩٤٢

وآخر ما قرأناه بحث عظيم القيمة فى مجلة أرابيكا :

G. Potiron, *Eléments de Biographie et de Généalogia des Banū Sa'īd*, Arabica, XII, 1965, fasc. I, 78-91.

فى معظم ما بقى لنـا من كتاباته فى التاريخ ناقل صرف وخاصة فيما كتبه عن غير بلده الأندلس ، فما لدينا عن مصر منه إنما هو نقل مباشر عن الحسن بن زولاق وغيره .

أما سر شهرة ابن سعيد بالأدب فترجع إلى أنه وفد إلى المشرق فى عصر غلب على المثقفين فيه طابع الأدب والرغبة فى تسجيل كل بيت من الشعر يرد ذكره مخافة أن يضيع ، وهو اهتمام غلب على الناس بعد سقوط بغداد فى أيدى التتار وضياع ألوف الكتب أثناء هذه الكارثة المبيرة ، فاتجه هم الناس إلى استرجاع ما فات واستنقاذ ما أمكن انقاذه من حطام السفين الغارق ، ولهذا فاننا نرى فى عالم العرب كله ابتداء من القرن السابع الهجرى اهتماما بالتسجيل والجمع ربمـا أشبه فى كثير من الوجوه اهتمامنا اليوم بنشر هذا التراث ، ومن فضائل النفس العربية ذلك التعلق بالماضى والحرص على المحافظة على التراث الفكرى للأجداد ، ولمّا كان حرص العرب على الحفاظ على هذا التراث يبدو فى أجلى صوره فى المحافظة على اللغة — لغة القرآن الكريم — فقد اهتم الناس أكثر ما اهتموا بالشعر والنثر ، فكثرت مجموعات المختارات من أواخر القرن السادس الهجرى وطلبها الناس بكل سبيل .

وفى هذا العصر بالذات أتى علىّ بن سعيد إلى المشرق حاملا زاداً ضخما من تراث الأندلس الفكرى ، وكان إحساس الناس فى المشرق بضياع الأندلس عميقاً وان لم يستطيعوا عمل شىء لاستنقاذه ، لأنهم كانوا فى مثل بلائه منذ تراءت فى أفقهم السنة لهب الصليبيات وما أعقبها من كوارث غارات التتار ، فلا غرابة ان أقبل الناس على علىّ بن سعيد إقبالا عظيما وطار اسمه كل مطار ، وكان هو نفسه رجلا ذكياً نشيطاً لَسِناً مقبلا على العمل ، فاصبح خلال النصف الثانى من القرن السابع الهجرى عَلَمـاً من أعلام المجتمع والثقافة فى المشرق العربى كله ، وذاع له الصيت العظيم ، ثم جاء المقرى بعد ذلك بأربعة قرون فدعا لابن سعيد دعوة كبرى وأشاد بذكره فى كل موضع نزل فيه ، فزاد ذكر الرجل

طيراناً ووصل إلينا اسمه فى دوى عظيم على أنه من أكبر المؤلفين فى تاريخنا الأدبى .

والحق — كما قلنا — أن هذه الشهرة بالأدب ليس لها فى الواقع ما يبررها ، ففى هذا الميدان بالذات لا يعد ابن سعيد من المجيدين ، وحتى فى جزء كتاب «المغرب» الخاص بالأندلس ، وهو أهم ما بقى لنا من كتب المختارات الأدبية التى خلّفها ، نلاحظ — بعد أن عثرنا على الكثير من الدواوين والأصول — أن ابن سعيد لم يحسن الاختيار فى أحيان كثيرة ، وحتى الجيد من مختاره نجد أن مرجعه فيه مجموعات مختارات أخرى كاليتيمة للثعالبى وكتاب البديع فى فضل الربيع لأبى الوليد الحميرى والمسهب للحجارى وما إليها . ويبدو أنه صنف بعض صغار كتبه مثل «عنوان المرقصات» و «الغصون اليانعة» و «رايات المبرزين» استجابة لطلب من كان يخدمهم بالأدب ، فجاءت — وخاصة الأولان من هذه — مجموعات صغيرة سريعة الصنع ينقصها التجويد حتى لنجده — رغم صغر هذه الكتب — يكرر فى بعضها ما أورده فى بعضها الآخر . وكان للرجل عذره فى ذلك ، إذ أنه كان مضطراً فى حياة الغربة التى كتبت عليه إلى أن يكسب رزقه ، وكانت هذه الكتب الصغيرة بعض وسائله إلى هذا الكسب ، وهذا يحدونا إلى أن نجمل حياة الرجل لكى نقدّر ظروفه التى عاش وعمل فيها ، وسنوجزها فى سطور ، لأن ابن الخطيب والمقرى أفاضا فيها بما يغنينا عن التفصيل ، ثم إن غيرنا ممن كتب عنه أو نشر شيئاً من مؤلفاته أورد ترجمة حياته بما فيه الكفاية ، وخاصة غرسية غومس فى مقدمة « الرايات » وشوقى ضيف فى مقدمة « المغرب » وكراتشكوفسكى فى الفقرة التى أدارها على ابن سعيد من الفصل الثالث عشر من كتابه الفريد عن الأدب الجغرافى العربى (ص ٣٥٦ — ٣٥٩)[١] .

ولد علىّ بن سعيد سنة ٦٠٥/١٢٠٨ — ١٢٠٩ فى قلعة يحصب أو قلعة اسطَلِير التى تسمى أيضاً بقلعة بنى سعيد وهى اليوم الكالا لا ريال (القلعة الملكية)

---

(١) نشير هنا إلى المادة الطيبة الخاصة ببنى سعيد التى يوردها ج. بوتيرون فى مقاله الآنف الذكر .

Alcalá la Real ، بلدة متوسطة ومركز إدارى فى محافظة جيان ، تقع على بعد ٥٦ كيلومتراً من عاصمة المحافظة وتقع على ٥٢ كيلومتراً شمال غربى غرناطة على الطريق منها إلى قرطبة ، وكانت هذه القلعة كما يتبين من آثارها التى زرناها قائمة على تل متوسط الارتفاع (٩٠٠ متر) ، وهى حصينة الموقع ، ولكنها ليست قط كما قال ابن فضل الله العمرى : « حصناً خيَّم على الغيوم وتختم بالنجوم ، نافح الرياح ، وصافح بكفه الثريا راحا براح ، وعلا فما طلع إلا فى ذيل افقه الصباح ... [1] » ، فهذه مبالغات أديب سجَّاع لم ير بعينه هذا الحصن أو أى شئ آخر فى الأندلس ، وكأنه قدَّر أن ميلاد الرجل فى « حصن خيَّم على الغيوم » يستتبع بالضرورة أن يكون رجلا عظيما . ولكن العُمرى كان صادقاً فى قوله بعد ذلك : « وهو صاحبى الذى أوافقه فى هذا الكتاب تارة وتارة أؤاخذه ، ومرة أعاهده ومرة أنابذه » وهى عبارة تدل على اعتماد العمرى على كتابات ابن سعيد فيما أورد عن الأندلس ، ولم يكن العُمَرى الوحيد فى الاعتماد على ابن سعيد ، فالحق أن مجموعات هذا الأخير ومختاراته كانت من أكبر المراجع عن الأدب الأندلسى من بعده ، وفى كلام المقرى عن ابن سعيد فى النفح ما يدل على ذلك بأجلى بيان .

وينتسب آل سعيد إلى الصحابى المعروف عمار بن ياسر ، وأول من نسمع عنه منهم فى الأندلس عبد الله بن سعيد بن عمار بن ياسر وهو الذى دخل الأندلس وغرس جذور بيت بنى سعيد فيه ، ويبدو كذلك أنه أول من احتل قلعة أسطلير وسماها باسم بيته ، ولكن الأهمية السياسية لبنى سعيد ترتبط بذكر عبد الملك بن سعيد بن خلف الذى استقل بالقلعة لأول عصر الطوائف ، وعلى

---

(١) ترجمة ابن سعيد فى « مسالك الابصار » ، نسخة مصورة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٥٦٧ تاريخ ، المجلد الثامن ، الورقة ٣٨٢ ، وقد تفضلت دار الكتاب المصرية فعملت صورة لمعهد الدراسات الإسلامية بمدريد من أجزاء مسالك الابصار الخاصة بالأندلس ، والفضل فى هذه الاشارة يرجع إلى الدكتور شوقى ضيف ، انظر مقدمة المغرب ص ٦ — ٧

هذه الصورة وجده الأديب الرحالة الجوال ابراهيم بن وزمر الحجارى عندما وفد عليه سنة ٥٣٠ كما حكيناه فى موضعه . وقد دخل عبد الملك فى طاعة المرابطين ، ولكنه كان أشبه بالمستقل فى حصنه على عادة أصحاب الحصون فى ذلك العصر المضطرب ، فلما انتقل الأمر إلى الموحدين انتقل إليهم بولائه وتوفى فى مراكش سنة ٥٦٢/١١٦٧ ؛ وخلفه فى ولاية الحصن ابنه محمد ثم حفيده موسى والد أبى الحسن على ، وفى عهده انتهت رياسة البيت فى القلعة المنسوبة إليهم ، وانتقل موسى إلى الجزيرة الخضراء والياً لها للمتوكل بن هود ، ثم غادر الأندلس إلى المغرب فالمشرق جملة . وقد تكررت النباهة وعلو الذكر بالأدب فى هذا البيت ، ونورد فيما يلى جدول نسب نذكر فيه أهم من اشتهر من أهل هذا البيت حتى علىّ ابن سعيد وذلك مراعاة للاختصار ولمجرد التعريف :

عبد الملك بن سعيد

كان والياً لقلعة يحصب سنة ٥٣٠/١١٣٥—١١٣٦ وكان واسع الشهرة بالعناية بالأدب وأهله ، وعليه وفد ابراهيم بن وزمر الحجارى

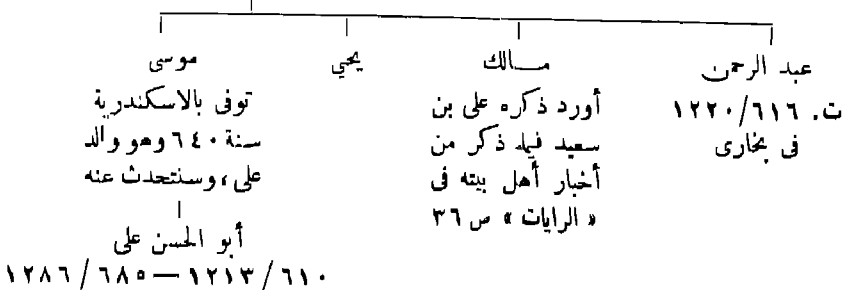
أبو جعفر أحمد (ت ٥٥٠/١١٥٥)

كان كاتباً ووزيراً لعثمان بن عبد المؤمن الموحدى وكان شاعراً ذا إحسان . تعلق بالشاعرة حفصة الركونية ، وكان الوالى عثمان متعلقاً بهـا ، وفى المنافسة عليها لقى الشاعر حتفه

محمد

٥١٩/١١٢٥—٥٨٩/١١٩٣

كان أول الأمر من أتباع يحيى بن غانية عامل المرابطين على شرق الأندلس ، ثم دخل بعد ذلك فى طاعة الموحدين فاستوزروه وولوه الاعمال الجليلة مثل اشبيلية وغرناطة ، وكان سيداً جليلا مدحه شعراء منهم الرصافى الرفاء وعلى يديه بنى جامع اشبيلية



وكانت وفادة ابراهيم بن وزمر الحجارى على عبد الملك بن سعيد حادثاً فاصلا فى تاريخ البيت كله ، فقد كانوا كما رأينا أهل أدب وعناية بالعلوم ، شأنهم فى ذلك شأن الكثيرين من سروات الأندلس وأهل الرياسة فيه ، ولكن أحدا من بنى سعيد لم يفكر قبل ذلك فى أن يؤلف كتاباً ، ثم أتاهم هذا الأديب الشاعر الرحال القلق يحمل زاداً ضخما من العلم بالأندلس وآداب أهله ، فاقترح عبد الملك عليه أن يسجل شيئاً من علمه ومحفوظاته فى كتاب ، فعمله فى هيئة جدول جغرافى أدبى عام ، قسم الأندلس فيه إلى كوره وبلاده ، ووضع فى كل كورة أو بلدة مَن ذَكَرَهُ من أهل الأدب من أبنائه ، فكان بذلك مبتكراً لشئ سميناه الجغرافية الفكرية ، واستودع كتابَه صاحبَه وراعيه عبد الملك بن سعيد ومضى لحال سبيله .

ومضى عبد الملك وأبناؤه ينظرون فى ذلك الكتاب فراقهم نظامه ، وهو فى الواقع نظام مبتكر طريف ، ولكنهم وجدوا أن الحجارى أنسى الكثير وأهمل الكثير ، فمضوا يكملون فواته ، وقد اعتبروا أنفسهم من أول الأمر شركاء الرجل فى كتابه ، فمضوا يعدِّلون فيه ويزيدون عليه ويحورون مادته كيفما راق لهم حتى أصبح « المسهب » على أيديهم شيئاً آخر يختلف فى تفاصيله عما وضعه مؤلفه ، ولكنهم احتفظوا على أى حال بهيكله العام ، وهو هيكل جغرافى ، وانصبت اضافاتهم وتعديلاتهم فى إطار هذا الهيكل ، ونحن إذا سامحناهم فى إضافة ما أضافوا فاننا لا نغفر لهم حذف ما حذفوه من مادة الكتاب ، والبادئ بهذا عبد الملك بن سعيد فالثابت من مقدمه « المُغرب » أنه كان « يختصر ما لم يوافق غرضه ، وفيه تطويل غير مفيد » ، ولا شك أن أولاده جروا على ذلك ، فأصبح المُسهب على ايديهم كتابا آخر هو المُغرب فى حلى المغرب » ، وأصبح تأليفا بالمشاركة بين رجل وأسرة ، وهو شيء طريف فى بابه مهما كانت وجوه نقدنا له .

وكان موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد أعظم أهـل ذلك البيت عناية بالكتاب ، فقد كان فى نفسه علامة فاق المنقطعين للدرس فى اقباله على المطالعة والجمع والتقييد ، وهو يمثل لنـا فى الأندلس هذا النزوع إلى تسجيل تراث الماضى تحت تأثير الخطر الملاحق ، وقد وصف لنا ابنه على بن موسى ابن سعيد ولعه البالغ بالمطالعة والقراءة وحرصه على تدوين كل ما وصل إلى علمه من الآثار الأدبية ، حتى لقد تحمل وهو وال على الجزيرة الخضراء جفوة رجل كانت لديه كراريس فيها تقييدات شعرية لكى ينسخ ما ند عنه من مادتها قبل أن تضيع ، وكان عمره كله قارئاً كاتباً ، ومثل هذا الرجل ، وإن خلا جهده الطائل من الجديد والاصالة ، يمثل لنا هذا النزوع الذى وُهبته أمة العرب إلى المحافظة على تراث الماضين من أبنائها ، وهو نزوع يرجع إليه الكثير من الفضل فى بقاء الأمة العربية نفسها وتجدد قواها وشبابها فى أوقات الأخطار وبعد عصور الركود والاضمحلال .

ولكننا إذا نظرنا فيما لدينـا من قطع المُغرب لم نلحظ فيها ما يدل على تجميع واسع المدى أو حشد عظيم من المـادة ، فان ما تضمه صفحات هذه القطع لا يخرج عما يتيسر بالمشقة اليسيرة من مراجع معروفة لنا الآن ، وغالب النقول من مسهب الحجارى ومقتبس ابن حيان وحدائق ابن فرج وجذوة الحميدي وذخيرة ابن بسام وقلائد الفتح بن خاقان ومطمحه وما أشبه ، وهذه كلها مراجع نفترض بداهة أنها كانت بيد كل متأدب من أهل الأندلس إذ ذاك ، وهى لا تحتاج إلى العمر الطويل لقراءتها واستخلاص ما فيها ، فكيف قضى موسى عمره الطويل فى هذا العمل ؟ وأين هى الغرائب والشوارد التى يحدثنا علىّ بن سعيد أن أباه وفق إلى جمعها ؟ الحق أننا نحس هنا بشئ من المبالغة لا نستبعده من أبى الحسن هذا ، فقد كان بطبعه صاحب دعاية واسعة وطبل وزمر يُسمعان من الأقاصى ، وحسبك أن تنظر فى بعض كتبه مثل « عنوان المرقصات والمطربات » أو « الغصون اليانعة » لترى أنها ليست بكتب

مستقلة بحال ، إنما هى صفحات ومختارات من المُغرب وغيره من كتبه الأخرى ، جمعها وجعل لها عنوانا طنانا رشيقاً بحسب مفهوم العصر ، وأسعد بها هذا أو ذاك من جمّاعة الكتب من سروات الناس ، بل إن تكوين كتاب المُغرب نفسه يلقى فى الروع هذا الاحساس ، فهذا رجل يجعل الأندلس ممالك كثيرة ، وما كان الأندلس على أيامه بممالك أو حتى بمملكة ، وإذا استجزنا أن يقال مملكة قرطبة ومملكة اشبيلية ، فكيف يقال مملكة شلب أو مملكة باجة أو مملكة اشبونة أو مملكة مالقة ؟ وهذه لم تكن قط وحدات سياسية قائمة بذاتها لا أيام الطوائف ولا قبلها أو بعدها ؟ ثم ما هى هذه الكتب التى ملأ بها مؤلّفه ؟ فلكل قرية كبيرة أو صغيرة ، ولكل حصن — هام أو غير هام — كتابٌ فى حسابه ، والكتاب قد يكون صفحتين بل صفحة ، وكل كتاب من هذه يبدأ بتسمية وتصلية وتحميد كأنه مؤلَّف قائم بذاته ، بل لكل كتاب عنوان شامخ مسجوع ظاهر التكلف : « كتاب التعريش فى حلى مدينة شريش » و « كتاب غفلة العجلان فى حلى قلعة خولان » وكتاب « فجأة السرور فى حلى كورة مورور » وما إلى هذا مما أثقل به علىّ بن سعيد المغرب حتى أصبح وكأنه أقرب إلى الهزل ؟ هذا كله ثمرة ولعه بالدعوة الواسعة والكلام الطنان ، وهذه خصلة من خصاله ، ولا نقول هذا لنعيبها عليه ، فهى ليست عيباً وإنما جزء من شخصيته ، وربما كانت بعض أدواته لكسب عيشه ، والذى يهمنا هنا أن نحسب حسابها فيما يذكر علىّ بن سعيد عن أبيه موسى وعظيم اجتهاده فى الدرس والتقييد ، ولا ننكر أنه قضى عمره فى ذلك ، ولكننا لا نجد بين أيدينا إلا القليل من ثمرات هذا الجمع .

ظل موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد فى طاعة الموحدين حتى اضطرب عليهم الأمر فى الأندلس بعد موت رابع خلفائهم محمد الناصر (توفى سنة ٦١٠ / ١٢١٤) فقد وقع الشقاق بينهم وتطاحنوا على المُلك أو ما خيل إليهم أنه ملك ، حتى نهض أبو العلا بن أبى يعقوب المنصور وكان والياً على

اشبيلية وجمع قواته وأزمع العبور إلى المغرب للمطالبة بالعرش ، وثار عليه الثائرون وأكبرهم المتوكل بن هود (٦٢١ — ٦٣٥/١٢٢٨ — ١٢٣٨) وكان رجلا شهما باسلا لولا طيش واندفاع كانا فيه ، فدخل موسى بن سعيد فى طاعته ، فولاه على الجزيرة الخضراء ، فانتقل إليها بأهله وولده ، ويفهم من هذا أنه تخلى عن قلعة يحصب ، لأننا لا نجد لها بعد ذلك ذكراً فى تاريخ ذلك البيت ، وربما يكون الموحدون قد استنزلوا بنى سعيد منها ، ولم تدم ولاية الجزيرة الخضراء لموسى ، أو لم يستمسك هو بها بعد مقتل المتوكل بن هود ، لأن أمر الأندلس فى الواقع صار إلى الفوضى التى سقط خلالها خط الوادى الكبير مع امتداده إلى بلنسية ومرسية ، وهى فوضى استمرت حتى تمكن محمد بن الأحمر من الثبات فى حصون الحمراء وإنشاء الدولة النصرية التى انسأت فى عمر الأندلس حوالى القرنين ونصف .

فى سنة ٦٣٨/١٢٤٠ — ١٢٤١ أزمع موسى بن سعيد الرحلة إلى المشرق فى رفقة ابنه أبى الحسن على ، ويقال إن هذه الرحلة كانت للحج ولكن الواقع انها كانت هجرة نهائية ، فبعد ضياع قلعة بنى سعيد وذهاب أمر الموحدين وتلاشى الامــل الذى تراءى بظهور المتوكل ابن هود لم يبق لبنى سعيد فى الأندلس إلا الذكر الطيب وما ادخروا من صُبابات المال . وكان نفر من أهل هذا البيت قد هاجر بالفعل إلى المشرق ، ومن هؤلاء أبو الحسن بن الحسين بن سعيد الذى استقر فى تونس وتوفى فيها سنة ٦٠٤/١٢٠٧ — ١٢٠٨ وهو ابن أخى عبد الملك بن سعيد وقد ذكره المقرى (نفح الطيب ١/٦٤٠) بمناسبة الكلام على حفيد لابن عمه سعيد بن الحسن يسمى أبو عبد الله محمد بن الحسين الذى سيكون له شأن مع علىّ بن سعيد . وكان هذا الأخير من رجال أبى زيد بن الشيخ أبى محمد بن أبى حفص والمستنصر الحفصيين ، ويبدو أن موسى بن سعيد وابنه كانا يرجوان أن يستظلا برعاية قريبهما هذا ويستقرا فى تونس ، فقد كانت جماعاتٌ من مهاجرة الأندلسيين تفد إذ ذاك على عاصمة الحفصيين شيئاً فشيئاً .

وقد ذكر علىّ بن سعيد ذلك الرجل فى الرايات ووصفه بأنه « الوزير العالم الرئيس . . . صاحب دولة ملك افريقية فى هذا التاريخ وهو سنة أربعين وستمائة »[1] ، ولم يكن الرجل عند حسن الظن به ، إذ وقع بينه وبين علىّ شئ من منافرة ، فاضطر هذا إلى مغادرة تونس إلى المشرق[2] .

من تونس انتقـل موسى بن سعيد وابنه إلى الأسكندرية فوصلاها فى ٢٧ ربيع الأول ٦٣٩/٥ اكتوبر ١٢٤١ ويبدو أن موسى مرض هنـاك ، لأنهما أقاما بها حتى وفاته بها فى ٨ شوال ٦٤٠/٣١ مارس ١٢٤٣ وبعد ذلك مباشرة انتقـل علىّ بن سعيد إلى القاهرة ، ويبدو أن شيئاً من صيته وصيت أهله كان قد سبقه إلى عاصمة الديار المصرية ، لأنه لم يلبث أن ظهر أمره وداخل أهل العلم والفضل والرياسة ، ومن أهم هؤلاء أبو الفتح موسى ابن يغمور بن سليمان بن عبد الله ، وكان من كبار رجال الدولة الأيوبية ، إذ كان نائباً للسلطنة ، وقد ترجم له كمال الدين بن جعفر بن ثعلب الأدفوى فى « الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد (القاهرة ١٩١٤ ص ٣٨١ — ٣٨٢) وذكر الوظائف الكبرى التى تولاها ، فكان واليا للقاهرة أيام الملك الصالح أيوب ، ثم واليـاً لدمشق أيام تورانشاه ثم استادارا (أى رئيس القصر السلطانى) أيام الظاهر بيبرس ثم نائباً للسلطنة إلى أن توفى فى أول شعبان ٦٦٣/١٩ مايو ١٢٦٥

وكانت لابن يغمور فيما يظهر عناية بأهل الفكر ممن وفد على مصر من الأندلسيين ، فقد كان من بين ندمائه أبو الحجاج بن عتبة الإشبيلى الشاعر وأبو عبد الله محمد بن أبى الفضل الشاطبى المرسى وكان شاعراً أيضاً ، وأندلسى ثالث يسمى ابن الجزار . وكان من الطبيعى أن ينتفع ابن سعيد بصداقة هذا الرجل ، فألف له كتاب « رايات المبرزين وغايات المميزين » وهو كما يفهم من فاتحته

---

(١) رايات المبرزين لابن سعيد ، ص ٤٦

(٢) انظر نفح الطيب ، ٣/٤٠ — ٤١

مقتبس من «المغرب» ، وعلى طول حياة ابن سعيد كان «المُغرب» هذا كنزه الذى يعتمد عليه وذخره الذى يستند إليه ، كلما حاجه الأمر إلى كتيب يلطف به رئيساً مَدَّ يده فى المغرب وأخرج شيئاً ، ثم نسقه وزوقه بالسجعات وأهداه ، ولا ندرى إن كان المُغرب إذ ذاك قد تم تأليفه أو أن علياً بن سعيد كان يحمل مادته وينتظر بها الفرصة المواتية للفراغ منها .

ويبدو من مقدمة كتاب «المشرق فى حُلى المَشرق» أن موسى بن سعيد كان قد فرغ من «المغرب» قبل رحلته إلى الشرق ، بل خطر بباله وهو على أبواب هذه الرحلة أن يكمله بكتاب على نسقه يسميه «المشرق» يستكمل به التاريخ السياسى والأدبى للعالم الإسلامى بأسره ويسميه «فلك الأرب ، المحيط بحلى لسان العرب» ، ويبدو أن العمر لم يطل به لاتمام مشروعه ، لأن كل ما لدينا من قطع «المُشرق» إنما هى من تصنيف علىّ بن سعيد . أما المُغرب فيمكن القول بأنه من عمل موسى بن سعيد ومن سبقه ممن اجتهد فى جمع مادة هذا الكتاب من آل سعيد على أساس ما عمله الحجارى . وقد أضاف علىّ إلى المغرب أشياء هنا وهناك ورتب ونسق ، وربما كانت العناوين المسجوعة من وضعه ، فقد كان بها جدّ مولع .

ولم تسنح الفرصة لابن سعيد لإخراج المغرب وإتمام المُشرق إلا بعد أن تعرف على صديق جديد هو كمال الدين بن عمر بن أبى جرادة المعروف بابن العديم صاحب تاريخ حلب ، فقد وفد هذا على القاهرة رسولا من الناصر الأيوبى صاحب حلب إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وهناك عرف ابن سعيد وما عنده من العلم والفضل فدعاه إلى الرحلة إلى حلب والدخول فى خدمة صاحبها ، فذهب إلى هنـــاك وقضى ثلاث سنوات من ٦٤٤ إلى ٦٤٧/ ١٢٤٦ — ١٢٤٩ ربما كانت أهدأ أيام حياته وأوفرها انتاجاً ، فقد أتم إخراج المغرب وربما جزءً من المُشرق . ويبدو أنه لم يطمئن بعد ذلك للمقام فى حلب ، فاتجه إلى دمشق ، وهناك دخل فى خدمة السلطان المعظم توران شاه وأصبح

من ندمائه ، ولم يطل به المقام هناك أكثر من سنة ، فرحل سنة ٦٤٨/١٢٥١ إلى بغداد ومَرَّ فى طريقه بإرمينية وأرَّجَان ، ثم غادر بغداد إلى الحجاز حيث أدى الفريضة ، ثم كر راجعاً إلى تونس سنة ٦٥٢/١٢٥٤ حيث نزل أول الأمر على صديقه أبى العباس أحمد التيفاشى صاحب الموسوعة المعروفة .

وقد طالت إقامته بتونس هذه المرة ، فلم يرحل منها إلا سنة ٦٦٦/١٢٦٧ ونعتقد أنه اهتم بإتمام « المشرق » فى هذه الفترة ، والغالب أيضاً أنه كتب فى أثناء ذلك أحسن ما ألف فى الجغرافية وهو كتاب « بسط الأرض فى طولها والعرض » الذى سنتحدث عنه بعد قليل ، ونميل إلى هذا الرأى لسببين رئيسيين : الأول أننا نلحظ فى الكتاب طابع المواد الموسوعية التى كان يكتبها أبو العباس التيفاشى ، وربما يكون ابن سعيد قد لاحظ أن مادة صاحبه فى الجغرافية قليلة ، فأحب أن يستكمل هذا النقص بكتاب مختصر له قائم بنفسه فى ذلك الموضوع ، والثانى هو أن الكتاب فى جملته قائم على أساس نزهة المشتاق ، ونظن أن هذا الكتاب وصل إلى تونس أول ما وصل من بلاد الإسلام .

وفى سنة ٦٦٦/١٢٦٧ رحل علىّ بن سعيد إلى المشرق مرة أخرى ، ولا نعلم ما الذى دفعه إلى القيام بهذه الرحلة الجديدة ، بل لا نكاد نصدق ما يقال من أنه أبعد فى السفر هذه المرة حتى أوغل فى إيران لكى يرى بعينيه هولاكو ، لأن هولاكو توفى سنة ٦٦٣/١٢٦٥ أى قبل شروع ابن سعيد فى رحلته بثلاث سنوات ، وقد لاحظ ذلك التناقض موريتز فى دراسته عن الأجزاء الخاصة بصقلية من كتاب « بسط الأرض فى طولها والعرض » لابن سعيد ، وقد سبق أن أشرنا إلى هذا المقال(١) .

وعاد ابن سعيد بعد ذلك إلى تونس حيث أقام حتى آخر أيامه ، وقد اختلف المؤرخون فى سنة وفاته ، فأما ابن شاكر الكتبى وابن تغرى بردى

(١) رايات المبرزين ، بتحقيق غرسية غومس ، ص ٦٤

فيقولان أنه توفى فى دمشق سنة ٦٧٣/١٢٧٤ فى حين أن ابن الخطيب والمقرى وابن فرحون (الديباج المذهب ، ص ٢٠٨) والسيوطى (حسن المحاضرة ، ١/٣٢٠) يقولون إنه توفى فى تونس سنة ٦٨٥/١٢٨٦ وقد رجح شوقى ضيف (مقدمة المغرب ، ص ٨) رأى الأخيرين بقرينة لا تحتمل الجدل وهى ما ورد فى نهاية نسخة مصورة محفوظة بدار الكتب المصرية لأحد مخطوطات «الغصون اليانعة فى محاسن شعراء المائة السابعة» من أنه كتب سنة ٦٨٣/١٢٨٤ ، والمخطوط بخط ابن سعيد نفسه .

عاش ابن سعيد إذن حياة طويلة عريضة حافلة بالأحداث والتجارب والأسفار والعمل ، وهو دون شك من أعاظم الأندلسيين الذين وفدوا على المشرق ومن أبعدهم أثراً فيه ، فقد أقبل إلى المشرق يحمل قطعة عزيزة من تاريخ بلده متمثلة فى تاريخ بيت يمنى قديم يرجع إلى آل عنس اليحصبيين ويحمل فى طياته عمار بن ياسر رمز المستضعفين فى الأرض الذين مَنَّ الله عليهم وجعلهم أعزة . انتقل آل هذا البيت إلى الأندلس وأقاموا هناك مجداً سياسياً ثم توفر الأخيرون من رجاله على إنشاء كتاب هو من مفاخر الأندلس بفضل ما يحمل من ثمرات قرائح أهله ، ثم عاد آخر أولئك الرجال إلى المشرق طاويا أعلام المجد السياسى وناشرا صفحات المجد الفكرى فى تونس وفى عواصم الشرق : القاهرة ودمشق وحلب أتم الرجل عمل آبائه وختم تاريخهم أجمل ختام بفضل ما أوتى من الذكاء والنشاط وطرافة الشخصية وما حرص عليه من الدعوة العريضة لوطنه الأندلس وأهله ، فأما دعوته للأندلس فقد اتجهت نحو وصف الأرض والجو والمدن وما إلى ذلك فأمدتنا بمادة جغرافية صرفة من الطراز الأول ، وأما دعواه لأهله فاتجهت إلى بيان امتيازهم الفكرى ، فأمدتنا بمادة أدبية ذات قيمة لا تقدر .

لا عجب إذن أن نجد لعلىّ بن سعيد صوتاً بعيداً وتقديراً عظيماً عند من أتى بعده من رجال الأدب فى مغرب العالم الإسلامى ومشرقه ، فلسان الدين

ابن الخطيب يرى فيه « وُسْطَى عقد بيته ، وعلمَ أهله ، ودرة قومه ، المصنِّف الأديب الرحال ، الطُرفة الإخبارى ، العجيب الشأن فى التجول فى الأقطار ومداخلة الأعيان للتمتع بالخزائن العلمية ، وتقييد الفوائد المشرقية والمغربية[1] » والمقرى أكبر من حمل لواء الدعوة للأندلس فى الشرق بعد ابن سعيد يقول على طريقته فى المبالغة الساذجة : « أديب زمانه غير مدافع ، من اعترف له أهل الشرق بالسبق ، وأهل المغرب بالإبداع المُغرب . . . الشهير بالمغـــارب والمشارق ، المُحَلِّى بجواهره صدور المهارق[2] » ، وابن فضل الله العمرى يقول : « أديب مبدع ، ولبيب ممتع ، وكانوا من بيت ملك لا يُنَهْنَه بالوعيد ، وكان لهم حصن سعيد بالأندلس . . . » ويقول الصفدى : « ابن سعيد من أئمة الأدب المؤرخين » وغير ذلك كثير .

وأحسب القارئ قد لاحظ أن أحداً من هؤلاء لم ينبه إلى ابن سعيد الجغرافى ، فكأن الصفحات الجغرافية المشرقة التى قدم بها للأقطار والتى أتى بذكرها فى كتابه الكبير « فلك الأرب » والتى سنورد منها نماذج مما يتصل بالأندلس ، كأن هذه الصفحات كانت فى حسابهم مداخل أو مقدمات لا أهمية لها ، حتى رجال موسوعيون كابن فضل الله العمرى — المفروض فيهم أن يتبينوا طبيعة ما يقرأون ويميزوه عن غيره ويفيدوا منه فى بابه — فاتهم أن يتنبهوا إلى ذلك ، وجعلوا الرجل أديباً ومؤرخاً ولا زيادة ، والحق أن ابن سعيد فى الأدب ناقل متكلف وفى التاريخ حاطب متعجل وفى الشعر ناظم قل أن تظفر له ببيت ذى قيمة شعرية حقيقية ، أما فى الجغرافية فقد كان رجلا أصيلا وذهنــاً جديراً بالاعجاب ، وقد بين ذلك ب. موريتز فى دراسته عما كتب ابن سعيد عن صقلية وبارتولد فى دراسته لما كتب عن أوروبا الشرقية

---

(١) رواه المقرى فى النفح ، ٣/٣٨

(٢) نفس المرجع ، ٣/٢٦

وهونجسان فى كتابه الفريد عن الأقاليم السبعة وجورج سارتون فى مقدمة تاريخ العلم وغير هؤلاء كثيرون ممن أحصاهم اغناطيوس كراتشكوفسكى فى عرضه الموجز الممتع لأعمال ابن سعيد الجغرافى (ص ٣٥٦ — ٣٦٠ من كتاب الأدب الجغرافى العربى) .

المادة الجغرافية فى كتاب المغرب فى حلى المغرب

لن نذكر من أعمال على ابن سعيد غير « فلك الأرب » و « بسط الأرض » : فقد أحصاها بروكلمان واستوفى شوقى ضيف بعض فوات العلامة الألمانى ، ودرس كذلك فى مقدمة المُغْرب التكوين العام لهذا الكتاب مما يغنينا عن إعادته هنا ، ولكن يحسبنا العبارة التالية من مقدمة « المُشرِق فى حُلى المشرق » وهو جزء من النصف الثانى من « فلك الأرب ، المحيط بحلى لسان العرب » وهى تبين منهج علىّ بن سعيد فى صياغة الكتاب فى صورته التى وصلت إلينا ، وسنقسم العبارة إلى فقرات زيادة فى الايضاح . قال المؤلف :

١ — كل من التصنيفين (يريد المُشرق والمُغرب وهما القسمان الكبيران لكتاب فلك الأرب) مرتب على البلاد . متى ذُكِر بلد ذكرتُ كُورَه ، وأتكلم عليه وعلى كل كورة منه . . وأبتدئ بكرسى مملكتها وقاعدة ولايتها بحسب مبلغ [علمى] من إعلام بمكانها من الأقاليم ، وما يحف بها من نَهر أو مَنْزَهٍ أو خاصة معدنية أو نباتية .

٢ — وَمَن تداول عليها من أبناء الملوك أولى التواريخ التى لا يجب إغفالها .

٣ — ثم نأخذ فى الطبقات واحدة بعد أخرى ، وهى خمس : طبقة الأمراء ، وطبقة الرؤساء ، وطبقة العلماء ، وطبقة الشعراء ، وطبقة اللفيف . [والأربع الأولى] مخصوصة بمن له نظم من أولى الخطط المذكورة ، ولها تفسير

تقف عليه فى مواضعه . وطبقة اللفيف مخصوصة بمن ليس له نظم من أى صنف كان ، ممن لا يجب إغفاله ، وفيها من النوادر والمضحكات ما يكون [مثل الاحماض[1] » .

فالفقرة الأولى من هذا المنهج خاصة بالمادة الجغرافية من الكتاب .

والفقرة الثانية خاصة بالمادة التاريخية .

والفقرة الثالثة خاصة بالمادة الأدبية مع إشارات تاريخية .

وإذا نحن أخذنا الأجزاء الخاصة بالأندلس من « المغرب » تبينا أن المادة الجغرافية تنقسم إلى قسمين : مقدمة عامة مفصلة عن جغرافية الأندلس ، ثم تعريفات جغرافية مختصرة خاصة بكل بلد يرد ذكره .

فأما المقدمة الجغرافية فسنتحدث عنها بتفصيل بعد يسير ، وأما المقدمات الجغرافية الصغيرة للبلدان فمعظمها مأخوذ من مسهب الحجارى أو من جغرافية الرازى ، وقد تكون عبارات قصيرة مثل قوله عن كورة مُراد فى منطقة قرطبة : « فى غربى قرطبة ، الحالى منها حصن مراد ، سكنته قبيلة مراد فنسب إليها[2] » أو قوله عن مدينة قبرة : « مدينة نابهة ، هى قصبة الكورة[3] » أو قوله عن قرية مَقَرينَة فى كورة اشبيلية : « قرية فى نطاق حضرة اشبيلية[4] » وما إلى ذلك من الإشارات التى لا تكاد تتضمن قيمة علمية حقيقية ، وهى لا تطول وتُغْنَى بعض الشىء إلا فى الكلام على الكور ، ومثال ذلك قوله عن كورة قرمونة : « كورة مشهورة بكثرة الحرث وطيبه ، والحالى منها مدينة

---

(١) نقلت هذه الفقرة من مقدمة « المشرق » بنصها كما أوردها شوقى ضيف فى مقدمة المغرب (ص ٩) وقد نقلها هو عن أصل مخطوط بالمكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٥٣٢ تاريخ ، وراجعها على ما أورده المقرى منها فى نفح الطيب .

(٢) المغرب ، ١/٢٢٨

(٣) المغرب ، ١/٢٣٠

(٤) المغرب ، ١/٢٨٨

قرمونة ، وهى مدينة من جهة ضخامة الأسواق والحمامات ، ومعقل عظيم من جهة الارتفاع والمنعة ، لا ترام بقتال ، وهى من حصون الإسلام المشهورة ، وقد كان امتنع فيها يحيى بن على بن حمود الفاطمى وجعل يقاتل ابن عباد فى اشبيلية حتى ضاق ابن عباد به ، ولم يكن له حيلة فيه لمَنَعَةِ معقِله ، إلى أن خرج ليلة وهو سكران بخيـــل ضربت من اشبيلية على قرمونة ، فوقع فى يدهم فقتلوه[1] » .

ويلاحظ على هذه الاشارات كلها — إلى جانب اقتضابها — طابع العجلة وقلة التحقيق والمراجعة حتى ليندر أن تجد واحدة منها دون خطأ ، وفى هذا القليل الذى ذكرناه أخطاء كثيرة ، فمن الواضح أنه لم تكن هناك فى الأندلس كورة تسمى كورة مُراد ، وإنما هى ناحية إلى شمالى قرطبة عرفت بهذا الاسم نسبة إلى من جماعة المراديين نزلتها ، ثم بُنِي بعد ذلك الحصن ، وقوله إن مقرينة قرية فى نطاق حضرة اشبيلية غير دقيق وإنما هى كانت حياً من أحياء اشبيلية ، وكذلك قوله عن قرمونة انها من حصون الإسلام المشهورة يبدو أنه سهو صحته « من حصون الأندلس المشهورة » ، أما اشارته إلى نهاية يحيى بن على بن حمود فغير دقيقة ، لأنه لم يقع فى يد رجال ابن عباد ، بل سار هؤلاء إليه فخرج إليهم ووقع قتال قُتل فيه .

والحق — كما تبين شوقى ضيف — أن نسخة الجزء الخاص بالأندلس من المغرب التى وصلت إلينا كُتبت على عجل ولم تُراجع بعد ، وربما كانت مسودة نقلها ابن سعيد بَعد ذلك على صورة أحسن ، فإن النسخة التى كانت بين يدى المقرى ونقل عنها أوفى وأصح من نسختنا بكثير (راجع مقدمة المغرب ، ص ٢٥ — ٢٦) .

---

(١) المغرب ، ٢٩٩/١

وقبل أن ننتقل لدراسة المقدمة الجغرافية المفصلة للأندلس نلاحظ أن القطعة الباقية بين أيدينا عن هذ القطر تبدأ فى السفر الحادى عشر من كتاب المغرب وتستمر إلى الخامس عشر ، وقد افترض شوقى ضيف — وهو على حق — أن الجزء العاشر كان يتضمن المقدمات الجغرافية التى احتفظ لنا المقرى بمعظمها لحسن الحظ ، ففيم كانت الأسفــار التسعة الأولى ؟ الغالب أنه اختص بها مصر والمغرب ، ولا نعلم على وجه التحديد كيف قسمها ، ولكن صياغة ما عثرنا عليه ونُشِر من الاقسام الخاصة بمصر لا تشبه أسفار الأندلس فى شىء ، ومعظمها نقل دون تمحيص ، مما يدل على أن صلب الكتاب الحقيق هو الجزء الخاص بالأندلس ، وهو الذى ورثه ابنُ سعيد عن آله ، ويغلب على الظن أن المقدمة الجغرافية العامة من عمله وحده فإن فيها نقولا عن الشريف الإدريسى ومناقشات لبعض ما أورد ، ولم يطلع علىّ بن سعيد على نزهة المشتاق إلا حين أقام فى تونس .

علىّ بن سعيد فى هذه المقدمة نظّار محقق ذو فهم وحِسٍ جغرافيين ، وهذا يتضح للقارئ من أول وهلة ، فهو يبدأ بمقدمات عن أصل اسم الأندلس وطولها وعرضها بحسب أقوال لأبى عامر السالمى فى كتابه المسمى « بدرر القلائد وغرر الفوائد » والمسعودى وابن اليسع ، وهو يروى قول هذا الأخير : « طولها من أربُونة إلى أشبونه ، وهو قطع ستين يوماً للفارس المجد » ويعلق عليه بقوله وانتُقِد بأمرين : أحدهما أنه يقتضى أن أربونة داخلة فى جزيرة الأندلس ، والصحيح أنها خارجة عنها ، والثانى أن قوله « ستين يوماً للفارس المجد » اعياء وافراط ، وقد قال جماعة إنها « شهر ونصف » ويضيف بعد ذلك : « وهذا يقرب إذا لم يكن للفارس المُجِد ، والصحيح ما نص عليه الشريف من أنها مسيرة شهر ، وكذا قال الحجارى ، وقد سألت المسافرين المحققين عن ذلك ، فعملوا حسابا بالمراحل الجيدة أفضى إلى نحو شهر بِنَيِّف[1] قليل » ، وهذا كلام رجل يزن ما يصل

---

(١) برواية المقرى فى نفح الطيب ، ١/٢٢٥

إليه من معلومات ويحققه ويسأل عنه من يعرفه . وفَرْقٌ بين هذا الكلام وقول الحجارى إن طول الأندلس من الحاجز إلى أشبونة ألف ميل[١] ونيف » ، لأن طول الأندلس لا يقاس من الحاجز — أى جبال البُرت وهى المعروفة خطأً بالبرانس — إلى الاشبونة ، وحتى لو اعتمدنا قولهم أن الأندلس مثلثة الشكل فإن أحداً لم يقل أن الاشبونة كانت ركنـاً من أركان المثلث بحيث تتخذ المسافة منها إلى الحاجز ضلعاً من أضلاعه ، ومع هذا كله فالمسافة بين الاشبونة وجبال البرت لا تصل إلى ألف ميل أى ألفى كيلومتر على اعتبار أن الميل العربى كيلومتران .

وقد أورد المقرى فى نفح الطيب بعد ذلك فقرة طويلة عن هيئة الأندلس وابعادها تعطينا نموذجا طيباً من طريقة ابن سعيد فى الكلام فى هذه المقدمة ، نوردها على تواليها ، فإن عرضها مع تعليق قصير يغنى عن كلام كثير ، قال : « ومسافة الحاجز[٢] الذى بين بحر الزقاق والبحر المحيط أربعون ميلا ، وهذا عرض الأندلس عند رأسها من جهة الشرق[٣] ، ولقلته سميت جزيرة وإلا فليست بجزيرة على الحقيقة لاتصال هذا القدر بالأرض الكبيرة .

وعرضُ جزيرة الأندلس فى مُوَسَّطها عند طليطلة ستة عشر يوما[٤] ، واتفقوا على أن جزيرة الأندلس مثلثة الشكل ، واختلفوا فى الركن الذى فى الشرق والجنوب فى حيز أربونة ، فمن قال إنه فى أربونة — وإن هذه المدينة

---

(١) نفس المرجع ، ١/١٢٦

(٢) المراد بالحاجز هنا الطرف الجنوبي من شبه الجزيرة بين البحر الأبيض والمحيط الأطلسى ، وعرضه ٨٠ كيلومترا فى بعض المواضع .

(٣) هذا على مذهبهم فى أن جبال البرت تسير من الشمال إلى الجنوب فيقع الزقاق فى الشرق ، وقد تحدثنا عن هذه النظرية فيما سبق .

(٤) هذا التقدير واضح الخطأ ، لأن متوسط ما كان يقطعه المسافر فى اليوم ٤٠ كيلومترا ، فالمسافة على هذا التقدير ٦٤٠ كيلومترا ، وهى فى الواقع ضعف ذلك تقريباً .

تقابلها مدينة برديل[١] التى فى الركن الشرق الشمالى — أحمدُ بن محمد الرازى وابنُ حَيَّان ، وفى كلام غيرهما أنه فى جهة أربونة ، وحقق الأمرَ الشريفُ[٢] ، وهو أعرف بتلك الجهة لتردده فى الأسفار براً وبحراً إليها وتفرّغه لهذا الفن .

قال ابن سعيد : وسألت جماعة من علماء هذا الشأن فأخبرونى أن الصحيح ما ذهب إليه الشريف ، وأن أربونة[٣] وبرشلونة غير داخلتين فى أرض الأندلس ، وأن الركن الموفى على بحر الزقاق بالمشرق بين برشلونة وطركونة فى موضع يعرف بوادى رُبْلُقَطُو[٤] وهنالك الحاجز الذى يفصل بين الأندلس والأرض الكبيرة ذات الألسن الكثيرة .

وفى هذا المكان جبل البرت الفاصل فى الحاجز المذكور وفيه الأبواب التى فتحها ملك اليونانيين بالحديد والنار والخل ، ولم يكن للأندلس من الأرض الكبيرة قبل ذلك طريق فى البر ، وذكر الشريف أن هذه الأبواب يقع فى مقابلتها فى بحر الزقاق البحرُ الذى بين جزيرتى ميورقة ومنورقة ، وقد أخبر بذلك جمهور المسافرين لتلك الناحية ، ومسافة هذا الجبل الحاجز بين الركن الجنوبى والركن الشمالى أربعون ميلا[٥] .

---

(١) برديل هى بوردو ، وقد احتفظت الصورة العربية بالرسم اللاتينى Burdigala ولهذا تكتب أحيانا بردال . وكان الجغرافيون العرب يظنون — كما رأينا — أن ضلعاً من أضلاع مثلث شبه الجزيرة يمتد من بوردو إلى أربونه فى خط مستقيم من الشمال إلى الجنوب مخترقاً جبال البرت .

(٢) هذه أول مرة يشير مؤلف عربى إلى الشريف الإدريسى ، وإذا كان المغرب قد كتب حوالى سنة ٦٤٠ فيكون قد مضى نحو قرن من الزمن بين تأليف « نزهة المشتاق » وبدء الانتفاع به عند علماء العرب .

(٣) هذا صحيح ، فأربونه خارجة عن شبه الجزيرة ، أما برشلونة فكانت إذ ذاك تابعة لملوك غالة (فرنسا) وتسمى منطقتها فى بعض الأحيان بالأرض الصغيرة فى حين أن غالة تسمى بالارض الكبيرة .

(٤) هو نهر Llobrogat واسمه باللاتينية Rubrucatus ومن هنا أتى الاسم العربى ، وقد صوبه دوزى على هذا النحو ، ولكن محي الدين عبد الحميد فضل متابعة رسم طبعة بولاق القديمة : زلنقطو ، وزاد فضبط الاسم بفتح الزاى واللام وسكون النون وفتح القاف ليقطع الشك باليقين !

(٥) التقدير هنا بعيد عن الصحة فإن متوسط المسافة من البحر الابيض الى خليج بسكاية فى منطقة البرت حوالى ٤٠٠ ك. م. لا ٨٠ كما يقول ابن سعيد .

قال : وشمال الركن المذكور عند مدينة برديل ، وهى من مدن الإفرنج مطلة على البحر المحيط فى شمال الأندلس ، قال : وينقهقر البر بعد تميُّز هذا الركن إلى الشمال فى بلاد الفرنجـة ، ولهم به جزائر كثيرة ، ودوكرا[1] من الركن الشمالى عند شنت ياقوه من ساحل الجلالقة فى شمال الأندلس ، حيث تبتدئ جزيرة برطانية الكبيرة ، فيُتصور هنالك بحر داخل بين أرضين[2] ، من الناس من يجعله بحراً منفرداً خارجا من البحر المحيط لطوله إلى الركن المتقدم الذكر عند مدينة برديل .

وذكر الشريفُ أن عند شنت ياقوه فى هذا الركن المذكور على جبل بمجمع البحرين صنما مطلا مشبها بصنم قادس .

والركن الثالث بمقربة من جبل الأغن حيث صنم قادس ، والجبل المذكور يدخل من غربه مع جنوبه بحر الزقاق من البحر المحيط ماراً مع ساحل الأندلس الجنوبي إلى جبل البرت المذكور » .

ويورد المقرى بعد ذلك (نفح ١ / ١٣٣ — ١٣٤) فقرة منقولة عن الشريف الإدريسى تدل على أن ابنَ سعيد قرأه وفهم كلامه حق الفهم ، وهى فقرة خاصة بالأقاليم السبعة (شمال خط الاستواء) وموقع الأندلس منها ، وما يوازى مدنه من المدن الأخرى الواقعة فى نفس الإقليم ، وسنورد هذه الفقرة فيما يلى لأنهـا تدل على قدرة على بن سعيد على تلخيص مادة الإدريسى ، وهو أمر سيعمله بصورة أوفى فى كتابه « بسط الأرض » ، قال :

« وقال ابن سعيد : ذكر الشريف أنْ لا حظَّ لأرض الأندلس فى الإقليم الثالث ، قال : ويمر بجزيرة الأندلس الإقليمُ الرابع على ساحلها الجنوبى وما

---

(١) كذا فى الأصل المطبوع .

(٢) المراد هنا بحر المانش أو القنال الانجليزى .

قاربه من قرطبة وإشبيلية ومرسية وبلنسية ، ثم يمر على جزيرة صِقِلية وعلى ما فى سَمْتها من الجزائر ، والشمس مدبِّرة له .

والإقليم الخامس يمر على طليطلة وسرقسطة وما فى سمتهما إلى بلاد أرْغُون التى فى جنوبيها برشلونة ، ثم يمر على رومية وبلادها ، ويشق بحر البنادقة ، ثم يمر على القسطنطينية ، ومدبرته الزهَرَة .

والسادس يمر على ساحل الأندلس الشمالى الذى على البحر المحيط وما قاربه وبعض البلاد الداخلة فى قشتالة وبرتقال وما فى سمتهـا ، وعلى بلاد برجان والصقالبة والروس ، ومدبره عطارد .

ويمر الإقليم السابع فى البحر المحيط الذى فى شمالى الأندلس إلى جزيرة انقلطرة وغيرها من الجزائر وما فى سمتهـا من بلاد الصقالبة وبرجان . قال البيهقى : وفيه تقع جزيرة تُولِى وجزيرتا أجبال والنساء وبعض بلاد الروس الداخلة فى الشمال والبلغار ، ومدبره القمر ، انتهى .

وإليك فقرة أخرى عن البحر الأبيض نرى منها أن تصورَ ابن سعيد لهذا البحر كان سليما معقولا ، وقد سبقه إلى هذا التصور السليم معظم النابهين من جغرافيينا ، وخاصة أبو عبيد البكرى ، وسيصوره ابن خلدون فيما بعد تصويراً هو الغاية فى الدقة وحسن الفهم حتى بمقاييس العلم الجغرافى فى أيامنا ، ولكننا نورد هذه الفقرة لأنهـا نموذج من طريقة ابن سعيد فى المزج بين الحقائق الجغرافية وبعض حكايات التاريخ التى كانت تدخل عندهم فى الجغرافية ، وهى تعطينا أيضاً أمثلة من ملاحظاته الشخصية القائمة على مشاهداته . ويلاحظ أن تصور ابن سعيد — والبكرى وابن خلدون — لهيئة البحر الأبيض أنه كان بيضاوياً على هيئة اللوزة أو العين مثلا ، وطرف منه عند جبل طـارق ، والطرف الآخر عند صور على ساحل الشام . وتحديد صور بالذات من دون موانى الشام راجع إلى بطلميوس :

قال ابن سعيد : ومخرج بحر الروم المتصاعد إلى الشام هو بساحل الأندلس الغربى بمكان يقال له الخضراء ما بين طنجة من أرض المغرب وبين الأندلس فيكون مقدار عرضه هناك كما زعموا ثمانية عشر ميلا ، وهذا عرض جزيرة طريف إلى قصر مصمودة بالقرب من سبتة ، وهناك كانت القنطرة التى يزعم الناس أن الإسكندر بناها ليعبُرَ عليها من بر الأندلس إلى بر العدوة ، ويعرف هذا الموضع بالزقاق ، وهو صعب المجاز لأنه مجمع البحرين لا تزال الأمواج تتطاول فيه والماء يدور ، وطول هذا الزقاق الذى عرضه ثمانية عشر ميلا مضاعَفُ ذلك إلى ميناء سبتة ، ومن هناك يأخذ البحر فى الاتساع إلى ثمانمائة ميل وأزيد ، ومنتهاه مدينة صور من الشام ، وفيه عدد عظيم من الجزائر » .

فإذا انتقل علىّ بن سعيد إلى الكلام على مدن الأندلس وحاصلاته النباتية والمعدنية وحيوانه ونباته وصناعات أهله أتى من ذلك كله بمادة وافرة لم يوفق واحد من الجغرافيين قبله إلى الاتيان بمثلها ، وهو يتحدث فى معظم هذه الفقرات حديث العالم الثبت الذى يتكلم عما يعرف ، ولولا ولعه بإيراد الكثير من الشعر والحكايات فى أثناء ذلك لكان كلامه أقرب ما يكون إلى مفهومنا فى التأليف الجغرافى اليوم ، وعزاؤنا فى هذه الاستطرادات الأدبية أنها تضم أحيانا فوائد جغرافية ، ومثال ذلك قوله فى الكلام على قرية نارجة ، وهى Nerja على ٥٣ كيلومتراً إلى شرقى مالقة على الشاطىء ، وهى نهاية ما يعرف اليوم بشاطىء الشمس La Costa del Sol ، وهى مشهورة بمغارتها العميقة الفسيحة التى تعتبر اليوم من مقاصد السائحين ، قال : « وهى قرية كبيرة تضاهى المدن ، قد أحدقت بها البساتين ، ولها نهر يفتن الناظرين ، وهى من أعمال مالقة » ثم يذكر بعد ذلك كيف اجتاز عليها مع والده أبى عمران موسى : « وكان ذلك زمن صباغة الحرير عندهم ، وقد ضربوا فى بطن الوادى بين مقطعاته خياما ، وبعضهم يغنى ويطرب ، وسئلوا : بم يعرف هذا الموضع ؟ فقالوا : الطراز ، فقال والدى : اسم طابق مسماه ولفظ وافق معناه :

وقد وجدت مكانَ القول ذا سعة فان وجدت لسانا قائلا فَقُل

ثم قال : أجِز : بنارجةٍ ، حيث الطراز المنمم

فقلت : أقم فوق نهر ثغره يتبسم

إلى آخر هذا الشعر الذى اشترك هو وأبوه فى صياغته ، وهو شعر استغرق صفحة كاملة (١) .

ومن نماذج كلامه عن المدن قوله عن بلنسية :

« كورة بلنسية من شرق الأندلس ينبت بها الزعفران ، وتعرف بمدينة التراب ، وبها كمثرى تسمى الأرزة فى قدر حبة العنب ، قد جمع مع حلاوة الطعم ذكاء الرائحة ، إذا دخل داراً عرف بريحه ، ويقال : إن ضوء بَلَنْسية يزيد على ضوء سائر بلاد الأندلس ، وبها مَنَـازِهُ ومسارح ، ومن أبدعها وأشهرها الرُّصَافة ومُنْية ابن أبى عامر » .

ثم تلى ذلك مقطعات شعرية لشرف الدين أبى جعفر بن مسعدة الغرناطى وابن الزّقاق البلنسى ومروان بن عبد الله بن عبد العزيز الذى ملك بلنسية بعض الوقت وأبى عبد الله بن عياش وأبى الحسن بن حريق والرصافى الرفاء و « بعضهم » .

ويستوقف النظر أن أول ما يذكره عن كورة بلنسية انها تنبت الزعفران ، ولا زالت تنبته إلى اليوم بكميات كبيرة ، وإلى وجوده مع الأرز بها ترجع شهرة بلنسية بطبق الأرز المعروف بالبائيّا paella ويقال أنه طبق عربى أصل اسمه « البقايا » . أما الكمثرى التى يذكرها فموجودة فعلا وتسمى فى الاسبانية peras de San Juán ، ولكنها ليست فى حجم حبة العنب ، وإنما فى حجم البيضة الكبيرة . ويكمل ابن سعيد كلامه عن بلنسية بقوله بعد الاشعار : « وبرصافة

---

(١) رواه المقرى فى نفح الطيب ، ١/١٦٦ — ١٦٨ .

بلنسية مناظر وبساتين ومياه ، ولا نعلم فى الأندلس ما يسمى بهذا الاسم إلا هذه ورصافة قرطبة » ، وهى ملاحظة صحيحة .

وأورد ابن سعيد — نقلا عن « المسهب » للحجارى — فقرات طويلة عن حيوان[1] الأندلس ، فذكر السمور « الذى يعمل من وبره الفراء الرفيعة يوجد فى البحر المحيط بالأندلس من جهة جزيرة برطانية ، ويجلب إلى سرقسطة ويصنع بها ، والقَنَلْيَة حيوان أدق من الأرنب وأطيب فى الطعم وأحسن وبراً وكثيراً ما يلبس فراؤها ، ويستعملها أهل الأندلس من المسلمين والنصارى ، ولا توجد فى بر البربر إلا ما جلب منها إلى سبتة ، فنشأ فى جوانبها » وأضاف بعد ذلك أن القنلية جابت فى هذه المدة إلى تونس حضرة افريقية ، ولفظ canalia لاتينى ومعناه الأرنب .

ويضيف : « ويكون بالأندلس من الغزال والابل وحمار الوحش وبقره وغير ذلك مما لا يوجد فى غيرها كثيرٌ ، وأما الأسد فلا يوجد فيها البتة ، ولا الفيل والزرافة وغير ذلك ممـا يكون فى أقاليم الحرارة . ولها سبع يعرف باللُّب أكبر بقليل من الذئب فى نهاية من القحة ، وقد يفترس الرجل إذا كان جائعاً » .

وعبارته عن اللب جديرة بالملاحظة ، لأن اللب el lobo هو فى الحقيقة الذئب ، وهو من اللاتينية lopus ، ولكن الذئب فى اسبانيا وعامة أوروبا أكبر من ذئب البلاد المشرقية وأشد عدواناً فى حالة الجوع ، ولهذا ميزه ابن سعيد عن الذئب وذهب إلى أنه حيوان آخر ، وقد تسمى كثير من المسلمين باسم هذا الحيوان فقالوا لُب بن سعيد مثلا ، ولا زال الاسم مستعملا فى الإسبانية : López ومعناه على الحقيقة ابن لب . ثم يقول : « وبغال الأندلس فارهة وخيلها ضخمة الأجسام ، حصون للقتال لحلها الدروع وثقال السلاح والعدو . . .

---

(١) نفح الطيب ، ١ / ١٨٤ — ١٨٥

ولها من الطيور الجوارح وغيرها ما يكثر ذكره ويطول ، وكذلك حيوان البحر . ودواب بحرها المحيط فى نهاية الطول والعرض . قال ابن سعيد : عاينت من ذلك العجب . والمسافرون فى البحر يخافون منها لئلا تقلب المراكب فيقطعون الكلام ، ولها نَفْخٌ بالماء من فيها يقوم فى الجو ذا ارتفاع مفرط » والكلام هنا على حيوان البحر المعروف بالعنبر ، وكان يسمى فى الاندلس باسمه اللاتينى والإسبانى البِلِّينَه la bállena .

ولابن سعيد فى هذه المقدمة فقرة عظيمة الأهمية عن فواكه الأندلس ، وما أظن أحداً من مؤلفينا — غير النباتيين — كتب شيئاً شبيهاً بهذا فى الدقة عن فواكه بلده : « وأما الثمار وأصناف الفواكه ، فالأندلس أسعدُ بلاد الله بكثرتها ، ويوجد فى سواحلها قصب السكر والموز ، ويوجدان فى الأقاليم الباردة (يريد من الأندلس) ، ولا يعدم منها إلا التمر ، ولها من أنواع الفواكه ما يعدم فى غيرها أو يقل كالتين القوطى والتين السَّفَرى فى اشبيلية . قال ابن سعيد : وهذان صنفان لم تر عينى ولم أذق لهما منذ خرجت من الأندلس ما يفضلها ، وكذلك التين المالقى والزبيب المُنَكَّبى والزبيب العسلى والرمان السِّفرى ، والخوخ والجوز واللوز ، وغير ذلك مما يطول ذكره[1] » . وقوله أنه لا يَعْدم من الأندلس إلا التمر يستوقف النظر ، فإن فى اسبانيا اليوم من غابات النخيل التى تثمر التمر الجيد ما يدهش له الزائر لنواحى ألش Elche ولقنت Alicante وامتداد الساحل حتى المرية ومرسية ، وهذا معناه أن التمر الاسبانى الحالى شىء جديد استجد بعد أيام العرب . نعم كان فى الأندلس دائماً نخل ، ولكنه فيما يبدو لم يكن يثمر ثمراً يجدر بالذكر ، وإلا لما أبدى ابن سعيد هذه الملاحظة .

---

(١) رواه المقرى فى نفح الطيب ، ١/١٦٦

وقال عن معادن الأندلس : « إن الأرض الشمالية الغربية فيها المعادن السبعة ، وهى فى الأندلس التى هى بعض تلك الأرض ، وأعظم معدن للذهب بالأندلس فى شنت ياقوه Santiago de Compostela قاعدة الجلالقة على البحر المحيط ؛ وفى جهة قرطبة الفضة والزئبق ؛ والنحاس فى شمال الأندلس كثير والصُّفر (النحاس الجيد) الذى يكاد يشبه الذهب وغير ذلك من المعادن المتفرقة فى أماكنها[1]» وهذه العبارة ضعيفة ، فهى لم تأت إلا على النزر اليسير من معادن الأندلس التى عرفها العرب واستخرجوها ، وإغفاله ذكر الحديد مثلا لا يمكن تبريره ، وكان العرب يستخرجون منه مقادير طيبة من مناجم واقعة إلى شمال شرق قرطبة ، عند البلدة المعروفة اليوم باسمها العربى Almaden (المعدن) بل كانت جبال سيِرّا مورينا كلها تسمى جبال المعدن لهذا السبب ، واستخرج العرب كذلك حديد مربيطر Murviedro التى تعرف حاليا باسمها اللاتينى Sagunte قرب بلنسية .

أما إشارة ابن سعيد إلى صناعات الأندلس فهى من أقيم ما لدينا عن هذا الموضوع ، وهى جديرة بأن نوردها هنا :

« قال ابن سعيد : وإلى مصنوعات الأندلس ينتهى التفضيل ، وللمتعصبين لها فى ذلك كلام كثير ، فقد اختصت المرية ومالقة ومرسية بالموشى المذهب يتعجب من حسن صنعته أهلُ المشرق إذا رأوا منه شيئاً ، وفى تَنْتَالَة من عمل مرسية تعمل البُسُط التى يُغَالَى فى ثمنها بالمشرق ، ويصنع فى غرناطة وبَسطة من ثياب اللباس المحررة الصنفُ الذى يعرف بالملبد المختم ذو الألوان العجيبة ، ويصنع فى مرسية من الأسِرَّة المرصعة والحصر الفتانة الصنعة وآلات الصُّفر والحديد من السكاكين والأمقاص المذهبة وغير ذلك من آلات العروس والجندىّ ما يبهر العقل ، ومنها تجهز هذه الأصناف إلى بلاد إفريقية وغيرها ،

---

(١) المقرى ، نفح الطيب ، ١/١٨٦

ويصنع بها وبالمرية ومالقة الزجاجُ الغريب العجيب وفخار مزجج مذهب ، ويصنع بالأندلس نوع من المفضض المعروف فى المشرق بالفُسَيْفِسَاء ونوع يبسط به قاعات ديارهم يعرف بالزليجى يشبه المفضض ، وهو ذو ألوان عجيبة يقيمونه مقام الرخام الملون الذى يصرِّفه أهل المشرق فى زخرفة بيوتِهم كالشاذَرْوَانِ ، وما يجرى مجراه .

« وأما آلات الحرب من التِّراس والرماح والسراوج والألجم والدروع والمغافر فأكثر همم أهل الأندلس — فيما حكى ابن سعيد — كانت مصروفة إلى هذا الشأن ، ويُصنع فيها فى بلاد الكفر ما يبهر العقول ، قال : والسيوف البرذليات مشهورة بالجودة ، وبرذيل : آخر بلاد الأندلس من جهة الشمال والمشرق ، والفولاذ الذى بإشبيليه إليه النهاية ، وفى اشبيلية من دقائق الصنائع ما يطول ذكره » .

ويطول بنا الأمر لو مضينا نعرض هذه المقدمة الطويلة فى الجغرافية العامة للأندلس التى سماها « كتاب وشى الطرس فى حلى جزيرة الأندلس » وهى السفر العاشر من المغرب كما قلناه . فقد أورد المقرى فى نفح الطيب معظمها ناسبًا الفقرات إلى ابن سعيد فى الغالب ، وإن كان بين الحين والحين يغفل ذلك ، ولن نورد هنا الفقرات الطويلة عن نظام الأندلس الإدارى وخططه وعادات أهله وخصائصهم الخلقية والعقلية ، فهذا كلام طويل كثير أحق بأن يجمع فى كتاب وحده حتى تظهر مزاياه ، ولكننـــا نختم هذه الدراسة عن جغرافية الأندلس لابن سعيد بتلك الفقرات التى يذهب فيها مع الإعجاب ببلده إلى درجة التعصب والمغالاة فى إظهار الفضل والامتياز حتى لا يتحرج عن المساس بالبلاد المشرقية التى كان يعيش فيها . وهذا الاستعلاء من الأندلسيين على غيرهم وعدم تحرزهم مما يجرح مشاعر الغير كانا من بعض خصائصهم ، لا مع غيرهم فحسب ، بل مع بعضهم البعض ، وإن الانسان ليدهش وهو يقرأ سِيَرَهم من الحاح الكثيرين منهم على ما يهين ويغضب دون حاجة فى كثير من الأحيان .

قال ابن سعيد : « وميزان وصف الأندلس أنها جزيرة قد أحدقت بها البحار ، فأكثرت فيها الخصب والعمارة من كل جهة ، فمتى سافرت من مدينة إلى مدينة لاتكاد تنقطع من العمارة ما بين قرى ومياه ومزارع ، والصحارى[1] فيها معدومة ، ومما اختصت به أن قراها فى نهاية من الجمال لتصنع أهلها فى أوضاعها وتبييضها ، لئلا تنبو العيون عنها ، فهى كما قال الوزير بن الحمارة فيها :

لاحَتْ قُرَاها بين خُضْرة أَيْكِها كالدُّرِّ بين زَبَرْجَدٍ مكنون

ولقد تعجبت لما دخلت الديار المصرية من أوضاع قراها التى تكدر العين بسوادها ، ويضيق الصدر بضيق أوضاعها . وفى الأندلس جهات تقرب فيها المدينة العظيمة المصَّرة من مثلها ، والمثال فى ذلك أنك إذا توجهت من اشبيلية فعلى مسيرة يوم وبعض آخر مدينة شريش ، وهى فى نهاية من الحضارة والنضارة ، ثم يليها الجزيرة الخضراء كذلك ، ثم مالقة ، وهذا كثير فى الأندلس ولهذا كثرت مدنها ؛ وأكثرها مسوّر من أجل الاستعداد للعدو ، فحصل لهـا بذلك التشييد والتزيين . وفى حصونها ما يبقى فى محاربة العدو ما ينيف على عشرين سنة لامتناع معاقلها ، ودربة أهلها على الحرب ، واعتيادهم لمجاورة العدوّ بالطعن والضرب ، وكثرة ما تنخزن الغلة فى مطاميرها ، فمنها ما يطول صبره عليها نحواً من مائة سنة قال ابن سعيد : ولذلك أدامها الله تعالى من وقت الفتح إلى الآن ، وإن كان العدو قد نقصها من أطرافها ، وشارك فى أوساطها فنى البقية منعة عظيمة ، فأرض بقى فيها مثل اشبيلية وغرناطة ومالقة والمرية وما ينضاف إلى هذه الحواضر العظيمة الممصرة الرجاء فيها قوىّ بحول الله وقوته ، انتهى .

---

(١) هذه العبارة غير دقيقـة ، فنى شبه الجزيرة مناطق صحراوية وصخرية قاحلة كثيرة تبلغ نسبتها ٨ ٪ من مساحتها الكلية .

قلت[1] : قد خاب ذلك الرجاء ، وصارت تلك الأرجاء للكفر مَعْرجاً ، ونسأل الله تعالى الذى جعل للهم فرجاً ، وللضيق مخرجاً ، أن يعيد إليها كلمة الإسلام حتى يستنشق أهله منه فيها أرَجًا ! آمين » .

قال ابن سعيد : « وأنا أقول كلاماً فيه كفاية : منذ خرجت من جزيرة الأندلس وطُفت فى بر العُدوة ، ورأيت مدنها العظيمة كمراكش وفاس وسلا وسبتة ، ثم طفت فى إفريقية وما جاورها من المغرب الأوسط فرأيت بجاية وتونس ، ثم دخلت الديار المصرية فرأيت الإسكندرية والقاهرة والفسطاط ، ثم دخلت الشام فرأيت دمشق وحلبا وما بينهما . لم أر ما يشبه رونق الأندلس فى مياهها وأشجارها إلا مدينة فاس بالمغرب الأقصى ، ومدينة دمشق بالشام ، وفى حَمَاة مسحة أندلسية ، ولم أر ما يشبهها فى حسن المبانى والتشييد والتصنيع ، إلا ما شُيد بمراكش فى دوله بنى عبد المؤمن ، وبعض أماكن فى تونس ، وإن كان الغالب على تونس البناء بالحجارة كالإسكندرية ، ولكن الإسكندرية أفسح شوارع وأبسط وأبدع ، ومبانى حلب داخلة فيما يستحسن ، لأنها من حجارة صلبة ، وفى وضعها وترتيبها إتقان » .

وفى هذا كفاية لبيان القيمة العلمية لهذه المقدمة الجغرافية الطويلة للأندلس ، ولم يستطع ابن سعيد أن يأتى بمثـــل هذه المعلومات فى تقديمه لما تحدث عنه من غير الأندلس من البلاد التى تناولها الكلام فى قسمى « فلك الأرب » وهما « المُغرب والمُشرق » وهو أمر طبيعى ، فإن الأندلس بلده وهو به أعرف ، وفضله ظاهر فى استطاعته جمع حشد عظيم من المعلومات الجيدة وسياقتها فى أسلوب سهل بسيط لا يخالطه حديث عجائب أو حكايات أساطير إلا فى النادر . وهو يسمو بهذه المقدمة إلى مستوى أعاظم الجغرافيين الأندلسيين من أمثال الرازى والعذرى والبكرى ويواصل تقاليد هذا العلم التى جرى عليها أقطابه فى

(١) المتكلم هنا هو المقرى صاحب النفح .

ذلك الصقع . بل هو يمتاز بتصور أوضح يدل على ملكة علمية أصيلة قادرة على تميز الخصائص وتبين الحقائق وربط الأمور بعضها ببعض وسياقة المعلومات الكثيرة فى نطاق موجز دون إخلال .

ومن كلام ابن سعيد فى هذه المقدمة ثم من تقسيماته للأندلس بعد ذلك نستدل على أنه رسم لنفسه مخططاً للأندلس ليَجرى فى الكلام بمقتضاه ، ولسنا نقول ذلك استنتاجاً ، ولكنه حقيقة ، قال المقرى فى كلامه عن الكتاب : « وصوَّر — رحمه الله تعالى — أجزاء الأندلس فى كتاب وشى الطرس » ولكن يبدو أن خريطته كانت توضيحية لا جغرافية صرفة ، والخريطة التوضيحية هى رسم يعمل لمجرد توضيح الكلام لا لتصوير الهيئة الجغرافية لاقليم ما كهذه الرسوم التى أُثِرت عن الخوارزمى مثلا ، وكخرائط كتاب ابن حوقل ، فهى رسوم للتوضيح فى ذهن القارئ ، وهى تقابل ما يقال مثلا من أن هيأة الأرض على شكل طائر رأسه فى العراق وذيله فى الأندلس ، أو أن ايرانشهر (هضبة إيران وما يليها شرقاً) وجزيرة العرب فى هيأة الطيلسان ، وما إلى ذلك من التشبيهات التى نجد الكثير من نماذجها عند المسعودى فى « مروج الذهب » ودليلنا على أن خريطة ابن سعيد كانت رسماً توضيحياً قولُ المقرى بعد ذلك : « وقال أيضاً (أى ابن سعيد) إن كلا من شرق الأندلس وغربها ووسطها يقرب فى قدر المساحة بعضه من بعض ، وليس فيها جزء يجاوز طوله عشرة أيام ، ليصدق التثليث فى القسمة ، وهذا دون ما بأيدى النصارى[1] » فهذا كلام رجل قسم الأندلس إلى ثلاثة أقسام متساوية ليسهل عليه الكلام ، وهو تقسيم سبقه إليه ابن بسام فى الذخيرة ، وجعل ابن سعيد طول كل قسم عشرة أيام ، أى ٤٠٠ كيلومتراً على وجه التقريب . وإذا كان ابن سعيد قد أصاب فى قياس عرض الأندلس هنا من البحر الأبيض إلى المحيط الأطلسى

---

(١) المقرى ، نفح الطيب ، ١/٢١٠

فجعله ١٢٠٠ كيلومتراً ، وهو قريب من الصواب ، فإنه لم يكن موفقاً فى هذا التقسيم الهندسى ، فإن البلاد لا تقسم جغرافياً على هذه الصورة المفتعلة ، وإنما تقسم إلى مناطق طبيعية أو أقاليم ذات خصائص متميزة أو أقسام إدارية لها حقيقة فى الواقع ، ولكن عذره أن التقسيم هنا نظرى صرف لمجرد التقريب .

ونختم كلامنا عن تلك المقدمة الجغرافية بعبارة للمقرى تبين لنا أقسام كتاب المغرب الخاصة بالأندلس وصقلية والأرض الكبيرة (ما يلى الأندلس شمال جبال البرت من بلاد غرب أوروبا) ، ومن أسف أنه لم يأتنا بتقسيم المُغرب كله . قال :

وقسّمه إلى أقسام منها :

« وشى الطُّرُس فى حلى جزيرة الأندلس » وهو ينقسم إلى أربعة كتب :

الكتاب الأول كتاب : حَلْى العرس فى حُلى غرب الأندلس

« الثانى « : الشفاه اللُّعس ، فى حُلى موسطة الأندلس

« الثالث « : الأُنس فى حلى شرق الأندلس

« الرابع « : لحظات المريب ، فى ذكر ما حماه من الاندلس عُبّاد الصليب .

والقسم الثانى كتاب : الألحان المسليـة فى حُلى جزيرة صقلية ، وهو أيضاً ذو أنواع (أى يقع فى كتب) .

والقسم الثالث كتاب : الغاية الأخيرة ، فى حلى الأرض الكبيرة ، وهو أيضاً ذو أقسام » .

وإذن فقد كانت هناك أجزاء كبيرة من هذا الكتاب عن صقلية وغربى أوروبا ؛ أجزاء يسميها هو كتباً ولا ننتظر أن تكون مساوية فى القيمة لهذا القسم الأندلسى الذى عرضنا أطرافاً منه ، ولكنه كان يضم على أى حال مادة علمية جديدة عن هذه الأقسام من الدنيا . وإنه لما هو جدير بالملاحظة أن الملكة الجغرافية العربية كانت أوسع أفقاً وأبعد طموحاً مما كانت عليه الملكة

التاريخية أو الأدبية مثلا . فقد رأينا كم من الجغرافيين العرب وصفوا أوروبا أو بعض أجزائها فى حين يندر أن نجد مؤرخاً عربياً طمح إلى أن يؤرخ لممالك تلك القارة أو بعضها ، وإذا استثنينا ابن خلدون وابن الخطيب فإننا ينبغى أن ننتظر إلى عصر الموسوعيين : عصر القلقشندى والعمرى ومن إليهم حتى نقرأ شيئاً عما وراء حدود مملكة الإسلام يعود بنا إلى آفاق العلم العربى الواسعة فى العصر الذهبى الأول ، أيام كان رجل كمحمد بن جرير الطبرى يكتب فى أستاذية تدعو إلى الإعجاب الحق تاريخاً لفارس قبل الإسلام يعتمده الناس إلى يومنا هذا فيما يكتبون عن الشرق القديم ، ويعتبره نولدكه وفستنفلد من أعظم الأعمال التاريخية على إطلاق ، ونولدكه كان رجلا يزن ما يقول بكل ميسور من موازين العلم ، وكذلك كان فردينان فستنفلد ، وفى صفحات كتابه الذى لا تبلى جدته عن المؤرخين العرب من مصاديق ذلك الشىء الكثير .

كتاب بسط الأرض فى الطول والعرض

لاحظنا فى كلامنا عن الأجزاء الجغرافية من « فلك الأرب » أن عليًّا ابن سعيد تأثر بالإدريسى تأثراً بعيداً ، وافترضنا أن يكون قد اطلع على نزهة المشتاق أثناء إقامته الطويلة فى تونس ، وقلنا إن هذه أول مرة نجد فيها كتاب الإدريسى يدخل فى الاستعمال فى محيط العلم العربى ، وكان عمادنا فى ذلك كله على ما ورد من الاشارات فيما نقله المقرى من كلام ابن سعيد عن الأندلس .

ولكن البرهان الأكبر على اعتماد ابن سعيد على الشريف الإدريسى فى مادته الجغرافية هو كتابه المسمى ببسط الأرض فى الطول والعرض الذى يسمى أيضاً بكتاب « جغرافيا فى الأقاليم السبعة » .

وهذا الكتاب مشكلة حقيقية من مشاكل تاريخ العلم الجغرافى عند العرب ، لا بسبب اختلاف اسمه بين مخطوطة وأخرى أو بسبب المفارقات الجسيمة بين

نصوص هذه المخطوطات ، بل فى نسبة الكتاب إلى على بن سعيد إطلاقاً : فإن العارف بابن سعيد وأسلوبه الأدبى وطريقته فى التفكير يشعر لأول ما يقرأ شيئاً من « بسط الأرض » أنه لا يمكن أن يكون لهذا الأديب المتأنق المولع بالزينة اللفظية والسجع الأنيق على أسلوب أهل عصره ، فنحن هنا أمام كتاب علمى خالص لا يحرص صاحبه إلا على إبراز الحقيقة العلمية ولو أدى الأمر إلى ركاكة الأسلوب أو عاميته ، كقوله فى الكلام عن نيل مقدشو والمراد به النيل الأزرق : « . . . وهو معوجاً ومستقياً (كذا فى النص المطبوع) ويخرج منه من الأنهار ما تصير به تلك الجهة كالديار المصرية فى السكر والموز وكالهند فى المقل والنارجيل والقوقل ، فبه يسقى ذلك وغيره ، وهم يزرعون عليه وعلى المطر ، ويصب بالقرب من مقدشو فى شرقيها ، ويكون طوله نحو ٢٠٠٠ ميل[1] » وأمثال ذلك كثير فى الكتاب ، والفرق عظيم جداً بين هذا الأسلوب وأسلوب ابن سعيد فى المغرب أو فى مقدمته أو أسلوبه فى « رايات المبرزين » أو « الغصون اليانعة » وما إلى ذلك من كتبه الأخرى .

ثم ما الذى جعل ابن سعيد يؤلف هذا الكتاب الجغرافى الصرف الذى لا يصدر إلا عن منقطع لهذا الفن ؟ حقيقة أن معظم من مررنا بهم من الجغرافيين كانت لهم مجالات علمية أخرى ، وكان اشتغالهم بالجغرافية ارضاء لتطلع نبيل إلى المعرفة وتحقيقاً لرغبة كريمة فى الإضافة إلى تراث البشر العلمى ولكننا نجد فى حياتهم ونشاطهم ما يفسر لنا انصرافهم إلى الجغرافية والتأليف فيها . ونلاحظ فى معظم الأحيان أن دافعهم إلى ذلك الانصراف كان الرغبة فى استكمال علمهم الرئيسى من تاريخ أو أدب أو فقه وما إلى ذلك ، فالرازى مؤرخ كتب فى جغرافية الأندلس مدخلا لتاريخه على مذهبهم ، والعذرى كان فقيهاً محدثاً ولكن وجوده فى المرية ووفرة المعلومات الجغرافية من حوله

---

(١) كتاب بسط الأرض فى الطول والعرض بتحقيق خوان بيرنيت خينس Juan Vernet Jinés ، نشره معهد مولاى الحسن بتطوان المغرب سنة ١٩٥٨ ص ١٤

نبَّه ملكته العلمية إلى هذا الفن ، فطلب ما وجد من الأصول والمراجع ، وأعانه الحظ فوجد بين يديه شيئاً من سجلات الخلافة القرطبية فنقل منها ما تيسر ، ثم إنه كان ذا ميل إلى التاريخ والتأليف فيه ، وكان من العسير الفصل بين الجغرافية والتاريخ فى تلك العصور ؛ والبكرى أخذ هذا النزوع إلى الجغرافية عن شيخه العذرى وعن ولعه بتحقيق الشعر القديم وما فيه من أسماء المواضع ، وهكذا الحال مع كل من اشتغل بالجغرافية ممن أحصيناه فى هذا التأليف . ولو أن مساهمة ابن سعيد فى الجغرافية اقتصرت على كلامه عن الأندلس لما كان فى الأمر إشكال ، فهذه مقدمة جغرافية لكتاب فى أدب الأندلس وتاريخه ، ولكننا أمام كتاب جغرافى صرف لا يشبه فى شيء تواليف ابن سعيد الأخرى ، ولا نجد لهذا الكتاب فاتحة طويلة أو قصيرة تفسر لنا السبب فى تأليفه إياه ، فلعل أحداً من الناس طلب إليه أن يعمله ، ولا نجد كذلك عند أحد من مؤلفينا أى إشارة تنير لنا هذا الموضوع ، حتى أبو الفدا ، عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر ، وهو أكبر من انتفع به — ونقده فى نفس الوقت — من القدماء ، لم يشر إلى شيء من ذلك .

أمام هذا الغموض يبدو لنا أنه ليس من المستبعد أن يكون اهتمام علىّ ابن سعيد بالتأليف فى الجغرافية على هذا النحو أثراً من آثار صداقته لأبى الفضل أحمد بن يوسف التيفاشى الذى يمكن أن يوصف بأنه كان طليعة الموسوعيين العرب على الطريقة المنهجية التى ستتجلى فى صور أوضح عند أبى فضل الله العمرى والقلقشندى والنويرى .

ومع أن معلوماتنا عن التيفاشي قليلة جداً إلا أننا نستطيع القول بأنه كان طليعة مدرسة الموسوعيين المنهجيين الذين ذكرناهم ، فقد عاش ودرس وكتب الكتب فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى وتوفى سنة ٦٥١/١٢٥٣[1] ،

(١) انظر : بروكلمان ، ١/٦٥٢ وملحق ١/٩٠٤

فهو سابق على النويرى أقدم الموسوعيين الكبار بنحو قرن من الزمان ، فقد توفى النويرى سنة ٧٣٢/١٣٣٢ ، وسابق على العمرى (توفى ٧٤٨/١٣٤٨) بمثل هذه المدة تقريباً ومتقدم عن القلقشندى (توفى ٨٢١/١٤١٨) بقرابة القرن والنصف ، وقد كان التيفاشى مثلهم رجل كتابة ودواوين ، وهذا كان حافزه إلى تصنيف كتاب شامل يكون أشبه بالموسوعة التى يرجع إليها رجال الدولة وكتابها من الناحية الديوانية أولا ثم الثقافية العامة ثانياً ، وقد تبينا الآن أن كل ما ينسب إليه من المؤلفات الصغيرة الحجم مثل « أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار» الذى يعرف أيضاً باسم « منافع الأحجار » و « مطالع البدور فى منازل السرور » (وموضوعه المعادن) و « نزهة الألباب فيما لا يُجاد فى كتاب » (وموضوعه الأدب) كل هذه وغيرها مما تصح نسبته إليه إنما هى فصول من موسوعة عامة شاملة عنوانها « فصل الخطاب فى مدارك الحواس الخمس لأولى الألباب » ، وقد عرفنا ذلك من دراسة ملخص هذه الموسوعة الذى عمله محمد بن مكرّم بن منظور المصرى (صاحب لسان العرب) فى كتاب سماه « بسرور النفس بمدارك الحواس الخمس » تحتفظ دار الكتب المصرية بنسخة منه .

وقد كان التيفاشى صديقاً حمياً لعلىّ بن سعيد، فقد كان هذا ينزل عليه إذا وفد على تونس ، وكان حريصاً على مدحه والاشادة بفضله فى تآليفه ، فقال عنه مثلا فى « الرايات » (ص ١٠٩ من طبعة غرسية غومس) : المولى الفاضل العالم الحسيب شرف الدين أبو الفضل أحمد بن الرئيس الحسين القاضى أبى يعقوب يوسف بن أحمد التيفاشى ، من بيت علم شهير وشرف يجل عن الوصف . كان أحمد كاتب الملك ، فقصد المعتز بن الزند[1] . وذكر العماد فى

---

(١) كذا فى الأصل المطبوع ، وصحتها المعتز ابن الرند ، وكان بنو الرند كما ذكر ابن خلدون فى تاريخه لمن انفرد بأمر مدينة قفصة (٦/١٦٦) أصحاب دولة صغيرة قصيرة العمر فى قفصة ، وكنية المعتز هذا أبو عمر وهو ابن عبد الله بن محمد بن الرند مؤسس امارة بنى الرند ، وقد بدأت إمارة أبى عمر المعتز هذا فى سنة ٤٦٥/١٠٧٢م ومن المرجح أن يكون قد حكم إلى سنة ٥٠٠/١١٠٦ تقريباً ، والمقصود فى هذه الفقرة هو أحمد التيفاشى جد شرف الدين أبى الفضل أحمد التيفاشى الذى نتحدث عنه .

« الخريدة » ابنيه يحيى ومحمداً ، وأخبرنا أن محمداً لما أنشد عبد المؤمن بداية قصيدة مدحه بها وهى :

ما هز عطفيه بين البيض والأسل مثــل الخليفة عبد المؤمن بن على

أشار له بأن يقتصر على هذا البيت وأمر له بألف دينار » . ويحيى ومحمد هذان لابد أنهما كانا عمَّى أبى الفضل التيفاشى وقد قتل واحد منهما فى صقلية هو يحيى كما ذكرنا فى حديثنا عن الإدريسى . والشاهد من كلام على بن سعيد أن بيت التيفاشى كانوا — كبيت بنى سعيد — أهل علم وأدب وفضل ورياسة وصلات بعيدة بالبيوت الحاكمة ، وربما كان هذا هو الذى جعل علياً بن سعيد ينزل على صاحبه أبى الفضل أحمد التيفاشى ويصطفيه من دون ابن عمه أبى عبد الله محمد بن أبى الحسين الذى كان من أهل الدولة والصدارة فى بلاط الحفصيين (توفى سنة ٦٧١/١٢٧٢ — ١٢٧٣) ، وكان هذا أولى باستضافة علىّ بن سعيد وتقديمه والرفع من شأنه ، ولكنه كما يبدو من كلام ابن سعيد نفسه خشى منافسته وخشى أن يظهر عليه ، مما عجل برحيله عن تونس عندما وفد عليها أول مرة[1] .

المهم لدينا أن صحبة ابن سعيد لأبى الفضل التيفاشى تنير لنا هذه المشكلة بعض الشىء وتكشف الستار — إلى حد ما — عن الدافع الذى جعله ينصرف إلى الجغرافية برهة من الزمان يكتب فيها هذه الرسالة العلمية الجغرافية الخالصة ، فقد وجد ابن سعيد نفسه مع رجل موسوعى يجمع المعلومات من كل حدب

---

(١) هذا واضح من كلام ابن سعيد عن ابن عمه هذا كما رواه المقرى فى النفح (٣/٤٤ وما بعدها) أما تعظيمه إياه فى المادة التى اختصه بها فى الرايات (رقم ٨٨ ص ٦٤) فمرجعه إلى الكياسة وبعد النظر ، فقد كتب ابن سعيد هذا الكتاب وهو بمصر وأمله معلق بالعودة إلى تونس فكان حرياً بأن يؤمن طريق العودة ، ومع ذلك فقد ختم عبارات مديحه له بقوله : « يقر له بالفضل من لا يوده ، ويقضى له بالسعد من لا يرده » . (قرأها غرسية غومس : من لا ينجم ، والصواب ما أثبتناه وهو تعبير مشهور) وهذه العبارة فيها ما يشتم منه عدم ارتياح ابن سعيد إلى ابن عمه هذا فى أعماق قلبه .

وصوب. ويكتب فصلا عن المعادن وآخر عن الأحجار الكريمة وثالثاً عن الصحة ورابعاً عن الأدب، ولما كان هو — أى ابن سعيد — رحالة ذا نظر فى أحوال الأرض وما عليها مُغرىً بالسياحة وجوب الآفاق وركوب السبل، فقد كان بطبعه ميالا إلى جمع المعلومات عن البلاد والعباد كما يقولون، ثم أتيحت له فرصة العثور على نسخة من كتاب نزهة المشتاق فى تونس فاستهوته وأكب على دراستها. وهذا ليس مجرد فرض بل هو حقيقة يؤكدها كتاب « بسط الأرض » وما سيكتبه ابن سعيد بعد ذلك عن جغرافية الأندلس وهو فى المشرق، ولا يبعد أن يكون أول ما قصد إليه اختصارَ « نزهة المشتاق » فى رسالة صغيرة كهذه التى كان يؤلفها صاحبه التيفاشى عن الأحجار أو المعادن أو الطب، ثم وصلت إلى يده مراجع أخرى زادته تطلعاً إلى هذا العمل، فلم يلبث أن عكف عليه فكانت النتيجة هذا الكتاب المسمى « بسط الأرض فى الطول والعرض ».

وهذا الكلام لا يحل المشكلة حلا نستطيع الاطمئنان إليه تماماً، فلا زالت نسبة هذا الكتاب إلى على بن سعيد قلقة تحتاج إلى ما يثبتها ويؤكدها، لأن النص نفسه بعيد عن أن يكون لابن سعيد كما نعرفه من طريقة تفكيره وأسلوبه فى التأليف.

فإذا تركنا موضوع هذه النسبة جانباً وتركناها على ما يجمع الناس عليه من أن الكتاب لابن سعيد وجدنا أنفسنا أمام كتاب يعتبر من أحسن ما ألف العرب فى الجغرافية، ومن حسن الحظ أن عالماً إسبانياً راسخ القدم فى تاريخ العلوم عند العرب وهو الدكتور خوان بيرنيت خينس الأستاذ بجامعة برشلونة قد عنى بتحقيقه ونشره، وتولى معهد مولاى الحسن فى تطوان طبعه فى سنة ١٩٥٨، وعلى هذه الطبعة التى لا تضم إلا النص[١] نعتمد فى دراستنا تلك وأملنا أن

(١) نشر الأستاذ خوان بيرنيت النص وحده دون أى تعليق أو بحث أو دراسة، وقال فى مقدمته أنه سيصدر جزء ثانياً يتضمن الدراسة والتعليق وترجمة إسبانية مع الفهارس.

يصدر الأستاذ خوان بيرنيت مجلده الثانى الذى وعد به فى المقدمة حاويا للدراسة والتعليقات والفهارس .

الكتاب يمكن وصفه بأنه جدول بالمدن والجبال والأنهار والبحار وغيرها من الأعلام الجغرافية موقّعة على أطوالها وعروضها فى دقة لم يحاولها أحد من الجغرافيين قبل ابن سعيد ، والأطوال مقدّرة بالنسبة لخط طول فرضى رئيسى يمر بالجزائر الخالدات ، أما العروض فمقدرة بالنسبة لخط الاستواء . وهو يقسم المعمور من الأرض إلى أقاليم كالاحزمة العريضة تحيط بكرتها ، وعددها عنده تسعة : واحد جنوبى خط الاستواء وسبعة مسكونة شماله يليها إقليم ثامن شمال خط الاستواء لا يسكن لشدة برده ، ثم يقسم كلا من هذه الأقاليم إلى عشرة أجزاء بادئا من جزائر الخالدات ومنتهيا إلى جزائر اليابان التى يسميها جزائر السِّيلى . وهذا المعمور يحتل عنده ١٨٠ درجة طولية أى نصف محيط الأرض ، والباقى عنده محيط واسع يمتد من جزائر الخالدات إلى ساحل الصين .

وإليك كلامه بنصه فهو أكثر دلالة على طبيعة الكتاب من هذا التفسير :

« الأرض كرية محيط بها الماء ، هما [1] [واقفان بالمركز فى قلب الافلاك] [2] ودَوْرُها ٣٦٠ درجة ، وكل درجة ونصف ١٠٠ [3] ميل ، والميل ٤٠٠٠ [4] ذراع .

---

(١) أى الأرض والماء الذى يحيط بها . والتصور هنا أن الأرض وما يحيط بها من الماء كالمح وما يحيط به من زلال البيض أو كأنها كرة فى طبق ماء ، وهما معاً سابحان فى الفضاء فى مركز الفلك ، وهذه هى نظرية من قالوا بكرية الأرض من جغرافيي العرب من ابن رستة إلى الادريسى كما بيناه فيما سبق .

(٢) اعتمد الناشر مخطوطة باريس أساساً ، وأكملها وقارنها بالقطعتين المحفوظتين بالمتحف البريطانى والمكتبة البودلية فى أوكسفورد . والأقواس تعين الفقرات المضافة من القطعتين الأخيرتين .

(٣) الدرجة الطولية على هذا الأساس ٦٦ ⅔ ميلا . وغير ابن سعيد يرى أن اتساع الدرجة ٧٥ ميلا .

(٤) تقدير الميل هنا بأربعة آلاف ذراع يفهم منه أن ابن سعيد يقدر الميل بنحو ٢ كيلومتر ، وهو طوله فى المتوسط .

انظر : Walther Hinz, *Islamische Masse und Gewichte* (Leiden, 1955), s. 63.

« والمعمور منها طوله من الجزائر الخالدات التى بالبحر المحيط بالمغرب إلى جزائر السيلى [التى] فى البحر المحيط بالمشرق ١٨٠ درجة .

« والظاهر منها مضرّس لاستقرار البحار وسلوك الأنهار .

« وعرض المعمور من أقصاه فى الجنوب إلى أقصاه فى الشمال ٨٠ درجة . [وما بعد ذلك فى الجنوب لا يُسكن لقوة حر الشمس فى الحضيض الذى لها هناك ، وما بعده فى الشمال لا يسكن لقوة البرد والجمد] .

« ومجموع المعمور مقسوم على تسعة أقسام : المعمور خلف خط الاستواء إلى الجنوب [واحد] (١) ، والسبعة الأقاليم على التدريج من الخط (٢) . ثم يكون القسم التاسع المعمور ما بعدها إلى أقصى العمارة ، وفى التعليل تطويل] » .

ثم يلى ذلك الكلام بالتفصيل عن الأقاليم واحداً واحداً بادئاً بالإقليم المعمور خلف خط الاستواء ، وهو يقسمه — وكلا من الاقاليم التالية — إلى عشرة أجزاء تبدأ من خط الطول الوهمى المار بجزر الخالدات وتنتهى عند المحيط الأعظم شرقى بلاد الصين .

وهذا التصور وذلك التقسيم هما تصور الإدريسى وتقسيمه ، وحدود الأقاليم وأجزاؤها عندهما متطابقة ، ومن هنا جاء القطع بأن ابن سعيد اعتمد على الإدريسى اعتماداً رئيسياً ، ولكنه خالفه بعد ذلك فى كثير ، فهو لم يختصر « نزهة المشتاق » كما كان يظن ، بل أخذ هيكله العام ومنهجه فى التقسيم ومفهومه للجغرافية ولهيئة الأرض ووضعِها بالنسبة لنظام الأفلاك ، ثم أنشأ كتابه المختصر على أساس ذلك كله ، فنقل عن الإدريسى كثيراً جداً ولكنه نقل من غيره كثيراً جداً أيضاً ، وهذه النقول التى أضافها من غير الإدريسى تزيد

---

(١) هذا اللفظ ساقط من الأصول جميعاً ، ولكن المعنى لا يفهم بدونه .

(٢) المراد خط الاستواء .

فى قيمة كتاب « بسط الأرض » كمصدر فريد لمعلومات ذات قيمة كـبرى — وخاصة فيما يتصل بافريقية — لأننا لم نعثر إلى الآن على بعض المراجع الهامة التى نقل عنها .

وقبل أن نعرض لهذه المراجع نستوفى الكلام عن نظام التقسيم إلى أقاليم عرضية وأجزائها ، ثم تقسيم هذه الأقاليم إلى درجات عرضية ، وتقسيم تلك الأجزاء إلى أطوال تحدد بالدرجات الطولية والدقائق .

هذا التقسيم كله يرجع — فيما يبدو لنا — إلى التضمين المختصر الذى عمله الخوارزمى لجغرافية بطلميوس مع تعديل مادته وتوسيعها فيما يتصل بالبلاد الإسلامية وهو االمعروف باسم « كتاب صورة الأرض » الذى سبق أن تكلمنا عنه . ويكاد أن يكون من المحقق أن ابن سعيد نظر وهو يكتب بعض أقسام « بسط الأرض » إلى الخرائط التى رسمها الخوارزمى ثم أورد فى كتابه قوائم بالاعلام الجغرافية الواردة فى هذه الخرائط ، وقد بقيت لنا من هذه الخرائط أربع فقط ، واحدة ذائعة الصيت لنهر النيل ، وهى من مفاخر علم الخرائط العربية ، لأن النيل يبدو فيها قريباً إلى حد بعيد من رسمه على أيامنا ، فإذا قرأنا وصف ابن سعيد لمنابع النيل ومجارى هذه المنابع ونظرنا فى نفس الوقت إلى خريطة الخوارزمى انتفى لدينا أى شك فى أننا نقرأ وصفاً لهذه الخريطة ، فنقط الخلاف يسيرة يمكن ردها إلى خلاف فى نقـل النساخ المختلفين للخريطة نفسها ، وهذه الخريطة واردة ضمن ما ألحقناه بهذا البحث من رسوم وخرائط ، وإليك نص ابن سعيد لتقوم بالمطابقة ، ولتلاحظ أن التوافق يشمل أيضاً تحديد خطوط العرض وقد احتفظت بها الخريطة الخوارزمية .

الجزء الثالث [من الإقليم الأول المعمور خلف خط الاستواء إلى الجنوب] .

من أوله حيث الطول ٣٦ درجة [ودقائق إلى طول ٣٩ درجة] و ٢٠

دقيقة[١] والعرض ١٦ درجة[٢] ينابيع[٣] أنهار النيل [الأربعة][٤] التي هي بعد الجزء الخامس[٥] المتقدم الذكر [في آخر الجزء الثاني] ، وهي نابعة في بسيط .

والخمسة[٦] الأخر ينابيعها أيضاً في الجزء الثالث ، إلا أنها من[٧] جبل القمر حيث الطول ٤٨ [درجة] إلى ٥٢ درجة و ٥ دقائق ، والعرض في [هذه] الينابيع [العشر لا يفارق] ١٦ درجة .

فالخمسة الأنهار الأولى تصب في البطيحة[٨] الغربية [الأولى ومركزها][٩] حيث الطول ٤٢ درجة والعرض ٧ درجة والقطر ٥ درجات .

---

(١) درجات الطول ودقائقها هنا محسوبة بالنسبة لخط الطول الوهمي المار بجزائر السعادات اتباعاً ببطلميوس ، ويقول ياقوت (معجم البلدان ٣٩/١) انهـا تقع على ٢٠٠ فرسخ من شاطىء المغرب والفرسخ ٣ أميال والميل ٢ ك. م. وإذن فبعد هذه الجزائر عن شاطىء افريقية ١٢٠٠ ك. م. فإذا كان عرض الدرجة ٧٥ ميلا أي ١٥٠ ك. م. كان بعد هذه الجزائر عن الشاطىء ٨ درجات ، ولكن ابن سعيد يقول في ص ٤٥ ان عرض الجزء الأول من الاقليم الأول ١٠ درجات ، وهذا على حسابه هو بعد هذه الجزائر عن الشاطىء بالدرجات ، ومن هنا نستنتج أن تقديرهم لبعد هذه الجزائر غير دقيق ، وقد سبق أن افترضنا أن المراد بهذه الجزائر (الخالدات) جزائر الأزورس ، وأن جزائر الكناريا هي المسماة بالسعادات ، ودليل ذلك أن ابن سعيد يقول في كلامه عن الجزء الأول من الاقليم الثاني : (ص ٤٥) : الجزء الأول من الاقليم الثاني : تقع فيه الجزيرة السادسة من الجزائر الخالدات وأربع من جزائر السعادات . وينتهي صعود البحر المحيط فيه مشرقاً حيث الطول ١٠ درجات ... » .

(٢) الدرجة كما يقول ياقوت ٦٠ دقيقة ، فإذا كان عرض الدرجة ٧٥ ميلا ، كان عرض الدقيقة ١,٢٥ ميلا أي ٢,٥ ك. م. والدرجات المقصودة هنا عرضية واتساعها هو نفس اتساع الدرجات الطولية (٧٥ ميلا عربياً أي ١٥٠ ك. م.) واتساع هذا الاقليم عندهم ١٦ درجة أي ٢٤٠٠ ك. م. وهو أعرض الأقاليم ، أما الأقاليم شمال خط الاستواء فتضيق شيئاً فشيئاً إذا اتجهنا شمـالا ، فعرض الاقليم الأول نحو ٤٠٠ ميل وعرض السابع نحو ١٥٠ ميل . انظر بيان ذلك عند ياقوت ٢٧/١ وما يليها .

(٣) يريد منابع الأنهار الصغيرة التي يتكون منها نهر النيل .

(٤) هكذا ، وهو يقول بعد ذلك أن عدد النهيرات التي تصب في كل بطيحة خمسة ، وفي نهاية الفقرة يقول أن النهيرين الثاني والثالث عن كل من المجموعتين يصيران نهراً واحداً ، فكأن القول بأنها أربعة صواب وكذلك القول بأنها خمسة ، وفي خريطة الخوارزمي عددها أربعة .

(٥) لا أدري ما المراد بالجزء الخامس هنا ، فلم يسبق له ذكر .

(٦) هنا يعود فيقول إن عدد النهيرات ٥

(٧) يريد : إلا أنها تنبع من جبال القمر .

(٨) المراد بالبطيحة هنا البحيرة .

(٩) أي أن مركزها يقع عند التقاء خط طول ٤٢ بخط عرض ٧

« والبطيحة الشرقية [الثانية] بينها وبين الأولى درجتان ، و[المركز فى] العرض واحد ، وكذلك القطر » .

« ويخرج من كل بطيحة كما يدخل إليها خمسة أنهار من الجانب الشمالى ، [إلا أن الثانى والثالث من البطيحتين يصيران نهراً واحداً عن قريب ، ويصب الجميع فى البطيحة الكبرى التى تركز فى الاقليم الأول] » .

« [وفى هذا الجزء الثالث من إقليم] السودان[1] رفلة [وهى بين النهرين الأولين] بينها وبين البطيحة درجة ، وكوشة على عيون تمد [آخر الأنهار] من البطيحة الثانية حيث الطول ٥٣ والعرض درجتان ، وتحتها يمر نيل مقدشو الخارج [فى شمال الخط ومجالات القمر بين البطيحتين ، ومجالات أكراو فى شمالها إلى بحيرة كوار[2]] »[3] .

ولنضف إلى ذلك أن تقديرات الطول والعرض عند ابن سعيد ومحمد بن موسى الخوارزمى تتطابق إلا فى حالات خطأ النساخ فى رسم الرموز التى استعملها هذا الأخير مكان الأرقام ، وهذا يدل بوضوح على أن علياً بن سعيد اعتمد على هذا الكتاب اعتماداً أساسياً فى تقديره لعروض البلدان والأماكن وأطوالها على النحو الدقيق الذى نجده عنده ، فإذا ذكرنا أن الخوارزمى فى كلامه عن الأقاليم لا يورد لها أوصافاً مفصلة وإنما يورد جداول بما فيها من المدن والجبال والأنهار والبحار مع طول كل منها وعرضه تبينا أن ما فعله ابن سعيد هو أنه بدأ أولا برسم خطوط الطول والعرض ودرجات كل منها ودقائقها على صحيفة كبيرة ، ثم مضى يقرأ قوائم الخوارزمى موقعاً كل مدينة أو جبل أو

---

(١) جميع الأسماء هنا غير محققة ، وقد نقلها أبو الفدا (ص ١٥١ وما بعدها) كما هى عن ابن سعيد ، ولم يستطع تحقيقها ناشراً النص .

(٢) يبدو أن المراد بهذا بحيرة الرت ، ورسمها أبو الفدا كورى .

(٣) ابن سعيد ، بسط الأرض ، ص ١٢ — ١٣

نهر أو بحيرة فى موضعها من الطول والعرض على الصحيفه ، وهكذا أصبحت أمامه خريطة هندسية للعالم .

ثم عاد فقسم الأقاليم إلى أجزائها متبعاً فى ذلك الإدريسى ، ونهج نهج هذا بعد ذلك فى الوصف المفصل لكل جزء من أجزاء الأقاليم ، فإذا وجد خلافاً بين ما يقوله الخوارزمى والإدريسى أشار إلى ذلك ، فيما عدا كلامه عن البلاد الافريقية جنوبى خط الاستواء والاقليمين الأول والثانى شماله فقد فضل ابن سعيد الاعتماد فى ذلك على الرحالة الجغرافى ابن فاطمة .

ومن ذلك قوله فى الكلام على الجزء الرابع من الاقليم المعمور خلف خط الاستواء : « فيه انتهى جبل القمر على مذهب البطليموس ، حيث الطول ٥١ درجة و ٥٠ دقيقة والعرض ١١ درجة ، وجعله البيهقى وابن فاطمة يتصل من هنالك [بال]جبل الممتد مع أول العمارة إلى جبل الندامة[1] . . . » والمراد بقول ابن سعيد : على « مذهب البطليموس » هو تضمين الخوارزمى هذا دون غيره من الصور العربية الأخرى التى عملها العرب لكتاب جغرافيا لذلك الجغرافى اليونانى المصرى الأشهر .

فلم يكن عمل علىّ بن سعيد عملا بسيطاً إذن . إنما كان عملا دقيقاً معقداً يحتاج إلى فهم وإحساس جغرافيين ، ثم إلى دقة وصبر على متاعب مثل هذا العمل ، وبغير هذا ما كان من الممكن أن يخرج لنا هذه القطعة الممتازة من العمل العلمى الجغرافى التى يُعجب الإنسان لما فيها من تحقيقات وتدقيقات ويُعجب بالملكة العلمية التى دفعت إلى القيام بها .

ولم يقتصر علىّ بن سعيد على الخوارزمى والإدريسى ، بل اطلع على كتابات عدد كبير من الجغرافيين وأفاد منها على صورة تدل على معرفة بالمكتبة الجغرافية العربية وحُسن اختيار من مادتها وانتفاع طيب بهذا المختار ، وهذه كلها

---

(١) بسط الأرض ، ص ١

خصائص تزيد من تقديرنا للجانب الجغرافى من نشاط ذلك العلامة الأندلسى المتعدد الجوانب والملكات .

وأولى مراجع ابن سعيد بالاهتمام هو كتاب رحلة ابن فاطمة الذى يعد — بدلالة ما نقل ابن سعيد عنه — من أحسن أصحاب الكتب من رحالة العرب والمسلمين ، ومن أسف أننا لا نعرف عن هذا الرجل أو كتابه شيئاً على الاطلاق حتى اسمه لا نعرفه إلا منقوصاً . ويكاد ابن سعيد وابن خلدون أن يكونا أكبر من اعتمدوا عليه ونقلوا عنه ، وحكمنا هنا قائم على هذه النقول .

ابن فاطمة فيما يبدو من أهل السودان الغربى ، وربما كان أصله مما يعرف اليوم بالسنغال أو ما يليه جنوباً ، وربما كان من أهل غانة الإسلامية ، وكانت تشمل معظم ما يعرف اليوم بجمهورية مالى على وجه التقريب ، فإن نسبة الناس إلى أسمائهم كانت شائعة فى هذه النواحى خاصة ، ولدينا أسماء مثـــل ابن الصحراوية وابن غانيَّة وابن عائشة وابن فَنُّو بنت يوسف ابن تاشفين وكلها شبيهة باسم ابن فاطمة ، ويستدل من الاشارات التاريخية الواردة فى كتابه أنه كان سابقاً على ابن سعيد بقليل أى أنه من أهل القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى فى الأغلب .

ويدل كلام ابن فاطمة على علم دقيق بأحوال افريقية وأهلها مما يلى الحزام الصحراوى جنوباً ، فهو من أهل السودان الغربى أولا ثم أنه كان رحالة لا يكل ثانياً ، وقد طاف فى رحلاته بالسواحل الافريقية كلها حتى وصل إلى الصومال والحبشة ثم أوغل داخل القارة ورأى منابع النيل ، وكلامه وملاحظاته تدل على ذلك دلالة صريحة ، ولا ينقض هذا الرأى أنه يقول إن منابع النيل تتكون من مجموعتين من الأنهار تتألف كل منها من خمسة أو أربعة تصب فى بطيحة (بحيرة) ثم تخرج من كل بطيحة خمسة أنهار أخرى أو أربعة وتتلاقى هذه النهيرات كلها فى بحيرة رئيسة تسمى بحيرة كورا ، فان الوهم فى عَدِّ مجارى المـــاء التى يتكون منها نهر النيل فى المنطقة الاستوائية هو أقل ما ينتظر من

رحالة فى تلك الأيام مهما بلغت قوة ملاحظته ، وقد نقل عنه ابن سعيد هذا القول مراجَعًا على خريطة الخوارزمى والمهم أنه تنبه إلى أن منابع النيل تتألف من مجموعتين من مجارى الماء تتلاقيان آخر الأمر فى بحيرة رئيسة يخرج النهر منها بعد ذلك ويسير فى مجرى واحد ، وهذه البحيرة على ذلك تقابل بحيرة ألبرت . وهذا المفهوم لمنابع النيل يرجع أساساً إلى بطلميوس كما قلنا ، وهو يصور معلومات المصريين القدماء عن النهر العظيم ، وهى معلومات معقولة إلى حد كبير ، اكتشفها المصرى القديم المغامر المتطلع فى عصور الشباب والمغامرة والطموح من تاريخه واثبتها الجغرافى الاسكندرانى بطلميوس ، ثم جددها الافريقى العربى ابن فاطمة الذى عاش فى عصر النهضة الافريقية الغربية الأولى وقيام مملكة غانة الأولى التى قضى عليها سون — ديانا ملك مالى سنة ١٢٤٠ [١] والطريف أن ابن سعيد لاحظ أن ابن فاطمة يكمل عمل بطلميوس فيما يتصل بافريقية فيقول فى كلامه عن الجزء الرابع من الاقليم الأول وراء خط الاستواء : « فيه انتهى جبل القُمُر [على مذهب البطلميوس] حيث الطول ٥١ درجة و ٥٠ دقيقة والعرض ١١ درجة [وجعله البيهقى وابن فاطمة يتصل من هنالك بالجبل الممتد مع أول العمارة إلى جبل الندامة ، فيرجع من الحد الذى وقف عنده بطلميوس بانحراف إلى العرض الذى بدأ منه ، ويمر ويجاوز الرابع (يريد الجزء) مستقيماً مع أول العمارة ، ثم الجزء الخامس ... [٢] » .

وقد عرف ابن سعيد قيمة نص ابن فاطمة فقبس منه فقرات طوالا هى معظم ما يذكره عن الاقليم الاول المعمور جنوب خط الاستواء والاقليم الاول شماله فى أجزائها الستة الاولى ، أى أجزائها الخاصة بافريقية ، فإذا ذكرنا أن أقدم معلوماتنا الجديرة بالثقة عن هذه النواحى ترجع إلى أبى عبيد البكرى

---

(١) Vincent Monteil, *L'Islam Noir* (Paris, 1964), pp. 58-62

(٢) ابن سعيد ، بسط الأرض ، ١٣

(القرن الخامس/الحادى عشر) ثم يكملها الإدريسى (القرن السادس/الثانى عشر) ثم ابن فاطمة (النصف الثانى من نفس القرن) برواية ابن سعيد (النصف الاول من القرن السابع/الثالث عشر) ثم ابن خلدون (القرن التاسع/الخامس عشر) تبينا أن أربعة من هؤلاء مؤرخون وجغرافيون أندلسيون أو من أصول أندلسية، وأنهم تعاونوا على اختلاف العصور التى عاشوا فيها وتباين البلاد التى كتبوا فيها على أن يقدموا سلسلة معقولة مترابطة من المعلومات الجغرافية والتاريخية عن بلاد كان مجرد دخول الغريب إليها مغامرة لا تؤمن عواقبها ، فكيف بجمع المعلومات والربط بينها وسياقها ذلك المساق اللطيف الذى نجد نماذج ممتازة منه فيما نقل ابن سعيد عن ابن فاطمة فى الأجزاء التى ذكرناها ؟

وسنكتفى هنا بمثال واحد مما نقله ابن سعيد عن ابن فاطمة فى وصف جزء من الصحراء الكبرى يذهب كتاب الغرب إلى أن رجالهم هم كانوا أول من اكتشفه وعرّف الناس به تعريفاً علمياً مقبولا ، وهو ذلك الجزء المجهول من الصحراء الكبرى الذى يمتد من جنوبى جمهورية الجزائر عند مرتفعات آهَجَّار ويتصل شرقاً بهضبة جادو ثم جبال تِبِسْتِى ويستمر فيطل على حوض النيل عند مرتفعات دار فور :

« الجزء الثانى من الاقليم الثانى : قال ابن فاطمة فى وصفه : « لا ماء ولا مرعى ولا عمارة بل رمال سائلة وطرق مضلة طامسة . وأكثر ما يكون فيه اللمط[1] لأنه صابر على العطش وهو على شبه الغزال لكنه أغلظ منه » .

« وأول ما تلقاك من هذا الجزء شجر اليسر[2] (التى تقطعها المسافرون) ما بين سجلماسة وغانة (وهى) طويلة عريضة يكابدون فيها شدة العطش ووهج

(١) اللمط نوع من الوعول سميك الجلد يعيش فى منطقة السهوب فى حوض النيجر الأوسط ، وكانت تصنع من جلده دروع تعرف بالدروع اللمطية .

(٢) كذا فى الأصل المطبوع ولم أستطع التحقق من صحته ، وربما كانت صحته : صحراء تيرى الواقعة بين مرتفعات آهجار وهضبة جادو .

الحرور بما هبت فيها ريح جنوبية تنشف المياه التى فى القرب . فهم يعدون لها المياه التى فى بطون الابل ويجعلون على أفواهها [كائم] ليلا تأكل شيئاً فإذا نشّف الريح مياههم نحروا جملا جملا وشربوا ما فى بطنه .

وليس فى هذا الجزء مدينة مذكورة غير مدينة أودَغَشت يسكنها أخلاط من (البرابر المسلمين والرياسة لصنهاجه) (ولهذه المدينة وصاحبها نباهة (كما ورد)[1] فى كتاب المسالك والممالك للبكرى . وهى مع خط الاقليم الثانى) حيث الطول ٢٢ درجة (وفى عرضها مدينة) زافون (وهى) لسودان كفار ولصاحبها صيت بين ملوك السودان[2] .

ويمتد فى هذا الصحراء جبل الكاف[3] من شرقى جبل لميونة[4] إلى أن يسامت أودغشت ثم يعرج إلى الجنوب فيبقى بينه وبين زافون ٥ مراحل وبه يهتدون فى تلك الصحارى إلا أنهم لا يقربونه فى تعريس[5] لكثرة ثعابينه وفى ظهره الشمالى[6] جبل مزاب وهو عال وعر يعتصم به أهل واركلان إذ دهمهم جور من ذى سلطان وبينهما ٤ أيام » .

ولا تقل هذه الدقة فى كلام ابن سعيد عندما يترك المناطق التى وجد عنها مادة طيبة عن ابن فاطمة فطلب مادة طيبة أخرى فى مصادر أخرى ، ويلاحظ هذا ابتداء من وصف الجزء الرابع من الاقليم الثانى (ص ٤٩ وما بعدها) . فان معتمده هنا على الإدريسى بصورة رئيسية مع إضافات من ابن حوقل فى الغالب ، ولكنه ينظر دئماً إلى خرائط كتاب الخوارزمى ويتابع تحديد الاماكن مستعيناً بها وبخرائط الإدريسى ، ولهذا يقول بين الحين والحين : « على ما

---

(١) أضفت هذه العبارة للسياق .
(٢) يراد بالسودان هنا كل ما يلى الحزام الصحراوى جنوباً .
(٣) المراد بهذا فى الغالب جبال تبستى .
(٤) هضبة جادو ؟
(٥) أى عندما يضربون خيامهم .
(٦) أى إلى شمال هذه الجبال فى جنوبى المملكة الليبية .

صُوِّرَ فى الجغرافيا » . ولا يتسع المقام لايراد أمثلة من كلامه عن مصر والشام والعراق وما يليه شرقاً فهو حافل بالنقول عن معظم من نعرف من أصحاب كتب المسالك والممالك ، ومن اليسير أن نتبين آثار هؤلاء فيما كتب .

ولكننا سنقف وقفة قصيرة عند جزء مما كتب عن الأندلس ، لأنه يتضمن مشكلة لها أمثلة كثيرة فى كتابات الكثيرين من جغرافيينا ، وهى التناقض الواضح بين ما يكتبونه عن الاقليم الواحد فى كتابين من كتبهم ، وهو أمر لوحظ عند المسعودى فى كتابيه « مروج الذهب » و « التنبيه والاشراف » ، وسبب ذلك التناقض فى المادة عن الموضوع الواحد أن الكاتب من هؤلاء كان يكتب كتاباً معتمداً على مراجع ومصادر معينة ، ثم يمضى الزمان وينسى ما كتب لقلة المراجعة ، فإذا كتب كتاباً آخر تعرض فيه لنفس الاقليم رجع إلى ما تيسر له من المراجع فى ذلك الوقت ، فأثبت أشياء أخرى ، وعذرهم فى ذلك مقبول ، فقد كان يحدث أن يكتب الواحد منهم كتاباً فى العراق وآخر فى مصر ، وأين له وهو فى هذا البلد أن يحصل على المراجع التى اعتمد عليها وهو فى العراق ؟ وعلىّ ابن سعيد مثال حى لذلك ، فإن كتابه المغرب وُلد وأينع كما رأينا فى الأندلس قرب غرناطة ، فى قلعة يحصب ، ثم كتبت أجزاء منه على طول رحلات ذلك السَّفَّار الذى لا يهدأ من تونس إلى حلب . وهنا نقطة جديرة بأن تدخل فى الحساب ونحن ندرس أولئك العلماء وأعمالهم ، فإن الكثيرين من الباحثين يدرسونهم فى إطار من ظروفنا الراهنة وما فيها من تيسيرات : إذا حاجنا كتاب لا تحويه مكتبتنا ألتمسناه فى المكتبات العامة وما أكثرها ، فإذا لم نجده طلبناه بالبريد من ناشره أو مؤلفه ، وإذا أحتجنا إلى مخطوط حصلنا على صورة منه إذا شئنا ، أما هؤلاء فما أعسر الظروف التى عملوا فيها ! فقلما احتاجوا إلى كتاب فوجدوه فى الوقت القريب ، فإذا عثروا عليه كانت نسخة أخرى غير التى أطلعوا عليها أوَّلاً وبين الاثنتين بون بعيد ، وقلما أتيحت لهم فرصة العمل فى مكتبات أو خزائن كتب فيها

ما يحتاجون من أصول ومراجع ، ورحم الله ياقوت ! ما إن رأى مكتبات مرو حتى ملأ نفسه الطرب كأنه وجد كنوز الدنيا ، وعلى ضوء هذه الكتب الكثيرة نشأت فى ذهنه فكرة تأليف معجمه العظيم ، وشرع بالفعل يعمل . كان ذلك سنة ٦١٥/١٢١٨ ، ولكن ما كاد الحول يدور حتى ترامت إليه أنباء زحف المغول على عالم الإسلام ، فأسرع ناجياً بنفسه إلى الشرق بلداً بلداً حتى دخل الموصل خالى اليد من كل ما ملك ، ثم تداركته عناية الله بالوزير ابن القفطى وزير صاحب حلب ، فأتيحت له فرصة مواصلة ما حالت الاخطار بينه وبين عمله ، فأكب على العمل حتى أتم المعجم فى عام ٦٢١/١٢٢٤ ، بعد خمسة أعوام من الشروع فيه ، وذلك رغم الأخطار والأسفار ومصائب الأيام ، ولو طُلب إلى أحدنا اليوم أن يكتب مثل هذا المعجم فى عشر سنوات ويُسِّرت له وسائل العمل أكثر مما هى ميسورة بالفعل ، فأغلب الظن أنه لن يستطيع .

نقول هذا لأننا نلاحظ اختلافاً غريباً بين مادة ابن سعيد عن بلده الأندلس فى «المُغرب» وفى «بسط الأرض» ، فنحن فى الكتاب الاول مع رجل يكتب جغرافية إقليمية وصفية كأحسن ما كتب الناس فى هذا الفرع من الجغرافية فى العصور الوسطى : معلومات غزيرة قائمة على مشاهدة حيناً وعلى اطلاع واسع حيناً ، وأحكام عامة تنبئ عن معرفة حقيقية وثيقة وملاحظات ذكية تدل على تفتح ذهن ودقة ملاحظة ، كل ذلك فى أسلوب سهل يشوق ويمتع ، أما فى «بسط الارض» فنحن أمام رجل مُقَيَّد يفضل ما يقرأ فى الكتب التى ينقل عنها على ما يعرفه بتجربته الشخصية ، وناقلٍ لا يفكر فى تحقيق ما ينقل ، فهو يبدأ فى الكلام على الاندلس فى الجزء الاول من الاقليم الخامس ، ويبدأ عند شاطئه الغربى عند مصب نهر الوادى الكبير ، وهو لا يسميه باسمه بل يقول «نهر اشبيلية وقرطبة» ، ولا نعرف لماذا بدأ عند مصب الوادى الكبير ، لانه ما دام يصف الاقاليم مقسمة إلى أجزاء بادئاً من أقصى

الغرب فكان ينبغى أن يبدأ الكلام عن الاندلس بذكر الاشبونة أو رأس كنيسة الغراب وما إليها ، ولكنه يبدأ عند مصب الوادى الكبير ثم يسير إلى الغرب فى عكس الاتجاه الذى ننتظره متابعاً الساحل الجنوبى لشبه الجزيرة فيذكر جزيرة شلطيش ثم مصب نهر يانه (واد يانه) الكبير الذى يمر على ماردة وبطليوس ٩ أميال ، ثم إلى مدينة طَبيرة Tavira ٢٣ ميلا ، وهى على غربى نهر يانه وشماليه ، ثم إلى مصب نهر شنتمرية (Faro) ثم إلى مصب نهر شلب ٢٨ ميلا ، ثم إلى جون الريحانة ١٥ ميلا ، ثم إلى طرف العيران (رأس كنيسة الغراب) ٨٠ ميلا . والمسافات كلها غير دقيقة ، وإذا كان من الممكن التسامح فى فروق الميلين والثلاثة ، فكيف لم يتنبه ابن سعيد إلى أن المسافة بين جون الريحانة وطرف كنيسة الغراب لا يمكن أن يكون ٨٠ ميلا أى ١٦٠ كيلومترا ؟ إن هذا الجون لابد أن يكون أحد الخلجان الواقعة بين ميناء بورتيماو ورأس سان بيثنتى Cabo San Vicente وهى المسمى عند العرب برأس كنيسة الغراب وهو أقصى طرف جنوبى غربى لشبه الجزيرة .

غير أن الذى يستوقف النظر هو دقة ابن سعيد فى توقيع المدن والمعالم الجغرافية بالنسبة لخطوط الطول والعرض التى سار عليها ، ولسنا نناقش هنا الاساس الذى اتخذه فى تصورها ، فإن خطوط الطول والعرض — أيا كانت — خطوط وهمية رسمها الناس لمجرد تحديد مواضع الاماكن بعضها بالنسبة لبعض ، فسواء أرسمت خطوط الطول بالنسبة لخط مار بالجزائر الخالدات أو بالخط المار بقبة أرين أو بالخط المار بجرينتش فإن العبرة الحقيقية إنما هى فى سلامة تطبيق هذا الأساس بعد ذلك ، وفى تيسيره لنا معرفة مواقع المواضع بعضها بالنسبة لبعض ، وهنا ، وفيما يتصل بالاندلس بالذات — نجد ابن سعيد قد وفق توفيقاً عظيماً فى استعمال خطوط طوله وعرضه بحيث اننا لو أخذنا ورقة ورسمنا فيها تلك الخطوط ثم وقّعنا الاماكن عليها كما حددها هو بالدرجات والدقائق ، ثم قارنا أوضاع هذه المدن بالنسبة بعضها لبعض بأوضاعها على خريطة معاصره لما وجدنا كبير

فرق إلا فى حالات قليلة ، وهذه الدقة لا تصدق مع الاسف على المسافات كما ذكرها ابن سعيد مقدّرة بالدرجات ودقائقها ، وربما كان مرد ذلك إلى أن الطرق التى كان الناس يسلكونها إذ ذاك للانتقال من مدينة لأخرى كانت تختلف عن الطرق التقليدية المعروفة فى شبه الجزيرة .

هذا التوقيع للمدن الاندلسية على خطوط طول وعرض ابتكره علىّ بن سعيد ابتكاراً ، فإن المدن التى يذكرها بطلميوس فى شبه الجزيرة قليلة جداً ، والإدريسى لم يحدد مواقع البلاد الاندلسية من الاطوال والعروض ، وإذن فلم يبق إلا أن ابن سعيد عمل ذلك الحساب بنفسه ، وأنه لما يدعو إلى الاعجاب به أنه عرف كيف يقيم التقديرات على هذا المستوى من الدقة وحسن التصور ، ومصداقاً لذلك أورِد فيما يلى البلاد والاعلام الجغرافية التى ذكرها فى الجزء الاول من الاقليم الخامس وهو يمثــل ما يقع من شبه الجزيرة بين خطي عرض ٣٧ و ٤٠ والباقى إلى الشمال ذكره فى الجزء الاول من الاقليم السادس متابعاً فى ذلك التقسيم العام للادريسى :

الموضـــع	الطـــول		العرض	
	دقيقة	درجـــة	دقيقة	درجـــة
مصب الوادى الكبير	١٥	٨	٤٥	٣٦
جزيرة شلطيش	٢٠	٧	١٢	٣٧
طرف الغيران		٦		
اشبيلية	١٠	٩	٣٠	٣٧
بطليوس		٩	٠٥	٣٨
مـــاردة		١٠ (غير دقائق)		٣٩
قرطبـــة		١٠	٣٠	٣٨
غرناطة	٤٠	١١	٣٠	٣٧
جيان	٤٠	١١		٣٩ (غير دقائق)
مرسية		١٨	دقائق	٣٩
منبع نهرى الوادى الكبير وشقورة		١٥	٤٠	٣٨

وفى أثناء هذا الكلام الموجز يورد ابن سعيد تفصيلات جغرافية وتاريخية ذات قيمة عظيمة ، وبعض هذه التفصيلات مقتبس عن الإدريسى أو ابن حوقل أو البكرى ، ولكن بعضه الآخر من معلوماته الخاصة ، وفيما يلى نماذج من هذه المعلومات :

سكان الاقليم الخامس : بياضُ أهله ممتزج بالحمرة ، وفيهم شُقْرةٌ وزُرْقَه (عيون) فى غالب الحال ، ولا سيما فيما يلى (الاقليم) السادس .

حدود الاقليم الخامس : عند آخره من خط الاستواء ٤١ درجة و ٣١ دقيقــة ، ووسعه ٥ درجات . (أى أنه يبدأ عند خط عرض ٣١' ٣٦°) .

طرف الغراب : ويدخل فى البحر من هذا الطرف ٢٢ ميلا [١] ، وهو آخر عرض الاقليم الخامس ، والطول هناك ٦ درجات .

النهر الكبير : الذى عليه اشبيلية ، وهذا النهر إنمـا حُسن جانبيه عند اشبيلية ، ويصعد المد فيه من البحر المحيط ٧٢ ميلا ، وتصعده مراكب الفرنج الكبار بوسقها إلى باب اشبيلية .

جبل شُلير وغرناطة : فى جنوبى غرناطة لا يفارقه الثلج ، وحكى ابن اليسع أنه ينزل منه نيف على ٢٠ نهراً منها نهر الذهب [٢] الذى يشق غرناطة ، ونهر شِنِّيل الذى يمر مع سورها ، وكلاهما عليه الأرحاء والبساتين ، وهذه المدينة فى عصرنا هى قاعدة ابن الأحمر مَلِكِ ما بقى من المسلمين بالأندلس .

مرسية ونهرها (شقورة) : وهى (مرسية) على شمالى نهر مليح عليه النواعر والبساتين ، أخو نهر اشبيلية (الوادى الكبير) منبعهما من جبل شقورة حيث

---

(١) الأصل المطبوع طرف العران والصواب طرف الغراب ، والمراد كنيسة الغراب وهو يقابل رأس سان بثنتى ، وتقدير ابن سعيد لطول هذا الطرف خاطىء ، وربما كانت صحتا ٨ أميال لا ٨٠ ميلا ، فإذا صدق هذا الفرض كان التقدير معقولا ، لأن ٨ أميال تساوى ١٦ ك. م. ، وطول الطرف من قرية Vila de Bispo إلى نهايته نحو ذلك .

(٢) المراد بذلك نهر حداره el Darro ويسمى بذلك لمـا كان يستخرج من مائه من برادة الذهب الخالص ، ويعرف بالذهب المدنى (الروض المعطار ، ص ٢٤)

الطول ١٥ درجة والعرض ٣٨ درجة و ٤٠ دقيقة ، يخرجان من عين واحدة ، فيشرِّقُ نهر مرسية ويصب فى بحر الزقاق ، ويغرِّب نهر اشبيلية ويصب فى البحر المحيط[(١)] .

ولا يتسع المجال هنا لايراد أمثلة أخرى من ذلك الكتاب الفريد ، فهو مطبوع متداول بين أيدى القراء اليوم ، وجدير بالذكر أن أجزاء هذا الكتاب متناسبة من حيث الدقة أو عدمها أو غزارة المادة وقلتها ، لأن عليًّا بن سعيد جمع مادة طيبة عن كل قطر تقريباً ، وكما انتفع بكتب البلدانيين والمسالكيين فيما يتصل بالمواضع والطرق والابعاد فى قلب مملكة الإسلام ، فقد انتفع بالإدريسى عن بلاد أوروبا وبالبكرى عن الشمال الافريقى وبابن فاطمة عن بقية افريقية وبالبيرونى عن الهند وإيران وبالمسعودى عن بحار الهند والصين وببطلميوس عن نواح أخرى بعيدة لم يكن لدى العرب مرجع آخر عنها مثل جزائر الخالدات وجزائر السعادات . وعرف ابن سعيد كيف يصب هذه المادة كلها على قالب واحد ، ولهذا فهذا الكتاب من الكتب الجغرافية العربية القليلة التى تتناسب أجزاؤها جميعاً ، ومن هنا فإن ذلك الكتاب يمكن أن يؤخذ كنموذج للتأليف العلمى العربى فى أحسن صوره . وقد تنبه إلى ذلك أبو الفدا ، فجعل كتاب علىّ بن سعيد أساس عمله واغترف من مادته بكلتا يديه وقرر ذلك فى عشرات المواضع على طول كتابه « تقويم البلدان » وقد وجه إليه بعض النقد على بعض هنات وجدها عنده ، ولكنه نقد يؤكد الاعتراف بالفضل ، وأنه لمن حسنات ذلك العلامة الأديب الرحالة الأندلسى أنه استطاع فى فترة من فترات الهدوء القليلة من حياته أن يسكن برهة ليهدى المكتبة العربية الجغرافية فيها أحسن رسالة مختصرة جامعة ألفها عربى فى تقويم البلدان .

---

(١) التصور هنا صحيح إلى حد كبير ، فإن الوادى الكبير ينبع من جبال كاثورلا Sierra de Cazorla ونهر شقورة من سيرا سيكا Sierra Seca المتفرعة من جبال شقورة Sierra de Segura وكلها أجزاء من سلسلة جبال واحدة . وانظر بسط الأرض ، ص ٩٩ — ١٠٠

إلى هنا نقف بالكلام على علىّ بن سعيد الجغرافى بعد أن بينا خصائصه فى القسم الجغرافى من كتابه الرئيسى « فلك الأرب المحيط بحلى لسان العرب » وفى رسالته المبدعة « بسط الأرض فى الطول والعرض » التى فرغنا من الكلام عليها ، ومن الواضح أن هذا الرجل الفذ سار بتيار التأليف الجغرافى العلمى فى الطريق الجاد متابعاً لتقليد الرازى والعذرى والبكرى والإدريسى ومن إليهم من المنهجيين الأصوليين من أهل الأندلس محافظاً على جوهر العلم الجغرافى من أن ينحدر فى الطريق السهل الفسيح الخطر الذى فتحه صاحبُه وبلديُّه الغرناطى مثله أبو حامد ، فيندر أن نقرأ عند ابن سعيد شيئاً خرافياً أو كوزموغرافياً مما أورده أبو حامد وأبو بكر الزهرى . وإذا كان « المسالك والممالك » لأبى عبيد البكرى يمثل لنا قمة ما وصل إليه أهل الأندلس من التأليف فى الجغرافية قبل الإدريسى ، فان عليا ابن سعيد يمثل قمة من القمم التى وصلها العرب فى التأليف الجغرافى بعد الإدريسى مستعينين بمنهجه منتفعين بمادته . وكتاب بسط الأرض إنما هو فى الحقيقة إبتكار . إبتكار فى التأليف الموجز المركز الغزير المادة القائم على التفكير السليم والحساب الدقيق والتصور الواضح[1] .

لقد رأينا فيما مضى كيف ابتكر أبو حامد فن التأليف الكوزموغرافى أو الكوزموجينى ، وكيف أعطانا أبو بكر الزهرى نموذجاً من كتب الجغرافية الشعبية التى كان التجار والسفار والملاحون يعتمدون عليها ، وكيف اخترع أبو بكر بن العربي أدب الرحلة في الأندلس، فوصل به ابن جبير إلى قمته وهاهو على بن سعيد يضيف إلى المكتبة العربية الجغرافية رسالة فريدة فى بابها ستكون عظيمة الأثر عند كل من سيؤلفون فى الجغرافية على المذهب الجاد بعده . وفى فقرة تالية سنرى كيف حدد أندلسى آخر هو ابن عبد المنعم الحميرى مستوى عالياً لفن المعاجم الجغرافية عند العرب .

---

(١) من المفيد هنا أن نشير إلى مقدمة الجزء الخاص بمصر (مطبوعات جامعة القاهرة ١٩٥٣) .

أبو عبد الله محمد العبدرى (١) ورحلته

وقد جرت العادة عند الكلام على الجغرافيين والرحالة من أهل الأندلس أن يؤتى بذكر أبى عبد الله محمد العبدرى صاحب «الرحلة المغربية» على اعتبار أنه بلنسى الأصل ، ولكن الأستاذ محمد الفاسى نفى هذه النسبة الأندلسية عن الرجل فى بحث له عن العبدرى وقرر أنه مغربى من أصل عربى قرشى يرجع إلى بنى عبد الدار . وذهب الأستاذ أحمد بن جدو الذى نشر هذه الرحلة أخيراً فى الجزائر إلى أن الرجل قد يكون أصل بيته من بلنسية ، ثم هاجر

(١) اسمه الكامل محمد بن محمد بن على بن أحمد بن مسعود — أو سعود — العبدرى وكنيته أبو عبد الله ، لا أبو محمد كما قال محمد بن شنب فى المادة التى أدارها عليه فى دائرة المعارف الاسلامية ، وينبغى التحرز من الخلط بينه وبين عبدريين آخرين من أهل الرحلة والعلم مثل محمد بن ابراهيم بن أحمد العبدرى الأبلى ، وهو أندلسى من أبلة Avila هاجر به أهله من الأندلس إلى تلمسان واستقروا بها ، ومحمد بن ابراهيم العبدرى هذا هو شيخ ابن خلدون ، ومثل أبى العباس العبدرى الميورقى الأندلسى مؤلف بهجة المهج فى بعض فضائل الطائف ووج » ، ولا نعلم سنة ميلاد أبى عبد الله محمد العبدرى الرحالة أو سنة وفاته ، ولكنه يقول فى فاتحة رحلته أنه بدأها فى ٢٥ ذى القعدة سنة ٦٨٨/ ١١ ديسمبر ١٢٨٩

مراجع : نشر الرحلة المغربية للعبدرى — وهى أحسن مرجع عنه — أحمد بن جدو فى الجزائر سنة ١٩٦٥ ، وقدم له بمقدمة قيمة ، وكتب عنه بحثاً قيماً الأستاذ محمد الفاسى فى صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد (مجلد ٩ — ١٠ سنة ١٩٦١ — ١٩٦٢) ص ١ — ١٤ ، ابن القاضى ، جذوة الاقتباس (طبع حجر ، فاس ١٣٠٩) ص ١٧٩ — ١٨٠ ، تاج العروس ، تحت لفظ عبدرى — بروكلمان ، دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الأولى) مادة عبدرى بقلم محمد بن شنب ، وقد ترجم شيربونو فقرات من رحلة العبدرى ونشرها فى المجلة الأسيوية :

Cherbonneau; *Notice et Extraits des Voyages d'El-Abdery;* dans Journ. AS. 5ème Série IV, 144 sqq.

وتوجد فقرات أخرى مترجمة إلى الفرنسية فى مقال :

Motylinski, *Itinéraires entre Tripoli et l'Egypte: El Alachi, Moulai Ahmad et al-Ouartilání (Extrait du Bulletin de la Société de la Géographie d'Alger)* Alger 1904, p. 4.

W. Honerbach, *Itinerar des 'Abdarī;* ZDMG, XLIV, p. 193, sqq.

Pons-Boigues, no. 261 p. 310-313.

وقد ترجم بولس قطعة كبيرة من رحلة العبدرى إلى الاسبانية ، وتاريخ الفكر الأندلسى لجنثالث بالنثيا ، ترجمتنا العربية ، فقرة ٩٩ ص ٣١٨ وكراتشكوفسكى ، الأدب الجغرافى العربى ، ص ٣٦٧ — ٣٦٨

أهله به وهو صغير إلى المغرب حيث استقروا فى الاقليم الذى ينسب إلى قبيلة حاحة المصمودية حول مدينة الصويرة الحالية المعروفة باسم موجادور أيضاً شمالى مدينة أغادير ، وهناك نشأ محمد العبدرى عربياً مغربياً يعتبَر منطقة حاحة بلدَه ومنشأه ، وهو تعليل مقبول لنسبة البلنسى التى حملها الرجل ؛ وهى نسبة نجدها فى بعض المراجع القديمة مثل كتاب المؤنس لابن أبى دينار القيروانى .

وسواء أكان الرجل أندلسياً بلنسى الأصل ثم نشأ فى المغرب أو كان عربياً مغربياً لا صلة له بالأندلس ، فإنه يعد فى المغاربة ولا مكان له والحالة هذه فى بحثنا هذا ، وإنمـا نذكره فى هذا الموضع لعرض موضوع الخلاف فى نسبه وأصله ، ولأنه منظوم فى سلك الأندلسيين عند بونس بويجس وشيربونو وبروكلمان وجنذالث بلنسية وكراتشكوفسكى ، ومن الحق أن يصحح هذا الخطأ ويوضع الرجل فى إطاره الصحيح ، وإن كان تاريخ الثقافة العربية فى الغرب الإسلامى كله لم يعرف التفرقة الحاسمة بين أندلسى ومغربى .

وما دمنا قد وقفنا بهذا الرجل هذه الوقفة القصيرة فلا بأس ببضع ملاحظات على رحلته وهى فى الصميم من ذلك التاريخ الذى نتولاه ، فقد رأينا كيف ولد أدب الرحلة فى الأندلس على يد أبى بكر بن العربى وكيف سما إلى ذروة سامقة عند ابن جبير ، ومن المفيد بعد ذلك أن نرى كيف لم يوفق من جاء بعد ابن جبير من الرحالة فى السير فى طريقه الذى حدد مستوى رفيعاً فى الأدب العالمى كله لا بالنسبة للأدب العربى فحسب (فى حدود عصره طبعاً) ، وهو طريق يبدو لنا بسيطاً ونحن نقرؤه ، ولكن قيمته وصعوبته تتجلى إذا قرأنا رحلات غيره كرحلة العبدرى هذه ، فإذا جاز أن يوصف شىء بأنه سهل ممتنع فذلك دون ريب وصف رحلة ابن جبير .

فابن جبير رجل صافى القلب صافى النظر يأخذ الجانب الطيب من الحياة والناس ، ولا تشغله عواطفه وتأثراته بما يلقى من الناس عن أن يصفح وينسى ويأخذ البشر على أنهم بشر فيهم الصالح وفيهم أيضاً غير الصالح ، ومن ثم

فهو لا يقسو فى النقد إلا إذا ضاق ذرعه بالفعل كما حدث له وهو بين يدى رجال الحدود وهو داخل إلى مصر ، أو هو يتأهب لركوب السفينة الرهيبة من عيذاب إلى جدة ، أما العبدرى فرجل غاضب ساخط ممرور لا يكاد يلقى ما يرضيه إلا فى النادر ، ورأيه فى أهل زمانه يوجزه قوله : « وقد تعطل فى هذا العصر موسم الافاضل ، وتبدد فى كل قطر نظام الفضائل ، وتفرق أهلها أيادى سبأ ، وصاروا حديثاً فى الناس مستغرباً ، فعادوا إسماً بلا مسمى ، وحرفاً مادل على معنى ، فالمحدث عنهم فى مشرق أو مغرب كالمحدث عن عنقاء مغرب ، ولو طاب الورد لحل الرى وقديماً قال أبو العلاء المعرى . . »
فهذه مبالغة فى الحملة على أهل عصره تجعل القارىء فى شك من صحة أحكامه وآرائه ، وإلا فكيف يرمى أهل زمانه بهذا العنف عن قوس واحدة ثم يقول بعد ذلك أنه يحق الحق ويلتزم الصدق ؟ ومن غريب أحكامه على المغرب كله قوله : « أو ليس من الأمر الأمَرّ الخارج عن كل قياس أن المسافر عند ما يخرج عن أنظار مدينة فاس لا يزال إلى الاسكندرية فى خوض ظلماء وخبط عشواء ، لا يأمن على ماله ولا على نفسه ، ولا يؤمل راحة فى غده إذ لم يرها فى يومه وأمسه ، يروح ويغدو ولحمه على وضم ، يظلم ويجفى فيهتضم ، تتعاطاه الأيدى الغاشمة ، وتتهاواه الأكف الظالمة ، لا منجد له ولا مغيث ، ولا ملجأ يعتصم به المسكين ، فيستنجد ويستغيث ، وأنى له بالمنجد المغيث ، ينادي وهو فى قبر المظالم يرسف : الا ناصر ينجد ؟ الا راحم يرؤف ؟ . . »
فهذا كلام لا يمكن أن يصدق لأنه يصور جزء ضخما من عالمنا العربى الإسلامى فى صورة لم يبلغ فى وصفها بهذا السوء عدو ولا غريم . والغريب بعد ذلك أننا نجده يلقى الفضلاء وأهل الخير والصلاح على كل مرحلة من مراحل الطريق ويطيل فى الكلام على ما وجد عندهم من الفضل والخير والعلم ! والحقيقة أن العبدرى كان رجلا متشائماً سيء الظن فى الدنيا والناس ، وكان من أولئك الناس الذين لا يدرون ما يريدون ، فهم دائماً فى سأم وقلق وضيق وإسراع إلى النفور

والمذمة ، فهو لا يكاد يلقى فى طريقة رجلا يوصف بالعلم إلا فى النادر ، فيقول بمناسبة تلمسان : « ما رأيت بمدينة تلمسان من ينتمى إلى العلم ولا من يتعلق منه بسبب سوى صاحبنا أبى عبد الله محمد بن عمر بن خميس » ويقول عن مدينة مِليانه « وما بقى بها من له بالعلم أدنى عناية » وعن مدينة الجزائر : « فلم يبق بها مَن هو من أهل العلم محسوب ، ولا شخصٌ إلى فن من فنون المعارف منسوب ، وقد دخلتها سائلا عن عالم يكشف كُربه أو أديب يؤنس غربة ، فكأنى أسأل عن الأبلق العقوق ، أو أحاول تحصيل بعض الأنوق » ، ثم يصل إلى بجاية فيرضى عن أهلها بعض الشىء ويصفهم بالمواظبة على الصلوات ، ثم يعود إليه سخطه ونفوره ويقول : « غير أنه اعتراه من الغِيَر ما شمل فى هذا الأوان البدوَ والحضر ، قد غاض بحر العلم الذى كان به حتى عاد وشلا ، وعفا رسمه حتى عاد طللا » ويصل إلى قسطنطينة فيقول : « ولم أر بها من ينتمى إلى طلب ، ولا من له فى فن من فنون العلم أرب سوى الشيخ أبى على حسن بن بلقاسم بن باديس » وهكذا فى كل البلاد تقريباً فيما عدا تونس ، فهذه — من دون ما رأى من بلاد الدنيا — أعجبته فأطنب فى مديحها ومديح أهلها إلى درجة تعدل سخطه على غيرها من بلاد الله .

وقد قرأت فى بحث الأستاذ محمد الفاسى عبارة نقلها عن رحلة ابن عبد السلام الناصرى تفسر لنا بعض الشىء سبب سخط العبدَرى على الناس ، قال تعليقاً على ذَمِّه لمصر وأهلها : « . . . جرياً على عادته عفا الله عنه فى ذم البلاد وأهلها ، وما كان ينظر إلا بعين السخط إليها ، فليته مدح من يستحق المدح ، وذم من يستحق الذم ، أو يتغافل عنه إلا بقصد البيان ، وما رأيناه مدح بلدة ولا سكانها إلا مدينة تونس ، ولو أمكنه أن يقول فى الحرمين هجواً لقال ، وما ذاك إلا أن الرجل بربري الأصل من سكان الجبال لم يألف الناس ولا البحث عنهم ولا الذهاب إليهم، إنما ينزل بمدرسة من جملة الطلبة، أو بفندق من جملة الغرباء، ولا يتفطن له عالم ولا ذو مروءة حتى إذا صدر عن البلد قال فيه ما شاء».

فإذا وضعنا إلى جانب ذلك بعض ما قاله عن تونس تبينا صدق ملاحظة الناصرى وسبب رضاه عن تونس وأهلها : « وما رأيت لأهلها نظيراً شرقاً وغرباً : شيما فاضلة وخلالا حميدة ومعاشرة جميلة ، وقد كان الاخلق بمن شاهد أخلاقهم أن يطنب فى وصفهم ويُطْرِى[1] على من يمنحهم الوداد وينصفهم ، إذ ذاك من بعض واجبهم وأقل مراتبهم . ولكن الزمان لا يعين على توفية الحقوق . ولا يتعمد بالفراغ إلى أهل العقوق[2]. وناهيك من بلد لا يستوحش به غريب ولا يُعدم فيه كل فاضل أريب ، يبدؤون من طرأ عليهم بالمداخلة ويخطبون منه لفضل طباعهم المواصلة ، فهو منهم بين أهل مشفق ورفيق مرفق . وقد كان بعض أخيار طلبتها وحسبائهم لازمنى مدة الإقامة بها ، وترك لأجلى مهمات أموره ، وعرفنى بفضلائها وكان لا ينفصل عنى عامة النهار . وكثيراً ما كنت أمر بمن لا يعرفنى من أهلها ، فاسأله عن الطريق إلى ناحية منها ، فيقوم من حانوته ماشياً بين يدى ، يسأل الناس عن الطريق ويدلنى ، وهذا من أغرب ما يسمع من جميل الاخلاق ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » .

وإذن فقد وجد العبدرى فى تونس ما لم يجده فى غيرها من البلاد ، وجد ناساً يحتفلون به ويؤنسونه بل يتركون أعمالهم ليقفوا على خدمته ، ويعرِّفونه بالفضلاء من أهلها ، فأنس بهم واستروح ، ولم يشعر بهذا الخمول الذى كان يملأ نفسه إذا نزل بمدرسة فى جملة الطلبة أو بفندق من جملة الغرباء ، وهذا ما كان يثير نفسه ويملؤها سخطاً . أما اطلاقه لسانه فى أهل البلد بعد رحيله عنه ، فهو نفسه يقرر ذلك فهو يقول فى مستهل رحلته « وهذه الرحلة بدأتُ بتقييدها فى تلمسان ، ولم يمكنى اظهارها هنالك ، وأظهرتها بعد خروجنا منها[3] » .

---

(١) فى الأصل المطبوع : يضرب ، وما أثبتناه أشبه بالمعنى وإن كان قلقاً (انظر الرحلة ص ٣٧).

(٢) كذا فى الأصل المطبوع ، وهو غير واضح .

(٣) الرحلة المغربية ، ص ٥

وكان ابن عبد السلام الناصرى أقرب ما يكون إلى الصواب فى الحكم على العبدرى عند ما قال : « وما ذاك إلا أن الرجــل بربرى من سكان الجبال لم يألف الناس ولا البحث عنهم والذهاب إليهم » وهى عبارة تفهم حق الفهم ويُدرك عمقها إذا فسرنا كلمة « بربرى » هنا بأنها « ريفى من سكان الجبال » فإن العبدرى كان فى حقيقته رجلا ريفياً ألف العيش فى الجو الطاق الصاحى فى الجبال بعيداً عن زحمة الناس وضجيج المدن ، ولهذا فقد كان يحس بأنه فى جوه الذى يألفه إذا خرج من المدن وضرب فى الطرق على وعورتها ، فإذا دخل مدينة عاوده الانقباض والنفور ، وزاد شعوره بذلك عمقاً اضطراره إلى المبيت فى بيوت الطلاب أو الفنادق ، مما كان يُشْعِرُه بمهانة وضياع ، فتمتلئ نفسه مرارة يصبها بعد ذلك على الورق ، وهذا التناقض هو الذى يضفى على رحلته طرافة فريدة فى بابها تتأتى من انتقاله من الاسترواح والاطمئنان خارج المدن إلى الكآبة والسخط فى داخلها ، وإذا كنا قد قلنــا أن كلام العبدرى عن المدن والناس ملئ بالمرارة والذم والسخط فاننا ينبغى أن نقرر أن كلامه عن الطبيعة ومناظر السهول والجبال والبحار وهيئات المدن كما تبدو له من بعيد كلامٌ كله اشراق وانفعال يدل على حــاسية مرهفة بكل ما هو طبيعى طلق ، وهنا — والرجل على سجيته وراحة نفسه — يتكشف لنا العبدرى عن جغرافى طبيعى لماح يدرك بالنظرة الواحدة ما لا يدركه غيره بالتأمل الطويل .

هنا موضع القيمة الجغرافية للرحلة المغربية للعبدرى ، فإن الأوصاف الدقيقة التى قدم بها لأحاديثه عن المدن ومَن وجده (أو من لم يجده بتعبير أصح) بها من أهل العلم تعتبر خير ما فى الكتاب وأعظمه قيمة ، لأن الرجل كان بطبيعته الريفية الجبلية السليمة قديراً على أن يستبين من دقائق ما تقع عينه عليه من المناظر ما لا يستبينه غيره من أهل المدن ، وهو يصف ما يرى وصفاً ساذجاً واضحاً ينقل للقارئ ما رآه بعينه وأحس به ، فى حين أن غالبية الجغرافيين فى تلك العصور كانوا ينقلون من كتب ؛ ومن أمثلة ذلك قوله فى وصف مدينة

آنسا من مدن إقليم السوس فى جنوبى القطر المغربى : « وأما بلد آنسا — جبره الله — فهو بلد منفسح منشرح فى بسيط مليح طيب التربة يغل كثيراً ، وبه ماء جارٍ كثير ونخل وبساتين ، وهو آخر بلاد السوس من أعلاه ، متصل بالجبل مشرف على بلاد السوس ، وكان فيما مضى مدينة كبيرة ، فتوالت عليها الخطوب المجتاحه ، ونزول الأقدار المتــاحة ، حتى صارت رؤيتها قذى فى المقلتين » . وقد يورد فى غضون هذا الوصف من ملاحظاته الساذجة الصادقة ما يتضمن حقائق عظيمة القيمة لا نجدها عند غيره من أهل البحث والتكلف ، ومثــال ذلك قوله فى وصف مدينة تلمسان : « ثم وصلنا إلى مدينة تلمسان فوجدناها بلداً حلت به زمانة الزمان . وأخلت به حوادث الحدثان . فلم تبق به علالة . ولا تبصَر فى أرجائه للظمئان بلالة . وقد شاهدت جمعاً من الحجاج ينيفون على الألف وردوها فوقفوا إلى ملكها ، فأعطاهم ديناراً واحداً . وأغرب من هذا ما شهدته من منصور صاحب مليكش ، وهو أن جماعة من الحجاج نحو العشرين وقفوا إليه فى محلته عند بيته ، فكلموه فى عشائهم ، فرحب بهم ، واحتفل فى السلام عليهم ، ثم أخذ ينادى يا أهل الدوار : هؤلاء ضيفان الله ، من يحمل منهم إلى بيته واحداً ؟ وجعل يكرر ذلك كما يصنع المَدَرُون أهل المدر . فلما لم يجبه أحد منهم ولى عنهم ووراءه جمع كثيف من الفرسان . وهو سلطان تلك النواحى . وتلمسان مدينة كبيرة سهلية جبلية جميلة المنظر مقسومة باثنتين بينهما سور ، ولها جامع عجيب مليح متسع ، وبها أسواق قائمة . وأهلها ذوو ليانة ، ولا بأس بأخلاقهم . وبظاهرها فى سند الجبل موضع يعرف بالعباد وهو مدفن الصالحين وأهل الخير ، وبه مزارات كثيرة ، ومن أعظمها وأشهرها قبر الصالح القدوة فرد زمانه أبى مدين رحمه الله ورضى عنه ورزقنا بركته . وعليه رباط مليح مخدوم مقصود ، والدائر بالبلد كله مغروس بالكرم وأنواع الثمار ، وسوره من أوثق الأسوار وأصحها ، وبه حمامات نظيفة ومن أحسنها وأوسعها وأنظفها حمام العالية وهو مشهور ، قل أن يرى له نظير . وهذه

المدينة بالجملة ذات منظر ومخبر وأقطار متسعة ومبانيها مرتفعة ولكنها مساكن بلا ساكن ، ومنازل بغير نازل ، ومعاهد أقفرت من متعاهد[١] » .

ويصل إحسانه فى الوصف إلى مداه عندما يصل إلى الاسكندرية ، فان منظر البلد يروقه أول ما يهل عليه فيقول أنه « بلد الاشراق اللامع والطلاقة ، وطلاوة المنظر وحلاوة المذاقة[٢] » ويسترسل فى هذا المديح المعجب صفحتين متواليتين يصف فيهما شوارع البلد وبيوته بأحسن ما وصفها به رحالة عربى قبله ، وتستوقف النظر دقته فى وصف عمود السوارى ومنار الاسكندرية . ووصفه لهذا الأخير قريب من وصف ابن جبير . ولا يكاد يفرغ من هذا الوصف الجميل المشرق حتى تحتويه المدينة الكبيرة بين دفتيها ويضيع فى زحمتها ، فينقلب إشراق نفسه عبوساً وانقباضاً فيمضى يقول : بيد أنها الآن بلد زادت صورته على معناه ، واستأثر بالفضائل مغناه ، فهو كجسم حسن لا روح فيه ، أو بُرد مفوف خلا من متحفيه ، أو غمد مرقّش اندق الصارم الذى كان يخفيه ، أكثر أهلها رعاع ، ضرر بلا انتفاع ، مع سوء أخلاق ومرارة مذاق . . .[٣] » ولا نلبث أن نعثر على علة سخطه على أهل الاسكندرية إلى هذا الحد ، وذلك حيث يقول : « الخيّر فيهم فعل لا يتصرف ، والغريب فيهم نكرة لا تتعرف . إن رأوه زادوا الوجوه جهامة ، ونكروا منها ما قد نكرته الدمامة ... » ولو قيض الله له من يرافقه ويصاحبه ويخفف عنه عناء الغربة لما اندفع مع الذم هذا الاندفاع .

وفيما عدا هذه الأوصاف للمناظر الطبيعية والمدن وتلك الحملات القاسية على من فيها من الناس والبشر ، ملأ العبدرى رحلته بكلام كثير فى الفقه والنحو واللغة والأدب والشعر ، وانفق صفحات بأسرها فى مناقشة دقائق من هذه العلوم أو فى رواية أشعار له ولغيره ، وهذه الفقهيات والأدبيات واللغويات وما

---

(١) الرحلة المغربية ، ص ٩ — ١٠

(٢) الرحلة المغربية ، ص ٨٣

(٣) الرحلة المغربية ، ص ٨٥

ينتثر فى الكتاب من سير الصالحين وأخبار العلماء هى التى حببت الكتاب إلى الناس فى الأعصر الخالية ، فقد كانت هذه المواد هى أهم ما يعنيهم فى مِثْلِهِ ، وللعبدرى فى نقده لبعض من لقى من الفقهاء والقضاة عبارات تستثير الضحك لسذاجتها ، ومن ذلك قوله فى ذم قاضٍ يسمى العمرانى لقيه « بحضرة مراكش ، كلأها الله ولا كلأ القاضى المذكور حياً وميتاً ، فإنه منجنيق ظلم تُرمى به قواعد الدين ، ونِفط فساد يُضرم قلوب المهتدين » وقد أضاع العبدرى فى أمثال ذلك الكلام ثلاثة أرباع الكتاب .

الممت بذكر العبدرى ورحلته بسبب نسبته البلنسية أولا ، وهى موضع مناقشة كما رأيت ، وثانياً — وهو المهم — لكى يرى القارئ نموذجاً لأدب الرحلات فى الغرب الإسلامى يختلف كل الاختلاف عن طراز ابن جبير ، ويختلف أكثر عن رحلة ابن بطوطة أمير رحالة المسلمين باطلاق ، فإن العبدرى — بسبب هذا البحث المضنى عن الدقائق الفقهية واللغوية والأدبية التى كانت كلّ همه — قد جعل رحلته وكأنها سياحة عقلية عاطفية لا رحلة سفر وضرب فى مناكب الدنيا واكتشاف للأرض وأهلها . والعبدرى رغم هذا كله مشكور فقد رأى من الأرض والناس شيئاً تكلم عنه — على طريقته — ولكن رحالة آخرين بعده كابن رُشيد السبتى سيغفلون ذكر الأرض والناس تماماً ، ولا يتحدثون إلا عمن يلقونه من العلماء كأنهم مطالعون فى مكتبة ، وعند هؤلاء تنقطع الصلة تماماً بين أدب الرحلات والجغرافية .

ونورد بهذه المناسبة ملاحظة تفسر لنا سبب السخط الشديد الذى عبر عنه الكثيرون من أهل الأندلس والمغرب الذين رحلوا إلى المشرق فى تلك العصور ، فإن القارئ لتراجم مهاجرة الأندلس والمغرب إلى المشرق أو رحالتهم خلاله والمطالع لكتبهم يشعر أن معظمهم يشترك مع العبدرى فى هذا الضجر بالمشرق وأهله ، والكثيرون منهم يشاركون العبدرى فى الشكوى من مصر خاصة . لقد لاحظنا شيئاً من ذلك عند ابن جبير وابن سعيد ، ونلاحظه أيضاً عند أبى الحجاج ابن عتبة الاشبيلى وعند أثير الدين أبى حيان وأحمد بن محمد المقرى ، وتفسير هذه

الظاهرة أن أولئك المهاجرين والرحالة جميعاً كانوا يدخلون مصر وآمالهم واسعة فى أن يجدوا فيها أكبر قدر من الاحترام والاكرام وتوسعة العيش ، لأنها كانت كعبة العلم وأهله فى ذلك الحين ، ولكن الواحد منهم كان إذا وصل إلى القاهرة وجد نفسه فى بحر مضطرب من العلماء من المصريين والوافدين عليهم من كل حدب وصوب ، وكلما قصد باباً من أبواب الدولة وجد عنده العشرات من أمثاله يتزاحمون للدخول ، فإذا قصد رجلا من السروات ممن عرفوا باكرام أهل العلم وجده مثقلا بالوافدين ، فإذا اتجه إلى الجامع الأزهر وغيره من المدارس وجدها تعج بالعلماء والطلاب ، فيسقط فى يده ويشعر بخيبة الآمال ، وقد يجد بعد ذلك كله أن ما عنده من زاد العلم قليل بالنسبة إلى الفيض الذى يحيط فى القاهرة فتتجهم نفسه ويتعزى بالحملة على البلد وأهله وخاصة إذا كان من دخلوا ميدان المنافسة للوظائف كما حدث لابن خلدون . ولنضف إلى ذلك أن أهل مصر — لكثرة الوافدين عليهم فى تلك العصور من الشرق والغرب — أمحى من نفوسهم الشعور بالغريب ، فكل مَن حلوا فى وطنهم من المسلمين فهم مواطنون مثلهم ، ومن ثم فلا معنى للاحتفال باستقبالهم والاجتهاد فى اكرامهم ، بعكس ما كان أهل تونس مثلا يفعلون مع العلماء الوافدين ، كانوا يعاملونهم بسبب قلتهم على أنهم ضيوف غرباء ويظلون يعتبرونهم غرباء ، ومن هنا فالقليلون من أولئك الوافدين هم الذين أقاموا بتونس فى راحة زمناً طويلا ، إنما كانت الاقامة والاستقرار والتوطن فى مصر وبلادها فى الغالب ، فهنا فى المكان الأول كان وطن العربى أو المسلم الغريب ومنتهاه . وقد أحصينا فى الدرر الكامنة لابن حجر فوق المائتى مهاجر أندلسى إلى المشرق فى القرن الثامن الهجرى ، وتسعون فى المائة منهم أقاموا بمصر واستقروا بها .

ومن أطرف ما نلاحظه أن المصريين فى تلك العصور لم يكونوا يأخذون ما يقوله عنهم بعض الساخطين من أولئك الغرباء على أنه قدح مقصود أو إهانة صادرة عن سوء نية ، وإنما على أنها نفثات أخ متألم جدير بالمواساة ثم

النسيان . وسنكتفى هنا بمصداق واحد يغنى عن كثير ، وهو خبر يرويه علىّ ابن سعيد عن صاحبه أبى الفضل التيفاشى — وكلاهما لجأ إلى مصر وعاش فيها — قال : قدم علينا بالقاهرة الطبيب الجراح أبو الحجاج (يوسف) بن عتبة (الاشبيلى) فلم يجد من يُقبل عليه إلا كهف المغاربة الرئيس السيد جمال الدين بن يغمور . فَصَيَّرَه مشاركاً مع أطباء المارستان ، وكان يأنس به فى بعض الأوقات مؤانسة الاخوان ، فسأله مرة عن أخبار بلاده ، فقال فارقت الأندلس مضطربة بدولة ابن هود ، ومع ذلك فأنى أشتهى الرجوع إليها لما أعاين هنا من أشغال النصارى فى الدولة واليهود ، ثم قال :

أصبحت فى مصر مستضاماً أرقص فى دولة القرود
وا ضيعة العمر فى أخير مع النصارى أو اليهود

إلى آخر الأبيات . ومثل هذه العبارة كانت جديرة بأن تغضب جمال الدين بن يغمور ، فهو مصرى صميم من أهل الصعيد ، ثم هو من كبار رجال الدولة التى يصفها هذا الأندلسى بأنها دولة القرود ، وكان جديراً بأن يغضب على ابن عتبة ، ولكنه لم يغضب ، ولم يحمل لهذا الأخ الأندلسى ضغناً ، بل أخذ كلامه على المأخذ الذى ذكرناه . وبقية الخبر أوقع فى النفس من حكايتنا له : قال التيفاشى : أنشد هذه الأبيات جمال الدين لاحتماله وحبه فى طرائف الأدب كيفما جاءت ، فقال أتدرى ما أراد الخبيث فى البيت الأول ؟ قلت المثل السائر : يرقص للقرد فى دولته ، فقال : قد أشار إلى شكل الغز وتشميرهم ، قال ، فعجبت من فهمه وحمله [1] .

---

(١) على بن سعيد ، اختصار القدح المعلى (بتحقيق الأستاذ ابراهيم الأبيارى ، القاهرة ، ١٩٥٩) ، ص ١٦٣ — ١٦٤ ، والمراد بالغز هنا المماليك ، وكان ابن يغمور من رجالهم . ومما يؤيد ما ذكرناه قول ابن سعيد فى الكلام عن أندلسى آخر ممن وفد على مصر : « لقيته بالقاهرة ، وكأنه لا خبر عنده عن الآخرة ، شيخ قد طال عمره فى أكل الأعراض ، ووجد فى تلك البلاد التغافل فانتهض فى صنعته الذميمة أى انتهاض . . » اختصار القدح المعلى ، ص ٢١٢

وإذا كانت « الرحلة المغربية » لأبى عبد الله محمد العبدرى تصور لنا مشكلة نفسية كان الكثيرون من علماء القرن السادس وما بعده من أهل الأندلس يعانون منها بسبب ما نزل ببلادهم واضطرارهم إلى الهجرة وتبدل أوطان بأوطان ، فإن الجغرافى الذى سنتناوله بالحديث بعده يصور لنا مشكلة من المشاكل العويصة التى لا تزال تعترض من يؤرخ للعلم والعلماء فى تلك العصور ، وهى مشكلة حقيقة المؤلف وعصره ، وقد رأينا لتلك المشكلة وجهاً فى حديثنا عن أبى بكر الزهرى والآن نرى لها وجهاً آخر لا يقل غرابة وطرافة عن الوجه الأول .

ذلك أن الكتاب الذى نتعرض له الآن وهو « الروض المعطار فى خبر الأقطار » يبدو للناظر لأول وهلة وكأنه كتابان لمؤلفَيْن يحملان نفس الاسم مع خلاف طفيف . وأصل اللبس يرجع إلى حاجى خليفة ، فقد أورد ذكر كتابين : واحد هو « الروض المعطار فى أخبار الأقطار لأبى عبد الله محمد بن محمد بن محمد الحميرى المتوفى سنة ٩٠٠/ ١٤٩٤ — ٩٥ والثانى يسمى روض المعطار فى خبر الأقطار للشيخ العمدة أبى عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميرى ، ولم يذكر سنة وفاة هذا الأخير . وزاد الأمر تعقيداً أن القلقشندى أخذ عن هذا الكتاب وذكره فى صبح الأعشى الذى فرغ من تأليفه سنة ٨١٤/١٤١٢ ، ثم إن كتاب « جنى الأزهار من الروض المعطار » كان يُظن انه اختصار لكتابنا هذا صنعه تقى الدين المقريزى ، حتى أثبت جاستون فييت وجيوفانى أومان أنه اختصار لنزهة المشتاق صنعه رجل يسمى شهاب الدين أحمد المقريزى لا تقى الدين عميد مدرسة المؤرخين المصريين فى القرن التاسع الهجرى (انظر ص ٢٢٩ من بحثنا هذا) .

وقد جهد فى حل هذا المعضل ثلاثة من المستشرقين هم جودفروا ديمومبين وجاستون فييت وليفى بروفنسال ناشر المواد الأندلسية من « الروض » ، وقد أسعفه الحظ فوجد ترجمة للمؤلف (محمد بن عبد المنعم الصنهاجى) فى الورقة ١٣٢ من مخطوط الاحاطة المحفوظ بمكتبة الاسكوريال تحت رقم ١٦٧٣ ، ويقرر ابن الخطيب فى هذه المادة أنه نقلها من كتاب آخر له — لم نعثر عليه الآن — هو « عائد الصلة » . وما دام ابن الخطيب قد توفى سنة ٧٧٦/١٣٧٤ فلا بد أن محمدا بن عبد المنعم الحميرى هذا مات قبله . وقد كان ديمومبين قد ذهب إلى أن سنة ٩٠٠ هـ. التى وردت فى احدى مادتى « كشف الظنون » عن الروض ومؤلفه لابد أن تكون تصحيفاً لسنة ٧٠٠/١٣٠٠ — ١٣٠١ فأخذ ليفى بروفنسال بهذا الرأى وأيده بقوله إنه لم يجد فى الاستطرادات التاريخية التى يتضمنها النص ذكراً لأى حادث بعد سنة ٧٠٠ هذه . أما ما ورد فى آخر بعض مخطوطات الروض من أن مؤلفه ابن عبد المنعم الحميرى فرغ من جمعه سنة ٨٦٦/١٤٦١ — ١٤٦٢ فقد فسرها بروفنسال بأن هذا الأخير لا بد أن يكون أحد أحفاد المؤلف قام بإعادة كتابة الكتاب مضيفاً إليه أشياء طفيفة ثم وضع عليه اسمه ، وهو تفسير معقول مقبول[1] .

---

(١) انظر عن محمد بن عبد المنعم الحميرى وكتابه الروض المعطار ، حاجى خليفة ، كشف الظنون ، طبعة استامبول (١٣١٠ هـ.) ، ١/٥٨٠ — بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى ، ٢/٤١

نفح الطيب للمقرى (أوروبا) ٢/٦٨٠

ابن الخطيب ، الاحاطة ، مخطوط الاسكوريال رقم ١٦٧٣ ورقة ١٣٢

Gaudefroy - Demombynes, *La Syrie à l'époque des Mamlouks d'après les auteurs arabes,* (Paris, 1923), f. XI-XII.

وقد نشر ليفى بروفنسال المواد الأندلسية من الروض فى لايدن سنة ١٩٣٦ بعنوان صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار ، وهو معجم جغرافى تاريخى لأبى عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميرى . جمعه سنة ٨٦٦ هـ. وقد أحسن بطبع النص العربى فى القاهرة . وطبع الترجمة الفرنسية مع المقدمة والتعليقات فى لايدن ونشر المجموع تحت عنوان :

La Péninsule Ibérique au Moyen - Age d'après le Kitāb al-Rawḍ al-Mi'ṭār fi Ḫabar al-Akṭār, d'Ibn 'Abd al-Mun'im al-Ḥimyarī (Leiden, 1938).

ونورد فيما يلى مادة ابن الخطيب فهى — رغم قلتها — جل — بل كل — ما لدينا عن المؤلف :

« محمد بن عبد المنعم الصنهاجى الحميرى يكنى أبا عبد الله ويعرف بابن عبد المنعم من أهل سبتة ، الأستاذ الحافظ . حاله : من العائد : كان رحمه الله رجل صدق ، طيب اللهجة ، سليم الصدر ، تام الرجولة ، صالحاً ، عابداً ، كثير القرب والأوراد فى آخر حاله ، صادق اللسان ؛ قرأ كبيراً وسنه تنيف على سبع وعشرين ، فشأى أهل الدرب والسابقة ، وكان من صدور الحفاظ ، لم يستظهر أحد فى زمانه من اللغة ما استظهره ، فكان يستظهر كتاب التاج للجوهرى وغيره ، آية تتلى ومثالاً يضرب ، قائماً على كتاب سيبَوَيْهِ يسرده بلفظه ، اختبره الفاسيون فى ذلك غير ما مرة ، طبقةً فى الشطرنج يلعبها محجوباً ، مشاركاً فى الأصول ، آخذاً فى العلوم العقلية مع الملازمة للسنة ، يعرب أبداً كلامه ويزنه . مشيخته : أخذ ببلده عن الأستاذ أبى إسحق الغافقى ولازم أبا القاسم بن الشاط وانتفع به وبغيره من العلماء . دخوله غرناطة : قدم غرناطة مع الوفد من أهل بلده عند ما صار إلى إيالة الملوك من بنى نَصْر لما وصلوا بالبيعة . وفاته : كان من الوفد الذين استأصلهم الموتان منصرفهم عن باب السلطان ملك المغرب بأحواز تيزى حسبما وقع التنبيه على بعضهم » .

ونلاحظ أولا أن هذه المادة لا تنسب لمحمد بن عبد المنعم الحميرى هذا كتاباً فى الجغرافية ، وانها تقول انه من أهل سبتة وانه كان عضواً فى الوفد السبتى الذى وفد على غرناطة ببيعة أهل بلدهم ، وانه توفى فى الموتان (أى

= ومقدمة هذه الترجمة الفرنسية تتضمن كل ما أوردناه عن تاريخ مشكلة الكتاب ومؤلفه مع دراسة وافية للكتاب ومادته ، أما التعليقات الضافية التى وضعها على الترجمة فقد أصبحت من يوم نشر الكتاب مرجعاً أساسياً لجغرافية الأندلس وتاريخه ، ويعتبر ذلك العمل من أجل ما خلف لنا ذلك المستشرق الفرنسى الجليل .

وانظر كراتشكوفسكى ، تاريخ الأدب الجغرافى العربى تعريب الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم ١/٤٤٧ — ٤٤٨

الوباء) الذى استأصل رجال ذلك الوفد عند ما انصرفوا عن باب السلطان ملك المغرب بأحواز تيزى (أو تازا) .

فأما إهمال ابن الخطيب ذكر اشتغال محمد بن المنعم الحميرى بالجغرافية فلا ينفى هذه الحقيقة ، فإن الناس — كما رأينا — كانوا لا يرون كتب الجغرافية وعلوم الأوائل والفلسفة مما يستحق الذكر بين أعمال العلماء ، لأن الاشتغال بذلك كان — فى رأى الكثيرين — مضيعة للوقت فيما لا ينفع ، وسنرى أن هذا كان رأى الحميرى نفسه ! بل ربما كان اشتغال الرجل بهذه العلوم مدعاة للشك فى صحة عقيدته ، وقد رأينا بعض من أرخوا للعذرى والبكرى أهملوا ذكر مؤلفاتهم الجغرافيات كأن ذلك كان لوناً من صون السمعة ، بل إن ابن أبى أصيبعة أهمل ذكر كتاب نزهة المشتاق عند ما تكلم عن الإدريسى ، وكثيرون ممن ترجموا لابن رشد أهملوا ذكر اشتغاله بالفلسفة إكراماً لذكراه ، بل أن محمد بن عبد المنعم الحميرى نفسه اعتذر فى آخر فاتحته للروض المعطار عن اشتغاله بالجغرافية ، وقال كلاماً يصح أن يروى مثلا لنظرة الناس إلى الاشتغال بذلك العلم فى تلك العصور ، قال : « . . ومع هذا فقد لُمتُ نفسى على التشاغل بهذا الوضع الصاد[1] عن الاشتغال بما لا يغنى عن أمر الآخرة والمهمِّ من العلم المُزْلِف عند الله تعالى ، وقلت : هذا من شأن البطالين وشغل مَن لا يهمه وقته ؛ ثم رأيت ذلك من قبيل ما فيه ترويح لهذه النفوس ، ومن حسن تعليلها بالمباح حتى تنشط إلى ما هى به أعنى ، ثم هو مهيع يسلكه الناس واعتنى به طائفة من العلماء وقيده جماعة من أهل التحصيل ، فلا حرج فى الاقتداء بهم بل أقول : أعوذ بالله من علم لا ينفع ! وأستغفره وأستقيله ، وأسأله التجاوز عن الهفوات ، والصفح عن الاشتغال بما لا يفيد فى الآخرة ، فيارب عفواً عن اقتراف ما لا رضى لك فيه ، فأنت على كل شىء قدير ! » .

---

(١) كذا فى الأصل كما نشره ليفى بروفنسال ، وربما كانت صحته : الصادر .

وهذا أغرب ما قاله أحد من جغرافيينا فى شأن اشتغاله بذلك العلم ، حقيقة كان بعض الأوائل ممن اشتغلوا به يجتهدون فى فواتح كتبهم فى تبرير اشتغالهم به بمبررات هى أقرب للاعتذار ، ولكن مؤلفنا هذا ذهب إلى ما لم يذهب إليه أحد من اعتبار الاشتغال بالجغرافية « من شأن البطالين ومن لا يهمه وقته » ثم يمضى يعتذر عن تأليفه الكتاب ويرجو الله سبحانه الصفح عنه كأنه اقترف جريمة . ويغلب على ظنى أن هذه العبارة أضافها ابن عبد المنعم الحميرى الثانى ، أى الذى كان من حَفَدَة الأول ، لأننا إذا طالعنا مواد الكتاب وجدنا رجلا يجمع ويصنف ويكتب فى شغف وراحة نفس واستمتاع بما يكتب يدل على إحساس بفائدته ، ثم إن جانباً كبيراً من مادة الكتاب تاريخ ، ولم يكن التاريخ قط من العلوم التى يعتبر الناس الاشتغال بها مضيعة للوقت ، ومثل هذا الرجل لا يعتذر عما يكتب قط ، وإنما يصدر هذا عن حفيد جاء بعد قرنين انحدر خلالها مستوى العلم والمعرفه ، وأجال قامه فى عمل جده مضيفاً شويئات هنا وهناك ومن بينها تلك الخاتمة التى تتناقض فى الروح والمعنى مع بقية الفاتحة .

وأما أن الرجل من أهل سبتة فلا يقطع صلة نسبته إلى الأندلس ، فقد كانت سبتة فى بعض سنوات المؤلف جزء من الأندلس ، وكانت أجزاء كثيرة من الأندلس تابعة لسلاطين المغرب من آل مرين فى ذلك العصر الذى أسندت بقيةُ الأندلس خلاله ظهرَها إلى المغرب لتظل فى قيد الوجود ، وفى عصر مؤلفنا هذا دخلت سبتة فى طاعة بنى نصر فيما بين سنتى ٧٠٥ و ٧٠٩ / ١٣٠٦ و ١٣٠٩ وكان هو من بين أعضاء وفد سبتة الذين جاءوا ببيعة بلدهم إلى غرناطة . وقد كانت وفاته بعد ذلك بسنوات فى وباء نزل بالقطر المغربى ، وقد استبعد ليفى بروفنسال أن يكون هذا الوباء هو الموت الأسود الذى اجتاح حوض البحر الأبيض بين سنتى ٧٤٨ و ٧٥٠ / ١٣٤٧ و ١٣٤٩ والذى وصف المقريزى

وأبو المحاسن افاعيله فى شرق المملكة الإسلامية ، وفصَّل ابن الخطيب وابن خاتمة ما أنزله بالمغرب الأقصى والأندلس .

ثم اننا إذا القينا نظرة عامة على مواد الكتاب رأينا أن حظ الأندلس منها أوفى من حظ أى قطر آخر بما فى ذلك المغرب ، وقد أورد ليفى بروفنسال احصاء بمواد حرف الألف وتوزيعها علىَ الأقطار ما بين شرق وغرب ، فكان حظ الأندلس ٣٤ مادة والمغرب ٣٢ وجزيرة العرب والعراق ٣٣ وبلاد آسيا الوسطى ٣١ والشام ١٧ ومصر ٩ وكل من السودان (الغربى) وشرق آسيا وغربى أوروبا ٥ وصقلية ٣ ، ولا يعلل هذا إلا بأن معلومات الرجل عن الأندلس كانت أوسع من معلوماته عن غيره ، واستطراداته التاريخية بالذات تنم عن أن كاتبها أندلسى يعرف دقائق بلده الذى يتحدث عنه ، ولا نجد مثل هذا فى مواده المغربية ، بل إن مادته عن سبتة ليست بالغنى الذى ينتظر من رجل سبتى .

كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار

فإذا فرغنا من هذه الملاحظات عن المؤلف والتفتنا إلى كتابه وجدنا أنفسنا أمام معجم جغرافى مرتب على الحروف كأحسن ما تكون معاجم الجغرافية ، ولا يقلل من سلامة هذا الحكم ان معظم الكلام فيه نَقْلٌ عن الإدريسى والبكرى وكتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار (الذى ألفه مغربى لا نعرف اسمه سنة ٥٨٧ / ١١٩١) ومراجع أخرى سنذكرها فيما بعد ، بل لا يضيره أن الرجل نقد الإدريسى فى فاتحة كتابه نقداً عنيفاً ، ثم اغترف من كتابه بكلتا يديه دون اشارة إلى الأصل المنقول عنه فى معظم الأحيان ، فلم يكن هذا بعيب كبير فى التأليف فى تلك العصور ، والمهم أن الرجل قدم لنا بهذا الجمع مادة جغرافية صحيحة دسمة عن المواضع التى اختارها لمعجمه ، وعرف كيف ينسق هذه المادة ويسوقها على نحو مترابط متكامل بحيث تبدو بعض مواده وكأنها دراسات

قصيرة عن هذا العَلَم الجغرافى أو ذاك . ومما يزيد معجمه قيمة أنه لم يقتصر على المدن أو الأقطار بل شمل بعض المحيطات والبحار والجزر وما إليها من الأعلام الجغرافية ، وأورد فى هذه المواد معلومات جغرافية تدل على فهم وتصور علميين صحيحين ، ومن أمثلة ذلك كلامه عن أُقيانُس ، والمراد به البحر العظيم الذى كان يظن إنه محيطٌ باليابس كله — ومن هنا جاءت ترجمته العربية بالمحيط — وأُقْيَانُس هو الرسم العربى لاسمه اللاتينى Oceānus ولم يكن الرومان يقسمون الماء محيطات كالأطلسى والهادى والهندى ، وإنما كان عندهم بحراً واحداً هو أقيانس هذا ، وأخذ بعض علماء العرب هذا المفهوم عنهم . ومادة ابن عبد المنعم الحميرى تعرض هذا التصور عرضاً واضحاً .

قال : « هو اسم لبحر الظلمات ، ويقال له البحر الأخضر ، والمحيط الذى لا يدرَك له غاية ، ولا يحاط بمقداره ، ولا فيه حيوان ، وهو الذى يخرج منه البحر الرومى الذى هو بحر الشام ومصر والمغرب والأندلس ، فإنه خليج يخرج من هذا البحر . وقد خاطر بنفسه خشخاش من الأندلس ، وكان من فتية قرطبة ، فى جماعة من أحداثها ، فركبوا مراكب استعدوها ، ودخلوا هذا البحر ، وغابوا فيه مدة ، ثم أتوا بغنائم واسعة وأخبار مشهورة . إنما يُركب من هذا البحر مما يلى المغرب والشمال ، وذلك من أقاصى بلاد السودان إلى برطانية ، وهى الجزيرة العظمى التى فى أقصى الشمال . وفيه ست جزائر تقابل بلاد السودان تسمى الخالدات ، ثم لا يعرف أحد ما بعد ذلك . وسنأتى إن شاء الله تعالى بحكاية أخرى عمن دخل هذا البحر أطول من هذه فى موضعها فى ذكر الاشبونه » .

ومن العسير علينا أن نتصور اليوم ذلك البحر المحيط أو الاقيانوس الذى كان يدور بالأرض وتتشعب منه بحارها ، ولكن كتاب الجغرافية لأبى بكر الزهرى يقرِّب لنا هذا المفهوم بعض الشىء ، فهو يقسم الماء المحيط باليابس من الأرض إلى طَوْقين : الطوق الأزرق « وهو الدائر بجميع أجزاء الأرض ، وهو

صفة البحر المعروف ببحر الظلمة » ، والطوق الأخضر ، « وهو صفة البحر المحيط بالأرض وأجزائها » وعلى هذا يكون اليابس محاطا ببحر كبير دائر حوله هو المعروف بالطوق الأزرق ، وهذا الطوق المحيط باليابس جزء من الأرض نفسها وهو الذى تتفرع منه البحار التى تتخلل اليابس كالبحر الأبيض وبحر الهند وبحر الصين ، فقد كانت هذه البحار عندهم أشبه بخلجان تتفرع عن بحر الظلمة أو بحر الظلمات وهو الطوق الأزرق هذا . ويحيط بهذا الطوق الأزرق بحر أوسع وأشمل هو المعروف بالطوق الأخضر ، وهذا الطوق الأخضر هو البحر الكبير الذى يحيط بكرة الأرض من الجهة الأخرى كما يحيط المـاء فى طبق بأسفل كرة وُضعت فيه ، وهذا مجرد تشبيه ، لأن ذلك الغلاف المائى المحيط بالجهة الأخرى من الأرض شبيه بغلاف الثلج الذى يغطى القطب الجنوبى مثلا . والتقسيم إلى نطاق أزرق ونطاق آخر إنما هو تقسيم بالنسبة للقرب من شواطئ اليابس والبعد عنها ، فالمياه القريبة من اليابس زرقاء والبعيدة عنه خضراء .

واقيانس هذا ، أو الطوق — أو البحر — الأخضر كان المجهولَ الأكبر فى نظر الجغرافيين جميعـاً خلال العصور القديمة والوسطى ما بين مسلمين وغير مسلمين ، ويصور لنا الإدريسى موقف الحيرة والرهبة الذى وقفه العقل البشرى من هذا المجهول الأكبر إلى أيامه ، قال فى كلامه عن الأندلس :

« وسميت جزيرة الأندلس بجزيرة لأنها شكل مثلث وتضيق من ناحية شرق الأندلس حتى تكون بين البحر الشامى والبحر المظلم المحيط بالأندلس خمسة أيام ، ورأسُها العريض نحو من سبعة عشر يوماً ، وهذا الرأس هو فى أقصى المغرب فى نهاية انتهـاء المعمور من الأرض محصور فى البحر المظلم ، ولا يعلم أحد ما خلف هذا البحر المظلم ، ولا وقف منه بشر على خبر صحيح لصعوبة عبوره وإظلامه ، وتعاظم موجه وكثرة أهواله وتسلط دوابه وهيجان رياحه »[1] .

---

(١) الإدريسى ، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، مأخوذة من كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » بتحقيق راينهارت دوزى ودى خويه ، ليدن ١٨٦٤ ، ص ١٦٥

أما التصور الشعبي ، وهو قائم على حكايات الملاحين والسُّفَّار ، فلا يعطى عن هذا المحيط هذه الصورة الرهيبة ، بل يرسمها فى صورة شاعرية نسجها الخيال الساذج على أساس بعيد من تجارب حقيقية ، وهذه الصورة نجدها بالذات عند محمد بن عبد المنعم الحميرى فى كلامه عن قادس وصنمها الذى كان موضعاً لأساطير وحكايات وتخيلات كثيرة عند أهل الأندلس ، وقد رأينا بعضها فيما نقلناه عن أبى بكر الزهرى ، ونورد فيما يلى فقرة الروض المعطار ، وهى من الفقرات القليلة التى لا نعرف الأصل الذى نقلت عنه ، قال : « ويزعم أهل جزيرة قادس أنهم لن يزالوا يسمعون أن الراكبَ فى هذا البحر إن ألجَّ فيه وغاب عنه صنمُ قادس ، بدا له صنم ثانٍ مثله ، فإذا وصلوا إليه وجاوزوه حتى يغيب عليه[1] ، بدا له صنم ثالث ، فإذا تجاوزوا سبعة أصنام صاروا فى بلاد الهند . وهذا مستفيض عندهم ، معروف جارٍ على ألسنتهم ، ولما يزل يأخذه آخرهم عن أولهم[2] » .

وقد درس ليفي بروفنسال فى مقدمته المستفيضة لما نَشر من الروض المعطار موضوعَ المراجع التى استقى المؤلِّف منها المادةَ الجغرافية فى كتابه ، وهى على الترتيب : نزهة المشتاق للادريسي والمسالك والممالك للبكرى ونظام المرجان للعذرى وكتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار لمؤلف مغربى من أهل القرن السادس الهجري لا نعرف اسمه إلى الآن . وأما المادة التاريخية فيرجع معظمها إلى كتابين أولهما مجهول المؤلف وهو « مجموع المفترق » والثانى « كتاب المُغْرِب فى أخبار المغرب » لأبى التُّقَى طاهر بن عبد الرحمن ، والكتابان فى عداد مفقودات المكتبة العربية إلى الآن . ومن الواضح أن كلام بروفنسال منصبٌّ على الأجزاء الأندلسية من الكتاب ، وهى الوحيدة التى درسها دراسة وافية ، لأن الحقيقة

---

(١) يلاحظ هنا اضطراب السياق من ناحية النحو والصياغة ، وسبب ذلك — فيما يبدو — أن المؤلف يثبت رواية شعبية كما سمعها .

(٢) الروض المعطار ، ص ١٤٨

أن لكتاب الروض المعطار مراجع أخرى كثيرة فيما يتصل بمواده غير الأندلسية ، وخاصة فيما يتصل ببلاد الشرق العربية والإسلامية ، وكذلك مادته المغربية تعتمد على مراجع أخرى غير البكرى والاستبصار ، فقد اطلع الحميرى دون شك على مؤلفات أصحاب « أطلس الإسلام » — وهم أبو زيد أحمد بن سهل البلخى وأبو إسحاق ابراهيم الاصطخرى وأبو القاسم محمد بن حوقل ومحمد بن أحمد بن أبى بكر المقدسى — فإن كتابه حافل بالاقتباسات منهم وإن لم يصرح بذلك .

وعدم التصريح بذكر المراجع هذا آفة من آفات هذا الكتاب ، حقاً أن ذلك عيب شائع فى الكثير جداً من الكتب التى كتبت فى هذه العصور ، ولكن ابن عبد المنعم الحميرى يضيف إلى إغفال ذكر الأصول عيبَ النقد العنيف لأصحابها ، ومن ذلك مثلا قوله فى المقدمة مشيراً إلى نزهة المشتاق للادريسى بعد أن نقل عنه أكثر من ثلث مادته الجغرافية عن الأندلس على الأقل : « ثم إنى قِسْتُه (أى كتاب الروض المعطار) بالكتاب الأُجارى[1] المعروف بنزهة المشتاق فوجدته أعظم فائدة وأكثر أخباراً وأوسع فى فنون التواريخ وصنوف الأحداث مجالا حتى فى وصف البلاد ، فإنه إنما ذكر نبذةً منها وشيئاً قليلا فى مواضع مخصوصة معدودة ، بل إنما عظم حجمه بما اشتمل عليه من قوله : « من فلانة إلى فلانة خمسون ميلا أو عشرون فرسخاً ، ومن فلانة إلى فلانة كذا وكذا » ، أما الخبر عن الأصقاع مما يحسن إيراده ، ويلذ سماعه ، من خبر طريف ، أو وَصْفٍ يُستغرب أو يستملح ، فإنما يوجد فيه فى مواضع قليلةٍ معدودةٍ ، إلى ذلك من عُسْرِ وجدان الناظر فيه بمطلوبه بأول وهلة بل بعد البحث والتفتيش[2] » .

---

(١) فى الأصل المطبوع : الأخبارى ، ولا معنى له هنا ، وإنما هو الأجارى أو الرجارى نسبة إلى أجار وهى لغة فى رجار ، والمراد روجر الثانى ملك النورمان الذى تحدثنا عنه فيما سبق .

(٢) الروض المعطار ، مقدمة المؤلف ، ص . ح

وهذا كلام يستكثر من رجل أغترف من الإدريسى حتى ثقل كتابه بما أخذ ، ثم إن الروض المعطار أيضاً ملىء بقوله « من فلانة إلى فلانة خمسون ميلا أو عشرون فرسخاً » وانظر على سبيل المثال كلامه عن مواضع مثل بَيَّارَه وبَيَّاسة وطرطوشة وطركونه وما إليها .

أما أن كتاب الإدريسى لا يستكثِر من التاريخ والأخبار فمرجعه كما رأينا إلى أنه كان يرى نفسه جغرافياً لا مؤرخاً ، وربما كان أولَ من فصل بين التاريخ والجغرافية بوضوح ، وهذه حقيقة لم يتبينها محمد بن عبد المنعم الحميرى لأنه كان يرى أن التاريخ جزء لا يتجزأ من الجغرافية — أو هى جزء منه بتعبير أدق — ولهذا يقول فى المقدمة : « ورتبته على حروف المعجم ، لمـا فى ذلك من الإحماض[1] المرغوب فيه ، ولما فيه من سرعة هجوم الطالب على اسم الموضع الخاصِّ من غير تكلف عنـاء ولا تجشم تعب ، فقد صار هذا الكتاب محتويا على فنين مختلفين : أحدهما ذكر الأقطار والجهات ، وما اشتملت عليه من النعوت والصفات ، وثانيها الأخبار والوقائع المختلفة بها ، الصادرة عن مجتليها[2] » .

وإذن فمحمد بن عبد المنعم الحميرى يرى أن وصف البلاد لا يكتمل إلا إذا أضيف إلى « ذكر الاقطار والجهات » سرد « الأخبار والوقائع المختلفة بها » أما الاقتصار على الوصف الجغرافى وحده والاجتهاد فى تعرف المسافات وقياس الأبعاد فعيب يأخذه هو على الإدريسى . وهكذا نعود إلى الوراء مرة أخرة ونُبهِم مفهوم الجغرافية كعلم قائم بذاته مستقل عن التاريخ والأدب .

غير أن ترتيب الأماكن على حروف المعجم يعتبر فى ذاته الميزة الأولى لكتاب الروض المعطار ، ومن الحق أن تقرر أن محمدا بن عبد المنعم الحميرى

---

(١) كلمة « الأحماض » هنا لا معنى لها . ولابد من الرجوع إلى المخطوط لتصويبها .

(٢) مقدمة الروض المعطار ، ص . ح .

قد خطا فى الغرب الإسلامى خطوة واضحـة بفن المعاجم الجغرافية بعد البداية الطيبة التى قام بها أبو عُبيد البكرى فى « معجم ما استعجم » ، فإن هذا رغم اجتهاده فى احصاء الأماكن وترتيبها ابجدياً نادراً ما يستوفى الكلام عن مكان فى موضعه ، بل يحيـل على مواد أخرى له ، فأنت تبحث فيه عن موضع يسمى المَرْقَعَة ، فيقول لك أنه موضع قد تقدم ذكره فى رسم أُبْلَى ، وتبحث تحت أُبلى فيقول لك موضع تنسب إليه رجلة أبلى ، وهو مذكور فى حرف الراء ، وتبحث فى حرف الراء تحت « رجلة أبلى » ، فلا تجد إلا ما يلى : قال أبو حنيفة : هى أرض مشهورة ، ثم يستشهد ببيت شعر للراعى ورد ذكرها فيه ويضيف : « والرِّجلة مسيل ينبت البقل » ، وهكذا تخرج بعد البحث أربع مرات دون نتيجة ، وحتى فى الحالات التى تخرج فيها بنتيجة لابد أن يحيلك مرة أو مرتين إلى مواد أخرى ، فإذا طلبت « رُحْبه » أحالك على رسم ضَرِيَّة ، وبالفعل تجد ما تريد تحت هذه المادة ، وأنت تبحث عن فيفاء الخيار فيحيلك على « فَيْف » حيث تجد بعض ما تريد ، ولكنك لا بد أن ترجع إلى مادة « الحشا » لتستكمل ما تطلب . أما مواد « الروض المعطار » فمستوفاة دون إحالة أو حاجة إلى الرجوع إلى مواد أخرى ، وهذا المذهب الصحيح فى عمل المعاجم يشبه ما نجده عند ياقوت . فهل نستطيع أن نفترض أن صاحب الروض المعطار رأى معجم ياقوت وأفاد منه ؟

الحق أن هذا سؤال تعسر الإجابة عليه ، ولا يمكننا نفى هذا الاحتمال مستندين إلى أن الحميرى لم يشر إلى ياقوت مرة واحدة ، لأنه — أى الحميرى — طالما أخذ عن الناس دون أن يشير ، ثم إن اطلاعه على ذلك المعجم الكبير غير مستبعد أصلا ، فقد أتمه ياقوت سنة ٦٢٤/١٢٢٤ وذاع صيته بعد ذلك مباشرة ، وقد عاش محمد بن عبد المنعم الحميرى فى النصف الثانى من ذلك القرن السابع الهجرى ، بل زار الحجاز وأدى الفريضة وأطال المقام فى الأرض المقدسة وختم معجمه فى جدة كما تدل على ذلك عبارة الختام ، ومن المستبعد

جداً أن يكون شيخٌ طالبُ علم كمؤلف الروض موجوداً فى الحجاز مشتغلا بمعجمه ويغيب عنه ذكر معجم ياقوت وكان إذ ذاك ملء أسماع الناس ، وهناك قرينة واضحة تؤيد ذلك الفرض هى أن ابن عبد المنعم الحميرى يخلط الأدب بالجغرافية مثل ياقوت ، ويندر أن يذكر موضعاً نجم فيه أديب دون أن يذكر هذا ويروى له شعراً ما أمكن ، بل فى بعض الأحيان تقتصر المادة على ذكر شاعر نشأ فى الموضع وذِكر بعض شعره .

فإذا تركنا هذا البحث وراء المراجع ونظرنا فى المواد نفسها وجدنا أنفسنا أمام ثروة جغرافية عظيمة القيمة ، عرف المؤلف كيف يجمعها ويسوقها فى نسق مترابط ، بل أعاد صياغة بعض الفقرات التى أخذها عن غيره لكى تنسجم مع المجموع ، وخير ما يعطينا فكرة عن طريقة تأليف هذا الكتاب ومنهج تصنيفه أن نحلل المادة الأولى من مواد القسم الخاص بالأندلس التى نشرها ليفى بروفنسال فى كتاب « صفة جزيرة الأندلس » ، ونردها إلى أصولها ما تيسر ذلك ، ولن نستطيع إيرادها هنا على تواليها ، فهى تحتل قرابة العشر صفحات من ذلك الكتاب ذى القطع الكبير ، والكتاب مطبوع متداول بأيدى الناس . تتكون مادة « أندلس » هذه كما يلى :

تبدأ المادة بمجموعة من الفقرات التمهيدية (١ — ١٠) التى تساق عادة كمدخل للكلام على الأندلس فى كتب الجغرافية الأندلسية ، وهذه الفقرات مقتبسة من الرازى وصاعد بن أحمد الأندلسى والبكرى وعبد الملك بن حبيب وأبى القاسم خلف بن بشكوال وابن حيان وآخرين أقل من هؤلاء أهمية . وهى خليط من الجغرافية الطبيعية والفلكية والمباحث الفيلولوجية فى أصل اسم الأندلس والتاريخ المحقق والأسطورى والأحاديث النبوية التى أوردها عبد الملك بن حبيب وأبو القاسم بن بشكوال فى فضل الأندلس . وهذه الفقرات تجمع هذه الأشتات من المعلومات العامة عن الأندلس وموقعه من الأقاليم ومكانه من الأرض والهيئة

المثلثة لشبه الجزيرة وما يحيط بها من البحار ، وجوّ الأندلس وهوائه وبعض ميزاته الطبية وفضل أهله فى الجهاد ومسافة ما يملكه المسلمون منه والاجناس التى سكنته قبل العرب . كل ذلك مسوق فى نسق واحد لا يخلو من بلاغة ونحن نجد فى هذه الفقرات كل العبارات المحفوظة عن الأندلس ، والتى أصبحت كقضايا مسلم بها أو « كليشيهات » تتردد دون تغيير كلما جاء ذكر الأندلس مثل : « واسم الأندلس فى اليونانية إشبانيا . . . » (البكرى) و « الأندلس آخر المعمور فى المغرب لأنها متصلة ببحر أوقيانس . . » (الرازى) ، « وقيل اسمها فى القديم إبارية . . » (البكرى) ، « وسميت جزيرة الأندلس بجزيرة لأنها شكلٌ مثلث . . » (الرازى والإدريسى) ، « ويحيط بها البحر من جميع جهاتها الثلاث » (الإدريسى) ، « والأندلس أقاليم عدة ورساتيق جملة . . » (الرازى) ، « والأندلس شامية فى طيبها وهوائها . . » (البكرى) ، « والأندلس دار جهاد وموطن رباط . . » (عبد الملك بن حبيب وابن بشكوال) ، « أول من سكن الأندلس بعد الطوفان — على ما يذكره علماء عجمها — قوم يعرفون بالأندلش (بشين معجمة) بهم سُمّى البلد ثم عُرِّب . . » (الرازى) ، إلى آخر هذه العبارات التى كانوا يعتبرونها جُماعَ ما يمكن قوله كمدخل للكلام عن الأندلس ، وهى عبارات ذات قيمة جغرافية وتاريخية واضحة ، ولكن الذى يستوقف النظر أنها ظلت تكرر وتعاد قرناً بعد قرن من الرابع الهجرى إلى آخر العصور الوسطى ، فلم يدخل على هذه الطريقة تغييراً إلا الإدريسى كما بينا ذلك بتفصيل ، وإن كنا ينبغى أن نقرر أن التغيير الذى أدخله الإدريسى مَسَّ طريقة الوصف أكثر مما مس مادته نفسها ، فقد اختبر أطوال المسافات والحقائق الصغيرة عن المدن ، ولكنه لم يختبر الحقائق الكبرى الخاصة بشبه جزيرة إيبريا مثلا ، ومن هنا فقل ظل يقول أنها مثلث ذو ثلاثة أركان .

وبعد هذه الفقرات يسترسل محمد بن عبد النعم الحيرى مع التاريخ ويصل إلى فتح العرب للأندلس فيذكره بتفصيل كبير .

وهذه الطريقة التى اتبعها فى تأليف المدخل هى التى سار عليها فى الكلام على كل موضع بعد ذلك : يقرأ كل ما تيسر له من الأصول الجغرافية والتاريخية ويوجزها أو يختار منها ما يرى أنه أساسى ، ثم ينْظِم ما يوجز وما ينقل فى نسق واحد . وهنا يتفاوت حظه من التوفيق وعدمه ، ففى أحيان كثيرة يكتفى ببضع كلمات لا تفيد كثيراً مثل قوله : « أُبَّذَة (Ubéda) : مدينة بالأندلس ، بينها وبين بياسة سبعة أميال ، وهى مدينة صغيرة على مقربة من النهر الكبير ، ولها مزارع وغلات قمح وشعير كثيرة جداً [1] » او « أبطير : حصن بالأندلس بمقربة من بطليوس من بناء محمد بن أبى عامر من جليل الصخر ، داخله عينُ ماء خرارة ، وهو اليوم خال [2] » وهذه إشارات لا تقدم ولا تؤخر ، ويتضح لنا عجزه عن الاختيار أو التلخيص عند ما نجد ياقوت يقول عن أبدة مثلا (يكتبها بالدال) : « اسم مدينة بالأندلس من كورة جيّان تعرف بابدة العرب ، اختطها عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، وأتمها ابنه محمد بن عبد الرحمن [3] » . وأمثال هذه التعريفات الهزيلة كثيرة فى الروض المعطار .

وفى بعض الأحيان يوفق توفيقاً طيبـاً فى الاختيار والاختصار فمن أمثلة اختياره الجيد قوله عن بلدة أبَّال ناقلا عن الإدريسى [4] :

---

(١) الروض المعطار ، ص ١١

(٢) نفس المرجع والصفحة ، ولم يستطع ليفى بروفنسال تحقيق هذا الموقع ، وهذا لا يستغرب لأنه لم يكن إلا حصناً بناه المنصور محمد بن عامر لبعض أغراضه السياسية والعسكرية ، ثم خلا وهجر بعد ذلك كما يتضح من النص .

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، ١ /٧٣

(٤) صفة الاندلس والمغرب ، ص ٢١٣ — ٢١٤ .

وذهب ليفى بروفنسال (الترجمة الفرنسية للروض المعطار ، هامش ١) أن أبال تقابل اليوم بلدة Ovejo أو Obejo إلى الشمال قليلا من قرطبة . واعتمد فى ذلك على ما ذكره اليمانى بولوفر فى بحثه الذى أشرنا إليه مراراً عن جغرافية شبه الجزيرة عند جغرافيي العرب :

José Alemany Bolufer: *La Geografía de la Península Ibérica en los Escritores Arabes*, Granada, 1921. (Separata de la Revista del Centro de Estudios Históricos de Granada y su Reino), p. 64.

« حصن بالأندلس فى شمال قرطبة وعلى مرحلة منها ، وهو الحصن الذى فيه معدن الزئبق .

وفيه يعمل الزنجفور ومنه يتجهز بالزئبق والزنجفور[١] إلى جميع أقطار الأرض ، ويخدم هذا المعدن أكثر من ألف رجل ، فقوم للنزول وقطع الحجر ، وقوم لنقل الحطب لحرق المعدن ، وقوم لعمل أوانى السبك والتصفية ، وقوم لبنيان الأفران والحرق ، ومن وجه الأرض إلى أسفله فيما حكى أكثر من مائة قامة » .

فهذه المادة تعتبر من أحسن ما أورده الإدريسى فى كلامه عن « الأندلس » فهى وصف فريد فى بابه للمناجم ونظام العمل فيها فى الأندلس ، وقد أكد الباحثون المعاصرون التفصيلات التى أوردها الإدريسى فى سطوره القليلة هذه وقالوا إن هذا التنظيم للعمل فى المناجم كان متبعاً فى كل مناجم إسبانيا إلى حين قريب ، ويذكر الإدريسى أنه كان بنفسه فى أبال ورأى العمل فى ذلك « المعدن » ويراد به المنجم ، وقد عرف محمد بن عبد المنعم الحميرى أهمية هذه السطور فأوردها فى كتابه .

ومن أمثلة تلخيصه الجيد كلامه عن أرشذونه Archidona (ص ١٢) وهى اليوم بلدة صغيرة فى مديرية مالقة ، ولكنها كانت أيام العرب كورة صغيرة شرقى كورة مورور Moron تصل إلى البحر عند مالقة . فقد عرف الحميرى كيف يفرق بينها وبين شذونه Medina Sidoña وكانت أيضاً كورة صغيرة جنوبى الوادى الكبير ثم ضمت إلى كورة اشبيلية ، وهى الآن بلد صغير فى

---

(١) والزنجفور أو الزنجفر هو كبريتات الزئبق الحمراء red mercuric sulfide وكان من أهم المواد التى استعملها الناس منذ الزمن القديم للصباغ الأحمر ، ولهذا يسمى بالأحمر الطبيعى native vermilion ومناجه فى جبال المعدن Sierra Morena مشهورة فى الدنيا كلها ، ومدينة المعدن Almaden فى هذه الجبال لا زالت إلى الآن من أكبر مراكزه . (انظر دائرة المعارف البريطانية تحت لفظ Cinnabar) وانظر عن هذه المناجم وأهميتها المراجع التى أوردها بروفنسال فى تعليق رقم ١ ص ١٥ من الترجمة الفرنسية .

مديرية قادس فى منتصف المسافة بين الجزيرة الخضراء وشريش Jerez de la Frontera ، وقد خلط الكثيرون من الجغرافيين القدامى بين البلدين .

وأمثلة توفيقه فى الاختصار والاختيار — أو عرض خلاصة قراءات شتى — كثيرة ويبدو هذا فى صورة واضحة عند كلامه على أعلام جغرافية تتعلق ببحار أو أقاليم واسعة أو صغيرة أو جبال وما أشبه ، فمن أمثلة كلامه على البحار مادة أقيانُس التى ذكرناها ، ومن أمثلة كلامه عن أقاليم صغيرة كلامه عن إقليم الشَّرَف (رقم ٩٠ ص ١٠١ من النص العربى) وهو إقليم الزيتون الواقع شمال اشبيلية وشماليها العربى ممتداً إلى البرتغال ، ولا زال يسمى إلى الآن باسم Ajarafe أو Aljarafe (انظر الترجمة الفرنسية للروض ، ص ١٢٤ تعليق ٤) ومن أمثلة كلامه على أقاليم كبيرة كلامه عن « افرنجة » (رقم ٢١ ص ٢٦ — ٢٨) ، وقد ذهب ليفى بروفنسال (ص ٣٢ من الترجمة الفرنسية) أن المراد بها فرنسا ، ولكننا نحسب أن المراد هنا بلاد غربى ووسط أوروبا (عدا اسبانيا والجزر البريطانية وبلاد الشمال وإيطاليا) حتى حدود بلاد الصقالبة الروس ، وإليك نص القسم الجغرافى من المادة لتتبين قيمته :

« إفرَنْجَة : فى وسط الإقليم الخامس ، هواؤها غليظ لشدة بردها ، وصيفها معتدل ، وهى بلاد كثيرة الفاكهة ، غزيرة الأنهار المنبعثة من ذوب الثلج ، ومدائنها متقنة الأسوار ، محكمة البناء ، وآخر حدودها البحر الشأمى بقبليها ، والبحر المحيط بجوفيها ، وتتصل ببلاد رومة أيضاً من ناحية القبلة ، وتتصل أيضاً من ناحية الجوف ببلاد الصقالبة[1] ، بينهما شَعْراء ملتفة مسيرة الأيام الكثيرة ، وتتصل فى الشرق بالصقالبة[1] أيضاً ، وتتصل فى الغرب بالبَشكُنش[2] ، وتتمادى أعمال إفرنجة فى الطول والعرض مسيرة شهرين فى

---

(١) هذا التحديد يؤيد ما ذهبنا إليه من المراد ببلاد افرنجة هنا .

(٢) المراد بهم البسكيون Los Vascos الاسبان والفرنسيون ، ويسمى الاسبان منهم أيضاً Vascones ومن هنا أتت هذه الصورة العربية للاسم .

شهرين ، ويحجز بين بلاد إفرنجة وبلاد الصقالبة من الجوف والشرق[١] الجبلُ المعترض بين البحرين[٢] ، فيتمادى بلاد الإفرنج مع ساحل البحر الشأمى حتى يلزق بجزيرة رومة[٣] وبلاد أَنْقُبَرْدِيَة[٤] ، ويتمادى مع الجبل المعترض فى الجوف إلى البحر المحيط ، ويتصل بالصقالبة بلاد المجوس المعروفين بالأنقلش[٥] ؛ وسيوف إفرنجة تفوق سيوف الهند ، ومنها يرد الرقيق من بلاد الصقالبة ، ولا يكاد يُرى ببلاد إفرنجة زَمِنٌ ولا ذو عاهة ، والزنى فى غير ذوات الازواج عند الإفرنج غير منكر ، وإذا حلف أميرهم أو كبيرهم حانثاً استهانوه ، ولم يزالوا يعيرونه بذلك . وأبناء الاشراف عندهم يسترضعون فى الأباعد ، ولا يعرف الابن أبويه حتى يعقل ، وإذا عقل رد إليهما ، فيراهما كالسيدين ويكون لهما كالعبد » .

وقد نبه ليفى بروفنسال إلى أن جزءاً من هذه المادة منقول عن البكرى ، ونضيف إلى ذلك أن البكرى أخذ معلوماته عن تلك البلاد عن ابراهيم بن أحمد الطرطوشى . والغالب أن محمداً بن عبد المنعم الحميرى أطلع على رحلة الطرطوشى بنفسه ، وهذا ظاهر من سياق كلامه عن مدينة لورقة (انظر ص ١٧١) ، وسواء أخذ الحميرى عن البكرى أو الطرطوشى فالمادة نفيسة تدلنا على أن معلومات أهل الأندلس عن بقية أوروبا كانت صحيحة فى مجموعها ،

---

(١) أى من الجنوب الشرق والشرق .

(٢) ذهب بروفنسال إلى أن المراد بهذه الجبال جبال الألب ، ولكننا نظن أن المراد جبال الكربات .

(٣) أى شبه جزيرة إيطاليا .

(٤) سهل لبردية اسبة إلى اللمبارديين ، والصورة العربيـــة هى رسم لاسمهم فى اللاتينية Lungubardi ويكتبونه فى بعض الأحيان الانكبردة (بضم الكاف وفتح الباء) .

(٥) الانقلش هنا تعريف للاسم القديم لقبائل الانجليز Angles الذى اشتق منه اسم الانجليز ، والمراد هنا ليس الانجلز وحدهم بل شعوب الشمال أهل اسكنديناوة أيضاً ، وكانوا يعرفون عند الأندلسيين بالمجوس كما بيناه فى بحثنا عن يحيى الغزال ورحلته إلى بلاد الشمال .

وهذا أمر لا يستغرب من قوم كانوا أول من نقل إلى العربية كتاباً فى وصف أوروبا . وقد رأينا كذلك أطرافاً مما كتبه ابراهيم بن أحمد الطرطوشى والبكرى ، ومن أسف أننا لم نعثر إلى الآن على الجزء الذى كتبه ابن سعيد عن الأرض الكبيرة .

هذه صورة عامة عن تكوين ذلك المعجم الجغرافى ومادته ، وكلامنا مبنى في الأغلب على المواد الخاصة بالأندلس كما نشرها ليفى بروفنسال ، ولم نستطع الاطلاع إلا على جزء من الأصول التى نشر عنها ، ولا شك أن الكتاب كله فى حاجة إلى نشر عندما يتيسر جمع المخطوطات المتفرقة التى كانت فى حوزة هذا العلامة الفرنسى وحقق الكتاب عليها .

وبهذه المناسبة لا بد أن نذكر أن الترجمة الفرنسية التى قام بها للمواد الأندلسية من الروض المعطار والتعليقات التى أضافها إليها زادت فى قيمة الكتاب وأظهرت فضله ، وهذا مثال على العمل العلمى الجيد القائم على الاخلاص فى خدمة النص وقارئه ، ومن أحسن ما عمله بروفنسال بالإضافة إلى مقدمته للكتاب ذلك التحليل الدقيق لمادته (ص ٢٨ — ٣٤) فى آخر الترجمة الفرنسية ، فقد عمل ثبتاً بكل مواضع الكتاب التى وردت فيها معلومات جغرافية أو تاريخية أو أدبية ، وسأورد فيما يلى ترجمة للأبواب الجغرافية من ذلك التحليل ، وقد أوردها هو مشيراً إلى صفحات الكتاب ، وسنكتفى نحن هنا بذكر عدد المواضع فى كل حاله ، لأن غرضنا هو بيان قدر المادة العلمية للكتاب .

أولا : مصادر الثروة الطبيعية

ا — المعادن والتعدين : يرد الكلام عنها فى ٢٣ موضعاً .

ب — عيون المياه المعدنية فى ١٠ مواضع .

ج — نبات الأندلس الطبيعى : يتحدث عن ٤ نباتات فى ٨ مواضع .

د — زراعة الحبوب (القمح والشعير خاصة) فى ٨ مواضع .

هـ — الشجريات (وخاصة شجر الفاكهة) ، يتحدث عن ٧ أنواع من الأشجار فى ٢٦ موضعاً .

و — الكروم فى ١٢ موضعاً .

ز — الزيتون فى ١٢ موضعاً .

ح — شجر التوت وتربية دود القز فى ٥ مواضع .

ط — زراعات أخرى ذات قيمة إقتصادية مثل الصبغ السماوى والزعفران وما إليها فى ٦ مواضع .

ى — الرى : نظامه فى ١١ موضعاً من الأندلس .

ك — تربية الماشية فى ٥ مواضع .

ل — تربية النحل واستخراج عسله فى ٣ مواضع .

م — مصائد السمك فى ٥ مواضع .

ثانياً : النشاط الصناعى

ا — التعدين فى ٥ مواضع .

ب — مواد البناء والمحاجر فى موضعين .

ج — الطواحين فى ٩ مواضع .

د — دور الصناعة والصناعات البحرية (مثل استخراج الملح) فى ٨ مواضع .

هـ — محصولات تصدر إلى خارج الأندلس : ١٠ محصولات .

ثالثاً : معلومات عن المدن

ا — تحقيقات لغوية عن أصول اسمائها فى ٩ مواضع .

ب — أمثال خاصة بالمدن : ٣ أمثال .

ج — مواقع أثرية فى ٢٣ موضعاً .

د — أسوار قديمة ظلت قائمــة فى العصر الإسلامى إلى أيام المؤلف فى ٢٦ موضعاً .

هـ — بوابات : ٧ بوابات .

و — قلاع : ١٣ قلعة .

ز — قناطر وجسور قوارب : ٦

ح — مجارى مياه فى ٧ مواضع .

ط — مواضع استشفاء بالمياه فى ١٠ مواضع .

ى — مساجد ومساجد جامعة : ٣٠ مسجداً موصوفاً .

ك — كنائس وأديرة ومواضع مسيحية ذات قداسة : ١٠

ل — أسواق : ٢١ سوقاً .

رابعــاً : معلومات عن الضرائب

ا — إشارات إلى أقسام إدارية ضرائبية فى ١٣ موضعاً .

ب — إشارات إلى ضرائب فى ٧ مواضع .

وهذا الأحصاء يعطى القارىء فكرة عن قيمة الثروة الجغرافية والحضارية التى تضمها مواد هذا الجزء الخاص بالأندلس من الروض المعطار ، فإذا ذكرنا أن مواده المغربية تضم مثل هذا القدر من المعلومات ، وأن البلاد التى تيسرت له عنها مادة وافرة — مثل مصر — حظيت بمثل هذا القدر الوافر من التفاصيل تبينا بالفعل أن محمد بن عبد المنعم الحميرى أهدى المكتبة الجغرافية معجماً يعتبر بحق خطوة واسعة إلى الأمام فى تاريخ المعاجم الجغرافية العربية .

ولم نشر فى الكلام إلى مادته التاريخية لأنها خارجة عن موضوع هذه الدراسة ، ولكنها ينبغى أن تدخل فى الاعتبار عند التقدير العام لذلك المعجم ،

ومن حسن الحظ أن معظم المادة التاريخية التى ساقها فى هذا الكتاب تتناول عصرى المرابطين والموحدين وتعتمد على كتب لم نجدها أو لم نجد بعض أجزائها إلى الآن مثل تاريخ أبى مروان بن صاحب الصلاة وأبى التقى طاهر بن عبد الرحمن .

الاشارات الجغرافية فى كتابات ابن الخطيب

ونصل إلى لسان الدين بن الخطيب وهو آخر من سنتعرض لهم بالكلام فى هذا التاريخ ، لا لأننا نقطع بأنه آخر أندلسى نعرف له إسهاماً فى الجغرافية والرحلات ذات القيمة الجغرافية ، بل لأننا ينبغى أن نقف بالكلام عند نقطة ما ، وليس لدينا بعد ذلك شىء أندلسى محقق فى الجغرافية إلا مختصر جيد لجغرافية الأندلس وتاريخه كتبه رجل نحسب أنه عاش بعد ابن الخطيب ، ولم نعثر على اسم المؤلف أو عصره ، فإن القسم التاريخى من الكتاب يقف عند نهاية هشام المعتد آخر خلفاء المروانية الأندلسيين فى حين أننا نقرأ بخط مخالف على ظهر غلاف الكتاب أنه يصل بالحوادث إلى نهاية القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ، وسنلم بذكره بعد أن نفرغ من ابن الخطيب .

ثم إن ابن الخطيب نهاية معقولة لمثل هذا التاريخ ، فهو دون شك آخر السلسلة الذهبية من أعلام الفكر الأندلسى ، وعنده ينتهى علم التاريخ وفنون الأدب فيه ، ولا نعنى بذلك أنه لم يظهر بعده فى الأندلس مؤرخ أو ناثر أو شاعر ، بل معناه أنه آخر من انتهى إليه التجويد فى هذه الفنون ، فقد قال الشعر الجيد فى الأندلس بعد موت ابن الخطيب أبو عبد الله محمد بن يوسف الشريحى المعروف بابن زمرك (٧٣٤—٧٩٦ / ١٣٣٣—١٣٩٣) وكتب فى التاريخ بعده كذلك أبو الحسن على النُّبَاهى المالقى (توفى ٧٩٤ / ١٣٩١) ولكن هذين — وأمثالهما كثيرون — يبدون وكأنهم أصداء مترددة بل متلاشية بعد حفوت

الصوت الجهير وانقطاعه ، وهم بالنسبة لابن الخطيب كَنِسْبَة سلاطين غرناطة بعد محمد بن يوسف الغنى بالله إلى من قبله ، فإن عصر محمد الغنى بالله هذا هو الفاصل بين فترة الاستقرار والأمل فى البقاء قبله وخلال حكمه وفترةِ الفوضى والتراجع واليأس التى بدأت فى عهد ابنه وخليفته أبى الحجاج يوسف (الثانى) ابن محمد الغنى بالله (٧٩٣ — ٧٩٧ / ١٣٩١ — ١٣٩٤) واستمرت بعد ذلك قرناً من الزمان فى اضمحلال وتناقص مستمرين فيما خلا فترات قليلة قصيرة حتى انتهت بزوال مملكة غرناطة فى ٢ ربيع الأول ٨٩٧ / ٢ يناير ١٤٩٢

وكان ابن الخطيب معاصراً لمحمد الغنى بالله هذا ، وكان من كُتّابه ووزرائه كما كان من كتاب أبيه أبى الحجاج يوسف (الأول) بن أبى الوليد . وأخذ ابن الخطيب بنصيب وافر من الأهوال التى خاض غمارها سلطانه محمد الغنى بالله . ومن سوء الحظ أن مملكة غرناطة ابتليت من مولدها إلى مماتها بنقمة الشقاق والنزاع بين حكامها وأصحاب الأمر فيها ، ولم يستطع ابن الخطيب أن ينجو بنفسه من معاطب هذه المنازعات ، لأنه كان بطبعه طموحاً إلى السلطان والجاه حريصاً على المال والثراء ، وقد أشقاه هذا الطموح وذلك الحرص فدخل فى منازعات خطيرة وتعرض لخطوب وألوان من الهوان ما كان أغناه عنها .

ولن نقص هنا حياة لسان الدين أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد ابن محمد بن عبد الله السَّلْمَانى ، فقد أتينا بموجزها فى كتاب تاريخ الفكر الأندلسى (فقرة ٨١ ص ٢٥٢ — ٢٥٩) ، ورواها محمد عبد الله عنان فى مقدمة الجزء الأول من « الإحاطة » الذى حققه ونشره سنة ١٩٥٥ (٣٠ — ٥٨) ، وفى كتابه « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين » (الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٤٥٣ — ٤٦١) ، وأتى كذلك بدراسة شاملة مستفيضة لمؤلفاته فى الأدب والتاريخ والطب والموسيقى وما إلى ذلك مما شملته عبقرية ابن الخطيب وروى حياته بتفصيل كبير فرانثيسكو بونس بويجس فى كتابه الحافل الذى يستغنى عنه دارس فى تاريخ الفكر الأندلسى (رقم ٢٠٤ ص ٣٣٤ — ٣٤٦) ،

وقصّها أحمد مختار العبادى ومحمد ابراهيم الكتانى فى مقدمة الجزء الذى نشراه من « أعمال الأعلام » (الدار البيضاء ١٩٦٤) ، هذا بالإضافه إلى مادة بروكلمان عنه[١] .

وهذا كله يغنينا عن رواية تاريخ حياته وسرد مؤلفاته وهى كثيرة جداً ، لأن لسان الدين بن الخطيب كان رجلا واسع الثقافة متعدد الجوانب والاهتمامات الفكرية ، فكان شاعراً مترسلا مؤرخاً جغرافياً طبيباً عالماً بالموسيقى ، وكانت له معرفة بشئون الإدارة واطلاع على مسائل السياسة والحكم ، ومن حسن الحظ أنه كان مولعاً بالكتابة ، فألف فى ذلك كله وأفاض ، ولم يترك فكرة دارت فى ذهنه إلا كتبها أو معنى جال فى خاطره إلا أثبته ، ولو أحصينا صفحات ما كتب من المؤلفات العلمية لبلغت ألوفاً غير رسائله الديوانيات والإخوانيات وقد جمع منها الكثير فى مجلدات ، وأورد لنا المقرى فى « نفحه » عدداً كبيراً منها ، ثم ديوان شعره ، ولا بد أنه كان ضخما ، فقد كان الرجل مكثراً من الشعر يقوله فى كل مناسبة ، وإن لم يصل إلى مراتب الفحول إلا فى أبيات قلائل من ذلك الشعر الكثير ، ولم يكن ذلك — أحْسَبُ — عن قصور فى الملكة ، بل عن جمود فى العاطفة ، فأنت مهما تقرأ لابن الخطيب لا تحس أن قلبه وراء شىء مما يكتب ، وكل ما نقرا نه صادر عن مهارة ذهن وصنعة لسان ، وهذا فى وقت لم يكن ينفع غرناطة فيه غير القلب والاحساس .

وكان من الطبيعى أن يختص لسان الدين ابن الخطيب الجغرافيةَ بشىء من الكثير الذى كتب ، فهذا الكثير لم يغادر ضرباً من ضروب العلم العربى إلا تناوله ، فكان من البديهى أن يكتب فى الجغرافية والرحلات ، فإن الأولى كانت أخت التاريخ فى الأندلس ، وأما الثانية فقد عاش ابن الخطيب عمره

---

(١) تاريخ الأدب العربى ، ج ٢/٣٣٧ — ٣٤٠ والملحق ٢/٣٧٢ وكذلك مادة دائرة المعارف الإسلامية بقلم فردينان زايبولد ، الطبعة الأولى ج ٢/٤٢١

كله فى رحلة وتنقل ، وكان كما ذكرنا مُغرى بالكتابة لا يكاد يدور فى ذهنه خاطر إلا أودعه الورق ، ومن ثمّ فله فى وصف رحلاته أكثر من رسالة ونستطيع أن نحصى كتاباته فى الجغرافية فيما يلى :

١ — المقدمة الجغرافية لكتاب الاحاطة فى تاريخ غرناطة ، وهو معجم تراجم لأعلام الغرناطيين ومن حل بغرناطة من غيرهم .

٢ — المقدمة الجغرافية لكتاب اللمحة البدرية فى الدولة النصرية ، وهو تاريخ لسلاطين بنى الأحمر إلى أيامه .

٣ — رسالة خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف .

٤ — رسالة معيار الاختيار فى ذكر المعاهد والديار .

٥ — وصف رحلة قصيرة فى المغرب ضمّنه كتابه المسمى نُفاضة الجراب فى علالة الاغتراب .

٦ — مقامة مفاخرات مالقة وسلا .

فأما القطعتان الأولى والثانية فهما فى وصف غرناطة ، والثانية منهما مختصر للأولى مع إضافات مختلفة ، فهما فى الحقيقة عمل واحد يدخل فى صميم العلم الجغرافى كما نعرفه اليوم .

وأما القطعتان الثالثة والرابعة فهما وصف رحلتين فى قالب أدبى مسجوع هو أقرب إلى طريقة المقامات ، فهما بذلك أدخل فى ميدان الأدب منهما فى الجغرافية .

والقطعة الخامسة وصف رحلة فى نثر مرسل قريب مما نعرفه عند المجيدين من أصحاب أدب الرحلات عندنا .

والسادسة مقامة ، تمس الجغرافية من بعيد ، فهى محاورة بين الأندلس والمغرب متمثلين فى مدينتى مالقة وسلا ، وكل منهما تجتهد فى إظهار فضائلها ووجوه امتيازها على صاحبتها .

وعلى هذا فكتاباته فى الجغرافية والرحلات تقع فى أربعة أنواع : الوصف الجغرافى الخالص والرحلة الأدبية المسجوعة والرحلة العادية ثم المقامة الجغرافية .

١ — الوصف الجغرافى الخالص :
المقدمة الجغرافية لكتاب الاحاطة

على عادة الأندلسيين فى التقديم للتاريخ بالجغرافية حرص ابن الخطيب على أن يورد فى مقدمة « الاحاطة » وصفاً مطولا للمنطقة التى شملها سلطان مملكة غرناطة ، واختص العاصمة نفسها بوصف مطول . وهذه المقدمة الجغرافية تعتبر عنصراً فريداً فى بابه لا فى علم الجغرافية عند الأندلسيين فقط ، بل فى تاريخ العلم الجغرافى فى أوروبا كلها إلى أواخر العصور الوسطى ، فللمرة الأولى نجد بين أيدينا وصفاً جغرافياً مفصلا لاقليم صغير وعاصمته ، وقد جرى ابن الخطيب فى هذا على تقليد اتبعه بعض المشارقة ، فلدينا مثلا وصف مكة للأزرقى ووصف المدينة للسمهودى وخطط بغداد لأبى طاهر طيفور ، وقد جود الأندلسيون قبل ابن الخطيب فى وصف المدن الكبيرة وأقاليمها ، فللرازى كما ذكرنا كتاب فى وصف قرطبة وخططها . ولأبى جعفر بن خاتمة معاصر ابن الخطيب كتاب فى وصف المرية وفضائلها يسمى مزية المرية[1] ، بل سبق ابن الخطيب إلى صفة غرناطة والتأريخ لها أبو القاسم محمد بن عبد الواحد الغافقى المعروف بالملاحى فى مقدمة كتابه « تاريخ علماء البيره » والبيرة كانت بلدة صغيرة على بعد أربعة كيلومترات شمالى غرناطة ، كانت قبل ذلك عاصمة الاقليم ،

---

(١) يلاحظ أن الأندلسيين أخذوا فن التأليف فى وصف المدن والتاريخ لها عن المشارقة ، وهم أئمة هذا الفن دون شك ، وإلى مطالع العصر الحديث لا نجد فى أوروبا كتاباً يشبه ما كتبه الأزرقى والسمهودى وأبى طاهر طيفور فى مكة والمدينة وبغداد ، بل لا يوجد فى التراث العلمى العالمى فى تلك العصور ما يشبه كتاب خطط المقريزى وهو من أعاظم المؤلفات فى تاريخ العرب الفكرى .

ثم خمل أمرها وانتقلت الأهمية إلى غرناطة [1] ، ويبدو أن اعتماد ابن الخطيب على كتاب الملاحى كان كبيراً ، فهو يشير إليه فى مواضع كثيرة من الاحاطة .

ويعطينا ابن الخطيب فى كلامه المفصل فى الاحاطة وصفاً جغرافياً كاملا لغرناطة والاقليم الداخل فى مملكتها على أيامه ، ولا يشوب الطابع العلمى لهذا الوصف إلا حرص ابن الخطيب على إظهار بلاغته واهتمامه بعرض محصوله الوفير من اللغة ما بين ألفاظ وعبارات وتضمينات ، ولكننا نحمد الله على أنه تخلى فى كتابى الاحاطة واللمحة البدرية عما أولع به من السجع ، فارسل كلامه طلقاً لا يشوبه غير الاسهاب وكثرة المترادفات .

---

(١) أورد ابن الخطيب فى مقدمة الاحاطة (ج ١/٨٩ — ٩٣) ثبتا المراجع التى اعتمد عليها والمؤلفات فى تواريخ المدن وأوصافها التى سبقت كتابه . وهذا الثبت فى غاية الأهمية لمن يريد التأليف فى المدن وتاريخها عندنا . ويتبين من هدا الثبت اطـــلاع ابن الخطيب الواسع واحاطته النادرة بالمكتبة العربية فى التاريخ والجغرافية .

والبيرة أو ‌ـليرة أو يلبيرة كانت العاصمة القديمة للكورة التى سميت فيما بعد بغرناطة ، وكانت فى أصلها بلدة من انشاء الايبيريين القدماء قبل الرومان ، واسمها فى القديم Eliberri أو Iliberi ، والاسم مكون من مقطعين : ili = مدينة و berri بمعنى قديمة ، ثم عمرها الرومان وجعلوها قاعدة فيها مجلس بلدى وسميت فى نصوصهم Municipium Florentinum Iliberritanum . وعندما فتح العرب الأندلس سكنها الكثير من الجند الشاميين وموالى بنى أمية ، ثم اهتم بها عبد الرحمن الداخل وعمرها وابتنى جامعها وجعلها عاصمة كورة البيرة ، وقد ظلت لها هذه المكانة حتى قامت الفتنة الكبرى أوائل القرن الخامس الهجرى ووقعت الحرب بين العناصر الأندلسية والعناصر البربرية من قوات الخلافة المنتثرة ، فحمل البربر على البيرة وخربوها ، وعمر امراؤهم غرناطة التى تقع على نحو ٤ كيلومترات جنوبها وابتنوا فيها الحصون فأصبحت عاصمة الكورة وخمل أمر البيرة شيئاً فشيئاً حتى لم يعد لاسمها وجود الآن إلا فى قرية آبار إلبيرة Pozos de Elvira ، وباب من أبواب غرناطة العربية يسمى باب إلبيرة .

انظر المادة الوافية التى كتبها عنها فرديناند زايبولد فى الطبعة الأولى من دائرة المعارف الاسلامية ج ٢ ص ٢٦ — ٢٧ ، والروض المعطار لابن عبد المنعم الحميرى تحت غرناطة رقم ١٩ ص ٢٣ — ٢٤ والبيرة رقم ٢٥ ص ٢٩ — ٣٠ والترجمة الفرنسية والتعليقات بقلم ليفى بروفنسال ص ٢٩ — ٣١ و ص ٣٧ — ٣٩ من القسم الفرنسى .

وخير ما بين أيدينا الآن عن إلبيرة وإقليمها — إلى جانب ما يقدمه ابن الخطيب من معلومات — الفصل الذى أداره العذرى على إلبيرة (نصوص عن الأندلس بتحقيق الدكتور عبد العزيز الاهوانى ، مدريد ١٩٦٥) ص ٨١ — ٩٤

ولم يستطع ابن الخطيب الفصلَ بين الجغرافية والتاريخ ، وهو معذور فى هذا فقد كان ذلك هو التقليد الجارى — كما رأينا — حتى أن مادة العُذْرى عن كورة البيرة (وهو الاسم القديم لكورة غرناطة) معظمه تاريخ . وابن الخطيب يبدأ بتحقيق أصل الاسم ويشير إلى البيرة قائلا : « يقال غرناطة ويقال إغرناطة ، وكلاهما أعجمى ، وهى مدينة كورة إلبيرة فبينهما فرسخان وثلثا فرسخ . وإلبيرة من أعظم كور الأندلس ومَوْسَطة ما اشتمل عليه الفتح من البلاد ، وتسمى فى تاريخ الأمم السالفة من الروم سنام[1] الأندلس ، وتدعى فى القديم بقسطيلية[2] . وكان لها من الشهرة والعمارة ، ولأهلها من الثروة والعدة ، وبها من الفقهاء والعلماء ما هو مشهور . . . » ثم ينقل بعد ذلك فقرة عن عمارة إلبيرة ومسجدها الجامع . ويذكر كيف خمل أمرها خلال القرن الخامس الهجرى أثناء الفتنة الكبرى وانتقلت الأهمية إلى غرناطة ، ويختم هذه النقول بفقرة من كتاب تاريخ علماء البيرة لأبى القاسم محمد بن عبد الواحد الغافقى المعروف بالملاحى — نسبة إلى الملاحة La Mala قرية لا تزال قائمة إلى

---

(١) كذا فى مخطوط الاحاطة المحفوظ فى أكاديمية التاريخ (ورقة ١٠٨) وأثبتها عنان على هذه الصورة (الاحاطة ١/٩٩) ولم أجد ما يؤيد هذه التسمية فيما كتب عن غرناطة فى القديم . وقد ورد هذا اللفظ فى أحد مخطوطات «اللمحة البدرية» التى اعتمد عليها محب الدين الخطيب فى نشرها (القاهرة ١٣٤٧) : شام الأندلس (ص ١٢ تعليق ١) وهى صورة لا بأس بها ، غير أنهـا لا تنسجم مع الكلام قبلها .

(٢) تناول دوزى هذا اللفظ بالتعليق فى أبحاثه ١/٣٣١ — ٣٣٢ ودرس موضوعها بتفصيل فرانثيسكو خابيير سيمونث فى كتابه عن صفة مملكة غرناطة :

Francisco Javier Simonet, *Descriptión del Reino de Granada, Sacada de los Autores Arábigos* (Granada, 1872).

ومعظم مادته مستق من كتابات ابن الخطيب عن غرناطة . وخلاصة رأيه (ص ٣١ — ٣٣) أن قسطيلية — ومعناها القلعة Castellón - Castilla — كانت قلعة فى حوز بلدة إلبيرة القديمة ، وكان حاكم البلد يقيم فيه ويعتصم به أثناء الحروب العنيفة بين العرب والبربر . ثم غلب اسم إلبيرة وهى الحاضرة على اسم تلك القلعة وقد اعتمد سيمونيث فى ذلك على شواهد من كلام الرحالة لويس دى مارمول الذى طاف بنواحى غرناطة بعد خروجها من يد العرب بوقت قصير .

اليوم جنوب غربى غرناطة — ومن أسف أن هذا الكتاب قد ضاع فهو النموذج الذى احتذاه ابن الخطيب فى كتابة « الاحاطة » ولو عثرنا عليه لعرفنا إلى أى حد اعتمد ابن الخطيب على سابقه هذا فى تأليف كتابه .

وتلى ذلك فقرة طويلة تعتبر من أحسن ما لدينا من أوصاف البلدان ، وقد احتفل ابن الخطيب فى جمع مادتها من شتى المراجع التى كانت فى متناول يده ، ولكن المرجع الأكبر كان دون شك علمه وخبرته ، فقد نشأ ودرس فى غرناطة وتقلب فى شتى وظائف الدولة حتى وصل إلى الوزارة ، وملك زمام الإدارة فترات متطاولة ، وكان بطبعه ذا اهتمام بالمال والعقار والضياع والأرض والزروع والحاصلات وما أشبه ، فتجمعت لديه معلومات وافرة عن تلك الموضوعات الداخلة فى صميم الجغرافية وعرف كيف يصوغها فى قالب محكم ، ومن أسف أنه لم يعطنا كل ما عنده فى هذا الباب ، لأنه ساق المادة الجغرافية كمقدمة لما يليها من حديث التاريخ والأدب والتراجم .

ورغم هذا الايجاز فإن هذه المقدمة الجغرافية غنية بالمادة والمعلومات الدقيقة النافعة ، وهى تتضمن كل النقط التى كانت تدخل إذ ذاك تحت مفهوم الجغرافية ، ولن نستطيع إيراد هذا الوصف لأنه يقع فى نحو خمسين صفحة من النص المطبوع ، ولهذا فسنكتفى بايراد النقط الرئيسية التى يحتويها :

١ — تحقيق عن أصل اسم غرناطة والبيرة (وقد ذكرناه) .

٢ — مكان الأندلس من الاقاليم : يقع فى الاقليم الخامس ويقول صاعد ابن أحمد أن معظمه فى الخامس وجزء منه فى الرابع . تحديد الاقليم الخامس بصورة عامة (نقلا عن ابن سعيد فى الغالب) .

٣ — طالع غرناطة نتيجة للاقليم الذى تقع فيه .

٤ — موقع غرناطة من خطوط الطول والعرض . يلاحظ أنه يقول هنا ان غرناطة مساوية فى الطول بأمر يسير لقرطبة وميورقة والمرية . وهذا الكلام لا يفهم إلا إذا ذكرنا ما قلناه آنفاً من أنهم كانوا يتصورون أن شبه الجزيرة

مثلث وأن ساحله الشرق يسير فى خط مستقيم من الشرق إلى الغرب وهذا يستتبع تصورَ أن قرطبة وغرناطة والمرية تقع على خط رأسى واحد تقريباً ، ولما كانوا يتصورون أن الجزائر الشرقية (البليار) فى مواجهة المرية فقد قالوا إن ميورقة أيضاً تقع على نفس الخط ، إلى جنوبى المرية طبعاً .

وهو يقول أيضاً أنها مساوية فى العرض لاشبيلية والمرية وشاطبة وطرطوشه وسردانية . وهذا الطول أيضاً ناتج من ذلك الخطأ فى التصور .

٥ — تحديد للمسافات بين غرناطة وقرطبة (٩٠ ميلا) والبحر (٤ بُرُد) فاما الميل فكيلومتران وأما البريد فأربعة وعشرون ، وتقدير هذه المسافات يتوقف على الطريق الذى كان يتبع ، وبين قرطبة وغرناطة اليوم على الطريق الرئيسى ١٦١ ك. م. وبينها وبين أقرب نقطة إليها على البحر عند مطريل ٧٠ ك. م.

٦ — موقع غرناطة بين الجبال (يريد جبل الثلج أو شُلير أو سيرا نيفادا) والبراجلات ، جمع بِرجيلة أو بَرجاله وهو لفظ لاتينى معرب parcella ويراد به قطعة الأرض ، ولا يزال يستعمل إلى الآن فى هذا المعنى فى اللغة الاسبانية parcela ، وقد كان العرب عند ما نزلوا إقليم إلبيرة (أى غرناطة) قسموا بعض الأراضى قطعاً فنسبت إلى القبائل أو البطون فقالوا برجيلة قيس وبرجيلة أبى جرير ، واللفظ وارد عند ابن حيان فى كلامه عن ثورة عرب إلبيرة أيام الأمير عبد الله ، وقد كتب عنه سيمونت فى معجمه (٢٦٩—٢٧٠) ودوزى فى ملحق القواميس (١/٦٥) .

ويحدد ابن الخطيب موقع غرناطة من الكنبانيه ويراد بها سهل قرطبة وكان يعرف أيام العرب بالكنبانية أو القنبانية ، معرب عن Campinia ويراد به السهل الفسيح ، ثم يذكر نتائج هذا الموقع الفريد لغرناطة بين السهل والجبل وقرب البحر ، وهى نتائج اقتصادية تتلخص فى وفرة المياه والزراعات فى إقليمها ، فهى دائمة الفواكه و « بحر من بحور الحنطة » وهو لا ينسى هنا ذكر ما يمتاز به إقليمها من النباتات الترياقية أى ذات الخواص الطبية

ويختم ذلك بقوله : « فجسوم أهلها لصحة الهواء صلبة وسحنهم خشنه وهضومهم قوية ونفوسهم لمكان الحر الغريزى جَرِيَّة .

٧ — معادن إقليم غرناطة كما ترد فى فقرة للرازى وأخرى لمؤلف لم يذكر اسمه وأهمها الذهب والفضة والرصاص والحديد والتوتيا والمرقشيتا [١] واللازورد . وفى هذه الفقرة يرد ذكر كثير من النباتات الطبية وغيرها التى اشتهر بها إقليم غرناطة .

٨ — وبعد فقرتين طويلتين عن فتح العرب لغرناطة واستقرار طوائف من العرب فى اقليمها ووضع النصارى المعاهدين بها وما أصابه من تغيير نتيجة لحوادث معروفة رواها ابن الخطيب وغيره بالتفصيل .

٩ — يورد بياناً بما يحيط بغرناطة من الجنَّات والمدارج والغابات ومجارى الماء ، والجنات جمع جنة ويراد بها المزرعة ، ويقابل فى الإسبانية اليوم huerta ، وقد تسمى الجنة أيضاً بالفَدَّان ، والمدارج جمع مدرج والمراد به سفح الجبل المزروع ، وقد ذكر ابن الخَطيب عدداً كبيراً من هذه بأسمائها ، والمفروض أن هذه كلها كانت داخلة فى زمام البلدة نفسها .

١٠ — المرتفعات المحيطة بسهل غرناطة من ناحيــة الشرق وهى التى تستمر حتى تتصل بمرتفعات البَشارات ، وهو يصفها وصفاً دقيقاً ذاكراً تحصيناتها بالأبراج والخنادق والحصون وما تضمه من المزارع والرياض والأشجار . ويتحدث كذلك عن المرتفعات أو التلال الواقعة شمال غرناطة وجنوبها مثل البياسين وجبل الفخار وجنة العريف وما يتصل بها من الكُدَى (جمع كدية وهى التل من الحجر الرملى ، والكدى فى الغالب أقل ارتفاعاً من العروق) وكانت الكدى فى إقليم غرناطة خضراء مسكونة تقوم عليها المزارع والغابات ، وقد وصفها ابن

---

(١) المرقشيته أو المرقشيطة حجر ذو خواص طبية يغلب على الظن أنه البزموت ، وذكر ابن سينا أنه يوجد على أنواع مختلفة . راجع عنه جامع المفردات فى آخر كتاب « ضوابط دار السكة » لعلى ابن يوسف الحكيم بتحقيقنا ، مدريد ١٩٦٠

الخطيب وصفاً مفصلا وبيّن ما فيها من المزارع والمساكن والبساتين والمنازه وما تضمه من ثمار وأشجار وزهور ورياحين .

١١ — ما يقع خارج أسوار البلد من قرى وضياع ، والضيعة هنا تسمى الدار وكانت لبعضها أسماء معروفة فيقال : الدار المنسوبة إلى هذيل والدار البيضاء والدار المنسوبة إلى السّنيَّات ويقابل مصطلح الدار فى الإسبانية اليوم casería ، وشبيه بالدار البيدر ويراد به الدار الريفية تحيط بها ضيعة صغيرة ، وهى تقابل ما يعرف اليوم باسم cortijo . وهنا يذكر ابن الخطيب اسماء نحو ١٤٠ قرية من قرى إقليم غرناطة مع تفصيلات عن بعضها ، ويختم هذا الكلام بعبارة إحصائية عما يرتفع إلى خزانة الدولة من ضرائب هذه الأراضى والقرى وانتاجها من القمح وما إلى ذلك .

١٢ — ويخصص ابن الخطيب الفقرة الأخيرة من هذه الدراسة الجغرافية لغرناطة للكلام على السكان ، وهو شديد الاعجاب بهم يثنى عليهم ثناء قل أن قرأنا مثله لرجل فى أهل بلده ، وهذه سمة كريمة من سمات خلق ابن الخطيب ، ونحن إذا أسفنا لانطلاقه مع المديح انطلاقاً حال دون الوصف الدقيق للغرناطيين بما لهم وما عليهم ، فإنه لا يفوتنا أن نقدر هذه العاطفة القومية فى ذلك الرجل الكبير ، ويستوقف نظرنا قوله : « وصورهم حسنة ، وأنوفهم معتدلة ، وألوانهم زُهرٌ مشربة بحمرة ، وألسنتهم فصيحة عربية يتخللها غَرْبٌ كثير ، وتغلب عليهم الإمالة ، وأخلاقهم ابيَّة فى معانى المنازعات ، وأنسابهم عربية ، وفيهم من البربر والمهاجرة كثير ، ولباسهم الغالب على طرقاتهم الفاشى بينهم المَلَفُ المصبوغ شتاء ، وتتفاضل البزة بتفاضل الجِدَة والمقدار ، والكتان والحرير والقطن والمرعز والأردية الافريقية والمقاطع التونسية والمآزر المشفوعة صيفاً ، فتبصرهم فى المساجد أيام الجمع كأنهم الأزهار المفتحة فى البطاح الكريمة تحت الأهوية المعتدلة » فهذه صورة كأنها لوحة بريشة مصور ، وهى فى هذا الكتاب تحل محل الصور والرسوم التى لا تخلو منها

كتب الجغرافية ، وهذا فى ذاته عنصر هام من عناصر التأليف فى الجغرافية ، وقد أورد مثل هذه الصور الكثير من مؤلفينا ، ولكن هذه الصورة الدقيقة التى جلاها ابن الخطيب فريدة فى بابها ، فنحن نرى من خلالها أهل غرناطة تلك بملامحهم وهيآتهم وملابسهم وأشكالها وألوانها كأنهم أحياء يسعون أمامنا .

وفى هذه الفقرة يتحدث ابن الخطيب عن أشكال أزياء الملابس وعن طعام أهل غرناطة ثم عن النقود المستعملة فيها ، ويُجمل بالكلام على بعض عاداتهم وتقاليدهم ثم يتحدث عن نسائهم ، وهو شديد الإعجاب بهن ، لا يكاد يأخذ على أوصافهن إلا ميلهن إلى القصر ، ثم يختم هذه المقدمة الجغرافية بعبارة تنم عما كان يحس به من الخوف الدائم على بلده غرناطة ورجائه أن يكلأها الله بعنايته ويجنبها شر ما يحوم حولها من الأخطار : « وقد بلغن — أى نساء غرناطة — من التفنن فى الزينة لهذا العهد والمظاهرة بين المصبغات والتنفيش بالذهبيات والديباجيات ، والتماجن فى أشكال الحلى إلى غاية نسأل الله أن يغض عنهن فيها عينَ الدهر ويكفكف الخطب ، ولا يجعلها من قبيل الابتلاء والفتنة ، وأن يعاملَ جميعَ مَن بها بستره ، ولا يسلبهم خفىَّ لطفه ، بعزته وقدرته » .

هذه اذن دراسة جغرافية نستطيع أن نقول إنها كاملة ، فإنه لا ينقصها شىء أساسى مما تتضمنه الأوصاف الجغرافية الحديثة للبلدان فيما عدا العناصر التى تعتمد على العلم الحديث وأدواته مثل الاحصائيات والرسوم البيانية والبيانات الجوية ومقاييس الحرارة والضغط الجوى والأمطـار وما إلى ذلك . ومع هذا كله فإن القارىء لا يكاد يحس بنقص هذه العناصر ، لأن ابن الخطيب عرف كيف يعوض ذلك بأسلوبه السليم المحكم ، ولا أبالغ إذا قلت أن أحداً من الجغرافيين لم يجمع بين البلاغة العالية وإحكام الكلام ودقة التعبير كما تيسر لابن الخطيب فى هذه المقدمة ، وهو يحدد بها مستوى من المستويات الرفيعة التى بلغها العلم الجغرافى فى تاريخ الفكر العربى .

المقدمة الجغرافية لكتاب اللمحة البدرية

اللمحة البدرية من أصغر كتب ابن الخطيب ، ولكنه من أكثرها فائدة وأغزرها مادة ، فهو تاريخ مختصر لبنى نصر أوجز فيه تاريخ هذه الأسرة إلى أيامه ، وقد قدم له بمقدمة جغرافية شبيهة بمقدمة « الاحاطه » وربما يترامى إلى الظن أول الأمر أنها مختصر لها ، ولكن الحقيقة أن هذا لا ينطبق إلا على فقراتها الأولى ، ثم تنفرد بعد ذلك بمعلومات لا تقل فى القيمة عما وجدناه فى مقدمة الاحاطة .

ومن حسن الحظ أن ابن الخطيب صاغ هذا الكتاب كله فى نثر مرسل لا تشوبه عقبات السجع والتكلف ، وأرسله فى أسلوب فخم متين هو دون شك من أجمل نماذج النثر العربى العلمى الرصين ، ومثال ذلك قوله :

« وأما ما حازه السهل من جوفية[١] فمنى عظيمة الخطر ، متناهية القيم ، تضيق جدة[٢] مَن عدا أهل الملك عن الوفاء بأثمانها . منها ما يغل فى السنة شطر الألف من الذهب[٣] على خمول أثمان الخضر بهذه المدينة ، يختص منها بمستخلص[٤] السلطان ما يناهز ثلاثين مُنْية[٥] . ويحيط بها ويتصل بأذيالها من العقار الثمين الذى لا يعرف الجمام[٦] ولا يفارق الريع ما ينتهى المرجع[٧]

---

(١) المراد هنا سهل غرناطة ، وجوفيه معناها غربه .

(٢) الجدة هنا الثروة أو القدرة المالية .

(٣) أى ٥٠٠ دينار فى السنة .

(٤) أى أملاك السلطان .

(٥) المنية فى الأندلس هى البيت الريفى تحيط به أرض واسعة يزرعها صاحبها لنفسه خاصة فيجعل بعضها حديقة والبعض الآخر يزرع فيه ما يحتاج إليه ، وهى تقابل فى المصطلح الاسبانى huerta والجمع منى .

(٦) أى الذى يزرع باستمرار .

(٧) المرجع مقياس للارض يعدل نحو ٥٠٠ متراً مربعاً تقريباً ، وقد انتقل إلى اللغة الاسبانية فى صورة Marjal ، وكانت قيمة الأرض الزراعية فى فحص غرناطة تختلف بحسب خصبه وما فيه من الماء ، وفى الوثائق الغرناطية الخاصة بالقرن الخامس عشر الميلادى تراوحت أثمان المراجع بين =

العملى منه إلى نحو خمسة وعشرين ديناراً من الذهب لعهدنا هذا ، وفيه من مستخلص السلطان ما تضيق عنه بيوت الأموال ذرعاً وغبطة وانتظاماً ، يرجع إلى دور ناجمة وبروج سامية وبيادرَ فسيحة وقصابٍ للحمائم والدواجن ماثلة ، منها فى حمى البلدة وطوق سورها من مستخلص السلطان ما ينيف على العشرين ، بها الجمل الضخمة من الرجال والفحول الفارهة من الحيوان للاثارة وعلاج الفلاحة ، وفى كثير منهـا الحصون والارحاء والمساجد . ويتخلل هذا المتاع الغبيط الذى هو لباب الفلاحة وعين هذه المَدَرة الطيبة سائرَ القرى والبلاد التى بأيدى الرعية ، مجاورة لحدود ما ذكر بلاد عريضة وقرى آهلة : منهـا ما انبسط وتمدن فاشترك فيه الألوف من الخلق وتعددت فيه الأشكال ، ومنها ما انفرد بمالك واحد أو اثنين فصاعداً وتنيف أسماؤها على ثلاثمائة ، تنصب فى نحو خمسين منها منابر الجمعات [تقام فيها الصلوات[1]] وتمد الأكف البيض وترفع الأصوات الفصيحة لله . ويشتمل سور هذه المدينة وما وراءه من الارحاء الطاحنة بالماء المعين على أزيد من مائة وثلاثين رَحىً » .

وهذا الوصف يعتبر من أحسن وأدق ما لدينا من أوصاف المواضع الصغيرة المحددة مثل فحص غرناطة الأفيح وكان يعرف أيضاً بالبقاع ، وهذا اللفظ الأخير هو الأصل الذى حرف عنه لفظ فيجا الاسبانى وجمعه las vegas ، وكلام ابن الخطيب يدل على تصور سليم لمطالب الوصف الجغرافى .

وتكمل هذا الوصف فقرة تعتبر وثيقة جغرافية تاريخية ، فإن ابن الخطيب يذكر فيها أقاليم مملكة غرناطة التى يسميها « الوطن الشريف » وهى تسمية

= ٤ و ٦ دنانير ، وكان وزن الدينار ٢,٢٢ جراماً من الذهب عيار ٢٢ قيراطاً ، وكانت العادة أن يتعامل الناس بدنانير الدراهم ، أى بقيمة الدينار بدراهم الفضة ، وكان الدينار يعادل بعشرة دراهم فضة ، وقيمة الدرهم الواحد ١٧٠ ومن جرام الذهب عيار ٢٢ قيراطاً :

انظر ترجمتنا لمقدمة الوثائق العربية الغرناطية ، بتحقيق لويس سيكو دى لوثينا ، مطبوعات معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ١٩٦١ ص ١٩م — ٢٠م.

(١) أضفت هذه العبارة للسياق .

جميلة تدل على حب ابن الخطيب لوطنه الأندلسى واعتزازه به ، وهذه الوطنية تعتبر من خصائص ابن الخطيب ، لا يزال يرددها فى كتاباته ، وهى مرتبطة عنده بمعنى « العروبية » أى ما نسميه نحن اليوم بالعروبة .

والاقليم فى المصطلح الادارى الأندلسى هو القسم الادارى فى مصطلحنا اليوم ، وعندما كان الأندلس بكماله كان مقسما إلى كور والكور إلى أقاليم وأجزاء ، فالاقاليم بحسب ما انتهى إليه بحثنا أقسام إدارية ، كل قسم (أو إقليم) منها حوز مدينة ، أى المنطقة التى تتبع المدينة إدارياً ومالياً ، والجزء منطقة أحراش وغابات ومراع مشاع لاهل الإقليم المحيط بها ، وهى تقابل ما يسمى باسم Compascua فى المصطلح اللاتينى ولفظ — أرض الكلأ فى المصطلح العربى ، ولكن عندما اقتصر الأندلس على منطقة غرناطة ، وكانت تضم كورتين أو ثلاثا من صغار كور الأندلس الكبير القديم ، لم يعد الأمر يحتمل التقسيم إلى كور أو مديريات ، فاقتصر على الأقاليم — وقد ذكر ابن الخطيب أن مملكة غرناطة كانت مقسمة إلى ٣٣ إقليما ذكر معظمها وأضاف إلى بعضها ملاحظات ذات قيمة جغرافية أو تاريخية ، وقد حققها فرانثيسكو خابيير سيمونيت فى كتابه العتيق الذى جمع فيه أوصاف غرناطة عند نفر من مؤلفينا القدامى ، وسنورد فيما يلى أسماء هذه الأقاليم ومقابلاتها الاسبانية الراهنة وملاحظات ابن الخطيب وسيمونيت عليها ، رامزين للاول بحرف خ وللثانى بحرف س :

اسم الأقليم	مقابل الاسم العربى إن وجد	ملاحظات ابن الخطيب وسيمونيت
أونيل		لا يوجد حالياً ولا فى النصوص القشتالية القديمة اسم موضع على هذه الصورة . س
الفحص	Albox ؟	اسم قرية . س

اسم الاقاليم	مقابل الاسم العربى إن وجد	ملاحظات ابن الخطيب وسيمونيت
تاجرة الجبل	Tachara	حصن كان موجوداً إلى حين قريب قرب الحامة .
مسنيط	Loja	وهو بلدنا لوشة . قال ابن حمامة فى تاريخه : لوشة من إلبيرة غرباً ، وقبلة من قرطبة على نهر شنيل ، بنيت عام ٢٨٠ زمن عبد الله بن محمد جد الناصر . قاله عريب فى كتابه ، وهى بلد كثير الخصب متدفق المياه كثير الحصون والقرى جامع للمرافق . خ
برجيلة قيس	Berchul - Berchules	ذهب س إلى أن لفظ برجيلة لا يعرف له أصل ، وسبق أن ذكرنا أنه معرب من parcella وفيه حصن منت لوزنه el Castillo de Monte Luzena . خ ـ س
برجيلة اندره	Andaral ؟	حصن اندرال الذى ذكره س قريباً من غرناطة ، وقربها قرية قنالش بنى حربون التى ذكرها خ la aldea de Canales . س
برجيلة أبى جرير		وهى حصن « بكور » . خ
برجيلة البنيول	Albunieles	فى بعض النسخ ورد البيلول والنليول والموضع الحالى ضيعة صغيرة cortijada كانت تعرف قبل العرب باسم Viniolis . س وفيه حصن منتشاقر Montexicar . خ

اسم الاقليم	مقابل الاسم العربى إن وجد	ملاحظات ابن الخطيب وسيمونيت
قلعة يحصب	Alcalá la Real	بين غرب وجوف من إلبيرة على ٢٠ ميلا . خ
باغه	Priego	وهذان الإقليمان استولى عليهما العدو على عهدنا عقب الكائنة بطريف ، فعظم فيهما الفجع . خ
مشيلية	Benamegí	عرف هذا الوضع فى المدونات الاسبانية باسم Benamexil وفى بعض النصوص العربية : بنو مشيل . س
القبذاق	Alcaudete	وهو أيضاً مما تقدم التغلب عليه . خ
قنب قيس	؟Cambea o Quempe	معرب من Campus . س
قنب اليمن		
الأشر	Aluchar o Luchar	وفيه حصن نوالش خ = Nigüelas .س
شلوبانية	Salobreña	وفيه المعقل العظيم بشاطىء البحر ، فيه للسلطان قصور نبيهة وبساتين عظيمة . خ
المنكب	Almuñecar	وفيه المدينة العتيقة ذات الآثار العجيبة . خ
بشرة بنى حسان		وفيه حصن برجة Berja والعذراء Adra والقليعة Alcolea وحصن شبالش Xupiles ودلاية Dalías خ و س . وبهذا الإقليم غبط كثير وعمران عظيم وهو معدن من معادن الحديد .
بريرة	Fereira	وفيه حصن أرجبه Orgiva والأنجرون

اسم الاقليم	مقابل الاسم العربى إن وجد	ملاحظات ابن الخطيب وسيمونيت
		Lanjarón وحصن أندرش Andaráx وهو جليل المجبى عظيم المثونة خ. س.
أرش قيس	Orce	الأرش هو عطية الأرض أو الأقطاع وكانت فى الأندلس أروش كثيرة واللفظ من عربية اليمن . وفيه مرشانة Marchena ومندوشر وحصن بلذوذ Alboloduy خ . س .
أرش اليمن		وفيه مدينة المرية معقل الإسلام ذات القصبة الشهيرة والجبـــاية الغزيرة والبساتين النضيرة والزمم (جمع زمام) الخطيرة . ويرجع إليها من الحصون بشرقيها وغربيها عدد كثير كطبرنش Tabernas وهى بلد كبير فيه المساجد والحمام . خ . س .
أرش اليمنيين		فيه مدينة بنى سام بن مهلهل وهى مدينة وادى آش Guadix إحدى قواعد الإسلام لا نظير لهـــا سقياً ومتعة ونضارة ، ويرجع إليها من الحصون النبيهة الجليلة جملة . خ
أرش اليمانى		فيه القليمـــة Alcolya ومنت روبى Monterrubio فيه مدينــــة فنيانه Fiñana وهى كلهـــا غزيرة السقيـــا والثمـــار . خ
فزارة		

اسم الاقليم	مقابل الاسم العربى إن وجد	ملاحظات ابن الخطيب وسيمونيت
بنى أوس		
بنى أمية		من هذه الناحية جاء ابن أمية Aben Humeya صاحب Válor زعيم الموريسكيين الذين ثاروا أيام فيليب الثانى س .
فرنش	Fornex o Fornes	وفيه حصن الصخيرة خ .
دور والفخص		وإقليم الفحص خمسة أقاليم (صغار) : همدان Alhendín والفخار Alfacar وانبلاط وقلوبش والكنائس خ [١].

وأضاف ابن الخطيب بعد ذلك : « ذكر ذلك أبو القاسم الملاحى وغيره ، وأغفل أكثر مما أثبت ، وجلالة هذه المدينة أعظم . وهذه الأقاليم منها ما استمرت إلى الآن شهرته بما دُعِيَ به ، ومنها ما عَمَّ الجهل به على عادة الدهر مُبْلِي الأسماء والمسميات ، وماحى الاعلام والسمات ، والبقاء لله » .

هذا البيان يصور لنا إحاطة ابن الخطيب بجغرافية بلده وقدرته على عرض حقائقها فى أسلوب دقيق يمكن أن يوصف بأنه علمى . ومن الواضح أن سياق كلامه والمصطلح الذى يستعمله ينبىء عن تطور واسع المدى فى طريقة الكتابة فى الجغرافية ، فإن ابن الخطيب لا يكاد يخلط بالجغرافية شيئاً من مادة علم آخر ، ولا أثر لأحاديث العجائب فى كلامه ، بل لا نلمح عنده أى ميل إلى

(١) ابن الخطيب ، اللمحة البدرية ، بتحقيق الشيخ محب الدين الخطيب ، القاهرة ١٣٤٧ ص ١٨—١٩ و Francisco Javier Simonet, *Descripción del Reino de Granada, sacada de los autores arábigos*. Granada, 1873, pp. 221-223.

البلاغة الكلامية التى لا تنطوى على مادة نافعة ، ثم إن اهتمام ابن الخطيب بالناحية الاقتصادية والغلات والزروع واضح ، وهو اهتمام يمكن أن يرد إلى عنايته الشخصية بكل ما يتصل بالأموال والعقار والغلات ، ولكنه يدل على وعى إلى الحقائق الاقتصادية .

فإذا أضفنا تلك المادة الجغرافية فى « اللمحة البدرية » إلى ما ذكرناه متصلا بهذه الناحية فى « الاحاطة » تكونت لدينا فكرة واضحة عن ابن الخطيب الجغرافى وتبينا أن هذه الناحية من ملكاته تحدد مستوى رفيعاً فى الكتابة الجغرافية فى الأندلس ، وهو مستوى وصل إليه الأندلس بعد تجارب الأجيال فى معاناة التأليف فى الجغرافية . وليس بغريب أننا لا نجد بَعدُ مَن تخطى هذا المستوى وأعلى عليه ، إذ هو فى الحقيقة أعلا ما كان يمكن الوصول إليه فى تلك الأزمان ، وإذا كان ابن الخطيب آخر فحول المفكرين الأندلسيين ، فإن هذه الناحية الجغرافية تكشف لنا عن جانب من أحسن جوانب فحولته ، وتضيف إلى تاريخ العلم الجغرافى فى الأندلس كسباً عظيماً يمكن أن يوصف بحق إنه مسك الختام .

٢ — المقامات الجغرافية

وربما لم يتنبه ابن الخطيب نفسه إلى هذه الملكة التى أوتيها ، فقد كان رغم تعدد ميادين امتيازه كالطب والأعشاب والتاريخ (والجغرافية هذه) يرى نفسه أديباً شاعراً ، وقد ألف ما قدر عليه فى هذه الميادين بعقلية الأديب الشاعر وذوقه ، ومن ثم فهو لا يزال فى كتاباته يجوِّد ويتأنق حتى تكاد كتاباته العلمية أن تكون أدباً صرفاً فى بعض الأحيان ، ومن حسن الحظ أن كتابيه الاحاطة واللمحة البدرية وبعض مؤلفاته الصغيرة الأخرى نجت — إلى

حد ما — من ذلك الانسياق مع طبع الأديب فسلمت مادتها العلمية من طوفان السجعات والمترادفات .

ولكن طائفة أخرى من كتاباته الجغرافيات وأوصافه للرحلات لم تستطع الفكاك من أسر النزوع الأدبى ، فجاءت أدباً خالصاً كادت معه المادة الجغرافية أن تضيع أو مسخت مسخاً مؤسفاً ، ونحب أن ننبه إلى أننا نعنى بالأدب هنا مفهومه فى عصر ابن الخطيب ، أى أدب السجع والبهارج اللفظيــة التى أولع الناس بها من أيام بديع الزمان الهمذانى والصاحب بن عباد فى المشرق ، ثم انتقلت إلى المغرب والأندلس فغلبت على فن النثر فى أندلس القرن الخامس الهجرى وما تلاه ، ولم يزل سلطانها يشتد حتى بلغت ذروتها على يد ابن الخطيب ، ولا نعنى بالأدب مفهومه السليم كتجويدٍ للتعبير النثرى والاقتراب به من مثله الأعلى ، وهو أن يكون الكلام مطابقاً المعنى مع الجمال والتناسق والبلاغ الذكى كما نرى عند رجل مثل الجاحظ ، لأن هذا الطراز من البلاغة السهلة الممتنعة إنما هو المطلوب عند التأليف فى العلم .

كتابات ابن الخطيب الأدبية فى الجغرافية والرحلات كثيرة ، وهى تتفاوت فى طرازها الأدبى وخضوعها للسجع والزينة اللفظية أو تحررها منهما ، ولكنها تشترك فى صفة واحدة ، وهى أن الغاية من كتابتها لم تكن بيان حقيقة جغرافية أو تاريخيه وإنما عرض مهارة ابن الخطيب الأدبية ، والحقائق النافعة تجىء عفواً أو ضمناً ، وهى فى كثير من الأحيان تبدو لنا وكأنها حطام متناثر فى ماء مضطرب ، فهى لا تجمع إلا فى مشقة .

وهذه الكتابات الأدبية الجغرافية يمكن تقسيمها إلى ضربين : « المقامة الجغرافية » و « الرحلة الأدبية » ، ولدينا من كل من هذين الضربين نماذج وافرة نستطيع الاعتماد عليها ، ومن حسن الحظ أن الدكتور أحمد مختار العبادى جمع أربعاً من هذه النماذج ونشرها مع مقدمات وتعليقات فى كتاب لطيف

عنوانه « مشاهدات لسان الدين بن الخطيب فى بلاد المغرب والأندلس » نشرته جامعة الاسكندرية سنة ١٩٥٨ ، وعلى هذا التحقيق معولنا فيا يلى من الكلام .

كتب ابن الخطيب مقامات كثيرة ، ومن الطبيعى ألا يجد أى صعوبة فى كتابتها ، لأن هذا اللون من التأليف لا يتطلب من الجهد إلا البحث عن الألفاظ ، وكانت ثروة ابن الخطيب منها وافرة ، ولهذا فقد أجاد فى هذا الباب وأكثر . ولم يدع ضرباً من ضروب تأليف المقامات إلا تناوله ، فكتب مقامة الرحلة ومقامة المفاخرة ومقامة السؤال والجواب ومقامة القصة ، وهذه الثلاثة كانت فيا نعتقد أحسن أنواع المقامات وأقربها إلى نفوس القراء فى تلك العصور .

ويهمنا من هذه المقامات الخطيبية هنا ثلاث هى :

١ — خطرة الطيف فى رحلة الشتاء والصيف .

٢ — مفاخرات مالقة وسلا .

٣ — معيار الاختيار فى ذكر المعاهد والديار .

خطرة الطيف فى رحلة الشتاء والصيف (١)

هذه المقامة تصف رحلة ابن الخطيب فى رفقة سلطان غرناطة أبى الحجاج يوسف بن نصر (٧٣٣ — ٧٥٥ / ١٣٣٣ — ١٣٥٤) لتفقد أحوال الجانب الشرقى من مملكة غرناطة .

---

(١) اورد الدكتور العبادى فى مقدمة « مشاهدات ابن الخطيب » دراسة وافية لهذه المقامة وتفصيلا عن الأصول التى اعتمد عليها فى نشرها ، وهى المخطوط رقم ٤٧٠ بمكتبة الاسكوريال (ورقة ٥١ — ٦٩) ونصها الوارد فى كتاب « ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب » (مخطوط بالاسكويال رقم ١٨٢٥ (لوحة ٢٢٠ — ٢٢٧) ، وقد سبق إلى نشرها على أصل الريحانة فقط ماركوس يوسف مولر :
Marcus J. Müller, *Beiträge zur Geschichte der westlischen Araber*, I (München, 1866), 15-40.

بدأت الرحلة من غرناطة فى ١٧ محرم ٧٤٨/٣٠ أبريل ١٣٤٧ واتجهت نحو وادى آش ثم بسطه Baza وبرشانه Purchena ومرت بعد ذلك ببلدة بيرة Vera ، وهى بلد صغير قرب شاطىء البحر الأبيض ، وكانت إذ ذاك آخر حدود مملكة غرناطة شمالا فى هذه الناحية الشرقية ، ولهذا يصفها ابن الخطيب بأنها « الثغر الأقصى ، ومحل الرباط الذى أجر ساكنه لا يحصى » وهى عبارة تدعو إلى العبرة والأسى إذ أن بيرة لا تبعد عن العاصمة غرناطة كثيراً ، ولكن تضاؤل مساحة الأندلس الإسلامى أيام مملكة غرناطة جعلها تبدو فى نظر ابن الخطيب ثغراً أقصى ، ثم عاد الركب عن طريق المرية — وكانت إذ ذاك من أكبر مدن المملكة — وبجانه Pechina ومرشانة Marchena وفنيانه Fiñana فغرناطة . وقد فرغ ابن الخطيب من تدوين الرحلة فى ٨ صفر ٧٤٨ أى قبل أن تنقضى ثلاثة أسابيع على بدئها ، ويمكن القول بهذا أنها دامت أسبوعين قطع الركب فيها حوالى ٢٠٠ كيلومتراً، فهى على الحقيقة رحلة صغيرة فى الزمان والمكان .

وقد زادها ابن الخطيب قِصَراً باستعماله السجع فى وصفها ، فضاع معظم الحيز فى سجعات ومترادفات وما لابد منه فى المقامات من مقطعات الشعر ، وفى غمار هذه ضاعت دقة الوصف وصدق التفصيل ، فهو يصل مثلا إلى نهير صغير متفرع من شنيل يسمى فَرْدَس Río Fardes فيقول : « وكان بوادى فردس النزول ، منزل خصيب ومحل له من الحسن نصيب » ، ثم يسترسل فى سجعاته حتى يمر بوادى الحامة ، وهو نهر صغير تقع عليه بلدة الحامة ، حيث قضى الركب ليلته الثانية بعد أن عرض السلطان الجند ونظر فى أحوال البلد ، وكلام ابن الخطيب هنا ذو قيمة تاريخية ، لأنه يصف استقبال الناس للركب ويذكر شيئاً من هيئاتهم ، أما المادة الجغرافية فقليلة : « فخيمنا ببعض رُباها المطلة ، وسرحنا العيون فى تلك العمالة المغلة ، بالزروع المستغلة ، فحياها الله من بلدة أنيقة الساحة ، رحبة المساحة ، نهرها مطرد ، وطائرها غرد ، يبكى السحاب فيضحك نورها ، ويدندن النسيم فترقص حورها . . » ، وهذا كله

كلام يمكن تلخيصه فى مثل قولنا إن الحامة كانت تقع وسط إقليم خصب وافر المياه غنى بالزروع والحاصلات .

وفى بعض الأحيان يسترسل مع موسيقى السجعات المتشابهة فيغرق فى المبالغة إغراقاً يتلاشى معه كل معنى من معانى الحقيقة الواقعة ، ومن أمثلة ذلك قوله فى الأراضى المحيطة ببلد بسطة :

« وكان ملقى الجران منابت الزعفران بسطة حرسها الله ، وما بسطة ؟ محل خصيب ، وبلدة لهـا من اسمها نصيب ، بحر الطعام ، وينبوع العيون المتعددة بتعدد أيام العام . ومعدن ما زُين للناس حبه من الحرث والأنعام . يالها من عقيلة ، صفحتها صقيلة ، وخريدة محاسنها فريدة ، وعشيقة (نزعاتها) رشيقة ، لبست حلى الديباج الموشى ، مفضضة بلجين الضحى . . » .

فهذا كلام كله مبالغات وتهويلات ، ومهما قيل فى غنى الأراضى حول بسطة فإنها لا تصل إلى قريب من ذلك الوصف .

وهنا وهناك ، وعند ما ندقق النظر نعثر على بعض المعلومات ذات القيمة ، ففى كلامه عن بسطة هذه نقرأ أنه كان فيها مسجد يعرف بمسجد الجنة وأن أحد أبوابها كان يسمى باب المسك ، وأن قرية قنالش Canales كانت « كبرى بنات » بسطة ، أى أكبر القرى التابعة لها إدارياً ، وانه كان إلى جانبها سهل فسيح يسمى لحص الأنصار وفيه غابة تسمى المضير قرب حصن شيرون Serón ويلى ذلك نهر يسمى وادى المنصورة ولا يزال يسمى الى الآن Guadalmanzor أو Río de Almanzor وكان يعرف عند العرب كذلك باسم وادى بيرة نسبة إلى مدينة بيرة Vera ، وهنا يبلغ ابن الخطيب فى الاغراق فى زينة اللفظ حداً يصعب معه أن تجد أى حقيقة جغرافية ذات بال . . إليك على سبيل المثال القطعة التالية يصف فيها مرور الركب بنهر المرية ووصوله إلى مرشانة ، قال :

« . . . إلى مرشانة وهى الكوكب الأعلى ، والأشهب المحلىّ ، والصباح إذا تجلى ، والعروس على المنصة تجلى . وبها حلت الغيوم سموطها ، ومدت عناكب

السحاب خيوطها ، فبتنا وعيون المزن باكية ، والمنازل من توقع فراقنا شاكية واستقبلنا الوادى نجعله دليل تلك الطريق ، ونتبعه فى السعة والضيق ، فكم مخاضة منه عبرنا ، وعلى مشقتهـــا صبرنا ، حتى قطرت الأذيال والأردان ، وشكت أذى الماء الأبدان . . . » .

مفاخرات مالقــة وسلا

هذه المقامة أغنى مادة وأكبر قيمة من مقامة « رحلة الصيف » ربما لأنها اقتصرت على بلدتين اثنتين واحدة من الأندلس وهى مالقة والأخرى من المغرب وهى سلا ، ولهذا السبب لقيت من عناية الباحثين أكثر مما لقيت سابقتها ، فقد نشرها معاً كل من ماركوس مولر والعبادى فى كتابيهما الآنفى الذكر ، وتناول راينهــارت دوزى تحقيق مولر بنقد طويل فى مجلة جمعية الاستشراق الألمانية (مجلد ٢٠ ص ٦١٦ وما يليها) ، وعكف على دراستها فرانثيسكو خابيير سيمونيت واستخلص مادتها لكتابه عن صفة مملكة غرناطة ، وانتقى منها دوزى ما حاجه من الألفاظ لذيله المعروف على القواميس العربية ، ثم ترجمها إلى اللغة الإسبانية الأستاذ إميليو غرسية غومس ، وقدم لترجمته بدراسة وعلق عليها شروحاً وافية[1] ، فهى والحالة هذه أسعد ما كتب ابن الخطيب حظاً من النشر والترجمة والدراسة والشروح .

ولا ندرى شيئاً عن السبب الذى حفز ابن الخطيب على إنشاء هذه المقامة ، فهو يقول فى مستهلها أن واحداً من أصحــابه سأله أن يقوم بهذه المفاضلة ،

---

(١) نشرها العبادى فى « مشاهدات ابن الخطيب » ص ٥٧ — ٦٦ ، أما مقال غرسية غومس فهو :

Emilio García Gómez, *El Parangón entre Málaga y Salé de Ibn al-Jaṭīb*, Al-Andalus, II, 1934 fasc. 1, pp. 183-194.

وقد أورد كلاهما فى مقاله بياناً بالمراجع الخاصة بهذه المقامة .

فاستجاب لما طلب إليه ، ولكن الأغلب أن هذه تعلة لما رمى إليه من تفضيل الأندلس على المغرب فى صورة مفاخرة بين ميناءين : أندلسى هو مالقة ومغربى هو سلا ، نقول هذا لأن المقامة فى الحقيقة ليست مفاضلة وإنما هى تعظيم مبالغ فيه لمالقة وحملة تخلو من الذوق على سلا ، وهى مدينة طالما آوت ابن الخطيب وأحسنت إليه ، ولكن هكذا كان شأن الكثيرين من الأندلسيين مع المغرب — وغير المغرب — من البلاد وخاصة فى العصور المتأخرة ، فهم يزهون عليها جميعاً ، ولا يرون أن فى الدنيا كلها ما يعدل بلدهم ، وهو مذهب مشكور لو أن الأندلسيين أيدوه بالتفانى وبذل الارواح . ولو فعلوا لنجت غرناطة قطعاً من الهلاك .

المهم أن ابن الخطيب قرر قبل البداية أن يميل بالميزان ناحية بلدة مالقة ، وهذا فى ذاته يقتضى التقليل من شأن سلا ، والنتيجة أن المقارنة غير سليمة من أول الأمر ، وقد كنا نتوقع على الأقل ألا يكون هذا مبلغ الحساسية الفنية عند ابن الخطيب ، فإن المقارنة بين الجيد جداً والسىء جداً لا تستقيم ، وتلوين اللوحات بالألوان المتعارضة المتناقضة ليس شأن الفنان الأصيل ، وليست هذه ملاحظة على فن ابن الخطيب بقدر ما هى استلفاتٌ للذهن إلى المبالغة الظاهرة فى كلامه ، فإن قارىء هذه المقامات لا يكاد يصدِّق أنها صدرت عن نفس القلم الذى كتب مقدمتى الإحاطة واللمحة البدرية ، ولكن هذا كان مفهوم الناس للانشاء الأدبى فى ذلك العصر : تهويل ومبالغة وبُعد عن الحقيقة وسعى وراء زينة اللفظ وبهارج الكلام ، فإذا لم يفعلوا هذا لم يكن ما يكتبونه أدباً ، وواضح أن ابن الخطيب عند ما كتب اللمحة والاحاطة لم يتصور أنه يكتب أدباً ، بل جغرافية وتاريخاً ، ومن ثم فقد أراح نفسه من عناء التكلف والتصنع وأرسل قلمه على سجيته ، وما أظن أنه خطر بباله أنه سيجىء زمان ينظر أهله إلى كلامه السهل البسيط هذا على أنه أحسن ما كتب .

غير أن ابن الخطيب بعد ديباجة قصيرة يؤكد فيها ألاَّ وَجْهَ المقارنة أصلا بين مالقة وسلا — يقول عبارة تعطينا فكرة عن تصوره للمدن ومقاييس أهميتها

وعدم أهميتها ، قال :« فنقول : الأمور التى تتفاضل بها البلدان ، وتتفاخر منها به الاخوان ، وتعرفه حتى الولائد والولدان هى : المنعة والصنعة والبقعة والشنعة ، والمساكن والحصارة والعمارة والامارة والنضارة » وهى عبارة طيبة لولا هذا السجع الذى أفسدها ، فهو يريد بالمنعة الموقع الجغرافى ، وكانت أهم خصائص الموقع الجغرافى الجيد عندهم الحصانة والمنعة ، لأن هاتين كانتا أساس الأمان والسلامة من العدوان ، وبدونهما لا تنمو بلدة أو تتحضر ، وأما الصنعة فيريد بها الصناعات وما تشتهر به البلدة منها .

وأما البقعة فيراد بها بقية خصائص الموقع الجغرافى بعد الحصانة ، وليس المراد بها خصوبة الأرض[1] فقط ، بل كل ميزات الموقع الجغرافى وإليك ما يقول عن كل من مالقة وسلا بهذا الخصوص .

مالقة :

« خص الله مالقة بما افترق فى سواها ، ونشر بها المحاسن التى طواها إذ جمعت بين رمث الرمال وخصب الجبال ، وقاصرة الفلاحة المخصوصة بالاعتدال ، والبحر العديم الصداع ، الميسرة مراسية للحط والاقلاع ، والصيد العميم الانتفاع ، جبالها لوز وتين ، وسهلها قصور وبساتين ، وبحرها حيتان مرتزقة فى كل حين ، ومزارعها المغلة عند اشتداد السنين » .

سلا :

« وسلا بلد الرمال ، ومراعى الجمال ، بطيحة لا تنجب السنابل ، وإن عرفت المطر الوابل ، جرد الخارج وبحرها مكفوف بالعتب والمدارج وواديها ملح المذاق ، مستمد من الأجاج الزعاق ، قاطع بالرقاق من الآفاق ، إلى بعد الانفاق ، وتوقع الاغراق . وشابلها مقصور على فصل وكم لشوكه من شبا نصل ، عدمت الفاكهة ، والمتنزهات النابهة » .

---

(١) ذهب إلى ذلك غرسية غومس فى ترجمته التى سبقت الإشارة إليها ، فقد ترجم لفظ البقعة بعبارة la fertilidad de su tierra

وطريف أن ابن الخطيب لم يشر هنا إلى أهمية المواصلات كجزء أساسى فى الموقع الجغرافى ، وقد كان حريا أن يلاحظ ذلك ، لأن هذه الناحية كانت فى ذلك العصر أكبر ميزات مالقة ، فقد كانت ميناء مملكة غرناطة الأكبر وبابها الأول إلى افريقية والمشرق ، أى باب الأمداد العسكرية والمتاجر والأسفار فى حين أن سلا لم تكن تمتاز من ذلك بشىء ، وإلى ذلك العصر لم يكن لوقوعها على البحر من قيمة إلا أنه جعلها مركزاً لصيد السمك . وقد فاتت هذه الناحية ابن الخطيب ، إذ لو ذكرها لوجد مجال القول فيها ذا سعة .

ثم تأتى بعد ذلك المقارنة بين البلدين من ناحية ما سماه بالشنعة وهو لفظ تكلفه ابن الخطيب حرصاً على السجع ، ولم يكن موفقاً فيه ، فقد أراد به طائفة من المعانى مثل الشهرة والتاريخ والأمجاد والأهمية العسكرية ووفرة الجنود وكثرة الخيل وقوة السلطان . وغموض هذا المعنى هو الذى جعل ماركوس مولر يقرر أنه محرف غير صحيح ، وقد ناقضه دوزى فى ذلك فى نقد تحقيقه لمفاخرة مالقة وسلا فى مجلة جمعية المستشرقين الألمان (ج ٢٠ ص ٦١٦) ، وذهب إلى أن الشنعة لفظ واضح المعنى ، فهو مقابل للشهرة célébrité (راجع ذيل القواميس ، ١ / ٧٩١) وهو ادعاء طويل منه فإن اللفظ مبهم قلق ، وإذا قرأنا ما يذكره ابن الخطيب تحته وجدنا أنه يمكن إيجازه فى قولنا : المكانة التاريخية والأهمية العسكرية .

وزيادة على هذا الإغماض فى التسمية نجد أن ابن الخطيب لا يذكر هنا شيئاً يستحق الذكر ، فقد كنا ننتظر أن يقول لنا بماذا اشتهرت مالقة فى تاريخها وما أساس هذه الشهرة ، ولكنه يقدم كلاماً عاماً تشوبه المبالغات مثل : « إذ مالقة دار الملك فى الروم ، ومثوى المصاعب والقروم ، تشهد بذلك كتب الفتح المعلوم ؛ وذات ملك فى الإسلام ، خافق الأعلام ، غنى بالشهرة عن الإعلام . . » إلى آخر هذا الكلام الواسع غير المحدد .

وكلامه عن فضل مالقة من ناحية الحضارة قريب من هذا فى التعميم وقلة الضبط ، ومن أسف أنه عندما يقارنها بسلا يقسو فى الكلام ويشتد حتى يصل إلى الاهانة والتجريح .

ثم يتكلم عن الامارة كلاماً عاماً يعتمد على اللفظ دون المعنى ، وجدير بالملاحظة أن غرسية غومس قرأ هذا اللفظ « الإثارة » وهى قراءة معقولة يستعملها ابن الخطيب فى معنى الفلاحة والزروع ، ويترجمه غومس بعبارة la vida económica أى الحياة الاقتصادية .

ويؤيد هذا الرأى أن ابن الخطيب يقارن بين البلدين من ناحية ما سماه « النضارة » ، ويريد بذلك جمال المنظر وغزارة النبات ووفرة الأزهار والأضواء ، وقد ترجم غرسية غومس هذا اللفظ بقوله el esplendor أى الفخامة والبهاء ، وهى ترجمة موفقة . وجدير بالملاحظة هنا أن العرب فى أوصافهم للمدن شديدو العناية بما يسمونه الضوء ، فيصفون بعض البلاد — دون بعض — بكثرة الضياء ، وقد اشتهرت بذلك عندهم بلنسية ومالقة ، وهذا المعنى غير واضح لنا تماماً لأن ضوء الشمس الذى يغمر كل البلاد الأندلسية واحد ، فلا يقال مثلا إن قادس أضوأ من شلب ، ولكن الغالب أنهم يريدون ذلك الضوء الروحى الذى يحس به المسلمون فى « المدينة » مثلا ، وهى تلقب لهذا بالمنورة ، وهى صفة تعبر عن احساس نفسى لا عن ضوء حقيقى ملموس ، وهذا واضح من مثال قولنا : فلان وجهه منير ، فالمراد بهذا أنه رجل طاهر القلب صافى النفس نبيل الخلق .

وكنا ننتظر أن يورد ابن الخطيب فى فقرة « المساكن » شيئاً من عمائر مالقة ومنشآتها ومساجدها وحصونها وما إلى ذلك مما يفيد فى التعريف بهذا البلد فى عصوره العربية ، ولكنه لم يذكر شيئاً محدداً غير مبنى سماه « جنة السيد » ويراد بذلك قصر ريفى تحيط به حديقة واسعة بناه أحد أمراء الموحدين .

وربما كانت الكلمات القلائل التى اختص بها سلا أكثر فائدة فى هذا المعنى ، فهو يقول : « وأما سلا وإن كان بها للملك دور وقصور ، ولاهل الخدمة بناء مشهور ، فنهل قليل ، وليس بالجمهور إليه سبيل » .

ولا حاجة بنا إلى عرض بقية المفاضلة ، فهى من هذا القبيل ، والطريف أنه بعد أن يوجه إلى سلا كل مساءة ويجاوز فى ذلك ما نتوسمه فى رجل مثله من اللباقة وحلاوة اللسان والمراعاة لبلدة تربطه بها صلات كثيرة ولها عليه فضل ، نجده يختم الكلام بعبارة فيها بعض الترضية لها ، كأنه أراد أن يخفف بذلك وقع ما سبق من قوله ، قال :

« ولسلا ، الفضل ، لكن على أمثالها ونظرائها من بلاد المغرب وأشكالها إذ لا ينكر فضل اعتدالها ، وأمنها من الفتن وأهوالها عند زلزالها ، ومدفن الملوك الكرام بجبالها .

ومالقة ، قطر من الأقطار ، ذوات الأقدار والأخطار ، وتحصيل الأوطار .

وسلا ، مصب الأمطار ، ومرعى القطار ، وبادية بكل اعتبار » .

مقامة معيار الاختيار فى ذكر المعاهد والديار

هذه المقامة التى تسمى فى بعض الأحيان كتاباً هى أقرب كتابات ابن الخطيب إلى طريقة المقامات وأسلوبها وروحها ، وإذا كان هناك تجوز فى حسبان القطعتين السالفتين مقامتين فإن « معيار الاختيار » مقامة من الطراز الأصيل الذى نجده عند أساطين ذلك الفن ، وهى تنقسم إلى مجلسين لكل منهما بطل من طراز أبطال المقامات وإن لم يبتكر لهما ابن الخطيب أسماء ، ولكنهما قريبان من أبى زيد السروجى وأبى الفتح الاسكندرانى وعيسى بن هشام : الأول رحالة جواب آفاق ومغامر لا يتردد فى الإلقاء بنفسه فى المخاطر ، والثانى ساحر

طبيب عالم لا يستعصى عليه مُحال أو يُحَيِّرُه مرض أو يعجزه الجواب على سؤال الأول يتحدث عن المدن الأندلسية والثانى يتحدث عن المغربية[١] .

والقيمة الفنية والعلمية لهذه المقامة تزيد كثيراً عن قيمة سابقتيها ، فقد تضمنت السجعات والمترادفات قدراً طيباً من المعلومات الجغرافية ، وهى لهذا جديرة بأن تعد فى أحسن ما كتب العرب من مقامات .

والحق أن ابن الخطيب شأى فى « معيار الاختيار » أحسنَ المستويات التى وصل إليها المقاميون ، ولكنه آذى مادته الجغرافية وأغرقها فى سيل من المترادفات ، وأذل المعانى للألفاظ حتى لا نكاد نستخرج فائدة جغرافية إلا فى جهد ، وتكفى للتدليل على ذلك نماذج قليلة . قال عن جبل الفتح ، أى جبل طارق ، على لسان صاحبه العلامة السواح الجوال : « وفاتحة الكتاب من مصحف ذلك الإقليم (يريد الاندلس) ، ولطيفُه السميعُ العليم ، وقصص المهارق ، وأفق البارق ، ومتحف هذا الوطن المباين للأرض المُفَارِق ، مأهل العقيق وبارق ، ومَحَطّ طارقها بالفتح طارق . إرَمُ البلاد التى لا يخلق مثله فيها ، وذو المناقب التى لا تحصرها الألسنة ولا توفيها . . .[٢] » ويقول عن سُهيل ، وهى قرية صغيرة على شاطىء البحر الأبيض على نحو ٣٥ ك. م. من مالقة ، تسمى اليوم Fuengirola « حصن حصين ، يضيق عن مثله هند وصين ، ويقضى بفضله كل ذى عقل رصين[٣] » ولولا طلب السجعات ما أجاز ابن الخطيب لنفسه — أو لأى رجل ذى عقل رصين ، على حد تعبيره — أن يقول إن قرية مثل سهيل تضيق عن مثلها الهند والصين . وأطرف مثل للانطلاق مع اللفظ دون تحفظ قوله عن مدينة « سلا » التى أزرى بها على أسوأ صورة

(١) انظر عن مخطوطات هذه المقامة ونشرها : العبادى ، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب ، ص ١٢ ، وقد حققها تحقيقاً جيداً وعلق حواشيها ، ص ٦٩ — ١٦٥ وعلى هذا التحقيق معولنا هنا .

(٢) معيار الاختار ، ص ٧٤

(٣) نفس المصدر ، ٧٥

عند ما فاضل بينها و بين مالقة : « قلت : فمدينة سلا ؟ قال : العقيلة المفضلة ، والبطيحة المخضلة ، والقاعدة المؤصلة ، والسورة المفصلة ، ذات الوسامة والنضارة ، والجامعة بين البداوة والحضارة ، معدن القطن والكتان ، والمدرسة والمارستان ، والزاوية كأنها البستان ، والوادى المتعدد الأجفان ، والقطر الآمن عند الرجفان ، والقصيد عظيم الشأن ، والاسواق الممتازة حتى برقيق الحبشان ، اكتنفها المسرح والخصب الذى لا يبرح ، والبحر الذى يأسو ويجرح ...[1] » .

ولكن أطواء هذا الحديث الفضفاض تضم كما قلنا علماً واسعاً بهذه البلاد جميعاً ، ولو أن ابن الخطيب خفف عن نفسه وحط عن كاهله أثقال هذه السجعات لكانت هذه الرسالة ذخراً عظيماً عن جغرافية الأندلس والمغرب ، ومصداق ذلك أن للرجل فى ثنايا هذه الزخارف لمحات تنبىء عن الكثير . ولهذا رأيت أن استخرج أهم ما تضمه بعض الفقرات من مادة ذات قيمة بالنسبة للجغرافى ، وذلك لاظهار القيمة العلمية لهذه الرسالة :

مدينة جبل الفتح (جبل) طارق : حصانتها — الماء يحيط بها من ثلاث جهات — سورها عظيم مرتفع — رباط للعبادة والحراسة — نقاء هوائها — بُعدها عن مصادر الزاد ولابد من تموينها من الخارج — فقيرة فى ذاتها .

اسطبونه Estepona : كانت ذات خير وفير قبل أن يستولى القشتاليون على الجزيرة الخضراء .

مربله Marbella : مركز عظيم لصيد السردين والسمك المختلف الالوان . تمتاز بالعنب الجيد إلا أن أرضها ليست خصبة وحصنها ليس منيعاً .

سُهَيل Fuengirola : — تمتاز بالحصانة ومزارع الشعير وأشجار التين — غنية بالميــاه وتجود بأرضها الحبوب ووديها وافر السمك ، ولكن سواحلها معرضة للغارات .

---

(١) معيار الاختيار ، ص ١٠٤

مالقة : قصبتها فى غاية الحصانة — مشهورة بصناعة الفخار المذهب والاوانى المختلفة الانواع وحلل الديباج المطرزة والنسيج المختلف الاصناف ؛ يزيد فى حصانتها وجود جبل الرحمة خلفها . « دار العجائب المصنوعة والفواكه غير المقطوعة ولا الممنوعة » — شوارعها ضيقة غير نظيفة — منطقتها المزروعة صغيرة وخيرها قليل ، وهى مجاورة لأرض الأعداء ومن ثم فهى معرضة للأخطار .

بليش Vélez-Málaga : بلد طيب غزير الامطار حصين الموقع آمن السرب يشتهر بأشجار اللوز والتين . أرضها خصبة عالية الثمن كثيرة الفواكه والحقول ، وفى أخلاق أهلها عنف وشدة .

قُمارِش Comares : حصن كبير قرب غرناطة وافر الماء والزروع والكروم والزيتون واللوز والتين والحبوب ، إلا أن أراضيها سفوح لا يستطيع فلاحتها إلا أهلها .

المنكب Almuñécar : مرفأ كبير مشهور يفد إليه الكثير من سفن بلاد النصرانية . تشتهر بجمال المناظر وحصانة معقلها وجمال مسجدها ، والبلد كله عال مرتفع فيبدو مسجده شاهق العلو ، وأشهر زراعاتها قصب السكر والزبيب . هواؤها غير صحى بسبب ضيق مساحتها وتلاصق بيوتها وصغرها . يستورد الزيوت والقمح .

شلوبانية Salobreña : مدينة حصينة أعلى تل تمتاز بعيون ماء ينحدر منها على السفوح — وافرة الأسماك مشهورة بزراعة الخضر — على مقربة منها حصن مُتْرَايل Motril . معظم أرضها ملك لسلطان غرناطة ولهذا فكل أهلها زراع فقراء ، وفيها مبان عظيمة يبدو أنها للسلطان ، ويرى ابن الخطيب أن أهلها لا يمتازون بجمال .

برجة Berja : بلدة جميلة كثيرة الزروع والزهور ، موقعها حصين آمن ، تشتهر بالعنب وأرضها مرتفعة لا يركبها ماء المطر وهى لهذا أرض أشجار وافرة

المياه ، مزارعها فسيحة تنتثر فيها البيوت ، أهلها مياسير يشتغل الكثيرون منهم بتجارة الحرير ، ونظراً لارتفاعها وعلو أراضيها لا بد من نقل الماء إليها ولا تجود فيها الحبوب فلا بد من استقدامها من نواح أخرى .

دلاية Dalías (التى ينسب إليها الجغرافى العذرى الدلائى) : بلد وافر الخيرات يشتهر بصناعة الحرير واستخراج الملح ، أرضها ذات مراع تشتهر بمنتجات الالبان ، ولكنها معرضة لغارات الاعداء من البحر .

ألمرية : بلد غنى حصين ومركز الأساطيل الحربية لمملكة غرناطة ، أهلها مشهورون بطيب الخلق والشجاعة فى الحرب ذياداً عن دينهم ، والكثيرون منهم يتزهدون ويرابطون . مرفأها واسع أمين معد لإيواء السفن الكبار ، وقصبتها غاية فى الحصانة والسعة بحيث تختزن فيها مقادير عظيمة من الأطعمة . أشهر حاصلاتها العنب والزيتون والكتان ، والرخام وتجارها ذوو رؤوس أموال ضخمة ولكنها شديدة الحر قليلة المطر عمادها على نهرها وحده .

وهذه مجرد أمثلة مما نستطيع استخلاصه من المواد الأندلسية الاربع وثلاثين التى يضمها المجلس الاول من تلك المقامة وهى بعد ما ذكرناه منها : طبرنش Tabernas ، بيرة Vera ، مجاقر Mujácar أو Mohacar ، قنتورية Cantoria ، برشانة Purchena ، أوريـة Oria ، بليش Vélez Rubio ، بسطة Baza ، لورقة Lorca ، أشكر Huéscar ، اندرش Andarax ، شبالش Jubiles ، وادى آش Guadix ، فنيانة Fiñana ، غرناطة ، الحمة Alhama ، صالحة Zalia ، إلبيرة Illora ، منتفريو Montefrío ، لوشـة Loja ، (بلد ابن الخطيب) ، أرجذونة Archidona ، انتقيره Antequera ، ذكوان Coín ، قرطمة Cártama ، رندة Ronda .

وهذه على وجه التقريب كل مدن مملكة غرناطة فيما بين سنتى ٧٦٠ و ٧٦٣ / ١٣٥٨ — ١٣٦٢ وهى فترة إقامة ابن الخطيب فى المنفى بسلا ، وفى أثنائها كتب هذه المقامة .

وجدير بالملاحظة أن المادة التى يوردها ابن الخطيب عن البلاد المغربية لا تقل قيمة عما تتضمنه المواد الغرناطية ، وهذا إن دل على شىء ، فعلى أن ابن الخطيب كان رجلا طلعة حريصاً على أن يعرف ويدرس ، دقيق الملاحظة متفتح الذهن لا يفوته شىء مما يرى ويسمع ، وسنرى ذلك بوضوح عندما نتكلم عن رحلته ، أى عندما يريحنا من عنـــاء السجعات ويرسل نفسه على سجيتها ويتكلم فى نثر طلق مريح .

كتب ابن الخطيب فى المجلس الثانى — أى النصف الخاص بالمغرب من « معيار الاختيار » — عن ست عشرة مدينة وقرية ، ومواده عنها أطول فى الجملة من مواده عن المدن الأندلسية وأبلغ — بمقياس بلاغة المقامات — منها ، وهو يسرف فيها فى المديح إلى درجة تختلط معها المعانى ويغدو البلد الصغير فى أهمية الكبير لكثرة الكلام وعدم تدقيق ابن الخطيب فيما يقول ، وسبب ذلك واضح ، فقد كتب هذه المقامة وهو فى سلا تحت كنف سلطان المغرب وفى رعاية أهله ، ومن ثم فقد كان حقيقاً بأن يتلطف ويتمدح ويبتكر المحاسن إذا لم يجدها ، ويجوز القول كذلك أن احتمال الاقامة الدائمة فى المغرب كان يراود نفس ابن الخطيب بعد ما رأى من المحن فى الأندلس ، ومن هنا فقد درس أحوال المغرب واستقصى وكتب هذه السطور مستجلباً لمحبة الناس وممهداً للعيش فى أكنافهم .

وفى السطور التالية سنستخلص الحقائق الجغرافية من بعض المواد المغربية من هذه المقامة لكى يستطيع القارىء مقارنتها بالمـــادة الأندلسية ، مع ملاحظة أن ما سنذكره مستخلص من كلام كثير جداً معظمه لا ينطوى على معنى ذى بال كقوله عن سبتة : عروس المجلى ، وثنية الصباح الأجلى ، تبرجت تبرج العقيلة ، ونظرت وجهها من البحر فى المرآة الصقلية ، واختص ميزان حسناتها بالأعمال الثقيلة ؛ وإذا قامت بيضُ أسوارها مقام سوارها ، وكان جبل بنيونش

شمامة أزهارها ، والمنارة منارة شوارها ، كيف لا ترغب النفوس فى جوارها ، وتخيم الخواطر بين انجادها وأغوارها..[١] » .

وإليك الحقائق الجغرافية التى يمكن استخلاصها من الفقرات :

سبتة : ميناء كبير ترسو فيه سفن كثيرة ؛ حولها غابات ممتدة يؤخذ منها الخشب للوقود ؛ مركز قوافل وتجارة برية ومحطة صيد للأسماك . معتدلة الجو لأنها كما قال « الوسيطة لخامس أقاليم البسيطة » ولكن أمطارها غزيرة ورياحها عنيفة مستمرة ثم إن أهلها معروفون بالتدبير الشديد .

طنجة : مدينة قديمة تقوم فى منطقة وسَطٍ بين الجودة والرداءة ، كان أهلها يفدون على الأندلس ليشتركوا فى الجيوش وكانوا يسمون بالطنجيين أو الطنجاليين . تشتهر بمنارها العالى ومرساها الكبير ، وهى قريبة الشبه من جارتها سبتة ، وفيها عين ماء غزيرة تعرف بعين برقان .

قصر كتامة (المسماة اليوم بالقصر الكبير أو قصر عبد الكريم) : بلدة تقوم فى منطقة غنية بالقمح والمراعى والألبان والفواكه الطيبة وخاصة التفاح ، ويصاد فى مياه المحيط إلى جوارها سمك طيب وافر . وهى محطة قوافل ومركز تجارة مع الجبال المجاورة وخاصة جبال غمارة ، ولكن جوها غير صحى ويكثر بها البعوض .

أصيلا : المادة عن هذا البلد قصيرة عظيمة القيمة ، ولهذا أوردها بتمامها : « كثيرة المرافق ، رافعة الخصب فى اللواء الخافق : العصير[٢] الأثير والحوت الكثير ، واللبن الغزير ، والإدام الذى يرمى به من حُكم عليه بالتعزير ، والسفن المترددة ، وفيها الملف (أى الأقمشة) والأبازير (أى الحبوب) . إلا أن حصنها من المتعة برى وساكنها بربرى ، وجارُها من غُمارة جرى » .

---

(١) معيار الاختيار ، ص ١٠١ — ١٠٢ . وبنيونش قرية كانت مجاورة لسبتة لا زالت آثارها باقية إلى اليوم . تعليق للعبادى اعتماداً على دراسة ليفى بروفنسال :

Lévi-Provençal, *las Ciudades y las Instituciones Urbanas del Occidente Musulmán en la Edad Media.* (Tetuan 1950), p. 45.

(٢) العصير هنا هو التين الأخضر .

سلا : بلد حصين يجمع بين البداوة والحضارة يشتهر بالقطن والكتان ، واديه (أى نهره ، ويراد به نهر أبى الرقراق أو بورجرج) واسع تدخله السفن الكبيرة ، والبلد آمن تحيط به المزارع والمراعى .

شالة : بلدة غنية كثيرة الميـاه تقوم فيها مدافن بنى مرين ، مشهورة بسمك الشابل ، ولكن الماء فيها قليل وأسعار الحياة مرتفعة .

أنفَـا (الإسم القديم للدار البيضاء) : ميـنـاء واسع النشاط يكثر توارد السفن إليه ، يكثر حولها حيوان الصيد وطيره ، كثيرة الفواكه والأعناب وافرة موارد الحياة إلا أن مياهها غير صحية ومناخها غير ملائم للصحة ، وتقيم إلى جوارها جماعات من البدو تهدد أمنها .

آزمور : بلد غنى تحيط به أراض واسعـة خصبة ، يمر به نهر غزير المياه ، وله مراع غنية بالمـاشية ، وأهله يتصفون بالحرص الشديد . « ويعدم ببلدهم الماء والملح والفخار » .

وتكفى هذه النماذج من المادة الجغرافية التى تضمها فقرات هذه المقامة . وبقية المدن التى تتكلم عنها هى : تيط ، رباط ، آسفى ، مراكش ، أغمات ، مكناسة ، فاس ، فاس الجديدة ، آقر سلوين ، سجلماسة ، تازة ، غساسة .

وإذن فمجموع المدن التى يتكلم عنها ابن الخطيب فى هذه المقامة ٥٥ مدينة مغربية وأندلسية ، يقدم لنا عن كل منها معلومات طيبة ، ولو جمعناها بعضها إلى بعض لخرجنا بحصيلة لا بـأس بها من العلم بالجغرافية الطبيعية والبشرية لمملكة غرناطة والمغرب الأقصى أيام بنى مرين . وأنه لمن المستبعد أن تتحصل عفواً هذه المعلومات الكثيرة لابن الخطيب عن كل بلد من تلك التى ذكرها ، لأنها معلومات دقيقة لا تجتمع إلا بالالتفات والعناية ، فهو يعرف أرض كل بلد منها وزراعته وحاصلاته وتجارته وشيئاً من عوائد أهله ، وهو يفرق بين خصائص هذا البلد وخصائص ذاك ، بحيث يتجلى بوضوح أنه يتكلم عن أشياء

يعرفها ولا يخلط بين بعضها وبعض . وهذا المستوى من العلم لا يتحصل إلا عن قصد ولا يتأتى إلا لمن صرف إليه البال والاهتمام ، وابن الخطيب من هذه الناحية جغرافى بالطبيعة ، يتبين حقائق ما يراه من الأرضين وما عليها دون مشقة ، ويدفعه الطبع والحرص والولع بالمال والعقار إلى السؤال والاستفسار والنظر فيما يمر بين يديه من أوراق الدولة وما تعرضه من أمور الجباية وشئون المحاصيل ، ويتأمل هذه الحقائق بعين المولع المتذوق قبل أن يدرسها بعين رجل الدولة الادارى .

ابن الخطيب الرحـــالة

لا نقصد بالرحالة فى بحثنا هذا مجردَ السَّفار أو جواب الآفاق ، بل نقصد مَن وَصَف رحلة قام بها أو كتب عنها شيئاً يدخل فى نطـاق الجغرافية التى نؤرخ لها فى الأندلس ، لأن الرحالين كثيرون ولكن الذين كتبوا رحلات منهم قليلون ، وما وصلنا من كتابات هذا القليل إنما هو جزء يسير مما كتبوا .

وقد كان ابن الخطيب صاحب رحلات وأسفار ، وكان إلى ذلك مُغْرى بالكتابة يجد فيها لذة كبرى كأنها كانت مراحه ومتنفَّسَ صدره عما كان يثقله من هموم ومتاعب ومخاوف ، ومن مظاهر ذلك أن الرجل كان مصاباً بالأرق لا يكاد ينعس من الليل إلا الوقت القليل ، وهذا الأرق إنما مرده إلى المخاوف والهموم التى تقض المضجع ، فإن ابن الخطيب كان من أولئك الذين ابتلوا بالعيش طول العمر وسيف دِقيانوس معلق بشعرة فوق رءوسهم ، لأن مطامحه فى المال والسلطان كانت واسعة ، وكان نطاق أعدائه لهذا فسيحاً ، ولم تخل حياته لحظة من ناس يدبِّرون مصرعه ويطلبون دمه ، وكانت حياته كلها فراراً من الشراك والأحابيل ولعبا حزيناً مريراً مع الموت المتكالب ، وكان لا بد أن

يدركه المصير المُلاحِق يوماً ما . ولا يخفف الأسى على ما أصاب ابن الخطيب إلا عرفاننا أنه كان أيضاً غريماً مطالباً للكثيرين ، يتعقبهم بكأس الحمام ، وصاحب مثل هذه الحياة الضارية لا يكون قط صاحب نوم هنيء أو حتى أرق هادىء ، وإنما هو أرق الخائف الوجل الذى يتوقع وراء كل قدم تقترب من داره فى سكون الليل طرقَ الباب وهجومَ أعوان الموت . وكان ابن الخطيب يُدافع الروع بالكتابة والتأليف ، فطالت لياليه والسراج موقد وهو بين الكتب ينظر ويُرَوِّى ويكتب فى انتظار غمضة من نعاس مع شعاع نور الصباح ، ولهذا فقد لقب بذى العُمْرَين : عمر بالنهار وآخر بالليل .

وهذا فيما يبدو هو السبب فى ضحالة الكثير مما كتب ابن الخطيب ، فهى ألفاظ تلتقط من مطالعات أو تلتمس فى أركان ذاكرة واعية ، وليست معاني تتولد وتجود مع التفكير الطويل الهادىء ، والسجعات فى كثير من الأحيان إنما هى ستار على خلاء المعانى وقلة البضاعة ، وقد رأينا أمثلة من ذلك فيما سلف مما عرضناه من كلام ابن الخطيب وخاصة ما أتينا به من « خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف » ، فهذا وصف رحلة قصيرة دامت بضعة أيام ، ومع هذا فقد سماها « رحلة الشتاء والصيف » انسياقاً مع سجعة يسيرة لم يكلفه العثور عليها جهداً .

وفى قطعة الرحلة التى نتحدث عنها الآن لنختم بها الكلام عن ابن الخطيب نلمس هذه الظاهرة بوضوح ، فإن ابن الخطيب كتب هذه الصفحات حول رحلته فى جزء من جبال الأطلس الغربية هو المعروف بجبل هنتاتة نسبة إلى قبيلة مصمودية صنهاجية كبيرة تحمل هذا الإسم ، وكان لها دور عظيم فى تاريخ المغرب أيام الموحدين ، فقد كانت قبيلةَ فصكة بن ومزال الذى سماه محمد بن تومرت بِعُمَر إينْتى أو ينتى أو الهنتاتى ، وكلها صيغ مغربية ومعربة لاسم هذه القبيلة ، وهو الذى تلقب بعد ذلك بأبى حفص وأصبح جد بنى حفص أصحاب

الدولة المعروفة فى تونس[١] وقد كان لهنتاتة بعد ذلك دور كبير فى تأييد دولة بنى مرين ، ومن هنا فقد كانت منازلها موضع عناية ورعاية من سلاطين هذه الأسرة ، خاصة وهذه المنازل تقع على الطريق الرئيسى من مراكش عاصمة الدولة إلى فاس ومكناس وطنجة وغيرها من عواصم الإقليم الشمالى من مُلك بنى مرين ، ولم يكن فى يوم من الأيام مُلكا مستقر القواعد أو شاملا لنواحى البلاد ، إذ هو اعتمد على ولاء بعض القبائل الكبرى ومنها هنتاتة هذه .

ولا ندرى لماذا ذهب ابن الخطيب إلى هذه الناحية ، فقد كان إذ ذاك لاجئاً إلى المغرب مع سلطانه المخلوع محمد الغنى بالله بن الأحمر ، وقد ظل هناك من ٧٦٠ إلى ٧٦٣ (١٣٥٩ إلى ١٣٦٢) ثم عادا إلى ما كانا عليه قبلا فى غرناطة : هذا سلطاناً وذاك وزيراً ، ولم تكن أحوال الدولة النصرية قد تدهورت بعدُ إلى ما صارت إليه عند ما هرب منها ابن الخطيب مرة أخرى سنة ١٣٧١/٧٧٣ فقد كانت الأحوال إذ ذاك قد بلغت — بالنسبة لابن الخطيب على الاقل — إلى درجة اليأس وانقطاع الرجاء ، ومن ثم فقد كان شديد الحرص أثناء إقامته الأخيرة تلك فى المغرب على أن يقتنى الأموال والضياع والارضين تمهيداً للاقامة الدائمة ، فلو أن ابن الخطيب قام برحلته تلك فى هذه الفترة الأخيرة كما كان يُظن لقلنا إنه ذهب يبحث عن أرض يقتنيها أو عقار يضمه إلى أملاكه[٢] ولكن عبارة له فى خطاب أورده فى سياق الكلام ربما تكشف لنا عن حقيقة الهدف الذى رمى إليه من وراء هذه الرحلة ، فقد قال فى خطاب بعث به قبل رحيله إلى عامر بن محمد بن على الهنتاتى شيخ ذلك

---

(١) انظر عنه التعليق الضافى الحافل بالمراجع بقلم الدكتور محمود على مكى فى حواشيه على نظم الجمان ، الذى نشر جزء منه فى تطوان ١٩٦٤ ، ص ٨٠

(٢) انظر عن تحديد تاريخ هذه الرحلة : العبادى ، مشاهدات ، ص ١٣ — ١٤ . وقد فصل ابن الخطيب الكلام عن أحوال غرناطة أيام هربه الأول مع سلطانه إلى المغرب فى نفاضة الجراب كما قال هو فى اللمحة البدرية ، انظر ص ١١٣

الجبل ووالى القبيلة ومنطقتها : « فلمـــا حُم الواقع وعجز عن خرق الدولة الأندلسية الراقع وأصبحت ديار الأندلس وهى البلاقع ، وحَسُنَت من استدعائك إياى المواقع ، قوى العزم وإن لم يكن ضعيفاً ، وعرضت على نفسى السفر بسببك فألفيته خفيفاً ، والتمست الاذن حتى لا ترى فى قبلة السداد تحريفاً ، واستقبلتك بصدر مشروح ، وزند العزم مقدوح ، والله يحقق السول » .

ومعنى هذا أن ابن الخطيب سعى إلى أن يستدعيه هذا الشيخ لزيارته فى منازل قبيلته وجبلها ، فلما وصلت إليه الدعوة عجل بتلبيتها أملا فى أن يكسب صداقة هذا الشيخ القوى فيجد فى بلاده حمى ومأمناً من الفتن والمخاوف التى كان يجتازها ، وهو نفسه يشير إلى حال الدولة الأندلسية المحزن إذ ذاك « فلما حم الواقع ، وعجز عن خرق الدولة الأندلسية الراقع » مما يفهم منه أنه كان يلتمس فى واقع الأمر أمنا من خوف وقراراً من فرار ، وربما كشف لنا ابن الخطيب عما كان يساوره من الآمال والمخاوف قوله « والتمست الاذن حتى لا ترى فى قبلة السداد تحريفاً » ومعنى ذلك أنه يُطَمْئِنُ ذلك الشيخ إلى أنه استأذن السلطان قبل أن ينهض إلى تلك الزيارة حتى لا يساء الظن بدوافع رحلته وحتى لا يحسب الشيخ الهنتاتى أن ابن الخطيب هارب إليه من ذلك السلطـان .

على أى الأحوال لا يسع الإنسان إلا أن يأسى لحال هذا الرجل الموهوب وهو يعانى ما قدَّرَت عليه ظروف حياته النكدة من آلام ومحاوف وتطامُنٍ عن قدره عله يظفر بأمان كان إذ ذاك محالا .

فى ظروف كهذه لا نتطلب من ابن الخطيب التفاتاً إلى خصائص طبيعية أو ظواهر جغرافية ، بل أننا نكلفه شططاً إذا انتظرنا منه أن يصف لنـا فى دقة ما رأى وما شهد ، فقد كتب هذه الصفحات ليعرض على هذا الشيخ مثالا من بلاغته وعلمه الواسع ، ثم لكى يُفْرِغ عليه وعلى قبيلته وأصحابه وكل من يلوذ به مديحاً بالغاً يفتح له قلبه وقلوبهم ويقيم له بينهم مكاناً آمناً ، ومن

ثم فهو يطرى كل شيء اطراءًا يجاوز الحد المقبول ، فالشيخ عامر بن محمد ابن على الهنتاتى : « عميد تلك البقعة وشاه تلك الرقعة ، صدرُ هذه الحدود القصوى ، المتميز بالرجاحة والرأى والسياسة . . . » وقريبُه ومتبوعه وحارس المجاز إلى منازل هنتاته عبد العزيز بن محمد الهنتاتى « صنوه وحافظ شيعته ، وقسيمه فى قعساء عزته ، الحسنُ الوجه ، الراجحُ الوقار ، النبيه المركب ، الملوكى البزة ، الظاهر الحياء . . » والطريق إلى منازل هنتاتة جميل يشرح الصدر رغم صعوبة اجتيازه : « ولما بلغنا درَج الجبل ، وانتحينا طريقه من السفح ، وهى تركب ضفة الوادى الملتف بعادى شجر الجوز والطرفاء وشجر الخلاف والدردار ، وأمعنا كابدنا عنتاً فى اقتحام الوادى ذى الجرية الكثيرة الصبب ، المسوقة المد ، العظيمة التيار ، المجهولة المخاض ، ونقتحم منه أزرق شفافاً عن الحصباء ، كثير الجلبات ، أملس الصفاح ، لذاع البرد ، عبرناه نحواً من ثلاثين مرة فى أماكن يتخللها الدّوح ، ويعظم الرَّيْع ، وتَخْضَر الحرباء ، وتسمو عن جانبها الجبال الشم ، والشعبات التى تزل بها العصماء ، وتفضى دروبه إلى أغوار فسيحة ، وأجواء رحيبة ، يكتنفها العمران ، ويموج بها السنبل » .

ومحل سكنى عبد العزيز بن محمد الهنتاتى ومضارب خيامه هى الغاية فى الجمال والرواء : « وصعدنا الجبل إلى حلة سكناه ، المستندة إلى سفح الطّوْد ، وقد هيأ ببعض السهل الموطأ للاعتمار بين يدينا من المضارب كلَّ سامى العماد ، بعيدِ الطنب ، سوىِّ القامة ، مقدرِ التفاصيل ، بديع النقش والصنعة ، ظاهر الجدة ، مصونٍ عن البذلة ، بِظُلَلٍ من مراتب الوطاء الرفيع ، ولحف الحرير ومساند الوشي ، وانطاع مزعفر الجلد ما تضيق عنه القصور المحجبة والأبهاء المنضدة » .

ويتصل بهذا المعنى أن ابن الخطيب يصف ما قدم له من الطعام فى تفصيل طويل فيه مبالغة ظاهرة ، فإن من يقرأ هذا الكلام بحسب ابن الخطيب لم يشهد قبل هذا وليمة كهذه أو خواناً من هذا الطراز ، وهذا أمر لا يجوز

فى خلد أحد ، فقد كان الرجل أندلسياً فخلا ووزيراً خطيراً ممن سئمت نفوسهم هذه الموائد فضلا عما يقوله من « وقوع البهت » لدى رؤياها .

ويشعر القارئ وهو يتنقــل بين صفحات هذه الرسالة أن ابن الخطيب حقق ما رجاه من كسب ود أولئك السادة الهنتاتيين والاطمئنان إلى أن له مكاناً فى جبلهم « الذى يعصم من الطوفان ، ويواصل أمنه بين النوم والاجفان » كما قال هو بنفسه فى رسالته التى أوردنا طرفاً منها ، فقد انشرحت نفسه بعد ذلك ومضى يصف ما يمر به فى تؤدة وتدقيق ، شأن خلىّ البال صافى النفس ، وهنا — أى بعد الوصول إلى جبل هنتاتة — يبدأ الجزء العظيم القيمة من هذه الرسالة ، ولكنها قيمة تاريخية فى الأغلب ، لأن طريق العودة إلى مراكش كان حافلا بمشاهد العبرة التاريخيه ، فهناك الموضع الذى لجأ إليه السلطان أبى الحسن على بن عثمان بن عبد الحق المرينى ومات فيه بعد ما كابد من أهوال الهزيمة فى الأندلس وقيام ابنه أبى فارس عنان عليه ، وهناك مسجد المهدى بن تومرت وضريحه فى تينملل وما إلى ذلك من المواضع التى تثير شجون الذكريات ، وفى هذا الغمر من العبر اندفع ابن الخطيب مع عباب التاريخ فلم يترك للجغرافية إلا القليل ، ولكن هذا القليل جيّد يعود بنـا إلى بجولة ابن الخطيب فى مقدمتى « الاحاطة » و « اللمحة » . ومن أجود أمثلة ذلك كلامه عن أغمات بجزأيها : أغمات وُرِيكة أو أوريكة وأغمات هيلانة أو عيلان أو إيلان . وأغمات كما يفهم من السياق لفظ بربرى قديم يراد به سياج المدينة البدائية المعروفة بالكْرَال Kraal وهى أقدم طرز المدن البدائية ، وكانت هاتان الأغماتان (أو السياجان) تقعان إلى جنوبى مراكش كأنهما ربضان أو ضاحيتان لها . وقد زار ابن الخطيب أغمات بعد أن خطت فى سبيل التمدن خطوات فأنشئت فى كل من جزئيها قصبة أى حصن وجامع . وَوَصْفُ ابن الخطيب لهاتين البلدتين فى غاية الأهمية فى هذا الباب ، فهو يرينا نموذجين لبلدتين بدأتا سياجين لقبيلتين ثم سارتا فى طريق التمدن دون أن توفيا على الغاية لسببين

رئيسيين ، الأول عداء ما بين القبيلتين والثانى قربهما من مدينة كبيرة رئيسة هى مراكش ، ولولا تكلف ابن الخطيب فى اختيار الفاظه ورصف عبارته لكان هذا الوصف نموذجاً بديعاً لوصف بلد صغير عند جغرافيينا .

وما دمنا بصدد هذه الفقرة العظيمة الأهمية بالنسبة لمن يدرسون المدن وقيامها وتطور نظمها — وهى دراسة حضارية مشتركة بين الجغرافية والتاريخ والاجتماع والسياسة — فهاهنا فقرة أخرى أوردها ابن الخطيب بعد ذلك يصف لنا مدينة فى طور الكُرَال ، أى فى الطور الأول لنشوئها ، أى وهى مجرد حوز مسوَّر تضع القبيلة داخله حصاد محصولها ونساءها والمضنون به من ماشيتها وسلاحها ويلجأ إليه رجال القبيلة للتحصن به فى أوقات الحروب . وابن الخطيب يستعمل هنــا مصطلحاً عربياً يقابل الأغمات أو الكُرَال فيقول « السور » أو « المجمع » أو « المجامع » أو « الحلق » وفيما يلى نص هذه الفقرة التى نعتقد أنها فريدة فى بابها بالنسبة لتاريخ المدن :

« ثم سافرنا منه إلى سور موسى من مجامع دُكَّالة ، وهو حَلَقٌ ذو شرفات وأبراج ، بادى الانثلام والتشعيث غير حرز الغلاق لجهل هذه الأمة المُصْحِرَة بالتحصين ، وهو بعض ما يلجأ إليه أهل هذا الوطن المتكاثف العمارة ، الجم المــاشية ، المنبت الحلل ، الغاص على انفساح مداه بالراغية والثاغية والصاهلة والناهقة ، البالغ عدد أزواجه لاثارة الأرض ومعالجة الحرث ، ثلاثة آلاف زوج من أزواج الثيران تثير أرضه وتعالج حرثه ، يُتَحَرَّم به عند الغارة الشعواء المصمئلة يطرقهم بها عدوُّهم من بنى الحارث وأحلافهم من سكان السهل والجبل فيسد عندها » .

ونختم الكلام عن هذه الرسالة الفذة لابن الخطيب بعبارة أخرى ذات قيمة خاصة بالنسبة لمن يدرسون تاريخ المدن فى عالمنا الإسلامى ، أنها تدور حول مشروع إنشاء مدينة والأسباب التى حفزت الناس على العمل على إنشائها ولماذا استجاب السلطان لرغبتهم ، والقواعد التى ساروا عليها فى اختيار موضع المدينة

وما إلى ذلك . ويلاحظ أن المدينة لم يتم إنشاؤها بسبب موت السلطان الذى فكر فى اختطاطها ، وهو أبو عنان فارس المرينى المتوفى سنة ١٣٥٨/٧٥٩ ، وهذه فى ذاتها حقيقة تتعلق بتاريخ المدن عندنا ، وهى أنها كانت فى أحيان كثيرة تقوم وتختفى تبعاً لرغبات السلاطين . قال ابن الخطيب :

« وقد كان رُفِع إلى السلطان المُغْرَى بالبناء وتخليد الآثار أبى عنان رحمه الله ، خَبَرُ ما عليه الناس من إخافة عدوهم ، واهتضام عَرْضَتهم واستهداف عقوتهم ، فأمر بارتياد محل لتأسيس مدينة ، فاختِيرَ على غلوات منهم ، محلٌّ أرضه صخر منطبق على تراب ، يتأتى فيه اتخاذ الخندق غير مثلوم الشفا ، بعيد المَهوى ، يبنى السور بما يخرج منه من الثرى ويصون الأطباق المعدة للاختزان عن أضرار السماء ، ويكون سطح الأرض على خمس قامات من منبع الماء . فشُرع فى البناء واستُبعد الفضاء ، ومَثُلت الأبواب العديدة ، والأبراج المشيدة . وعاق عن إتمامها هجوم حِمَامِه وانصرام أيامه ، فرغب أهله فى التنبيه على تكميل نقيصته واحتياز حسنته » .

إلى هنا نقف بالكلام عن ابن الخطيب الجغرافى ، وكان ينبغى أن نقف كذلك بالكلام عن الجغرافية فى الأندلس ، فقد كان ابن الخطيب كما قلنا خاتمة الفحول من أهل الفكر فى ذلك البلد ، وجانبُه الجغرافى يعين لنا بالفعل نهاية الفحولة والابتكار والتجويد فى تاريخ العلم الجغرافى هناك ، ولكن لا بد لنا قبل أن نضع القلم من أن نقول كلمتين عن كتاب الجغرافية والتاريخ المجهول المؤلف الذى أشرنا إليه قبل ذلك .

وجماع القول فى سهم ابن الخطيب فى ثروة الجغرافية الأندلسية أنه سهم وافر ساقه الله على لسانه عن غير قصد ، ولكنه أجاد فيه ، بل كانت مقدمتا الاحاطة واللمحة البدرية من أحسن ما كتب ابن الخطيب عموماً ، وفى مقاماته شوارد وأوابد تُجمع بالصبر والتدقيق فى النصوص ، ووصف رحلته دون شك يدخل فى حصاد الجيِّد من أدب الرحلات فى الأندلس .

جغرافية الأندلس وتاريخه لمؤلف مجهول

هذا الكتاب مخطوطٌ محيِّر محفوظ فى الخزانة العامة فى رباط الفتح[1] ، وهو مخطوط جيد لم نجد صعوبة كبيرة فى تحقيق الجزء الجغرافى منه تمهيداً لنشره فى القريب ، ولكننا لم نستطع رغم المطالعة المتصلة أن نصل إلى مؤلفه ، ثم إننا تحيرنا فى عصر هذا المؤلف وأصله ، فإن الإشارات التاريخية الواردة فى صلب مواد القسم الجغرافى منه لا تتخطى عصر الخلافة ، وقسمه التاريخى كذلك يقف عند خلافة هشام المعتد آخر خلفاء بنى أمية فى الأندلس ، ولكن صفحة العنوان تقول بعد البسملة : « ذِكر بلاد الأندلس وفضلها وصفتها وذكر أصقاعها ومدنها وجبالها وأنهارها وعجائبها وما خصت به من الفضائل والبركات والجواهر والمعادن والأشجار والنبات ؛ وذِكر من نزلها من الأمم والملوك من بعد الطوفان إلى أن فتحها الإسلام ؛ ومن وليها من أمراء العرب بعد الفتح ، ومن ملكها من خلفاء الأمويين والحموديين العلويين ، وذكر الدولة العامرية القائمين بدولة هشام المؤيد بها ، وذكر الثوار المتغالبين عليها بعدهم ، ومَن ملكها من ملوك المرابطين والموحدين وبنى مرين وبنى هود وبنى نصر وبنى اشقيلولة ، والله سبحانه المعين لا رب غيره » ، ومعنى هذا أن مؤلف الكتاب عاش فى العصر الغرناطى أو بعده ، وهو أمر لا نجد ما يؤيده فى النص نفسه .

ويهمنا هنا أن نذكر الحقائق الرئيسية المتعلقة بطبيعة هذا الكتاب وبنائه ومادته ، لأن هذا هو الذى يدخل فى نطاق هذا البحث ، وأملنا لا زال قوياً فى التعرف على صاحبه :

---

(١) نحن مدينون فى الحصول على نسخة مصورة من هذا المخطوط القيم لإخواننا المشرفين على الخزانة العامة فى الرباط وخاصة الأستاذين ابراهيم الكتانى وعبد الله الرجراجى ، وهما حقيقان منا بكل شكر . وقد يسر لى الحصول على النسخة المصورة أخى الدكتور محمود على مكى مضيفاً بذلك فضلا جديداً إلى سوابق عوارفه .

١ — أول ما نلاحظه أن مادة الكتاب جغرافية تاريخية ، فهو يجرى إذن من حيث بنائه على تقليد الجمع بين الجغرافية والتاريخ الذى جرى عليه معظم الجغرافيين والمؤرخين الأندلسيين ، ولكن مؤلف الكتاب ارتد إلى القاعدة الأولى التى وضعها أحمد بن محمد الرازى وهى إيراد المادة الجغرافية أولا ثم التاريخية بعد ذلك ، ومن هنا فإن كتابنا هذا ينقسم قسمين منفصل أحدهما عن الآخر تمام الانفصال حتى ليبدو كتابين ، فالجغرافية قائمة بذاتها ويليها التاريخ مرسل فى نسق واحد ، ولا نجد فى القسم الجغرافى إلا أقل الإشارات التاريخية ، وكذلك القسم التاريخى يخلو من الجغرافية تماماً .

وتلك هى الطريقة التى سار عليها أحمد بن محمد الرازى ، فكأن المؤلف احتذاه وصار على طريقه ، وهذا واضح يؤيده النص ، فإن المؤلف لا يزال يقول فى قسمه التاريخى : « قال صاحب التاريخ » فإذا جاء إلى سنة ٣٢٦ هـ. قال : وفى هذه السنة توفى « صاحب التاريخ » فالمراد به إذن الرازى لأنه توفى بالفعل فى تلك السنة (٩٣٨ م) .

وإذن فهذا الكتاب — إلى تلك السنة على الأقل — ملخص لكتاب الرازى ، وهذا واضح تماماً من مادة قسمه الجغرافى ، فهو نقل من الرازى أو اختصار لكلامه مع زيادات كثيرة . ومن أسف أن المخطوط لا يبدأ بصفحات الكتاب الأولى ، وقد كان من الممكن أن تعيننا على معرفة مؤلفه وشىء عن طبيعته .

وهذه العلاقة الوثيقة بين القسم الجغرافى من هذا الكتاب وجغرافية الرازى تجعل له أهمية خاصة ، فهو من الأصول التى نعتمد عليها فى إعادة تكوين هذه الجغرافية الهامة ، وسنوَفِّى هذه الناحية حقها فى الدراسة الخاصة التى سنقدمها بين يدى تحقيقنا للنص .

٢ — إن المؤلف ليس مجرد ناقل أو موجز وإنما هو رجل عارف بما يكتب مطلع على أحوال الأندلس ملم بتاريخه ، وعنده تصور سليم لهيأته ،

فهو يقول في فقرة من الفاتحة مبثورة البداية : « ... ثم طرطوشه ثم برجَلُونه ثم بَجَانة ثم [لفظ غير واضح] والمرية ثم غرناطة ثم جيان ثم اسجه ثم ابلة ثم الخضرا ثم مالقة ثم قرطاجنة ثم برجلونة ثم بيونه ثم قشتيله ثم جليقية ثم شلمنكه ثم طبيرة (الأصح هنا طلبيرة) ثم تطلية (تطيلة ؟) ، ومدينة تطلية وهى آخر بلد الأندلس شرقاً على حد بلد الأفرنج ، ومدينة تطيلة وهى آخر بلد طركونة هى آخر ما فتح الإسلام بالأندلس ، وإليها انتهى ملك المسلمين . وأما المدن المتوسطة مثل شريش وقرمونة وبسطة وطلياطة وأبّدَه وبياسة وباجة وكَنْتُور وأرجونة وقَيْجَاطة وطريف فما يحد عددهم الحصر » . وواضح أن هذه الفقرة تتكلم عن مدن الأندلس وترتبها بحسب الأهمية ، ولا يكتب مثل هذه العبارة إلا من عرف الأندلس معرفة طيبة ، وفى كلام المؤلف بعد ذلك ما يؤيد أنه أندلسى من العصر الغرناطى المتأخر .

٣ — ويعتمد المؤلف فى مقدمات القسم الجغرافى على طائفة كبيرة من المؤلفين مثل ابن خرداذبة وابن بشكوال وابن سيده والحسن بن محمد بن مفرج وغيرهم إلى جانب أحمد بن محمد الرازى وهو مرجعه الأكبر . والفقرات التى ينقلها عن هؤلاء فقرات هامة نجد الكثير منها فى نقول المقرى وغيره ولكنه ينفرد ببقيتها ، ومعنى هذا أنه يقدم لنا مادة تسد فراغات واسعة فيما بين أيدينا مما كتب الأندلسيون عن جغرافية بلادهم .

٤ — وأوفى فصول المقدمات ذلك الذى يدور على « فضل الأندلس وما نُقِل فى شأنها وفضلها من الأحاديث الواردة » وقد نقل المؤلف هذا الفصل كله عن أبى القاسم بن بشكوال وأضاف إليه أشياء قليلة ، وهو يورد لنا ثبتاً كاملا بكل الأحاديث النبوية التى تتحدث عن فضل الأندلس ، وكلها أحاديث موضوعة طبعاً ، ولكنها تعطى فكرة عن نظرة واضعيها إلى بلدهم وفضائله . ومن المعروف أن هذه الأحاديث مشتركة بين الكثير من بلاد الإسلام ، أى أن أهل كل بلد يعدلون الحديث وينسبونه إلى بلادهم ، ولكن الغريب أن

محدثين ناقدين عارفين بالجرح والتعديل مثل ابن بشكوال يوردون هذه الأحاديث أى يقولون بصحتها وهم أعرف — فيما نحسب — بموقعها من الصحة والسلامة ، ولكن حب الوطن يغلب على قواعد العلم عندهم ، وهى نزعة عاطفية تجعلنا نقرأ مثل هذا الفصل بشعور عميق من التقدير بصرف النظر عن الصحة أو عدمها فى هذه الحالات .

ويدخل فى باب الفضائل هذا ذِكر ما يمتاز به الأندلس من المحاصيل والمعادن والخيرات وما إلى ذلك ، مما يدخل فى صميم المعلومات الجغرافية .

٥ — إن القسم الجغرافى من الكتاب ينتهى بفقرة عمن « نزلها من الأمم والملوك بعد الطوفان إلى أن فتحها الإسلام » . وواضح أن مثل هذا الفصل يدخل فى باب التاريخ ، ولكن الرازى اعتبر ما وقع من الحوادث قبل الفتح الإسلامى جزء من المقدمات العامة وأدرجه فى الجغرافية على اعتبار أن التاريخ الحق يبدأ مع الإسلام ، وهى ظاهرة جديرة بالملاحظة تجد شبيهاً لها فى موقف العلم الحديث من عصور ما قبل التاريخ ، فهناك من يعتبر دراسة هذه العصور داخلة فى العلم الجغرافى وهناك من يرى أنها من التاريخ ، وهناك من يرون أنها أدخل فى الأركيولوجية أى الآثار ، وعلى هذا الاعتبار نستطيع القول بأن مؤلفينا كانوا يعتبرون ما قبل الإسلام عصرَ ما قبل التاريخ ، وهى حقيقة طريفة جديرة بأن يشار إليها .

٦ — وقد أحصى المؤلف حديث العجائب وجمعه كله فى فصل واحد من فصول المقدمات ، وفرغ بهذا للمادة الجغرافية الصرفة بعد ذلك .

٧ — وبعد هذه الفصول التقديمية يبدأ القسم الجغرافى الحقيقى من الكتاب ، والمؤلف يجعل عنوانه : « الخبر عن بلاد الأندلس على التفصيل مدينة بعد مدينة ، وما اختصت به كل مدينة من الفضائل والمحاسن » ويبدؤه بعبارة يذكر فيها مراجعه أو بعضها : « قال المؤلف عفا الله عنه : ذكر أحمد ابن أبى الفياض والدلائى (أى العذرى) وابن القوطية وابن حيان والرازى

وابن مزين والمزنى وابن الزقاق وغيرهم مما (كذا) عنى بتاريخ الأندلس أن المعمور من الأرض مقسوم على سبعة أقاليم . . . »

وبعد سطور قليلة من التقديم يأخذ فى الكلام عن المدن بادئاً بقرطبة ، والفصل الذى يخصصه لها ولجامعها ولأقاليمها هو دون شك أوفى ما لدينا عن تلك العاصمة الأندلسية الكبرى ، فهو يقع فيما يزيد على سبع ورقات ، ولولا طوله لأوردته هنا على تواليه . ولهذا فسنكتفى الآن بايراد النقط التى يتكون منها هذا الفصل الطويل عن قرطبة ليأخذ القارىء فكرة عن أهميته وقيمته : مقدمة قصيرة عن قدر قرطبة وفضلها — بعض غرائبها — فقرة من كلام الرازى عنها — فقرة من كلام العذرى — فقرة لابن حيان — بعض أبعاد قرطبة — مدة بقائها فى حوزة الإسلام : من ٩٢ هجرية إلى ٢٣ شوال ٦٢٣ — وصفها العام وأرباضها — احصاء دورها ومساجدها وقصور الخلفاء بها — اضمحلالها — وصف جامعها بتفصيل — أقاليم قرطبة .

وهذه المادة الوافرة التى يأتينا بها المؤلف عن عروس مدائن الغرب الإسلامى تستوقف نظرنا من ناحية هامة جديرة بالملاحظة ، وهى أن المؤلف يصف البلد كأنه لا يزال قائماً كاملا كما كان فى أيام أوجه ، مع أن قرطبة فى أيامه كانت قد خرجت من دار الإسلام بعد أن مرت بعصر اضمحلال طويل نتيجة للمحن التى عبرت بها ، ولكن المؤلف لا يذكر عن ذلك شيئاً ، لأن إحساسه بالزمان وفعله قليل ، وما دام ابن بشكوال قال إن قرطبة وصفُها كذا وكذا فلا بد أن يورَد وصفها على هذه الصورة ولو بعد ألف سنة ، وهذا ناشىء من تلاشى البعد الزمنى عند كتاب العصور الوسطى ، فإن الزمن عندهم مفهوم غامض معقد شرير ، فبالنسبة للأحياء يعتبر الزمن هو الموت ، وبالنسبة للتاريخ لا عمل للزمن إلا تخريب ما هو قائم ، فإذا قامت دولة فلا بد أن تبلغ أوجها ثم تنحدر ، لا لأن هذا له أسبابه بل لأنه فعل الزمن الذى لا مفر منه ، وإحساسهم بالأطوال الزمنية قليل فيستوى عندهم القرن والقرنان ، ومن ثم فهم لا يستغربون

حكاية شجرة تزهر وتثمر ويؤكل ثمرها فى ليلة واحدة ، وهذا موضوع طويل نرجو أن نكتب فيه شيئاً يوماً من الأيام ، والمهم لدينا هنا أن قرطبة بقيت فى أذهان المسلمين فى صورتها أيام عبد الرحمن الناصر بدون تغيير . نعم إنهم يقررون فى بعض الأحيان أن التهدم والتخريب نالا منها ، ولكنهم عند ما يصفونها يصفونها فى صورتها تلك الخالدة التى لا تتغير .

ولا تتضح الأهمية الحقيقية لهذا الفصل إلا إذا نشرناه كاملا مع ما لا بد منه من التعليق والتفصيل ، ولكن يكفى أن نقرر الآن أن مؤلف الكتاب جمع فيه مادة وافرة جداً من كلام ابن الفرضى وابن حيـان والعذرى وابن بشكوال ، وهذا الأخير هو معتمده الأكبر عن قرطبة ، وواضح أن المؤلف اعتمد على كتابه الخاص بها الذى أشرنا إليه فى حديثنا عن الجانب الجغرافى من ابن بشكوال .

أما المواد المخصصة للمدن الأندلسية الأخرى فقصيرة فى مجموعها ، ولكنها غنية بالمادة النافعة ، وفى أحيان كثيرة تنفرد بأشياء لا تجدها فى غير هذا الكتاب . وعلى سبيل العلم فحسب نورد أسمـاء المدن التى يتكلم عنها بعد قرطبة : قبرة ، أبذة ، جيان ، طليطلة ، الأشبونة ، قنطرة السيف ، شنترين ، شلب ، بطليوس ، برتقال ، باجة ، ماردة ، شنتبرية ، كورة مدينة الفرج ووادى الحجارة ، لبلة الحمراء ، اشبيليـة ، موررور ، شذونة ، حصن روطة ، جزيرة قادس ، الجزيرة الخضراء ، ريّهْ وهى مالقة ، كورة تاكرنا ، مدينة البيرة ، اسجه ، سرقسطة البيضاء ، افراغ ، لاردة ، طرطوشة ، دانية ، مرسية ، طركونة ، برطاقه (بربطانية ؟) ، بلنسية ، تَطْلِيَـة (تطيله) ، شاطبة ، بَسطة ، طلياته ، المرية .

وجملة القول فى هذا الكتاب أنه جمع وتأليف من مصادر شتى ، وهو يجرى فى ذلك على سنن التقليديين من الجغرافيين ، أى الذين يأخذون على الدرب المطروق كما بدأه أحمد بن محمد الرازى من تقديم عام لشبه الجزيرة ثم

الكلام عن المدن والكور واحدة فواحدة مورداً فى كل فقرة ما يتيسر من النقول دون أن يضيف من عند نفسه شيئاً جديداً . وهذا لا يعنى أن الكتاب قليل القيمة إذ الواقع أن نقوله عظيمة الفائدة ، فقد كانت بين يديه مراجع وأصول شتى ضاع الكثير منها .

ولكنه بصورته تلك لا يعيّن تقدماً أو تجديداً فى طريقة الدراسة أو أسلوب المعالجة ، ولا نعثر فيه على شىء شخصى ذى قيمة كهذه اللمحات التى وجدنا عند الكثيرين ممن ذكرناهم وآخرهم ابن الخطيب ، وهذا هو الطبيعى والمعقول ، فقد توفى ابن الخطيب سنة ٦٧٧/١٣٧٤ أثناء الحكم الثانى لأبى عبد الله محمد الغنى بالله ، ثامن سلاطين بنى نصر ، وهو — رغم اضطراب أيامه واستمرار تدهور الدولة على عهده — آخر كبار سلاطين بنى نصر ، وليس لدينا بعده إلا حكام صغار ضعاف أسرعت الدولة أيامهم إلى النهاية . ولم يظهر بعد ذلك فى الأندلس من يدانى ابن الخطيب أو يقارب أحداً من الفحول الأول ، وخلال القرن ونيف التى بقيت من عمر الأندلس الإسلامى لا نجد رجال الفكر إلا مقلدين للماضين وطامحين إلى الوصول إلى مستواهم دون توفيق ، وكتاب الجغرافية والتاريخ هذا إنما نموذج من حصاد عصر الاحتضار هذا ، وهو على هذا الاعتبار نهاية مناسبة نقف عندها بالكلام .

تعقيب

بكل ما جد من الابحاث والكتب فى موضوع هذا الكتاب منذ صدور طبعته الاولى الى الآن

عندما تفضلت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بالموافقة على اعادة نشر هذا الكتاب ضمن سلسلة منشوراتها العلمية القيمة، وجدت لزاما على ان اعيد النظر فى الكتاب كله، فأصلح ما فيه من اخطاء موضوعية ومطبعية، واستدرك فى هذه الطبعة الثانية أهم ما تفضلَ به من نصح وتوجيه السادة العلماء الافاضل، الذين كلفوا انفسهم عناء قراءة هذا الكتاب وارشادي الى ما تراءى لهم من وجوه الرأي، واخص بالذكر منهم السيد الاستاذ الدكتور عبد العزيز كامل العلامة الجغرافى النابه، والصديق الكريم الاستاذ صلاح الدين عثمان هاشم الذي اضاف إلى المكتبة العربية كتابين يعتبران من اجمل ما أهدي الى المكتبة العربية فى ميدان تاريخ علم الجغرافية عند العرب والمسلمين عامة، وكلا الكتابين ترجمة من الروسية الى العربية : الاولى تاريخ الادب الجغرافى العربى والثانية كتاب تركستان الاسلامية من الفتح العربى الى الغزو المغولى، وسأتحدث عنهما فى هذا التمهيد.

وكان على كذلك ان اضمن الكتاب ما عسى ان يكون قد ظهر من الكتب فى ميدان الجغرافية العربية منذ صدور الطبعة الاولى لهذا الكتاب الى الآن، وعندما احصيت ما بلغ الى علمى من تلك الكتب والابحاث ودرستها، تبينت ـ لحسن الحظ ـ ان ما فيها ـ رغم قيمته العلمية العظيمة ـ لا يغير شيئا من صلب الكتاب، وانما يضيف اضافات لابد من التنويه بها فى مثل هذه الطبعة.

وقد استقر رأيى على ان اجعل هذا الاحصاء فى هذا الذيل، وان اقسمه إلى فقرات بحسب ترتيب فصول الكتاب، ورأيت ان ذلك افضل من التدخل فى صلب الكتاب نفسه، فقد ترى المنظمة ان خير ما تفعله فى اعادة الطبع هو تنفيذ ذلك بطريقة الاوفست، لان الكتاب مثقل بالنصوص واسماء المراجع غير العربية، وقد بذلت فى الطبعة الاولى جهدا مضنيا فى جمع اسماء تلك النصوص، وتصحيح سياقها وطباعتها على احسن مستوى فى كفاية النصوص غير العربية، وهذا كله متعذر اعادة عمله اذا جمع الكتاب فى مطبعة عربية مهما كانت عدتها الطباعية.

٦٠٤ ولا يخفى على القارىء ان الطبعة الاولى عملت فى مدريد، وتحت يدي كل اصناف الحروف غير العربية، من اليونانية وللاتينية الى الالمانية والبرتغالية. وقد بذلت اقصى الجهد فى ضبطها ولهذا فقد جاءت الاخطاء فيها قليلة جدا، وقد صوبتها قبل تقديم الكتاب لهذه الطبعة الثانية بدل المرة مرات.

وفيما يلى أورد اهم تلك الاضافات :

١) فيما يتعلق بالتاريخ العام لعلم الجغرافية فى الاندلس لابد من الاشارة الى كتاب : تاريخ الادب الجغرافى العربى للمستشرق الروسى اجناتيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكى الذي ترجمه من الروسية الى العربية الاستاذ الدكتور صلاح الدين عثمان هاشم واصدرته لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة فى مجلدين، صدر الاول منهما سنة ١٩٦١ والثانى سنة ١٩٦٥. والكتاب بجزئيه يعتبر الآن من كلاسيكيات المكتبة الثقافية العربية، فان المترجم بذل اقصى الجهد فى عمله، سواء فى النقل من الروسية الى العربية أم فى مراجعة كلام المؤلف الروسى على الاصول العربية أم فى صياغة النص العربى فى قالب عربى سليم. وهذا كله جهد رفيع يستحق عليه صاحبه كل ثناء وتقدير.

وظاهر من تواريخ صدور تلك الترجمة العربية وسنوات تأليف كتابنا هذا اننا تعاصرنا فى العمل، فكان كل منا يعمل دون ان يعلم عن عمل صاحبه شيئا، ولم اطلع قبل الفراغ من كتابى هذا الا على الجزء الاول من كتاب كراتشكوفسكى، وكان ذلك قبل الفراغ من كتابى بوقت قصير، فلم تتيسر لى فرصة الافادة منه، ولكنى تيقنت ان النتائج التى وصل إليها المؤلف الروسى لا تتعارض فى شىء عما وصلت اليه فى كتابى فيما يتعلق بعلم الجغرافية عند الاندلسيين، وقد زدت عليه فى الحقائق والتفاصيل، وهذا طبيعى، فكتابى كتاب تخصص، ولم يفتنى شىء من الأصول او الدراسات.

ولكنى اضيف الآن ان أراء كراتشكوفسكى فى الجغرافيين الاندلسيين جيدة صافية تدل على فهم واستقصاء. ونحن نختلف معه فى آرائه عن أثر الجغرافية اليونانية فى اصول علم الجغرافية عند المسلمين، وفيما دخل على الجغرافية العربية من عناصر غير سليمة

متصلة بالجغرافية الفلكية اليونانية. كان لابد ان اختلف معه، فهو مستشرق غير عربى، ونحن عرب تهمنا مسألة الاصالة فيما يتعلق بعلمنا العربى. ولهذا، فهو يؤكد الأثر اليونانى فى الجغرافية العربية، اما نحن فقدرنا ذلك الأثر الاغريقى قدره الصحيح، وبيّنّا انه أضر بمسار العلم الجغرافى عند العرب. ثم ان كراتشكوفسكى لم يقدر كتاب كارلو الفونسو نالينو عن «علم الفلك وتاريخه عند العرب فى القرون الوسطى»حق قدره، ولعله لم يقرأه قراءة تدقيق، ولو فعل لافاد منه فى تصحيح بعض آرائه.

وبهذه المناسبة، احب ان انبه القارىء الى التعليق القيم الذي قامت به العلامة العربية الاستاذة الدكتور عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) من التعليق على ما وقع فيه كراتشكوفسكى من الاخطاء فى حق الاسلام والقرآن الكريم، متعلقا بالاشارات الجغرافية فى القرآن الكريم، وهو تعليق وتصويب تستأهل عليه العالمة الكريمة كل تقدير. وهو ذيل على الجزء الثانى من ترجمة الدكتور صلاح الدين هاشم ابتداء من ص ٨٦٩، وهو فى ذاته مبحث قيم عن الاشارات الجغرافية فى القرآن الكريم.

وكلام كراتشكوفسكى عن علم الجغرافية فى الاندلس والمغرب موزع فى فصول متعددة من كتابه، يستطيع القارىء التعرف عليها من قراءة فهرس الكتاب، وقد قرأتها ولم اجد فيها زيادة على ما ذكرته فى هذا الكتاب

اما الكتاب الثانى الذي اهداه الدكتور صلاح هاشم للمكتبة العربية فهو ترجمته البديعة لكتاب المستشرق الروسى فاسيلى فلاديميروفتش بارتولد عن تركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى، وقد نشر هذه الترجمة قسم التراث العربى بالمجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب سنة ١٩٨١.

ومع ان الكتاب لا يدخل فى دائرة كتابنا هذا، الا اننا ينبغى ان نشير إلى الدراسة الضافية لجغرافية بلاد ما وراء النهرين ومعظم آسيا الوسطى الاسلامية التى كتبها بارتولد وتكلف الدكتور صلاح الدين

عثمان هاشم عناء بالغا فى تعريبها، وهى الفصل الاول من الكتاب من ص ١٤٥ الى ٢٩٧، فهى على هذا كتاب قائم بذاته، حافل بالفوائد عن جغرافية المشرق الاسلامى.

٢) وقد تناولت فى بحثى جغرافية بطليموس وترجماتها الى العربية وما كان لها من الأثر فى علم الجغرافية عند المسلمين، وصححت الكثير من المفهومات الشائعة عند الغرب، من القول بان جغرافية بطليموس اصح من جغرافية الادريسى مثلا، وأثبت بالبرهان العلمى ان الادريسى أصوب وأكمل، بل برهنت على ان الخرائط المنسوبة الى بطليموس والمتداولة الآن بين الناس ليست اصيلة، وانها فى الغالب منقولة عن خرائط الادريسى.

وقد اطلعت بعد نشر كتابى على كتاب «صفة جزيرة العرب للحسن بن احمد بن يعقوب الهمدانى (٢٨٠ ـ ٣٦٠ هـ ؟/٨٩٣ ـ ٩٧٠م) الذي حققه الاستاذ محمد بن على الاكوع الحوالى، واشرف على طبعه وراجعه وقدم له عالم الجزيرة الاستاذ العلامة حمد الجاسر، تلخيصا قيما لجغرافية بطليموس لم يشر اليه احد من قبل، ولم يذكر الهمدانى اصل الترجمة التى اطلع عليها وقبس منها ما قبس، ولكن عرض الهمدانى لجغرافية بطليموس عرض جيد، بل يكاد ان يكون افضل ما لدينا فى العربية، وقد احببت ان اضيف هذه الملاحظة هنا، مع ان جغرافية بطليموس تخرج عن موضوع هذا الكتاب، ولكنى اشرت إلى بطليموس كثيرا فى كتابى بسبب احتفال الجغرافيين العرب بكتبه واقبالهم على ترجمة كتابيه فى الجغرافية والفلك واقتباسهم منهما.

واقتباس الهمدانى من بطليموس وارد فى كتاب صفة جزيرة العرب ابتداء من ص ١١ وما بعدها.

٣) فيما يتعلق بكلامنا عن ابى عبيد عبد العزيز البكري، ص ١١٢ وما يليها من هذا الكتاب.

توفر الاستاذ الدكتور عبد الله يوسف الغنيم على دراسة البكري وادار عليه رسالتيه للماجستير والدكتوراه، ووصل فى ابحاثه الى معلومات قيمة عن البكري لم نوردها فى هذا الكتاب، واهمها تحقيقه القيم

لمصادر البكري فيما يتعلق بما كتبه عن جزيرة العرب فى «معجم ما استعجم» و «المسالك والممالك» من امثال ابى زياد الكلابى وعبد الملك بن قريب الاصمعى وابن دريد، ابى بكر محمد بن الحسن، والازهري ابى منصور محمد بن احمد، وعزّام بن الاصبغ السلمى، والسكونى، ابى عباد عمرو بن بشر والحربى، ابى اسحاق ابراهيم بن اسحاق بن ابراهيم بن بشير، والهجرى، ابى على هارون بن زكريا وغيرهم، وهذه كلها اضافات قيمة احب ان انوه بها لقيمتها العلمية، وهى كلها اضافات لم تتطلب منى تصحيح شىء مما اوردت فى هذا الكتاب، فيما عدا ما ذهب اليه من التشكيك فى ان البكرى توفى سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م وقد صححه هو الى ٤٩٦هـ/١١٠٢م. وهو تصويب معقول.

وقد حسب الدكتور الغنيم فى بعض دراساته اننى خلطت بين وَلّبة وأوبَنَة، وأحب ان اقول هنا ألَّا خلط هناك فان أوبَنَة هى وَلْبة من مدائن جنوب غربى الاندلس، فان أوبنة هو الاسم اللاتينى القديم Unuba الذي حل محله اسم ولبة Hualva فى العصور الاسلامية وبقى الى اليوم، ولا زالت التسمية الى ولبة فى الاسبانية مشتقة من الاسم القديم فيقال للوكبى unubense.

واضيف هنا ان الاستاذ محمد الجاسر يصحح الكثير من مفاهيم البكري وتحديداته اعتمادا على علمه الواسع بالجزيرة العربية واسماء المواضع فيها، وهو يشك فى صحة الكثير من تعريفات البكري وتحديداته فيما ذكره عن جزيرة العرب وخاصة فى الفصل القيم الذي كتبه (البكري) عنها فى معجم ما استعجم.

وكتابا الدكتور عبد الله يوسف الغنيم المشار اليهما هما :

- حصاد البكري ومنهجه الجغرافى، منشورات دار ذات السلاسل فى الكويت، ١٩٧٤.
- جزيرة العرب من كتاب «المسالك والممالك» لابى عبيد البكري، منشورات دار ذات السلاسل، الكويت، ١٩٧٧

وفى سنة ١٩٦٨ قام الاستاذ الدكتور عبد الرحمن على الحجى بنشر ما تيسر له جمعه مما بقى من جغرافية البكري عن الاندلس واوربا، وبذل جهدا

مشكورا فى ذلك، واضاف الينا الدكتور الحجى اضافة قيمة من العلم بكتاب «المسالك والممالك» لابى عبيد البكري.

وقد نشر هذه الاجزاء فى كتاب عنوانه «جغرافية الاندلس واوروبا من كتاب المسالك والممالك لابى عبيد البكري»، دار الارشاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٦٨.

٤) فيما يتعلق بكلامنا عن الادريسى ص ١٦٥ وما بعدها، نضيف ان نص نزهة المشتاق للادريسى قد نشر كاملا محققا اجود تحقيق باشراف معهدين من اعاظم معاهد الاستشراق فى ايطاليا هما :

Instituto Universitario Orientalo di Napoli

Instituto Italiano per il Medio ed Estemo Oriente

فيما بين سنتى ١٩٧٠ و ١٩٧٥ وقد اشرفت على العمل لجنة من اكابر اهل الاستشراق فى ايطاليا وهم :

E. Cerulli, F. Gabrieli, G. Levi Della Vida, L. Peteck, G. Tucci, A. Bombaci, U. Razitano, A. Rubinacci, L. Veccia Vaglieri.

وقام بتحقيق الاجزاء الخاصة بكل مجلد رجل من علماء أهله أو من المتخصصين فى دراساته. وصدرت الطبعة فى ثمانية فصول، جمعت بعد ذلك فى مجلدين كبيرين عدا الفهارس.

وقد كان لى شرف تحقيق الاجزاء الخاصة بمصر، ثم ترجمت النص بعد ذلك الى الانجليزية، وعلقت عليه بدراسات مستفيضة تقع فى كتاب كامل باللغة الانجليزية، ينشره المعهدان الآنفا الذكر.

وقد الف العلامة العراقى المرحوم الدكتور احمد سوسة كتابا عن الشريف الادريسى ونشره فى مجلدين فى بغداد، الاول مدخل الى عصر الادريسى، والثانى عن الادريسى نفسه وعنوان الكتاب :

الشريف الادريسى فى الجغرافية العربية بغداد ١٩٧٤.

وقد نشر الكتاب على نفقة جمعية المهندسين العراقية فى طبعة

فاخرة مزينة بعشرات اللوحات والخرائط الجغرافية العربية ملونة وغير ملونة.

والجزء الاول دراسة لتاريخ العلم الجغرافى عند العرب، وهى دراسة قيمة فعلا. اما الثانى فيدور كله حول الادريسى، ولم يضف المؤلف عن الادريسى شيئا على ما قلناه، وان كانت طريقته فى الدراسة تتميز بدقة واسلوب جيد. وقد تفضل فاشار الى كتابنا هذا مرة بعد اخرى. والكتاب بجزئيه يعتبر الآن من امهات المؤلفات عن علم الجغرافية عند العرب، وخاصة فيما يتعلق بالخرائط واللوحات التى جمعها المؤلف من مصادر شتى بعضها لم يعرفه كونراد ميلر عندما نشر كتابه المعروف عن الخرائط العربية.

ولما كانت المعلومات القليلة عن حياة الادريسى واتصاله بملكه رجاء النورماندى وعمله معه قد وردت متفرقة فى بحثنا الطويل عنه، فقد رأيت ان أوردها هنا مجموعة فى بيان واحد :

اسمه الكامل : ابو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس الشريف الحسنى.

٤٩٣ هـ/١١٠٠م	مولد الادريسى فى سبته بشمال المغرب الاقصى
٥١٠ هـ/١١١٦م	كان فى آسيا الصغرى من بلاد الشرق فى اول رحلته المشرقية
٥١٢ هـ/١١١٨م	نهاية رحلته المشرقية ومروره بصقلية فى طريق عودته الى المغرب ـ تعرفه على القاسم بن حمود فى صقلية، وتقديم هذا اياه الى رجار القانى النورماندي واعجاب هذا به ودعوته إياه الى الاقامة فى صقلية والعمل بها ـ ثم عودته الى المغرب وذهابه بعد ذلك، ورحلته القصيرة الى الاندلس. ثم عودته الى صقلية واقامته بها للعمل مع رجار
٥٣٣ هـ/١١٣٨م	بداية عمل الادريسى فى صقلية. صنعه كرة الارض من

الصفنة ثم تسطيح الكرة رسما على لوح الترسيم ثم كتابة وصف لهذه الخريطة المسطحة. وهذا الوصف هو الذي عرف بنزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، وتلك هى جغرافية الادريسى المشهورة

٥٤٨ هـ/١١٥٣م فراغ الادريسى من كتاب نزهة المشتاق

٥٦٠ هـ/١١٦٤ ـ ١١٦٥ وفاة الادريسى فى مدينة بلرم فى الغالب وقد يكون عاد الى المغرب ومات فيه.

ويجد القارىء مناقشة هذه التواريخ كلها فى كتابنا هذا.

٥) عن ابى عبد الله محمد العبدري الرحالة

كتب الاستاذ العلامة المغربى تعليقا على ما ذكرناه فى كتابنا هذا عن الحالة النفسية التى جعلت العبدري عنيفا فى احكامه على بعض البلاد بحثا نشرناه فى المجلد السادس عشر من صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد. والبحث من أبحاث الرأي، وهو جيد كما هو عهدنا بكل ما ينشره العلامة المغربى الكبير.

٦) كتاب الجغرافية المنسوب الى محمد بن ابى بكر الزهري

نشر نص هذا الكتاب فى بيروت نشرة غير محققة تحقيقا علميا، وقد اطلعنا عليها فلم نجد فيها او فى مقدمتها اضافة جديدة، ونحن فى انتظار الطبعة المحققة التى يعدها الاستاذ جون هوبكنز الاستاذ بجامعة كمبريدج.

وفيما يتعلق بما كتبته عن ابى بكر العربى وفضله فى قيام جغرافية الرحلات فى الغرب الاسلامى، نشر الاستاذ الدكتور احسان عباس، الذي طالما اغنى المكتبة العربية بعلمه، بحثا قيما عن رحلة بن العربى كما صورها كتاب قانون التأويل (مجلة الابحاث، السنة ٢١ الاجزاء ٢ و٣ و٤، كانون ألاول (ديسمبر) ١٩٨٦).

والمقال يعتمد على نص جيد عثر عليه الدكتور احسان وهو يكمل ما قلته عن ابى بكر بن العربى.

٧) ابن بطوطة

لاحظ بعض اهل العلم الافاضل اننا ما دمنا قد كتبنا عن الشريف الادريسى فى كتابنا فقد كان من المناسب ان نكتب عن ابن بطوطة، وكنا قد كتبنا عن الادريسى لانه قمة العلم الجغرافى عند المسلمين، ثم ان اصله اندلسى. ومع ذلك فقد استجبت لهذا الرأي، وكتبت كتابا كاملا عن «ابن بطوطة ورحلاته»، تحقيق ودراسة وتحليل. وقد نشرت الكتاب دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٧٧.

٨) كتاب الروض المعطار لمحمد بن عبد المنعم الصنهاجى الحميري

نشر النص الكامل لهذا المعجم القيم الاستاذ الدكتور احسان عباس فى بيروت سنة ١٩٧٣، والطبعة محققة تحقيقا علميا دقيقا، وقد قدم لها الاستاذ الكبير بمقدمة ضافية يبدو من اطلاعنا عليها انه لم يطلع على كتابنا هذا او قرأ ما فيه، ولكنه اطلع على تحقيق الاستاذ ليفى بروفنسال من الاعلام الاندلسية فى كتاب مشهور اشرنا اليه فى كتابنا هذا، واطلع كذلك على بحث عن الاعلام الجغرافية فى جزيرة صقلية، نشره المستشرق الايطالى اومبرتو ريزيتانو نشر فى صحيفة كلية الآداب بجامعة القاهرة.

هذا ما انتهى الى علمى من الدراسات والتحقيقات التى ظهرت عن الجغرافية والجغرافيين فى الاندلس الى الآن، ونضيف الى ذلك ما نشر فى مجلة الاندلس من ابحاث عن الجغرافية الاندلسية وهو كثير، ولكن معظمه يدور حول تحقيقات لبعض الاعلام الجغرافية الاندلسية، والكثير من هذه الدراسات جيد جدا، ولكنه لا يدخل فى موضوع كتابنا وان لم يخل الامر من بعض الاشارات الى الجغرافيين المسلمين، ونخص بالذكر تحقيقات الاساتذة Felix Hernandez, Joaquin vallvé, Leopoldo Torres Babas, Luis Seco de Lucena

وقد نشر الاستاذ الدكتور احمد مختار العبادي القسم الخاص بالاندلس من

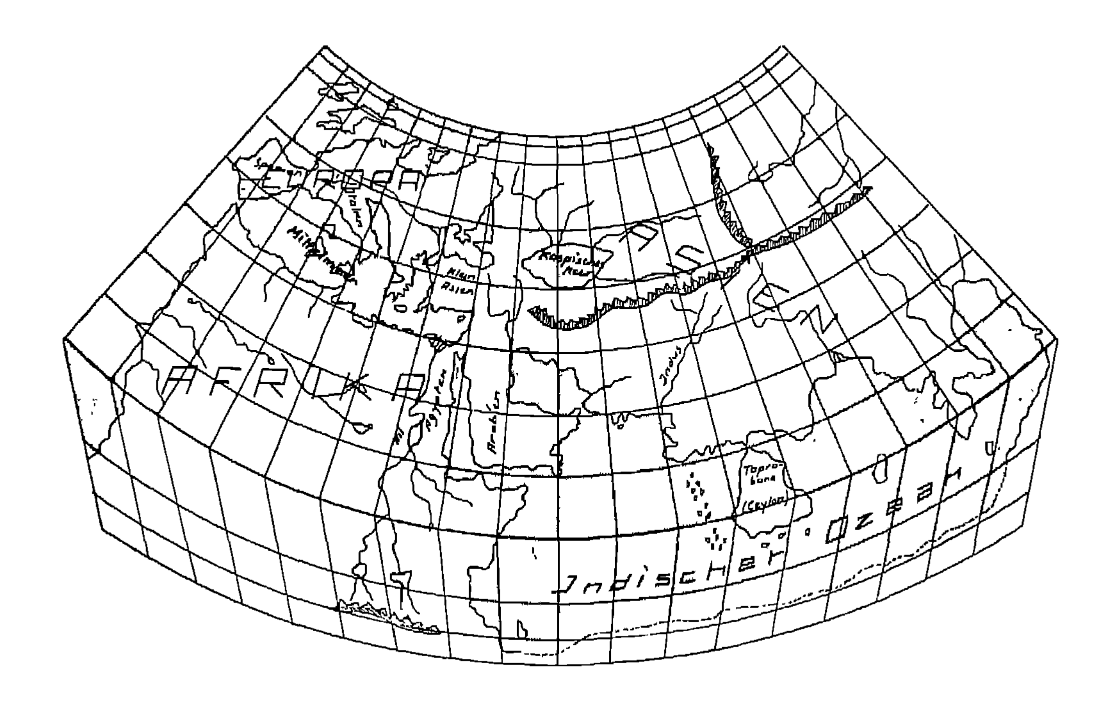
كتاب الاكتفاء فى اخبار الخلفاء فى صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد سنة ١٩٨٠ والحق به تعليقات عن اعلام اندلسية وجدها فى شرح القصيدة الشقراطيسية لابن الشباط، وفى النصين معلومات عن جغرافية الاندلس، كلها مستقاة من مراجع اندلسية وغير اندلسية.

وفيما عدا ذلك يبقى صلب كتابنا هذا سليما مستوفى قدر الطاقة فى تاريخ العلم الجغرافى واهله فى الاندلس، مع اضافات عن مساره فى بلاد المغرب. ومع ذلك فان هذا لا يمنع ان يكون قد عزب عن علمنا غير شىء مما ينشر الناس فى هذا المطلب ومعظمه مقالات فى صحف ثقافية قيمة، ولكن علمها لا يصل الينا، لان عالمنا العربى واسع بل شاسع، والعلم فيه كثير والنشر وافر، ولكن وسائل الاتصال بين اهل العلم ضعيفة واهية، ولا مجال للشكوى فهذا هو الواقع ولا حيلة لنا فيه.

والله سبحانه من وراء القصد والنية، وهو سبحانه المستعان على كل خير.

خرائط

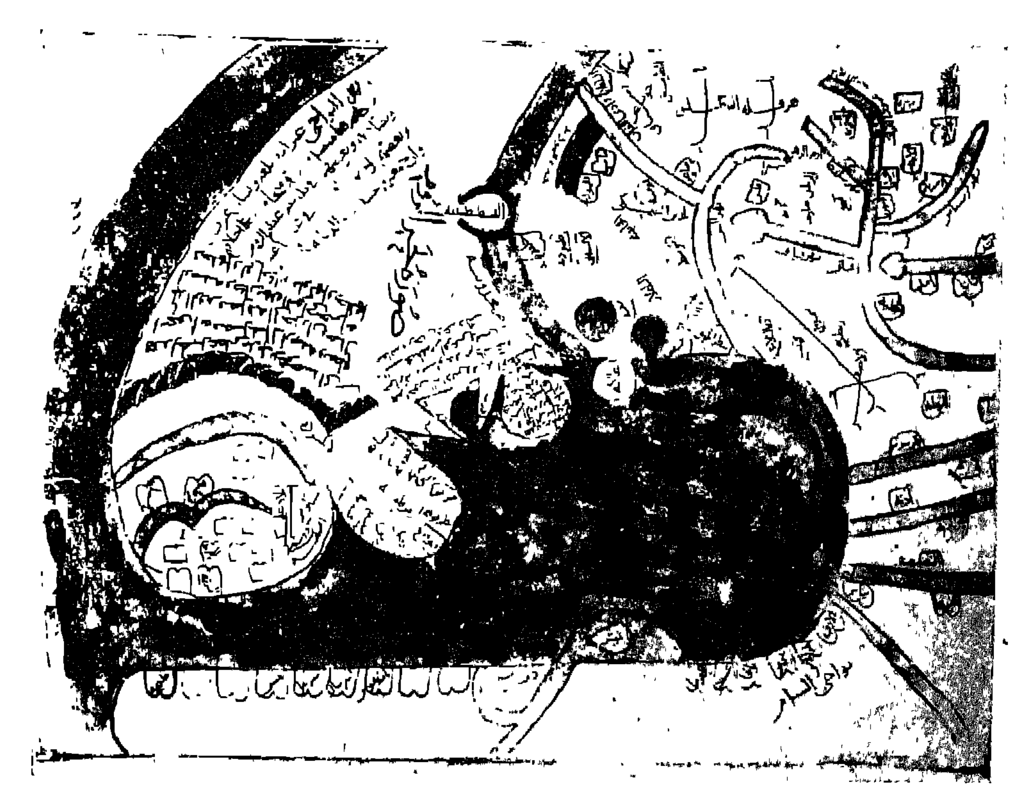
ملاحظة : لما كان العرب وأهل العصور الوسطى يرسمون الخرائط فى وضع معاكس لوضعها اليوم ، فالشمال فيها جنوب وبالعكس ، فقد تجنبت فى معظم الخرائط استعمال مصطلحات الاتجاهات كالشرق والغرب وما إليها وقلت بدلا من ذلك : إلى يمين الرسم أو يساره ، وذلك كله بالنسبة للقارىء الناظر إلى الرسم ، ويستثنى من ذلك الخريطة رقم ١ (صورة الأرض للادريسى فقد وضعناها على هيئة خرائط اليوم) وكذلك الخريطة رقم ٩



(٢) صورة الأرض المنسوبة إلى بطلميوس نقلا عن بحث سيزار دوبلر عن إفريقية والهند وبلاد الملايو عند الإدريسى .

César Dubler, *Der Afro-Indo-Malajische Raum bei Idrisi*, Francke Verlag. Bern, 1957.

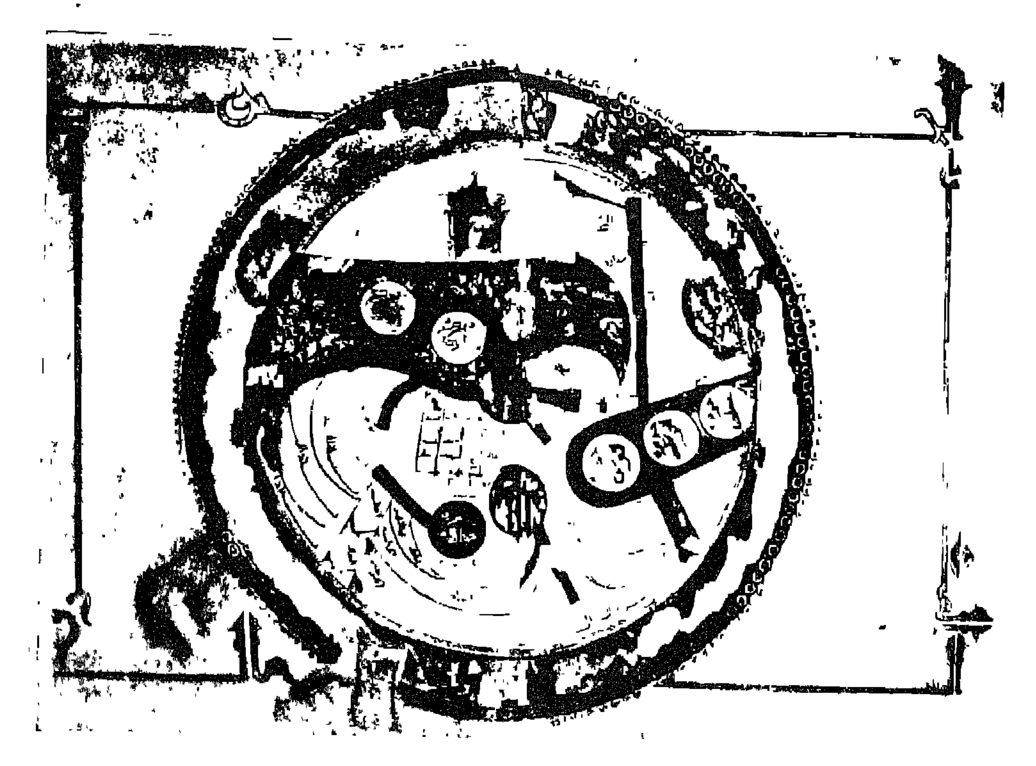
وقد وردت هذه الخريطة فى صور شتى يختلف بعضها عن بعض اختلافاً واضحاً فى شتى المراجع مما دفعنا إلى الشك فى حقيقتها والبحث عن أصولها . وقد أتينا فى هذا الكتاب (ص ٢٣٣ — ٢٣٥) بتحقيق تاريخها وأثبتنا بالفعل أنها ليست من عمل بطلميوس ، فإن الخرائط البطلمية كانت تكون الجزء الثامن من جغرافيته ، ولم يصلنا من هذه الخرائط إلا ٩٠ واحدة فى المجموع ، عمل منها العلماء خلال القرن الخامس عشر نسخاً ، ثم ضاعت الصور الأصلية ، وأعاد العلماء بعد ذلك عمل هذه الخرائط معتمدين على الأوصاف الواردة فى النص ، وعدلها بعضهم على أساس من الخرائط اليونانية ، وأضاف آخرون خرائط لم يعرفها بطلميوس ، ومن هنا فهى منحولة ومنسوبة إلى الرجل على غير حقيقة ، ولا يجوز لهذا أن يقال — كما يرد فى كثير من الكتب — أنها رغم قدمها أدق من خريطة الأرض للادريسى .



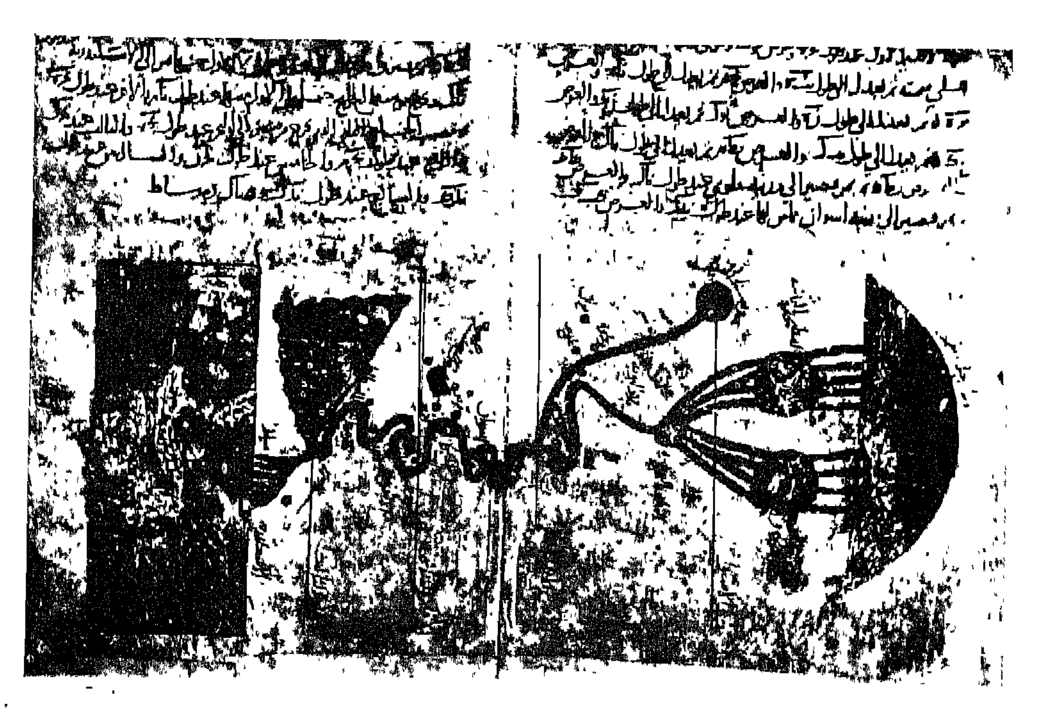
(٣) البحر الأبيض كما ورد مصوراً فى المخطوط رقم ٣٣٤٦ بمكتبة سراى فى الاستانة . هذه الرسوم لم تكن خرائط جغرافية بالمعنى الصحيح ، وإنما هى رسوم توضيحية عملها المؤلفون لتوضيح الكلام



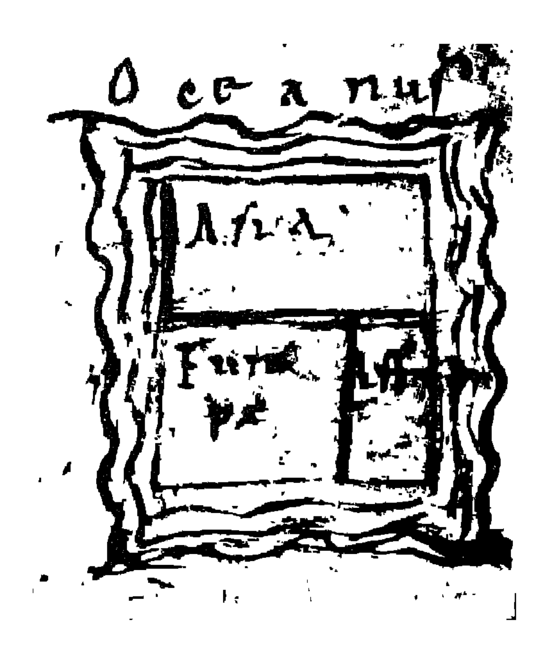
(٤) صورة الأرض كما رسمها البيرونى . نموذج آخر من الخرائط التوضيحية التى كان علماء المسلمين يرسمونها لاعطاء القارىء فكرة عن الصورة العامة للأرض ومواقع الاقطار و بحار بعضها بالنسبة لبعض



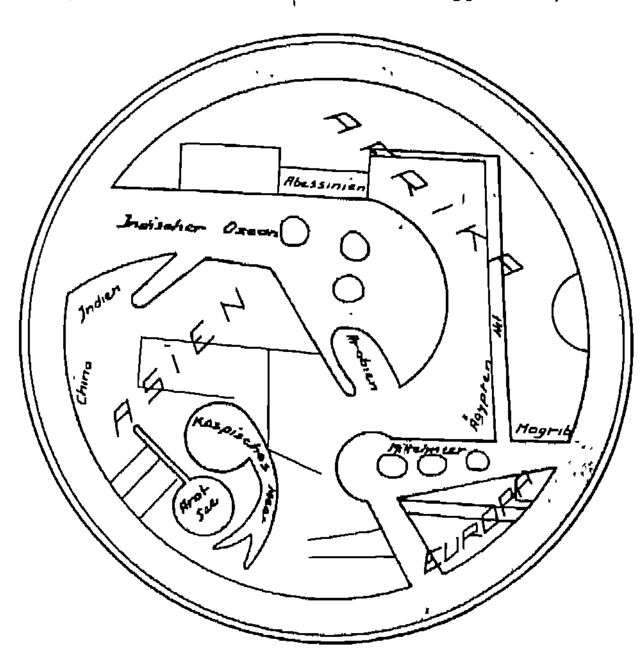
(٥) صورة الأرض للاصطخرى : خطوة انتقال من الرسوم التوضيحية إلى الخرائط الجغرافية . فى وسط الخريطة ترى البحر الأبيض على اليمين ثم بحر الهند إلى اليسار وهذا الوضع هو الخاصة المميزة لخرائط الأرض فى أطلس الإسـلام



(٦) خريطة النيل كما رسمها الخوارزمى فى كتاب صورة الأرض الذى اختصر فيه جغرافية بطلميوس . ولم ينقل الخوارزمى هذا الرسم عن بطلميوس إذ هو تصوير لمعلومات المسلمين عن النيل ومنابعه



(٧) رسم لهيئة الأرض وجد فى أحد مخطوطات جغرافية هروشيوش اللاتينية . الرسم لا يزيد على مستطيل مقسم إلى ثلاثة أقسام : الأول فى أعلاه وهو إفريقية وتحتها أوروبا على اليسار وآسيا على اليمين . الخطوط المتعرجة حول الرسم ليست إطاراً ، وإنما هي ماء البحر الذى يحيط بدائرة الأرض ، وقد كتب هروشيوش فى أعلى الرسم لفظ Oceanus أى المحيط



(٨) رسم توضيحى لهيئة الأرض وجد فى إحدى مخطوطات الأصطخرى ونشره كونراد ميللر فى مجموعة الخرائط العربية . إلى اليمين ترى نهر النيل منحدراً عامودياً من البحر الأبيض ثم منحرفا إلى اليسار . (لاحظ أن وضع الخريطة مقلوب) وإلى شرق النيل ترى البحر الأحمر متصلا بالمحيط الهندى — نقلا عن رسم عمله سيزار دوبلر



(٩) صورة الأرض كما نشرت فى طبعة القاهرة من كتاب خريدة العجائب وفريدة الغرائب لشهاب الدين أبى حفص عمر بن الوردى المتوفى فى ذى القعدة ٨٦١/سبتمبر–اكتوبر ١٤٥٧ وهى إحدى الخرائط العربية التى ترجع إلى أصول فارسية بدليل أنها تجعل إيران وسط الأرض ، ويرى البحر الأبيض فى النصف الشرقى من الرسم . لاحظ كيف يرسم المؤلف الأندلس وبلاد الافرنج والمورة ناسياً شبه جزيرة إيطاليا . ويرى النيل منحدراً من البحر الأبيض فى صورة خط رأسى ينحرف إلى الشرق حتى منبعه أو مخرجه عند جبال القمر ، وإلى شمال هذه الجبال تضع الخريطة البحر الأحمر فى صورة قرن يتسع ويسير شرقاً مكونا المحيط الهندى الذى تقع عليه الهند والتبت والصين وتقع فيه جزر سيلان وسومطرة وجاوة . وإلى شمال الهند والتبت والصين تقع إيران وأقاليمها ، وهى فى مجموعها تعدل الهند والتبت والصين معاً وتمتد حتى بحر خوارزم . كتاب ابن الوردى نفسه نموذج من تآليف عصر الاضمحلال فى علم الجغرافية . يلاحظ أن الخرائط العربية ترسم مقلوبة ، فأوروبا أسفل بلاد العرب ومملكة الإسلام — عدلنا وضع الخريطة هنا — نقلا عن ملحق دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة الأولى



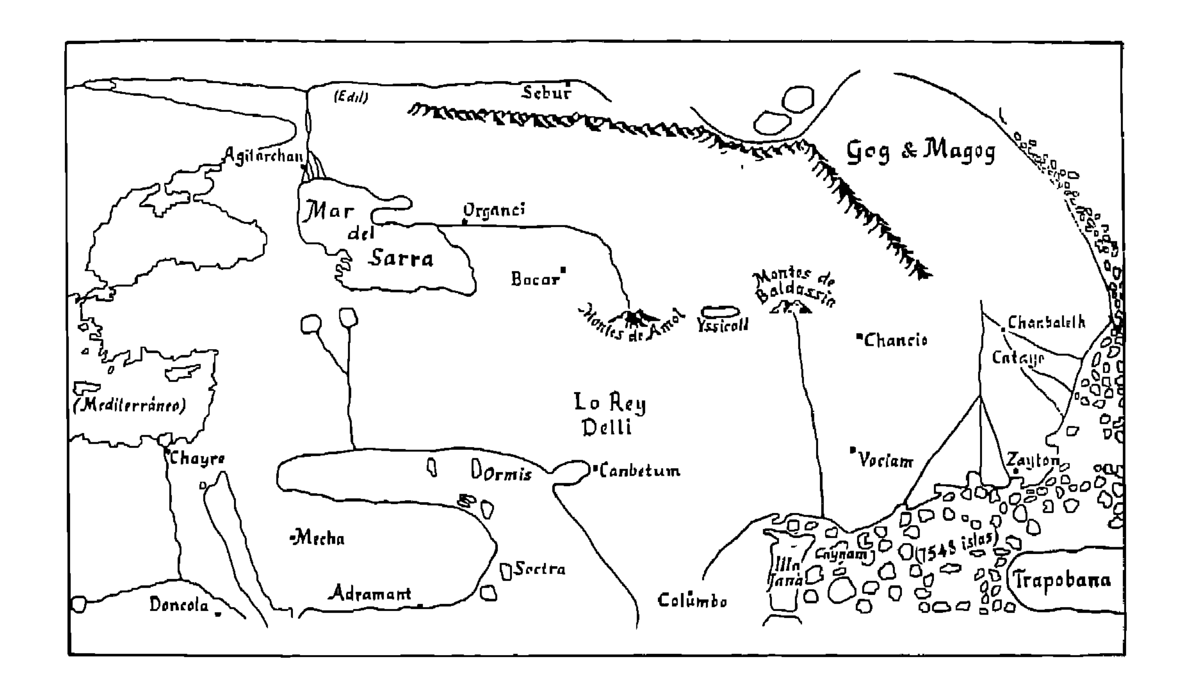
(١٠) صورة للأرض فريدة فى بابها عملها أحد المستعربين الأندلسيين ، أوردها جنذالو مننذث بيدال فى دراسة له عن ثقافة المستعربين (وهم نصارى الأندلس الذين دخلوا فى طاعة الاسلام ودولته فى الأندلس) والصورة تقوم على أساس من تصور إيزيدور للأرض (راجع الخريطة ٦) . وهو أن الأرض تنقسم إلى ثلاثة أقسام كبيرة هى إفريقية وأوروبا وآسيا ، وأضاف المستعرب إلى هذا التصور عنصرين رئيسيين : الأول أنه جعل الأرض مستديرة ، والثانى أنه استبدل أسماء القارات بأسماء الأجناس التى تسكن كلا منها ، وفى القسم الأعلى وهو الأكبر كتب : وسط الأرض لبنى سام وهم العرب الشام والحجاز ويثرب ومكة وأرض فارس وأرمينية إلى البحرين . وفى القسم الأسفل إلى اليسار كتب : ولبنى يافث — وهم العجم — من عند البحر الضيق : الخزر ويأجوج ومأجوج والروم وبلد الصقالبة والأندلس إلى مجمع البحرين . وكتب فى القسم الأيمن : ولبنى حام وهم البربر من ملتقى البحر الضيق الهندى : الهند والزنج والحبشة والقبط والسودان والبربر إلى المغرب . وفى الشريط الأفقى وسط الدائرة كتب : جميع الأرض أربع وعشرين فرسخ (كذا) وهو قياس محيط الأرض عند الكثيرين من جغرافيينا . وفوق ذلك كتب نفس العبارة باللاتينية الدارجة بتغيير طفيف : Exactius terre mensura geometrice CLXXXM stadia وهو طول محيط الأرض على قول بطلميوس بالاصطاديات . وفى محيط الدائرة كتب مقاييس أخرى بالعربية لا تصعب قراءتها ، انظر :

Gonzalo Menéndez Pidal: «*Mozárabes y Asturianos en la Cultura de la Alta Edad Media, en relación especial con la historia de los conocimientos geográficos*». *Bol. de la Real Academia de la Historia* (1954).

وكذلك بحث دوبلر الآنف الذكر .



(١١) رسم الإدريسي صورة الأرض مرتين ، الأولى فى صورة كرة أو دائرة ، هى المنشورة أعلاه — نقلا عن بحث لبيرار دوبلر — وهي من الناحية الخرائطية أقرب للدقة من الصورة الثانية ، أما هذه الثانية فهى مبسوطة على طريقة مركاتور وهى الأشهر والأكثر تداولا بين الناس ، وقد نشرناها فى أول هذا الكتاب نقلا عن رسم ممتاز لها نشره المجمع العلمى العراقي ، وفى أثناء كلامنا عن الإدريسى شرحنا كيف عملها الإدريسى ، وبينا فضله فى ذلك



(١٢) فى تاريخ علم الخرائط يحتل القطلونيون (ومعهم الأرغونيون) والجنويون وأهل الجمهوريات الإيطالية مكاناً ممتازاً ، فهم الذين حملوا لواء هذا الفن بعد العرب ابتداء من القرن الرابع عشر ، وليس من الثابت أنهم انتفعوا بخرائط الإدريسى ، لأن هذه لم تعرف فى أوروبا إلا بعد ذلك بزمن طويل ، ولكنهم حافظوا لمدة طويلة على العنصر المميز للخرائط العربية للأرض وهو أن وسط الأرض يحتله بحران كبيران الأول يسير من الشرق إلى الغرب ، وهو البحر الأبيض ، والثانى يقع شرقه — وهو أكبر منه حجما — يسير من الشمال إلى الجنوب ثم ينحرف إلى الشرق فى اتساع ويحيط باليابس كله من الشرق (البحر الأحمر ثم المحيط الهندى) . واعتماداً على معلومات الرحالة مثل ماركو پولو وأودريكو دبوردنونى Oderico de Pordenone وسير جون ماندفيل Sir John Mandeville أدخلوا تعديلات هامة وأضافوا زيادات كثيرة إلى ما عرف العرب كما ترى فى هذه الخريطة التى رسمت حوالى سنة ١٣٧٥ . لاحظ كيف كتبت القاهرة Chayre وبحر قزوين Mar Sarra ونهر أوكسوس Organci وبخارى Bocar ونهر سيبريا Sebur . وفى أقصى الخريطة إلى الشرق كتبت بكين Chanbaleth وهى خان بالق عند العرب والصين Catayo وهى بلاد الخطا عند العرب . . الخ . لاحظ دقة الرسم فى هذه الخرائط وهذا دليل على تأثرها بالخرائط البورتولانية .

Cf. G. R Crone. *Historia de los Mapas.* México, 1956, pp. 44 sqq.

النصوص الواردة فى تضاعيف الكتاب

صفحة

المـراجـع

ا — مراجع عربية :

ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة . نشر جزءاً منه كوديرا فى المكتبة الأندلسية (جـ ٥—٦ ، مدريد ١٨٨٧—٩٠) ، ونشر قطعة أخرى ألاركون وجنثالث پالنثيا فى كتاب Miscelanea (مدريد ١٩١٥) ، ونشر قطعة ثالثة عن مخطوط فاسى ألفريد بل ومحمد بن شنب فى الجزائر ١٩٢٠ . وطبعة القاهرة ١٩٥٦

ابن الأبار : الحلة السيراء ، بتحقيق حسين مؤنس . القاهرة ١٩٦٤

« « : المعجم فى أصحـاب القاضى أبى على الصدفى (ضمن المكتبة الأندلسية) .

ابن الأثير الجزرى : الكامل فى التاريخ . طبعة لايدن ١٨٦٧—١٨٧٦ وطبعة القاهرة ١٩٤٩

إحسان عباس : العرب فى صقلية . القاهرة ١٩٥٩

أحمد مختار العبادى : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب فى بلاد المغرب والأندلس . جامعة الاسكندرية ١٩٥٨

إخوان الصفاء : رسائل إخوان الصفاء . القاهرة ١٩٢٨

الإدريسى : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، مأخوذة من كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » بتحقيق راينهـارت دوزى ودى خويه . ليدن ١٨٦٦

الإدريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق . روما ١٥٩٢

الاستبصار فى عجائب الأمصار . بتحقيق سعد زغلول عبد الحميد . جامعة الاسكندرية ١٩٥٨

ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، قطعة نشرها نور الدين عبد القادر وهنرى جاهيه — وهي الباب الثالث عشر فى أطباء إفريقية والأندلس — وترجمتها الفرنسية . الجزائر ١٩٥٨

بالنثيا ، آنخل جنثالث : تاريخ الفكر الأندلسى ، نقله عن الإسبانية حسين مؤنس . القاهرة ١٩٥٥

البتاني ، محمد بن جابر بن سنان : الزيج الصابي . روما .

ابن بسام الشنتريني : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، المجلدات الثلاثة المنشورة بعناية كلية الآداب بجامعة القاهرة . وما نشر منه فى موسوعة دوزى عن بنى عباد Hist. Abbad. والقسم المخطوط المحفوظ بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد (مجموعة جايانجوس) .

ابن بشكوال : الصلة ، بتحقيق كوديرا ، مدريد ١٨٨٢ . وطبعة القاهرة ١٩٥٥

البكرى ، أبو عبيد : صفة إفريقية (مستخرجة من كتاب المسالك والممالك نشرها دى سلان فى الجزائر ١٩١٠) .

البكرى ، أبو عبيد : اللآلى فى شرح أمالى القالى ، نشره عبد العزيز الميمنى القاهرة ١٩٣٦

البكرى ، أبو عبيد : معجم ما استعجم ، نشره مصطفى السقا . القاهرة ١٩٤٥

بهجة الأثرى : الجغرافيا عند المسلمين ، مجلة المجمع العلمى العراقى سنة ١٩٥٢

البيذق ، أبو بكر الصنهاجى : أخبار المهدى ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين ، بتحقيق ليفى بروفنسال . باريس ١٩٢٨

بيرنيت ، خوان : هل هناك أصل إسبانى عربى لفن الخرائط البحرية . صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد . المجلد ١ ص ٨٠—٨١

ابن تغرى بردى : المنهل الصافى . مخطوطة المكتبة الأهلية بباريس (رقم ٢٠٧١ من فهرس دى سلان) .

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . طبعة دار الكتب المصرية .

التيجانى : تحفة العروس . مخطوطة مكتبة الجزائر الأهلية (رقم ١٧٨٤ من فهرس فانيان) .

ابن جبير : رحلة ابن جبير . طبعة وليام رايت ، لندن ١٨٥٢ . وطبعة دى خويه ١٩٠٧ . وطبعة حسين نصار . القاهرة ١٩٥٥

ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء ، بتحقيق فؤاد السيد . القاهرة ١٩٥٥

حاجى خليفة : كشف الظنون . طبعة فلوجل ، لايدن ١٨٣٥ — ١٨٥٨ وطبعة استامبول ١٣١٠ هـ.

حسين مؤنس : الثغر الأعلى الأندلسى وسقوط سرقسطة .

« « سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم فى الأندلس صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، مجلد ٢ عدد ١—٢

حسين مؤنس : فجر الأندلس . القاهرة ١٩٥٩

الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية . تونس ١٣٣٧

الحميدى : جذوة المقتبس ، طبعة محمد بن تاويت الطنجى . القاهرة ١٩٥٣

الحميرى ، ابن عبد المنعم : الروض المعطار فى خبر الأقطار . نشر المواد الأندلسية منه ليفى بروفنسال فى لايدن سنة ١٩٣٦ . وطبعة القاهرة ١٩٤٨

ابن حوقل : صورة الأرض ، بتحقيق كرامرز . لايدن ١٩٣٨

ابن خاقان ، الفتح : قلائد العقيان . القاهرة ١٢٨٣

ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، بتحقيق دى خويه . لايدن ١٨٨٩

ابن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة . مخطوط الاسكوريال رقم ١٦٧٣ والطبعة المحققة بعناية محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٥٦

ابن الخطيب : أعمال الأعلام . بيروت ١٩٥٦

« « : اللمحة البدرية . بتحقيق محب الدين الخطيب .

ابن خلدون : كتاب العبر . طبعة بولاق ١٢٨٤

« « : المقدمة . بولاق .

ابن خلكان : وفيات الأعيان . طبعة بولاق ١٢٩٩ . وطبعة جوتنجن ١٨٣٥—١٨٤٣ . وطبعة القاهرة ١٩٤٨

الخوارزمى ، محمد بن أحمد بن يوسف : صورة الأرض . طبعة هانز فون مجيك . لايبسك ١٩٢٦ . وأعيد طبعه بطريقة الأوفست فى مطبعة الرابطة فى بغداد سنة ١٩٦٢

الخوارزمى ، محمد بن أحمد بن يوسف : مفاتيح العلوم . لايدن ١٨٩٥ ، والقاهرة ١٣٤٤

ابن خير ، أبو بكر محمد : فهرست ما رواه عن شيوخه ، بتحقيق كوديرا وريبيرا ، الطبعة الثانية .

دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة الأولى .

ابن رشيد الفهرى : رحلة ابن رشيد . مخطوطة الاسكوريال رقم ١٧٣٧

ابن أبى زرع الفاسى : الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، بعناية كارل تورنبرج . أبسالا ١٨٤٣

السبكى : طبقات الشافعية . القاهرة ١٩٠٦—٧

ابن سعيد : اختصار القدح المعلى ، بتحقيق ابراهيم الابيارى . القاهرة ١٩٥٩

« « : بسط الأرض فى الطول والعرض ، بتحقيق خوان بيرنيت خينيس . نشره معهد مولاى الحسن بتطوان المغرب سنة ١٩٥٨

ابن سعيد . رايات المبرزين وغايات المميزين ، بتحقيق إميليو غرسية غومس مدريد ١٩٤٢

ابن سعيد : المشرق فى حلى المشرق . مخطوط بالمكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٥٣٢ تاريخ .

ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، بتحقيق شوقى ضيف . القاهرة ١٩٥٣ و ١٩٥٥

السيوطى : بغية الوعاة . القاهرة ١٣٢٦

ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات . بولاق ١٢٩٩

ابن الشحنة ، محمد : الدر المنتخب فى تاريخ حلب . بيروت ١٩٠٩

الصفدى : الوافى بالوفيات ، نشر التراجم الخاصة بصقلية ميكيلى أمارى فى المكتبة الصقلية . لايبسك ١٨٥٧

الضبى : بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس . طبعة ريبيرا ، مدريد ١٨٨٤—١٨٨٥

عبد الله كنون : الشريف الإدريسى ، سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب ، رقم ٢٤ ، تطوان ، بدون تاريخ .

ابن عبد الواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب . طبعة دوزى ، لايدن ١٨٨١ . وطبعة سعيد العريان ، القاهرة ١٩٤٤

العبدرى : الرحلة المغربية ، بتحقيق أحمد بن جدو . الجزائر ١٩٦٥

ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب فى أخبار ملوك الأندلس والمغرب (الجزءان الأول والثانى المنشوران بعناية دوزى ، ليدن ١٨٤٨—١٨٥١ ، والجزء الثالث المنشور بعناية ليفى بروفنسال ، باريس ١٩٣٠ . وقد أعاد پروفنسال وكولان نشر الجزءين الأول والثانى فى ليدن ١٩٥١—١٩٥٢

ابن العربى : شواهد الجلة والأعيان فى مشاهد الإسلام والبلدان . نسخة مصورة عن مخطوط فى مكتبة القرويين فى فاس .

ابن العربى : عارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذى . القاهرة ١٩٣١

« « : العواصم من القواصم . طبعة محي الدين الخطيب . القاهرة .

« « : قانون التأويل . طبعة ليدن .

على بن يوسف الحكيم : ضوابط دار السكة ، بتحقيق حسين مؤنس ، مدريد ١٩٦٠

العماد الأصفهانى : الخريدة ، نسخة مصورة عن مخطوطة باريس رقم ١٣٧٥ وقطعة نشرها أمارى فى المكتبة الصقلية ص ٦١٠—٦١١

العماد الحنبلى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب . القاهرة ١٣٥٠

الغرناطى ، أبو حامد : المعرب عن بعض عجائب المغرب . مخطوط أكاديمية التاريخ فى مدريد (رقم ٣٢ مجموعة جايانجوس) .

أبو الفدا : تقويم البلدان ، طبعة م. رينو ودى سلين . باريس ١٨٤٠

ابن فرحون : الديباج المذهب .

ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، بتحقيق كوديرا . مدريد ١٨٩٠—١٨٩٢

ابن القاضى : جذوة الاقتباس . طبع حجر ، فاس ١٣٠٩

قدامة بن جعفر : كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، بتحقيق دى خويه ، ليدن ١٨٨٩

القزوينى : عجائب المخلوقات .

ابن القطان : نظم الجمان ، الجزء السادس بتحقيق محمود على مكى . تطوان ١٩٦٤

كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، ترجمه من اللغة الروسية صلاح الدين عثمان هاشم . القاهرة ١٩٦٣

لطفى عبد البديع : « تعليق منتق من فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس ، للحافظ محمد ابن أيوب بن غالب الغرناطى » . مجلة معهد المخطوطات ، مجلد ١ ج ٢ ص ٢٨٥ . مجلة المجمع العلمى العراق . مجلد ١١ (سنة ١٩٦٤)

محمد بن عبد الوهاب الغسانى : رحلة الوزير فى افتكاك الأسير . طبعة الفريد البستانى ، العرائش ١٩٤٠

مسالك الأبصار : نسخة مصورة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٥٦٧ تاريخ ، المجلد الثامن .

المسعودى ، أبو الحسن على : التنبيه والإشراف .

المسعودى أبو الحسن على : الجمان فى مختصر أخبار الزمان (ويعرف أيضاً بكتاب العجائب أو أخبار الزمان وعجائب البلدان) نشره عبد الله الصاوى فى القاهرة ١٩٣٨ . وفى المكتبة الأهلية بباريس مخطوطة لمختصر صغير له كان قد ترجمه كارا دى فو إلى الفرنسية ونشره فى باريس سنة ١٨٩٨ بعنوان :
L'Abregé des Merveilles.

المسعودى ، أبو الحسن على : مروج الذهب . طبعة باربييه دى مينار وبافيه دى كورتى . باريس ١٨٦١—١٨٧٦

المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، بتحقيق دى خويه ، ليدن ١٩٠٦

المقرى ، أبو العباس أحمد : أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض . القاهرة ١٩٣٩

المقرى ، أبو العباس أحمد : نفح الطيب ، طبعة محي الدين عبد الحميد . القاهرة ١٩٤٩

المقريزى ، تقى الدين أحمد بن على : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . طبعة القاهرة ١٩٠٦—١٩٠٨

المكتبة الأندلسية : نشر كوديرا وريبيرا فى مدريد وسرقسطة من سنة ١٨٨٣ إلى ١٨٩٥ . عشرة أجزاء .

ابن منظور : لسان العرب .

نالينو ، كارل : علم الفلك ، تاريخه عند العرب فى القرون الوسطى . (طبع بالعربية فى روما سنة ١٩١١ ، وأعادت نشره مكتبة المثنى فى بغداد ١٩٦٣) .

النباهى ، أبو الحسن : تاريخ قضاة الأندلس المسمى المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا . نشره ليفى بروفنسال . القاهرة ١٩٤٨

العذرى ، أحمد بن عمر : نصوص عن الأندلس ، بتحقيق عبد العزيز الأهوانى ، مدريد ١٩٦٥

نفيس أحمد : جهود المسلمين فى الجغرافيا ، ترجمة فتحى عثمان (مجموعة الألف كتاب ، رقم ٢٧٢) القاهرة ، بدون تاريخ .

هروشيش : الترجمة العربية لتاريخه . مخطوطة محفوظة فى مكتبة جامعة كولومبيا فى نيويورك تحت رقم X, 993-712, II .

الوثائق العربية الغرناطية ، بتحقيق لويس سيكو دى لوثينا . معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٦١

ياقوت الحموى : معجم البلدان . القاهرة ١٩٠٦

اليعقوبى : كتاب البلدان ، طبعة دى خويه ، ليدن ١٨٩٢

ابن يونس المصرى : الزيج الحاكمى الكبير (نسخة خطية فى مكتبة ليدن رقم ١٠٥٧ من فهرست مخطوطات هذه المكتبة) .

* * *

ب — مراجع افرنجية :

Aḥmad Zaki Pasha: *Une seconde tentative des Musulmans pour decouvrir l'Amérique*, dans Bulletin de l'Institut d'Egypte, 1920, pp. 57-59.

Aḥmad Zaki Walīdī: *Der Islam und die geographiscbe Wissenschaft*, Geographische Zeitschrift, 1934.

Almagia, R.: *Monumenta Italica Cartographica*. Firenze, 1929.

Amari, M.: *Bibliotheca Arabo-Sicula*. Leipzig, 1857.

Amari, M.: *Storia dei Musulmani di Sicilia*. Firenze, 1872.

Alemany Bolufer, José: *La Geografía de la Península Ibérica en los escritores cristianos, desde San Isidoro hasta el siglo XVI*, Revista del Centro de Estudios Históricos de Granada y su Reino, tomo XII, 1922, núms. 1, 2, p. 5-6.

Alemany Bolufer, José: *La Geografía de la Península Ibérica en los escritores Árabes* (Revista del Centro de Estudios Históricos de Granada y su Reino), tomo IX, fasc. 3-4, 1919.

Alemany Bolufer, José: *La Geografía de la Península Ibérica en los textos de los escritores griegos y latinos*. Separata de la Revista de Archivos, Bibliotecas y Museos. Madrid, 1911.

Bagrow, L.: *Geschichte der Kartographie*. Berlin, 1951.

Basset, R.: *Documents géographiques sur l'Afrique Septentrionale*. Paris, 1898.

Basset, R.: *Extrait de la Description de l'Espagne*, tiré de l'ouvrage du Géographe Anonyme d'Almerie, Homenaje a Codera. Madrid, 1904.

Beazley, C. R.: *The Dawn of Modern Geography*, III, 1906.

Berger, H.: *Geschichte der wissenschaftlichen Erdkunde der Griechen*. Leipzich, 1903.

Blochet, E.: *Bibliothèque Nationale - Catalogue des Manuscrits Arabes des nouvelles acquisitions* (1884-1924), Paris, 1925.

Brockelmann, C.: *Geschichte der Arabischen Literatur*. Weimar, 1898. Supplément bände, Leiden, 1937-1938, 4 vols.

Bücher, K.: *Die Entstehung des Volkswirtschaft*, 7° Auflage, Tübingen, 1910.

Casiri: *Biblioteca Arábico-Hispana Escurialensis*.

Centenario della nascitá di Michele Amari. Palermo, 1910.

Chalendon, F.: *La Domination normande en Italie et Sicile*, 1009-1094. Paris, 1907.

Cherbonneau: *Notices et Extraits des Voyages d'El-Abdery*, dans Journ. As. 5 ème Série IV, 144 sqq.

Conde, José Antonio: *Descripcion de España de Xerif Aledrisi,* conocido por el Nubiense, con traducción y notas. Madrid, 1799.

Crone, G. R.: *Maps and their makers.* London, 1953.

Cuntz, O.: *Die Geographie des Ptolemaios.* Berlin, 1923.

De la Roncière, Ch.: *La découverte de l'Afrique au Moyen Age, Cartographes et Explorateurs.* Le Caire, 1924-5.

De Sacy, Silvestre: *Relation de 'Abd Allatif.*

De Slane: *Description de l'Afrique Septentrionale par Abou Obeid el Bakri.* Paris, 1875.

De Slane: *Geographie d'Idrīsī,* traduite en français par Mr. Jaubert dans Journal Asiatique, 1841, III, Série, vol. XI, pp. 372-387.

Della Vida, G. Lévi: *La Tradizione Araba della Storia di Orosio.* Al-Andalus, vol. XIX, fasc. 2, pp. 257-265.

Dőlger, F.: *Rom in der Gedankenwelt der Byzantiner,* in Zeitschirft fűr Kirchengeschichte, LVI (1937), 1-42.

Dopsch, A.: *Virtschaftlische und Soziale Grundlagen der Europäischen Kulturentwicklung aus der Zeit von Kaisar bis auf Karl den Grossen.* Wien, 2° Auflage, 1923-1924, 2. Bände.

Dozy, R. P. A.: *Recherches sur l'histoire politique et litteraire de l'Espagne pendant le Moyen Age,* Leyden, 1849.

Dozy, R. P. A.: *Scriptorum Arabum Loci de Abbadides.*

Dozy, R. P. A. et de Goeje, M. J.: *Description de l'Afrique et de l'Espagne par Edrisi.* Leiden, 1866.

Dubler, César E.: *Abū Ḥāmid el Granadino y su Relación de Viaje por Tierras Euro-asiáticas.* Madrid, 1953.

Dubler, César E.: *La Materia Médica de Dioscorides.* Barcelona, 1953.

Dubler, César E.: *Las Laderas del Pirineo según Idrīsī,* en Al-Andalus, XVIII, pp. 337-373.

Dubler, César E.: *Los Caminos a Compostela en la Obra de Idrīsī,* Al-Andalus, XIV, 1949, fasc. 1, p. 70.

Encyclopædia Britannica.

Ferrand, Gabriel: *L'Élément Persan dans les Textes Nautiques Arabes des XV et XVI Siècles,* dans Journal Asiatique, 1934, fasc. 1, pp. 193-257.

Ferrand, Gabriel: *Le Tuhfat al-Albāb de Abū Ḥāmid al-Andalusī al-Garnātī,* Journal Asiatique, Juillet-Septembre, 1925.

Ferrand, Gabriel: *Notes d'Histoire Orientale.* Contribution à l'histoire de la boussole, dans Mélanges Réné Basset. Paris, 1923.

Freeman, E. A.: *History of Sicily.* London, 1891-1894.

Gallios, L.: *Les Géographes Allemands de la Renaissance.* Paris, 1903.

García Gómez, Emilio: *El Parangón entre Málaga y Salé de Ibn al-Jaṭīb,* Al-Andalus, II, 1934, fasc. 1, pp. 183-194.

Guidi, Michelangelo: «*Roma e gli arabi*», in Roma, Revista di Studi e di Vita Romana, 20 (1942), 17-18.

Haskins, C. H.: *The Normans in European History.* Boston, New York, 1915.

Hinz, Walther: *Islamische Masse und Gewichte.* Leiden, 1955, pp. 16-17.

Hőnerbach, W.: *Itinerar des ʿAbdarī;* Z D M G, XLIV, p. 193, sqq.

Houdas et René Basset: *Mission Scientifique en Tunisie,* IIe partie, Alger, 1883, p. 154, sqq.

Hurtado Juan, J. de la Serna y González Palencia: *Historia de la Literatura Española,* 6.a edición. Madrid, 1949.

Huici Miranda, Ambrosio: *Historia política del Imperio Almohade.* Tetuán, 1956.

Jacob, Georg: *Der Nordisch-Baltische Handel der Araber im Mittelalter.* Leipzig, 1887.

Jacob, Georg: *Studien in arabischen Geographen.* Heft 1, Berlin, 1890; Häfte II, III, IV, Berlin, 1892.

Journal of American Oriental Society, 59 (1939).

Jwaideh, Wadie: *The introductory chapters of Yakūt's Mu'djam al-Buldān*. Leiden, Brill, 1959.

Kimble, G. H.: *Geography in the Middle Ages*, 1938.

Le Strange, Guy: *Palestine under the Moslems*, 1890.

Lerchundi y Simonet: *Chrestomatía Arábigo-Española*. Granada, 1881.

Lévi-Provençal, E.: *En relisant le «Collier de la Colombe»*, Al-Andalus, vol. XV (1950), fasc. 2, pp. 335-377.

Lévi-Provençal, E.: *Histoire de l'Espagne Musulmane*. Paris, 1950.

Lévi-Provençal, E.: *La Description de l'Espagne de Razi*, Al-Andalus, vol. XVIII, fasc. 1, pp. 101-104.

Lévi-Provençal, E.: *La Péninsule Ibérique au Moyen Age d'après le Kitāb ar-Rawḍ al-Mi'tār*. Leiden, 1938.

Lévi-Provençal, E.: *Las Ciudades y las Instituciones Urbanas del Occidente Musulmán en la Edad Media*. Tetuán, 1950, p. 45.

Lelewel, Joachim: *Geographie du Moyen-Age*. Bruxelles, 1852.

Lewicki, Tadeutz: *Polska i Kraje Sasiedmie w Swietle a Ksiegi Rogera*, geografa arabeskiego 2, XII w. al-Idrīsī ego. Czesc I, Krakow, 1945, Czesc II, Warsowa, 1945.

Linam, E.: *The first engraved atlas of the world*; *the Cosmographia of Claudius Ptolomaeus*. Bolonia, 1477. Jenkintown, 1941.

Machado, O. A.: *La Historia de los Godos, según Ibn Jaldūn*, en Cuadernos de Historia de España, 1-11 (1944), 143-144.

Madoz, Pascual: *Diccionario Geográfico, Estadístico, Histórico de España*... Madrid, 1818.

Maqbūl Aḥmad: *India and the neighbouring territories in the Kitāb Nuzhat al-Mushtāq fi 'Khtirāq al-Āfāq*. Leiden, Brill, 1961.

Marquart, J.: *Eranshahr* in *Abhandlungen der Gesellschaft der Wissenschaften zur Göttingen*, 1901.

Marquart, J.: *Osteuropäesche und Ostasiatische Streifzüge*. Leipzig, 1903.

Mayerhof, Max: *Eine Arzneimittllehre des arabischen Geographen Edrīsī*, in Forschungen und Fortschritte, 5° Jahr 1929, Heft 28.

Mieli, A.: *La science arabe et son rôle dans l'evolution scientifique mondiale.* Avec quelques additions de H. P. J. Renaud, M. Meyerhof, J. Ruska. Leiden, 1939.

Miller, Konrad: *Mappae Arabicae*, Arabische Welt und Länderkarten, 6 vols. Stuttgart, 1926-1930.

Malaterra, G.: *La Conquista de Sicilia*, Collezione d'Opere inedite o Rare. Bologna, 1865; lib. IV, cap. 5.

Martínez de Arizala y Castejón, Rafael: *Guía de Córdoba.* Madrid, 1930.

Martínez de Arizala y Castejón, Rafael: *Córdoba Califal.* Córdoba, 1930.

Monés, Ḥussain: *La División Político-Administrativa de la España Musulmana*, en Revista del Instituto de Estudios Islámicos, vol. V, (1957), pp. 102, sqq.

Monteil, Vincent: *L'Islam Noir.* Paris, 1964.

Montylinski: *Itinéraire entre Tripoli et l'Egypte:* El Aïachi, Moulai Aḥmad et al-Ouartiláni (Extrait du Bulletin de la Société de la Géographie d'Alger). Alger, 1904, p. 4.

Moritz, B.: *Ibn Sa'īds Beschreibung von Sicilien*, Centenario della nascità di Michele Amari, I. Palermo, 1910, pp. 292-305.

Menéndez Pidal, Ramón: *Historia de España*, tomo II, España Romana, Madrid, 1935, pp. 567-574.

Nallino, C.: *Al-Ḥawarizmī e suo rifacimiento della Geografía di Tolomeo.* R. A. L., serie V, vol. 2, 1ª Roma, 1895-96.

Ninck, M.: *Die Entdeckung Europas durch die Griechen.* Basel, 1945.

Oman, Giovanni: *Notizie bibliographiche sul geografo arabo al-Idrīsī (XII secolo) e sulle sue opere.* Estrato dagli Annali dell' Instituto Universitario Orientale di Napoli. Nuova serie, volume XI, Roma, 1961.

Ocaña Jiménez, Manuel: *Las puertas de la Medina de Córdoba,* Al-Andalus, III, 1935, pp. 143-151.

Pérez de Urbel, Justo: *Las Letras en la Época Visigoda en Historia de España;* dirigida por Ramón Menéndez Pidal.

Pirenne, H.: *Les Villes du Moyen Age.* Essai d'histoire économique et sociale (Bruxelles, 1927).

Pirenne, H.: *Un contraste économique: Mérovingiens et Carolingiens,* dans Revue Belge de philologie et d'histoire, tome I (1922) et II (1923).

Potiron, G.: *Eléments de Biographie et de Généalogie des Banū Sa'īd,* Arabica, XII, 1965, fasc. 1, pp. 78-91.

Ramsay, W. M.: *The Historical Geography of Asia Minor,* in Royal Geographical Society Supplementary Papers, IV, London, 1890.

Reinaud, M.: *Géographie d'Aboulféda.* Paris, 1848.

Revue Critique d'Histoire et de Littérature, N. S. 96 (1929), p. 262.

Ribera y Tarragó Julián: *Disertaciones y Opúsculos,* II (Madrid, 1928).

Ruska, Georg: *Zur geographischen literatur im islamischen Kulturbereich.* Geographische Zeitschrift. Band 33 (1927).

Ruska, Georg: *Neue Bausteine zur Geschichte der arabische Geographie.* Geographische Zeitschrift, 1918.

Sánchez Albornoz, Claudio: *Fuentes para el estudio de las divisiones eclesiásticas visigodas.* (Boletín de la Universidad de Santiago, 1934), p. 44, sqq.

Sánchez Albornoz, Claudio: *Fuentes latinas de la historia romana de Rasis* (Publicaciones del Instituto Argentino Hispano-Árabe), Buenos Aires, 1942.

Sánchez Albornoz, Claudio: *San Isidoro, Rasis y «La Pseudo-Isidoriana», en Cuadernos de Historia de España,* IV (1946), 73-113.

Seco de Lucena, Luis: *Los Ḥamūdíes de Málaga y Algeciras.* Málaga, 1955.

Saavedra, Eduardo: *La España del Edrīsī*. Madrid, 1881.

Sarton, George: *Introduction to the History of Science*. Baltimore, 1927-1931.

Schaube, A.: *Handelsgeschichte der romanischen Völker des Mittelmeersgebiets bis zum Ende der Kreuzzüge*. München-Berlin, 1906.

Schiaparelli, Luigi: *L'Italia descritta nel Libro del Re Ruggero Compilato da Edrīsī*. Relazzione preceduta da un cuadro degli studi geografici in Occidente dall principio dell' Impero romano al secolo XIII. Torino, 1883.

Schulten, Adolf: *Iberische Landeskunde; Geographie des Antiken Spanien*. Strasbourg-Kehl, 1955.

Seippel, A.: *Rerum Normannicarum Fontes Arabici*. Oslo, 1896-1928.

Seybold, C. F.: *Hispano-Arábica*, I, en la Revista del Centro de Estudios Históricos de Granada y su Reino, tomo III.

Simonet, Francisco Javier: *Descripción del Reino de Granada, sacada de los Autores Arábigos*. Granada, 1872.

Simonet, Francisco Javier: *Glosario de Voces Ibéricas y Latinas*.

Simonet, Francisco Javier: *Historia de los Mozárabes de España*.

Steinschneider: *Die arabische Ubersetzungen aus dem Griechischen*, in Beihefte zum Centralblatt für Bibliotekswesen, V (1890), 18-19.

Stevens, H. N.: *Ptolemey's «Geography»:* a brief account of the printed editions to 1730. 2ª edition, 1908.

Tallgren, Tuulio: *Du Nouveau sur Idrīsī*.

Terés, Elías: *Linajes Árabes en Al-Andalus*. Segunda parte Al-Andalus, XXIII, fasc. 1, 1958.

Tomaschek, Wilhelm: *Zur Kunde de Hámus-Halbinsel*. Die Handelswege im 12. Jahrhundert Nach der Ehrkundigungen des Arabers Idrīsī Apud Sitzungsberichte der Philosophisch-Historischen Classe der Kais. Akademie der Wissenschaften, vol. 113, Vienna, pp. 275-373.

Tomaschek, Wilhelm: *Zur historischen Topographie von Gleinasien im Mittelalter Apud Sitzungsberichte der Kais*. Akademie der Wissenschaften in Wien (phil-hist. Classe), 124 (1891).

Vidal de la Blache, P.: *Géographie Universelle.* Vol. VII, 1ère partie (1934).

Von Rosen Kunik, A.: *Izvestija al-Bakri i drugich avotrov o Rusi i Slavjanach.* St. Petersburg, 1878.

Vollers, K.: *Bericht über die Handschriften und das Leben des Ahmad ibn Ṭūlūn.* Berlin, Felber, 1894.

Vollers, K.: *Fragmente aus dem Mugrib des Ibn Sa'īd,* I, Berlin, 1894.

Vollers, K.: *Note sur un manuscrit arabe atribué à Maqrīzī,* dans Bulletin de la Société Khediviale de Géographie, IIIe Série, Le Caire, 1893, pp. 131-139.

Von Schack, A. F.: *Geschichte der Normannen in Săcilien.* Stuttgart, 1889.

Wiet, Gaston: *Un resumé d'Idrīsī* dans Bulletin de la Société Royale de Géographie d'Egypte, tome XX, 2a, fasc. 1939, pp. 161-210.

Wűstenfeld, Ferdinand: *Geographische Wőrterbuch des Abū Obeid Allāh ibn 'Abd el-Aziz al-Bekri,* nach den Handschriften zu Leiden, Cambridge, London und Mailand. Gőttingen-Paris, 1876-1877.

Youssouf Kamāl : *Monumenta Cartografica Africae et Aegypti.* Leiden, 1935.

أسماء الكتب الوارد ذكرها فى الكتاب

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

كشاف عام

« خ »

« ش »

« ظ »

« ع »

« و »

محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

صفحة

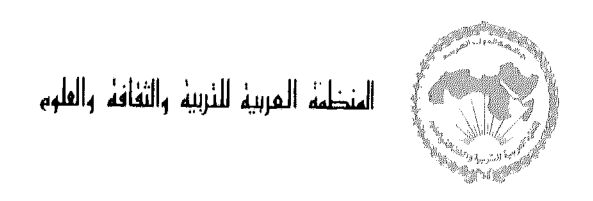
صفحة

صفحة

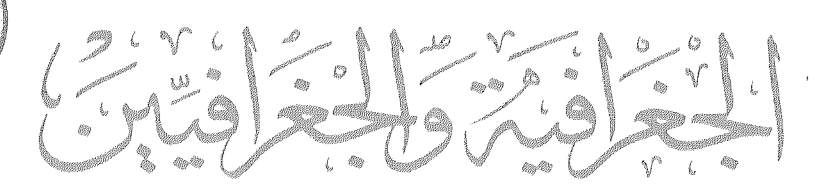
صفحة

الفهارس والمراجع

المطبعة الفنية ت : ٩١١٨٦٢
PRINTED BY: *technical press* CAIRO.



تاريخ



في الأندلس

بحث في المملكة العلمية العربية عن طريق
تاريخ علم واحد في بلد عربي واحد

تأليف

بسين مؤنس

ع اللغة العربية بالقاهرة
لامي بكلية الآداب بجامعة القاهرة
سات الإسلامية في مدريد سابقا

لطبعة الثانية
ا هـ ــ ١٩٨٦ م

مكتبة مدبولي

تاريخ
الجغرافية والجغرافيين
في الأندلس

الطبعة الاولى
مدريد ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٧ م

●

الطبعة الثانية ١٩٨٦

تاريخ
الجغرافية والجغرافيين
في الأندلس

تأليف

حسين مؤنس

أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب بجامعة القاهرة

مدير معهد الدراسات الإسلامية في مدريد — سابقا

عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة



تقـديـــم

د. محيى الدين صابر
المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

كان فضل العلماء العرب كبيرا فى مجال علم الجغرافيا. فكانوا فيه روادا، شأنهم فى كثير من مجالات المعرفة الانسانية؛ وقد كانوا يطلقون عليه علم «تقويم البلدان» و«المسالك والممالك».

ولقد كان الاندلس هو الجناح الثقافى العربى الثانى، فى تكامله مع وثبة الفكر العربى وريادته وعطائه وابداعه فى المشرق. وقد نبغ فى الاندلس من العلماء العرب، فى كل ميادين الفنون والعلوم، كثيرون.

ومن الميادين العلمية التى أسهم فيها الاندلسيون اسهاما واسعا، التاريخ والجغرافيا، وهما صنوان، فى تصورهما للحياة فى الزمان والمكان.

ومن أبرز الجغرافيين العرب، وطلائعهم فى الاندلس أحمد بن محمد الرازي، الذي نشأ فى قرطبة فى القرن الرابع الهجري ـ العاشر الميلادي، وهى يومئذ مركز اشعاع حضارى عالمى، وقد شارك فى ترجمة كتاب هروشيش الى العربية، وعنوانه: «كتب التواريخ السبعة فى الرد على الوثنيين» وفيه معلومات عن تاريخ الرومان وآراء الاقدمين فى شبه الجزيرة الايبيرية، الى جانب وصفه هولها، بحكم كونه اندلسى المولد والنشأة والوطن.

وقد ألف الرازي فى جغرافية الاندلس. فهو فى كتابه «اخبار ملوك الاندلس» يحدد موقع شبه الجزيرة الايبيرية من الاقاليم، وهيئتها، فيقول انها هيئة «مركنة ذات ثلاثة اركان» أي مثلثة، ثم يعقد فصلا لمناخ شبه الجزيرة، و يقسم الاندلس الى اقليمين متباينين من حيث المناخ «فى اختلاف هبوب ارياحها، ومواقع امطارها، وجريان انهارها: أندلس غربى، واندلس شرقى، فالغربى منها ماجرت أوديته الى البحر المحيط الغربى، وتمطر بالرياح الغربية، والحوز الشرقى المعروف بالاندلس الاقصى، وتجري أوديته الى الشرق، وأمطاره بالريح الشرقية». ثم يتحدث عن أنهار الاندلس وجباله بدقة علمية هى موضع تقدير العلماء المعاصرين، فاذا فرغ من هذه المعلومات عن جغرافية الاندلس الطبيعية، انتقل الى القسم الاكثر أهمية وهو جغرافية الاندلس السياسية والبشرية، فقسم الاندلس الى كور ومدن، ثم تناولها بالوصف العلمى الشامل، بحيث لا يمكن أن يضاف اليوم الى وصف جغرافى جامع مختصر للاندلس الاسلامى شىء كثير مما فعل فى كتابه.

على أن القرن الممتد من ٤٥٠ ـ ٥٥٠ هـ (١٠٥٨ ـ ١١٥٥) م يعتبر فترة متميزة من تألق الانتاج الفكري الاندلسى، يتمثل ذلك فى صورة التأليف العلمى ودقته وتخصصه، وفى وفرة انتاج اعلام الكتاب والمؤلفين والباحثين، وفى تكامل الجهود فى مختلف ضروب العلم حتى لايكاد يخلو ضرب منه، من مؤلفات مجيدة مبرزة. وتجلى ذلك بخاصة فى الرسائل المختصرة التى تعالج موضوعا بعينه، بحيث أصبحت تلك الدراسات فنا مستحدثا: منهجا واسلوبا وموضوعا.

ڨ هذه الحقبة ظهر الشريف الادريسى وهو بحق أول جغراڨ متخصص ڨ هذا العلم ، فلقد فاق ڨ هذا الميدان بطليموس ، وزاد عليه ، وأخرج ڨ الجغرافية مالم يخرجه عالم قبله ، وبذلك رفعها الى مصاف العلوم الميدانية ، منهجا وتناولا ، واستيعابا ...

وظهر قبل الرازي وبعد الادريسى اعلام من الجغرافيين الاندلسيين ، منهم على سبيل المثال قاسم بن أصبغ البيانى ، والوراق أبو عبد الله محمد بن يوسف ، وابراهيم بن يعقوب الطرطوشى ، وأحمد بن عمر بن أنس العذري ، وأبو عبيد البكري ، وعبد الله بن ابراهيم بن وزمر الحجاري ، وابن بشكوال ، واليسع بن عيسى بن حزم الغافقى ، وأبو حامد الغرناطى وسواهم كثيرون .

وقد عكف على دراسة موضوع الجغرافيا والجغرافيين ڨ الاندلس المؤرخ العربى الاستاذ الدكتور حسين مؤنس ، حين كان مديرا لمعهد الدراسات الاسلامية ڨ مدريد ، ڨ فترة من السنوات الستينات . وكان من حصاد بحوثه ودراساته ، هذا الكتاب الذي نشره للمرة الاولى ڨ مدريد لسنة ١٣٨٦ هـ ــ ١٩٦٧ م ، بعنوان « تاريخ الجغرافية والجغرافيين ڨ الاندلس » .

ولأهمية هذه الدراسة ، وعمقها ، واضافتها الجديد ، ڨ إسهام الفكر العربى ڨ تاريخ العلوم ، استأذنت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، الاستاذ المؤلف ڨ اعادة طبع الكتاب ، وقد وافق كريما ، بعد أن أضاف الى الطبعة الاولى ، ما رآه محققا لهدف الكتاب .

وإنى ، اذ أقدم هذا السفر الجليل ، ڨ طبعته الجديدة المنقحة ، الى القارىء العربى ڨ اعتزاز ، بما يمثله من منهجية علمية ، ومن جهد أمين ، قام عليهما قادرا المؤرخ العربى الكبير ، الصديق الاستاذ الدكتور حسين مؤنس ، اضافة جديدة إلى ما أسهم وأبدع و يسهم و يبدع به ڨ الثقافة العربية الاسلامية ، فانى أتقدم اليه بالشكر المستحق على العمل النافع الذي قدمه لامته ولثقافتها .

والله يعين على الخير و يهدي اليه .

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، الرحمة المهداه .

أما بعد ، فقد صدرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب فى مدريد فى يناير سنة ١٩٦٧ ، ولقيّت لأول صدورها من حسن قبول الناس ماعوضنى خير العوض عن الجهد الشاق الذى بذلته فى كتابته . وقد فتحت به بابا جديدا من ابواب البحث فى تاريخ الجانب العلمى من الحضارة الاسلامية الزاهرة ، فأن الجغرافية كانت من ابواب العلم التى أجاد المسلمون فيها بل ابدعوا ، وقد ذهب بعض الباحثين الغربيين إلى ان الاغريق والرومان سبقوا العرب فى وضع اساس هذا العلم ، وزعم بعضهم أن العرب اخذوا علم الخرائط ورسمها من الاغريق ، وان خرائطهم قامت على اساس خرائط بطلميوس ، فأثبتنا فى هذا الكتاب بالبرهان العلمى القاطع ان الخرائط التى تنسب إلى بطلميوس القلوذى Claudios Ptolemaios هى اساسا خرائط الادريسى . فأن خرائط بطلميوس ضاعت ولم يعتر عليها ، واثبتنا ان الخرائط التى نشرها ايرازموس ومن جاء بعده من الذين تولوا نشر جغرافية بطلميوس وخرائطها ابتكروا هذه الخرائط ورسموها على اساس من خرائط الادريسى ، وبهذا يكون الشريف الادريسى اول من رسم خرائط للارض والاقاليم وصلت إلينا .

وقد ادخلنا الادريسى فى زمرة الجغرافيين الاندلسيين لأنه ينحدر من شجرة الحموديين الادارسة المالقيين الاندلسيين ، وهو قمة الجغرافية الاسلامية — مشرقية ومغربية واندلسية — وخصصناه لهذا بدراسة موسعة فى كتابنا هذا ، ولهذا ايضا فقد ادخلنا بين الجغرافيين الاندلسيين محمد بن عبدالمنعم الحميرى وابنه محمد مع انهما مغربيان من سبته ، ولكنهما ينحدران من شجرة العلم الاندلسى ، وقد صنف ابن عبدالمنعم الحميرى معجمه الجغرافى المسمى «بالروض المعطار فى خبر الاقطار» شاملا العالم الاسلامى كله ، ولكن مواده الاندلسية من أوفى مالدينا عن الاندلس ، فاستحق الحميرى بهذا ان يُسْلَكَ فى نظام الجغرافيين الاندلسيين .

وقد تفضلت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم فتبنت إعادة طبع هذا الكتاب الذى نفدت طبعته الاولى من زمن طويل واشتدت الحاجة اليه . ولما كان صلب الكتاب سليما لم ينقصه شيء ذو بال من تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الاندلس ، فقد رأينا ان يكون الطبع بطريق التصوير (الاوفست) بعد تصحيح الاخطاء المطبعية وتعديل بعض الفقرات . وجعلنا ما طرأ لنا من الاضافات الطويلة ، وكذلك الكلام على ما أضاف الباحثون الآخرون بعدنا من ابحاث ودراسات قيمة وما تضمنته من معلومات ودراسات ظهرت بعد طبع كتابنا ، جعلنا ذلك كله فى ملاحق اضفناها ذيولا فى آخر الكتاب ، واشرنا الى كل ذيل فى الفصل الخاص به فى صفحات المتن ، ولهذا فأننا نرجو القارىء أن ينظر فى الملاحق وهو يقرأ المتن حتى لا يقع فى أذهان بعض الاخوة أننا لم نطلع على ما كتبوا أو اغفلناه ، ونحن والحمد لله أبعد مانكون عن ذلك .

ولم نستطع أن نزيد عدد الخرائط المنشورة فى ذيل الاصل ، ولكننا استكملنا ذلك فى باب « علم الخرائط الجغرافية عند المسلمين » من « اطلس التاريخ الاسلامى » الذى يظهر هذا العام إن شاء الله .

وقد نشرنا بعد ظهور الطبعة الاولى من ذلك الكتاب نص وصف الادريسى لمصر مقتبسا من الطبعة الكاملة لنزهة المشتاق التى نشرتها جمعية المستشرقين الايطاليين ، وكان لى شرف المساهمة فيها بنشر الأجزاء الخاصة بمصر ، ثم عدت بعد ذلك فنشرت ترجمة انجليزية لها مع تعليقات منا منافية عليها فى عددين متتاليين من مجلة Studi Maghibini الايطالية .

وبعد فلا يسعنى فى ختام هذا التقديم للطبعة الثانية الا أن أشكر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومديرها الأخ الكريم العلامة الدكتور **محيى الدين صابر** على التفضل بأعادة نشر هذا الكتاب ، واخراجه فى ذلك الثوب القشيب بعناية السيد ابراهيم فريح ومطبعته الفنية بالقاهرة .

والحمد لله فى البداية والنهاية ، فهو سبحانه من وراء القصد والنية وهو الموفق إلى كل خير وصاحب كل نعمة ، وباسمه بدأنا وباسمه نختتم .

د . حسين مؤنس
عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة
الاستاذ بجامعة القاهرة

القاهرة ، جمادى الأولى ١٤٠٦
يناير ١٩٨٦

مقدمة الطبعة الاولى

كلامنا عن العلوم عند العرب كثير ، وحديثنا عن فضلهم على الحضارة العالمية أكثر ، ولكننا إذا استثنينا قلائل منا صرفوا العناية إلى التأليف فى العلوم عند العرب وخدموا هذا المطلب بالبحث والتأليف من أمثال أحمد عيسى ومصطفى نظيف ومصطفى الشهابى ونفيس أحمد وركى وليدى وبهجة الأثرى وقدرى حافظ طوقان ونقولا زيادة وغيرهم من أجلاء العلماء ، وجدنا أن معظم ما نفخر به فى هذا المجال إنما هو من كشوف غيرنا من أمثال جيورج روشكا وهانز فون مجيك وجورج سارتون ونرنو نالالينو وبول كراوس وألدو مييلى وهاينريش سوتر وماكس مايرهوف وكونراد مللر وخوان بيرنيت وغيرهم كثيرين جداً ممن انفقوا — وينفقون — العمر فى دراسة المخطوطات العربية فى العلوم وحل رموزها وإثبات فضل العرب وأهل الإسلام على هذا العلم أو ذاك بالحجة البالغة والبرهان الناطق .

وهذا هو الذى حدانى إلى تجشم متاعب تأليف هذا الكتاب ، فقد رأيت أن واجبنا نحو العلم الذى نخدمه ونحو العرب الذين ننتسب إليهم أن نؤدى واجب العرفان بالجميل نحو رجال أكرمونا بجهودهم ورفعوا مقامنا بين الأمم بما وصلوا إليه من الفتوح فى ميادين العلوم .

ورأيت فى نفس الوقت أن أجعل هذا العمل بحثاً فى المكة العلمية العربية وحدودها وطاقاتها وما استطاعت الوصول إليه ، فان نفراً من الناس زعموا أن دَور العرب فى ميدان العلوم دور نقــل ولا زيادة : تسلموا من اليونان والهنود والفرس وغيرهم ، ثم أسلموا ما نقلوا كما هو إلى شعوب أوربا عند النهضة ، فبدا لى أن أقطع الشك باليقين عن طريق دراسة كاملة فى تاريخ علم أملك وسائل دراسته ، ثم أعرض النتائج بعد ذلك على الناس ليروا بالدليل الواقع مبلغ ما وصلت إليه العبقرية العربية فى الميدان الأكبر لتفاضل الأمم وهو العلم كما يقول صاعد بن أحمد الطليطلى رحمه الله .

وقد اخترت الجغرافية إذ هى توأم التاريخ فى طبيعتها وتاريخها ؛ ثم إن لى إليها مداخل وبها اتصال بحكم العمل فى التاريخ ، وقد رأيت مع هذا أن أبدأ بدراسة العلم الجغرافى نفسه وأقرأ فيه بتوسع لأعرف حقائقه ومعناه ومناهجه وأهدافه وحدوده وأبعاده وتاريخه ، فقرأت فى ذلك ما تيسر من أعمال ديمارتون وفلير وفيدال لبلاش وهمبولت ومن فى طبقتهم من أعلام الجغرافيين المحدثين ، وعلى هدى ما قرأت مضيت فى أعقاب الجغرافيين العرب ، واقتصرت منهم على أهل الأندلس ، لأننى قدَّرْتُ أن الاقتصار على بلد عربى واحد أحرى بأن يوفى بى على ما طلبت من الاتقان والشمول ، وأعان الله فوجدت المادة ذات سعة والمحصول وافراً فمضيت على بركة الله .

وقد طال البحث وامتد وتشعب ، فمضيت معه حيث تطلَّب ، وخرجت منه آخر الأمر بأن فضل العرب على العلم الجغرافى يفوق فى الحقيقة كل ما قيل إلى يومنا هذا ، فإن كل ما وصل إليه مُجِيك وكراتشكوفسكى وكرامرز ودوبلر لم يتعد الظاهر فى معظم الحالات ، ولا نقول هذا غمطاً لجهود أولئك الأساتذة الأجلاء ، فنحن العرب نعرف الفضل وأهله ،ولا ننكر لأحد يداً مهما صغرت ولكن لكل رجل حدوده ، ومن الشطط أن نطلب إلى رجل مثل كرامرز

أن يقرأ كل ما كتب أبو عبيد البكرى مثلا ليقدر ملكته الجغرافية تقديراً سليماً ، فقد كتب البكرى مئات الصفحات فى ذلك العلم ، ولم يكن من الممكن بداهة أن يقرأ كرامرز ذلك كله ، وهو مشكور ألف مرة على ما فعل .

أقول اننى خرجت من هذا البحث بأن دور العرب فى تاريخ العلوم أكبر وأوسع مما كنا نقول ، لأن ما وصل إليه الجغرافيون فى بلد عربى واحد — هو الأندلس — يعتبر بالفعل صفحة بيضاء تزهى بها الانسانية كلها . والجغرافية كانت فى العصور الوسطى علماً لا يدر كسباً ولا يخلع على صاحبه جاهاً أو يفتح له طريقاً فى الحياة ، وقد كنا نقول أن دافع العرب إلى الاشتغال بالجغرافية هو معرفة طرق الحج ، فثبت لنا من هذا البحث أن أدلاء القوافل ما كانوا يقرأون كتب الجغرافيين أو أوصاف الرحلات ، ولعل معظمهم لم يسمع فى حياته باسماء مثـــل ابن خرداذبة أو ابن رسته أو البكرى أو الإدريسى ، لأنهم — أى الادلاء — يسيرون فى الطرق بفضل التجربة والمشاهدة لا بقراءة الكتب ؛ ثم ان كتب الجغرافية لم تكن مما يدرس فى حلقات الشيوخ ، ولم يكن التجويد فيها مما يحشد أصحابها فى زمرة العلماء ، بل كان حرياً بأن يسلكهم فى جملة الخليين الذين يصرفون جهدهم إلى ما لا ينفع ، وقد بلغ الأمر بأحد المشتغلين بالجغرافية وهو محمد بن عبد المنعم الحميرى إلى حد أن اعتذر فى فاتحة كتابه عن اشتغاله بتأليف المعجم الجغرافى المعروف باسم « الروض المعطار فى خبر الأقطار » وقال — كأنه يطلب الصفح عن جرم ارتكبه : « ومع هذا فقد لمتُ نفسى على التشاغل بهذا الوضع الصاد عن الاشتغال بما لا يغنى عن أمر الآخرة والمهمِّ من العلم المُزْلِف عند الله تعالى ، وقلت : هذا من شأن البطالين وشغل من لا يهمه وقته ؛ ثم رأيت ذلك من قبيل ما فيه ترويح لهذه النفوس ، ومن حسن تعليلها بالمباح حتى تنشط إلى ما هى به أعنىٌ ، ثم هو مهيع يسلكه الناس واعتنى به طائفة من العلماء وقيده جماعة من أهل التحصيل ، فلا حرج فى الاقتداء بهم بل أقول : أعوذ بالله من علم لا ينفع ! وأستغفره وأستقيله ،

وأسأله التجاوز عن الهفوات ، والصفح عن الاشتغال بما لا يفيد فى الآخرة ، فيارب عفواً عن اقتراف ما لا رضى لك فيه ، فأنت على كل شيء قدير ! » .

ومن هنا فإن الذين طلبوا الجغرافية وألفوا فيها من العرب إنما دفعهم إلى ذلك الشغفُ بالعلم والرغبة فى المعرفة لوجهها لا لكسب أو جاه ، ومن هنا يكون اشتغال العرب بها دليلا ناطقاً على ملكة علمية أصيلة فى نفوسهم ، ويكون ما وصلوا إليه من الفتوح ثمرة النزوع العلمى الصادق والرغبة فى كشف المجهول وتبديد الظلمات ، وهذه أجل نزعة عند البشر وأكثرها دليلا على إنسانية الإنسان .

وإذا كان هذا مبلغ ما وصلت إليه الملكة العلمية العربية فى ذلك العلم رغم ذلك ، فما بالك بما وصلت إليه فى علوم كانت تدر الأرزاق وتفتح أبواب الجاه كالطب والأعشاب والهندسة والكيمياء والفقه والأدب والتاريخ وما إليها ؟

إلى هنا أقف بهذا التقديم ، إذ لا معنى للأطالة والكتاب بين يدى القراء يقرأون فيه ما يشاءون متفضلين ، رزقه الله منهم القبول .

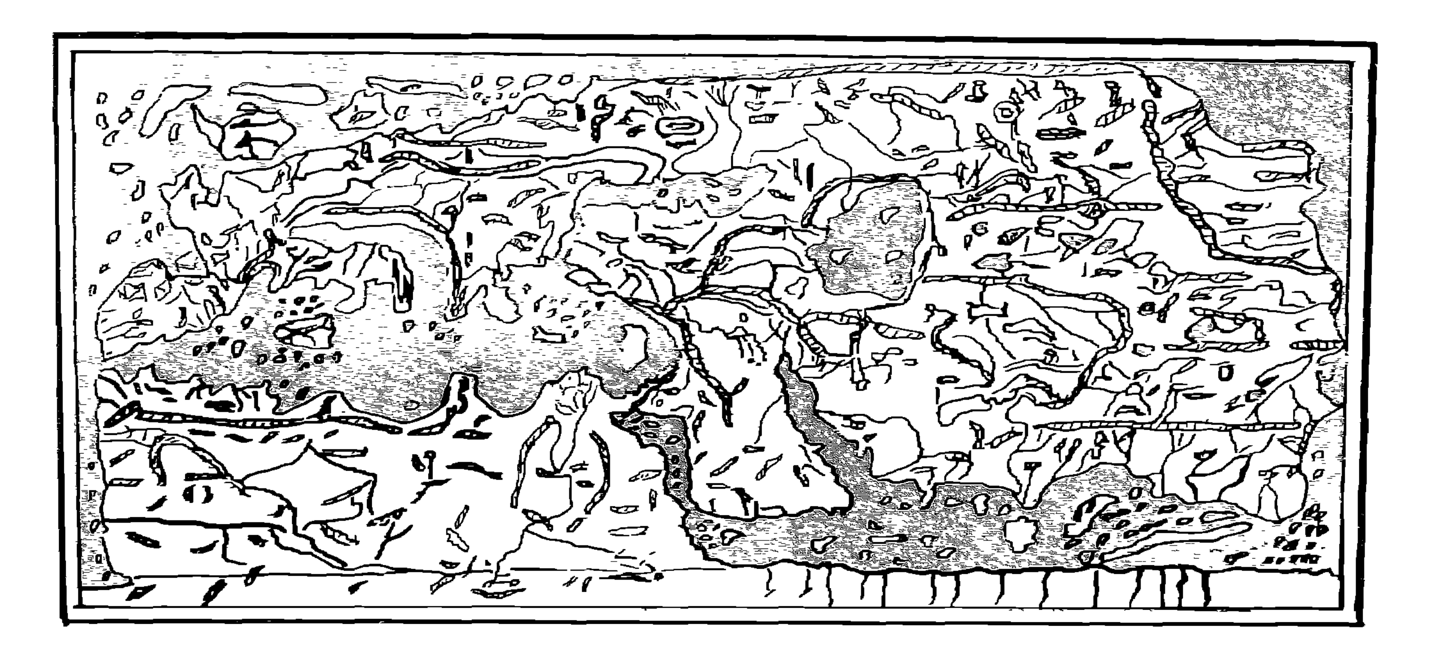
هذا وفاء بدين نحو الماضين ، فأرجو أن يكون جديراً بما طلبتُ به وأهلا لأن يهدى إلى الناس فى عصر العلم والنور .

وقد وقفت على تصحيح تجارب الطبع بنفسى ، ونُورُ البصر قليل ، فربما شرد خطأ فى لفظ أو وقع سهو فى اسم عَلَمَ فاسأل القارىء التجاوز ، وأقدم له الشكر الصادق على تحمل عناء الرحلة فى هذه الصفحات .

والله المستعان سبحانه ، له الحمد والمنة فى البداية والنهاية ، والسلام ؟

مدريد فى رمضان ١٣٨٦ الموافق يناير ١٩٦٧

حسين مؤنس



(١) صورة الأرض للادريسى ، نقلا عن رسم لها نشره المجمع العلمى العراقى

رجاء إلى القارىء الكريم

اضفت فى نهاية هذه الطبعة الثانية تعقيبا استدركت فيه اهم ماجد فى ميدان دراسات الجغرافية فى الاندلس منذ صدور الكتاب فى طبعته الاولى. فارجو القارىء التفضل بمراجعة هذاالتعقيب ومواد هذا التعقيب مرقمة بحسب ترتيب فصول هذا الكتاب ،

« المؤلف »